شمس المغرب

سيرة الشيخ الأكبر
محيي الدين ابن العربي
ومذهبـــه

تأليف

د. محمد علي حاج يوسف

تقديم فضيلة الشيخ

رمضـــان صبحـي ديـب

شمس المغرب

سيرة الشيخ الأكبر

محيي الدين ابن العربي

ومذهبه

تأليف

د. محمد علي حاج يوسف

تقديم

فضيلة الشيخ رمضان صبحي ديب

الطبعة الأولى

٢٠٠٦

شمس المغرب

سيرة الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي ومذهبه

المؤلف: الدكتور محمد علي حاج يوسف.

العنوان: شمس المغرب، سيرة الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي ومذهبه.

الطبعة: الأولى ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م.

رقم الكتاب: /٧٩/.



فصلت للدراسات والترجمة والنشر

الكلمة لبناء الإنسان وإخصاب الوطن

حلب عاصمة للثقافة الإسلامية

سورية، حلب، ص.ب: ٨٢٦٠، هاتف: ٢١١٧٠٢٦، فاكس: ٢١١٢٩٨٩

S.A.R. Aleppo. P.O.Box: 8260. Tel: +963-21-2117026. Fax: +963-21-212989

www.fusselat.com e-mail:info@fusselat.com

13.12.2006

تقديم من فضيلة الشيخ رمضان صبحي ديب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المتفضّل على عباده بجزيل عطائه، غامر القلوب بمنّته وإحسانه، لا يحدّه حدٌّ، ولا يصل إلى كُنه صفاته عدٌ؛ إنّه الله الواحد الأحد، المتفرّد بملكوته، تتسامى القلوب في مراقي محبّته، وتتنافس العقول في مراتب معرفته، وتفنى الأجساد في ظلّ طاعته وعبادته...

والصلاة والسلام على سيّدنا محمّد النبيّ الأميّ الذي اصطفاه الله سبحانه وتعالى إماماً للمتقين ورحمة للعالمين، وقائداً للغرّ المحجّلين.

أمّا بعد:

فقد طلب مني الأخ الفاضل الدكتور محمّد علي حاج يوسف أن أقدّم لكتابه (شمس المغرب) المتعلّق بسيرة الشيخ محيي الدين ابن العربي ومذهبه، فوجدته قد بذل جهداً كبيراً في جمع المعلومات الهامة عن حياة ومذهب هذا الشيخ، ووضعها بين يدي القارئ سهلة المنال أمام من يحتاج إليها ويستفيد منها، خصوصاً وأنّ الخوض في مثل هذا الموضوع شائقٌ وشائكٌ بنفس الوقت، وفيه خلاف بين ذوي الآراء: فمن مؤيّدٍ، ومن معارضٍ، ومن مصدّقٍ، ومن منكرٍ بل بين معدّلٍ ومكفّرٍ، استطاع المؤلّف وفّقه الله أن يتخلّص من هذه المعضلة بأسلوبه الموضوعي العلمي، البعيد عن التطرّف أو التعصّب؛ فقد راح يسرد حياة الشيخ ومذهبه دون أيّ تعليق شخصي ينمّ عن رأيٍ خاص، بل غالباً ما يترك التدخّل والتعليق على ما يذكر من الروايات التي هي غالباً واضحة السند، أو على الأقل واضحة المصدر الذي أخذ منه الرواية.

إن معرفة شخصية كشخصية الشيخ محيي الدين ابن العربي فيها خدمة جليلة للمسلمين بما فيهم مؤيّدهم ومعارضهم، فالمسلم جدير أن يتعرّف على الشيء قبل أن يحكم عليه أو قبل أن يسمع حكم الآخرين، فيصفّق لما يقولون دون أن يعرف كُنه الحقيقة، ودون أن يبحث ويتمحّص ويكون له رأي مبنيّ على محاكمة سليمة للأمور... يأخذ المفيد فينتفع به ويدع الغثّ جانباً.

إننا اليوم بحاجة للنظر إلى الأشياء بعين الجدّيّة، ومحاكمة الأمور بعين الموضوعية، بعيداً عن التعصّب والتطرّف، فما وجدناه يوافق القرآن والحديث اتّبعناه، وما وجدناه يعارضهما أبعدناه، ولنعد إلى الحديث القائل: [إِنَّ هَذَا العِلْمَ دِينٌ. فَانْظُرُوا عَمَّنْ تَأْخُذُونَ دِينَكُمْ.] (أخرجه مسلم).

رحم الله مشايخنا، وجزى الله الأخ المؤلف خير الجزاء عنّا وعن المسلمين، ووفّقه الله لمزيد العمل والعطاء، إنه سميع مجيب.

الشيخ رمضان صبحي ديب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال الله تعالى في سورة فاطر: (إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ...﴿٢٨﴾)، وقال أيضاً في سورة الزمر: (قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴿٩﴾). وذكر ابن القيم في كتاب العلم أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: "مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَطْلُبُ فِيهِ عِلْماً سَلَكَ الله بِهِ طَرِيقاً مِنْ طُرُقِ الجَنَّةِ، وَإِنَّ المَلائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضاً لِطَالِبِ العِلْمِ، وَإِنَّ العَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالحِيتَانُ فِي جَوْفِ المَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ، وَإِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَاراً وَلا دِرْهَماً، وَرَّثُوا العِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ".[1] وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أيضاً في الحديث الذي صححه السيوطي: "خمسٌ مِن العبادة: قلّةُ الطعمِ، والقعودُ في المساجدِ، والنظرُ إلى الكعبةِ، والنظرُ إلى المُصحفِ، والنظرُ إلى وجه العالِمِ".[2]

فهذه محاولة متواضعة لرشّ بعض النور على جوانب حياة رجلٍ جليلٍ من علماء المسلمين كرّس حياته للعلم والمعرفة فوهبه الله منها الحظَّ الوافر والقدْرَ العظيم، وقام هو بدوره ببثّ هذا العلم في كتبه العظيمة قالباً وقلباً، فأنار بها العالم كلّه شرقاً وغرباً.

---

[1] سنن أبي داود، الإمام الحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية-بيروت، ١٩٧٠، كتاب العلم، ص٣١٧، حديث رقم: ٣٦٤١.

[2] الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، الإمام جلال الدين بن أبي بكر السيوطي، دار الكتب العلمية-بيروت، ١٩٩٠، المجلد الثاني، باب حرف الخاء، ص٧.

ونريد من خلال دراسة سيرة هذا العارف الجليل أن نستكشف بعض هذه العلوم والمعارف التي أهداها لنا الله على يديه والتي وقف عندها العلماء والفلاسفة حائرين حيناً ومعجَبين حيناً وعاجزين في أغلب الأحيان عن الخوض في بحارها واستخراج جواهرها ومكنوناتها.

لقد وَهب محمّدُ ابن العربي حياته كلّها لتحصيل العلم والمعرفة، ولكنه لم يسلك في ذلك طريق الفكر والنظر مثل عامة العلماء على جلال قدرهم، وإنما سلك طريق التقوى التي هي الشرط الوحيد حتى يتولى اللهُ سبحانه وتعالى عباده بالتعليم، كما قال عزّ وجلّ في سورة البقرة: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾، وقال أيضاً في سورة الأنفال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ...﴿٢٩﴾﴾، أي ما تفرّقون به بين الحقّ والباطل. فمَن حقّق شرط التقوى حصّل الغاية العظمى من المعرفة الإلهية التي هي النور الحق المبين.

وهذه المعرفة التي تحصل بالتقوى هي المعرفة الكشفية الذوقية الوهبية عن طريق أرواح الأنبياء والملائكة الكرام الذين ينهلون من بحر المعرفة الأبدية محمّد صلّى الله عليه وسلّم، وهي معرفة يقينيّة تُدرَك بالبصيرة ولا يُداخلها الشكّ، بخلاف بقية العلوم النظرية المبنيّة على الفكر الذي يصيب حيناً ويخطئ في أغلب الأحيان، والفرق بينهما كالفرق بين من يذوق العسل ومن يقرأ عنه في الكتب أو يسمع عن وصفه ممّن ذاقه، فالأخير ربما يقارب الحقيقة بعد جهد وعناء وهو ليس فيها على يقين، وأما من ذاق فتحصل له المعرفة الضروريّة اليقينيّة بمجرّد الذوق وبلا جهد ولا تعب بل مع لذّة وهناء، ولكن بشرط سلامة المحل؛ فربما يذوق العسل من في فمه مرضٌ فيمجُّه ولا يستسيغ طعمه.

وبما أنّ المعرفة تحصل في النفس والقلب عن طريق الروح فإنه لا بدّ من تصفية القلب وتعديل المزاج وتزكية النفس حتى تكون محلاً مستقبلاً وقابلاً ثم جامعاً وواهباً لهذه المعرفة. ومن هنا جاء التصوّف الإسلامي الصحيح المستند على أُسس الشريعة الإسلامية لتصفية النفس من كدورتها وشهواتها الطينيّة، وتصفية القلب من تعلّقه بالدنيا وطاعته العمياء للنفس القويّة المتمرّدة، وتزكية الروح لإصلاح علاقتها بأصلها وجوهرها الذي هو الروح القدسي الإلهي، وتحليلها من قيودها التي حصلت لها لارتباطها بهذا الجسد الفاني. فإذا حصل ذلك كان الرجوع إلى الله تعالى، وهو التوبة الحقيقية، فيدخل القلب على الحضرة الإلهية عبداً محضاً خالياً من تعلّقاته بفنائه عن الدنيا وعن كلّ ما سوى الله تعالى وليس ثم، ثم يخرج إلى العالم مكلّلاً ببهاء النور الإلهي محمّلاً بالمنح والعطايا، مليئاً بالإيمان العيانيّ اليقينيّ، فتصغر الدنيا في عينه ويزهد بها وبما يملك منها لأنّه يعلم يقيناً ومشاهدةً أنّ متاع الدنيا قليل ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾ [آل عمران].

وهذا الرجوع الحقيقي أو التوبة إلى الله سبحانه وتعالى ليست مجرّد لفظٍ وقول، بل هي فعلٌ جازمٌ مع استقامةٍ دائمة، وليس ذلك بالأمر اليسير الذي يمكن أن يحصّله كلُّ إنسان، بل يحتاج إلى هِمّة عالية وإرادة قويّة وضع الإسلام جميع الأسس الموصلة إليها مثل الصوم وجهاد النفس وغيرها، فالناس في ذلك على اختلافٍ كبيرٍ وطبقاتٍ عديدة؛ فمنهم من لا يُعير لذلك بالاً كأنّ الأمر لا يعنيه فيبقى منهمكاً في الدنيا

وملذاتها، ومنهم من يدرك الهول فيسعى إلى الملاذ، وهنا تتفاوت الهمم فيثبت الناصح وينكث الجامح، فمنهم من يدركُه التوفيقُ ومنهم من يخونُه الحظّ، ومنهم من ترفعُه العناية، ومنهم من يحطُّه القدَر، وكلُّ ذلك يتعلق بسلامة السريرة وحسن النيّة والإخلاص. ولا بدّ من مُعينٍ لأنّ الطريق طويل؛ فلا بدّ من الاستعانة بمن سلك الطريق من قبل وعرف مخاطره ومفاوزه وهو الشيخ المرشد الذي قد أذن له بالإرشاد إلى طريق الله تعالى عن طريق شيوخه الذين يتّصلون برسول الله صلّى الله عليه وسلّم بسلاسل الرجال الشيوخ عن طريق الصحابة المقرّبين رضوان الله عليهم أجمعين. وبما أنّ الطريق يتعلق كثيراً بسلوك القلب والروح فكثيراً ما يحصل الاتصال مع أرواح الملائكة والأولياء والأنبياء عليهم الصلاة والسلام سواءً في المنام أو في اليقظة فيوجّهون المُريد إلى الطريق السديد ويكونون له عوناً في الوقت الشديد.

ومع أنه قد التزم مع العديد من الشيوخ المرشدين في أول حياته وتربّى على أيديهم، إلا أنّ رجوع الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي رضي الله عنه إلى الطريق القويم في بداية شبابه كان على يد عيسى ابن مريم عليه السلام، وهو الذي تولّاه في جميع أموره، ثم بعد ذلك كان يتّصل رضي الله عنه بالأنبياء والرسل في المنام ومنهم رسول الله محمد صلّى الله عليه وسلّم. فقد ترك لنا العديد من الكُتب التي كتبها من إلهام الله تعالى له عن طريق الأرواح العليا، كما ختم خزانة كتبه التي حوت المئات من الكتب الفريدة بكتاب فصوص الحكم الذي ناوله إياه نبيُّنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم في رؤيا مبشرة رآه فيها في محروسة دمشق في العشر الأواخر من شهر محرم سنة ٦٢٧ للهجرة، فأبرزه كما هو من غير زيادة ولا نقصان؛ ذلك الكتاب الذي ملأ ذكره الآفاق وله مئات الشروح كما أنه تُرجم إلى العديد من اللغات، رغم وجود بعض العبارات المبهمة التي لا يستطيع الوصول إلى مكنوناتها ومراميها إلا من كان له قلب رشيد أو ألقى السمع وهو شهيد.

فنحن نريد من خلال هذا الكتاب أن نتعرّف على حياة هذا العالِم الجليل الذي شهد له القريب والبعيد وملأت كلماته الأوراق وأضاءت علومه الآفاق:

أشرقتْ في صفحاتِ الكتبِ	كلماتُ الشيخ ابنِ العربي
سافرَتْ أنوارها فوق المدى	بالهدى فأسفرتْ كالشهُبِ
واستقرّتْ في القلوب علومُها	وانطوى فيها ظلام الحجُبِ
واستوت كالشمس تبسط نورها	بعد أن طلعتْ في المغربِ [3]

التشبيه بالشمس

إن حياة الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي رضي الله عنه وسيرته تشبه إلى حدٍّ بعيدٍ رحلة الشمس في السماء، حيث تطلع كلّ يوم من جهة الشرق ثم تتسلق مرتفعة نحو بطن السماء، ثم تهبط حتى تغيب وراء الجبال والتلال البعيدة لتختفيَ عن أعيُننا من أجل أن تفاجئَنا من جديد في صبيحة اليوم التالي. غير أنّ ابن العربي سلك طريقاً مختلفاً وغير عاديّ، حيث طلعت شمسه من المغرب، في بلاد الأندلس، ثم

[3] من كلام المؤلف، وهو من بحر الرمل.

ارتحل، بعكس جهة الشمس، إلى المشرق حتى استقرّ الأمر به في الشام، وغابت شمسه هناك. ولقد تجلى ذلك في حياته وسلوكه، فكان أيضاً مختلفاً ومتميزاً عن جميع أقرانه من علماء الفقه والحديث والتفسير والكلام والفلاسفة؛ حيث يمكن أن نقول غير مبالغين أنه جمع بين جميع هذه العلوم المتفرّقة ففاق بها أهلها المتخصصين بها. فمن يدرس كتبه ويطّلع على مكنوناتها يجد عنده إلى كلّ علم باب وعلى كل سؤال جواب. فنحن لا نبالغ أبداً وكذلك ابن العربي لا يفاخر حين يشبّه نفسه بالشمس؛ فهو حقّاً عالمٌ جليلٌ، رغم أنّ الذين استطاعوا الغوص في بحار العلوم المبثوثة في كتبه لا يزالون قليل. يقول ابن العربي في ديوانه:

إذا شمسُ النفوس أرت ضُحاها ... تزايدت القلوب بما تلاها
تراها فيه حالاً بعد حالٍ ... ومجلاها الهلالُ إذا تلاها
وإنّي من حقيقته بسِرّي ... كمثلِ الشمس إذ تعطي سناها
فما أنا في الوجود سواهُ عيناً ... وما هم في الوجود بنا سواها
فتلك سماؤنا لمّا بناها ... وهذي أرضنا لمّا طحاها
من أجلي كان ربّي في شؤون ... وقد بلغت فواكهُهم أناها
سنفرغ منكمُ جوداً إليكمْ ... لتعطي نفوسكم منها مُناها
ويلحمها بذات منه لمّا ... علمت بأنها كانت سداها
يعذّبنا النهار سدىً وويلا ... وليلته يعذّبنا نداها
فغطّاها الظلامُ بسِرّ كوني ... وجلاّها النهار وما جلاها[4]

وهذا التشبيه أو الشبه بين ابن العربي والشمس ليس تشابهاً في الشكل والحركة، ولكنه تشابهٌ عميقٌ في المغزى والحقيقة، وهو ينسحب على الكثير من التفاصيل كما سنرى لاحقاً. في الحقيقة لقد بدأت رحلة ابن العربي، مثل الشمس، من المشرق، من الجزيرة، من منبع الإسلام، ومنبع الحضارات؛ غير أنه بدأ في الباطن – في عالم الذرّ – في ظهور أجداده من قبيلة طيءٍ التي اشتهرت، كالشمس، بالجود والسخاء والكرم. فانتقل الشيخ الأكبر محمد ابن العربي في ذراري آبائه من اليمن في جزيرة العرب إلى المغرب، إلى الأندلس، وكأنه كان على موعد هناك لكي يولد في جنة الله على الأرض؛ حتى تُرضعه الطبيعة أصفى لبنٍ وتوفد إليه أعذبَ نسيمٍ، وتهبه نفائس العلوم ودُرر المعارف، ليسري بها من جديد إلى مطلع الشمس في المشرق حتى تفيض مزيداً من النور وتهب مزيداً من العطاء.

فعلى عكس مسيرة الشمس، أشرقت شمس محيي الدين من الغرب، ثم ارتحل مقتفيا الطريق نفسه الذي أتى منه حين كان ما يزال في عالم الذرّ، وكأنه يريد أن يكشف لنا في تلك الدورة المعكوسة سرّ المعرفة؛ ذلك السرّ الذي يمثّل أساس العلاقة بين الحق والخلق، بين الوجود والعدم، بين الروح والجسم، بين النهار والليل، وبين النور والظلمة؛ فالله هو الذي ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى

[4] الديوان: ص١٦٣.

ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ)،[5] حيث يتبادل الباطن والظاهر الأدوار، فالكل يدور في أدوار، كما قال الله تعالى في سورة يس(وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾)، فيظهر الباطن ثم يعود الظاهر إلى الباطن، ويسافر الأول إلى الآخر ويعود الآخر إلى الأول، و(هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ)،[6] فـ(إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ)،[7] أي هو نفسه سبحانه وتعالى يبدأ الخلق ثم يعيده، (قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾)،[8] وهذا (أي بدء الخلق وإعادته وحركته الدورية)[9] هو أصل سرّ العلم الذي اختُصَّ به الشيخ الأكبر والذي أطلعنا على بعضه في كتبه وسكت عن أكثره إلا عن طريق الإشارة لفتح البريد أمام المريد:

خُصِصتُ بعلمٍ لم يُخصَّ بمثلهِ ... سِواي من الرحمن ذي العرش والكرسي
وأُشهِدتُ من علم الغيوبِ عجائباً ... تُصانُ عن التَّذكارِ في عالم الحِسِّ
فيا عجباً أني أروح وأغتدي ... غريباً وحيداً في الوجود بلا جِنسِ
لقد أنكر الأقوام قولي وشنّعوا ... عليَّ بعلمٍ لا ألوم به نفسي
فلا هُم مع الأحياء في نورِ ما أرى ... ولا هُم مع الأموات في ظلمة الرمسِ
فسبحان من أحيى الفؤاد بنوره ... وأفقدهم نورَ الهداية بالطمسِ
علومٌ لنا في عالم الكون قد سرت ... من المغرب الأقصى إلى مطلع الشمسِ
تحلّى بها من كان عقلاً مجرّداً ... عن الفكرِ والتخمينِ والوهمِ والحدسِ
وأصبحتُ في بيضاء مثلي نقيّةٍ ... إماماً، وإن الناس منها لفي لَبسِ[10]

---

[5] سورة الزمر: آية ٥.

[6] سورة الحديد: آية ٣.

[7] سورة يونس: آية ٤.

[8] سورة يونس: آية ٣٤.

[9] في الحقيقة فإنّ هذه الآيات وأمثالها في القرآن الكريم لا تتحدّث فقط عن إعادة الخلق يوم القيامة كما يُفهم من ظاهرها لأول وهلة، بل الله سبحانه وتعالى يبدؤ الخلق ثم يعيده في كلّ آنٍ من الزمن حيث يخلق السموات والأرض في ستة أيام أي في ست جهات وهي جهات الفضاء ذي الأبعاد الثلاثة، فنحن نرى الخلق مستمراً في الزمان وكأنّ الوجود يتجدّد عليه وهو ليس كذلك بل هو دائماً في خلق جديد وليس متجدد لأنه لا تكرار في الوجود ونحن في لبس من هذا كما قال الله تعالى في سورة ق (بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾) وذلك لأنه سبحانه وتعالى قال في سورة الكهف (مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾)، فلو شهدنا ذلك لرأينا كيف يخلق الله السموات والأرض ويخلقنا في ستة أيام ثم يستوي على العرش. وهذه العلوم القرآنية التي نطالعها في كتب الشيخ محيي الدين تعتبر بحق أساساً لرؤية كونية بديعة لم يتعرّض لها العلماء والفلاسفة قبل ابن العربي ولا بعده، وقد ناقشناها باستفاضة في الأطروحة التي نقوم الآن بإعادة صياغتها باللغة العربية وستنشر قريبا إن شاء الله تعالى.

[10] الديوان: ص٤٩.

فكانت رحلة ابن العربي بهذا الشكل الدوري المخالف لدورة الشمس، والمتميّز عن بقية الخلق، حتى يبيّن لنا هذه المعارف من الأسرار والآيات التي خفيت علينا مع أننا نعيش معها وفيها في كل يوم وفي كل حين.

وإذا لم يكن لابن العربي أي دور في اختيار مكان ولادته، فلا شكّ أنه اختار دمشق من بين بقية المدن، أقدم مدينة مأهولة في التاريخ، والشام من بين بقية البلدان، مهبط عيسى عليه السلام قبل يوم القيام، حتى يستقرّ فيها ويغيب كما تغيب الشمس في كل يوم. فاختار الشيخ الشام بالتحديد لأنها "خِيرة (أو صَفوة) الله من أرضه وإليها يَجتبي خيرتَه من عباده (فإنّ الله قد تكفّل لي بالشام وأهله)".[11] ولكن كما أنّ الشمس لا تلبث أن تطلع من بعد أن تغيب، وتسبح في فلكها في السماء، ليلا ونهارا، فكذلك محيي الدين، صاحب الوقت وقطب الزمان،[12] وخاتم دورة الولاية المحمدية، لا تزال شمسه ساطعة في الشرق وفي الغرب، وفي الجنوب وفي الشمال؛ فذكرُه وآثارُه عمّت الآفاق، وعلومه ومعارفه فاضت منها العقول، وأسراره لا تزال تتقلب فيها القلوب وتستريح فيها الأرواح. فكما أنه كان باطناً منذ القِدَم في علم الله أولا ثم في ظهور أجداده واحداً بعد الآخر، فلا يزال حيّاً في قلوب تلاميذه ومريديه، محبيه وعاشقيه، إن شاء الله إلى الأبد.

ولا أدري إن كنت بهذا الكتاب أول من يصف الشيخ الأكبر رضي الله عنه باسم "شمس المغرب"، والذي أعتقده أنّ هذا الاسم ينطبق عليه ويليق به اعتماداً على المؤشرات التي ذكرناها في هذه المقدمة، ولأنه كان حقّاً شخصيةً فريدةً تفوق الوصف وتكاد تكون فوق الخيال كطائر العنقاء[13] كما هو نفسه قد استخدم هذا الاسم لأحد كتبه البديعة (عنقاء مغرب في صفة ختم الأولياء وشمس المغرب) والذي سنأتي على ذكره داخل الكتاب إن شاء الله تعالى. وكما بيّن الباحث دنيس غريل في كتاب "ختم الأولياء" وكما ذكر الشيخ الأكبر نفسه أنه هو على الحقيقة ختم الولاية المحمدية، فهو المقصود إذاً بشمس المغرب، رغم أنّ هذا الاسم يشير أيضاً إلى المهدي عليه السلام كما سنرى في الفصل الرابع عند الحديث عن كتاب عنقاء مغرب.

ولقد ترددت قليلاً في اختيار اسم هذا الكتاب بين "شمس المغرب" و"رحلة العنقاء" مع أنّ الاسمين ربما يكونان متكافآن، ثم اخترت الاسم الأول حتى أؤكد أنّ هذه الشخصيات الفريدة التي يبدو لنا أنها لا تتكرر في تاريخ البشرية إنما هي على الحقيقة موجودة دائماً ولا يخلو منها الزمان ولكنها لا تكون دائماً ظاهرةً وواضحةً للعيان، وكثيراً ما تُنسى ولا تُعار أي اهتمام لأنها كالشمس تعطي نورها ودفئها للجميع ولا يشعر بوجودها المستمر إلا من يطلبها ويبحث عنها ويتابع سيرتها، فتارة تحتجب بالأرض وتارة يخسفها القمر وتارة

---

[11] انظر كنز العمال في سنن الأقوال و الأفعال، للعلامة علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي البرهان فوري، ضبطه وفسر غريبه بكري حياني، صححه ووضع فهارسه ومفتاحه صفوة السقا، مؤسسة الرسالة-بيروت، ١٩٧٩-١٩٨٦، رقم ٣٥٠٢٠. وكذلك ذكره ابن العربي في الوصايا وفي الفتوحات المكية وسنتكلم عن ذلك بالتفصيل في الفصل السادس إن شاء الله تعالى. انظر كذلك أحاديث مشابهة في كنز العمال: حديث رقم٣٥٠١٢-٣٥٠٢٥-٣٥٠٢٥؛ ج١٢ص٢٧٣-٢٧٦.

[12] في الحقيقة ليس ابن العربي قطباً ولكنه من الأولياء الأفراد الخارجين عن دائرة القطب كما سنشرح معنى ذلك لاحقا. ولكن نقول هنا أنّ القطب هي بالأصل أحد الأفراد ومن مرتبتهم.

[13] العنقاء طير كانت العرب تزعم وجوده في غرائب أساطيرها فغدت حكايته مضرب مثل لكل من أتى بما لا يعرفه الناس.

تكون وراء الجبال أو خلف الغيوم، ولكنها كثيراً ما تتجلى في عرض السماء من غير أن يهتم بها أحد لأنها أصبحت معتادة. فكذلك هو حال طائر العنقاء، الذي هو اسم آخر للقطب، وكذلك رجال الله من الأئمة والأوتاد والأبدال والنجباء وغيرهم من الأولياء، لا يعرفهم إلاّ القليل من الناس الذين ربما لا يعرفون عنهم إلا ما تناقله الأجيال من أخبارهم، وهم على الحقيقة يعيشون بيننا وربما يستطيع أن يجدهم من يبذل جهده ويفني عمره في البحث عنهم ومعرفة أخبارهم. فلا يخلو الزمان أبداً من أمثال ابن العربي وممن هم أيضاً أعلى منه معرفة ومرتبة ولكنّ الفرق بينه وبينهم أنّه سطّر رضي الله عنه لنا بعض علومه رغم أنّه كان يطلب من الله تعالى أن لا يُظهره بين الناس ويبقيه مجهولا مثل صاحبه ابن جعدون الحناوي الذي كان ذا مرتبة رفيعة ولكنه كان بين الناس مجهولاً إذا حضر لا يوسّع له وإذا تكلّم لا يُؤبه به، كما سنذكره داخل الكتاب، ويقول الشيخ محيي الدين أيضاً أنه قارن نفسه مرّة مع واحد من رجال الله كان عمره عشرة سنين[14] فما وجد نفسه معه إلاّ كدرهم زائف.

من هو الشيخ الأكبر

والشيخُ الأكبر محيي الدين ابن العربي الذي سيضيء ذكرُه زوايا هذا الكتاب إن شاء الله تعالى هو محمدُ بن عليّ بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي الطائي من ولد عبد الله بن حاتم أخي الصحابي الجليل عديّ بن حاتم، ويلقب بمحيي الدين، ويُكنّى أبا عبد الله وأبا بكر ويُعرف بالحاتمي أو الطائي وبابن عربي وفي المغرب بابن العربي وفي الأندلس بابن سراقة، وكذلك يُدعى بسلطان العارفين وإمام المتقين وغيرها من ألقاب التبجيل والتشريف التي تليق به.

وُلد الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي ليلة الاثنين في السابع عشر من شهر رمضان سنة ٥٦٠ للهجرة (٢٦ تموز ١١٦٥ ميلادية) في مدينة مُرسية شرقي الأندلس، ثم انتقل إلى إشبيلية سنة ١١٧٢/٥٦٨ فأقام بها حوالي عشرين عاماً ذهب خلالها إلى المغرب وتونس عدة مرات، وأقام هناك لفترات متقطعة ثم ارتحل إلى المشرق للحج سنة ١٢٠١/٥٩٨ ولم يعد بعدها إلى الأندلس. وفي المشرق أقام في مصر مدة وجيزة ثم دخل مكة وعكف على العبادة والتدريس في المسجد الحرام حيث أفاض الله عليه أسراراً وعلوماً شريفة أودعها في كتابه المعروف بالفتوحات المكية. ثم رحل إلى العراق فدخل بغداد والموصل واجتمع برجالها ثم طاف رضي الله عنه في بلاد الروم فسكن فيها مدة وكان له منزلة عالية عند ملكها المسلم كيكاوس. بعد ذلك قام الشيخ برحلات عديدة بين العراق ومصر وسورية وفلسطين حتى استقر في دمشق سنة ١٢٢٣/٦٢٠ إلى أن وافته المنية ليلة الثاني والعشرين من شهر ربيع الثاني سنة ٦٣٨ للهجرة (١٢٤٠/١١/٩ م) ودفن بسفح جبل قاسيون وتسمى الآن المنطقة التي فيها ضريحه باسمه (الشيخ محيي الدين) حيث يوجد قبره في طرف المسجد الذي بناه السلطان سليم حين فتح دمشق سنة ١٥١٦/٩٢٢. وخلّف رحمه الله ولدان هما سعد الدين محمد وعماد الدين أبو عبد الله محمد.

---

[14] نقصد بالرجال هنا الذين تمكّنوا في طريق الله تعالى، فالرجولة هي الثبات والتمكين.

قرأ الشيخ محيي الدين القرآن في إشبيلية على الشيخ أبي بكر بن خلف بالقراءات السبع بالكتاب الكافي ودرس التفسير وسمعه عن عدد من المؤلفين أو من يروي عنهم، منهم أبو بكر محمد بن أبي جمرة عن أبيه عن الداني مؤلف كتاب التيسير، ومنهم ابن زرقون وأبي محمد عبد الحق الإشبيلي الأزدي وغيرهم كثير. وسمع الحديث أيضاً من أبي القاسم الخزستاني وغيره، وسمع صحيح مسلم من الشيخ أبي الحسن بن أبي نصر.

برع الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي في علم التصوف وكتب فيه المئات من الكتب والرسائل زاد عددها عن خمسمائة كتاب على حدّ قول عبد الرحمن جامي صاحب كتاب "نفحات الأنس". أحد هذه المؤلفات وأهمها هو كتاب "الفتوحات المكية" والذي هو بحق أهم مؤلَّف في التاريخ الإسلامي بل من أهم الكتب في تاريخ البشرية. ومن مؤلفاته أيضاً كتاب "تفسير القرآن" الذي يقول فيه صاحب كتاب فوات الوفيات أنه يبلغ خمساً وتسعين مجلداً وربما هذا هو كتاب التفسير الكبير الذي بلغ فيه إلى سورة الكهف عند الآية: "وعلمناه من لدنا علما"، ثم توفي قبل أن يتمّه. وله أيضاً: "فصوصُ الحِكَم" الذي يقول في مقدمته أنه رأى الرسول محمد صلّى الله عليه وسلّم في المنام وأعطاه كتابا وقال له أخرجه للناس ينتفعون به، فأخرجه كما هو من غير زيادة ولا نقصان. وله أيضاً من الكتب: "محاضرة الأبرار"، "إنشاء الدوائر"، "عقلة المستوفز"، "عنقاء مغرب في صفة ختم الأولياء وشمس المغرب"، "ترجمان الأشواق"، "التدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية"، "مواقع النجوم ومطالع أهلّة أسرار العلوم"، "الجمع والتفصيل في حقائق التنزيل"، "الجُذوة المقتبسة والخطرة المختلسة"، "كشف المعنى في تفسير الأسماء الحسنى"، "المعارف الإلهية"، "الإسرا إلى المقام الأسرى"، "مشاهد الأسرار القدسية ومطالع الأنوار الإلهية"، "الفتوحات المدنية"، "الأحاديث القدسية"، وغيرها الكثير من الرسائل الصغيرة. ولقد قام الدكتور عثمان يحيى رحمه الله بتأليف كتاب قيّم حول مؤلفات الشيخ الأكبر سمّاه: مؤلفات ابن العربي تاريخها وتصنيفها، وهو باللغة الفرنسية ثم ترجمه الدكتور أحمد الطيبي إلى اللغة العربية ونشر عام ٢٠٠١ من قبل الهيئة المصرية العامة للكتاب. وسنذكر في آخر هذا الكتاب إن شاء الله تعالى ملحقاً عن أسماء كتب الشيخ الأكبر رضي الله عنه.

لقد أجمع الكتّاب والباحثون المختصون أنّ الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي لم يكن مؤلفاً عادياً مثل غيره من المؤلّفين، بل كان يتميّز عن غيره بالكمّ والكيف، وهو نفسه يؤكد أنه لا يجري مجرى المؤلّفين الذين يكتبون عن فكر ورويّة، وإنما جميع ما يكتبه هو من إلهام الله تعالى له كما سنرى. وقد وصفه بروكلمان بأنه من أخصب المؤلفين عقلاً وأوسعهم خيالاً.

ولقد وردت ترجمة محيي الدين ابن العربي في العديد من كتب التاريخ وتراجم الرجال نذكر منها: "المختصر المحتاج إليه": ج١٥ص٥٨ برقم ١٩٧، "التكملة لوفيات النقلة": ج٣ص٥٥٥ برقم ٢٩٧٢، "سير أعلام النبلاء": ج٢٣ص٤٨ برقم ٣٤، "تاريخ الإسلام": (سنة ٦٣١-٦٤٠) ص٣٥٢ برقم ٥٤٩، "الوافي بالوفيات": ج٤ص١٧٣ برقم ١٧١٣، "فوات الوفيات": ج٣ص٤٣٥ برقم ٤٨٤، "مرآة الجنان": ج٤ص١٠٠، "البداية والنهاية": ج١٣ص١٦٧، "غاية النهاية": ج٢ص٢٠٨ برقم ٣٢٧٧، "النجوم الزاهرة": ج٦ص٣٣٩،

"طبقات المفسرين للسيوطي": ص٩٨ برقم ١١٥، "طبقات المفسرين للداودي": ج٢ص٢٠٤ برقم ٥٤١، "نفح الطيب": ج٢ص١٦١ برقم ١١٣، "شذرات الذهب": ج٥ص١٩٠، "روضات الجنات": ج٨ص٥١ برقم ٦٨٥، "الكنى والألقاب": ج٣ص١٦٤، "الأعلام": ج٦ص٢٨١، "معجم المؤلفين": ج١١ص٤٠.

ولا بدّ أن نشير هنا إلى أنّ الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي الذي نحن في حضرته هو غير العالم الجليل القاضي أبي بكر محمد بن عبد الله ابن العربي المعافري الإشبيلي المالكي المولود بإشبيلية سنة ٤٦٨ هجرية المشهور في الفقه والأصول والحديث وله العديد من المؤلفات منها "قانون التأويل" و"أحكام القرآن" و"أنوار الفجر" و"الناسخ والمنسوخ والقبس في شرح موطأ الإمام مالك" و"العواصم من القواصم".[15] وفي بعض الأحيان يخطئ بعض الدارسين بين هذين العالمين الجليلين وينقلون أقوالاً أو كتباً لأحدهما باسم الآخر. ومن أجل ذلك بدأ أهل المشرق يفرّقون بينهما بحيث يسمّون الشيخ الأكبر بابن عربي (بدون التعريف) والقاضي أبا بكر بابن العربي (مع التعريف). ولكن هذا الاصطلاح لم يعُمّم خاصة وأن الشيخ الأكبر كان، منذ ولادته وكذلك بعض أعمامه وأجداده، يدعى بابن العربي كما ذكر هو في الكثير من كتبه وكذلك كما ذكر تلاميذه الأوائل. وبالعموم نجده في كثيرٍ من المراجع يدعى بهذا الاسم مع التعريف وبدونه، والأصحّ مع التعريف كما كان هو ينسب نفسه، وكما يوقّع اسمه في كتبه. ولكن يتم التفريق بين هذين العالمين الجليلين بأن الأول هو القاضي أبو بكر ابن العربي والثاني محيي الدين ابن العربي، مع أنه أيضاً يدعى أحياناً أبا بكر،[16] وغالباً أبا عبد الله، وهو الأصح. وإذا لم يُذكر ذلك في بعض الكتب فيسهل التمييز بينهما من سياق الكلام بسبب التخصّص لأن الأول فقيه والثاني صوفي.

وفي التاريخ الإسلامي عُرف الكثير من الرجال بهذا اللقب حيث ذكر ابن ماكولا في "الإكمال" بعض هؤلاء الرجال منهم: الزبير بن عربي أبو سلمة النميري البصري، والنضر بن عربي، وإبراهيم بن عربي الكوفي، ويعقوب بن عربي الكوفي، ويحيى بن حبيب بن عربي البصري، وعبد الله بن محمد بن سعيد بن عربي الطائفي، وحسين بن عربي البصري، ومحمد بن يوسف بن عربي البصري.[17]

ويبدو أنّ أحمد بن عبد الله الحاتمي، الذي هو والد جدّ الشيخ محيي الدين، هو الذي كان يسمى بـ"العربي"، فكان ابنه محمد يسمى بـ"ابن العربي"، ومن أبناء محمد والد الشيخ محيي الدين واسمه "علي"، والشيخ محيي الدين اسمه محمد أيضاً، على اسم جدّه، فهو محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي، وهو يوقّع اسمه في كتبه بـ"محمد بن علي بن محمد ابن العربي الطائي الحاتمي".

وبالإضافة إلى هذا اللقب الذي عُرف به منذ بداية حياته فكثيراً ما يدعوه مريدوه بألقاب التعظيم

[15] لمزيد من التعريف بالقاضي أبي بكر ابن العربي وسيرته راجع كتاب "نفح الطيب" للمقري التلمساني: ج٢ص٢٥-٤٣، ٦٠، ٨٥، ١٥٨، ١٧٥، ٥٧٦، ٥٩٩، ٦٠٠، ٦١٧، ٦٢٦، ٦٤٢، ٦٤٤، ج٣ص١٨٠، ٤٠١، ج٤ص٤٦١، ٤٧٦، ج٥ص٣٣٨، ٣٥٠، ج٦ص٢٧٧.

[16] روح القدس: ص٤٨.

[17] الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب: علي بن هبة الله ابن ماكولا، اعتنى بتصحيحه والتعليق عليه: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، دار الكتاب الإسلامي، بيروت، ١٩٦٢-١٩٦٧، باب: عربي وعُزّي، ج٦ص١٧٦-١٧٨.

والتبجيل مثل سلطان العارفين، وإمام المتقين، ومربي الشيوخ والمريدين، والكبريت الأحمر[18] إلى غير ذلك من ألقاب التفخيم والتبجيل التي يستحقها. وابتداءً من القرن العاشر الهجري، بعد أن فتح السلطان سليم الأول دمشق سنة ٩٢٢ للهجرة وأمر بتشييد مسجد الشيخ محيي الدين وبناء ضريحه إلى جانبه، أصبح ابن العربي يُعرف باسم الشيخ الأكبر.

عقيدته ومذهبه

لا نريد هنا أن نستبق الأمور ونعجل في سرد النصوص، ولكن موضوع عقيدة الشيخ الأكبر أمرٌ مهمٌ يجب توضيحه منذ البداية لأنه كثيراً ما يكون مجال جدالٍ بين بعض الفئات من المسلمين الذين لا يتقبّلون كلامه وينتقدونه وكثيراً ما يكفّرونه ويرمونه زوراً بالزندقة بسبب ذلك. وسوف نخصص جزءاً كبيراً من الفصل السابع والأخير من هذا الكتاب لمناقشة بعض هذه الآراء إن شاء الله تعالى، ولكن لا بأس هنا من ذكر العقيدة العامة للشيخ الأكبر رضي الله عنه كما ذكرها هو نفسه وأشهدَ الناس عليها.

لقد صرّح الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي عن عقيدته في بداية كتاب الفتوحات المكية وهي أيضاً رسالة "عقيدة أهل الإسلام"، حتى لا يرميه الجهّال بالإلحاد أو الكفر حين لن يفهموا أكثر ما يسطره من العلوم النفيسة الرفيعة التي لا تنالها العقول الضعيفة والقلوب السقيمة، وكأنه قد تنبّأ بما سيحدث في هذا الشأن فخفّف من وطأته. ولكن الشيخ الأكبر أيضاً قال إنّ العقيدة عنده لها أربعة مراتب: أولاها هي عقيدة العوام من أهل الإسلام، أهل التقليد وأهل النظر، وهي التي سنذكرها أدناه، وهي العقيدة العامة التي يجب على كلّ المسلمين إتّباعها وخلاصتها أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ولكنه يضيف بعض التفصيل العام لتنزيه الله تعالى عما تصفه به بعض الفِرق مثل المجسِّمة والمشبِّهة وغيرهم.

والمرتبة الثانية من العقيدة يسميها الشيخ عقيدة الناشئة الشادية، وهي التي تتضمن مآخذ الأدلة في الفلسفة الإسلامية والتي يحتاج إليها من يناقش العلماء والفلاسفة، وقد ذكرها الشيخ محيي الدين أيضاً في بداية الفتوحات المكية بلفظ مسجوع وعبارة موجزة، وسماها أيضاً "رسالة المعلوم من عقائد أهل الرسوم".

والمرتبة الثالثة في العقيدة هي عقيدة خواص أهل الله، من أهل طريق الله، من المحققين أهل الكشف والوجود، وقد ذكرها الشيخ الأكبر أيضاً في كتاب سماه "المعرفة".

وأما المرتبة الرابعة فهي عقيدة الخلاصة الذين هم خلاصة خواص أهل الله تعالى، فما أفردها الشيخ الأكبر على التعيين ولم يصرّح بها، لما فيها من الغموض، ولكن جاء بها مبدّدة في أبواب الفتوحات المكية مستوفاةً مبيّنةً، لكنها كما يقول متفرقة: فمن رزقه الله الفهم فيها يعرف أمرها ويميزها من غيرها. فإنها، كما يقول الشيخ الأكبر، العلم الحق والقول الصدق، وليس وراءها مرمى، ويستوي فيها البصير والأعمى، تلحق الأباعد بالأداني، وتلحم الأسافل بالأعالي، فالأمر كلّه دوري، ونهاية الدائرة متصلة ببدايتها.

وتماشياً مع ذلك، فمع أننا عنونّا هذا الكتاب باسم (سيرة الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي

---

[18] الكبريت الأحمر هو رمز للإكسير المفترض الذي يحوّل المعادن إلى ذهب.

ومذهبه)، فإننا لن نخصص أي جزء أو فقرات محددة لدراسة مذهب الشيخ محيي الدين كما فعل أسين بلاثيوس مثلاً في كتابه الذي قسمه إلى قسمين الأول عرض فيه حياة الشيخ والثاني عرض فيه مذهبه. وقد آثرنا نثر بعض الجوانب المختلفة لمذهب الشيخ محيي الدين على فقرات هذا الكتاب كلّما اعترضنا لذكر شيء من ذلك من خلال دراسة سيرته وكذلك من خلال ذكر بعض تفاصيل سيرة الشيوخ الذين تعامل معهم الشيخ محيي الدين أو ذكرهم. فهو كثيراً ما يستخدم هذا الأسلوب في تحديد معالم مذهبه على ألسنة العلماء والشيوخ الذين يعرفهم أو ممن هم معروفين في تاريخ الإسلام والصوفية تحديداً كأبي يزيد البسطامي وأبي حامد الغزالي وغيرهم. وأما لمعرفة تفاصيل مذهب الشيخ محيي الدين كاملة، فليس هناك بديل عن قراءة كتبه نفسها، ولا يمكن لأي باحث أن يحيط بذلك علماً، وقد نسيء له إذا ما ذكرنا طرفاً قليلاً من ذلك وأهملنا الباقي، إلا على سبيل الإشارة.

وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه المراتب الأربعة من العقيدة ما هي مراتب متباينة ومتناقضة وإنما هي مراتب متوافقة ومتكاملة، ولكن لا يمكن أن نطلب من جميع الناس أن يكونوا فلاسفة متكلمين، كما لا نتوقع من جميع المتكلمين أن يكونوا محققين وذائقين، والذوق له مراتب ومشارب أعلاها وأصفاها مرتبة الأبرار المقربين الذين يشربون من الرحيق المختوم، ختامه مسك ومزاجه من تسنيم، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

ونحن هنا سنذكر نصّ العقيدة العامة كما وردت في كتاب الفتوحات المكية، رغم طولها، حيث أنها أصلٌ ينفي كلّ ادّعاءٍ ينتقصُ من منزلة الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي. ولقد قسم الشيخ رضي الله عنه هذه الشهادة إلى قسمين الأول أن لا إله إلا الله والثاني أنّ محمداً رسول الله، فيقول بعد تقديم عن ضرورة الشهادة:

"فيا إخوتي ويا أحبائي رضي الله عنكم، أشهدكم عبد ضعيف مسكين فقير إلى الله تعالى في كل لحظة وطرفة، وهو مؤلف هذا الكتاب ومنشئه، أشهدكم على نفسه بعد أن أشهدَ الله تعالى وملائكته ومن حضره من المؤمنين وسمعه أنه يشهد قولا وعقدا أنّ:

الله تعالى إله واحد لا ثاني له في ألوهيته، منزه عن الصاحبة والولد، مالك لا شريك له، ملك لا وزير له، صانع لا مدبر معه، موجود بذاته من غير افتقار إلى موجد يوجده، بل كل موجود سواه مفتقر إليه تعالى في وجوده، فالعالم كله موجود به، وهو وحده متصف بالوجود لنفسه، لا افتتاح لوجوده، ولا نهاية لبقائه، بل وجود مطلق غير مقيد، قائم بنفسه، ليس بجوهر متحيّز فيُقدَّر له المكان، ولا بعرض فيستحيل عليه البقاء، ولا بجسم فتكون له الجهة والتلقاء، مقدس عن الجهات والأقطار، مرئي بالقلوب والأبصار، إذا شاء استوى على عرشه كما قاله وعلى المعنى الذي أراده، كما أنّ العرش وما سواه به استوى، وله الآخرة والأولى، ليس له مثل معقول، ولا دلّت عليه العقول، لا يحدّه زمان ولا يُقلّه مكان، بل كان ولا مكان وهو على ما عليه كان، خلق المتمكّن والمكان، وأنشأ الزمان، وقال أنا الواحد الحيّ، لا يؤوده حفظ المخلوقات، ولا ترجع إليه صفة لم يكن عليها من صنعة المصنوعات، تعالى أن تحلّه الحوادث أو يحلّها، أو تكون بعده أو يكون

قبلها، بل يقال كان ولا شيء معه، فإن القبل والبعد من صيغ الزمان الذي أبدعه، فهو القيّوم الذي لا ينام، والقهّار الذي لا يُرام، ليس كمثله شيء، خلق العرش وجعله حدّ الاستواء، وأنشأ الكرسي وأوسعه الأرض والسماوات العلى، اخترع اللوح والقلم الأعلى، وأجراه كاتبا بعلمه في خلقه إلى يوم الفصل والقضاء، أبدع العالم كله على غير مثال سبق، وخلق الخلْق وأخلق (أي أبلى) الذي خلق، أنزل الأرواح في الأشباح أمناء، وجعل هذه الأشباح المنزلة إليها الأرواح في الأرض خلفاء، وسخّر لنا ما في السموات وما في الأرض جميعا منه، فلا تتحرك ذرة إلا إليه وعنه، خلق الكل من غير حاجة إليه، ولا موجب أوجب ذلك عليه، لكنّ علمه سبق بأن يخلق ما خلق، فهو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو على كل شيء قدير، أحاط بكل شيء علما، وأحصى كل شيء عددا. يعلم السر وأخفى، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، كيف لا يعلم شيئا هو خلقه، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير، علم الأشياء منها قبل وجودها، ثم أوجدها على حد ما علمها، فلم يزل عالما بالأشياء، لم يتجدد له علم عند تجدد الإنشاء، بعلمه أتقن الأشياء وأحكمها، وبه حكَم عليها من شاء وحكمها، علم الكليات على الإطلاق، كما علم الجزئيات بإجماع من أهل النظر الصحيح واتفاق، فهو عالم الغيب والشهادة، فتعالى الله عما يشركون، فعّال لما يريد، فهو المريد الكائنات في عالم الأرض والسموات، لم تتعلق قدرته بشيء حتى أراده، كما أنه لم يُرده حتى علمه، إذ يستحيل في العقل أن يريد ما لا يعلم أو يفعل المختار المتمكن من ترك ذلك الفعل ما لا يريد، كما يستحيل أن توجد نسب هذه الحقائق في غير حي، كما يستحيل أن تقوم الصفات بغير ذات موصوفة بها، فما في الوجود طاعة ولا عصيان، ولا ربح ولا خسران، ولا عبد ولا حُر، ولا برد ولا حَر، ولا حياة ولا موت، ولا حصول ولا فوت، ولا نهار ولا ليل، ولا اعتدال ولا ميل، ولا برّ ولا بحر، ولا شفع ولا وتر، ولا جوهر ولا عرض، ولا صحة ولا مرض، ولا فرح ولا ترح، ولا روح ولا شبح، ولا ظلام ولا ضياء، ولا أرض ولا سماء، ولا تركيب ولا تحليل، ولا كثير ولا قليل، ولا غداة ولا أصيل، ولا بياض ولا سواد، ولا رقاد ولا سهاد، ولا ظاهر ولا باطن، ولا متحرك ولا ساكن، ولا يابس ولا رطب، ولا قشر ولا لب، ولا شيء من هذه النسب المتضادات منها والمختلفات والمتماثلات إلا وهو مراد للحق تعالى، وكيف لا يكون مرادا له وهو أوجده، فكيف يوجد المختار ما لا يريد، لا رادّ لأمره ولا معقّب لحكمه، يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء، ويضلّ من يشاء ويهدي من يشاء، ما شاء كان وما لم يشأ أن يكون لم يكن، لو اجتمع الخلائق كلهم على أن يريدوا شيئا لم يُرد الله تعالى أن يريدوه ما أرادوه، أو يفعلوا شيئا لم يُرد الله تعالى إيجاده وأرادوه عندما أراد منهم أن يريدوه ما فعلوه، ولا استطاعوا على ذلك ولا أقدرهم عليه، فالكفر والإيمان والطاعة والعصيان من مشيئته وحكمه وإرادته،[19] ولم يزل سبحانه موصوفا بهذه الإرادة أزلاً والعالم معدوم غير موجود، وإن كان ثابتا في العلم في عينه، ثم أوجد العالم من غير تفكر ولا تدبر عن جهل أو عدم علم فيعطيه التفكر والتدبر علم ما جهل، جلّ وعلا عن ذلك، بل أوجده عن العلم السابق وتعيين الإرادة المنزّهة الأزلية القاضية على العالم بما أوجدته عليه من زمان ومكان وأكوان وألوان، فلا مُريد في الوجود على الحقيقة سواه، إذ هو القائل سبحانه: وما تشاؤون إلاّ أن يشاء الله، وإنه سبحانه كما علم فأحكم وأراد

[19] لا يلزم من الرضى بالقدر الرضى بالمقدور، فالكفر مقدور والله لا يرضى لعباده الكفر ولكنه سبحانه قدّر على بعض عباده أن يكفروا.

فخصّص وقدّر فأوجد؛ كذلك سمع ورأى ما تحرك أو سكن أو نطق في الورى من العالم الأسفل والأعلى، لا يحجب سمعه البعد فهو القريب، ولا يحجب بصره القرب فهو البعيد، يسمع كلام النفس في النفس، وصوت المماسة الخفية عند اللمس، ويرى السواد في الظلماء والماء في الماء، لا يحجبه الامتزاج ولا الظلمات ولا النور، وهو السميع البصير، تكلم سبحانه لا عن صمت متقدم ولا سكوت متوهم بكلام قديم أزلي كسائر صفاته من علمه وإرادته وقدرته، كلم به موسى عليه السلام، سماه التنزيل والزبور والتوراة والإنجيل، من غير حروف ولا أصوات، ولا نغم ولا لغات، بل هو خالق الأصوات والحروف واللغات، فكلامه سبحانه من غير لهاة ولا لسان، كما أن سمعه من غير أصمخة ولا آذان، كما أن بصره من غير حدقة ولا أجفان، كما أن إرادته في غير قلب ولا جنان، كما أن علمه من غير اضطرار ولا نظر في برهان، كما أن حياته من غير بخار تجويف قلب حدث عن امتزاج الأركان، كما أن ذاته لا تقبل الزيادة والنقصان، فسبحانه سبحانه من بعيد دان، عظيم السلطان، عميم الإحسان، جسيم الامتنان، كل ما سواه فهو عن جوده فائض، وفضله وعدله الباسط له والقابض، أكمل صنع العالم وأبدعه حين أوجده واخترعه، لا شريك له في ملكه، ولا مدبر معه في ملكه، إن أنعم فنعّم فذلك فضله، وإن أبلى فعذّب فذلك عدله، لم يتصرف في ملك غيره فينسب إلى الجور والحيف، ولا يتوجه عليه لسواه حكم فيتصف بالجزع لذلك والخوف، كل ما سواه تحت سلطان قهره ومتصرفٌ عن إرادته وأمره، فهو الملهم نفوس المكلفين التقوى والفجور، وهو المتجاوز عن سيّئات من شاء والآخذ بها من شاء هنا وفي يوم النشور، لا يحكم عدله في فضله، ولا فضله في عدله، أخرج العالم قبضتين، وأوجد لهم منزلتين فقال: هؤلاء للجنة ولا أبالي وهؤلاء للنار ولا أبالي، ولم يعترض عليه معترض هناك إذ لا موجود كان ثمّ سواه، فالكل تحت تصريف أسمائه، فقبضة تحت أسماء بلائه، وقبضة تحت أسماء آلائه، ولو أراد سبحانه أن يكون العالم كله سعيداً لكان، أو شقياً لما كان من ذلك في شأن، لكنه سبحانه لم يرد؛ فكان كما أراد، فمنهم الشقي والسعيد، هنا وفي يوم المعاد، فلا سبيل إلى تبديل ما حكم عليه القديم، وقد قال تعالى في الصلاة: هي خمس وهي خمسون، ما يبدل القول لديّ وما أنا بظلام للعبيد، لتصرفي في ملكي وإنفاذ مشيئتي في ملكي، وذلك لحقيقة عميت عنها الأبصار والبصائر، ولم تعثر عليها الأفكار ولا الضمائر، إلا بوهب إلهي وجود رحماني لمن اعتنى الله به من عباده، وسبق له ذلك بحضرة إشهاده، فعلم حين أعلم أن الألوهة أعطت هذا التقسيم، وأنه من رقائق القديم، فسبحان من لا فاعل سواه ولا موجود لنفسه إلا إياه، والله خلقكم وما تعملون، ولا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، فلله الحجة البالغة، فلو شاء لهداكم أجمعين.

الشهادة الثانية: وكما أشهدت الله وملائكته وجميع خلقه وإياكم على نفسي بتوحيده، فكذلك أشهده سبحانه وملائكته وجميع خلقه وإياكم على نفسي بالإيمان بمن اصطفاه واختاره واجتباه من وجوده: ذلك سيدنا محمد صلّى الله عليه وسلّم، الذي أرسله إلى جميع الناس كافة بشيرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، فبلّغ صلّى الله عليه وسلّم ما أنزل من ربه إليه وأدّى أمانته، ونصح أمته، ووقف في حجة وداعه على كل من حضر من أتباعه، فخطب وذكّر، وخوّف وحذّر، وبشّر وأنذر، ووعد وأوعد، وأمطر وأرعد، وما خصّ بذلك التذكير أحدا من أحد، عن إذن الواحد الصمد، ثم قال: ألا هل بلغت؟ فقالوا: بلّغت يا رسول الله،

فقال صلّى الله عليه وسلّم: اللهمّ اشهد، وإني مؤمن بكل ما جاء به صلّى الله عليه وسلّم مما علمت وما لم أعلم، فمما جاء به فقرّر أن الموت عن أجل مسمّى عند الله إذا جاء لا يؤخر، فأنا مؤمن بهذا إيمانا لا ريب فيه ولا شك، كما آمنت وأقررت أن سؤال فتّاني القبر حق، وعذاب القبر حق، وبعث الأجساد من القبور حق، والعرض على الله تعالى حق، والحوض حق، والميزان حق، وتطاير الصحف حق، والصراط حق، والجنة حق، والنار حق، وفريقا في الجنة وفريقا في النار حق، وكرب ذلك اليوم حق، على طائفة وطائفة أخرى لا يحزنهم الفزع الأكبر، وشفاعة الملائكة والنبيين والمؤمنين وإخراج أرحم الراحمين بعد الشفاعة من النار من شاء حق، وجماعة من أهل الكبائر المؤمنين يدخلون جهنم ثم يخرجون منها بالشفاعة والامتنان حق، والتأبيد للمؤمنين والموحدين في النعيم المقيم في الجنان حق، والتأبيد لأهل النار في النار حق، وكل ما جاءت به الكتب والرسل من عند الله عُلم أو جُهل حق.

فهذه شهادتي على نفسي أمانة عند كل من وصلت إليه أن يؤديها إذا سئلها حيثما كان، نفعنا الله وإياكم بهذا الإيمان، وثبتنا عليه عند الانتقال من هذه الدار إلى الدار الحيوان، وأحلنا منها دار الكرامة والرضوان، وحال بيننا وبين دار سرابيلها من القطران، وجعلنا من العصابة التي أخذت الكتب بالأيمان، وممن انقلب من الحوض وهو ريّان، وثقل له الميزان، وثبتت له على الصراط القدمان، إنه المنعم المحسان، فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، لقد جاءت رسل ربنا بالحق."[20]

فأي حجّة بعد هذا لمن يتّهم الشيخ الأكبر ويرميه بالكفر والزندقة من غير أن ينظر في كتبه ومقولاته ويتبيّن الحق من الباطل، فيقول الله تعالى في سورة الحجرات: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ۝)، وفي سورة الأحزاب: (وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ۝).

اختلاف الناس حوله

ولكننا مع ذلك نرى أن الكثير من المسلمين وحتى العلماء منهم لم يستطيعوا استيعاب ما جاء به الشيخ الأكبر لأنهم لم يقدروا أن يغوصوا في بحار كتبه فرفضوها من أول وهلة من غير أن يعيروها الاهتمام اللازم. وكثيراً ما نقلوا عنه أقوالاً مدسوسةً أو منقوصةً من غير أن يتبيّنوا أصلها ومصدرها أو قصده وغايته، حتى رموه بالفساد وبالكفر وحرّموا قراءة كتبه وكفّروا من يعتقد به وحتى من لا يكفّره. وربما كان ذلك من رحمة الله تعالى بالمسلمين أن سخّر لهم من يصدهم عن الخوض في كتب الشيخ الأكبر ورفض كلامه! حيث أن بعض الناس لا يستطيع الصمود والخوض في مثل هذه العلوم العميقة التي لا يجوز أن تُقرأ من غير رويّةٍ وتسليمٍ واستعدادٍ، ولذلك نجد أن بعض الشيوخ المعترفين بفضل الشيخ الأكبر يحرّمون على مريديهم المبتدئين قراءة كتبه خشية إساءة فهمها، فربما يؤدّي بهم الأمر لفساد عقيدتهم الهشّة أو للكفر والعياذ بالله.

[20] مقدمة الفتوحات المكية وكتاب عقيدة أهل الإسلام لابن العربي.

ومن هنا تجد معنى قول بعضهم أن رحمة الأمة في اختلاف الأئمة،[21] شريطة أن لا يكون الاختلاف سبباً في النزاع كما هو الحال أسفاً في أغلب الأحيان. فلا بأس من تخطيء ابن العربي، فما هو بمعصوم، ولكن ليس هناك داعٍ لتكفيره من غير بيّنة ودليلٍ قاطعٍ، فمن ثبت له عقد الإيمان بيقين لا يُخرج منه إلا بيقين.

ولقد انقسم الناس عبر العصور التي تلت ابن العربي إلى مؤيّد ومندّد حتى إن الكثير من المؤرخين كانوا يميّزون الرجال من خلال موقفهم من الشيخ الأكبر، كما سنفصّل ذلك في الفصل الأخير من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى. ولكن لا يجوز رفض العلم الذي لا يوافق أهواءنا إلا إذا كان لدينا ما ينفيه بشكل قاطع مما ثبت في القرآن والسنة. وفي كل الأحوال لا يجوز قذف الرجال لما ورد عنهم حتى وإن كانوا قد أخطؤوا فليس علينا من حسابهم من شيء بل حسابهم على الله تعالى، وإن كان لا بدّ من النصيحة لتبيين أخطاء الآخرين فنفعل ذلك بأسلوبٍ إسلامي سليمٍ من غير سبٍّ ولا شتمٍ ولا تكفيرٍ. ولكن البعض بالغوا في نقد الشيخ الأكبر فاتهموه زوراً بالكفر والفسق والإلحاد، وما ظلموا في ذلك غير أنفسهم. ففي جميع الأحوال لا يجوز تكفير أحد لم يعجبنا قوله، طالما هو يشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فمن صحّ إسلامه بيقين لا يجوز تكفيره بغير يقين، لأن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال في الحديث الصحيح: "أَيُّمَا امْرِئٍ قَالَ لأَخِيهِ: يَا كَافِرُ، فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا؛ إِنْ كَانَ كَمَا قَالَ، وَإِلاَّ رَجَعَتْ عَلَيْهِ".[22]

أما بالنسبة للشيوخ المعترفين بفضل الشيخ محيي الدين ومرتبته ولكنهم يمنعون مريديهم من قراءة كتبه خشيةً عليهم من الفتنة بما فيها من المعارف العميقة الغور، فقد يكون هذا الأمر مبرّراً في بعض الأحيان، ولكن الأمر اليوم قد تغيّر مع تقدّم وسائل الإعلام والاتصال وتعرّض الإنسان للكثير من الفتن الفكرية والثقافية مما أكسبنا نوعاً من المناعة حيث أصبح معظم الناس أكثر انفتاحاً لسماع ورؤية الطرف الآخر من غير أن يعني ذلك موافقتهم على ما هم عليه. وكذلك الشيخ محيي الدين، لم يطلب من أحد أن يوافقه ويؤمن بكل ما يقوله أو يلزمه به، بل يتركه في مجال الاحتمال حتى يجد له، أو عليه، الدليل. فمتى وجد له دليلاً سيجد أن عقله يقبله تلقاءً ويتّسع له صدره ويستريح له قلبه لأنه، كما يقول الشيخ في مقدمة الفتوحات المكية: "لا يثلج الصدر إلا ما يقطع بصحته". وفي كل الأحوال لا بدّ من الرجوع إلى أصول العقيدة المبنيّة على القرآن الكريم والسنّة الشريفة.

محتويات هذا الكتاب

يرى البعض أن الباحث أو الكاتب يجب أن يكون حيادياً تماماً في الموضوع الذي يناقشه، ولقد

---

[21] مع أن هذا الحديث المشهور بين أتباع المذاهب يبدو أنّه لا أصل له عن المحدّثين، وليس له سند صحيح ولا ضعيف ولا موضوع (راجع سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف-الرياض، ١٩٩٢: ج١ ص ٧٦ رقم ٥٧)، ولكن معناه يبدو صحيحا إذا لم يؤدي الخلاف إلى منازعة.

[22] حديث متفق عليه، انظر في "صحيح مسلم": الجزء الأول، كتاب الإيمان، والجزء الثاني، تتمّة كتاب الإيمان، باب بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم: يا كافر. انظر كذلك في صحيح البخاري، الجزء الرابع، كتاب الأدب، الحديث رقم: ٥٧٥٢، وكذلك: ٥٧٥٣.

حاولت أن أكون كذلك في أغلب الأحيان، ولكنني لا أستطيع أن أخفي انحيازي التام للشيخ محيي الدين ابن العربي رضي الله عنه وإيماني بكلّ ما يقوله والذي لا يخالف صريح العقيدة الإسلامية المعتمدة على القرآن الكريم والسنّة الشريفة. وكذلك لا أخفي انحيازي التام في تأويل أقواله وتصرّفاته والأحداث التي مرّ بها لصالحه وذلك من باب حسن الظنّ أولاً ثم من باب الإيمان والاعتقاد بنزاهته عن كلّ ما يمكن أن يمسّ الأخلاق أو العقيدة الإسلامية، رغم أنني لا أسلّم بعصمة أحدٍ غير الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ومن هذا المنطلق فإنّ هذا الكتاب يدمج بين الدراسة الأكاديمية والنقدية وبين المواقف الدفاعية عن كلّ ما اتُّهم به ابن العربي، رغم أنني حاولت في الفصل الأخير أن أناقش جميع وجهات النظر المختلفة بحياد تام وخاصة تلك التي تنتقد الشيخ الأكبر، بل وجدت توافقاً خفياً بين ابن العربي وخصومه الذين لم يفهموه.

ومن جهة أخرى فمن المعروف أن التصوّف يعتمد بشكل أساسي على علم الكشف، وهو علم ذوقي لدنّي لا يدخل دائماً تحت مظلّة العقل والمنطق والبراهين، وبالتالي لا يمكن الدفاع عنه وحمل القرّاء والمستمعين على التصديق به. ولذلك لم أحاول كثيراً إقناع القارئ بالأدلّة والبراهين على كلّ ما أقوله أو أنقله عن الشيخ محيي الدين من الأمور الغريبة كلقائه بالخضر عليه السلام ورؤيته للأرواح. وكلّ ما أرجوه من القارئ الكريم الإنصاف والتمهّل قبل الإنكار؛ فليس كلّ غريب مستحيل إلاّ إذا وجدنا على عكسه الدليل، وليس بالعكس! فممّا يُؤسف له أنّ أغلب الناس وكثيراً من العلماء والمثقفين اعتادوا على رفض كلّ ما لم نقدّم لهم عليه برهاناً، وكأننا قد أحطنا بجميع العلوم وأن كلّ ما وراء معرفتنا جهل وظنون. فليس الأمر كذلك وهذا المبدأ خاطئ بل يجب على الإنسان المنصف أن يترك كلّ ما هو غريب من العلم في مجال الاحتمال حتى يجد له أو عليه دليلاً. فمتى وجد له دليلاً يقبله ومتى وجد عليه دليلاً يرفضه بحذرٍ شديدٍ. وفي كلّ الأحوال هناك أنواع من العلم الضروري الذي لا يوجد له ولا عليه دليل، وخاصة علوم الذوق والمشاهدة التي تحصل في القلب ولا يمكن للإنسان رفضها لعلمه اليقيني بصحّتها حتى وإن لم يملك عليها دليلاً.

وبما أن المصادر التاريخية عن ترجمة ابن العربي قليلة جداً وجميعها تعتمد على ما ذكره الشيخ نفسه في كتبه المتفرّقة، فقد اعتمدتُ في هذا الكتاب على سياسة النقل والإكثار من الروايات حتى أترك ابن العربي يتكلّم بنفسه ولم أتدخّل بالشروح إلاّ وقت الضرورة، فلم يكن عملي في هذا الكتاب أكثر من جمع النصوص ووضعها في سياقها التاريخي مع إضافة بعض التحليلات البسيطة حتى نملأ الفراغات التي لا نملك حولها معلومات كافية.

ولقد رأيت أن أقسم هذا الكتاب إلى سبعة فصول يختص كلٌّ منها بحقبة من حياة الشيخ الأكبر وسمّيتها بأسماء بعض أوقات مواضع الشمس في السماء بسبب التشابه الذي ذكرناه في بداية هذه المقدمة.

فالفصل الأول هو وقت الفجر ونتكلم فيه عن المرحلة التي سبقت ولادته وعن أصل قبيلته وأجداده وانتقالهم من اليمن إلى الأندلس مع الفتوحات الإسلامية. ثم نتطرق باختصار لتاريخ الأندلس مع بعض التركيز على الفترة التي سبقت ولادة الشيخ الأكبر حيث ننهي الفصل بخلاصة عن الوضع السياسي والاجتماعي في ذلك الوقت.

أما الفصل الثاني فهو الصبح ونتكلم فيه عن بزوغ شمس محيي الدين سنة ١١٦٥/٥٦٠ وحياته في طفولته وشبابه وتعليمه وتربيته على أيدي شيوخ الأندلس في ذلك العصر، ثم تنقّله في بعض نواحي الأندلس وبداية شهرته حتى سنة ١١٩٢/٥٨٩.

والفصل الثالث أعطيناه اسم الضُحَى ونغطّي فيه المرحلة ما بين ١١٩٢/٥٨٩ و١٢٠٠/٥٩٧ التي تنقّل فيها الشيخ رضي الله عنه عدة مرات ما بين مدن الأندلس والمغرب وتونس.

أما الفصل الرابع فهو وقت الظهر حيث تبلغ الشمس أقصى مداها في السماء، وهو وقت الزوال الذي يكون حينما يختفي ظل الجسم فيه عندما تكون الشمس قائمة عليه وقت الظهيرة، وهو رمز إلى الفناء في الله عمّا سواه، إن كان ثمّ. وفي هذه المرحلة، التي استمرت حتى سنة ١٢٠٣/٦٠٠، ارتحل الشيخ نحو المشرق إلى مكة المكرمة ليحج إلى بيت الله الحرام، بعد أن مرّ بمصر والقدس والمدينة المنوّرة.

وفي الفصل الخامس، وهو مرحلة العصر، كما في مرحلة الضحى، بدأ الشيخ رحلات متعددة بين مدن المشرق مكة والقدس وبغداد وحلب وقونية وسيواس والقاهرة، وكان يتردد كثيرا إلى مكة للحج والتدريس في الحرم إلى أن استقرّ في دمشق سنة ١٢٢٣/٦٢٠ وبقي بها حتى وفاته رحمه الله تعالى سنة ١٢٠٤/٦٣٨ وهي الفترة التي خصّصنا لها الفصل السادس الذي هو وقت الغروب.

أما في الفصل السابع والأخير فقد تكلمنا عن فترة ما بعد ابن العربي حيث بدأت كتبه تنتشر وذكره يعمّ الآفاق أكثر فأكثر وبدأ الناس يهتمون به وبعلومه وكذلك بدأ بعض الناس ينتقدونه ويكفّرونه ويؤلفون الكتب في سبّه وبيان فساد عقيدته ومذهبه كما عكف الكثير من مريديه على شرح كتبه ونشر علومه وتعاليمه ولا يزال هذا الصراع مستمرا إلى هذا الوقت. ومن أجل ذلك فقد سمّينا هذا الفصل بوقت العشاء، حين ينام أكثر البشر، وتلتبس الأمور على بعض ضعيفيّ النظر، ولا يفوز بالوصال إلا من سهر أو، إذا نام، استيقظ قبل السحَر.

ولقد كان من باب المصادفة العجيبة أن يكون تقسيم هذا الكتاب إلى سبعة فصول بهذا الشكل، فمع أنني لم أقصده منذ البداية ولكن استقرّ الأمر على هذا الترتيب الذي جاء طبيعياً ليستوعب المراحل المختلفة من حياة الشيخ الأكبر. ولكنني عندما أعدتُ النظر في هذا الترتيب وجدت معناه واضحا وصريحا وأنّه لم يكن مصادفة؛ فهو تعبير وانعكاس لأساس رؤية الشيخ الأكبر للعالم الذي خلقه الله تعالى على صورته الإلهيّة، فلمّا كان الله موصوفا بالسبعة الصفات (السمع، الحياة، العلم، القدرة، الإرادة، البصر، الكلام) التي هي أمّهات الصفات الإلهية الحسنى التي تلزم وتكفي ليكون الله إلها خالقا لهذا العالم، فلذلك خلق الله العالم على هذه الصورة في ستة أيام ثم استوى على العرش. ويوازي ذلك أيضاً خلقُ الجنين في بطن أمه في ستة أشهر وهي مدّة الحمل الحقيقي، وما فوقها فهو من الفصال لقوله تعالى في سورة لقمان: (وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ ...﴿١٤﴾) ثم قال في سورة الأحقاف: (وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ...﴿١٥﴾)، فالحمل ستة أشهر أي ستة أيام قمرية، فيوم القمر هو شهره، والفصال أربعة وعشرون شهراً، منها في الرحم شهر واحد أو ثلاثة أشهر، والباقي على الثدي، ثم بعدها يخرج الجنين إلى الحياة مستقلاً بنفسه. كذلك العالم كله سبعة أيام، ستة للتكوين واليوم

السابع للعرش، وهو يوم القيامة، يوم الأبد، والله أعلم وهو علاّم الغيوب.

وهكذا فإن حياة الشيخ الأكبر رضي الله عنه، أو حياة علومه إن شئتَ، هي سبعة أيام ستة للتكوين والسابع للعرش ونحن فيه الآن. وليس هذا التشبيه مجازا أبدا، بل حقيقة تنطبق فصولها على أدقّ التفاصيل؛ قد فصّلها الشيخ محيي الدين في كتبه الكثيرة وأنا هنا أختصرها اختصارا شديدا. فاليوم الأول يكون عن صفة السمع وهو الوجود النسبي قبل الخلق، حيث يقول الله تعالى للشيء "كن" فيكون، فالعالم قبل خلقه له صفة السمع مع أنه غير موجود بعد، وبها يسمع أمر الله تعالى فيطيع، ثم يبدأ يكتسب الصفات الأخرى تباعا، فينفخ الله فيه الروح فيصير حيًا ثم يكتسب العلم ثم الإرادة ثم القدرة ثم البصر وفي النهاية الكلام، فيصبح هو بدوره يخلق بالكلام ولكن ليس خلقا ماديًا وإنما خلقا معنويا وهي الصور التي ينشؤها في نفس السامع حين يخاطبه.

وهكذا فإن حياة ابن العربي بدأت على الحقيقة قبل تاريخ ولادته بزمن طويل، بل منذ الأزل، حين كان ما يزال في عالم الذرّ، ولم يكن له وجود فعليّ، وإنما وجود معنوي، به استطاع أن يسمع أمر الله له بالتكوين فيطيعه، فلما خرج إلى الحياة تنقّل في خمسة أطوار، وهي خمسة حركات، أو أسفار: السفَر الأوّل من الله إلى العالم، وهو وقت الصبح، وفيه تنشأ شخصيته، وهي مرحلة اللعب واللهو، ثم سفرٌ في العالم حتى يكتشفه ويصل منه إلى الله تعالى، وهذا السفر هو وقت الضحى، وهي مرحلة الزينة والتفاخر، ثم سفرٌ في الله تعالى بعد أن يفنى الإنسان عن العالم، وهو وقت الظهر أو الزوال، وهي مرحلة التكاثر، ثم يعود إلى العالم من جديد، ولكن بصورة مختلفة، بعد أن اكتمل علمه بالله من كون إله وليس من حيث ذاته سبحانه وتعالى أن يعلمه أحد سواه، وهذه هي مرحلة العصر التي يسافر فيها الإنسان "لينصح عباد الله" ويدعوهم إليه، وفيها يهيج النبات فتراه مصفراً، ثمّ، بعد أن يقضي ما قدّر الله له من الدعوة، يكون حطاما، ينتهي بالموت، لينتقل من جديد إلى الله تعالى ولا يبقى في الدنيا إلا أثره. فهذه هي خمسة أطوار، تضاف إلى الطور الأول الذي هو قبل التكوين، فتكون ستة أطوار أو أيّام يتم فيها الخلق، وتقوم في آخرها القيامة وهي يوم الأبد فتنتهي الدنيا وتبدأ الآخرة التي فيها عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان، فسابقوا إلى جنّة عرضها السماوات والأرض أعدّت للمتقين.[23] وأما حياته الدنيا وما ملك فيها من أموال وأولاد وزينة؛ فكل ذلك زبد، فيذهب جفاءً، وأما ما ينفع الناس، فيبقى إلى اليوم السابع، وهو وقت العشاء، وهو ما وصلنا من علوم الشيخ الأكبر، فذلك يمكث في الأرض. فهل سننتفع به، لنكون من المتقّين!

---

[23] راجع مثال هذا التقسيم في قوله تعالى في سورة الحديد:

(اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ۖ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۚ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾)

التسلسل التاريخي للأحداث

لقد حاولت جاهداً أن أرتّب فقرات هذا الكتاب حسب الترتيب التاريخي نفسه للأحداث في حياة الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي، ولكن ذلك لا يمكن أن يحصل بشكل دقيق أبداً نظراً لافتقارنا إلى المراجع الكافية واعتمادنا بشكل كامل تقريبا على التواريخ التي ذكرها الشيخ رضي الله عنه، وهو في كثير من الأحيان يذكر حوادث من غير تاريخ وأحيانا من غير تحديد المكان أو البلد. ومع ذلك فإن التواريخ التي ذكرها الشيخ الأكبر كافية لإعطاء تسلسل تاريخي دقيق للأحداث الرئيسية في حياته. فنحن لا نشك في تواريخ أسفاره الرئيسية وتنقلاته بين بلدان الأندلس والمغرب والمشرق (مصر ومكة والشام) وبلاد الروم، وعلى ذلك اعتمدنا في تقسيم هذا الكتاب إلى الفصول التي ذكرناها أعلاه. ولكن ترتيب الأحداث في كل منطقة من هذه المناطق التي أقام فيها الشيخ محيي الدين لا يمكن أن يبلغ الدرجة الكاملة من الدقة أبدا، ولذلك لا بدّ من التقريب، المعتمد على التخمين الذي قد يخطئ وقد يصيب.

من أجل ذلك ذكرنا أسماء المدن والتاريخ الذي تعود إليها كل فقرة من فقرات هذا الكتاب في عنوان الفقرة بين قوسين إذا كان ذلك معلوماً، وبدقة اليوم والليل والنهار أو الشهر، أو على الأقل السنة، إن كان ذلك ممكناً. وفي حال عدم التأكد من التاريخ وضعنا إشارة التقريب "~" قبل المكان أو الزمان الذي نذكره، وذلك فقط عندما توجد دلائل واضحة على ذلك. أما إذا لم يكن تحديد المكان والزمان ممكناً أبداً، فقد تركنا عنوان الفقرة من غير تحديد، ولكن وضعناها ضمن تسلسلها الطبيعي بين الفقرات الأخرى، على أحسن تخمين. أما إذا لم نكن متأكدين مطلقاً من مكان وتاريخ الحادثة، فسوف ننوّه إلى ذلك أثناء ذكرها، ولا يمكن أبداً أن ندّعي أننا بلغنا الكمال في ذلك، فالخطأ وارد.

ولقد حاولت أن أضع التاريخ الميلادي إلى جانب التاريخ الهجري الذي هو الأصل، ففعلت ذلك في أغلب الأحيان، إلا عندما لا يكون هناك داعٍ لذلك، حيث نذكر التاريخ الهجري فقط من غير إشارة (هـ) إلا إذا لزم الأمر وكان هناك احتمال لبعض الإشكال. وفي بعض المواضع وضعنا فقط التاريخ الميلادي وخاصة للأحداث التي كانت قبل الهجرة أو قبل الإسلام، وفي هذه الحالة نشير إليها بالحرف (م) إلا إذا كان الأمر بيّن من غير ذلك. ولكن لا بدّ من الإشارة إلى أن التحويل من السنة الهجرية إلى السنة الميلادية قد يتضمّن خطأً قد يزيد عن مقدار عام، وذلك عندما لا نعرف عن أي جزء من السنة نتكلم، ولكن مرجعنا دائما في هذا الكتاب إلى التأريخ الهجري وليس الميلادي، وإنما وضعنا التاريخ الميلادي للتقريب.

المراجع والمصادر

بالإضافة إلى كتب التاريخ المختلفة وكتب الرجال والوفيات، فإن اعتمادنا في هذا الكتاب كان بشكل أساسي على الدرر التي التقطناها من بحر "الفتوحات المكيّة"، الذي ذكر فيه الشيخ الأكبر الكثير من الحوادث التي مرّ بها في أسفاره المختلفة. بعد ذلك فإن رسالة "روح القدس في مناصحة النفس" تُعتبر مرجعاً أساسياً لكلّ من يريد دراسة حياة الشيخ الأكبر لأنه ذكر فيها العديد من شيوخه الذين تعامل معهم والذين

كثيرا ما لا نجد تعريفهم في الكتب الأخرى. يضاف إلى ذلك رسالة "الدرّة الفاخرة في ذكر من انتفعت بهم في طريق الآخرة" وهي رسالة طويلة لم تنشر بعدُ باللغة العربية مع أنه قد تمّ ترجمة أجزاء منها إلى اللغة الإنكليزية والإسبانية. ولكنني اعتمدت على بعض المخطوطات التي قام بإرسالها لي الدكتور ستيفين هرتنشتاين مشكورا. وكذلك فقد استفدنا بشكل كبير من رسائل ابن العربي الأخرى التي ذكر فيها بعض شيوخه مثل الإجازة التي كتبها للملك الأشرف الأيوبي. بالإضافة إلى ذلك فقد استخلصنا الكثير من التواريخ من مقدمات كتب الشيخ محيي الدين أو من داخل النصوص حيث يتكلم عن سبب تأليفه لهذه الكتب وتاريخه بالإضافة إلى ذكر حوادث أخرى مختلفة.

ولم نقم بكل هذا العمل من الصفر بل استفدنا كثيراً من الكتب الجيدة الأخرى للباحثين الذين سبقونا في هذا المجال واعتمدنا عليهم كثيراً في تجميع هذا الكتاب حيث قدّموا لنا عرضاً مفصلاً لحياة الشيخ الأكبر من خلال كتبه الكثيرة المطبوعة والمخطوطة والتي لم يمكن لنا الوصول إليها لولا أبحاثهم المهمة في تصنيفها ودراستها واستخلاص النتائج منها. فرغم أننا اعتمدنا بشكل أساسي على مؤلفات الشيخ محيي الدين ابن العربي نفسه، إلا أنه لا بدّ من ذكر بعض المراجع المهمة التي سهّلت علينا طريق البحث كثيراً.

فنذكر في هذا الخصوص أولا الباحث الإسباني أسين بلاثيوس وهو الذي قدّم كتاباً يعدّ من أول وأهم الدراسات حول حياة الشيخ الأكبر رغم ما فيه من الأخطاء والمغالطات، وقد قام عبد الرحمن بدوي بترجمة هذا الكتاب من الإسبانية إلى العربية وهو بعنوان: "ابن العربي، حياته ومذهبه" وطبع سنة ١٩٧٩ من قبل وكالة المطبوعات في الكويت وبيروت. ومن الأعمال المهمة والتي لا يمكن لأي باحث الاستغناء عنها ما قدمه الدكتور عثمان يحيى في كتابه (*Histoire et Classification de l'oeuvre d'Ibn 'Arabi*) والذي ترجمه الدكتور أحمد الطيبي إلى العربية ونُشر باسم "مؤلفات ابن العربي، تاريخها وتصنيفها"، ونشرته الهيئة المصرية العامة للكتاب في القاهرة سنة ٢٠٠١. وفي هذا الكتاب قام الدكتور عثمان رحمه الله مشكوراً بتقديم جدول بتواريخ وجود الشيخ الأكبر في المدن والبلدان المختلفة التي مرّ بها وذكرها في كتبه المختلفة أو ذكرها بعض تلاميذه في سماعاتهم على الكتب التي نقلوها عنه. ولكن هذا الجدول فيه أخطاء كثيرة أيضاً.

وكذلك اعتمدنا بشكل كبير على الكتاب المهم الذي قدمته كلوديا عداس باللغة الفرنسية أيضاً وترجم إلى اللغة الإنكليزية وهو كتاب "البحث عن الكبريت الأحمر" [Claude Addas, *Ibn 'Arabi ou La quête du Soufre Rouge* (Paris: Gallimard, 1985); trans. P. Kingsley, *Quest for Red Sulphur: The Life of Ibn 'Arabi* (Cambridge: Islamic Texts Society, 1993).]. وقامت كلوديا مشكورة بتحليل ودراسة حياة الشيخ وعلاقته بالشيوخ الذين التقى بهم في رحلاته المختلفة، ثم ذكرت في آخر كتابها نفس الجدول الذي وضعه الدكتور عثمان يحيى وأضافت عليه بعض التفاصيل وخاصة فيما يخص السنوات العشرين الأخيرة حين وجود الشيخ الأكبر في دمشق. وسنذكر نحن هذا الجدول في ملحق آخرَ هذا الكتاب إن شاء الله تعالى مع بعض الإضافات المهمة للأحداث التي ذكرناها داخل الكتاب.

وأخيراً لا بد من ذكر كتاب ستيفين هرتنشتاين: "الرحمن المطلق، الحياة الروحية والفكرية لابن العربي" والذي طُبع في أكسفورد سنة ١٩٩٩، وقد قدّم فيه الدكتور ستيفين تحليلا جميلا لحياة الشيخ الأكبر

الروحية وقدّمها بطريقة سهلة ومشوقة [Stephen Hirtenstein, *The Unlimited Mercifier, The Spiritual Life and Thought of Ibn 'Arabi* (Oxford: Anqa, 1999).]

وبالإضافة إلى هذه الكتب، فهناك بعض الكتب الأخرى التي استفدنا منها نذكر منها كتب الدكتورة سعاد الحكيم الكثيرة أمثال المعجم الصوفي (دار دندرة، بيروت، ١٩٨١) وتحقيقها لكتاب الإسراء (دار دندرة، بيروت، ١٩٨٨) وكتب أخرى.

ومن جهة أخرى لا بد من الإشارة أيضاً إلى بعض الكتب الرديئة التي تعرّضت لحياة الشيخ محيي الدين نذكر منها كتاب "هكذا تكلّم ابن عربي" للأستاذ نصر حامد أبو زيد (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢)؛ فرغم أن الأستاذ نصر مشهود له في هذا المجال إلا أنّ كتابه هذا جاء مليئا بالأخطاء التي لا يمكن أن تكون أخطاءً "مطبعية" فقط. فهو أحيانا يذكر تواريخ تأليف الشيخ محيي الدين لبعض كتبه بشكل خاطئ تماما؛ مثل كتاب روح القدس الذي قال عنه، في الصفحة ١٣٠، إن الشيخ ألّفه سنة ١١٩٨/٥٩٠ في تونس! فالتاريخ الميلادي هنا لا يوافق التاريخ الهجري وكلاهما خطأ، والمكان أيضاً خطأ. فكل مهتم بتاريخ الشيخ محيي الدين يعلم أن هذا الكتاب كتبه الشيخ رضي الله عنه من مكة المكرمة سنة ١٢٠٣/٦٠٠–١٢٠٤ إلى صاحبه عبد العزيز المهدوي الذي كان عنده في تونس سنة ٥٩٠ وسنة ٥٩٨. ثم يعود الأستاذ نصر بعد ذلك بأربعة صفحات فيقول، في الصفحة ١٣٤، أن الشيخ محيي الدين قد ألف هذا الكتاب من مكة سنة ٥٩٩! وأحيانا يقول إن الشيخ زار تونس سنة ١١٩٣/٥٨٧ لأول مرة، وفي فاس ١١٩٥/٥٨٩ (صفحة ٣٩)! ثم يقول في الفقرة التي تليها "في سنة ١١٧٥/٥٩٠ نجد الشيخ في تونس". فهذا كله خلط وكأنّ الأرقام لا تعني له شيئا، فضلا عن تفكك أكثر العبارات من الناحية اللغوية، وتكاد لا تخلو صفحة من خطأ تأريخي أو موضوعي. على كل حال ربما سنذكر بعضا من ذلك في مناسبته، ليس بهدف التجريح بالأستاذ نصر ولكن بهدف التوضيح للقرّاء الذين وثقوا بقلمه.

ومن الكتب الأخرى الرديئة التي نجدها حول موضوع حياة الشيخ محيي الدين رضي الله عنه، كتاب "محيي الدين ابن عربي، حياته–مذهبه–زهده"، تأليف الأستاذ الدكتور فاروق عبد المعطي وكيل كليّة الآداب–جامعة المنصورة، [كما ورد على الغلاف]، طبع في سلسلة "الأعلام من الفلسفة" من قبل دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣. وهذا العنوان يذكّرنا بكتاب أسين بلاثيوس الذي ذكرناه أعلاه والذي ترجمه الدكتور عبد الرحمن بدوي من الإسبانية إلى اللغة العربية، ونشره في الكويت وبيروت سنة ١٩٧٩، ولكن قام "الأستاذ الدكتور فاروق" بإضافة كلمة "زهده" إلى العنوان، وهي إضافة غير موفقة أبداً.[٢٤] وفيما عدا ذلك فهو

[٢٤] لم يكن الشيخ محيي الدين رضي الله عنه زاهدا بمعنى ترك الدنيا ولبس الصوف والتقشف إلى ما هنالك مما هو معروف عن عامة الزهّاد، إنما زهده كان بمعنى ترك حب الدنيا والزهد في كل ما سوى الله تعالى، فيقول رضي الله عنه: "فالزهد من القائل به جهل في عين الحقيقة" (الفتوحات المكية: ج٢ص١٧٨)، وأيضاً: "الزهد في الأشياء لا يقع إلا من الجهل القائم بهذا الزاهد" (ج٢ص٢٦٣)، و"ليس الزهد إلاّ في الفضول وأمّا ما تدعو الحاجة إليه فذلك المعوّل عليه لا يصح عنه تجريد" (ج٤ص٣٤٣). فكان ابن العربي يلبس أحسن الثياب (روح القدس: ص٢٢) ويأكل أطيب الطعام، ولكنه كان جواداً ولا يختزن شيئاً ويعطي ما يملك عن طيب نفس كما أعطى الدار التي أعطاه إياها ملك الروم لسائل سأله من فضل الله (نفح الطيب: ج٢ص١٦٤)، وكانت الدار تساوي مائة ألف درهم.

نسخة طبق الأصل من ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي حرفا بحرف، قام فاروق عبد المعطي بسَرِقَتِهَا ونسبها إلى نفسه؛ حتى إنه حافظ "بأمانة بالغة" على ترتيب الفقرات وتشكيل الحروف والتعليقات، ولولا أن شكل الحرف مختلف لقلنا أنه نسخها بالتصوير الضوئي، ولكنه قام أيضاً بحذف مقدمة المؤلف الحقيقي ومقدمة المترجم ووضع بدلا عنها مقدمة جميلة من عنده، ربما سرقها من مكان آخر.

وهناك كُتب أخرى (جيدة) باللغة العربية والفارسية والتركية والإنكليزية والفرنسية وسوف نذكر بعضها في حينه داخل هذا الكتاب، وأيضاً في مسرد المراجع في آخر الكتاب إن شاء الله.

فهذه هي شمس مقدمة هذا الكتاب "شمس المغرب" قد غربت لتشرق من جديد وبشكل متجدد في فصوله بحمد الله وفضله، ونرجو من الله تعالى أن يجعله نورا وشمس هداية للمسلمين أجمعين. ونسأل الله تعالى في البداية التوفيق والإخلاص والهداية، ثم الثبات حتى النجاة في النهاية، والله من وراء القصد، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

والحمد لله

د. محمد علي حاج يوسف

جامعة الإمارات العربية المتحدة–مدينة العين

في يوم الخميس، الأول من ربيع الأول ١٤٢٧ الموافق ٣٠ آذار ٢٠٠٦

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

الفَجْر

أجداده وانتقالهم من اليمن إلى الأندلس وخلاصة الوضع السياسي والاجتماعي فيها

قبل ولادته سنة ٥٦٠/١١٦٥

أنـــا المحيـــي لا أكـــني ولا أتبلّـــدُ[25] … أنـــا العربـــيُّ الحـــاتميُّ محمّـــدُ
لكـــلّ زمـــانٍ واحـــدٌ هـــم عينـــهُ … وانـــي ذاك الـــشخص في العـــصر أوحـــدُ
ومـــا النـــاس إلا واحـــدٌ بعـــد واحـــدٍ … حـــرامٌ علـــى الأدوار شخـــصانِ يوجـــدُ
أقابـــلُ عـــدّات الزمـــانِ بهمّـــةٍ … تـــذلّ لهـــا الـــسبع الـــشداد وتخمـــدُ
مؤيّـــدنا فيـــه علـــى كـــلّ حالـــةٍ … إلـــه الـــسما وهـــو النـــصير المؤيّـــدُ
ومـــا ذاك عـــن حـــقٍّ ولكـــن عنايـــةٌ … أتـــتني وحـــسّادي تـــروم وتجهـــدُ[26]

الخلاصة

يرجع الشيخ الأكبر محمّد ابن العربي في نسبه إلى قبيلة طيء الشهيرة، والتي زاد من شهرتها ما عُرف عن حاتم الطائي من الكرم والجود والسخاء وحسن الخلق. تعود جذور هذه القبيلة إلى اليمن وكانت تتبنّى الديانة المسيحيّة والوثنيّة ولكنهم كانوا من أوائل الذين دخلوا في الإسلام؛ فكانوا من جنوده الذين ساهموا بشكل فعّال في نشره سواء في الحرب أو في السلم عن طريق نشر العلم والأدب والمعرفة التي برعوا فيها. فمع امتداد الفتوحات الإسلامية في شتى أنحاء الأرض انتشرت قبيلة طيء بفروعها الكثيرة وكان منهم

---

[25] التبلّد أصله من الالتزام بالمكان ومنه البَلَد والبَلْدة وكذلك البلادة، انظر القاموس المحيط للفيروزآبادي، باب الدال فصل الباء.

[26] الديوان: ص٤٦، انظر آخر هذا الفصل لشرح هذه القصيدة.

آل العربي الذين استقرّوا في الأندلس مع بداية الفتوحات الإسلامية ومنهم كانت عائلة الشيخ الأكبر.

في المرحلة التي سبقت ولادة الشيخ محيي الدين وخلال حياته في الأندلس توالى على هذه البلاد، ذات الطبيعة الخلابة والثروات الغنيّة، عدة مراحل من الحكم مثل دولة المرابطين ودولة الموحدين. وشهدت هذه المراحل حروباً كثيرةً سواء بين المسلمين والإسبان أو بين طوائف المسلمين المختلفة من عرب وبربر. وتميّزت المرحلة التي سبقت ولادة الشيخ بأنها شهدت نهاية دولة المرابطين خاصة مع وفاة ابن مردنيش صاحب مُرسية وتسليم أولاده السلطة للموحّدين ومن ثمّ انتقال عائلة ابن العربي من مرسية إلى إشبيلية عاصمة دولة الموحدين في الأندلس الذين دامت دولتهم فترةً ليست بالقصيرة وامتدت طوال حياة الشيخ ابن العربي في الأندلس ثم بدأت بالانهيار مع انتقاله بشكل نهائيّ نحو المشرق، ثمّ انهارت كليّاً بعد وفاته بقليل. وخلال هذه الفترة توالى عددٌ من ملوك الموحدين على حكم الأندلس والمغرب العربي وكلهم من أبناء عبد المؤمن بن علي القيسي الذي تولّى حكم الموحدين بعد ابن تومرت الذي كان له الفضل في تأسيس هذه الدولة التي استمرّت حوالي قرن من الزمن حفظت خلاله الأندلس من السقوط بأيدي النصارى.

أصول قبيلة طيء

كانت قبيلة طيء من بني سبأ تنزل بأرض اليمن ثم انتقلت شمالاً إثر سيل العَرِم، الذي دمّر سدّ مأرب، فارتحلوا إلى الحجاز واستقرّوا بالجبلين "أجأ" و"سلمى" بين القرن الثالث والثاني قبل الميلاد، وهي أرض واسعة كثيرة المياه والشجر والنخيل والريف.

وطَيِّءُ هو جُلهُمة بن أدَدِ بن زيدِ بن كَهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح، وإنما سمّي طيئاً لكثرة طيّه المنازل والرحيل حتى أوغل بأرض الحجاز واستقر في أجأ وسلمى.[27]

وقد عاش طيء بن أدد وعَمَّرَ إلى أن بلغ ولدُهُ وولدُ ولدِه أكثر من خمسمائة رجل. وَلَدَ طيءُ بن أددٍ رجلين: الغوث بن طيء، وفُطْرة بن طيء، فولدَ الغوث عَمْراً ولؤياً، وولد عمرو بن الغوث أسودان– واسمه نَبْهان– وثُعل وجَرْم وبَوْلان وحبة. فهؤلاء بنو عمرو بن الغوث بن طيء، والعدد فيهم، ومنهم تفرّقت أكثر قبائل طيء. فمن بني نَبْهان: نابل بن نَبْهان، ومن نابل: زيد الخيل بن مهلهل الطائي. وزيد الخيل هذا هو فارس العرب كافّة، وكان يكنّى أبا مِكْنَف، وهو سيّد قومه، أسلم حين وفد على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم سنة الوفود، وسمّاه زيد الخير.

دخولهم الإسلام

كانت قبيلة طيء كحال سائر قبائل العرب قبل الإسلام لها دياناتها الوثنية وكذلك النصرانية ولكنها

---

[27] معجم البلدان، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية–بيروت، ١٩٩٠: رقم ٣١٨.

لم تتأثر بالديانة اليهودية. وكانت طيء من أول القبائل العربية التي أرسلت رجالها وفوداً على الرسول صلّى الله عليه وسلّم فأسلموا وحسُن إسلامهم في سنة تسعٍ للهجرة، وهي سنة الوفود.

وفد "زيد الخيل" على النبي صلّى الله عليه وسلّم في وفد طيء وأسلم على يديه، وهو أحد من أكرمهم رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم، وبسط له رِداءه، وسماه "زيد الخير"، وعلّمه ودَعَا له. وقال النبي صلّى الله عليه وسلّم في حقّه: "ما ذُكر لي أحدٌ فرأيته إلا كان دوْنَ ما وُصِفَ لي، إلا زيداً".[28] ونسبه هو: زيد الخير بن مُهَلهِلِ بن زيدِ بن منهبِ بن عبد رضيّ ابن المختلس بن ثوب بن كنانة بن مالك بن نابل بن نَبْهان بن عمرو بن الغوث بن طيء.

حاتم الطائي

أما حاتم الطائي المشهور بالسخاء والكرم، فهو حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج بن امرئ القيس بن عدي بن قطن بن أخزم بن ربيعة بن جرول بن ثعل بن عمرو بن الغوث بن طيء. كان قَدْرُه في قومه أنّهم وضعوا عنه المغازي، وضربوا له بالسهام، وكان يَنحر كل يوم جزورا وكان له قِدْرٌ نُحاس على الأثافي لا تُزال أبداً. أدرك حاتم الإسلام إلا أنه لم يسلم، ومات نصرانياً. ويفتخر الشيخ محيي الدين بحاتم الطائي وبكرمه ويدعوه "جدّي".[29]

الصحابي الجليل عديّ بن حاتم

وكذلك يفتخر الشيخ محيي الدين رضي الله عنه بالصحابيّ الجليل عديّ بن حاتم ويدعوه "جدّي" أيضاً.[30] وعدي بن حاتم هو الصحابيّ الجليل أبو طريف عُديّ بن حاتم الطائي وكان نصرانياً وكان ملكاً من ملوك العرب يأخذ الربع من غنائم قومه كما كان يفعل غيره من الملوك. هرب إلى الشام فراراً من جيوش المسلمين وترك أخته سفّانة في نجد بعد أن أسرها المسلمون، فكانت السبب في إسلامه، كما يروي ذلك عديّ رضي الله عنه. أسلم سنة تسع للهجرة وشهد فتح العراق ثم سكن الكوفة. كان خطيباً حاضر البديهة وكان رئيس طيء في الجاهلية والإسلام، قام في حروب الردة بأعمال كبيرة وشهد حرب الجمل وصفّين والنهروان مع عليّ بن أبي طالب. توفي في الكوفة سنة ٦٨/٦٨٧.[31]

وكان لعديّ ولدان توفي كلاهما معه في معارك المسلمين مع الخوارج، فانقطع عقب حاتم من جهة ابنه عديّ، فأما بقية قبيلة حاتم الطائي، الذين منهم ابن العربي، فهي من جهة ابنه عبد الله بن حاتم

---

[28] أسد الغابة في معرفة الصحابة، عز الدين بن الأثير أبي الحسن علي بن محمد الجزري، تحقيق وتعليق محمد إبراهيم البنا ومحمد أحمد عاشور ومحمود عبد الوهاب فايد، دار الشعب–القاهرة، ١٩٧٠: ج٤ص٧.

[29] انظر مثلا كتاب محاضرة الأبرار: ج١ص٤٤١.

[30] محاضرة الأبرار: ج٢ص٢٢٤.

[31] ابن الأثير، "أسد الغابة في معرفة الصحابة": ج٤ص٧–١٠.

فقط،[٣٢] وكانوا ينزلون بنهر كربلاء.

بعض مشاهير الطائيين

ويصعب تتبع النسب بعد عبد الله بن حاتم الطائي نظراً لتفرق الناس وخروجهم في الغزوات والفتوحات الإسلامية خارج جزيرة العرب إلى شتى أنحاء العالم، بما في ذلك المغرب العربي ثم الأندلس. ولكن العديد من بني عبد الله الحاتمي وأبناء عمومته كان لهم شأن كبير في تاريخ الإسلام، سواء في الفتوحات العسكرية أو في مجال العلوم والمعارف الإسلامية. ومن الواضح أن الكثير من بني حاتم لهم توجّه روحاني صوفي مثل ابن العربي.

* فمنهم: داود بن نُصير الطائي المكنى أبا سليمان الكوفي، اشتغل بالعلم مدة ودرس الفقه وغيره من العلوم، ثم اختار بعد ذلك العزلة وآثر الانفراد والخلوة، ولزم العبادة واجتهد فيها إلى آخر عمره. قيل أنه ورث من أمه داراً فكان ينتقل في بيوت الدار كلما خرب بيت من الدار انتقل منه إلى آخر ولم يعمّره، حتى أتى الخراب على عامّة بيوت الدار. وورث من أبيه دنانيرَ وكان ينفق منها حتى كُفّن بآخرها. وصام أربعين سنة ما علم به أهله؛ كان يحمل غداءه معه ويتصدق به في الطريق ويرجع إلى أهله يفطر عشاءً لا يعلمون أنه صائم. وكان محارب بن دثار يقول: لو كان داود الطائي في الأمم الماضية لقصَّ الله علينا من خبره! مات داود بالكوفة سنة ستين ومائة، وقيل: سنة خمس وستين ومائة.[٣٣]

ويبدو أن هناك علاقة وطيدة بين داود الطائي والشيخ أبي مدين الذي تأثر به الشيخ محيي الدين كثيرا كما سنرى في الفصل الثالث. فقد سرده المقرّي مؤلف كتاب "نفح الطيب" في سلسلة شيوخه الذين أخذ عنهم في سلسلة ترجع عن طريق الحسن البصري وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ومن ضمنهم أبو مدين وداود الطائي.[٣٤] بالإضافة إلى ذلك فإن الشيخ أبا مدين قد لبس الخرقة الصوفية من شيخه أبي يعزى من سلسلة رجال فيهم داود الطائي.[٣٥]

* ومن الطائيين أيضاً الشاعر المشهور أبو تمام وهو حبيب بن أوس بن الحارس الطائي، وهو شامي الأصل، كان بمصر في حداثته يسقي الماء في المسجد الجامع، ثم جالس الأدباء، فأخذ عنهم وتعلم منهم، وكان فطِناً فهِماً. بلغ المعتصم خبره فدعاه إليه، فقال به أبو تمام قصائد عديدة، وأجازه المعتصم، وقدمه على شعراء وقته، وقدِم بغداد وجالس الأدباء وعاشر العلماء، وكان موصوفاً بالظرف وحسن الأخلاق وكرم النفس،

---

[٣٢] جمهرة أنساب العرب، أبي محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي، تحقيق وتعليق عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية- بيروت، ١٩٨٣، ص٤٠٢.

[٣٣] الأنساب، الإمام أبي سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني، تقديم وتعليق عبد الله عمر البارودي، دار الجنان- بيروت، ١٩٨٨: ج٤ص٣٦.

[٣٤] نفح الطيب: ج٥ص٢٤١، وكذلك: ج٥ص٢٦٨.

[٣٥] انظر كتاب: تجريد التحقيق حول الفقيه المقدم وسند الخرقة والطريق، تأليف السيد حسن بن أحمد بن محمد العيدروس باعلوي، حضرموت، كتاب، غير مطبوع، منشور على الانترنت (www.shiahdarm.net/books/el_fagih/fehrest.htm)، ص١٠.

وفي آخر عمره ولاه الحسن بن وهب بريد الموصل، وكانت له به عناية، فأقام بها أقل من سنتين، ومات بها في جمادى الأولى سنة إحدى وثلاثين ومائتين، ودفن بها، وكانت ولادته سنة تسعين ومائة.[36] ويقول الشيخ محيي الدين في "محاضرة الأبرار" أن شيخه أبا بكر بن خلف بن صاف الكومي، وهو الذي درس عليه القرآن كما سنرى في الفصل القادم، كان ينشده من شعر أبي تمام الطائي البيتين الشهيرين:

نقّل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحبّ إلا للحبيب الأول

كم منزلٍ في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبداً لأول منزل

* وأما نوح بن درّاج الطائي، فكان قاضياً بالكوفة، يروي عن العراقيين، وروى عنه عليّ بن حُجر. مات سنة اثنتين وثمانين ومائة، وكان أعمى.

* وأبو عبد الرحمن الهيثم بن عدي بن عبد الرحمن الطائي، أبوه من أهل واسط، ولد بالكوفة وبها نشأ، ثم انتقل إلى بغداد وسكنها، ومات بها. قال أبو حاتم بن حبان البستي: الهيثم بن عدي كان من علماء الناس بالسير وأيام الناس وأخبار العرب.[37]

* وأبو سليمان داود بن المحبر بن قحذم بن سليمان بن ذكوان الطائي، من أهل البصرة، وهو مصنف "كتاب العقل". حدث عن شعبة، وحماد بن سلمة، وهمام بن يحيى وعباد بن كثير وصالح المري والهيثم بن حماد، وعبد الواحد بن زياد، وغياث بن إبراهيم، وإسماعيل بن عياش، وهياج بن بسطام وطبقتهم. روى عنه محمد بن الحسين البرجلاني، ومحمد بن إسحاق الصغاني، ومحمد بن عُبَيْد الله بن المنادي، والحسن بن مكرم البزاز، وأبو محمد الحارث بن أبي أسامة التميمي وغيرهم. واختلف الناس فيه فمن موثق ومن مكذب. مات داود بن المحبر ببغداد يوم الجمعة لثمان مضين من جمادى الأولى سنة ست ومائتين.[38]

* وأبو القاسم عبد الله بن أحمد بن عامر بن سليمان بن صالح الطائي، من أهل بغداد، روى عن أبيه عن عليّ بن موسى الرضا عن آبائه عليهم السلام. حدث عنه أبو بكر محمد بن عمر الجعابي، وأبو بكر أحمد بن إبراهيم بن شاذان، وأبو حفص عمر بن أحمد بن شاهين، وإسماعيل بن محمد بن زنجي، وأبو الحسن بن الجندي وغيرهم، وكان أمياً. توفي في شهر ربيع الآخر سنة أربع وعشرين وثلاثمائة.[39]

* وأبو الحسن عليّ بن حرب بن محمد بن عليّ بن حيان بن مازن بن الغضوبة الطائي الموصلي. ذكر أن مازن بن الغضوبة وفد على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، مع وفد طيء. وأما عليّ بن حرب فإنه كان أحد من رحل في الحديث إلى الحجاز وبغداد والكوفة والبصرة، ولد بأذربيجان في شعبان سنة خمس وسبعون ومائة، ومات بالموصل في شوال سنة خمس وستين ومائتين.

---

[36] السمعاني، "الأنساب": ج٤ص٣٧.

[37] السمعاني، "الأنساب": ج٤ص٣٧.

[38] السمعاني، "الأنساب": ج٤ص٣٨.

[39] السمعاني، "الأنساب": ج٤ص٣٨.

* وأبو صالح يحيى بن واقد الطائي، ولد في خلافة المهدي سنة خمس وستين، وكان عارفاً بالنحو واللغة العربية.

* وأبو الحسن رافع بن عميرة الطائي، وهو رافع بن أبي رافع الذي غزا مع أبي بكر الصديق، وهو الذي قطع ما بين الكوفة ودمشق في خمس ليالٍ.[٤٠]

الفتوحات الإسلامية والرحلة نحو المغرب

مع بداية الفتوحات وتوسع رقعة الدولة الإسلامية، بدأ المسلمون ينتشرون في بقاع الأرض شمالاً ثم شرقاً وغرباً. فبعد أن أخمد أبو بكر الصديق رضي الله عنه عصيان مانعيّ الزكاة وقاتل المرتدّين وعمّ الإسلامُ أرجاء الجزيرة، وجّه القوى الإسلامية إلى الجهاد في جبهتين: جبهة العراق بقيادة خالد بن الوليد وجبهة الشام بقيادة أبي عبيدة ابن الجراح. وفي العراق تمّ فتح القسم الجنوبي منه، ثم أمر أبو بكر خالد بن الوليد أن يتوجه إلى الشام مع قسم من جيش العراق مدداً لأبي عبيدة ابن الجراح، وتم فتح الشام بعد موقعة اليرموك سنة ٦٣٤/١٣ قُبيل وفاة أبي بكر رضي الله عنه.

ثم استمرت الفتوحات في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه (٦٣٤/١٣-٦٤٤/٢٣) حيث غزى معاوية الروم حتى بلغ عمورية، وكذلك فُتحت أرمينية وأذربيجان، وفُتحت مصر على يد عمرو بن العاص وامتد الفتح على الأقاليم الساحلية الليبية طرابلس وبرقة. وفي الشرق اجتاز المسلمون حدود بلاد إيران ففتحوا خراسان والأهواز وإقليم فارس وامتد الفتح جنوباً حتى مكران إلى حدود السند وشرقا إلى أفغانستان.

وفي خلافة عثمان رضي الله عنه (٦٤٤/٢٣-٦٥٦/٣٥) بسطت الدولة الإسلامية سيطرتها على هذه المناطق الواسعة وزادت اتساعا. وامتد الفتح الإسلامي نحو أفريقية بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح الذي ولاه عثمان بعد أن عزل عمرو بن العاص، وانتصر المسلمون على جيش الروم، وتم الاستيلاء على سبيطلة التي اتخذوها عاصمة لهم.

أما في عهد علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، فقد توقفت الفتوحات بسبب الفتن التي ثارت في عهده وانتهت بقتله رضي الله عنه. فلما انتقلت الخلافة إلى بني أمية، ودامت ٩١ سنة وتسعة أشهر، امتدت رقعة الدولة الإسلامية من البحر الأطلسي غرباً إلى حدود الصين شرقاً.

فتح الأندلس

ففي عام ٧٠٥/٨٦ وفي زمن الوليد بن عبد الملك الأموي تولى موسى بن نصير المغرب، فأخضع البربر، ونشر الأمن في تلك الديار، واستطاع أن يفتح طنجة فترك بها حامية يقودها طارق بن زياد الذي عسكر بمن معه من المسلمين على سواحل بحر الزقاق، وبدأت أنظارهم تتجه نحو الأندلس (إسبانيا) التي كان يحكمها القوط منذ عام ٥٠٧ م، غير أن أمرهم بدأ يضعف حيث قسمت إسبانيا إلى إمارات صغيرة (دوقيات)

---

[٤٠] السمعاني، "الأنساب"، ج٤ص٣٩.

تابعة إلى الملك في طليطلة.

ركب طارق السفن في سبعة آلاف من المسلمين، أرفدوا لاحقا بخمسة آلاف آخرين، وألقت السفن مرساها قبالة الجزيرة الخضراء عند جبل سمي فيما بعد جبل طارق (وكذلك يسمّى جبل الفتح). وسار طارق باتجاه قرطبة، لمواجهة الإسبان الذين جمعوا جيشاً جراراً بلغ من سبعين إلى مائة ألف. وبدأ القتال يوم الأحد الثامن والعشرين من رمضان سنة ٩٢ هـ (٧١١/٠٧/١٩ م)، فأظهر الإسبان مقدرة عظيمة أول المعركة، وثبتوا لضغط المسلمين، ولكن ما لبثوا أن انهار جيشهم وانهزم واحتل المسلمون معسكرهم وغنموا ما فيه، واتجهوا لفتح المدن الرئيسية الأخرى، ففتحوا شذّونة ومدوّرة وقرمونة وإشبيلية وأستجة ثم طليطلة. فأرسل موسى إلى طارق يأمره بالتوقف لأنه توغل أكثر مما ينبغي، ثم عبر موسى إلى الأندلس بناءً على استغاثة وجهها إليه طارق، وذلك في شهر رمضان سنة ثلاث وتسعين، بجيش عدده ثمانية عشر ألفاً، ففتح بعض المدن التي لم يفتحها طارق. وبذلك تم فتح جميع الأندلس التي بقيت تحت حكم المسلمين زهاء ثمانية قرون أنشؤوا خلالها حضارة زاهرة لا تزال آثارها باقية حتى اليوم.

مراحل الحكم الإسلامي في الأندلس

تعاقب على حكم الأندلس خلال هذه القرون ستة عصور تاريخية وهي:

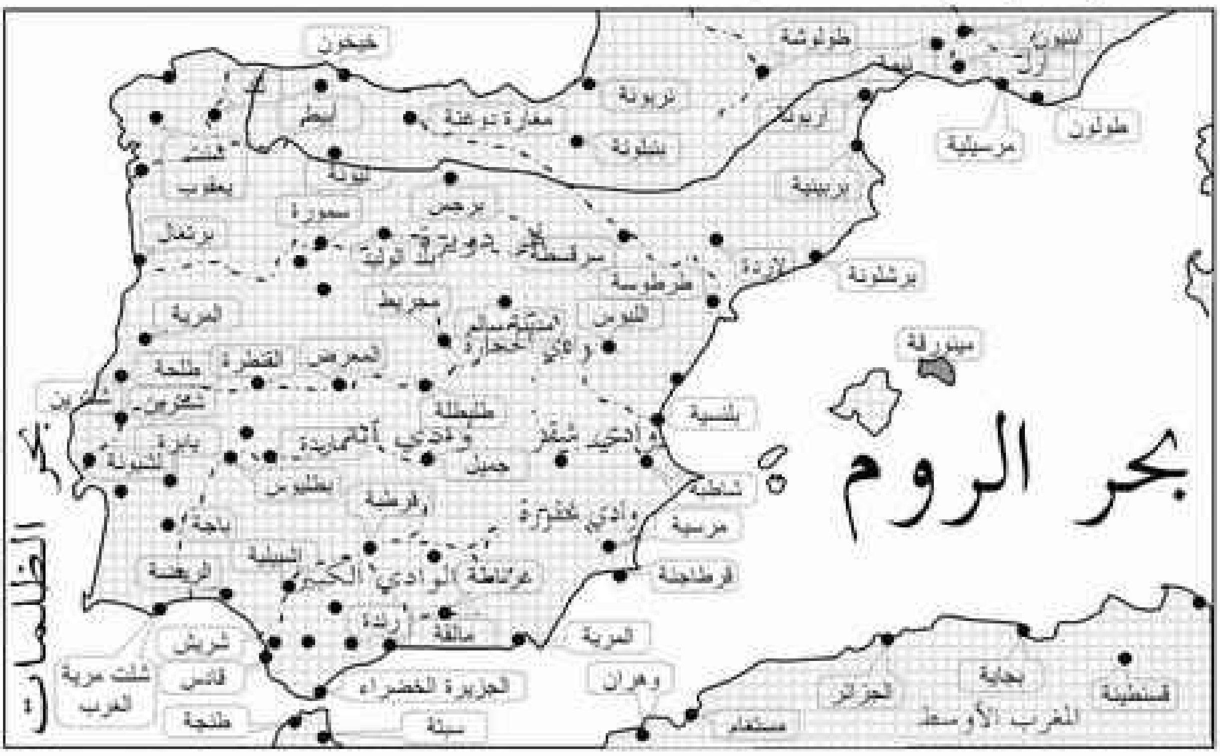
١. عصر الولاة ومدّته ٤١ سنة من ٧١٣/٩٥ إلى ٧٥٥/١٣٨.
٢. الدولة الأموية بالأندلس ومدّتها ٢٨٤ سنة من ٧٥٥/١٣٨ إلى ١٠٣١/٤٢٢.
٣. عصر ملوك الطوائف ومدّته ٦٢ سنة من ١٠٣١/٤٢٢ إلى ١٠٩١/٤٨٤.
٤. المرابطون بالأندلس ومدّتهم ٥٦ سنة من ١٠٩١/٤٨٤ إلى ١١٤٥/٥٤٠.
٥. الموحدون بالأندلس ومدّتهم ٩٢ سنة من ١١٤٥/٥٤١ إلى ١٢٣٥/٦٣٣.
٦. دولة بني الأحمر في غرناطة ومدّتها ٢٦١ سنة من ١٢٣٥/٦٣٦ إلى ١٤٩٢/٨٩٧.

ففي عصر الولاة برز عبد الرحمن الغافقي الذي واصل الفتوح في أوربا حتى وصل إلى باريس حيث أوقفه التحالف الصليبي، وهزمه في معركة بلاط الشهداء.

وتعدّ الدولة الأموية بالأندلس من أزهى العصور جميعاً وأطولها، وقد أسسها عبد الرحمن الداخل المعروف بصقر قريش، وقد قام بأعمال عسكرية كثيرة حتى يوطد حكمه في قرطبة ثم بدأ يسيطر على ما حولها من مدن الأندلس، وقد تعاقب على حكم الدولة بعده تسعة حكام، كان آخرهم هشام الثاني حيث استولى على الحكم في عهده المنصور بن أبي عامر إلى أن أسقطت الدولة الأموية عام ١٠٣١/٤٢٢، وبدأ عصر ملوك الطوائف.

فقد توزّعت الأندلس على الأمراء، فبنى كل منهم دويلة صغيرة، وأسس فيها أسرة حاكمة من أهله وذويه، وبلغت هذه الدويلات أكثر من عشرين دويلة كان يسودها الاضطراب والفوضى والفتن، فكانت هذه فرصة سانحة لكي يقوى شأن النصارى الإسبان، وتفاقم الأمر بسقوط طليطلة في يد النصارى سنة ١٠٨٥/٤٧٨

فأسرع المعتمد بن عبّاد أمير دولة بني عباد في إشبيلية، وكانت أكبر دولة بين ملوك الطوائف، يستنجد بدولة المرابطين في المغرب، واتفق مع يوسف بن تاشفين على مواجهة النصارى، وبالفعل استطاع المسلمون تحقيق نصرٍ عسكريٍ كبيرٍ على النصارى في موقعة الزلاقة سنة ١٠٨٦/٤٧٩.



الأندلس العربية أيام الأمويين

ثم ما لبث المرابطون حتى استولوا على حكم الأندلس، فأسّسوا دولة مجاهدة استطاعت إنقاذ البلاد من السقوط فترة طويلة حتى ضعفت وتهاوت لترثها دولة الموحدين الذين واصلوا حماية الأندلس بانتصارهم على النصارى في موقعة الأرك سنة ١١٩٥/٥٩١، واستمرت الأعمال العسكرية بينهما حتى تلقى الموحدون ضربة قاسية بهزيمتهم في معركة العقاب سنة ١٢١٢/٦٠٩، وكانت هذه الهزيمة من أسباب انتهاء الوجود الإسلامي في الأندلس كلها: فقد سقطت دولة الموحدين وسقطت إشبيلية، وتهاوت كثير من المدن الأندلسية أمام زحف النصارى، فسقطت سرقسطة، وبعدها مرسية وتبعتها المرية، ومالقة، وبلنسية، وأشبونة وأصبح حكم المسلمين محصوراً في غرناطة التي أسس عليها بنو الأحمر أو بنو نصر دولة حكمت قرابة قرنين ونصف من الزمن حتى تهاوت هي الأخرى، وبسقوطها تم سقوط الأندلس نهائيا سنة ١٤٩٢/٨٩٧.

وفيما يلي سوف نلقي مزيداً من الضوء على الفترة التي سبقت ولادة الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي والفترة التي عاش فيها في الأندلس ثم سندع الكلام عن البلدان الأخرى التي مرّ فيها وسكنها إلى الفصول القادمة عند ذكرها.

بداية المرابطين في مراكش

بعد انهيار الخلافة الأموية في قرطبة تفتّت الأندلس إلى دويلات كثيرة كما رأينا؛ كل دويلة ملكها ملك يتبع لطائفة من الطوائف منهم البربر ومنهم العرب. فكان بنو عبّاد في إشبيلية وهم سلالة عربية الأصل يرجع نسبهم إلى قبيلة لخم اليمنية. كان أول ملوكهم أبو القاسم محمد بن عباد (٤٣٤/١٠١٣-٤٦٤/١٠٤٢) قاضياً على إشبيلية فاستولى على الحكم فيها ولقّب نفسه بالمعتضد.

في أثناء خلافة المعتضد بدأ أمر المرابطين في المغرب كحركة إصلاحية أسسها عبد الله بن ياسين ثم ما لبث أن قاد حركة جهادية لنشر الدين. فبدأوا بنشر الدعوة في الجنوب ثم باقي مناطق الصحراء الغربية. وفي عهد يوسف بن تاشفين تم فتح المغرب و غرب الجزائر ثم بناء مدينة مراكش التي اتخذوها عاصمة لهم.

وبعد وفاة المعتضد تولى ابنه القاسم أبو عمر الحكم ولقّب نفسه بالمعتمد وفي عهده أصبحت إشبيلية مركزاً قوياً وعاصمة للثقافة ودخلت العديد من المدن في سيادتها. ولم يزل المعتمد يمدّ سيطرته على بلدان الأندلس وامتدت مملكته إلى أن بلغت مدينة مرسية في الشرق. ثم بعد ذلك بدأ ملكه يتضعضع مما أدى إلى استيلاء النصارى على طليطلة سنة ٤٧٨/١٠٨٥ فلجأ المعتمد إلى المرابطين في المغرب كآخر حلّ للإبقاء على ملكه. فذهب المعتمد إلى مراكش إلى أمير المرابطين يوسف بن تاشفين الذي كان يسمي نفسه أمير المسلمين، فاستنصره فأسرع أمير المسلمين إلى إجابته فرجع المعتمد إلى الأندلس مسروراً ولم يدرِ أن كان في تدبيره تدميره.

بداية المرابطين في الأندلس

في سنة ٤٧٩/١٠٨٦ قاد ابن تاشفين أولى حملاته في الأندلس وانتصر على النصارى في معركة الزلاقة الشهيرة. ثم بدأت مرحلة أخذ وردّ على السلطة بين المرابطين وحكام الطوائف في الأندلس إلى حين بسط المرابطون السيطرة الكاملة على الأندلس سنة ٤٨٦/١٠٩٤، ونُفي المعتمد ثم توفي بعد ذلك في سجنه بأغمات في المغرب.

وحين ملك يوسف أمير المسلمين جزيرة الأندلس وأطاعته بأسرها أصبح من يومئذ هو وأولاده في جملة الملوك. واجتمع له ولابنه من أعيان الكتّاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق لغيره في عصر من العصور.

واتصلت حال أمير المسلمين يوسف في إيثار الغزو وقمع ملوك النصارى والحرص على ما يعود بالمصلحة على جزيرة الأندلس إلى أن توفي في شهور سنة ٤٩٣/١٠٩٩.

قام بأمره من بعده ابنه علي بن يوسف بن تاشفين وتلقّب بلقب أبيه أمير المسلمين فجرى على سنن أبيه في إيثار الجهاد وإخافة العدو وحماية البلاد وكان حسن السيرة جيد الطوية نزيه النفس بعيداً عن الظلم حتى إنه كان يُعدّ من الزهّاد أقرب منه إلى أن يُعدّ في الملوك.

الفقهاء وعلم الكلام

واشتد إيثار أمير المسلمين لأهل الفقه والدين وكان لا يقطع أمراً في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء فكان إذا ولّى أحداً من قضاته كان فيما يعهد إليه ألا يقطع أمراً ولا يبتّ حكومة في صغير من الأمور ولا كبير إلا بمحضر أربعة من الفقهاء، فبلغ الفقهاء في أيامه مبلغاً عظيماً لم يبلغوا مثله في الصدر الأول من فتح الأندلس وعظم أمرهم فكثرت أموالهم واتسعت مكاسبهم ولم يكن يقرب من أمير المسلمين ويحظى عنده إلا من كان له علم جيّد في علم الفروع في مذهب مالك. وقرّر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام وكراهة السلف له وهجْرهم من ظهر عليه شيء منه وأنه بدعة في الدين، فلما دخلت كتب أبي حامد الغزالي رحمه الله إلى المغرب أمر أمير المسلمين بإحراقها وتقدّم بالوعيد الشديد من سفك الدم واستئصال المال إلى من وُجد عنده شيء منها واشتد الأمر في ذلك. ولكنّ هذا الحال ما كان يروق للصوفيين الذي كانوا يدرّسون كتب أبي حامد لتلاميذهم كما سنرى بعد قليل.

اختلال أحوال المرابطين

ومع بداية القرن الخامس الهجري اختلت حال أمير المسلمين بعد ذلك اختلالاً شديداً فظهرت في بلاده مناكر كثيرة وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد ودعواهم الاستبداد والاستقلال وانتهوا في ذلك إلى التصريح، فصار كلٌّ منهم يصرّح بأنه خير من أمير المسلمين وأحق بالأمر منه. واستولى بعض النساء على الأحوال وأُسندت إليهن الأمور وأمير المسلمين في ذلك كله يزيد تغافله ويقوى ضعفه، وعكف على العبادة والتبتل فكان يقوم الليل ويصوم النهار مشتهراً عنه ذلك وأهمل أمور الرعية غاية الإهمال فاختل لذلك عليه كثير من بلاد الأندلس وكادت تعود إلى حالها الأول لا سيما بعد أن قامت دعوة ابن تومرت وبدأ أمر الموحدين يظهر.[٤١]

دولة الموحدين

نشأت دولة الموحدين أول أمرها في المغرب ثم وصلت حدودها من طرابلس شرقاً إلى المحيط الأطلسي ثم امتدت إلى الأندلس. ومؤسس هذه الحركة هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت (٤٨٥/١٠٩٢-٥٢٤/١١٣٠) وهو من قبيلة زناتة البربرية، وكان يدعو إلى مذهب التوحيد فعُرف أصحابه بالموحدين وتلقب بالمهدي. بدأ في سنة ٥١٥/١١٢١ كآمر بالمعروف وناه عن المنكر وكان قد رحل إلى المشرق سنة ٥٠١/١١٠٧ في طلب العلم وانتهى إلى بغداد. وقيل أنه ذُكر للغزالي ما فعل أمير المسلمين بكتبه

---

[٤١] للمزيد من المعلومات حول هذه الفترة راجع كتاب: الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني ٥١٠/١١١٦-٥٤٦/١١٥١، تأليف عصمت عبد اللطيف دندش، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٨. ولمعلومات عن دولة المرابطين راجع كتاب: أضواء جديدة على المرابطين، للمؤلف عصمت عبد اللطيف دندش، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩١. وانظر كذلك في كتاب: دولة الإسلام في الأندلس (عصر المرابطين والموحدين)، محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٤.

التي وصلت إلى المغرب من إحراقها وإفسادها وابن تومرت كان حاضرا في ذلك المجلس فقال الغزالي حين بلغه ذلك: ليذهبن عن قليل ملكه وليقتلن ولده وما أحسب المتولي لذلك إلا حاضراً مجلسنا! وكان ابن تومرت يحدّث نفسه بالقيام عليهم فقوي طمعه وكرّ راجعاً إلى الإسكندرية ثم إلى بجاية فأظهر بها تدريس العلم والوعظ واجتمع عليه الناس ومالت إليه القلوب فأمره صاحب بجاية بالخروج عنها حين خاف عاقبته فخرج منها متوجهاً إلى المغرب فنزل بضيعة يقال لها ملالة على فرسخ من بجاية وبها لقيه عبد المؤمن بن علي وهو إذ ذاك متوجه إلى المشرق في طلب العلم. فلما رآه محمد بن تومرت تفاوض معه واتفقا على إحياء العلم وإخماد البدع والجهاد في سبيل الله. وخرج ابن تومرت متوجهاً إلى مدينة تلمسان فأقام بمسجد بظاهرها يعرف بالعبّاد جارياً على عادته، وهو المكان الذي سيزوره الشيخ محيي الدين مرارا كلما زار تونس لأنه كان مكانا شهيرا يؤمّه المتصوفون.

بدأ ابن تومرت يعلم الناس الذين اجتمعوا حوله وازداد روّاده بسرعة وكان له في النفوس هيبة وفي الصدور عظمة فلا يراه أحد إلا هابه وعظم أمره، وكان شديد الصمت كثير الانقباض؛ إذا انفصل عن مجلس العلم لا يكاد يتكلم بكلمة. ثم صنّف لهم الكتب وكان على مذهب أبي الحسن الأشعري في أكثر المسائل إلا في إثبات الصفات فإنه وافق المعتزلة في نفيها وفي مسائل قليلة غيرها ويقال إنه يبطن شيئاً من التشيّع[42] غير أنه لم يظهر منه إلى العامة شيئا، وهو يُرجع نسبه إلى علي بن أبي طالب.

خاض الموحدون معركتين ضد المرابطين هزموا في الأولى سنة ١١١٧/٥١١ وانتصروا في الثانية سنة ١١٢٩/٥٢٤ وقد مرض ابن تومرت بعد هذه الموقعة وتوفي بعد أن أسس القواعد لإقامة دولة الموحدين.

عبد المؤمن بن علي القيسي (١١٢٩/٥٢٤–١١٦٣/٥٥٨)

كان ابن تومرت قد أوصى قبل وفاته بالخلافة لعبد المؤمن بن علي القيسي فلما توفي تولى عبد المؤمن الحكم واستطاع أن يقضي على المرابطين الذين كانت دولتهم تنهار وتتفتت كما رأينا أعلاه، فأقام على أنقاضهم دولة الموحدين ووحّد أفريقية الشمالية كلها حيث قضى على سلطة النرمنديين في تونس واستخلصها منهم سنة ١١٦٠/٥٥٥ وأخضع أمراء الطوائف المستبدين وأصبح ملكه ينبسط من أقصى ليبيا إلى المحيط الأطلنطي؛ فأخذ مراكش عام ١١٤٧/٥٤١ وتونس وليبيا عام ١١٦٠/٥٥٤ والأندلس ما بين ١١٤٦/٥٤٠–١١٥٤/٥٤٨.

فلما انتشرت دعوة الموحدين في المغرب تشوّف إليهم أعيان الأندلس لما حلّ بهم من الفساد مع

[42] إن انتساب ابن تومرت لعلي كرّم الله وجهه لا يعني مطلقا أنه كان شيعيا، فهذه دعوى مردودة كما هو الحال مع ابن العربي الذي يعتبره بعض الجاهلين شيعيًا لأنه أبدى حبا شديدا لآل البيت وتكلّم عن المهدي وعن الأئمة، ولكنّه أيضاً لا يخفى على أحد أنه يعتبر أن أبا بكر الصدّيق رضي الله عنه إمامه وقدوته وكذلك عمر الفاروق رضي الله عنه ولا يفرّق بين أحد من الصحابة، كما سنناقش ذلك في الفصل السابع إن شاء الله تعالى. ولو كان ابن تومرت الذي أسس دولة الموحدين يضمر التشيّع لظهر ذلك على أتباعه الذين كانوا لا يحيدون عن تعاليمه قيد أنملة، فإذا كان هو يضمر التشيّع في بداية أمره خوفا من الناس فكيف يضمره ملوك الموحدين وقد ملكوا الأندلس والمغرب لأكثر من مئة سنة.

تراجع حكم المرابطين فيها كما رأينا، فجعلوا يوفدون في كل يوم عليهم ويتنافسون في الهجرة إليهم فدخل في ملكهم كثير من جزيرة الأندلس كالجزيرة الخضراء ورندة ثم إشبيلية وقرطبة وغرناطة. فلما رأى عبد المؤمن ذلك جمع جموعاً عظيمة وخرج يقصد جزيرة الأندلس فاستقبله الناس بالمبايعة، حتى دانت له معظم البلاد، فرجع إلى أفريقية لإخماد بعض الثورات فيها.

عهد عبد المؤمن في حياته إلى أكبر أولاده محمد وبايعه الناس، فلما توفي عبد المؤمن في السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ١١٦٣/٥٥٨، اضطرب أمر ابنه محمد الذي لم يكن كفؤا للخلافة لما عرف عنه من إدمان شرب الخمر واختلال الرأي وكثرة الطيش وجبن النفس، فاتفق أعوان الدولة على خلعه فكانت ولايته إلى أن خلع خمساً وأربعين يوماً.

ابن مَرْدَنيش (١١٢٤/٥١٨–١١٧١/٥٦٧)

فبعد سقوط دولة المرابطين بدأت فترة ملوك الطوائف الثانية، مثل ابن مردنيش وبني غانية، إلا أن هذه الممالك لم تعمّر طويلا، فقد زحفت جيوش الموحدين إلى الأندلس لتحلّ مكان قوات المرابطين كما رأينا. فخاض عبد المؤمن وبنوه حروبا كثيرة ضد ابن مردنيش الذي استعان بالنصارى على الموحّدين، فهزمهم عبد المؤمن، وقتلهم أبرح قتل، واستخلص غرناطة سنة ١١٦٣/٥٥٧ من يد ابن مردنيش. فاستقر ابن مردنيش في مرسية وفالنسيا إلى أن مات سنة ١١٧٢/٥٦٨ فاستولى الموحدون على إمارته.

وابن مردنيش هو محمد بن سعد بن محمد بن أحمد بن مردنيش الجذامي الأندلسي، كان صهراً لأبي محمد عبد الله بن عياض فارس الأندلس، وبطلها المشهور الذي دافع عن شرقي الأندلس في أواخر دولة المرابطين، فلما توفي ابن عياض اتفق رأي أجناده على تقديم ابن مردنيش عليهم، وكان صغير السن شاباً، لكنه كان ممن يُضرب بشجاعته المثل.[٤٣]

وقد اهتم ابن مردنيش بجمع الصناع واشتغل ببناء القصور العجيبة والبساتين العظيمة. فبعد أن تولّى مرسية بعد ابن عياض وضمّ إليها بلنسية وشاطبة ودانية واتسعت إمارته، طمع بقرطبة وإشبيلية وكاد يستولي على جميع الأندلس. فنهض الموحدون لقتاله فلم يتردّد بالاستعانة بالإسبان عليهم، وكان ذلك أكبر زلاته، ولكنهم غلبوه وحصروه بمرسية، فمات في أثناء الحصار. قال الصفدي: سقته والدته السم، ولما أحس بالموت أمر أهله بتسليم البلاد إلى ابن عبد المؤمن. فحين رآهم يوسف بن عبد المؤمن فرح بهم، وسرّه قدومهم عليه، وتسلم بلادهم وتزوج أختهم، وأكرمهم وأقاموا معه. ولا شك أن والد ابن العربي الذي كان من المقربين عند ابن مردنيش ذهب معهم إلى إشبيلية وكان ذلك سنة ١١٧٢/٥٦٨ حين كان ابن العربي قد بلغ من العمر ثمانية سنين.

يقول الشيخ محيي الدين عن ابن مردنيش سلطان مرسية:

---

[٤٣] سير أعلام النبلاء، تصنيف الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، حقق نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه شعيب الأرنؤوط وحسين الأسد، مؤسسة الرسالة–بيروت، ١٩٨١–١٩٨٦: ج٢٠ص٢٤٠–٢٤٢.

> ولقد نادى بعض الرعايا سلطاناً كبيراً بمرسية فلم يجبه السلطان، فقال الراعي كلمني فإن الله تعالى كلّم موسى. فقال له السلطان حتى تكون أنت موسى! فقال له الراعي حتى تكون أنت الله! فمسك السلطان له فرسه حتى ذكر له حاجته فقضاها. كان هذا السلطان صاحب شرق الأندلس يقال له محمد بن سعد بن مردنيش الذي وُلدت أنا في زمانه وفي دولته بمرسية.[٤٤]

أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (١١٦٣/٥٥٨–١١٨٤/٥٨٠)

ولما تم خلع محمد بن عبد المؤمن الذي لم يكن كفؤا للخلافة واتفق وُجهاء الدولة على خلعه دار أمر الخلافة بين اثنين من ولد عبد المؤمن وهما يوسف وعمر وكانا من نُبهاء أولاده ونجبائهم وذوي الرأي السديد، فأباها عمر وبايع لأخيه أبي يعقوب وسلّم له الأمر: فاشتدت قوة الموحدين في عهد أبي يعقوب يوسف الأول الذي اجتاز البحر إلى الأندلس عام ١١٧١/٥٦٧ وأخضع بها من ظل موالياً للمرابطين كابن مردنيش وابن غانية، ثم تفرّغ لإخماد الحركات التي حدثت في المغرب ضد دولة الموحدين.

وبعد أن واجه الثورات التي قامت في المغرب قرر أبو يعقوب أن يواجه الخطر الصليبي فسار بجيوشه وعبر من المغرب إلى الأندلس سنة ١١٨٤/٥٨٠ وتوجه إلى إشبيليا ثم إلى مدينة شانترية وحاصرها. ولكن ألفونسو هينرك قاوم الحصار لثلاثة أيام فأمر يوسف برفع الحصار. ولكن الجيش تراجع بسرعة وعبروا النهر ولم ينتظروا أوامر الأمير الذي بقي مع قلة من جماعته. فانتهز الصليبيون الفرصة وهاجموهم ومزقوا باقي الجيش الموحدي وأصيب الأمير يوسف بجراح مميتة وتوفي في نفس السنة فارتحلت جيوش الموحدين عائدة مرة أخرى إلى إشبيليا وتم تعيين يعقوب ابن يوسف أميراً عليهم وعاد بقواته إلى المغرب.

يعقوب المنصور بن يوسف (١١٨٤/٥٨٠–١١٩٩/٥٩٥)

ولما استشهد يوسف بن عبد المؤمن سنة ١١٨٤/٥٨٠ خلفه ابنه أبو يوسف يعقوب المنصور الذي كان يجمع إلى عظمة السلطان السياسي رسوخ العقيدة، وشدة الحرص على أحكام الشريعة وسنتها، وبالرغم من أنه لم يكن من الغلاة في تقدير تراث بن تومرت وتعاليمه وقد أحدث ما يمكن أن يسمى انقلاباً حقيقياً في ميدان المذهب والعقيدة في دولة الموحدين: فإنه كان يتشدد في تطبيق أحكام الشريعة على حقيقتها، وفي الدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الحدود حتى في أهله وعشيرته، وكان يذهب في ذلك إلى حدود بعيدة، حتى قيل أنه عاقب على شرب الخمر بالقتل، وكان يشدد في إلزام الناس بإقامة الصلوات الخمس، ويأمر بالمناداة عليها، ويعاقب على تركها.

وفي عهد المنصور بلغت دولة الموحدين أوجها في العزّ والمنعة، فقد صد عدوان الإسبان عدة مرات كان آخرها عام ٥٩١ هـ في الموقعة التي هزم فيها ألفونسو الثامن هزيمة منكرة وعرفت بوقعة الأرك التي

[٤٤] الفتوحات المكية: ج٤ص٢٦٤، انظر كذلك في محاضرة الأبرار: ج١ص٣٤.

كانت تشبه موقعة الزلاقة. وبانتصاره في معركة الأرك استحق الخليفة يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن لقب المنصور.

وبعد أربعة سنوات في سنة ١١٩٩/٥٩٥ توفي أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بمدينة سلا، وكان قد سار إليها من مراكش بعد أن بنى مدينة محاذية لها وسماها المهدية فسار إليها ليشاهدها فتوفي بها.

محمد الناصر بن يعقوب المنصور (١١٩٩/٥٩٥–١٢١٥/٦١١)

ولكن ما أن توفي أبو يوسف يعقوب المنصور سنة ١١٩٩/٥٩٥ وخلفه ابنه الناصر لدين الله محمد، وكان عمره سبعة عشر سنة، أخذت الدولة تنهار تدريجيا حيث اشتبك مع الإسبان في معارك هزم فيها وكان أشدها وقعا موقعة العقاب سنة ١٢١٢/٦٠٩.

ولكن تمّ في عهد الناصر القضاء على العديد من الثورات في أفريقية، إلا أنّ الموحدين تلقوا هزيمة قاسية على يد النصارى في معركة حصن العقاب وبدأت بعدها الدولة تتهاوى بسرعة مع سقوط الأندلس في أيدي الإسبان وتونس في أيدي الحفصيين والجزائر في أيدي بني عبد الواحد الزناتيون. فبعد معركة العقاب أخذت قواعد الأندلس تسقط في يد الإسبان حتى سنة ١٢٤٦/٦٤٤ حيث سقطت قرطبة وبلنسية ودانية ومرسية ولم يبقى إلا غرناطة التي ثبتت خلف حصونها لفترة طويلة حتى انهارت وسقطت بيد الإسبان سنة ١٤٩٢/٨٩٧ وبسقوطها انتهى الحكم العربي في إسبانيا بعد حكم دام ثمانمائة عام.[٤٥]

كما قال الشيخ الأكبر رضي الله عنه حين مرّ على أطلال مدينة الزهراء كما سنروي في الفصل الثالث:

ديارٌ بأكناف الملاعب تلمعُ ... وما إن بها من ساكنٍ وهي بلقعُ
ينوح عليها الطير من كل جانبٍ ... فيصمت أحياناً وحيناً يرجّعُ
فخاطبتُ منها طائراً متغرّداً ... له شجنٌ في القلب وهو مروّعُ
فقلتُ: على ماذا تنوح وتشتكي؟ ... فقال: على دهرٍ مضى ليس يرجع

ورحم الله الشاعر الأندلسي الأديب الشهير أبا البقاء صالح بن شريف الرندي الذي قال في قصيدته الحزينة:

لكل شيء إذا ما تم نقصان ... فلا يُغرّ بطيب العيش إنسانُ
هي الأمور كما شاهدتها دولٌ ... من سرّهُ زمنٌ ساءته أزمانُ
وهذه الدار لا تُبقي على أحدٍ ... ولا يدوم على حال لها شانُ

[٤٥] للمزيد من المعلومات حول دولة الموحدين راجع كتاب: الموحدون في الغرب الإسلامي (تنظيماتهم ونظمهم)، تأليف عز الدين عمر موسى، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩١. ولمعلومات عامة عن الوجود الإسلامي في الأندلس راجع كتاب: حكايتنا في الأندلس، للمؤلف عدنان عثيناوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٥.

الوضع الثقافي في الأندلس قبيل ولادة ابن العربي

عاش ابن العربي في الفترة الذهبية من حكم الموحدين في الأندلس في ظل حكم الخليفة يوسف بن عبد المؤمن وابنه يعقوب المنصور، حيث انتعشت في زمانهما الحركة العلمية والدينية وبلغت أوجها، ثم رحل عنها مع استلام السلطان الشاب محمد الناصر بن يعقوب المنصور (١١٩٩/٥٩٥-١٢١٥/٦١١) حيث بدأت الدولة تنهار كما رأينا.

كان أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (١١٦٣/٥٥٨-١١٨٤/٥٨٠) محبا للفنون والآداب رغم ميوله الحربية، وكانت إشبيلية التي عاش فيها ابن العربي معظم فترة شبابه أقرب إلى قلب أبي يعقوب من مراكش، حاضرته في المغرب، لأنه ولد في قرطبة وقضى في إشبيلية قدرا كبيرا من طفولته وكان واليا عليها في عهد أبيه. وقد اختصّ يوسف بن عبد المؤمن هذه المدينة بعدد من أجمل عمائر الموحّدين بالأندلس فشيّد بها القصور والمساجد وحرص على تجميلها بالحدائق. فأقام الخليفة يوسف بعض المشروعات في إشبيلية، كان من أشهرها بناء القنطرة على نهر الوادي الكبير، وإمداد إشبيلية بالماء وتجديد أسوارها التي خرّبتها السيول، وإنشاء القصور والبساتين فيها. وكان من أهم أعماله تأسيس جامع إشبيلية الأعظم سنة ١١٧٢/٥٦٧، ثم أتم ابنه المنصور مئذنته الكبيرة سنة ١١٨٨/٥٨٤، والتي يبلغ ارتفاعها ٩٦ متراً وهي لا تزال قائمة حتى الآن.

وكذلك جلب الموحدون حولهم الأدباء والشعراء والفلاسفة الذين وجدوا في إشبيلية في عهد يوسف ابن يعقوب وعهد ابنه يعقوب المنصور (١١٨٤/٥٨٠-١١٩٩/٥٩٥) أفضل مكان ينهلون فيه العلوم ويتناقشون فيها بحرية وأمان. فكان يوسف بن يعقوب شغوفاً بالعلم يجلّ أهله ويقربهم إلى مجلسه، وكان هو نفسه عالماً بارعاً في الفقه وكاتبا، يحفظ صحيح البخاري، ملماً بعلوم اللغة العربية، وكان في مدة إقامته بالأندلس يزين مجلسه بقادة الفكر وزعماء الرأي من أمثال أبي بكر بن طفيل، وابن رشد الفيلسوف، وأبي بكر بن عبد الملك بن زهر الطبيب العبقري.

ابن طفيل (١١٠٠/٤٩٤-١١٨٥/٥٨١)

وابن طفيل هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن طفيل القيسي الأندلسي، ولد بوادي آش قرب غرناطة ودرس الفلسفة والطب في غرناطة على يد ابن باجة، فكان من أعظم فلاسفة الأندلس وأطبائها وعلمائها. تولى منصب الوزارة ومنصب الطبيب الخاص للسلطان أبي يعقوب يوسف. اشتهر بقصته "حي بن يقظان" التي تُرجمت إلى عدة لغات أجنبية، وقد ضمّنها آراءه ونظرياته. وقد استأثر ابن طفيل بحب الخليفة وعنايته، فكان لا يفارق مجلسه، ولا يصبر على بعده، وكان رسوله إلى العلماء يدعوهم لحضور مجلسه. توفي ابن طفيل في مراكش سنة ١١٨٤/٥٨١، وحضر السلطان جنازته.

ابن رشد (١١٢٦/٥٢٠-١١٩٨/٥٩٥)

وابن رشد هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد الأندلسي القرطبي، ولد سنة ١١٢٦/٥٢٠، واشتهر

في العلوم الفلسفية والطبية وكان نحويا ولغوياً محدثاً بارعاً يحفظ الشعر. وكان متواضعاً، لطيفاً، دافئ اللسان، جم الأدب، قوي الحجة، راسخ العقيدة، وهو من العلماء والفلاسفة ممن كان لهم أثر عميق في التاريخ الإسلامي، وكان من أهمهم الفيلسوف ابن رشد الذي سيكون بينه وبين ابن العربي لقاء شهير سنرويه في الفصل الثاني.

أمضى ابن رشد عمره في البحث والتأليف. أخذ الطب عن أبي جعفر هارون وأبي مروان بن جربول الأندلسي. ويبدو أنه كان بينه وبين أبي مروان بن زهر، وهو من كبار أطباء عصره، مودّة، وأنه كان يتمتع بمكانة رفيعة بين الأطباء.

عكف ابن رشد على دراسة نصوص أرسطو فشرحها ولخصها وحاول التوفيق بين الفلسفة والشريعة وتصحيح العقيدة من المخالطات التي أدخلها المتكلمون، على حد زعمه، وخاصة الإمام الغزالي حيث كتب كتابا مهما في الرد عليه سماه تهافت التهافت ردا على ما كتبه الغزالي في تهافت الفلاسفة. وكذلك حاول ابن رشد تنقية فلسفة أفلاطون وأرسطو مما شابها من عناصر غريبة كآراء ابن سينا والفارابي التي كان يعارضها.

درس ابن رشد علم الكلام على مذهب الأشعرية وتخرج في الفقه على مذهب الإمام مالك، ودرس الفلسفة على ابن بشكوال وبعض علماء عصره، والطب على أبي جعفر هارون وابن طفيل، وحين استقال ابن طفيل من طبابة الخليفة اقترح أن يخلفه ابن رشد في منصبه فتم ذلك. وأقبل ابن رشد على تفسير آثار أرسطو، تلبية لرغبة أبي يعقوب يوسف، ثم عاد إلى قرطبة حيث تولى منصب قاضي القضاة، وبعد ذلك بنحو عشر سنوات ألحق بالبلاط المراكشي كطبيب خاص للخليفة. ولكن لما استلم أبو يوسف يعقوب المنصور السلطة لم يحظى عنده ابن رشد بنفس القدر الذي كان له عند أبيه يوسف، فلم يكن أبو يوسف يميل للفلسفة ثم أثرت عليه بعض دسائس الأعداء الحاقدين على ابن رشد مما جعل المنصور يتهم ابن رشد بالكفر والضلال ثم يبعده إلى أليسانة، وهي بلدة صغيرة بجانب قرطبة أغلبها من اليهود، وحرق جميع مؤلفاته الفلسفية، وحظر الاشتغال بالفلسفة والعلوم، ما عدا الطب، والفلك، والحساب. بعد ذلك عفا عنه السلطان واستقدمه إليه فأكرمه وقربه، ولكن الفيلسوف لم يهنأ بهذا العفو فأصيب بمرض لم يمهله سوى سنة واحدة وتوفي ابن رشد في مراكش في نفس السنة التي توفي فيها المنصور سنة ١١٩٨/٥٩٥.

لقد ترك ابن رشد العديد من الرسائل والمقولات الفلسفية والمؤلفات المهمة التي زادت عن المائة مثل كتاب "مناهج الأدلة"، وكتاب "فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال"، وهما من المصنفات الفقهية والكلامية، بالإضافة إلى كتاب "تهافت التهافت" الذي كان رد ابن رشد على الغزالي في كتابه تهافت الفلاسفة. وكذلك كتب ابن رشد شروحات كثيرة على كتب أرسطو مثل: تلخيص وشرح كتاب ما وراء الطبيعة (الميتافيزيك)، تلخيص وشرح كتاب البرهان أو الأورغنون، تلخيص كتاب المقولات (قاطيفورياس)، تلخيص كتاب الأخلاق، تلخيص كتاب السماع الطبيعي، شرح كتاب النفس، شرح كتاب القياس.

وسوف نذكر في الفصل الثاني قصة اجتماعه بابن العربي وما كان بينهما، وفي الفصل الثالث قصة

حضور الشيخ محيي الدين جنازة ابن رشد في قرطبة سنة ١١٩٩/٥٩٥.

المذهب الظاهري

وعلى الرغم من أن المذهب المالكي كان هو المذهب السائد في بلاد الأندلس إلا أن الكثير من الناس تأثر بالمذهب الظاهري الذي قاده ابن حزم (٩٩٤/٣٨٤–١٠٦٣/٤٥٦). ويقال إن الخليفة يعقوب ابن يوسف أعرض عن مذهب مالك، وأخذ بمذهب الظاهرية، فعظم أمر الظاهرية في أيامه وكان منهم في المغرب خلق كثير. وقد اتُّهِم ابن العربي نفسه أنه كان ينقل عن ابن حزم الذي كان له الفضل في إنعاش المذهب الظاهري في الأندلس، ولكن الشيخ الأكبر نفى ذلك بشكل قطعي، وقال بشكل صريح إنه يعتقد بوجوب الأخذ بإجماع العلماء بعد القرآن والسنة، حيث نقل عنه قوله:

نسبوني إلى ابن حزمٍ وإني ... لست ممن يقول قال ابن حزم
لا ولا غيره فإن مقالي: ... قال "نص الكتاب"، ذلك علمي
أو "يقول الرسول" أو "أجمع الخلق" ... على ما أقول حكمي

ولكن الشيخ الأكبر كان يجلّ ابن حزم ويذكره بالخير، فقد روى عنه بعض الآراء والأحاديث، وذكر أنه رأى مرة النبي صلّى الله عليه وسلّم في المنام وقد عانق أبا محمد ابن حزم المحدث فغاب الواحد في الآخر فلم يرَ إلا واحداً وهو رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ثم قال إن هذه هي غاية الوصلة.[٤٦]

وابن حزم هو علي بن أحمد بن حزم بن يزيد، ولد في قرطبة سنة ٩٩٤/٣٨٤ وكان شاعرا وأديبا يتميز بحاضرة تجعله يرتجل الشعر. نشأ في بيت ثراء وغِنى ثم تقلد الوزارة ولكنه زهد في الدنيا وتركها لأصحابها وعكف على العلم والتصنيف حيث كتب ما يزيد عن أربعمائة مصنف منها "المحلى"، "جمهرة أنساب العرب"، و"طوق الحمامة". ولكنه واجه حملات شديدة من قبل الفقهاء حتى إن مصنفاته قد أحرقت ومُزِّقت علانية. توفي ابن حزم سنة ١٠٦٣/٤٥٦.

والمذهب الظاهري يقوم على أساس أن المصدر الفقهي الوحيد هو ظواهر النصوص من الكتاب والسنة، فلا مجال للرأي أو للقياس في الأحكام الشرعية، وكذلك الاستحسان، والذرائع، والمصالح المرسلة، وباقي وجوه الرأي، كلها غير صالحة عندهم في الحكم، بل يأخذون بالنصوص وحدها، فإن لم يوجد نص فالأصل الإباحة.

وقد قام بإنشاء هذا المذهب وبيان أحكامه وتوضيح أدلته داود الأصفهاني وهو أبو سليمان بن علي بن خلف الأصفهاني، ولد بالكوفة عام ٨١٧/٢٠٢، وتوفي عام ٨٨٣/٢٧٠، ثم جاء ابن حزم الأندلسي الذي كان له الفضل في بيان هذا المذهب وبسطه ونشره في الأندلس.

[٤٦] الفتوحات المكية: ج٢ص٥١٩، وأيضاً في رسالة المبشرات، مخطوطة بيازيد ١٦٨٦.

الحركة الصوفية في الإسلام

يختلف المفكرون كثيرا حول مفهوم التصوف، فمنهم من يصرّ على أنه شيء دخيل على الإسلام جاء إليه من الديانات الشرقية حينما بدأ الإسلام بالانتشار خارج الجزيرة العربية، ومنهم من يؤكد على أنه شيء من صميم الإسلام وقد بدأ منذ طلوع فجر الإسلام الأول. والحقيقة في ذلك أن الاصطلاح جديد ولكن المفهوم أصيل بأصالة الإسلام ذاته، فالصحابة والتابعون كانوا صوفيين بالفعل وإن لم يكونوا يسمون كذلك، فالتصوف ما هو إلا الزهد والعبادة وترك الدنيا والإقبال على الله تعالى. غير أن الشكل الهيكلي للتصوف بدأ يتبلور منذ بداية القرن الثاني الهجري مثله مثل بقية العلوم الإسلامية كالفقه وعلوم التفسير والحديث كلها لم تكن معروفة منذ بداية الإسلام.

واختلف الناس كثيرا عن أصل كلمة تصوف ومدلولها فمنهم من قال إن أصلها من لبس الصوف أو من أهل الصفّة، ومنهم من قال إنها من الصفاء أو من الاصطفاء وكذلك من الصفّ الأول، إلى ما هنالك.[٤٧] والحقيقة أن الشيخ محيي الدين ابن العربي، رغم أنه كثيرا ما يطلق لفظة الصوفيّة على عموم أهل الله، إلا أنه يعدّهم عند التحقيق صنفا معيّنا من رجال الله تعالى حيث يقسّم الشيخ رضي الله عنه رجال الله إلى ثلاثة أصناف: العبّاد والصوفيّة والملاميّة: فالعبّاد هم "رجال غلب عليهم الزهد والتبتّل والأفعال الطاهرة المحمودة كلها وطهّروا أيضاً بواطنهم من كل صفة مذمومة قد ذمّها الشارع (محمد صلّى الله عليه وسلّم)، غير أنهم لا يرون شيئاً فوق ما هم عليه من هذه الأعمال ولا معرفة لهم بالأحوال ولا المقامات ولا العلوم الوهبية اللدنّية ولا الأسرار ولا الكشوف ولا شيئاً مما يجده غيرهم."[٤٨] وأما الصوفية، وهم أعلى من العبّاد، فهم "مثل العبّاد في الجدّ والاجتهاد والورع والزهد والتوكل وغير ذلك، غير أنهم مع ذلك يرون أن ثمّ شيئاً فوق ما هم عليه من الأحوال والمقامات والعلوم والأسرار والكشوف والكرامات، فتتعلق هممهم بنيلها فإذا نالوا شيئاً من ذلك ظهروا به في العامة من الكرامات، لأنهم لا يرون غير الله وهم أهل خُلق وفتوّة ... وهم بالنظر إلى الطبقة الثالثة أهل رعونة وأصحاب نفوس وتلامذتهم مثلهم أصحاب دعاوي يشمّرون على كل أحد من خلق الله ويظهرون الرياسة على رجال الله".[٤٩] وأما الصنف الثالث وهم الأعلى بين مراتب الرجال، فهم الملاميّة وسوف نأتي على ذكرهم كثيرا خلال هذا الكتاب، ولكننا نقول هنا أنهم رجال لا يزيدون على الصلوات الخمس إلا الرواتب، لا يتميزون عن المؤمنين المؤدّين فرائض الله بحالة زائدة يُعرفون بها، يمشون في الأسواق ويتكلمون مع الناس فلا يُعرفون لاحتجاب أحوالهم عن عامة الناس، وهم أرفع الرجال وتلامذتهم أكبر الرجال. فالعبّاد متميّزون عند العامّة بتقشّفهم وابتعادهم عن الناس وأحوالهم وتجنّب معاشرتهم بالجسم، والصوفية متميّزون عند العامة بالدعاوي وخرق العوائد من الكلام على الخواطر وإجابة الدعاء والأكل من الكون وكلّ خرق عادة ... وهذا الحال الذي هم فيه قليل السلامة من المكر والاستدراج، والملاميّة لا

[٤٧] راجع الباب الأول من كتاب حقائق عن التصوف للشيخ عبد القادر عيسى، دار الألباب-دمشق، ٢٠٠٢.

[٤٨] الفتوحات المكية: ج٣ص٣٤.

[٤٩] الفتوحات المكية: ج٣ص٣٤-٣٥.

يتميّزون عن أحد من خلق الله بشيء فهم المجهولون حالهم حال العوام.[50]

فالحقيقة إذاً أنّ الشيخ محيي الدين ابن العربي لم يكن صوفيا بالمعنى الدقيق للكلمة، حيث أنه لم يكن يظهر أي شيء من الكرامات أو خرق العوائد، وما تميّز به من العلم والمعرفة يمكن من حيث العموم أن يظهر على أي عالم أو فقيه، فلم يكن الشيخ محيي الدين صوفيا على التحديد وإنما كان من رجال الله تعالى وله مرتبة مميّزة كما سنرى خلال هذا الكتاب إن شاء الله تعالى. أما إذا أخذنا التصوف بالمعنى العام وهو بمعنى تصفية النفس وصفاء القلب لعبادة الله تعالى، فقد كان هذا مذهب المسلمين الأوائل وغيرهم الكثير من رجال الله تعالى والشيخ محيي الدين كان من أبرزهم.

ومن الصوفية الأوائل إبراهيم بن أدهم ومالك بن دينار وبشر الحافي الذين اشتهروا بالزهد والتفرّغ للعبادة. وكذلك من الصوفية الكبار: أبو القاسم الخراز (توفي ٢٩٨/٩١٠) المعروف بالجنيد ويلقب بسيد الطائفة، وأبو يزيد البسطامي (٨٧٦/٢٦٣) وذو النون المصري (توفي ٨٥٩/٢٤٥) والحلاج (توفي ٩٢١/٣٠٩) والحكيم الترمذي (توفي ٩٣٢/٣٢٠) وأبو بكر الشبلي (٩٤٥/٣٣٤) الذين يتشهد بهم الشيخ محيي الدين كثيرا.

ولكن الطرق الصوفية المعروفة اليوم لم تنشأ إلا في وقت متأخر مواز للفترة التي كان بها الشيخ محيي الدين ابن العربي. ومن أهم الطرق الصوفية الطريقة القادرية المنسوبة لعبد القادر الجيلاني (توفي ١١٦٥/٥٦١) والرفاعية المنسوبة لأبي العباس أحمد بن الحسين الرفاعي (توفي ١١٤٥/٥٤٠) والشاذلية المنسوبة إلى أبي الحسن الشاذلي (توفي ٦٥٦) والدسوقية والمولوية والبدوية وغيرها من الطرق الكثيرة المنسوبة للشيوخ الكبار في تاريخ الصوف. ومن الطرق الحديثة الطريقة النقشبندية المنسوبة إلى محمد بهاء الدين النقشبندي (توفي ١٣٨٩/٧٩١).

ومن أشهر شيوخ التصوف الذين ظهروا بعد الشيخ محيي الدين ابن العربي: الشيخ أبو الحسن الشاذلي (توفي ١٢٥٨/٦٥٦)، والشيخ عبد الغني النابلسي (توفي ١٨٧٠/١٢٨٧) وقد تأثر كثيرا بالشيخ الأكبر وكتب العديد من الكتب حوله، وأبو الهدى الصيادي الرفاعي (توفي ١٨٧٠/١٢٨٧) و أحمد التيجاني (توفي ١٨١٥/١٢٣٠).

وبشكل عام يمكن أن نقسم تاريخ التصوف إلى مرحلتين. ففي المرحلة الأولى، في عصر الرسول صلّى الله عليه وسلّم والصحابة والتابعين، كان التصوف موجودا من غير أن يأخذ اسما أو هيكلية محددة بل كان جزءاً لا يتجزأ من الإسلام الذي شرع الأخلاق والزهد والعبادة ونظمها على أحسن نظام، ثم في المرحلة الثانية بدأت تتسرب بعض الأفكار الغريبة من معتنقي الديانات والفلسفات الأخرى وتدخل إلى الإسلام، وبدأ التصوف يأخذ شكلا منهجيا خرج في كثير من الأحيان عن روح الإسلام وتعاليمه.

ولكن لا بدّ من التأكيد على أن الانحراف لم يحصل فقط في التصوّف وإنما في تصرّف بعض المسلمين سواء كانوا ممن ينتسبون إلى التصوّف أو لا، وبالتالي لا يمكن لهذا الانحراف أن ينسف قواعد

---

[50] الفتوحات المكية: ج٣ص٣٥.

التصوّف كما لا يمكن له أن ينسف قواعد الإسلام، فلا يجوز الحكم على المذهب من خلال بعض المنتسبين إليه، بل لا يجوز الحكم على المذهب ككل وإنما يُنظر إلى أسسه المختلفة ويحكم عليها من خلال مدى توافقها مع ما ثبت من الشريعة الإسلامية، فإن توافقت في كثير واختلفت في قليل حاولنا تعديل هذا القليل وتقويمه وإعادته إلى نصابه.

وقبل المضي في الحديث عن حركة التصوف في المغرب والأندلس في مرحلة ما قبل ابن العربي لا بد من التأكيد على وجود تشابه وتوافق طبيعي بين الأديان والفلسفات المختلفة نظرا لأنها تنبع كلها من معين واحد سواء كان سماويا عن طريق الرسل والأنبياء أو كان فلسفيا عن طريق المفكرين، فالكل يبحثون عن الحقيقة وكل واحد وصفها من منظاره، فلا يجوز بعد ذلك إن وجدنا فكرة أو معرفة مشابهة لمعتقد قديم ديني أو فلسفي أن نقول أن ذلك خارج على الإسلام، فالرسول صلّى الله عليه وسلّم بُعث ليتمم مكارم الأخلاق لا ليأتي بأخلاق مختلفة جذريا، والأخلاق هنا أمر عام ينطبق على المعرفة والأدب والعلم والفلسفة والعقيدة، وإن وجود التشابه بين عقيدة قديمة وعقيدة إسلامية لا يعني تناقضا أبدا، وكذلك لا يعني أن المسلمين أو الصوفية قد أخذوا هذه المعرفة المشتركة من الأديان أو العقائد السابقة، بل هي من الإسلام الذي يحوي فيما يحويه كل هذه العقائد السابقة الصحيحة، قبل أن يتم تحريفها بقصد أو بسبب طول الأمد. والشيخ محيي الدين قد أصّل هذه الحقيقة من خلال مفهومه عن الوراثة النبوية، فبعض الأولياء تكون وراثتهم عيسوية، وبعضهم موسوية وبعضهم محمدية أو غير ذلك من الأنبياء، ولكن الكل في النهاية ينهلون من نبع الشريعة الإسلامية، كما سنرى ذلك في الفصل القادم.

وبالتالي فإننا لا يجوز أن ننساق وراء أفكار بعض المستشرقين الذين قالوا، وتبعهم في ذلك العديد من الباحثين المسلمين، أن التصوّف (ونقصد التصوّف الصافي) استمدّ من منابع الديانات السابقة كالزرادشتية الفارسية والمذاهب الهندية والنصرانية والفلسفات القديمة مثل الأفلاطونية الحديثة، ثم اختلطت هذه العناصر كلها ببعض فكانت نزعات مختلفة، وطرق مختلفة على مدى العصور، كما قال أحمد أمين في "ظُهر الإسلام".[51]

وكما قلنا فإن هذا الرأي قال به بعض المستشرقين مثل "آدم ميتز" الذي قال إن المسلمين أحسوا في أعماق نفوسهم بحاجات جديدة منذ القرن الثالث الهجري وسرعان ما تقدمت لسدّ هذه الحاجات الديانات القديمة التي كانت مستترة ولا سيما النصرانية، وهي الفلسفة اليونانية المشربة بالنصرانية، وقد ضرب أمثلة على ذلك فقال إن الحارث بن أسد المحاربي (توفي ٢٤٣/٨٥٨) تأثر بالنصرانية، لوجود شبه بين أقواله وخطبة المسيح، وإن الحكيم الترمذي (توفي ٣٢٠/٩٣٢) يقول إن عيسى عليه السلام خاتم الأولياء، وإن القول بالفناء هو من أقوال الغنوسطيين القديمة.[52] وقد قال بمثل هذا القول الكثير من المستشرقين من قبل مثل "رينولد نيكلسون" و"جولد تسيهر". والدليل الواضح على نقض هذه الدعوى أن أغلب الصوفية لم يكن

---

[51] ظُهر الإسلام، أحمد أمين، مكتبة النهضة المصري–القاهرة، ١٩٨٢: ج٣ص٥٨.

[52] الفصل التاسع والعاشر من كتابه تاريخ الحضارة الإسلامية.

لديهم أي اطلاع على العقائد والفلسفات الأخرى، بل وأغلبهم كان أو بدأ أميًا لا يقرأ ولا يكتب، ومع ذلك خرجوا بعلوم ذوقية رفيعة عبّروا عنها من خلال كتبهم وأشعارهم التي أصبحت أساسا يدرس في الأدب الإسلامي والعالمي.

الحركة الصوفية في المغرب والأندلس

ثم نعود إلى تلخيص تاريخ الحركة الصوفية وخاصة في المغرب والأندلس فنقول أنه لا شكّ أن التصوّف في الأندلس بدأ منذ أن طلع الفجر الأول للإسلام هناك، في نهاية القرن الأول الهجري، ولكن مثله مثل التصوف في المشرق لم يتّخذ معالم واضحة في بدايته، بل كان نهجا إسلاميا طبيعيا سلكه بعض الزهّاد والعبّاد.

منذ نهاية القرن الثالث الهجري، بداية القرن التاسع الميلادي، نجد العديد من الصوفية قد برزوا في المغرب والأندلس فظهرت مناهج زهدية متفرقة فكان أبو محمد بن عبد الله التاهرتي (توفي ٩٠٥/٣١٣) زاهدا تبنى فكرة المحبة والإشراق، وفي قرطبة كان أحمد بن مخلوف المسيلي المعروف بالخياط (توفي ١٠٠٣/٣٩٣) الذي لزم المنهج العملي القائم على المرابطة، وعبد الله بن زياد الله الطبني (توفي ١٠١١/٤١٠) في قرطبة أيضاً.[53] وقام أبو القاسم عبد الرحمن الهمداني المعروف بالخراز والوهراني (توفي ١٠١٨/٤١١) برحلات علمية استغرقت عشرين سنة وشملت بيئات الزهد والتصوف كالبصرة وبغداد والحجاز ومصر وخرسان ونيسابور ثم الأندلس، فخلص من خلالها إلى طريقة تجمع بين الالتزام بالسنة النبوية والزهد والانقباض والعلم.[54]

وفي المغرب العربي برز بكر بن حماد بن سمك بن إسماعيل الزناتي التاهرتي (توفي ٩٠٩/٢٩٥) الذي تأثر بصوفية الشرق من خلال رحلاته.[55] وفي القيروان برز الزاهد الفقيه سحنون بن حبيب التنوخي (توفي ٨٤٥/٢٤٠) الذي تميز منهجه بالزهد في الدنيا والتعبد وفق الشريعة الإسلامية.[56] وكذلك استفاد احمد بن واضح من رحلاته إلى المشرق في القرن الخامس ثم عاد إلى بجاية فكان بينه وبينه فقهائها الكثير من المناظرات.[57] وفي القرن الرابع قام أبو عبد الملك مروان بن محمد الأندلسي (توفي ١٠٤٨/٤٤٠) بتأسيس

---

[53] ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تأليف القاضي عياض بن موسى بن عياض السبتي، تحقيق محمد بن تاوت الطنجي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية-الرباط، ١٩٨٣: ج٤ص٦٢٨.

[54] عياض، "ترتيب المدارك": ج٤ص٦٩٠.

[55] بوتابي الطاهر، الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرنين السادس والسابع الهجريين، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، قسم التاريخ، ١٩٩٩-٢٠٠٠، ص٢٠.

[56] أبو زيد عبد الرحمان الدباغ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور ومحمد منصور، مكتبة الخانجي-القاهرة، ١٩٧٢: ج٢ص٢٨١.

[57] عياض، "ترتيب المدارك": ج٤ص٤٤٥.

رباط درس فيه العلم وصنّف فيه العديد من المصنفات.[٥٨]

أما بالنسبة للمراجع والكتب الصوفية التي كان يعتمد عليها الأندلسيون والمغربيون فهي الكتب الشهيرة التي ألفها أبو حامد الغزالي (توفي ١١١١/٥٠٥) مثل "إحياء علوم الدين"، وكتاب "الرعاية لحقوق الله" للحارث بن أسد المحاسبي (توفي ٨٥٨/٢٤٣)، و"قوت القلوب" لأبي طالب المكي، و"الرسالة القشيرية" لأبي القاسم القشيري (توفي ١٠٧٢/٤٦٥). وكانت هذه الكتب متداولة في المغرب والأندلس وتدرس في الحلقات بتلمسان وبجاية وقلعة بني حماد، فكان الصوفي عبد السلام التونسي (توفي ١٠٩٣/٤٨٦) يدرّس برابطته بتلمسان كتاب "الرعاية" للمحاسبي، وفي قلعة بن حماد كان الصوفي أبو الفضل ابن النحوي (توفي ١١١٩/٥١٣) يدرّس الإحياء للغزالي ويختمه خلال شهر رمضان.[٥٩] وكذلك كان الشيخ أبو مدين ببجاية (توفي ١١٨٩/٥٩٤)، وهو أحد شيوخ الشيخ محيي الدين كما سنرى، يعتمد على كتاب إحياء علوم الدين والرسالة القشيرية لتدريس طلابه وأطلعهم أيضاً على كتاب الرعاية للمحاسبي.[٦٠]

الشيخ محيي الدين والمذاهب الصوفية والفكرية الأخرى

يخطئ الكثير من الدارسين لابن العربي حين يعدّون أنه قد تأثر بالمذاهب الفكرية والفلسفية الأخرى كالأفلاطونية الحديثة وغيرها.[٦١] فلا شكّ أن هناك بعض التشابه بين علوم الشيخ الأكبر وبعض هذه المذاهب ولكن هذا لا يعني أبداً تأثر الشيخ بها.فكما هو معروف في التصوف عموما لقد ثبت في كلام الشيخ محيي الدين أنه لا يكتب من فكره وإنما مما علّمه الله تعالى عن طريق الكشف، فيقول الشيخ في الفتوحات:

> فلا أتكلم إلا على طريق الإذن كما أني سأقف عندما يُحدّ لي: فإن تأليفنا هذا وغيره لا يجري مجرى التواليف ولا نجري نحن فيه مجرى المؤلفين، فإن كل مؤلف إنما هو تحت اختياره، وإن كان مجبوراً في اختياره، أو تحت العلم الذي يبثّه خاصّة؛ فيلقي ما يشاء ويمسك ما يشاء، أو يلقي ما يعطيه العلم وتحكم عليه المسألة التي هو بصددها حتى تبرز حقيقتها، ونحن في تواليفنا لسنا كذلك إنما هي قلوب عاكفة على باب الحضرة الإلهية، مراقبة لما ينفتح له الباب، فقيرة خالية من كل علم، لو سُئلت في ذلك المقام عن شيء ما سمعت لفقدها إحساسها؛ فمهما برز لها من وراء ذلك الستر أمرٌ ما بادرت لامتثاله وألّفته على حسب ما يحدّ لها في الأمر.[٦٢]

---

[58] عياض، "ترتيب المدارك": ج٤ص٧١٠.

[59] التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، أبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي (المعروف بابن الزيات)، تحقيق أحمد التوفيق، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية-الرباط، ١٩٨٤، ص٧٣، ٩٢.

[60] التشوف: ص٥٨.

[61] انظر مثلا تحقيق الدكتور أبو العلا عفيفي لكتاب فصوص الحكم، دار الكتاب العربي-بيروت، ٢٠٠٢، المقدمة والتعليقات.

[62] الفتوحات المكية: ج١ص٥٩.

وعلى كلّ حال فإن هذا لا يعني أن الشيخ محيي الدين لم يطّلع على الكتب الأخرى، وإن كان على الحقيقة لم يعكف أبدا على الدراسة إلا فيما يخص القرآن الكريم والحديث الشريف، كما سنرى في الفصل القادم، وهو لم يتطرّق أبداً للعلوم النظرية كالفلسفة والفقه وغيرها.

أما بخصوص المذاهب الصوفية الأخرى، فإن الشيخ محيي الدين كذلك لم يتأثر بها بمعنى أنّه لم يقم بتقمّص أي مذهب محدد، ولكنه لا شكّ اتّبع سنّة أهل الله في الذكر والزهد والخلوة وغيرها مما هو معروف في طريق الصوفية. وكما سنرى في الفصل القادم، فإن الشيخ محيي الدين رضي الله عنه قد سبق فتحه رياضته، بمعنى أنه لم يسلك طريق التصوف ابتداءً ولم يمرّ في مراحل السلوك الطويلة التي عادة ما يكابدها المريدون حتى يصلوا إلى الفتح، بل كان الأمر معكوسا بالنسبة له لأنه كان مُراداً قبل أن يكون مريداً.

ومع ذلك فقد التزم الشيخ الأكبر مع شيوخ التصوف المعروفين في وقته كما سنذكرهم بعد قليل في الفصل الثاني، ولكنّه لم يتأثر كثيرا بالصوفية السابقين رغم أنه كثيرا ما يستشهد بكلامهم. وهذا بخلاف ما يحاول الباحث أسين بلاثيوس إثباته في كتبه بأن الشيخ محيي الدين قد تأثر بالمدارس الصوفية التي كانت سائدة في الأندلس كمدرسة المرية وابن مسرّة (توفي ٩٣١/٣١٩) مع أنه أحيانا يستشهد بأقواله.[٦٣]

شرح قصيدة مطلع الفصل

كما سنفعل في بداية كل فصل، فقد وضعنا قصيدة صغيرة في بداية هذا الفصل فيها إشارات على محتوى الفصل وأهميته، وهذه العادة أخذناها من الشيخ محيي الدين رضي الله عنه وهو الذي يبدأ جميع الأبواب الستين والخمسمائة في الفتوحات المكية وكذلك العديد من أبواب كتبه الأخرى بقصائد مختصرة.

وفي هذه القصيدة التي ذكرناها أعلاه يفتخر الشيخ محيي الدين بنسبه الحاتمي وباسمه الذي هو على اسم النبي محمد صلّى الله عليه وسلّم، ثم يضيف أن ذلك ليس ادّعاءً وتبلّدا بل هو حقيقة رغم بعد مكان المولد عن مكان المنشأ. ولقد نسب الشيخ نفسه في قصيدة أخرى إلى اليمن حيث قال في ترجمان الأشواق:[٦٤]

هـــي بنـــت العـــراق بنـــت إمـــامي   وأنـــا ضـــدّها ســـليل يمـــاني

وفي ذلك الكتاب يقول الشيخ الأكبر في شرحه لهذا البيت أن أهل اليمن يتميّزون بالإيمان والحكمة ورقّة الأفئدة، وذلك من "نَفَس الرحمن" وفي ذلك إشارة للحديث النبوي: "إني لأجد نفس الرحمن من جانب اليمن".[٦٥] وقد خصص الشيخ رضي الله عنه الباب التاسع والأربعين من الفتوحات المكية

---

[٦٣] الفتوحات المكية: ج١ص١٤٨-١٤٩، ج٣ص٥٨١.

[٦٤] ترجمان الأشواق: ص٨٤.

[٦٥] أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة. انظر في: المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار، للحافظ العراقي، بهامش كتاب الإحياء: إحياء علوم الدين، لأبي حامد بن محمد الغزالي، دار الفكر-بيروت، ١٩٧٥، المجلد الأول، كتاب قواعد العقائد، رقم ٢.

لهذا الحديث، لا سيما وأنه هو نفسه يُنسب للأنصار من جهة أمه كما سنرى في الفصل القادم، وقد كان الأنصار تنفيسا للشدة والضيق التي كان بهما النبي صلّى الله عليه وسلّم في بداية دعوته، فقبلوا دعوته ونصروه رضي الله عنهم أجمعين لما في نفوسهم من الرقة والحكمة والرحمة. وقد تأصّلت هذه النسبة في ابن العربي حتى إن الله تعالى جعله من حملة العرش وخصّه بأفضل القوائم وهي قائمة الرحمة كما يقول الشيخ في الباب الأحد والسبعين وثلاثمائة من الفتوحات: "ثم إنه تعالى خلق ملائكة من أنوار العرش يحفّون بالعرش وجعل فيما خلق من الملائكة أربع حملةٍ تحمل العرش من الأربع القوائم الذي هو العرش عليها، وكل قائمة مشتركة بين كل وجهين إلى حد كل نصف وجه، وجعل أركانه متفاضلة في الرتبة، فأنزلني في أفضلها من جملة حملته؛ فإن الله وإن خلق ملائكة العرش فإن له من الصنف الإنساني أيضاً صوراً تحمل العرش، الذي هو مستوى الرحمن، أنا منهم؛ والقائمة التي هي أفضل قوائمه هي لنا، وهي خزانة الرحمة، فجعلني رحيماً مطلقاً مع علمي بالشدائد، ولكن علمت أنه ما ثم شدة إلا وفيها رخاوة ولا عذابا إلا وفيه رحمةً ولا قبضاً إلا وفيه بسط ولا ضيقاً إلا وفيه سعة فعلمت الأمرين."[٦٦]



البيت التالي من قصيدة منقوش على مدخل الحجرة التي فيها مقام الشيخ محيي الدين في مسجده في دمشق

ويُعدّ هذا النص بحقٍ أساساً لرؤية الشيخ الأكبر للعالم وأصله ومآله، فهو يرى أن كل شيء صدر من الرحمة ولا يكون مآله إلا إلى الرحمة. ومن هنا تنشأ مقولة الشيخ محيي الدين حول إيمان فرعون الذي

---

[٦٦] الفتوحات المكية: ج٣ص٤٣١.

خالف فيه أكثر علماء المسلمين كما سنتحدث عنه في الفصل السابع والأخير.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الشيخ محيي الدين يعتبر أنَّ العرش، على أحد المعاني، هو المملكة ذاتها وليس فقط بمعنى السرير الذي يستوي عليه الملك،[٦٧] وبالتالي فإنَّ حملة العرش هم القائمون به فهم القوائم الأساسية التي تقوم عليها المملكة التي هي العالم الذي خلقه الله من أجلنا؛ ففي الحقيقة كلّ شخص منّا هو من حملة العرش ولكن تتفاوت المراتب والمهام تماماً كما أنّ كلّ ذرّة في البناء تحمله بقدر معيّن محدود ولكنّ الأعمدة الرئيسية هي التي تقوم بالعمل الأكبر، فحملة العرش الأساسيين هم ثمانية (يوم القيامة، كماقال الله تعالى في سورة ق [آية ١٧]، وهم اليوم أربعة، كما ورد في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلّم[٦٨]) ذكرهم الشيخ محيي الدين رضي الله عنه في الباب الثالث عشر "في معرفة حملة العرش" وهم إسرافيل وآدم وميكائيل وإبراهيم وجبريل ومحمّد ورضوان ومالك عليهم السلام، فيكون ما عداهم من الأنبياء ثم الأولياء من حملة العرش أيضاً ولكن على مستوى آخر ومرتبة مختلفة، ثم ينزل عنهم صالح المؤمنين وغيرهم من عامة الناس.

ثم يشير الشيخ رضي الله عنه في البيت الثاني من هذه القصيدة إلى التدرّج الطبقي بين الأولياء: فمنهم الأقطاب والأوتاد والأبدال، كما فصّله في الباب الثالث والسبعين من الفتوحات المكية. ثم يضيف الشيخ رضي الله عنه في البيت الثالث أن الزمان لا يسع إلا لواحد هو عينه! وهذه هي نظرية الجوهر الفرد التي يكاد يتفرّد فيها ابن العربي على الرغم من أن وحدة الوجود قد قال بها الكثير من العلماء والفلاسفة في الإسلام وعبر التاريخ في الحضارات المختلفة،[٦٩] ولكن تفسير ابن العربي رضي الله عنه لهذه الرؤية هو تفسير فريد وبديع يصلح أن يكون أساسا لنظرية كونية تستطيع تفسير الكثير من المعضلات الفلسفية والفيزيائية التي نشأت من عدم تكامل النظريات الحديثة مثل النسبية وميكانيك الكم. وهذه الرؤية تعتمد على أساس أن الله سبحانه وتعالى يخلقُ العالم بشكل مستمر، والعالمُ في كل لحظة، وهي الزمن الفرد أو يوم الشأن، يتردد بين الوجود والعدم؛ فهو في أصله قابع في ظلمة العدم، ثم يخرجه الله إلى نور الوجود بشكل مستمر في كل زمن فرد، شخصاً شخصاً، لا يوجد شخصان معا في نفس الوقت. ونقصد هنا بالوقت الزمن الحقيقي وليس الزمن المشهود، ففي كل لحظة من الزمن الحقيقي هناك فقط جوهر فرد واحد يظهر للوجود ثم يتلوه جوهر غيره وهكذا فيكون العالم المتكثّر هو مجموع صور هذه الجواهر التي تظهر واحدا بعد واحد: حرام على الأدوار شخصان يوجد. فالله واحد، ولا ينتج عن الواحد إلا واحد، ولو نتج عنه الكثرة، فهي بالنظر إلى أحدية الزمن واحد، أي في كل زمن فرد ينتج شخص واحد، بمعنى جوهرٌ واحد أو جزء واحد من أجزاء العالم، ولذلك قال الله تعالى في سورة الرحمن: (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾)، أي في شأن واحد، واليوم هنا هو الزمن الفرد

---

[٦٧] الفتوحات المكية: ج١ص١٤٦، ٥٨٣.

[٦٨] الفتوحات المكية: ج١ص١٤٨، ج٣ص١٨٤، وانظر أيضا في عقلة المستوفز: ص٤٣-٤٤.

[٦٩] لم يذكر الشيخ محيي الدين كلمة "وحدة الوجود" أبدا ولم يقل بها على الشكل المعروف والمتداول، وإنما له رؤية خاصة في ذلك كما سترى في الفصل السابع والأخير من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

وهو يعادل لحظة واحدة بالنسبة لنا.

ومعرفة الزمن هي المفتاحُ الأساسيُ لإدراك العالم الروحي وفتح عين البصيرة. يقول ابن العربي في الفتوحات المكية أن علم الزمان هو علم شريف منه يُعرف الأزل ومنه ظهر قوله عليه السلام "كان الله ولا شيء معه"، وهذا علم لا يعلمه إلا الأفراد من الرجال[٧٠] وهو المعبّر عنه بالدهر الأول ودهر الدهور، وعن هذا الأزل وُجد الزمان وبه تسمّى الله بالدهر وهو قوله عليه السلام "لا تسبوا الدهر فإنّ الله هو الدهر".[٧١]

ومن يتحقّق في معرفة الزمان يخرج حقيقة عن الزمان ويحكم هو على الزمان بدلاً من أن يحكم الزمان عليه: فنحن أبناء الزمان لأننا نعيش فيه والمحقق أبو الزمان لأنه يجاريه، فلا تمرّ عليه اللحظات في غفلة أبداً! وهذا معنى قول ابن العربي في هذه القصيدة: أقابل عضّات الزمان، وليس ذلك بالأمر اليسير، ولذلك أضاف: بهمّة تذلّ لها السبع الشداد وتخمد. ولكن يعترف الشيخ رضي الله عنه أنه ليس في ذلك فضل ولا دعوى، بل الفضل من الله تعالى فهو الذي يؤيّده في الثبات على هذه المقامات العالية الرفيعة.

ثم يصرّح الشيخ في بقية القصيدة أن الفتح الذي حصل له، والعلوم التي أتى بها من هذا الفتح، لم يكن عن سلوك طريق المجاهدة كما هي العادة عند الصوفية وإنما عن طريق جذبة كما سنوضح ذلك بالتفصيل في الفصل الثاني إن شاء الله تعالى.

---

[٧٠] الأفراد فئة من رجال الله خارجين عن دائرة القطب...

[٧١] الفتوحات المكية: ج١ص١٥٦-١٥٧.

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الثاني

الصبح

ولادته وفترة شبابه وتنقله في بعض مدن الأندلس

٥٦٠/١١٦٥ - ٥٨٩/١١٩٣

زُوِّجتِ الأنفسُ أبدانَها ... إذ أظهرَ الإنسانُ أعيانَها
وأحكمَ الطبعَ بها شهوةً ... إذ أحكمَ الصانعُ بنيانَها
أسكنه الرحمنُ في جنَّةٍ ... يلاعبُ الحورَ وولدانَها
أطافَ بالكأسِ وإبريقِه ... رحمانُه عليه غلمانَها
لمّا أتى عند كثيبِ الحِمى ... يطلبُ للأبصارِ رحمانَها
أنفُسُنا لو عَرفَتْ ذاتَها ... لأقرأت بالجمعِ قرآنَها
سبحانَ من حيَّرها حكمةً ... فيها فلا تعرفُ فرقانَها[23]

الخلاصة

وُلد الشيخ الأكبر محمد ابن العربي الحاتمي الطائي في مدينة مرسية شرقي الأندلس سنة ٥٦٠ للهجرة (١١٦٥ للميلاد)، وكان ذلك في عهد الخليفة العباسي المستنجد بالله، وكانت دولة المرابطين في الأندلس تلفظ أنفاسها الأخيرة لتحلّ محلّها دولة الموحّدين. كان أبو محمد يتبوأ منصباً رفيعاً عند ابن مردنيش سلطان مرسية، وعندما مات هذا السلطان وأخذ الموحدون إمارته رحل محمد مع أبيه وعائلته إلى إشبيلية عاصمة الأندلس آنذاك، وكان عمره عندئذ ثمانية سنين. وهناك في إشبيلية وفي قرطبة تلقى محمد

---

[23] الديوان: ص٤١٥.

التعليم والتربية على أيدي مشاهير شيوخ الأندلس، وكانت تتهيأ له مكانة رفيعة في قصر السلطان مثل أبيه لولا أنه اتجه إلى طريق الزهد والتصوف. كان ذلك قبل أن يكمل العقد الثاني من عمره، وسرعان ما فُتح عليه بعلوم جمّة أدّت إلى شهرته التي عمّت بلاد الأندلس والمغرب حتى صار الشيوخ يقصدونه من كل حدب وصوب.

وقد قضى الشيخ الأكبر السنوات الأخيرة من هذه الفترة حتى سنة ٥٨٩ في السفر بين مدن الأندلس قاصدا شيوخ الطريق حتى يتعلم على أيديهم ويستفيد منهم ويفيدهم على حد سواء، وهو لم يبلغ بعدُ الخامسة والعشرين من العمر.

بزوغ شمس محيي الدين

لقد كان يوماً صيفياً جميلاً ذلك اليوم الذي وُلد فيه محمد. لم يكن المخاض حالة أمه فقط؛ لأن ولادته كانت حالة استثنائية في التاريخ بأسره، وكأن الدنيا وُلدت حبلى به. انتقل محمد في أصلاب الرجال أرباب الكرم من أرض النبوات في جزيرة العرب إلى الأندلس، جنة الله على الأرض. في ربوع تلك البلدة الجميلة على ضفاف نهر شقورة وفي يوم رحمة من أواسط شهر رمضان المبارك وُلد محمد بن علي ابن العربي بن محمد الحاتمي الطائي. في ليلة يوم الاثنين السابع عشر من شهر رمضان المبارك سنة ٥٦٠ للهجرة، الموافق ٢٦ تموز (يوليو) سنة ١١٦٥ للميلاد،[٢] حيث كان القمر قد بدأ يخلع عمامته البيضاء، وكانت شمس الصيف مقبلة على السهول والجبال تمنح نورها ودفأها للشجر والدواب والبشر والحجر، ولد هذا الطائي في مرسية شرقي الأندلس سليل أسرة عريقة معروفة بالعلم والتقوى والجود والسخاء والكرم؛ فجدّه الأعلى عبد الله الحاتمي، أحد قادة الفتوحات الإسلامية وهو أخو عديّ ابن حاتمٍ الطائي، الصحابي الجليل الذي خاض حروب الردة وأوائل الفتوحات الإسلامية، وكان أبوه علي ابن العربي ذا منصب ومكانة كبيرة عند السلطان ابن مردنيش في مرسية وبعده عند سلاطين الموحدين في إشبيلية.

مرسية

لقد بدأت إذاً رحلة ابن العربي من المشرق، وانتهى شوطها الأول، بالاسم الباطن، في مُرسية، على ضفاف نهر شقورة، في جنوب شرقي الأندلس. هناك رأى محمد الضوء، وهناك أشرقت عليه أول شمس، وتنشّق أول نسيم. على الرغم من أنه لم يعش فيها سوى بضع سنوات من عمر طفولته، إلا أنّ مرسية لا شكّ كانت دائما تعيش في ذاكرته، حتى إن شمسيهما غابتا معاً، حين استولى عليها الإسبان سنة ١٢٣٩/٦٣٦، قبل

[٢] يقرر بعض الباحثين تاريخ ولادة ابن العربي على التقويم الميلادي أنه ١١٦٥/٧/٢٨ (كما يقول وليام جيتيك في الموسوعة الإيرانية) أو ٢٧-١١٦٥/٧/٢٨ (كما يقول ستيفن هرتنشتاين في "الرحمن المطلق: الحياة الروحية والفكرية لابن العربي"، ص٣٤)، ولكنني اخترت يوم ٢٦ لأنه يوم اثنين كما قررت معظم المصادر التي أرّخت ولادته أنه يوم الاثنين (أو ليلته) السابع عشر من شهر رمضان سنة ٥٦٠ للهجرة. تجدر الإشارة إلى أن التقويم الهجري العربي والإسلامي وكذلك ابن العربي نفسه يعتبر أن ليلة اليوم هي التي تسبق نهاره (انظر صفحة ٨ من كتاب أيام الشأن المطبوع في مجموعة رسائل ابن العربي، حيدر آباد، ١٩٤٨).

وفاته بقليل، وكانت يومئذ في يد أميرها أحمد بن محمود بن هود.

يقول ياقوت الحموي في "معجم البلدان" أن مُرْسِية هي مدينة جميلة تقع في شرقي الأندلس من أعمال تُدمير اختطها عبد الرحمن بن الحكم وسمّاها تُدمير أسوة بتدْمُر الشام فاستمرَّ الناس على اسم موضعها الأول، وهي ذات أشجار وحدائق محدقة بها، وبها كان منزل ابن مردنيش، وانعمرت في زمانه حتى صارت قاعدة الأندلس، وإليها يُنسب أبو غالب تمام بن غالب اللغوي المُرسي الذي صنف كتاباً كبيراً في اللغة هو كتاب "الموعب"، وغيره الكثير من أهل العلم والأدب.[٢٤] وكذلك من العلماء الذي أنتجتهم مرسية: شرف الدين أبو عبد الله محمد السلمي المحدث النحوي، وأبو العباس أحمد بن رشيق الأديب الكاتب، وأبو عامر أحمد بن عبد الملك المعروف بابن شهيد الأشجعي الشاعر الأديب (توفي ١٠٣٥/٤٢٦)، وأبو محمد عبد الله بن محمد الخشني الفقيه الحافظ (توفي ١١٣٢/٥٢٦)، وأبو الحسن علي بن إسماعيل المعروف بابن سيده الأندلسي المرسي اللغوي صاحب كتاب "المخصص"، وكتاب "المحكم في اللغة" وكتاب في شرح الحماسة، وأبو العباس أحمد المرسي، من أكابر الأولياء المتوفى بالإسكندرية سنة ١٢٨٧/٦٨٦، وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي الإمام الحافظ، والكاتب الشاعر المؤرخ ابن الأبّار، وغيرهم الكثير.

ويقول الحميري في الروض المعطار:

> ومرسية على نهر كبير يسقي جميعها كنيل مصر، ولها جامع جليل وحمامات وأسواق عامرة، وهي راخية أكثر الدهر رخيصة الفواكه كثيرة الشجر والأعناب وأصناف الثمر، وبها معادن فضة غزيرة متصلة المادة، وكانت تُصنع بها البُسط الرفيعة الشريفة، ولأهلها حذق بصنعتها وتجويدها لا يبلغه غيرهم... ومرسية في مستو من الأرض على النهر الأبيض، ولها ربض عامرٌ آهلٌ، وعليها وعلى ربضها أسوارٌ وحظائر متقنة، والماء يشق ربضها، وهي على ضفة النهر، ويجاز إليها على قنطرة مصنوعة من المراكب تنتقل من موضع إلى موضع، وبها شجر التين كثير، وبها حصون وقلاع وقواعد وأقاليم معدومة المثال، ومنها إلى بلنسية خمس مراحل، ومنها إلى قرطبة عشر مراحل.[٢٥]

عائلة ابن العربي في مرسية

تماشيا مع الفتوحات الإسلامية هاجر الكثير من العرب إلى المغرب العربي والأندلس، ولا شكّ أن بني طيء أجداد ابن العربي كانوا من بين هؤلاء الناس وربما من بين الجنود الذين فتحوا الأندلس؛ حتى إن الكثير من الأوس والخزرج من سكّان المدينة المنوّرة هاجروا كليًا إلى الأندلس واستقرّوا هناك، ولم يعُد

---

[٢٤] معجم البلدان: رقم ١١١٣١.

[٢٥] الروض المعطار في خبر الأقطار: معجم جغرافي مع فهارس شاملة، تأليف محمد بن عبد المنعم الحميري، حققه إحسان عباس، مكتبة لبنان-بيروت، ١٩٨٤، ص٥٣٩.

لهم وجود يُذكر في المدينة.

ويَذكر المؤرخ حسين مؤنس في كتابه "فجر الأندلس" وفود طوالع العرب الأولى إلى الأندلس حينما أقبل "الحرّ بن يوسف الثقفي" إليها في ذي الحجة سنة ٧١٦/٩٧ بعد فتحها بخمس سنوات، واصطحب معه أربعمائة رجل فأقاموا في قرطبة وما حولها.[٧٦] ثم أقبلت القبائل العربية إلى الأندلس، فسكن في مرسية ربيعة جذام ودوس وغافق، وملكان وأفصي بن مضر وجميعهم من اليمن. فلا شكّ أن عائلة ابن العربي كانت منهم، ومن أجل ذلك يفخر الشيخ محيي الدين بنسبه اليمني كما رأينا في بداية الفصل الأول.

ويقول المقرّي في نفح الطيب:

> ومن أهل الأندلس من ينتسب إلى الأوس أخي الخزرج، ومنهم من ينتسب إلى غافق بن علكّ بن عدنان بن هزّان بن الأزد، ... ومن كهلان من ينتسب إلى مذحج، ومذحج: اسم أكمة حمراء باليمن، ... وطيء ابن أدد بن زيد بن كهلان، قال ابن غالب: بنو سراج الأعيان من أهل قرطبة ينتسبون إلى مذحج، ومنزل طيء بقبلي مرسية.[٧٧]

ينتمي ابن العربي إلى عائلة عريقة مشهورة بالعلم والأخلاق، وكانوا من المقرّبين إلى الأمراء والحكّام، غير أنه كما قلنا يصعب تتبع النسب بعد عبد الله الطائي، الجدّ الأعلى لابن العربي. ويبدو أنّ هذه الكنية كانت شائعة في المغرب العربي حيث يوجد الكثير من المشاهير بهذا النسب من غير أن يكونوا بالضرورة من نفس العائلة أو القبيلة. وقد تميّز اثنان فقط بهذا النسب (ابن العربي) هما شيخنا محيي الدين، والذي عادة ما يعرف بين علماء المشرق بابن عربي (من غير ألف لام التعريف)، والقاضي أبو بكر ابن العربي (مع ألف لام التعريف)، كما ذكرنا في المقدمة. وهذان العالمان الجليلان، مع أنهما عاشا في عصر واحد وفترات متقاربة زمانا ومكانا ولكنهما ليسا بالضرورة من عائلة واحدة. كما ويوجد غيرهما ممن عُرف باسم ابن العربي أو ابن عربي ولكن أقل شهرة، كما ذكرنا أيضاً في المقدمة. وربما يكون سبب اشتهار هذه الكنية يعود لكون المغرب بربريا في الأصل وعندما فتحه المسلمون العرب وسكنوا فيه كان هذا الاسم ميّزة لبعض الرجال منهم الذين ربّما سكنوا في منطقة بربرية في المغرب أو الأندلس فكان يقال لهم "العربي" لتميّزهم عن غيرهم بهذا الوصف. كما أننا نجد أن أغلب الذين عُرفوا بهذا اللقب إنما ينتمون إلى قبيلة طيء، فربما يكون بينهم قرابة بعيدة من جهة الجدود.

كان أبو محمد يتقلّد منصباً مهماً عند الأمير ابن مردنيش ثم بقي في خدمة سلطان الموحدين أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن واستمر كذلك حتى عصر أمير المؤمنين الثالث أبي يوسف يعقوب المنصور. ونحن لا نعرف بالتحديد ما هو هذا المنصب الذي كان يتولاه أبو محمد ولكن على الرغم من حسن سيرة ملوك الموحدين مقارنة مع المرابطين وملوك الطوائف، إلا أنه ربما كان عليٌّ العربي يُلام لتوليه مثل هذا

[٧٦] فجر الأندلس، حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة والنشر-القاهرة، ١٩٥٩، ص٤٠٠.

[٧٧] نفح الطيب: ج١ص٢٩٤-٢٩٦.

المنصب والعمل في بلاط الملوك الذين ربما لم يكونوا محبوبين من قِبل الزهّاد الذين كان محمد ابن العربي يرافقهم؛ فكانوا كثيرا ما ينصحونه بترك منصبه والتفرّغ لنفسه كما سنرى بعد قليل.

في هذا الوسط المحب للعلم والعلماء نشأ محمد وترعرع، ومن صباه كان مرهف الحس والذوق، قوي العاطفة، غلاّب الوجدان، رحب الآفاق في الهمة والتطلع، فانطلقت روحه تبتغي أفقاً أعظم وأشمل من ألوان العلوم والمعارف التي ألفها عامة العلماء في وقته على علوّ قدرهم.

فترة طفولته وصباه

لا نعرف الكثير عن الفترة الأولى من حياة محمد، إلا أنها لا شك كانت غنية بالمغامرات والرحلات الترفيهية، خاصة لكونه من عائلة غنيّة مقرّبة من الملوك. وهناك إشارات واضحة على أن الطفل محمدا كان هادئ الطبع خفيف الظل متوقداً، ذكي الفؤاد طيب النفس أنيساً، حلو الشمائل لطيف الروح بسيطاً، يكاد يمازج الأرواح لرقته وتشربه النفوس لعذوبته، ولقد بدت بوادر النبوغ على وجهه منذ نعومة أظافره. مضت سنيّ طفولته بسرعة بارقة وكأنما كان الكمال يدفعه إلى العلا على عجل، وتطلبه الحقائق الأول. غير أنه لم ينس حظه من اللهو والمرح لا سيما وقد كان أهله من الأغنياء وعنده الخدم والحشم، مع أن لهوه ومرحه كان لا يخلو من الدروس والعبر، كيف لا وهو الذي سيكون صاحب الوقت، يحكم على الوقت ويجري مع الأنفاس في مراقبة الله تعالى وتسبيحه وذكره!

كما أنه منذ صغره كان له ميول نحو أهل الله مع أنه هو نفسه لم يكن بعد يعرف طريق التصوف، ولكنه كان يدافع عن الصوفية الفقراء الذين كانوا كثيراً ما يتعرّضون للاضطهاد بسبب عدم قبول الفقهاء لهم والإنكار عليهم عند السلاطين، فكان محمد يعطف عليهم ويُؤويهم، وكان ذلك على الحقيقة سبب فتحه. فقد قال في روح القدس: "ولم أزل أبداً والحمد لله أجاهد الفقهاءَ في حقّ الفقراءِ السادة حقّ الجهاد وأذبُّ عنهم وأحمي، وبهذا فُتح لي!".[٧٨]

انتقالهم إلى إشبيلية

عندما بلغ محمد الثامنة من عمره ضاقت به مرسية كما لن تسعه الأندلس بعد حين، فانتقل مع عائلته في عام ٥٦٨/١١٧٢ إلى إشبيلية في جنوب غرب البلاد، وهي مدينة لا تختلف كثيرا عن مسقط رأسه، فهي أيضاً كثيرة البساتين والمتنزهات ذات طبيعةٍ خلاّبةٍ وجوٍّ جميل، ولكنها كانت مدينة كبيرة متعددة الأعراق والأديان يتنافس فيها الفلاسفة والعلماء والمفكرون، كما أنها كانت لا تخلو من النشاطات الفنية والعمرانية المتعددة.

لقد حصل هذا التحوّل بعد موت ابن مردنيش كما رأينا في الفصل الأول حيث انتهت المقاومة ضد دولة الموحدين في شرقي الأندلس وسيطر السلطان أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن على مرسية

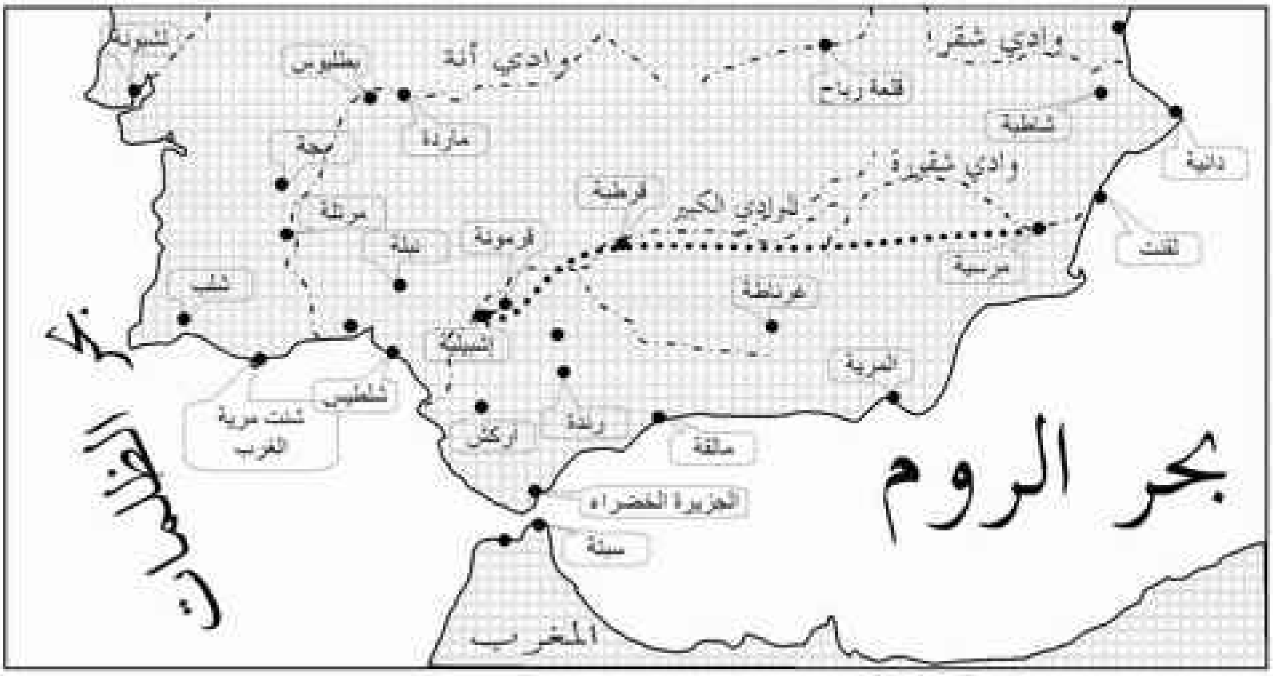
[٧٨] روح القدس، تأليف الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي، مطبعة العلم، دمشق، ١٩٦٤، ص٦٨.

وبلنسية وذهب أبناءُ ابن مردنيش إلى إشبيلية لإعلان ولائهم كما أوصاهم أبوهم وأخذوا معهم بعض القادة والأمراء، ولا بدّ أن أبا محمد علي العربي كان معهم حيث انتقلوا إلى عاصمة دولة الموحدين إشبيلية. وهناك بقي أبو محمد مقربا من الأمير وكان يشغل أيضاً منصبا في بلاطه.

إشبيلية

وإشبيلية هي إحدى أعظم مدن الأندلس؛ كان أول من بناها هو الإمبراطور يوليوس قيصر، فيها نهر الوادي الكبير وهو نهر عظيم يمرّ خلالها. وهي مدينة معتدلة الهواء، حسناء الماء، وأهلها يعملون في التجارة. سكنت فيها أعداد كبيرة من النصارى في تسامح مع المسلمين، وتناكح المسلمون والنصارى، وأسلمت جموع من النصارى وصار أولادهم هم عامة سكان إشبيلية لاحقاً.

وفي عهد عبد الرحمن الداخل، في منتصف القرن الهجري الثاني، استحالت إشبيلية إلى إحدى مراكز الحضارة، و استلمها الأمويّون من بعده فحافظوا على التراث الحضاري، بل زادوا فيه من المباني وأوجهِ الحضارة المختلفة. كانت إشبيلية أعظم حواضر الأندلس، وأمنعها حصوناً، وأكثرها سكاناً، وأصبحت مركزاً لحكومة الموحدين بعد أن ضعفت قرطبة العاصمة الأموية وبعد أن مرّت مرحلة التشتت وانتهى عصر أمراء الطوائف. وتوالت عليها حكومات متعددة؛ فتارةً كانت تحت طاعة الموحدين، وتارةً أخرى تخلع طاعتهم، إلى أن ألقت بمقاليدها عن رضىً واختيارٍ إلى الدولة الحفصية، وكانت دولة قوية فتيّة قامت في تونس، وامتدت إلى المغرب الأوسط، وقلصت نفوذ دولة الموحدين، وبدأت تحل محلهم.



منطقة جنوب الأندلس: الرحلة من مرسية إلى إشبيلية

ففي تلك المدينة المنبسلة تلقّى محمد تعليمه على أيدي مشاهير العلماء والأدباء في ذلك الوقت، وفيها أيضاً قضى سنيّ شبابه. وفي إشبيلية بدأت شهرته تملأ الآفاق حيث كان يطلب جميع العلماء المعروفين

ويدخل معهم في نقاشات واسعة معلّما أو متعلّما. وكثيرا ما كان مشاهير العلماء والفلاسفة يقصدونه ويطلبونه للتعلّم منه والتعرّف عليه كما حصل في لقائه الشهير مع الفيلسوف الشيخ ابن رشد، كما سنرى بعد قليل.

وكما رأينا في الفصل السابق فقد كان السلطان أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (١١٦٣/٥٥٨–١١٨٤/٥٨٠) عالما فقيها يحبُّ الفلسفة وعلوم الدين ويُجلُّ العلماء ويقدّرهم حيث وفّر لهم الجوّ المناسب وكان يجالسهم ويحضر نقاشاتهم مثل ابن طفيل وابن رشد وابن زهر وغيرهم. واستمر هذا الوضع في فترة حكم ابنه المنصور يعقوب بن يوسف (١١٨٤/٥٨٠–١١٩٩/٥٩٥). وعلى الرغم من اجتناب الشيخ ابن العربي للسلطان وحاشيته، ولكن لا شك أن السلطان كان يحبّه ويجلّه وقد عرض عليه منصبا وأن يزوّج أختيه لبعض الأمراء الموحدين كما سنرى في الفصل الثالث، وكذلك كان محمد الناصر بن يعقوب المنصور (١١٩٩/٥٩٥–١٢١٥/٦١١) يتفاخر به وبشهرته بعد أن رحل إلى مكة لكونه نشأ في الأندلس، كما سنرى لاحقا في الفصل الخامس.

الأمان والصدق (قصته مع حمر الوحش)

بعد انتقالهم إلى إشبيلية خرج محمد ذات يوم في رحلة صيد مع والده وغلمانه في منطقة بين قرمونة[79] وبلمة بالقرب من إشبيلية وإذا بقطيع من حمر الوحش ترعى، وكان مولعا بصيدها. كان يسير مع حصانه وحده بعيدا عن الغلمان؛ ففكر في نفسه وجعل في قلبه أنه لا يريد أن يؤذي واحدا منها بصيد. ولمّا رآها حصانه هشّ إليها ولكنه مسكه عنها وهو يحمل رمحه بيده. ثم وصل إلى القطيع ودخل بينهم وربما مرّ سنان الرمح بأسنمة بعضها وهي ترعى؛ فما رفعت رأسها ولا خافت منه أبداً حتى اجتازها! ثم لمّا أعقبه الغلمان فرّت الحمر أمامهم من الخوف.[80]

ولم يعلم محمد وقتها تفسير ما حدث من مثل هذا التصرف الغريب الغير مألوف من قبل حمر الوحش هذه، غير أنه أدرك في وقت لاحق أن الأمان الذي كان في نفسه تجاههم سرى في نفوسهم فما عادوا يخافون منه. فأدرك أنه من أراد أن لا يخاف من أحد فلا يُخف أحداً، وإذا أمِن منك كلُّ شيء تأمن أنت من كل شيء، وأدرك أهمية الصدق وأثره حتى على الحيوان. كما أنه سيدرك لاحقا أنه ليس الإنسان فقط هو الذي يتّصف بالعلم والمعرفة بل جميع الحيوانات وحتى الجماد؛ كيف لا وكل شيء يسبّح بحمد الله، ولا يسبّح إلا من هو عالم بمن يسبّح!

---

[79] وردت في معجم البلدان لياقوت الحموي (رقم ٩٥٥٤) قَرْمُونَةُ: كورة بالأندلس يتصل عملُها بأعمال إشبيلية غربي قرطبة وشرقي إشبيلية قديمة البنيان نَصَتْ على عبد الرحمن بن محمد الأموي فنزل عليها بجنُوده حتى افتتحها وخربها ثم عادت إلى بعض ما كانت عليه وبينها وبين إشبيلية سبعة فراسخ وبين قرطبة اثنان وعشرون فرسخاً وأكثر ما يقول الناس قَرمونة.

[80] انظر رواية ابن العربي لهذه القصة في الفتوحات المكية ج٤ص٥٤٠.

مرضه، وإنقاذه بسورة يس

بقدر ما يكون المرء موهوبا ومباركا وموفقا، بقدر ما تكثر أعداؤه ويزيد منافسوه الذين لا بدّ أن يحاولوا الإيقاع به ومحاصرته وتثبيطه عن الوصول إلى أهدافه النبيلة، فإما أن يغلبوه ويردوه على أعقابه وإما أن ينصره الله عليهم ويوفقه ويتمّ نعمته عليه فيخرجه من كل محنةٍ منتصراً وتزيده كل بليّةٍ قوةً وتصميماً، مع أنه يجب دائما اجتناب النزاعات وعدم الالتفات إليها لأنها إن لم تثنِ المرء عن أهدافه فسوف تؤخره.

فأما أعداء العالم الدنيوي فيسهل تجنّبهم واستيعابهم، وذلك بترك ما يتقاتلون عليه والزهد به فلا يكون هناك سبب للمنازعة. وهذا هو بالتحديد ما يجب فعله على كلّ من يريد دخول طريق التصوّف، وهذا هو ما فعله ابن العربي حين ترك المناصب وابتعد عن السلاطين وترك حبّ الشهرة للفقهاء الذين كثيراً ما كانوا يداهنون من أجل الحصول على قبول الحكام والوزراء لهم.

ولكن ثمة أعداء آخرون يتربصون بالمرء من كل جهة وهم لا يريدون منافسته في مال ولا جاه بل ربما يُغرونه بهذه الأشياء ليثنوه عما هو في سبيله. وهؤلاء هم الشياطين والأرواح الشريرة، ونحن لا يمكننا أن ننكر وجودهم، رغم أن ذلك شيء لم يدخل بعد تحت سيطرة العلم الحديث ودراسته، ولكن الدين يفرض علينا الإيمان بذلك مع أننا نؤمن أنه في النهاية لا يضرّ ولا ينفع إلا الله سبحانه وتعالى. ولولا وجود مثل هذه الأرواح الشريرة ما أُمرنا بالحرز والاستعاذة وقراءة القرآن الكريم وخاصة بعض الآيات أو السور التي تتعلق بطرد هذه الأرواح والقضاء عليهم مثل المعوذات وآية الكرسي وسورة يس.

يروي ابن العربي أنه كان مرة مريضا جدا حتى إن من حوله اعتقدوا أنه يصارع الموت أو أنه قد مات حيث كان غائبا عن الوعي وكان يهلوس لشدة الحمّى. فيقول إنه كان يرى أشخاصا مرعبين قبيحيّ المنظر يحاولون أن يؤذوه، ولكن فجأةً ظهر له شخص قويٌ ولطيفٌ وكان يستنشق الطيب من نَفَسه وصار هذا الشخصُ يدافع عنه حتى غلبهم جميعاً. فقال له محمد: من أنت؟ قال: أنا سورة يس، أنا حارسك. ثم ما لبث أن استعاد محمد وعيه وعافيته وإذا بأبيه يقف قربه وهو يبكي وكان قد انتهى لتوّه من قراءة سورة يس.[81]

وبذلك فإن الله سبحانه وتعالى قد سخّر له أباه لإنقاذه من الموت بقراءة هذه السورة المباركة وهي قلب القرآن،[82] فكانت هي حارسه من هذه الأرواح الشريرة التي كانت تحاول القضاء عليه.

عمّه عبد الله بن محمد ابن العربي الطائي وقصة توبته

يروي الشيخ محيي الدين قصة عمّه عبد الله وهو شقيق أبيه الذي كان في أواخر عمره في بداية العقد الثامن ولم يكن إذ ذاك يعتقد بالتصوف والزهد حتى هداه صبي صغير إلى هذا الطريق بسبب كلمة قالها له وهو في دكّان العطّار عندما جاء هذا الصبيُّ الصغير فطلب منه أن يعطيه قليلا من "الشونيز الأبيض".

---

[81] الفتوحات المكية: ج٤ص٦٤٨، ط ١٣٢٩، وأيضاً: الوصايا، ص١٥٠.

[82] جاء في سنن النسائي الكبرى (ج٦ص٢٦٥) أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال "ويس قلب القرآن لا يقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر له، اقرؤوها على موتاكم".

والشونيز هو الحبة السوداء ولا تكون أبداً بيضاء اللون. فاستهجن ذلك أبو محمد وضحك وقال للصبي إنني أضحك من شدة جهلك لأن الشونيز لا يكون أبيضاً. وهنا جاء جواب الصبي صاعقا ومؤثرا حيث قال له: إن جهلي بهذه الأمور لن يضرّني عند الله ولكن لهوك وغفلتك التي أنت فيها ستضرّك عنده حيث أنك لا تزال معرضا عنه رغم تقدمك في العمر. فأثر ذلك الكلام كثيرا في نفس الرجل المسن وكان ذلك سبب رجوعه إلى طريق الله، فكان يختم القرآن كل يوم ويهدي نصف ثوابه لهذا الصبي.[٨٣] فلما دخل طريق التصوف زهد في الدنيا وعاش بعد ذلك ثلاث سنوات بلغ خلالها مقامات عالية في الولاية، ثم مات وعمره ثلاث وثمانون سنة، وكان ذلك قبل دخول ابن العربي في طريق التصوف.

وبالإضافة إلى كتاب الدرة الفاخرة، فقد ذكر الشيخ محيي الدين قصة عمّه عبد الله في كتاب روح القدس حيث ذكر له أيضاً عدة كرامات مثل تنسمه ريح الجنة في الصباح واختفاء الأدرة الكبيرة التي أصيب بها عند موته بالإضافة إلى تنبؤه الدقيق بموعد موت ابنه وموته. يقول ابن العربي في روح القدس:

> ومنهم رضي الله عنهم أبو محمد عبد الله بن محمد ابن العربي الطائي وهو عمي شقيق والدي دخل هذه الطريق في آخر عمره على يد صبي صغير لم يدر ما هذا الطريق. دخله وهو في عمر الثمانين فلازم المجاهدة والـواحل حتى برع فيه. كانت له في كل يوم ختمة لازمة يهب نصفها لذلك الصبي الذي رجع على يديه؛ بصّره ذلك الصبي بالطريق.

وكذلك فيبدو أن عمه عبد الله كان صاحب من سيكون أحد شيوخه وهو أبو علي حسن الشكاز الذي سنذكره بعد قليل: فيقول الشيخ محيي الدين في روح القدس أنه كان يبيت عنده وهو صغير مع عمه وكان يخدمه.[٨٤]

بعض كرامات عمه عبد الله

ويقول الشيخ محيي الدين في الباب الرابع والعشرين من الفتوحات المكية أنَ عمّه كان من

---

[٨٣] بالإضافة إلى كتاب "روح القدس" كما سننقله أدناه، لقد ذكر الشيخ محيي الدين هذه القصة بالتفصيل في كتاب "الدرة الفاخرة" (انظر مؤلفات ابن عربي تاريخها وتصنيفها، تأليف عثمان يحيى، ترجمة أحمد الطيبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب-القاهرة، ٢٠٠١، ص٣٠٩-٣١٠) وهو لم يحقق بعد. ولقد أخذنا هذه الرواية من ترجمة رالف أوستين في كتاب صوفيو الأندلس، ص٩٩-١٠٠:

(Sufis of Andalusia: the Ruh Al-Quds & Al-Durrat Al-Fakhirah by Muhyiddin Ibn Arabi, R. W. J. Austin, New Leaf Distributing Company, 1988, p. 99-100).

انظر أيضاً: كتاب "البحث عن الكبريت الأحمر: حياة ابن العربي"، تأليف كلوديا عداس، ترجمه من الفرنسية للإنكليزية: بيتر كنغسلي، ص٢٠-٢١:

(Quest for the Red Sulpher, The Life of Ibn Arabi, Claude Addas, trans. Peter Kingsley, The Islamic Texts Society, 1993, p. 20-21).

وكتاب "الرحمن المطلق: ابن العربي فكره وحياته الروحية"، تأليف ستيفن هرتنشتاين، ص٣٨:

(The Unlimited Mercifier, The Spiritual Life and Thought of Ibn 'Arabi, Stephen Hirtenstein, Anqa Publ. Oxford, 1999, p. 38).

[٨٤] روح القدس: ص٦٢.

الرجال الذين تكون قلوبهم متعشّقة بالأنفاس الرحمانية حساً ومعنىً،[٨٥] وهم رجال يدركون بالشمّ ما يدركه غيرهم بالحواس الأخرى. ولذلك يذكر الشيخ محيي الدين أن عمّه رحمه الله كان يجلس في البيت فيقول "طلع الفجر"، فيسأله محمد "من أين تعرف ذلك؟" فيقول: "يا بنيّ إن الله يوجّه ريحاً من تحت العرش تهبّ في الجنّة، فتخرج بريحها عند طلوع الفجر يشتمّها كلّ مؤمن في كل يوم."[٨٦] وتجدر الإشارة إلى أنّ ذلك أيضاً من أحوال "نفس الرحمن" الذي يبدو أن أهل اليمن حصّلوا فيه الحظّ الوافر، كما ذكرنا في نهاية الفصل الأوّل.

ويذكر الشيخ محيي الدين أيضاً عن عمّه أنه أصابته أدرة[٨٧] كبيرة، فكان يجعلها أمامه مثل المخدة الكبيرة. وكان له ولدٌ خلفٌ قد أقرح قلبه فدعا عليه فمرض وكان يسأل الله أن يقدّمه أمامه وحينئذ يموت، فمات ابنه قبله فدفنه وقال: "الحمد لله إني أعيش بعده أربعة وأربعين يوما وأموت." فعاش كما قال ومات.

ويصف الشيخ محيي الدين موته فيقول:

> ولما كانت ليلة وفاته قعدنا عنده بعد صلاة العشاء وهو مستقبلٌ القبلة فوجد بعض راحة وأدرته قد عظمت، فقال لنا استريحوا وارقدوا، فأخذنا مضاجعنا، فقمت إليه في وقت السحر فوجدته قد فاضت نفسه رحمه الله تعالى وما شاهد أحد موته. وطلبنا تلك الأدرة فلم نجد منها شيئا، فقلنا لعلها كانت رياحا وبقي الجلد، فإذا به مثل جميع الناس ما عنده شيء فعجبت أن ستره الله وأخفاه.[٨٨]

وفي الفتوحات المكية أيضاً يروي الشيخ الأكبر أن عمه عبد الله كان كثيرا ما ينشده هذه الأبيات المؤثرة للسميسر:[٨٩]

زمانٌ يمرُّ وعيشٌ يمرّ	ودهرٌ يكرُّ بما لا يسرّ
ونفسٌ تذوبُ وهمٌّ ينوبُ	ودنيا تنادي بأن ليس حرّ

ويقول الشيخ محيي الدين أن عمّه كان عمره من وقت رجوعه إلى هذا الطريق إلى أن مات ثلاثة أعوام خاصة، ومات وهو في الثالثة والثمانين. ويضيف أنه "مات قبل أن أدخل هذا الطريق".[٩٠]

من هو هذا الصبي

وكما بيّن ستيفين هرتنشتاين في تعليقه على هذه القصة[٩١] أنه من غير المستبعد أن يكون هذا

---

[٨٥] الفتوحات المكية: ج١ص١٨٥.

[٨٦] روح القدس: ص٦٣.

[٨٧] الأدرة هي انتفاخ في الجلد يحصل بسبب تجمع بعض السوائل.

[٨٨] روح القدس: ص٦٣.

[٨٩] الفتوحات المكية: ج٤ص٥٥٠. والسميسر شاعر شهير من شعراء الأندلس.

[٩٠] روح القدس: ص٦٣.

[٩١] الرحمن المطلق: ص٣٨.

الصبيّ هو ابن العربي نفسه لأن الشيخ محيي الدين كثيرا ما يتحدث عن نفسه باستعمال ضمائر الغائب. وهذا أمرٌ مستساغٌ جداً لأن هذا الوصف ينطبق عليه كونه كان لا يزال بعد "صبيا صغيرا لم يدر ما هذا الطريق" وكذلك فإن تعليق الشيخ أبي محمد عبد الله الطائي وضحكه على سؤال الصبي عن "الشونيز الأبيض" يشير إلى أنه كان يمازحه مما يعني أنه يعرفه جيدا وربما اعتاد على ممازحته من قبل. وكذلك فإن جواب الصبي القاسي ربما لم يكن فقط ردًا على ضحك الشيخ من جهل الصبي بأسماء الأعشاب الطبية، ولكنه ربما كان يعرف عنه أكثر من ذلك بكثير وأنه كان رغم تقدم سنّه لا يزال يلهو ويعرض عن الله تعالى. فكل ذلك يعني أن هناك علاقة قوية بين الصبي والشيخ عبد الله الطائي، ولا يُستبعد أبدا أن يكون هذا الصبي هو محمد ابن أخيه. وهذا أيضاً يتطابق مع كون عبد الله الطائي قد مات قبل أن يدخل محمد الطريق وأن هذه القصة قد حصلت قبل وفاته بثلاث سنوات، وسنجد بعد قليل أن الشيخ محيي الدين قد دخل الطريق في عمر مبكر جدا ربما لا يُجاوز الخامسة عشر وأنّه كان يرافق أهل الله منذ صغره.

فترة اللهو والجاهلية

كما هو الحال مع أغلب الناس، وخاصة من تربّى في ظل الغنى والسلطان، فلا بدّ من قضاء أوقات في اللهو مع الأصحاب في حفلات الغناء والطرب، فبقدر ما ينغمس الإنسان في ذلك يبتعد عن الإسلام شيئا فشيئا حتى يخرج الإسلام من قلبه وعقله، وبعد ذلك إما أن يتوب ويعود للطريق القويم، وإما أن ينساه الله كما نسي هو ذكر الله، فيصبح من الخاسرين.

ويبدو أن ابن العربي قد مرّ في مثل هذه الظروف لبعض الوقت في فترة من مرحلة شبابه، لأنه يذكر مثل ذلك في رسالة روح القدس التي خصصها لمحاسبة نفسه وعرضها على الرجال الصالحين من الصحابة والأولياء، وتفنيد دعاويها وردّها إلى الحق. فيقول وهو يخاطب نفسه في رسالة روح القدس التي وجّهها من مكة المكرمة إلى صديقه التونسي عبد العزيز المهدوي: كم مرة سمعتُ آية من كلام الله فثقلت عليّ ومججتها، وكم والله رنّة شعر سمعتها فاستعذبتها! أخاف والله يا وليّي على نفسي وعلى من هو مثلي أن يُنقل اسمه من ديوان المؤمنين إلى ديوان من قال فيهم الحقّ جلّ وعلا ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر].

ثم يقول إنه قد اتصف بهذا في السهرات التي كانت تُقام مع أصحابه على ما يبدو، فكان يستمع إلى القوّال (أي المغني أو المنشد) وهو يقول زخرف القول وغروره فيهتزّ ويقوم ويقول شاباش! هذا والله حسن! ويضيف أنه لا يزال الملعون شيطانه يرقّصه كما يفعل صاحب القرد بقرده، فإذا أخذ حاجته منه صفعه صفعةً فأضجعه فيقوم من قلّ فلاحه فيغطيه برداءٍ حتى يخلي سبيله ويقوم وهو يهذي نفسه وقد عزّاه الملأ الأعلى في دينه وفيما مضى من عقله. ثم في آخر الليل ينام هو وأصحاب السوء مثله وقد تعبوا من كثرة ما رقصوا فلا يكادون أن يأخذوا قليلاً من النوم إلا والصبح قد أذّن، فيقومون ويتوضؤون بأقل ما ينطلق عليه اسم

الوضوء ثم يذهبون إلى المسجد، هذا إذا وُفّق لذلك، وإلا فالأغلب على من هذه حالته أن يصلي في داره بـ"إنا أعطيناك الكوثر" وسورة الفاتحة كيفما كانت، والقنوت ليس بواجب فيتركه وينقرها مخفّفة جداً، ثم يضطجع إلى وقت الضحى ليستريح!

فيذكر الشيخ الأكبر ذلك ويقول لنفسه: "هيهات والله ما كانت طريق الله هكذا." ولكن هكذا كانت حالته في جاهليته هو وبعض أصحاب السوء. ويضيف أنه إن كان موفقا أكثر من غيره توضأ وخرج إلى المسجد وإذا دخل فيُقال له: قد صلى الناس! فلا يجد لذلك حزنا ولا يكترث بل يقيم الصلاة ويصلي وكأنه ما فاته شيء، لاهيَ القلب مسروراً، ويقول بلسان الحال: "قد حصل لي أجر الجماعة بقصدي وأراحني الله من تطويل الإمام."

ثم يضيف في رسالة روح القدس أنه بعد ذلك كان إن أدرك الصلاة مع الإمام فهو في تلك الصلاة على أحد وجهين: إذا كان مستريح القلب من كل شيء، يتذكر ليلته البارحة وحسنها وما كان أحسن ذلك القوّال وشعره، ويقضي صلاته كلها في هذا حتى لا يدري ما صلى الإمام ولا بما صلى، وإنما رأى الناس يفعلون شيئا ففعل مثلهم: ركعوا فركع وسجدوا فسجد ووقفوا فوقف وجلسوا فجلس. أما إذا كان تَعِباً نَعِساً فيترقّب عند ذلك فراغ الإمام وتثقل عليه القراءة ويغتاب الإمام في نفسه ويمقُته ويقول: "ما أثقله قد افتتح سورة الحشر أو الواقعة، هلاّ كان قنع بالانفطار والفجر، والنبي صلّى الله عليه وسلّم قد أمرنا بالتخفيف، هذا خلافُ السنّة، ويحوقل ويهلل، كل ذلك لغير الله."[٩٣]

فيبدو أن مثل هذه الحال قد مرّت على ابن العربي، وربّما هذه هي الفترة التي يقول إنه قد مرّ بها. والفترة في التصوّف هي مرحلة لا بدّ منها ولكنها قد تطول وقد تقصر وقد ينكص فيها المرء على عقبيه فلا تقوم له بعد ذلك قائمة. وتحصل الفترة عادة بعد الفتح كما سنرى بعد قليل.

تلقيه العلم وتعلمّه القرآن الكريم

أغلب الظن أن ابن العربي قد تلقى تعليماً خاصاً وليس هناك ما يدلّ على أنه كان يذهب إلى المدارس المعروفة آنذاك، وهذا أمرٌ طبيعي نظرا لكون عائلته من العائلات الغنية والمقرّبة من السلطان كما ذكرنا أعلاه. ويبدو أيضاً أنه لم يكن في بداية الأمر بارعا في شيء من ضروب العلوم والآداب التي كانت تُدرس في وقته، بل أنه لم يكن يحسن القراءة أمام الشيوخ، حيث أنه كان يَهابُهم ويرتعد بين أيديهم. ولعل ذلك كان بسبب شدّة تأدّبه معهم ومعرفته علوّ مقاماتهم. فقال وهو يروي قصةً حدثت معه عند شيخه وأستاذه أبي يعقوب يوسف بن يخلف الكومي الذي سنتكلم عنه بعد قليل، وكان ذلك في بدايته عند دخوله طريق التصوف أو ربّما قُبيل ذلك:

> ... ولم أكن قط رأيت رسالة القشيري ولا غيرها ولا كنت أدري لفظة التصوف على ماذا تنطلق! فركب (الشيخ يوسف) يوماً فرسه وأمرني وآخر من

[٩٣] روح القدس: ص٢٠-٢١.

> أصحابه أن نخرج إلى المنتيار -وهو جبل عال على فرسخ من إشبيلية- فخرجت أنا وصاحبي عند فتح باب المدينة وفي يد صاحبي رسالة القشيري وأنا لا أعرف ما القشيري ولا رسالته، فصعدنا الجبل فوجدناه سبقنا وغلامُه ممسكٌ فرسه. فدخلنا مسجداً في أعلى ذلك الجبل فصلينا واستدبر القبلة وأعطاني الرسالة وقال لي اقرأ! فلم أقدر أن أضمّ كلمةً إلى أخرى والكتاب يسقط من يدي من الهيبة، فقال لصاحبي اقرأ! فأخذه صاحبي وقرأه وتكلم عليه الشيخ، فلم نزلْ كذلك حتى صلينا العصر.[93]

ولكن ابن العربي سرعان ما بدأ بالانتظام في حلقات التعليم والدروس عند أكابر الشيوخ المشهورين في عصره أمثال أبي بكر بن خلف الذي كان يعلّم القرآن بالقراءات السبع بكتاب "الكافي" والذي كان يحدّث به عن ابن مؤلفه عن أبيه محمد بن شريح (١٠٠١/٣٩٢-١٠٨٣/٤٧٦)،[94] وكذلك أبي القاسم الشرّاط القرطبي (توفي ٥٨٦/ ١١٩٠). ذكر ذلك أحمد بن محمّد المقرّي المالكي في كتابه "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب" في ترجمة ابن العربي:

> ... قرأ القرآن على أبي بكر ابن خلف بإشبيلية بالسبع وبكتاب الكافي، وحدّثه به عن ابن المؤلف أبي الحسن شريح بن محمد بن شريح الرّعيني عن أبيه، وقرأ أيضاً السبع بالكتاب المذكور على أبي القاسم الشرّاط القرطبي، وحدّثه به عن ابن المؤلف، وسمع على أبي بكر محمد بن أبي جمرة كتاب التيسير للدّاني عن أبيه عن المؤلف، وسمع على ابن زرقون[95] وأبي محمد عبد الحق الإشبيلي الأزدي وغير واحدٍ من أهل المشرق والمغرب يطول تعدادهم.[96]

وكذلك قرأ ابن العربي الحديث والأدب على مشاهير العلماء والأدباء كما سنرى ذلك بعد قليل.

---

[93] روح القدس: ص٤٩-٥٠.

[94] محمد بن شريح بن أحمد بن محمد بن شريح هو أبو عبد الله الرُّعينيّ الإشبيليّ المقرىء، مصنّف كتاب الكافي، وكتاب التذكير، وخطيب إشبيلية. رحل وحجّ، وسمع من أبي ذرّ الهرويّ، وأجاز له مكّيّ القيسيّ، وسمع بمصر من: أبي العبّاس بن نفيس، وأبي القاسم الكحّال؛ وبإشبيلية من: عثمان بن أحمد القيشطاليّ. وقرأ بالروايات بمكّة على القنطريّ، وبمصر على ابن نفيس. روى عنه: ابنه الخطيب أبو الحسن شريح. انظر: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، للحافظ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي-بيروت، ١٩٨٩، حوادث وفيات ٤٧١-٤٨٠، ص١٧٩. انظر أيضاً: الذهبي، "سير أعلام النبلاء": ج١٨ص٥٥٤.

[95] هو الشيخ الفقيه الإمام المقرئ أبو عبد الله محمد بن أبي الطيب سعيد بن أحمد بن سعيد بن عبد البر بن مجاهد ابن زرقون الأنصاري الأندلسي الإشبيلي المالكي. أجاز له عام اثنين وخمس مئة أبو عبد الله أحمد بن محمد الخولاني راوي الموطأ، وفيها ولد، وتفرد في وقته عنه. وسمع بمراكش من أبي عمران موسى بن أبي تليد، فتفرد عنه أيضاً. انظر أيضاً: الذهبي، "سير أعلام النبلاء": ج٢٢ص٣١١-٣١٢. ابن الأبار، "التكملة": ج٢ص٦١٦-٦١٧، ابن العماد، "شذرات الذهب": ج٥ص٩٦.

[96] نفح الطيب: ج٢ص١٦١-١٦٢.

موقفه من المذاهب

ورغم أن هؤلاء الشيوخ الذين تتلمذ الشيخ الأكبر على أيديهم وتعلّم منهم كانوا في أغلبهم ينتمون إلى المذهب المالكي الذي كان شائعا في الأندلس في ذلك الحين، إلا أنه هو نفسه لم يكن يفضّل أيّ مذهبٍ فقهيٍّ محدّد، وذلك لأنه على الحقيقة يقول بأن باب الاجتهاد مفتوح وأنه يجوز الأخذ من جميع المذاهب التي قال بها العلماء وليس بالضرورة اتّباع مذهب معيّن بذاته، وهذا شيء منعه الكثير من الفقهاء الذين أوجبوا الالتزام بمذهب معين. وهذا الواقع يدحض قول الذين ينسبونه إلى ابن حزم ويقولون أنه ظاهريّ المذهب كما ذكرنا في نهاية الفصل الأول. ولكن على الرغم من أن الشيخ الأكبر يقبل بجميع المذاهب ويجيز الانتقال بينها طلباً للرُّخص إذا لزم الأمر، إلا أنه يندب إلى ويحثّ على الجمع بينها للخروج من الخلاف واتّخاذ الأحوط.[97]

ولقد أفرد الشيخ رضي الله عنه جزءاً كبيراً من الفتوحات المكية لتبيين الأحكام الفقهية الخاصة في أركان الإسلام، فذكر في كل حكم الآراء المختلفة ثم بيّن الرأي الذي يقول به هو من غير أن يُخطّئ بقيّة الآراء، ثم زاد فوق كل ذلك توضيح المعاني الباطنية لهذه الأحكام.[98]

ولقد أوضح رضي الله عنه أن أهل الكشف لا يحكمون بآرائهم بل بما كشف الله لهم، لأن أهل الكشف لهم الاطلاع على جميع المذاهب كلّها والنّحلِ والمللِ والمقالاتِ في الله اطلاعاً عاماً لا يجهلون منه شيئا. فما تظهر نِحلةٌ من منتحل ولا مِلّةٌ بناموسٍ خاصٍّ تكون عليه ولا مقالةٍ في الله أو في كونٍ من الأكوان، ما تناقض منها وما اختلف وما تماثل، إلا ويعلم صاحب الكشف من أين أُخذت هذه المقالةُ أو المِلّةُ أو النِحلةُ فينسبها إلى موضعها ويقيم عذر القائل بها ولا يخطّئه ولا يجعل قوله عبثاً. فإن الله ما خلق سماءً ولا أرضاً وما بينهما باطلاً ولا خلق الإنسان عبثاً بل خلقه ليكون وحده على صورته: فكلُّ مَن في العالم جاهلٌ بالكلّ عالمٌ بالبعض، إلا الإنسان الكامل[99] وحده فإنّ الله علّمه الأسماء كلها وآتاه جوامع الكلم.[100]

ولقد ورد في صحيح البخاري (كتاب الأقضية) عن عمرو بن العاص أنّه سمع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنه قال: "إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ، ثُمَّ أَخْطَأَ، فَلَهُ أَجْرٌ." فلذلك لا ينبغي لنا أن نطعن في حكم مجتهد لأن الشرع الذي هو حكم الله قد قرّر ذلك الحكم، فهو شرع الله بتقريره إيّاه، وهذه مسألة يقع في محظورها أصحاب المذاهب كلهم لعدم استحضارهم لذلك مع كونهم

---

[97] الفتوحات المكية: ج٣ص٣٣٦، وكذلك: ج١ص٤٠٥، ٥٤٥-٥٤٨، ج٢ص٥٥٩، ج٣ص٦٩، ١٤٢، ٤١٣، ٥٠٢.

[98] انظر ذلك في الأبواب ٦٨-٧١ من الجزء الأول من الفتوحات المكية.

[99] الإنسان الكامل هو القطب الذي تدور عليه أفلاك الوجود وهو اصطلاح صوفي يستخدمه ابن العربي للإشارة إلى العقل الأوّل الذي خلقه الله على صورته، وهو أيضاً سيّدنا محمد صلّى الله عليه وسلّم ولكن كذلك يمكن للأنبياء والأولياء أن يصلوا إلى مثل هذه المرتبة من الكمال فيكونون كالإنسان الكامل. انظر مثلا الفتوحات المكية: ج١ص٦٣٩، ج٢ص١٠٣، ١٢٣، ١٢٩، ١٤٩، ١٦٩، ٣٥٤، ٣٨٣، ٣٩٠، ٣٩٥، ٤٦١، ٤٦٨، ٤٦٩. ولقد صنّف الشيخ عبد الكريم بن إبراهيم الجيلي كتاب الإنسان الكامل في معرفة الأوائل والأواخر، وله طبعات عديدة منها طبعة بتحقيق أبي عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضه، دار الكتب العلمية-بيروت، ١٩٩٨.

[100] الفتوحات المكية: ج٣ص٣٩٨.

عالمين به، ولكنهم غفلوا عن استحضاره، فأساؤوا الأدب مع الله في ذلك حين فاز بذلك الأدباء من عباد الله؛ فمن خطأ مجتهداً بعينه فقد خطأ الحقَّ فيما قرّره حكما."[101] ومن هنا نجد الفرق الكبير بين انتقاد ابن العربي وأتباعه لمن خالفهم بالرأي وبين انتقاد ابن تيميّة وأتباعه لابن العربي وأمثاله كما سنرى في الفصل الأخير.

شيخه المقرئ محمد بن خلف بن صاف اللخمي (إشبيلية، ٥٧٨/١١٨٢)

في سنة ٥٧٨/١١٨٢، عندما كان عمره ثمانية عشر سنة، واظب محمد على حضور دروس القرآن الكريم مع الشيخ المقرئ محمد بن خلف اللخمي (توفي ٥٨٥/١١٨٩)[102] حيث تعلم منه القراءات السبع، وقد كان معروفا بالعلم والتربية، ومنه تعلم بعض القراءات التي لم تكن مشهورة كلفظ بعض الأعراب "الزراط" بدلا من "الصراط" أو "السراط":

> سمعت شيخا، وكنت أقرأ عليه القرآن يقال له محمد بن خلف بن صاف اللخمي، بمسجده المعروف به بقوس الحنية بإشبيلية من بلاد الأندلس سنة ثمان وسبعين وخمسمائة، فقرأت السراط بالسين لابن كثير، فقال لي: سأل بعض ناقلي اللغة بعض الأعراب كيف تقولون صقر أو سقر؟ فقال له ما أدري ما تقول ولكنني أظنك تسأل عن الزقر! فقال فزادني لغة ثالثة ما كنت أعرفها."[103]

مقرئٌ ومربٍّ

ويبدو أن الشيخ اللخمي كان صوفيا أيضاً وكان بارعا في التربية كما هو بارع في القراءات، فكان مثلا يعلّم تلاميذه الأدب وحفظ السرّ حتى عن الأصدقاء."[104]

والأهم من هذا أنه كان يعلّم تلاميذه التفكّر في معاني الآيات وعدم الاكتفاء بقراءتها على وجه السرعة بهدف الانتهاء من الختمة في وقت قصير. يروي عنه الشيخ الأكبر أنه كان يقصّ عليهم قصةً لطيفةً حول هذا المعنى، وهي القصة المشهورة حول الشاب الذي كان يقرأ القرآن كاملا كلّ ليلة حتى طلب منه شيخه أن يتخيّل أنه يقرأ القرآن عليه؛ فعندئذ ما استطاع أن يقرأ أكثر من نصف القرآن، وهكذا تدرّج معه فقال له: تخيّل أنك تقرؤه على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الذي أُنزل عليه القرآن، ثم بين يدي جبريل الذي نزل به على قلب محمد صلّى الله عليه وسلّم؛ فما استطاع أن يزيد على عدة آيات. ثم قال له الشيخ يا ولدي "تب

---

[101] الفتوحات المكية: ج١ص٣٤٨.

[102] لترجمة هذا المقري انظر: غاية النهاية في طبقات القراء، شمس الدين أبي الخير محمد بن محمد بن الجزري، عني بنشره ج. برجستراسر، مكتبة الخانجي-القاهرة، ١٩٣٢: ج٢ص١٣٧-١٣٨، وكذلك: الذيل والتكملة على كتاب الموصول والصلة، لابن عبد الملك المراكشي، أكاديمية المملكة المغربية-المغرب، ١٩٨٤: ج٤ص١٨٨، وكذلك: التكملة لكتاب الصلة، لابن الأبار، تحقيق إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري-القاهرة، ١٩٨٩، رقم ٨٢١.

[103] الفتوحات المكية: ج١ص٣٣١.

[104] الفتوحات المكية: ج٢ص٣١٤، ج٤ص٥٥٠.

إلى الله وتأهّب واعلم أن المصلي يناجي ربه وإنك واقفٌ بين يديه تتلو عليه كلامه فانظر حظك من القرآن وحظّه وتدبّر ما تقرأه، فليس المراد جمع الحروف ولا تأليفها ولا حكاية الأقوال. وإنما المراد بالقراءة التدبّر لمعاني ما تتلوه فلا تكن جاهلاً!" فعندئذ لم يستطع الشاب أن يكمل الفاتحة لأنه لا يستطيع أن يقول "إيّاك نعبد" لأنه يخاف أن لا يصدق وهو يعلم أنه لمّا يُخلص بعدُ العبادة لله تعالى."[105]

فلا شك أن مثل هذه القصص ذات الطابع الصوفي كان لها تأثيراً كبيراً على روح ابن العربي الشاب الذي كان الصدق عنده ملكةً كما رأينا في الأعلى عندما ذكرنا قصته مع حمر الوحش.

صاحباه محمد الخياط وشقيقه أحمد الحريري (إشبيلية)

إن من أوائل مَن يذكرهم الشيخ محيي الدين من أصحابه وإخوانه وشيوخه الذين تعلم منهم ومعهم هما الأخوان الشقيقان محمد الخيّاط وأحمد الحريري وكانا يقطنان في مكان ليس قريبا عن مسكن ابن العربي في إشبيلية، ولكنه كان يزورهما كثيرا ويتعلم منهما، وكان مولعا بشكل خاص بالشيخ محمد الخياط، الذي كان أكبر منه عمرا. وقد صحبهما محمد حتى سنة ١١٩٤/٥٩٠ حيث ارتحلا إلى المشرق بهدف الحج ثم استقر الأمر بهما في مصر حيث سيلتقي بهما الشيخ الأكبر لاحقا.

أبو عبد الله محمد الخياط

وقد تأثر ابن العربي بشكل خاص بالشيخ محمد الخياط كثيراً كما يذكر ذلك في كتاب روح القدس وهو يذكر إخوانه الذين عاشرهم واستفاد منهم، فيقول عنه أنه رجع إلى الطريق قبل أخيه بزمن طويل وكانت له والدة وكان باراً بها، رضي الله عنه، ولزم خدمتها حتى ماتت. وقد غلب عليه الخوف حتى إنه إذا صلّى سُمع لقلبه دويٌّ على بعد. وكان سريع الدمعة، غزيرها، طويل الصمت، دائم الحزن، كثير الفكرة، شديد التأوّه، لا تراه أبداً إلا مُطرقاً ضارباً بعينه الأرض، لا يمازح أحداً ولا يعاشره، بريءٌ من المداهنة، قويٌّ في المناصحة، لا يستحي في الحق من أحد، ولا تأخذه في الله لومة لائم، لا يُداري ولا يُماري، ابتلي بالفقر والضرّاء فصبر، له شأن عجيب وهمّة رفيعة.

ثم يضيف الشيخ الأكبر فيقول:

> كنت أتعشق به وأنا صغير وكان إذا دخل المسجد هابه كلُّ من رآه؛ ما عاينته قطّ يكلّم أحداً مبتدئا، ولا يجيب إذا تكلم إلا في ضرورة. يحفظ دينه حفظا ما تمنّيت من كلّ من رأيت أن أكون مثله إلا هو. وآخيته لما رجعت إلى هذه الطريقة وفرح بي ولازمته وانتفعت بآدابه وأخذت من خُلقه؛ كان يحتمل الأذى ويكفّ جفاه. (كان) صدوقَ الرؤيا، كثيرَ النجوى، ليلهُ قائم ونهارهُ صائم، لا

[105] الفتوحات المكية: ج١ص٤٢٥.

تجده فارغاً قط، يحبّ العلم وأهله."[106]

فمن الواضح أن الشيخ محمد الخياط كان له تأثيرٌ كبيرٌ على الشيخ محيي الدين، وربما هو من دعاه مع أخيه أحمد أبي العباس إلى طريق التصوّف فلبّوا وكانوا مجموعةً إخواناً في الله، ويقول الشيخ محيي الدين أنهم كانوا يجتمعون هو ومحمد الخياط وأخوه أحمد وشخص رابع لا يذكره، ولكن ربما يكون هذا الشخص الرابع هو الشيخ أبو جعفر العريبي الذي تربّى الشيخ محيي الدين على يديه، كما سنرى أدناه، وكان العريبي يزور محمداً الخياط في بيته والتقى مع محمد ابن العربي هناك. فيذكر الشيخ محيي الدين هذه الأيام عندما كان يكتب رسالة روح القدس في مكة سنة ٦٠٠/١٢٠٣ ويقول إنه كان مع هذه المجموعة على السواء في كل ما يُفتح به عليهم وأنه لم ير أيّاما قط في عمره أحسن من تلك الأيّام."[107]

الفعل بالهمّة

وكان محمد الخياط ذا همة عالية يستطيع أن يحقق بها ما يريد، وهو ما يسمّيه الصوفية: "الفعل بالهمّة"، وهو أمرٌ عامٌ في الآخرة ولكنه نادرٌ جداً في الدنيا وقد يكون للأولياء ولغير الأولياء. فإن أهل الجنة يقولون للشيء الذي يريدونه كن فيكون؛[108] فلا يتوهّمون أمراً ما ولا يخطر لهم خاطرٌ في تكوين أمرٍ ما إلا ويتكوّن بين أيديهم. وكذلك أهل النار لا يخطر لهم خاطرُ خوفٍ من عذاب أكبر مما هم فيه إلا تكوّن فيهم أو لهم ذلك العذاب وهو عين حصول الخاطر. فإن الدار الآخرة تقتضي تكوين العالم عن العالم لكن حساً وبمجرد حصول الخاطر والهمّ والإرادة والتمنّي والشهوة، كل ذلك محسوسا. وليس ذلك في الدنيا لكل أحد وقد يكون في الدنيا لغير الولي، كصاحب العين، ولكن ما يكون بسرعة تكوين الشيء بالهمّة في الدار الآخرة وهذا في الدار الدنيا نادر شاذ كقضيب البان وغيره، وهو في الدار الآخرة للجميع."[109]

فيذكر الشيخ محيي الدين عن صاحبه محمد الخيّاط أنه كان بين منزله ومنزلهم بعدٌ كثيرٌ فمرة بَعد

---

[106] روح القدس: ص٥٩-٦٠.

[107] روح القدس: ص٥٩.

[108] ورد في ذلك العديد من الأحاديث التي تتكلم عن صفة أهل الجنة. ولعلّ هذا أيضاً معنى قول الله تعالى عنهم في سورة ق: (لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾). انظر أيضاً في الفتوحات المكية: ج١ص٨٤، ج٢ص١٥٧، ٤٤٠، ٤٤١، ج٣ص٢٩٥. ولقد وضعنا تصوّرا لكيفيّة حصول ذلك بناءً على نموذج الجوهر الفرد لابن العربي الذي درسناه في الفصل السادس والسابع من الأطروحة التي سنعيد كتابتها باللغة العربية كما وعدنا إن شاء الله تعالى. فيبدو أن العالم الأخروي (سواء في الجنة أو في النار) سيكون ذا أربعة أبعاد حيث بدأ الخلق بالملائكة الذين خلقهم الله من نور (بُعد واحد أو جهتين؛ لقوله تعالى في سورة مريم: لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾) ثم الجن الذين خلقهم الله من نار (بُعدين أو أربعة جهات لقوله تعالى في سورة الأعراف: ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾) ثم الإنس وهو عالمنا ذا الأبعاد الثلاثة (أو الجهات الست) ثم الآخرة التي يبدو أنها ستكون ذات أربعة أبعاد. فكما أن تخيّلاتنا اليوم هي في الحقيقة ذات بعدين وهي من عالم الجنّ فستكون تخيّلاتنا في الآخرة ذات ثلاثة أبعاد وهي من العالم المادّي. والله أعلم.

[109] انظر الباب ٤٧ من الفتوحات المكية (ج١ص٢٥٥)، وسيأتي ذكر قضيب البان في الفصل الخامس.

أذان العشاء وجد الشيخ محيي الدين في خاطره أمرين متناقضين الأول الانزعاج إلى الوصول إلى صاحبه محمد الخيّاط والثاني الرجوع إلى منزله، فحار كيف يجمع بين الخاطرين وكان يعمل على أوّل الخاطر.[110] فذهب إليه مسرعا ودخل عليه فوجده واقفا في وسط الدار وهو مستقبلُ القبلة وأخوه أحمد يتنفّل فسلّم عليه، فتبسّم وقال له: "ما الذي أبطأ بك؟ قلبي متعلق بك. هل عندك شيء؟ جاءنا فقيرٌ يُقال له عليٌّ السلاوي وما عندنا شيء." وكان ذلك سبب تعلّق قلبه به لأنه يعلم أنه يملك المال وهو ينفق على الفقراء. فأخرج محيي الدين من جيبه خمسة دراهم ودفعها له، ثم رجع إلى بيته مسرعا.

وهكذا أيضاً كان محمد الخياط يخدم الفقراء بنفسه ويؤثرهم بالطعام واللباس وكان رحيما عطوفا رؤوفا شفيقا يرحم الصغير ويعرف شرف الكبير، يعطي كل أحد حقه، له الحق على الناس وليس لأحد عليه حق إلا الله.[111]

أبو العبّاس أحمد الحريري

ويبدو كما ذكرنا أن أحمد كان أصغر من أخيه محمد الخياط، وربما كان هو من عمر محيي الدين وهذا ما جمع بينهما ابتداءً وربما عن طريق أحمد تعرّف ابن العربي على أخيه محمد. ويصف الشيخ محيي الدين صديقه أحمد وصفا جميلا فيقول إنه جمع الفضائل، واجتنب الرذائل، عرف الحقّ فلزمه، وكُشف له عن السرّ فكتمه، هو ممن يُنادَى من وراء حجاب.[112] قويّ المجاهدة، كثير المساعدة، وطيء الأخلاق، حسن المعاشرة، سمح الخليقة، موافقٌ فيما يرضي الله، مخالفٌ لما لا يرضي الله، لزم الاسم فسما،[113] وعمّر ذكره كل أرضٍ وسما. تراه كأنه ذاهل، سريع الحركة كأنه مطلوب بثأر، يخضع تحت وارد الأسرار، كثير المكاشفة.

ثم يضيف الشيخ محيي الدين أن أحمد أبا العباس كان يُخاطب في سرّه (وهو نفس معنى قوله أنه كان ينادى من وراء حجاب) فكانوا عندما يتناقشون في مسألة يغيب عنهم ثم يرجع فيخبرهم بوجه من وجوه المسألة التي هم فيها.

وقد فارق الشيخ محيي الدين الأخوين أحمد ومحمد عند ترحاله وهُما أيضاً سافرا معا إلى مصر فسكنا فيها فترةً وصادف وجودهما هناك مجاعة عامة حدثت في مصر كما سنتكلم عنها في الفصل الرابع، وهناك مرض محمد الخياط فلزم أخوه أحمد خدمته إلى أن مات في مصر حيث التقيا بالشيخ الأكبر هناك عندما كان متجها نحو مكة سنة ٥٩٨/١٢٠١، وأرادا الذهاب معه للحج ولكن مرض محمد الخياط منعهما من

---

[110] العمل على أول الخاطر مفتاح للفلاح، وهو أن تترك الفكر والتردد وتنتبه لما يوقعه الله في قلبك من الخواطر فتعمل على أساسها. ولقد ذكرنا ذلك بالتفصيل في كتاب سلوك القلب فليراجع هناك.

[111] روح القدس ص٥٩–٦١.

[112] انظر قوله تعالى في سورة الشورى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝﴾.

[113] لزم الاسم أي الذكر، أي ذكر اسم الله تعالى.

ذلك.[114]

أمّه الترابية وأمّه الروحية

لا نعلم الكثير عن الأم "الترابية" لابن العربي، لأنه لا يذكرها كثيراً في كتبه، إلا أنها كانت أيضاً من أسرة عريقة وذلك كما سنرى بعد قليل أن خاله يحيى بن يغان (أو: يوجان) كان ملك تلمسان في تونس كما أن خاله الثاني وهو أحد أجداد أمه هو التابعي الشهير أبو مسلم الخولاني الذي كان مقرّبا من معاوية ابن أبي سفيان.

لقد كان اسم أمه "نور"، وهي التي ولدته وربّته في مرسية واشبيلية. ولكن ابن العربي يركّز دائما على البنوّة الروحية. فكما أننا نحن جميعا أبناءَ سيّدنا آدم عليه السلام بالجسد، فنحن أبناءُ سيّدنا محمد صلّى الله عليه وسلّم بالروح، وحتى آدم عليه السلام فهو ابنه بالروح. فابن العربي يؤكد في الباب الحادي عشر من الفتوحات المكية الذي وضعه بعنوان: "في معرفة آبائنا العلويات وأمهاتنا السفليات" أن: "كل مؤثّر أب وكل مؤثَّر فيه أم".[115] ولقد وضع ابن العربي نظرية شاملة في هذا النكاح الروحي أو المعنوي يفسّر على أساسها بنية العالم وتركيبه.[116]

فقد ذكر ابن العربي أن أمه نور كانت تأتي معه لزيارة أمه الروحية فاطمة القرطبية بنت ابن المثنى، التي سنذكرها بعد قليل، والتي كانت تقول لها: "يا نور هذا ولدي وهو أبوك فبَرّيه ولا تعقّيه".[117] ويتبين من هذا كيف أن ابن العربي كان في الحقيقة مثالا لأمّه تقتدي به، كما كانت فاطمة القرطبية –وكان عمرها خمسا وتسعين سنة– مثالاً له يقتدي بها، وهذا معنى الأبوّة والبنوّة الروحية.

وكذلك عندما عُرج به إلى السماء روحيا كما سنرى في الفصل الثالث كان عندما يريد أن يدخل منزلا يقرع بابه فيطلب الحاجبُ تعريفه فيقول له الملكُ المرافق له: إنه محمد بن نور، فيعرّفه باسم أمه كما يفعل الذين يتعاملون مع الأرواح.[118]

مدحه للأنصار

لقد أرجع بعض الباحثين[119] نسب والدة ابن العربي إلى البربر معتبرا أن خاله يحيى ابن يغان بربريا لأنه كان ملك تونس قبل ابن العربي ببضعة عقود، كما سنذكر قصته بعد قليل. ولكن ذلك لا يبدو صحيحاً لأن خاله الآخر عربي من العراق وكذلك فقد صرّح ابن العربي أن أمّه تنسب إلى الأنصار الذين نصروا رسول الله

---

[114] روح القدس ص٥٩-٦١.

[115] الفتوحات المكية: ج١ص١٣٨.

[116] الفتوحات المكية: ج٢ص٤٣٠.

[117] الفتوحات المكية: ج٢ص٣٤٨.

[118] الفتوحات المكية: ج٣ص٦٢٠.

[119] الرحمن المطلق: ص٣٣، ٢٥٢.

صلّى الله عليه وسلّم في أول بعثته، وله في ذلك قصيدة جميلة نظمها في مدح الأنصار من غير رويّة ولا تفكير وذلك عن أمرٍ من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أتاه عن طريق رؤيا مبشرة رآها يحيى ابن الأخفش في أثناء إقامته في دمشق، وذلك في قصة طويلة ذكرها الشيخ الأكبر في "الفتوحات المكية" وكذلك في "الديوان الكبير"، وسنذكرها في الفصل السادس إن شاء الله تعالى، وهو يقول في هذه القصيدة، بعد قوله "وكانت أمي تنسب إلى الأنصار": [120]

إنّــي امــرؤٌ مــن جملــةِ الأنــصارِ فــإذا مــدحتهمُ مــدحتُ نجــاري

خاله التابعيّ أبو مسلم الخولاني

ذكر الشيخ الأكبر في كتبه قصة اثنين من أخواله وكانا عالمين صوفيين زاهدين، فيقول في حديثه عن طائفة الزهاد عن خاله أبي مسلم:

> كان خالنا أبو مسلم الخولاني رحمه الله من أكابرهم: كان يقوم الليل فإذا أدركه العياء ضرب رجليه بقضبانٍ كانت عنده ويقول لرجليه أنتما أحق بالضرب من دابتي، أيظن أصحاب محمد صلّى الله عليه وسلّم أن يفوزوا بمحمد صلّى الله عليه وسلّم دوننا! والله لأزاحمنّهم عليه حتى يعلموا أنهم خلّفوا بعدهم رجالاً. [121]

ولكن أبا مسلم الخولاني هذا لم يكن شقيق أمه بل ربما أحد أجدادها لأن الشيخ الأكبر ذكر أيضاً في "روح القدس" أثناء وصفه لحال الشيخ أبي محمد عبد الله الباغي الشكاز، الذي سيأتي ذكره، فقال عنه: "لم أر له شبيها إلا أبا مسلم الخولاني التابعي." [122] ثم ذكر نفس الوصف أعلاه. وبالتالي فإن خاله هذا هو التابعي المعروف عبد الله بن ثوب وأصله من العراق من البصرة، وقد التقى بعمر بن الخطاب رضي الله عنه وكان بينهما قصة سنرويها بعد قليل. ذكره ابن سعد في الطبقات الكبرى:

> أبو مسلم الخولاني واسمه عبد الله بن ثوب وكان ثقة وتوفي في خلافة يزيد بن معاوية. أخبرنا مسلم بن إبراهيم قال حدثنا هشام الدستوائي قال حدثنا قتادة أن كعبا لقي أبا مسلم الخولاني فقال له: من أين أنت يا أبا مسلم؟ قال: من أهل العراق، قال: من أي العراق؟ قال: من أهل البصرة. [123]

وذكر النويري في "نهاية الأرب":

> وممن أسلم من خولان أبو مسلم الخولانيّ العابد، واسمه عبد الله بن ثوب،

---

[120] الفتوحات المكية: ج1ص267-268.

[121] الفتوحات المكية: ج2ص18، وكذلك: ج1ص109.

[122] روح القدس: ص69-70.

[123] الطبقات الكبرى، لابن سعد، دار بيروت للطباعة والنشر-بيروت، 1985: ج9ص451.

ولم ير رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وإنما قدم المدينة بعد وفاته، وله خبر عجيب مع الأسود العنسيّ، نذكره في أخباره في خلافة أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه (انظر هذه القصة أدناه).[124]

بعض كرامات أبي مسلم

وكان أبو مسلم مقربا من معاوية بن أبي سفيان، وله أخبار كثيرة ذكرها الذهبي في سير أعلام النبلاء،[125] وفي تاريخ الإسلام[126] وغيرهم. ويبدو واضحا من كل هذه القصص أن أبا مسلم الخولاني كان من الأولياء أصحاب الكرامات؛ ولقد اشتهرت قصته مع الكذّاب الأسود العنسيّ الذي ادّعى النبوة في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وقد روى الكثير من المؤرخين تلك القصة. فقال ابن عبد البرّ في "الاستيعاب":

> أبو مسلم الخولاني العابد. أدرك الجاهلية وأسلم قبل وفاة النبي صلّى الله عليه وسلّم ولم ير رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. وقدم المدينة حين قُبض رسول الله صلّى الله عليه وسلّم واستُخلف أبو بكر. فهو معدودٌ في كبار التابعين عداده في الشاميين اسمه عبد الله بن ثوب وقيل: عبد الله بن عوف والأول أكثر وأشهر. كان فاضلاً ناسكاً عابداً وله كرامات وفضائل روى عنه أبو إدريس الخولاني وجماعة من تابعي أهل الشام. ومن نوادر أخباره وكراماته ما حدثنا عبد الوارث بن سفيان حدثنا قاسم ابن أصبغ قال: حدثنا أحمد بن زهير قال: حدثنا عبد الوهاب بن نجدة الحوطي حدثنا إسماعيل بن عياش قال: أخبرنا شرحبيل بن مسلم الخولاني أن الأسود ابن قيس بن ذي الخمار تنبأ باليمن فبعث إلى أبي مسلم فلما جاءه قال له: أتشهد أني رسول الله؟ قال: ما أسمع. قال: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم. قال أتشهد أني رسول الله؟ قال: ما أسمع. قال: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم. فردّد ذلك عليه، كل ذلك يقول له مثل ذلك. قال فأمر بنار عظيمة فأجّجت ثم ألقي فيها أبو مسلم فلم تضره شيئاً! قال: فقيل له: انفه عنك وإلا أفسد عليك من اتبعك. قال فأمره بالرحيل، فأتى أبو مسلم المدينة وقد قبض رسول الله صلّى الله عليه وسلّم واستُخلف أبو بكر. فأناخ أبو مسلم راحلته بباب المسجد ودخل المسجد وقام يصلي إلى سارية، فبصر به عمر بن الخطاب فقام إليه فقال ممن الرجل؟ قال:

[124] نهاية الأرب في فنون الأدب، تأليف شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر-القاهرة، ١٩٦٤: ج١٨ص٨٢.

[125] الذهبي، "سير أعلام النبلاء": ج٤ص٧-١٤.

[126] الذهبي، "تاريخ الإسلام": عهد الخلفاء الراشدين (ص٥٣٩--٥٤٠)، حوادث وفيات ٦١--٨٠ (ص٢٢، ص٢٩٢-٢٩٨).

من أهل اليمن.[127] قال: ما فعل الرجل الذي أحرقه الكذاب بالنار؟ قال: ذلك عبد الله بن ثوب. قال: أنشدك بالله أنت هو؟ قال: اللهم نعم. قال: فاعتنقه عمر وبكى ثم ذهب به حتى أجلسه فيما بينه وبين أبي بكر، وقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أراني في أمة محمد صلّى الله عليه وسلّم من فعل به كما فعل بإبراهيم خليل الله عليه السلام.[128]

خاله الملك الزاهد يحيى بن يغان

وأما خاله يحيى بن يغان فقد كان ملك تلمسان في تونس (الآن الجزائر) ولكنه ترك ملكه وماله وزهد في الدنيا على يد شيخ زاهد من علماء تونس إثر نصيحة فيها كلام مؤثر بلغ من نفسه أشد مبلغ:

كان بعض أخوالي منهم قد ملك مدينة تلمسان يقال له يحيى بن يغان. وكان في زمنه رجل فقيه عابد منقطع من أهل تونس يقال له أبو عبد الله التونسي، كان بموضع خارج تلمسان يقال له العُبّاد. كان قد انقطع بمسجد يعبد الله فيه وقبره بها يزار. فبينا هذا الصالح يمشي بمدينة تلمسان بين المدينتين أقادير والمدينة الوسطى إذ لقيه خالنا يحيى بن يغان ملك المدينة في خَوَله وحَشمه. فقيل له هذا أبو عبد الله التونسي عابِد وقته. فمسك لجام فرسه وسلّم على الشيخ فردّ عليه السلام، وكان على الملك ثياب فاخرة. فقال له يا شيخ: هذه الثياب التي أنا لابسها: تجوز لي الصلاة فيها؟ فضحك الشيخ. فقال له الملك: مِمَّ تضحك؟ قال من سُخف عقلك وجهلك بنفسك وحالك: ما لك تشبيه عندي إلا بالكلب يتمرّغ في دم الجيفة وأكلها وقذارتها، فإذا جاء يبول يرفع رجله حتى لا يصيبه البول. وأنت وعاءٌ مليءٌ حراماً وتسأل عن الثياب ومظالم العباد في عنقك! قال فبكى الملك ونزل عن دابته وخرج عن ملكه من حينه ولزم خدمة الشيخ. فمسكه الشيخ ثلاثة أيام[129] ثم جاءه بحبل فقال له: أيها الملك قد فرغت أيام الضيافة قم فاحتطب. فكان يأتي بالحطب على رأسه ويدخل به السوق والناس ينظرون إليه ويبكون. فيبيع ويأخذ قوته ويتصدق بالباقي ولم يزل في بلده ذلك حتى درج ودفن خارج تربة الشيخ وقبره اليوم بها يزار.[130] فكان الشيخ إذا جاءه الناس يطلبون أن يدعو لهم يقول لهم التمسوا

---

[127] أي أنه قدم من اليمن.

[128] الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لأبي عمر يوسف بن عبد البر المعروف بابن عبد البر النمري، دار نهضة مصر للطبع و النشر-القاهرة، ١٩٨٠: ج٤ص١٧٥٧-١٧٥٩.

[129] وذلك حق الضيافة.

[130] وكما سنرى فإن ابن العربي سوف يزوره سنة ٥٩٠ أثناء زيارته لصاحبه عبد العزيز في تونس، وكذلك سنة ٥٩٨.

الدعاء من يحيى بن يغان؛ فإنه ملك فزهد[131] ولو ابتليت بما ابتلي به من الملك ربّما لم أزهد."[132]

ولقد توفي يحيى بن يغان قبل ولادة ابن العربي بحوالي ربع قرن وسوف يزوره الشيخ محيي الدين عندما يذهب إلى تونس حيث يوجد قبره هناك. وإذا كان يحيى بن يغان من البربر وليس هناك صلة نسب وثيقة بينه وبين خاله الآخر أبي مسلم الخولاني، فمن الممكن أن يكون عليّ العربي أبو محيي الدين قد تزوّج بامرأة من البربر وهي تكون خالته امرأة أبيه وليس أمّه لأنّ أمّه نور من الأنصار كما رأينا أعلاه. وبذلك فإن الشيخ محيي الدين يعتبر أن يحيى بن يغان خاله، لأنه أخو خالته امرأة أبيه. والاحتمال الآخر هو أن يكون هناك قرابة وثيقة بين يحيى بن يغان، وإن كان من البربر، وخاله أبي مسلم، وذلك لأن فتح بلاد المغرب وتونس قد تمّ في مرحلة مبكّرة من التاريخ الإسلامي وتقاطعت الصلات بين البربر وبين العرب وتداخلت الأنساب.

الفقير الزاهد أبو محمد عبد الله القطان (إشبيلية/قرطبة)

ولقد كان الشيخ محيي الدين يعطف على الفقراء والزهّاد الذين كانوا غالبا ما يتعرضون للإهانة من قبل الأمراء والوزراء بسبب معارضة الفقهاء لهم. فكان الفقهاء غالباً ما يداهنون الوزراء ويعينونهم على ظلمهم، الأمر الذي لا يمكن لأهل طريق الله أن يفعلوه أو أن يسكتوا عنه فيحصل الخلاف. وهذا ما حصل مع الشيخ أبي محمد عبد الله القطان الذي كان يردّ على كلام السلاطين ولا يخشى في الله لومة لائم مهما عرّض نفسه للقتل أو للسجن. ولقد ذكر الشيخ الأكبر قصة عبد الله القطان في رسالة "روح القدس" وهو من أوائل الذين استفاد منهم في الطريق، فقال إنه كان من المفتوح عليهم في القرآن: لا يتكلم إلا بالقرآن ولا يرى غيره، ولم يكتب كتابا، وكان يقول في جماعة من المؤلفين رآهم بمدينة قرطبة: "مساكين أصحاب المصنّفات والتآليف ما أطول حسابهم، في كتاب الله مَقْنَع وفي حديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم". وكان يصدع بالأمر لا تأخذه في الله لومة لائم، يردُّ كلام السلاطين في وجوههم أقبح الردّ، له صولةٌ يرمي من شاء بالحق ولا يبالي. عرّض بنفسه للقتل من كثرة سبّه لأفعال السلاطين وما هم عليه من مخالفة الشريعة. وكان يحافظ على صاحبه، لم يتنعم قط ولا جمع بين درهمين. وكان يقول: عجبت لمن يطلب ما يركب وهو لم يشرع في شكر ما أكل وما لبس. وكان لا يزيد على الحاجة شيئاً في مأكله وملبسه، وكان قاصما للجبّارين ما تفوته غزوة قطّ في الروم راجلا بغير زاد."[133]

---

[131] يقول بعض الصوفية أنه لا يكون الزهد الحقيقي إلا للغني الذي يزهد فيما يملك، وأما الفقير فبماذا يزهد! ولكن في ذلك خلاف بين أهل الله الذين "اختلفوا في الفقير الذي لا ملك له هل يصح له اسم الزاهد أو لا قدم له في هذا المقام. فمذهبنا أن الفقير متمكن من الرغبة في الدنيا والتعمّل في تحصيلها ولو لم يحصل. فتركه لذلك التعمّل والطلب والرغبة عنه يسمى زهداً بلا شك" (الفتوحات المكية: ج٢ص١٧٧).

[132] الفتوحات المكية: ج٢ص١٨، وانظر أيضاً نفس القصة في "محاضرة الأبرار": ج٢ص١١٤.

[133] روح القدس: ص٧٢.

القبض على الشيخ القطّان

ويروي الشيخ محيي الدين أن السلطان بعث إلى عبد الله القطان مرة أعوانه ليقتلوه فأخذه الأعوان ودخلوا به على الوزير فأقعد بين يديه. فقال له الشيخ القطان: يا ظالم يا عدو الله وعدو نفسه، فيما وجّهت؟ فقال الوزير: قد أمكن الله منك، ما تعيش بعد هذا أبدا! فقال له الشيخ: لا تقرّبُ أجلاً ولا تدفع مقدوراً، كلُّ ذلك لا يكون، وأنا والله أشهد جنازتك. فقال الوزير لوزعته: اسجنوه حتى أشاور السلطان في قتله. فسُجن تلك الليلة فانصرف وهو يقول: عجباً لم يزل المؤمن في سجن وإنما هذا بيت من بيوت السجن. فلمّا كان في اليوم الثاني جلس السلطان وأخبره الوزير بقصّة الشيخ وكلامه فأمر به فحضر بين يديه فرأى رجلا دميم الخِلقة لا يُؤبه له وما أحدٌ من أهل الدنيا يريد له خيراً وهذا كلّه لقوله الحق وإظهار معايبهم وما هم عليه من الجور والفساد. فقال له السلطان بعدما سأله عن اسمه ونسبه: أتحفظ توحيدك؟ فتلا عليه من القرآن بتقاسيمه فتعجّب الملك وانبسط له إلى أن دخل معه في المملكة وشأنها. فقال له السلطان ما تقول في ملكي هذا؟ فضحك! فقال له مم تضحك؟ فقال منك: تسمّي الزمان الذي أنت فيه مُلكاً وتسمي نفسك مَلِكاً! أنت كمن قال الله تعالى فيه ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾ [الكهف]. إنما كان الملك اليوم الذي يصلّي اليوم بنارها ويجزي بها، وأما أنت فرجل عُجنت لك خبزة وقيل لك كُلها. ثم أغلظ عليه في القول بكل ما يكرهه ويغيظه وفي المجلس الوزراء والفقهاء، فسكت السلطان وخجل وقال: هذا رجل موفّق! وسأله أن يجلس معهم، فقال الشيخ القطّان: لا، فإن مجلسك مغضوب ودارك التي تسكنها أخذتموها بغير حقّ ولولا أني مجبور ما دخلت هنا؛ حال الله بيني وبينك وبين أمثالك. فأمر له السلطان بأعطية وعفاه في نفسه؛ فردّ له الأعطية وقبل العفو وخرج. فأمر السلطان أن تدفع إلى أهله.

ثم يقول الشيخ محيي الدين أنه ما مضى زمن قليل إلا والوزير قد مات وخرج أبو محمد وحضر جنازته وقال: بررت في قسمي. ويقول ابن العربي أيضاً أنه كان يصيح ويرفع صوته أمام أرباب الدولة ويقول: هؤلاء الفجّار بغوا في الأرض ﴿عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ [البقرة].[١٣٤]

استضافته في بيته ونصيحته لأبيه

فكان محمد يحب هؤلاء الفقراء ويعطف عليهم ويصاحبهم ويخدمهم حتى يستفيد منهم. وقد استضاف يوما هذا الشيخ الزاهد الفقير عبد الله القطان إلى بيته وطاعمه هو وأبوه، ولكن الشيخ لم يستطع السكوت عن الحق حتى في بيت أبي محمد علي العربي، الذي كان كما ذكرنا آنفا من أتباع السلطان. فمرّة استدعى محمد الشيخ القطان إلى بيته في الليل ليبيت عنده، فلما أخذ مجلسه جاء والد محمد رحمه الله،

---

[١٣٤] روح القدس: ص٧٠-٧٢.

فلما دخل سلم عليه، فلما صلّوا العشاء وقدّم محمد الطعام وقعدوا يأكلون وانضم لهم والده يغتنم بركة الشيخ القطان، فردّ إليه الشيخ وجهه وقال: "يا شيبة منحوسة أما آن لك أن تستحي من الله؟ إلى متى تصحب هؤلاء الظلمة؟ ما أقل حياءك؟ أأمنت من الموت أن يأتيك وأنت على شرّ حالة؟ أما لك في ابنك هذا موعظة؛ شاب صغير في شهوته قمع هواه وطرد شيطانه وعدل إلى الله تعالى يصاحب أهل الله، وأنت شيخ سوء على شفا حفرة من النار؟" فبكا والد محمد واعترف بحاله وتعجّب محمد من ذلك.[135]

ويبدو أن استضافته للشيخ القطان قد حصلت قبل دخوله لطريق التصوف لأن القطان وصفه هنا بكلمة "شاب صغير في شهوته، قمع هواه وطرد شيطانه" فربما كان ذلك في عمر يقارب الخامسة عشر أو قبيل ذلك بقليل أو بعده بقليل. وهذا يدعم ما قرّرناه أعلاه أن الشيخ محيي الدين كان يميل إلى التصوف ورجاله قبل أن يلتزم معهم بمدة ليست بقليلة.[136]

لا شكّ أن مصاحبة عبد الله القطان قد تركت في نفس ابن العربي أثرا عميقا. وسوف يبقى ابن العربي وفيّاً لهذا الشيخ يذكره دائما بالخير، وسنرى في الفصل القادم كيف أنه سيزوره مرة أخرى في قرطبة بعد أن يعود من رحلته الطويلة إلى مدينة فاس في المغرب وبرفقته صاحبه عبد الله بدر الحبشي الذي سيرافقه في جميع أسفاره. وبدر الحبشي كان عبدا عند أبي الفتوح الحرّاني ثم أطلقه فالتزم الشيخَ محيي الدين جميع حياته حتى توفي، وسوف نتكلم عنه بالتفصيل لاحقا، ولكننا سنلاحظ أن الشيخ محيي الدين يحاول دائما أن يعرّف صاحبه بدرا على جميع الشيوخ الذين التقى بهم بما فيهم عبد الله القطّان.

دخوله الطريق (~ ٥٨٠/١١٨٤)

لقد كان ينتظر محمداً مستقبلٌ مشرقٌ في بلاط السلطان مثله مثل أبيه عليّ العربي، حيث وُعد بمنصب كاتبٍ في الديوان كما ذكر ابن الأبّار في "التكملة".[137] ولكن محمداً لم يكن يتجه بهذا الاتجاه، وكأن مستقبلاً آخراً، أكثر إشراقاً وأكثر سعادةً في الدنيا وفي الآخرة، كان يُرسم له من حيث لا يدري، وهو التصوُّف والزهد والتفرُّغ لعبادة الله سبحانه وتعالى.

وكما رأينا أعلاه فإنّ ميول محمّد كانت منذ فترة طفولته تتّجه نحو أهل الله من الفقراء والعبّاد وكان يدافع عنهم ويؤويهم. ومع مصاحبته لهؤلاء الفقراء أمثال عبد الله القطّان وصحبته لمحمد الخيّاط الذي دخل طريق التصوّف أيضاً فكان مثالا لأخيه أحمد ولمحمد ابن العربي.

ولكن، على الرغم من ميوله المبكّر إلى طريق التصوّف، لا نعرف على وجه التحديد متى دخل

---

[135] روح القدس: ص٧٠-٧٢.

[136] روح القدس: ص٧٠-٧٢.

[137] انظر في البحث عن الكبريت الأحمر: ص٣١. وقد ذكر الشيخ محيي الدين في "محاضرة الأبرار" (ج٢ص١١) أن بعض السلاطين طلبه للولاية، وليس فقط لمنصب كاتب كما يذكر ابن الأبّار، ولكننا لا نعرف على وجه التحديد متى حصل ذلك ولا المكان أو البلد أو السلطان؛ فقد يكون سلطان الموحدين يعقوب المنصور الذي التقى به الشيخ محيي الدين بعد عودته من فاس، وقد يكون السلطان كيكاوس الذي كان له علاقة حميمة معه، وقد يكون أحد الملوك الأيوبيين في حلب أو في دمشق كما سنرى ذلك لاحقا.

الشيخ محيي الدين فعليًا في هذا الطريق ولا كيفيّة ذلك. وعلى الرغم مما توحيه بعض القصص حوله وحتّى بعض أقواله في الفتوحات والمكية وغيرها، فإن ابن العربي لم يتحوّل إلى التصوف بشكل مفاجئ عن طريق ما يُعرف بالجذبة بعد فراره من حفلة مجون كان يُقدّم فيها الخمر، كما يقول بعض الرواة. فحتى لو كانت هذه القصة صحيحة فهذا لا يعارض أن الشيخ كان كثيراً ما تراوده الرغبة في الزهد والعزلة مع نفسه ولكنه ربما تردد قليلا قبل أن يُقدم على مثل هذه الخطوة الجريئة. ومثل هذا التردّد أمرٌ طبيعيٌ لأن الإنسان لا يستطيع أن يفارق تعلّقه بالدنيا وملذّاته خاصة وإن كان قد أوتي منها الكثير، فيذكر الإمام أبو حامد الغزالي مثلا أنه بقي سنوات طوالا يتردّد في دخول طريق الله ويعتزل الناس والجاه والمال، إلى أن أقدم على ذلك. صحيح أن الشيخ محيي الدين يقول إن فتحه كان نتيجة جذبة كما سنرى بعد قليل، ولكن ذلك كما قلنا لا يعني أنه قد دخل طريق التصوّف بهذا الشكل، بل من المرجّح أنّه كان يتهيأ إلى ذلك منذ طفولته.

على كلّ حال نحن نعرف من خلال النصوص التي تركها لنا الشيخ محيي الدين أن دخوله طريق التصوّف قد حصل قبل أن يتمّ العقد الثاني من عمره، أي قبل سنة ١١٨٤/٥٨٠، كما ذكر هو نفسه في الفتوحات المكية في أثناء حديثه عن بعض المقامات التي ينالها المقرّبون، فقال: "ونلت هذه المقامات في دخولي هذه الطريقة سنة ثمانين وخمسمائة في مدة يسيرة."[١٣٨] وقد حصل ذلك أيضاً بعد وفاة عمّه عبد الله، كما رأينا أعلاه، والذي دخل طريق التصوف وكان عمره ثمانين سنة ثم مات في الثالثة والثمانين من العمر قبل أن يدخل محمد التصوف. ولكن هذا لا يعني بالضرورة أنه دخل الطريق في هذه السنة وإنما قد يكون قبل ذلك بقليل. ورغم أنه نال هذه المقامات بسرعة فهذا لا يعني كما قلنا أن دخول ابن العربي الطريق كان نتيجة جذبة، ولكنه وصل للفتح بنتيجة هذه الجذبة، كما سنرى معنى ذلك بعد قليل.

وقد ذكرت الباحثة كلوديا عدّاس[١٣٩] أنه ربما يكون دخول الشيخ محيي الدين في الطريق قبل سنة ١١٨٤/٥٨٠ بكثير، لا سيما وأنه يذكر أن لقاءه الشهير بابن رشد، الذي سنذكره في آخر هذا الفصل، قد تمّ في مرحلة من عمره كان "ما يزال صبياً ما بَقَل وجهُه ولا طرّ شاربُه". وهذا قد يوحي أن ذلك حصل قبل سنة ١١٨٤/٥٨٠ بعدّة سنوات. ولكنّ هذا التحليل لا يبدو مقنعا رغم ما فيه من بعض الدلائل القويّة وذلك لأنّنا لا نجد نشاطا فعليًا للشيخ محيي الدين ابن العربي إلا في سنة ١١٩١/٥٨٦ وهو يقول كما سنفصّل ذلك أدناه أنه لمّا دعاه الله تعالى إليه أجابه مدّة ثم حصلت عنده فترة، وهي الفترة المعلومة في الطريق عند أهل الله التي لا بدّ منها. فإذا كان قد نال المقامات التي ذكرناها أعلاه سنة ١١٨٤/٥٨٠ كما قال هو عن نفسه فلا يبدو أن ذلك حصل بعد الفترة، لأن الفترة تبدو أنها حصلت بين سنة ٥٨٠ وسنة ٥٨٥ حيث لا يوجد له نشاطٌ يُذكر فيها رغم أنه قد أصبح شابًا. فلو كانت الفترة قبل سنة ٥٨٠ لوجدنا على الأقل بعض الأحداث المهمة بعد ذلك وقبل سنة ٥٨٥. وسوف نجد أيضاً في الفصل الرابع دليلا قويًا آخرا يؤكّد أنّ دخول الشيخ محيي الدين في طريق التصوّف لا يمكن أن يكون قبل سنة ٥٨٠ لأنّه يقول إنه بقي نحوا من ثمان وثلاثين سنة عازفا عن

---

[138] الفتوحات المكية: ج٢ص٤٢٥.

[139] انظر في البحث عن الكبريت الأحمر: ص٣٣-٤٣.

النساء والزواج إلى أن أتاه الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلّم الذي يذكر فيه أن الله حبّب إليه من الدنيا ثلاثٌ ومنها النساء، وكان ذلك في مكة سنة ١٢٠١/٥٩٨ بعد أن تعرّف على الشيخ أبي شجاع الأصفهاني إمام الحرم الإبراهيمي وعلى ابنته نظام التي كتب لها ترجمان الأشواق وربّما تزوّجها أو خطبها كما ستحدثٌ عن ذلك بالتفصيل في وقته.

فقد كان إذاً محمّد يميل إلى التصوّف منذ صغره، فعندما حان الوقت وشاء الله تعالى قضاء ما قد قدّره، اعتزل ابن العربي في إحدى المقابر خارج البلد وهناك وبدون طول مقدمات أتاه الفتح من الله تعالى بشكل مفاجئ من غير جهاد أو رياضة ولا سلوك طريق طويل كما هو الأمر عادة مع أغلب الصوفية. لقد ذكر لاحقا بعض تلاميذه مثل هذه الرواية كما سنرى بعد قليل. والشيخ محيي الدين نفسه قد ذكر مثلا في الفتوحات المكية بوضوح أن فتحه قد تقدّم على رياضته، مع أنه التزم بعد ذلك مع بعض شيوخ الصوفية ولو أنه لم تكن على الحقيقة علاقتُه بهم كما هي عادةً علاقة أيّ مريد بشيخه المرشد والتي عادة ما تكون علاقة تعليم واتباع من المريد للمرشد حتى يأخذ بيده إلى أن يفتح الله عليه. ولكن بما أن الشيخ محيي الدين كان على الحقيقة مُراداً قبل أن يكون مريداً ولذلك تمّ فتحه بوقتٍ قصيرٍ جداً وبلغ مراتب الشيوخ رغم صغر سنه، فلذلك كانت علاقته بشيوخه علاقة انتفاع متبادل فتعلّم منهم وعلّمهم، مثل الشيخ أبي يعقوب يوسف الكومي الذي يقول عنه:

> وما راضني أحدٌ من مشايخي سواه، فانتفعت به في الرياضة، وانتفع بنا في مواجيده. فكان لي تلميذاً وأستاذاً وكنت له مثل ذلك. وكان الناس يتعجبون من ذلك ولا يعرف واحدٌ منهم سبب ذلك، وذلك سنة ست وثمانين وخمسمائة. فإنه كان قد تقدّم فتحي على رياضتي، وهو مقام خطر، فأفاء الله عليّ بتحصيل الرياضة على يد هذا الشيخ جزاه الله عني كل خير."[140]

وكذلك نجد أن الشيخ محيي الدين كان منذ بدايته في مراتب الشيوخ الكبار رغم صغر سنه وحداثته، فكان بعض الناس من الذين ليس لهم قَدم في طريق التصوّف يثقون به أكثر مما يثقون بغيره من الشيوخ كما كان حال الخطيب أبي القاسم ابن عفير حين كان الشيخ أبو عمران الميرتيلي، الذي سنذكره بعد قليل، يحاول إقناعه بأحوال أهل التصوف:

> وسمعت شيخنا أبا عمران موسى بن عمران الميرتلي بمنزله بمسجد الرضي بإشبيلية وهو يقول للخطيب أبي القاسم بن عفير، وقد أنكر أبو القاسم ما يذكر أهل هذه الطريقة: يا أبا القاسم لا تفعل فإنك إن فعلت هذا جمعنا بين حرمانين: لا نرى ذلك من نفوسنا ولا نؤمن به من غيرنا وما ثمّ دليلٌ يردّه ولا قادحٌ يقدح فيه شرعاً وعقلاً، ثم استشهدني على ما ذكره، وكان أبو القاسم يعتقد فينا، فقرّرت عنده ما قاله بدليلٍ يسلّمه من مذهبه، فإنه كان محدّثاً، فشرح الله

[140] الفتوحات المكية: ج١ص٦١٦.

صدره للقبول وشكرني الشيخ ودعا لي.[141]

الدوافع

وفي كل الأحوال فمن الصعب أيضاً تحديد ما حصل بالتحديد لابن العربي مما أدى به إلى الدخول في طريق التصوف، وذلك لأن ابن العربي نفسه لم يتكلم عن هذه المسألة بشكل صريح ومباشر رغم أنه عادة ما يذكر ما يحصل له من الأمور المهمة بقدر جيّد من التفصيل. ولكن هناك رواية يذكرها القاري البغدادي في كتابه "مناقب ابن العربي" الذي خصصه لتوضيح سيرته والدفاع عن مذهبه وأقواله.[142] غير أنه، أي البغدادي، ربما لم يكن دقيقا بما فيه الكفاية لدرجة أنه لا يمكن الوثوق بكل ما يذكره مع أنه كان يحاول عن حسن نيّة إقناع المعارضين لابن العربي بأيّ ثمن. من أجل ذلك يجب أن نأخذ القصة التالية التي يرويها بحذر شديد، خاصّة وأنّها تبدو محبوكة بشكل جيّد وفقا لما يُروى عن أحوال الكثير من أعلام التصوّف كابن الأدهم وغيره، ولكن بما أنها هي المصدر الوحيد حتى الآن فلا بأس من ذكرها.

فيذكر البغدادي أنه في إحدى المناسبات دُعي والدُ ابن العربي إلى حفلة عند أحد أصدقاءه مع الأمراء والوزراء وأبنائهم وكان ابن العربي معهم. فبعد أن أكلوا حتى التخمة وجاء دور الشراب فصُبّ الخمر ودارت الكؤوس. فلما جاء الدور إلى محمد وملئ له الكأس فمسكه ليشرب ولكنه سمع صوتا يناديه: "يا محمد، أنت لم تُخلق لهذا!" فرمى الكأس من يده وخرج من الدار وخرج إلى خارج المدينة وهناك التقى براعي غنم فاستصحبه معه واستبدل بثيابه لباس الراعي وخرج إلى إحدى المقابر فوجد قبرا قد خرب وصار مغارة فدخل فيه وصار يذكر الله تعالى ولا يخرج إلا وقت الصلاة. فقال ابن العربي، كما يروي البغدادي، إنه بقي في تلك المقبرة أربعة أيام ثم خرج بكل هذا العلم الذي سطّر بعضه لاحقا في كتبه.[143]

وفي رواية أخرى لإسماعيل ابن سودكين النوري (توفي ٦٤٦/١٢٤٨)، وهو تلميذ ابن العربي المقرّب والذي رافقه في كثير من رحلاته في المشرق، يذكر في كتاب "الوسائل" أن ابن العربي قال إنه دخل الخلوة قبل الفجر وتلقى الفتح قبل طلوع الشمس، ولكن يضيف أنه بقي في هذه الخلوة أربعة عشر شهرا وأنه حصّل خلال هذه الفترة جميع العلوم التي تكلم بها. ويقول أيضاً أنّ فتحه كان نتيجة جذبة في تلك اللحظة.[144]

وعلى كلّ حال فكل هذه القصص، وإن صحّت، ليست بالضرورة دليلا على زمن دخول الشيخ محيي الدين ابن العربي في طريق التصوّف ولا توضّح الدوافع الحقيقية لذلك؛ وإنّما يبدو من كل ما ذكرناه أعلاه أن الشيخ محيي الدين كان منذ صغره له مثل هذا الميول ولم يحصل الأمر عنده فجأة أبدا عن طريق

---

[141] الفتوحات المكية: ج٢ص٦.

[142] القاري البغدادي، مناقب ابن العربي، ص٢٢.

[143] البحث عن الكبريت الأحمر: ص٣٦.

[144] البحث عن الكبريت الأحمر: ص٣٦.

الجذبة.

ولكن قبل المضي في سيرة الشيخ محيي الدين والتعمّق في تحليل حياته وعلومه لا بدّ أن نوضّح بعض هذه المصطلحات التي مرّت أعلاه كالجذبة والفتح والمريد والمراد والتي ستمرّ معنا في الفصول اللاحقة، كما سنحاول شرح كل مصطلح عندما نحتاج إليه.

الفتح

يُقصد بالفتح العلوم والمعارف الذوقية التي تنكشف للعبد السالك في طريق الله تعالى، وذلك بخلاف العلوم التي تأتي عن طريق التفكّر أو الخبر وهو ما يسمّى العقل والنقل. وبذلك فإن الفتح هو بمثابة فتح عين البصيرة بحيث يبدأ العبد إدراك العالم الروحاني الباطن ببصيرته كما يدرك الناسُ العالم الظاهر ببصرهم.

يقول الشيخ الأكبر في الباب السادس عشر ومائتين من الفتوحات المكية "في معرفة الفتوح وأسراره" أن الفتوح على ثلاثة أنواع: الأول فتوح العبارة في الظاهر وسببه إخلاص القصد، والثاني هو فتوح الحلاوة في الباطن وهو سبب جذب الحق بأعطافه، وأما النوع الثالث فهو فتوح المكاشفة بالحق وهو سبب المعرفة بالحق. والأمر الجامع لذلك كله أن كل أمر جاءك من غير تعمّل ولا استشراف ولا طلب فهو فتوح ظاهراً كان أو باطناً، وله علامة في الذائق الفتوح وهي عدم الأخذ من فتوح الغير أو نتائج الفكر؛ ومن شرط الفتوح أن لا يصحبه فكر ولا يكون نتيجة فكر. كان الشيخ أبو مدين يقول في الفتوح: "أطعمونا لحماً طرياً لا تطعمونا القديد" أي لا تنقلوا إلينا من الفتوح إلا ما يُفتح به عليكم في قلوبكم لا تنقلوا إلينا فتوح غيركم."[145]

ثم قال الشيخ الأكبر في نفس الباب إن الفتح الإلهي على نوعين: فتح عن قرع، وفتح ابتداءً لا عن قرع، وهو المطلوب عند القوم؛ أي أن الفتح الذي لا يكون نتيجةً متوقعة لعمل هو الفتح الصحيح مع أن العمل بطبيعته يطلب الفتح ولكن يجب على العبد أن لا ينتظر الفتح جزاءً على عمله وإلا فقد يكون ذلك الفتح استدراجا."[146]

المريد والمراد

فإذاً هناك في طريق الله مريد ومراد، فالمريد هو الذي يسعى جاهدا في طاعة الله ويزكّي نفسه ويحليها بالأخلاق الحسنة ويخلّي قلبه من أي تعلق في الدنيا حتى يستطيع أن يستقبل التجلّي الإلهي؛ أما المراد فهو شخص وفّقه الله وهيّأه للفتح من غير جهاد ولا تعب. ففي خلال أجوبته على أسئلة الترمذي يفصّل الشيخ محيي الدين معنى المريد والمراد والفرق بينهما فيقول:

فان قلتَ وما المراد وما المريد؟ قلنا المراد عبارة عن المجذوب عن إرادته

[145] الفتوحات المكية: ج٢ص٥٠٥.

[146] الفتوحات المكية: ج٢ص٥٠٥.

مع تهيّؤ الأمر له فجاوز الرسوم كلها والمقامات من غير مكابدة، وأما المريد فهو المتجرّد عن إرادته، وقال أبو حامد هو الذي صحّ له الأسماء ودخل في جملة المنقطعين إلى الله بالاسم. وأما المريد عندنا فنطلقه على شخصين لحالين: الواحد من سلك الطريق بمكابدة ومشاقّ ولم تصرفه تلك المشاقّ عن طريقه، والآخر من تنفُذُ إرادته في الأشياء وهذا هو المتحقق بالإرادة لا المراد."[147]

ثم قال الشيخ رضي الله عنه في الفتوحات في الباب السابع والعشرين ومائتان (في معرفة حال المراد) إن المراد في اصطلاح القوم هو المجذوب عن إرادته مع تهيّؤ الأمور، فهو يجاوز الرسوم والمقامات من غير مشقّة بل بتلذّذ وحلاوة وطيب تهوّن عليه الصعاب وشدائد الأمور، وأنشد:"[148]

إن المُـــرادَ هـــو المجـــذوب بالحـــال	في كـــل حـــالٍ علـــى حـــلٍّ وترحـــال
يُمـــشى بـــه وهـــو في بيـــضاءَ في دعَـــةٍ	علـــى المقامـــات مـــن حـــال إلى حـــال
عنايـــة منـــه والرحمـــن يحرســـه	بعينـــه فهـــو في نُعمـــى واقبـــال

أما عن المريد فقال في الباب الثامن والعشرين ومائتان (في حال المريد) أن لفظة المريد عند المحققين من أهل الله تُطلق بإزاء المنقطع إلى الله المؤثِر جناب الله الساعي في محابّ الله ومراضيه، وقد يطلقونها بإزاء المتجرّد عن إرادته."[149]

الجذبة

والجذبة أو الجذب مصطلح صوفي يُقصد به "ملاحظة العناية الإلهية للعبد باجتذابه إلى حضرة القرب" وذلك بأن يهيّئ الله له كلّ ما يحتاجه في طريقه لاجتياز المنازل والمقامات دون كلفة ولا مشقّة، بعكس المريد السالك الذي يقطع الطريق بالمجاهدة والرياضة. ويقول شيوخ التصوف: إن صاحب الجذبة يرى في بدايته ما يكون له في نهايته، وإن جذبةً من جذبات الحق تُربي على أعمال الثقلين.

فالمراد إذاً مجذوبٌ عن إرادته، وهذه الحالة خطيرة جداً بين الصوفية. يقول الشيخ محيي الدين في رسالة الأنوار: "فإن الإنسان إذا تقدم فتحُه قبل رياضته فلن يجيء منه رجلٌ أبداً إلا في حكم النادر"،[150] وهكذا كان ابن العربي من هذه النوادر.

---

[147] الفتوحات المكية: ج٢ص١٣٤.

[148] الفتوحات المكية: ج٢ص٥٢٣.

[149] الفتوحات المكية: ج٢ص٥٢٥.

[150] الإسفار عن رسالة الأنوار فيما يتجلى لأهل الذكر من أنوار، تأليف: ابن عربي الحاتمي الطائي (وشرح) عبد الكريم الجيلي ، تحقيق: عاصم كيالي، دار الكتب العلمية-بيروت،٢٠٠٤، ص١٠٢.

شيخه الأول عيسى عليه السلام

إذاً، على الرغم من أن فتحه كان جذبةً سبقت رياضته، فإن بداية الشيخ محيي الدين ابن العربي في طريق التصوف لم تكن تحوّلا أو منعطفا غير متوقّع في حياته كما قد يُتوهَم من بعض الروايات، لأن طبيعته وميوله كانت منذ صغره موافقة لأهل الله تعالى من الفقراء والزهّاد إلى أن انتظم كلياً في طريق الزهد منذ بداية شبابه وربّما قبل بلوغه سنَ الرشد، حيث بدأ التربية على أيدي شيوخ عصره كما ذكرنا أعلاه.

ولكن الشيخ الأكبر كثيراً ما يشير في الفتوحات المكية كيف أن توبته حصلت في الحقيقة على يد عيسى ابن مريم عليه السلام، في رؤيا مبشّرة رآه فيها مع غيره من الرسل صلى الله وسلم عليهم أجمعين، كما سنتطرّق إلى ذلك بمزيد من التفصيل بعد قليل. وهذا معنى قوله في الفتوحات: "ومن الواقعة كان رجوعنا إلى الله، وهي أتمّ العلل وهي المبشرات...".[151] وقال أيضاً في مزيد من التفصيل في الباب التاسع والعشرين وخمسمائة في معرض حديثه عن معرفة حال قطب، يبدو أنه هو نفسه الشيخ الأكبر، كان منزله الآية من سورة الأعراف (وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ...﴿٥٨﴾):

> اعلم أيّدنا الله وإياك بروح القدس أن هذا الذكر كان لنا من الله عزّ وجلّ: لمّا دعانا الله تعالى إليه فأجبناه إلى ما دعانا إليه مدّة ثم حصلت عندنا فترة، وهي الفترة المعلومة في الطريق[152] عند أهل الله التي لا بدّ منها لكل داخل في الطريق ثم إذا حصلت الفترة إما أن يعقبها رجوع إلى الحال الأوّل من العبادة والاجتهاد، وهم أهل العناية الإلهية الذين اعتنى الله عزّ وجلّ بهم، وإما أن تصحبه الفترة فلا يفلح أبداً. فلمّا أدركتنا الفترة وتحكّمت فينا رأينا الحق في واقعة[153] فتلى علينا هذه الآيات (من سورة الأعراف): (وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ) ... الآية [٥٨-٥٩]، ثم قال: (وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ). فعلمت أني المراد بهذه الآية وقلت: ينبّه بما تلاه علينا على التوفيق الأوّل الذي هدانا الله به على يد عيسى وموسى ومحمد سلام الله على

---

[151] الفتوحات المكية: ج٢ص٤٩١.

[152] الفترة هي "خمود نار البداية المحرقة" (الفتوحات المكية: ج٢ص١٣٢)، أي خمود همّة المريد. فقد مرّ الشيخ محيي الدين بهذه الفترة وربّما يكون ذلك بين سنتي ٥٨٠/١١٨٤ و٥٨٥/١١٩٠ كما سنرى بعد قليل.

[153] لقد أجاز معظم العلماء رؤية الله تعالى في المنام، وقد يظهر سبحانه بأي صورة شاء، كما ظهر للنبي محمد صلّى الله عليه وسلّم على صورة "شاب له وفرة" (كنز العمال: رقم ١١٥١-١١٥٤)، والصورة التي يظهر بها الحق سبحانه في المنام تعود لحال الرائي وليست هي صورته سبحانه وتعالى، وكذلك رؤية رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في المنام (الفتوحات المكية: ج٤ص٢٨). وقد رأى ابن العربي الحق تعالى في المنام مرات عديدة سنذكر بعضها في الفصول القادمة إن شاء الله.

جميعهم، فإن رجوعنا إلى هذا الطريق كان بمبشرة على يد عيسى وموسى ومحمد عليهم السلام:[154] (بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ)، وهي العناية بنا، (حَتَّىٰ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً)، وهو ترادف التوفيق، (سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ)، وهو أنا، (فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ)، وهو ما ظهر علينا من أنوار القبول والعمل الصالح والتعشق به، ثم مثل فقال: (كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)، يشير بذلك إلى خبر ورد عن النبي صلّى الله عليه وسلّم في البعث أعني حشر الأجسام من أن الله يجعل السماء تمطر مثل مني الرجال ... الحديث.[155] ثم قال: (وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ)، وليس سوى الموافقة والسمع والطاعة لطهارة المحل، (وَٱلَّذِى خَبُثَ)، وهو الذي غلبت عليه نفسه والطبع -وهو معتنى به في نفس الأمر- (لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا)، مثل قوله [صلّى الله عليه وسلّم] أن لله عباداً يقادون إلى الجنة بالسلاسل،[156] وقوله [تعالى]: (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا) [الرعد: ١٥]، فقلنا: طوعاً يا إلهنا."[157]

ومع أنه يذكر أنه رأى في هذه الواقعة عيسى وموسى ومحمداً صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، إلا أنه يخصّ عيسى عليه السلام لأنه هو الذي تولاّه منذ بدايته فكان "عيسوي المقام" مثل شيخه أبي العبّاس العريبي الذي بدأ معه الطريق كما سنرى لاحقا، مع أنه انتقل بعد ذلك إلى المقام المحمدي.

بداية زهده وتخلّيه عن أمواله

كما هو الأمر على كل من يريد دخول طريق التصوف والزهد، كان لا بدّ لابن العربي من أن يتخلى عن ماله وملكه حتى يتفرّغ لعبادة ربّه ويحرّر نفسه من قيود التعلّقات الدنيوية. ويُرجع ابن العربي أصل هذا التصرّف إلى الحديث الشهير عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

---

[154] سوف نتطرق لهذه الرؤيا بمزيد من التفصيل لاحقا بعد قليل.

[155] لم أجد هذا الحديث ولكن ورد في حديث مشابه متفق عليه عن أبي هريرة أن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال: "ما بين النفختين أربعون. ثم يُنزل الله من السماء ماءً فينبتون كما ينبت البقل، وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظم واحد وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة" (كنز العمال: رقم ٣٨٩٠٨).

[156] كنز العمال: رقم ١٠٦٦٧، ٣٤١٤١. وخرّج البخاري عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنه قال: "عَجِبَ اللهُ مِنْ قَوْمٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فِي السَّلَاسِلِ" (صحيح البخاري: رقم ٢٨٤٨). وقد أخرجه أبو داود بلفظ "يقادون إلى الجنة بالسلاسل".

[157] الفتوحات المكية: ج٤ص١٧٢.

أمرنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يوما أن نتصدق ووافق ذلك مالا عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوما، فجئتَ بنصف مالي، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: ما أبقيتَ لأهلك؟ قلتَ، أبقيت لهم، قال: ما أبقيتَ لهم؟ قلت: مثله، وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال: يا أبا بكر! ما أبقيت لأهلك؟ فقال: أبقيت لهم الله ورسوله. قلت: لا أسبقه إلى شيء أبدا."[158]

ولكن بما أن محيي الدين لم يكن بعدُ قد التزم مع شيخ يثق به، شاور بذلك والده وأعطاه كلّ ما يملك من طوع نفسه:

وهكذا كان خروجنا عمّا بأيدينا ولم يكن لنا شيخ نحكّمه في ذلك ولا نرميه بين يديه فحكّمنا فيه الوالد رحمه الله لمّا شاورنا في ذلك، فإنّا تركنا ما بأيدينا ولم نسند أمره إلى أحد لأنّا لم نرجع على يد شيخ، ولا كنت رأيت شيخاً في الطريق بل خرجت عنه خروج الميت عن أهله وماله. فلمّا شاورنا الوالد وطلب منّا الأمر في ذلك حكّمناه في ذلك ولم أسأل بعد ذلك ما صنع فيه إلى يومي هذا. هذا ما يعطي حكم ذوق النفس ولا بدّ منه لكل طالب."[159]

ثم يقول إن أصل ذلك هو إتيان أبي بكر بجميع ما يملكه إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم حين قال له ائتني بما عندك، وأتاه عمر بشطر ماله فإنه صلّى الله عليه وسلّم ما حدّ لهم في ذلك ولو حدّ لهم في ذلك ما تعدى أحد منهم ما حدّه له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. وإنما أراد صلّى الله عليه وسلّم أن تتميز مراتب القوم عندهم فقال لأبي بكر: "ما تركت لأهلك؟" فقال: "الله ورسوله" وهذا غاية الأدب، حيث قال "ورسوله". فإنه لو قال: "الله" لم يتمكن له أن يرجع في شيء من ذلك إلاّ حتى يرده الله عليه من غير واسطة حالاً وذوقاً، فلما علم ذلك قال: "رسوله". فلو ردّ إليه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من ماله شيئاً قبله لأهله من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فإنه تركه لأهله فما حكّم فيه إلاّ من استنابه ربّ المال. فانظر ما أحكم هذا وما أشد معرفة أبي بكر بمراتب الأمور. وتخيّل عمرٌ أنه يسبق أبا بكر في ذلك اليوم لأنه رأى إتيانه بشطر ماله عظيما. ثم قال رسول الله صلى الله عليهم وسلم لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: "ما تركت لأهلك؟" قال: "شطر مالي"، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "بينكما ما بين كلمتيكما". قال عمر: "فعلمت أني لا أسبق أبا بكر أبداً". والإنسان ينبغي أن يكون عالي الهمة يرغب في أعلى المراتب عند الله ويوفي كل مرتبة حقها: فلم يرد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على أبي بكر شيئا من ماله تنبيهاً للحاضرين على ما علمه من صدق أبي بكر في ذلك، فإن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد علم منه الرفق والرحمة فلو ردّ شيئا من ذلك عليه تطرق الاحتمال في حق أبي بكر أنه خطر له رفق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فعوّض رسول الله

---

[158] أخرجه الدارمي وقال: حسن صحيح، وأخرجه الترمذي في كتاب مناقب أبي بكر الصديق، رقم ٣٧٥٧، وقال حسن صحيح، وكذلك الشاشي وابن أبي عاصم وابن شاهين في السنة. انظر في كنز العمال: رقم ٣٥٦١١.

[159] الفتوحات المكية: ج٢ص٥٤٨.

صلّى الله عليه وسلّم أهل أبي بكر بما يقتضيه نظره صلّى الله عليه وسلّم. وجاءه عبد الرحمن بن عوف بجميع ماله فرده عليه كلّه وقال: "أمسك عليك مالك".[160]

محاسبة النفس وتقييد الخواطر في دفتر

إن التصوّف يعتمد كما رأينا بشكل أساسي على تصفية القلب وتزكية النفس، وهذا أمر ليس من السهولة بمكان بل يتطلّب الكثير من الجهد والمراقبة والمتابعة والشدّة. ومن ضمن الوسائل المتبعة لتزكية النفس ومراقبتها ومحاسبتها على أفعالها تقييد الخواطر التي تخطر على القلب حتى يستطيع الإنسان تقويم نفسه فيحارب الخواطر الضارّة ويثابر على الخواطر النافعة. ولقد تكلمنا عن أنواع الخواطر وكيفية ورودها على القلب وكيفية التمييز بينها في كتاب سلوك القلب،[161] كما بيّنها الشيخ محيي الدين في الباب الخامس والخمسين والباب الرابع والستين ومائتين من الفتوحات المكية.

لقد ذكر الشيخ محيي الدين ابن العربي أنّ بعض أشياخه كانوا يحاسبون أنفسهم على ما يتكلمون به وما يفعلونه ويقيّدونه في دفتر فإذا كان بعد صلاة العشاء وخلوا في بيوتهم حاسبوا أنفسهم وأحضروا دفترهم ونظروا فيما صدر منهم في يومهم من قول وعمل وقابلوا كلّ عمل بما يستحقه: إن استحق استغفاراً استغفروا وإن استحق توبةً تابوا وإن استحق شكراً شكروا، إلى أن يفرغ ما كان منهم في ذلك اليوم وبعد ذلك ينامون. ويضيف الشيخ محيي الدين أنه كان يفعل ذلك وزاد عليهم في هذا الباب بتقييد الخواطر: فكان يقيّد ما تحدثه به نفسه وما تهم به بالإضافة إلى كلامه وأفعاله. وكان يحاسب نفسه مثلهم في ذلك الوقت ويحضر الدفتر ويطالبها بجميع ما خطر لها وما حدّثت به نفسها وما ظهر للحس من ذلك من قول وعمل وما نوته في ذلك الخاطر والحديث؛ وبذلك قلّت عنده الخواطر والفضول إلا فيما يعنيه، فهذا من فائدة الاشتغال بالنية، وهو ذو فائدة عظيمة ولكن يغفل أكثر أهل الطريق عن ذلك وهو راجع إلى مراعاة الأنفاس وهي عزيزة."[162] وأصل هذا العمل هو في الحقيقة من أمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في قوله: حاسبوا أنفسكم."[163]

الفترة من سنة ١١٨٤/٥٨٠ إلى سنة ١١٩٠/٥٨٥

بعد أن دخل طريق الله حوالي سنة ٥٨٠ كما ذكرنا أعلاه، قضى الشيخ الأكبر بضع سنوات في إشبيلية وما حولها ولكننا لا نعرف الكثير عن تفاصيل حياته في هذه الفترة من سنة ٥٨٠ حتى سنة ٥٨٥، في

---

[160] الفتوحات المكية: ج٢ص٥٤٩.

[161] سلوك القلب: ص١٥٨-١٦٧.

[162] الفتوحات المكية: ج١ص٢٧٥.

[163] هذا الحديث: "حاسبوا أنفسكم" لا يوجد مرفوعا إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم، ولكنه يُروى عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه أنه قال في خطبته: حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا وَتَزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الأَكْبَرِ وَإِنَّمَا يَخِفُّ الْحِسَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا. انظر في تحفة الأحوذي للمباركفوري: ٢٥٠٨، وكنز العمال: ٤٤٢٠٣.

حين نجد أنّ سنة ٥٨٦ حافلة بالأحداث الكثيرة التي يذكرها الشيخ في الفتوحات وغيرها. ولكن يبدو أنه كان خلال هذه السنوات في إشبيلية وربما كان يسافر إلى المدن المجاورة كقرطبة وغيرها، وكذلك إلى المدن الساحلية. ومن المؤكد أيضاً أنه كان خلال هذه الفترة يتعلم القرآن والحديث والأدب على يد شيوخ عصره في إشبيلية كما سنرى بعد قليل، ولكن من غير أن نعلم تفاصيل التواريخ للأحداث التي جرت من سنة ٥٨٠ وحتى سنة ٥٨٥.

فيبدو إذاً أن "الفترة" التي يتكلّم عنها الشيخ محيي الدين أنه مرّ بها كانت في هذه الفترة من تاريخ حياته، ومن غير المستبعد أن تكون الأحداث التي ذكرناها أعلاه ونقلناها عنه من كتاب روح القدس أنّه كان يحضر مجالس الطرب والسهر مع أصحاب السوء فيسمع الغناء والشعر ويتكاسل عن الصلاة إلى ما هنالك، يبدو أن هذه الأحداث وقعت في هذه الفترة، ولذلك كان بعض شيوخه يخافون عليه وذلك لأنّ فتحه سبق رياضته وهي حالة لا تُنتج رجالا إلا في حكم النادر كما رأينا. ولذلك لا نجد أي نشاط علمي لابن العربي في هذه الفترة رغم أنّه قد دخل طريق التصوّف سنة ٥٨٠ أو قبلها وحاز الكثير من المقامات الرفيعة في هذه السنة.

ففي حين أن الشيخ محيي الدين يذكر سنة ٥٨٦ كثيرا، ربما يكون الذكر الوحيد لسنة ٥٨٥ هو ذكره العابر لرجل غير عادي من قوم يونس رأى أثره في الساحل (ربما يكون الساحل الغربي الجنوبي، قرب روطة، حيث سنجده أنه يفضل السياحة في هذا المكان). فيقول إنه رأى أثر هذا الرجل الذي كان من العمالقة، وكان أمامه على الساحل بقليل ولكنه لم يدركه، فاكتال طول قدمه في الرمل فوجدها ثلاثة أشبار وثلثي شبر، ويقول إنه رأى من رآه، وبعث إليه بكلام عن حوادث تحدث بالأندلس حيث كانوا في ذلك الوقت سنة خمس وثمانين وسنة ست وثمانين وخمسمائة، فما ذكر شيئا إلا وقع كما ذكر."[164]

تعلّمه للحديث والسيرة (قبل ٥٨٦/١١٩٠)

وكذلك تعلّم محمد الحديث على يد المحدّث عبد الرحمن السهيلي (توفي ٥٨١/١١٨٥)"[165] الذي قرأ عليه كتابه "الروض الأنف" وهو تعليق على سيرة ابن هشام. وكذلك حضر عند ابن زرقون (توفي

---

[164] الفتوحات المكية، ج٣ص٤١٥، انظر أيضاً ج١ص٢٢٢ حيث يذكر اسم صاحبه الذي اجتمع به نقل له الخبر وهو أبو عبد الله بن خرز الطنجي وكان ذلك سنة ٥٨٥.

[165] هو أبو القاسم وأبو زيد عبد الرحمن بن الخطيب أبي محمد بن عبد الله بن الخطيب أبي عمر أحمد بن أبي الحسن: أصبغ بن حسين بن سعدون بن رضوان بن فتوح السهيلي الإمام المشهور صاحب كتاب: الروض الأنف في شرح سيرة سيدنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وله كتاب التعريف والإعلام فيما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام وله كتاب نتائج الفكر وكتاب شرح آية الوصية في الفرائض كتاب بديع ومسألة رؤية النبي صلّى الله عليه وسلّم في المنام ومسألة السر في عور الدجال، إلى غير ذلك من تآليفه المفيدة وأوضاعه الغريبة وكان له حظ وافر من العلم والأدب. انظر: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، ابن فرحون المالكي، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث-القاهرة، ١٩٧٢، ص١٥٠.

٥٨٦/١١٩٠)[١٦٦] الذي قرأ عليه كتاب "التقصّي" للشاطبي، وأجازه إجازة عامة.

وكذلك قرأ على الشيخ عبد الحق الأزدي الإشبيلي وهو المعروف بابن الخرّاط (توفي ١١٨٥/٥٨١) وهو الذي ألّف عدداً كبيراً من كتب الحديث منها "الأحكام الكبرى"، "الأحكام الوسطى" و"الأحكام الصغرى"، وقرأ عليه كتاب ابن حزم الشهير "الزاهرة". وكان الشيخ عبد الحق الإشبيلي صاحب الشيخ أبي مدين الذي تأثر به ابن العربي كثيرا كما سنرى في الفصل القادم، وبالتالي فلا بدّ أن ميوله كان صوفياً وقد تأثر به محيي الدين كثيراً حيث روى عنه بعض الأحاديث منها ما يتعلق بالأسماء الحسنى وعددها وكيفية إحصائها.[١٦٧]

ولم يكن ابن العربي في أول تعلّمه مهتمًا كثيراً بالحديث الشريف بشكل مخصوص، إلى أن رأى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في رؤيا مبشّرة رواها في كتاب "المبشرات":

> كان من جملة أصحابنا قبل أن أعرف العلم قد رتبوا وقصدوني محرّضين على قراءة كتب الرأي وأنا لا علم لي بذلك ولا بالحديث، فرأيت نفسي في المنام وكأني في فضاءٍ واسعٍ وجماعة بأيديهم سلاح يريدون قتلي ولا ملجأ معي آوي إليه، فرأيت أمامي ربوة ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم عليها واقف، فلجأت إليه فألقى ذراعه عليّ وضمني ضمًا عظيما وقال لي: "يا حبيبي استمسك بي لتسلم"، فنظرت إلى هؤلاء الأعداء فلم أر منهم على وجه الأرض أحداً. فمن ذلك الوقت اشتغلت بتقييد الحديث.[١٦٨]

وقد روى الشيخ الأكبر أيضاً في هذا الكتاب نفسه الذي يروي فيه بعض المبشّرات التي رآها في المنام والتي تفيد المريدين والمتعلمين فقال أيضاً إنه رأى الإمام مالك بن أنس الأصبحي إمام دار الهجرة في المنام وعليه ثوب أبيض يجرّ منه في الأرض اثني عشر ذراعاً وهو على بابٍ يقال له باب الفتح، فقال له: يا مالك، ما أقرأ؟ فقال: تحبُّ أن تقرأ كتب الرأي؟ فرأى محيي الدين شخصا كان يشتغل بكتب الرأي وهو ينظر في مزبلة معرضا عن مالك مقبلا على المزبلة، فقال للإمام: يا مالك، أخاف أن تقودني كتب الرأي إلى ما قادت هذا الشخص! فتبسم مالك رضي الله عنه وقال له: صدقت، عليك يا بني بتقييد الحديث والعمل به.[١٦٩]

وبذلك بدأ الشيخ محيي الدين الاهتمام بالحديث النبوي الشريف وكتب عنه الكثير من المؤلفات

---

[166] هو الشيخ الفقيه الإمام المعمّر المقرئ، بقية السلف، أبو عبد الله محمد بن أبي الطيب سعيد بن أحمد بن سعيد بن عبد البر بن مجاهد ابن زرقون الأنصاري الأندلسي الإشبيلي المالكي. أجاز له عام اثنين وخمس مئة أبو عبد الله أحمد بن محمد الخولاني راوي الموطأ، وفيها ولد. وتفرد في وقته عنه. وسمع بمراكش من أبي عمران موسى بن أبي تليد، فتفرد عنه أيضاً. وسمع بسبتة من القاضي عبد الله بن أحمد الوحيدي، وسمع من عبد المجيد بن عبدون، وخلف بن يوسف الأبرش، والقاضي عياض بن موسى، وحدث عنهم، وعن أبي بحر بن العاص، ومحمد بن شبرين، وأبي الحسن شريح بن محمد... انظر: الذهبي، "سير أعلام النبلاء": ج٢١ص١٤٧–١٥٠.

[167] انظر الفتوحات المكية: ج٢ص٣٠٢.

[168] رسالة المبشرات، مخطوطة بايزيد ١٦٨٦.

[169] رسالة المبشرات، مخطوطة بايزيد ١٦٨٦.

الفريدة منها: "الأحاديث القدسية"، "اختصار الترمذي"، "اختصار البخاري"، "اختصار السيرة النبوية المحمدية"، "اختصار المحلى"، "اختصار مسلم"، "كتاب الأربعين حديثا في الطوالات"، "كتاب الأربعين المتقابلة في الحديث"، "المصباح في الجمع بين الصحاح"، "مشكاة الأنوار فيما روي عن الله من الأخبار"، ومعظم هذه الكتب لا تزال مخطوطات غير مطبوعة.

وقد حدّث الشيخ الأكبر عن كثيرٍ من الرجال ونقل الحديث وهو من رواة كتاب سنن الترمذي الذي أجازه به شيخه أبو شجاع في مكة سنة ٥٩٨ كما سنرى في الفصل الرابع. وكذلك ذكر الشيخ الأكبر في بعض كتبه طرقا كثيرة يروي بها الأحاديث عن المحدّثين،"[170] وقد قال العجلوني مؤلف كتاب "كشف الخفاء" نقلا عن الشيخ حجازي الواعظ شارح "الجامع الصغير" للسيوطي بأن الشيخ محيي الدين ابن العربي معدود من الحفاظ، والحافظ هو من يحفظ مائة ألف حديث.

وتجدر الإشارة إلى أن الصوفية لهم طريقتهم الخاصة في نقل الحديث وتصحيحه، رغم أنهم لا يلزمون أحدا فيما ينقلونه ولا يخطّئون ما صحّ من الحديث في الصحاح وغيرها حتى وإن لم يصحّ عندهم من طريق الكشف.

الفقه والعلوم النظرية

وعلى ضوء ما ذكرناه أعلاه من تركيز الشيخ محيي الدين على الحديث النبوي الشريف، بالإضافة إلى اعتماده كصوفي على العلم الكشفي الذوقي، فقد أعرض رضي الله عنه عن العلوم النظرية (من كلمة "النظر" وهو "الرأي") كالفلسفة وعموم علوم الرأي. فالصوفية لا يُقحمون أنفسهم بجدال الآراء والأقوال المختلفة المتضاربة، ولا يتكلمون إلا عن بصيرة، كما يقول الله تعالى في آخر سورة يوسف: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

ولكن الشيخ رضي الله عنه كتب بعض الكتب في الفقه، وخصّص كما ذكرنا أعلاه جزءاً كبيراً من كتاب الفتوحات المكية للكلام عن الأحكام الفقهية المختلفة للعبادات كالصلاة والصيام والزكاة والحج، ولكنه لم يقحم نفسه في أي جدل وغايته أن يذكر الآراء المختلفة ثم يذكر ما يقول به هو."[171] وكتب كذلك بعض الكتب المتخصصة بالفقه ولكنها ما زالت مخطوطة لم تُطبع، ومنها: "أسرار تكبيرات الصلاة"، "أسرار الوضوء وأركانه"، "جامع الأحكام فيما يتعلق بالحلال والحرام"، "حجة الوداع"، "كتاب الحكم والشرائع"، "رسالة الاستخارة"، "رسالة في أصول الفقه"، "رسالة في الصلاة"، "المحجّة البيضاء في الأحكام الشرعية".

ولقد ذم الشيخ الأكبر بعض أصناف الفقهاء، من غير تحديد أي اسم معيّن، ولكنه أكّد أنه لا يقصد سوى الفقهاء الذين غرّتهم الحياة الدنيا ولم يقصدوا من علومهم وجه الله تعالى بل قصدوا الشهرة والجاه لدى

---

[170] انظر مقدمته في كتاب "محاضرة الأبرار".

[171] انظر النصف الثاني من الجزء الأول من كتاب الفتوحات المكية، وهي الأبواب: ٦٩-٧١.

السلاطين كما كان حال أغلبهم.[١٧٢] وقد تمثّل ذلك أيضاً في بعض المنامات التي رآها أو رواها عن بعض الصالحين، فقال مثلا في كتاب المبشرات أن رجلا من الصالحين رأى فقهاء البلد الذي كان فيه قد اجتمعوا ودفنوا النبي صلّى الله عليه وسلّم وقد مات بينهم، فاستيقظ الرجل فسأل فوجدهم في مسألة من الحج قد أبينت لهم الأحاديث الصحيحة التي لا مَطعن فيها فأبوا قبولها وحكموا في المسألة بالرأي وقالوا مذاهب قد استقرت يريد هذا المنازع أن يردها بهذه الأحاديث فتعصبوا عليه.[١٧٣]

اعتزاله في المقابر ومصاحبته للموتى (~١١٩٠/٥٨٦)

إن الجذبة التي حصلت للشيخ محيي الدين عند دخوله إلى المقبرة كما ذكرنا أعلاه أطلعته على عالم آخر عادة ما يكون مهجوراً ومهملاً من قبل الناس، بل ويخشى معظم الناس من الاقتراب منه، وذلك عالم الأموات والأرواح. فنحن لا نشك أن الموت ما هو إلا انتقال من عالم المادة إلى عالم الروح، من سجن عالم الشهادة والملك إلى سعة عالم الغيب والملكوت. ولكنّ عجزنا عن الاتصال بهذا العالم وجهلنا به جعلنا نقف منه موقف العداء والحذر. ولكن لمّا تذوّق الشيخ محيي الدين هذا العالم واتّصل مع أشخاصه كان دائما يرجع إليهم ويحنّ لهم ويعاشرهم ويكلّمهم ويلقي عليهم الدروس ويحاورهم فيقضي معهم الساعات والأيام بل الشهور معتزلا الناس وخوضهم في أحاديث الهوى.

ذكر مؤيّد الدين الجندي (توفي تقريبا سنة ١٣٠٠/٧٠٠) وهو أحد تلاميذ صدر الدين القونوي (توفي ١٢٧٤/٦٧٢) الذي تبنّاه ابن العربي كما سنتكلم عن ذلك في الفصل الخامس والفصل السابع إن شاء الله تعالى، ذكر أن الشيخ الأكبر بقي في الخلوة تسعة أشهر حيث دخل الخلوة في محرم وأذن له بالخروج في عيد الفطر. ويبدو أن هذه الخلوة كانت سنة ٥٨٦ وذلك بعد دخوله الطريق بفترة ليست قصيرة.[١٧٤] وربما هذه هي نفسها الخلوة التي ذكرها الشيخ الأكبر في الفتوحات، حين بلغه أن شيخه يوسف بن يخلف الكومي قال إن ابن العربي ترك مجالسة الأحياء وراح يجالس الأموات، فبعث إليه أن لو جئتني لرأيت من أجالس! فصلى الشيخ يوسف الضحى وأقبل إليه وحده فوجده بين القبور قاعداً مطرقاً وهو يتكلم على من حضره من الأرواح فجلس إلى جانبه بهدوء، فنظر إليه الشيخ الأكبر فرآه قد تغير لونه وضاق نفسه فكان لا يقدر أن يرفع رأسه من الثقل الذي نزل عليه، وابن العربي ينظر إليه ويتبسم فلا يقدر الشيخ يوسف أن يتبسم لما هو فيه من الكرب. فلما فرغ ابن العربي من الكلام وصدر الوارد خُفّف عن الشيخ واستراح وردّ وجهه إليه فقبّل بين عينيه. فقال له الشيخ محيي الدين: يا أستاذ من يجالس الموتى أنا أو أنت! قال: لا والله بل أنا أجالس الموتى، والله لو تمادى عليّ الحال فطست. ثم انصرف الشيخ يوسف وترك ابن العربي في خلوته مع الأحياء الذين في القبور. وبعد ذلك كان الشيخ يوسف يقول: من أراد أن يعتزل عن الناس فليعتزل مثل ابن

---

[١٧٢] روح القدس: ص٤-٦، ٦٦، ٩٧، ١٠٨.

[١٧٣] رسالة المبشرات، مخطوطة بايزيد ١٦٨٦.

[١٧٤] ذكر ذلك الجندي في شرح فصوص الحكم، انظر في "البحث عن الكبريت الأحمر": ص٣٨.

العربي.[175]

لقاؤه بالأرواح

ولقد كان الشيخ محيي الدين رضي الله عنه متمرّسا في عالم الأرواح لا يحجبه عنهم شيء، فكان يتصل بهم ويتواصل معهم كما لو أنه يتعامل مع العالم المادي لا فرق. وكان رضي الله عنه يقوم بذلك في النوم وفي اليقظة، وله في ذلك روايات كثيرة لا تحصر. فقد التقى مثلا بالقطب أحمد ابن هارون الرشيد (توفي سنة ١٨٤/٨٠٠) كما سنرى ذلك بمزيد من التفصيل لاحقا: "لقيته بالطواف يوم الجمعة بعد الصلاة سنة تسع وتسعين وخمسمائة وهو يطوف بالكعبة وسألته وأجابني ونحن بالطواف وكان روحه تجسَّد لي في الطواف حساً تجسُّد جبريل في صورة أعرابي"[176] وذلك أن الشيخ محيي الدين لما رآه في الطواف استغرب حاله: "فإني ما رأيته يزاحِم ولا يزاحَم ويخترق الرجلين ولا يفصل بينهما فقلت هذا روح تجسد بلا شك فمسكته وسلَّمت عليه فردّ عليّ السلام وماشيته ووقع بيني وبينه كلام ومفاوضة".[177]

فمن حكم نفوذ البصر أن يدرك صاحبه الأرواح النورية والنارية عن غير إرادة من الأرواح ولا ظهور ولا تصور، كابن عباس وعائشة رضي الله عنهما حين أدركا جبريل عليه السلام وهو يكلّم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على غير علم من جبريل بذلك ولا إرادة منه للظهور لهم، فأخبرا بذلك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ولم يعلما أنه جبريل عليه السلام فقال لها صلّى الله عليه وسلّم أوَقد رأيتيه؟ وقال لابن عباس أرأيته؟ قالا نعم، قال: ذلك جبريل.[178]

وكذلك ذكر الشيخ رضي الله عنه طرقا مختلفة تتجسد له بها الأرواح فيتعلم منهم ويعلّمهم، فقال شعرا في الباب الثاني والسبعين وهو باب أسرار الحج في آخر الجزء الأول من الفتوحات المكية:

فمنهم من تجسّد لي بأرضٍ ... ومنهم من تجسّد في الهواء
ومنهم من تجسّد حيث كنّا ... ومنهم من تجسّد في السماء
فيخبرنا ونخبره بعلمٍ ... ولكن لا تكون على السواء
فإني ثابتٌ في كلّ عينٍ ... وهم لا يقدرون على البقاء
فهم يتصوّرون بكلّ شكلٍ ... كلَوْنِ الماء من لون الإناء

وذلك في تجسد الأرواح المفارقة لاجتماع أجسامها في الحياة الدنيا المسمى موتاً، حيث رأى

---

[175] الفتوحات المكية: ج٢ص٤٥.

[176] الفتوحات المكية: ج٢ص١٥.

[177] الفتوحات المكية: ج١ص٦٣٨.

[178] الفتوحات المكية: ج٢ص٣٣٢، والحديث ورد في معجم الطبراني الكبير للإمام الطبراني، من غير ذكر ابن عباس رضي الله عنهما، انظر: المعجم الكبير، أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية - بغداد، مطبعة الزهراء الحديثة - الموصل، ١٩٨٣: ج٢٣ص٣٥، ج٢٣ص٣٧.

الشيخ الأكبر منهم جماعة متجسدين من الأنبياء والملائكة والصالحين من الصحابة وغيرهم وهم يتجسدون في صور المعاني المتجسدة في صور المحسوسات؛ فإذا تجلّى المعنى وظهر في صورة حسية تبعه الروح في صورة ذلك الجسد كان ما كان؛ لأن الأرواح المدبرة تطلب الأجسام طلباً ذاتياً فحيثما ظهر جسم أو جسد، حسّاً كان ذلك أو معنى، تجسد كالعمل الصالح في صورة شاب حسن الوجه والنشأة والرائحة فإن الروح تلزمه أبداً.[179]

وقال صدر الدين القونوي تلميذ ابن العربي أن شيخه كان متمكناً من الاجتماع بروح من شاء من الأنبياء والأولياء الماضين وذلك من خلال ثلاثة طرق: إن شاء الله استنزل روحانيته في هذا العالم وأدركه متجسداً في صورة مثالية شبيهة بصورته الحسّية العنصرية التي كانت له في حياته الدنيا، وإن شاء الله أحضره له في نومه، وإن شاء انسلخ هو عن هيكله واجتمع به.[180]

رؤيته للرسل عليهم الصلاة والسلام

وهكذا فقد رأى الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي جميع الرسل عليهم السلام رؤية عين، والتقى ببعضهم كذلك في مناسبات كثيرة سواء في عالم المثال أو في عالم المُلك. فهو يقول في الفتوحات المكية أنه رأى جميع الرسل والأنبياء كلهم مشاهدة عين وكلّم منهم على وجه الخصوص هوداً أخا عاد. ويضيف أيضاً أنه رأى المؤمنين كلهم مشاهدة عين أيضاً، من كان منهم ومن يكون إلى يوم القيامة، أظهرهم الحق له في صعيد واحد في زمانين مختلفين. ثم يضيف فيقول:

> وصاحبت من الرسل وانتفعت بهم سوى محمد صلّى الله عليه وسلّم جماعة منهم إبراهيم الخليل قرأت عليه القرآن، وعيسى تبت على يديه، وموسى أعطاني علم الكشف والإيضاح وعلم تقليب الليل والنهار؛ فلما حصل عندي زال الليل وبقي النهار في اليوم كله فلم تغرب لي شمس ولا طلعت فكان لي هذا الكشف إعلاماً من الله أنه لا حظّ لي في الشقاء في الآخرة، وهود عليه السلام سألته عن مسألة فعرّفني بها فوقعت في الوجود كما عرفني بها. ... وعاشرت من الرسل محمداً صلّى الله عليه وسلّم وإبراهيم وموسى وعيسى وهوداً وداود وما بقي فرؤية لا صحبة.[181]

ويقول أيضاً في معرض حديثه عن المعراج:

> فلما دخلت (السماء الثانية) إذا بعيسى عليه السلام بجسده عينه فإنه لم يمت إلى الآن بل رفعه الله إلى هذه السماء وأسكنه بها وحكّمه فيها، وهو شيخنا

[179] الفتوحات المكية: ج١ص٧٥٥.

[180] صدر الدين القونوي، "الإسفار عن رسالة الأنوار"، ص١٠٢.

[181] الفتوحات المكية: ج٤ص٧٧.

الأول الذي رجعنا على يديه وله بنا عناية عظيمة لا يغفل عنّا ساعة واحدة وأرجو أن ندرك زمان نزوله إن شاء الله."[182]

وقد ذكر ذلك أيضاً شعرا في مقدمة الباب الثالث عشر وثلاثمائة من الفتوحات حيث أن عادته رضي الله عنه أنه دائما يفتتح أبواب الفتوحات بأبيات شعر هي جزء من موضوع الباب. فيقول الشيخ محيي الدين في هذه القصيدة:[183]

أقـــول لآدم أصـــــل الجـــــسوم	كمـــا أصـــل الرســالة شـــرع نـــوحِ
وإن محمـــــــداً أصـــــلٌ شـــــريفٌ	عزيـــــز في الوجــــود لكـــــل روحِ
إذا حـــــضروا واخـــــواني وقـــــوفٌ	لخـــدمتهم حننـــت إلى المـــسيحِ
فـــإني كنـــت تُبـــت علـــى يديـــه	وســـاعدني علـــى قتـــل المـــسيح"[184]
وذلـــك في المنـــام، وكـــان موســـى	نجـــيَّ فيـــه بـــالقول الفـــصيحِ
وأعطـــاني الغزالـــة"[185] في يمـــيني	وأفهـــم بالإشـــارة والـــصريحِ
وأغنـــاني فـــروّحني علـــواً	وأفقرنـــي فأصـــحبني ضـــريحي
فـــإن حـــضروا وضـــمّهمُ مقـــامٌ	إلـــيهم حـــين أبـــصرهم جنـــوحي
فـــبرُّ الوالـــدين علـــي فـــرضٌ	فيـــا نفـــسي علـــى التفـــريط نـــوحي
أنـــا ابـــن محمـــد وأنـــا ابـــن نـــوحٍ	كمـــا أنـــي ابـــن آدم في الـــصحيحِ
فيـــا مـــن يفهـــم الألغـــاز هـــذا	لـــسان رموزنـــا بـــالعلم يـــوحي

ولتوضيح بعض المعاني التي وردت في هذه القصيدة نذكر أن ابن العربي يعتبر أن أصل أرواحنا روح محمد صلّى الله عليه وسلّم فهو "أوّل الآباء روحاً" كما أن آدم عليه السلام "أوّل الآباء جسماً" ونوحٌ عليه السلام "أوّل رسول أرسل"، ومن كان قبله إنما كانوا أنبياء. فكما قال في نفس هذا الباب الثالث عشر وثلاثمائة أن أول شخص استفتُحت به الرسالة هو نوح عليه السلام، وأول روح إنساني وُجد هو روح محمد صلّى الله عليه وسلّم، وأول جسم إنساني وُجد جسم آدم عليه السلام.[186]

التربية الروحية

لقد رأينا أعلاه أن الطريق الطبيعي للتصوف هو مجاهدة النفس وترويضها وتربيتها على أيدي الشيوخ المرشدين المختصين بذلك. وهذه المجاهدة والرياضة أمرٌ صعبٌ وطويلٌ قد يستغرق سنواتٍ طوالا

---

[182] الفتوحات المكية: ج٣ص٣٤١.

[183] الفتوحات المكية: ج٣ص٤٩.

[184] معنى قتل المسيح هنا، هو قتل المسيح الدجّال وهو رمز للهوى الذي يبدو للنفس بصورة العقل فيغريها بفعل أشياء تحسبها من العقل وهي أوهام تؤدي إلى مفاسد وضلالات وتحقيق شهوات عاجلة. انظر في "سلوك القلب": ص١٤٨.

[185] الغزالة هي اسم للشمس.

[186] الفتوحات المكية: ج٣ص٤٩.

ويستدعي الكثير من الصبر على الجوع والزهد والسهر حتى تموت النفس وتضمحل فيها صفة الربوبية وتبقى صفة العبودية والفقر لله تعالى. عندئذ تصبح النفس مستعدة لتلقي التجليات الإلهية وتنفتح عين بصيرتها إلى عالم الغيب وهو المعبّر عنه بالفتح. وعلى الرغم من أن توبة الشيخ الأكبر الحقيقية كانت على يد عيسى بن مريم عليه السلام الذي يقول عنه: "وهو شيخنا الأول الذي رجعنا على يديه وله بنا عناية عظيمة لا يغفل عنا ساعة واحدة".[١٨٧] وعلى الرغم من أن الفتح قد حصل له في مدة وجيزة عن طريق الجذبة ولم يحتج إلى رياضة وسلوك طويل، ولكنه كان لا بد من المواظبة على التربية الروحية على يد شيوخ زمانه حتى يصقل مواهبه ويهيّئ نفسه لبلوغ الدرجات الرفيعة التي كانت تنتظره. وذلك لأنه كما رأينا أعلاه: "فإن الإنسان إذا تقدم فتحُه قبل رياضته فلن يجيء منه رجل أبداً إلا في حكم النادر."[١٨٨]

من أجل ذلك بدأ الشيخ محيي الدين رضي الله عنه يسعى وراء الشيوخ المرشدين، فالتزم مع شيخين كبيرين من علماء إشبيلية هما أبو العباس العريبي وأبو عمران الميرتلي، بالإضافة إلى الشيخ أبي يوسف الكومي كما ذكرنا من قبل. وكان كلّما سمع عن شيخ معروف في طريق الله يسافر إليه حتى يستفيد منه ويتعلّم على يديه.

ترويض النفس

والقصة التالية تدلُّ على أن الشيخ محيي الدين كان بارعاً في السلوك وكانت نفسه طوع أمره رغم ما كان يتّسم به من درجة اجتماعية عالية تقتضي في أغلب الأحيان، إلا من رحم الله، التكبُّر على الناس وتدعو إلى الرفعة عن المستحقرات. وبالتالي كان الشيخ يوجّه رياضته لمعانٍ عميقة ولا يحتاج أن يضيع الكثير من الوقت والجهد في ترويض نفسه. قال في سياق حديثه عن تعظيم الصدقات سواءً في الأخذ والإعطاء:

> فقد يكون استعظام الصدقة من هذا الباب (أي من قوله تعالى في سورة الحج: (ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾)) عند بعض العارفين، فلهذا يستعظم ما يعطي إن كان مُعطياً أو ما يأخذ إن كان آخذاً. وقد يكون مشهده ذوقاً آخر (وهو أنها من عند الله تعالى مهما كانت صغيرة) وهو أوّل مشهدٍ ذقناه من هذا الباب في هذا الطريق. وهو أني حملت يوماً في يدي شيئا محقراً مستقذرا[١٨٩] في العادة عند العامة لم يكن أمثالنا يحمل مثل ذلك من أجل ما في النفوس من رعونة الطبع ومحبة التميّز على من لا يلحظ بعين التعظيم. فرأيت الشيخ (لعله يقصد أبا العباس العريبي، الذي سنذكره بعد قليل) ومعه أصحابه مقبلاً. فقال له أصحابه يا سيدنا هذا فلان قد أقبل وما قصّر في الطريق؛

---

[١٨٧] الفتوحات المكية: ج٣ص٣٤١.

[١٨٨] رسالة الأنوار، ضمن رسائل ابن عربي، طبعة حيدرآباد، ص٥.

[١٨٩] كان ذلك سمكا مملحا (الفتوحات المكية: ج١ص٥٠٦).

لقد جاهد نفسه: تراه يحمل في وسط السوق حيث يراه الناس كذا، وذكروا له ما كان بيدي. فقال الشيخ فلعلّه ما حمله مجاهدةً لنفسه. قالوا له فما ثمّ إلا هذا! قال فاسألوه إذا اجتمع بنا.

فلما وصلت إليهم سلمت على الشيخ، فقال لي بعد ردّ السلام: بأيّ خاطر حملت هذا في يدك وهو أمرٌ محقرٌ مستقذرٌ وأهل منصبك من أرباب الدنيا لا يحملون مثل هذا في أيديهم لحقارته واستقذاره؟ فقلت له: يا سيدنا حاشاك من هذا النظر ما هو نظر مثلك: إن الله تعالى ما استقذره ولا حقّره لما علّق القدرة بإيجاده كما علّقها بإيجاد العرش وما تعظّمونه من المخلوقات، فيكف بي وأنا عبدٌ حقيرٌ ضعيفٌ أستحقر وأستقذر ما هو بهذه المثابة. فقبّلني ودعا لي وقال لأصحابه أين هذا الخاطر من حمل المجاهد نفسه!

فقد يكون استعظام الصدقة من هذا الباب في حقّ المعطي وفي حقّ الآخذ فلاستعظام الأشياء وجوه مختلفة يعتبرها أهل الله."[١٩٠]

الشيخ الإمام أبو يعقوب يوسف بن يخلف الكومي

وكما رأينا من قبل فإن الشيخ الإمام أبا يعقوب الكومي كان من أوائل الشيوخ الذين تربى الشيخ محيي الدين على أيديهم وكان له فيه أثر كبير وخاصة في الرياضة، ويبدو أن الشيخ الكومي هو أول من عرّف الشيخ محيي الدين على مكانة الشيخ أبي مدين مع أنه لم يلتق به في العالم الطبيعي كما سنرى في الفصل القادم.

وكذلك سوف نرى أن الشيخ محيي الدين حافظ على علاقته بشيخه يوسف حتى آخر لحظة ترك فيها المغرب، حيث ذهب بشكل مخصوص من الأندلس إلى جنوب المغرب إلى مدينة سلا حتى يودّعه، حيث يبدو أن الشيخ يوسف ترك الأندلس واستقر في المغرب، وكذلك كان يرافقه أثناء وجودهما معا في مدينة فاس.

بعض صفاته

فيقول الشيخ الأكبر في روح القدس عن شيخه وإمامه أبي يعقوب يوسف بن يخلف الكومي العبسي رضي الله عنه أنه صحب أبا مدين رضي الله عنه وسكن ديار مصر مدة وتأهّل بمدينة الإسكندرية، ورغب في مصاهرة أبي طاهر السلفي، وقد عُرضت عليه ولاية فاس فأبى، له في الطريق قدم راسخة. كان أبو مدين رضي الله عنه لسان هذه الطريقة ومحيها ببلاد المغرب يقول في أبي يعقوب أنه مثل المِرسى القوي للسفينة. كان كثير الأوراد، يخفي صدقته، يكرم الفقير ويذل الغني، ويسارع في قضاء حاجة الفقير بنفسه.

[١٩٠] الفتوحات المكية: ج١ص٥٨٨.

ويضيف الشيخ محيي الدين في وصفه فيقول إنه كان كبير الهمة، الغالب عليه طريق الملامية،[191] وكان غالبا مقطّب الوجه ولكنه إذا أبصر فقيراً تبرُق أسارير وجهه؛ كان يدني الفقير من نفسه حتى يجلسه على فخذه، ويخدم أصحابه بنفسه.

ومما تميّز به الشيخ يوسف أيضاً أنه كان إذا أعطى المجاهدة للمريد يعملها معه، وكذلك للاثنين والثلاثة يعمل مع هذا ومع هذا فتراه لا يفتر. وهذا أمر نادر بين الشيوخ المربّين.

تربيته وتعليمه لابن العربي

ولقد روينا في الأعلى كيف كان الشيخ الكومي يصطحب معه ابن العربي حتى قبل أن يدخل الطريق. ثم دخل الشيخ محيي الدين تحت أمره فربّاه وأدّبه فنعم المؤدّب ونعم المربّي. وقد عرّف عليه صاحبه بدراً الحبشي كما هي عادته كما رأينا أعلاه. ينقل عنه الشيخ محيي الدين أنه سمعه مرة يقول: إذا شاء الشيخ أخذ بيدِ المريد من أسفل سافلين وألقاه في عليين في لحظة واحدة.

ويقول الشيخ محيي الدين أنه رآه مرة في النوم وقد انشق صدره وفيه مصباح يضيء كأنه الشمس، فقال له: يا محمّد هات، فأتاه محمد بحقّين أبيضين كبيرين فتقيّا فيهما لبناً حتى ملأهما ثمّ قال له: اشرب! فشرب الشيخ محيي الدين. فيقول الشيخ محيي الدين أن جُلّ ما هو فيه كان من بركة الشيخ الكومي وبركة الشيخ أبي محمد الموروري الذي سنذكره في آخر هذا الفصل.

وكان الشيخ محيي الدين صادقا في صحبته للشيخ يوسف حتى إنه يقول إنه كان كلّما تمنّاه في بيته لمسألة تخطر له يراه أمامه فيسأله ويجيبه ثم ينصرف.

أول مسألة ألقاها على ابن العربي

ويذكر الشيخ الأكبر في روح القدس أن أول مسألة ألقاها عليه شيخه يوسف الكومي وذلك في أول ساعة رآه فيها وقد أقبل عليه بكليته أن قال له: ما الذنب الذي يأتيه المارّ بين يدي المصلي حتى يودّ أن يقف أربعين خريفا؟[192] فأجابه ابن العربي على ذلك على حدّ ما وقع له في وقتها، فسُرّ الشيخ بذلك.

مسألة أخرى صعبة (٥٨٦/١١٩٠)

ومن المسائل الأخرى الصعبة التي طرحها الشيخ الكومي على ابن العربي سنة ست وثمانين وخمسمائة هي أنه إذا اجتمع عارفان في حضرة شهودية عند الله ما حكمها؟ فأجاب الشيخ الأكبر: يا سيدي هذه مسألة تُفرض ولا تقع إلا إذا كان التجلي في حضرة المثل كرؤيا النائم وكحال الواقعة، وأما في الحقيقة

---

[191] الملامية أعلى فئة بين رجال الله بعد الزهّاد ثم الصوفيّة، وسوف نتكلّم عنهم في الفصل الثالث.

[192] حديث متفق عليه عن النبي صلّى الله عليه وسلّم أنه قال: "لو يعلم المار بين يدي المصلي ماذا عليه لكان أن يقف أربعين خير له من أن يمر بين يديه". انظر في كنز العمال: رقم ٢٣٠٢، وكذلك: رقم ١٩٢٤٩، ١٩٢٥٠.

فلا لأن الحضرة لا تسع اثنين بحيث أن يشهد معها غيرها، بل لا يشهد عينه في تلك الحضرة فأحرى أن يشهد عيناً زائدة! ولكن يُتصور هذا في تجلي المثال؛ فإذا اجتمعا فلا يخلو كل واحد منهما أن يجمعهما مقام واحد أعلى أو أدنى أو متوسط أو لا يجمعهما، فإن جمعهما مقام واحد فلا يخلو إما أن يكون ذلك المقام مما يقتضي التنزيه أو التشبيه أو المجموع. وعلى كل حال فحكم التجلي من حيث الظهور واحد ومن حيث ما يجده المتجلَّى له مختلف الذوق لاختلافهما في أعيانهما، لأن هذا ما هو هذا لا في الصورة الطبيعية ولا الروحانية ولا في المكانية وإن كان هذا مثلٌ لهذا."[193]

ومن هنا كان مبدأ قول الشيخ محيي الدين بأن التجلي لا يتكرر مرتين لنفس الشخص ولا مرة لاثنين، وذلك من اسم الله تعالى "الواسع" وكذلك من اسمه "الخلاّق"، فلا تكرار في الوجود، وهذا مبدأ فيزيائي وفلسفي على غاية من الأهمية ما سُبق الشيخ محيي الدين إليه، ويصلح أن يكون أساسا لنظرية كونية تستطيع تفسير الكثير من الظواهر المستعصية في العلم الحديث. وقد ناقشت هذه المسألة بالتفصيل في رسالة الدكتوراه التي بدأت بإعادة صياغتها باللغة العربية وستنشر قريبا إن شاء الله تعالى.

إخفاء حبه له وإظهار الشدة

ويقول الشيخ محيي الدين أن الشيخ يوسف الكومي كان يحبه كثيرا ولكنه كان لا يظهر ذلك له، ويقرّب غيره ويطرده، ويصوّب كلام غيره ويوبخه في المحافل والمجالس ويشتمه حتى كان أصحابه الذين معه ينسبونه إلى قلة الهمّة، والحقيقة أنه كان أفضلهم فما برع من تلك الجماعة غيره، وكان الشيخ الكومي رضي الله عنه يقول ذلك.

ولكنه كان أحيانا يحاول أن يباسط ابن العربي الذي كان شديد الاحترام للشيوخ فكان إذا قعد بين يديه وبين يدي غيره من شيوخه يرتعد مثل الورقة في يوم الريح الشديد ويتغير نطقه وتتخدر جوارحه، وقد رأينا في الأعلى كيف أن الشيخ الأكبر في بدايته لم يستطع القراءة في رسالة القشيري أمام الشيخ يوسف الكومي. فكان الشيخ يحاول أن يؤنسه ولكن ذلك كان لا يزيده إلا مهابة وإجلالا.

كرامة من بركة الشيخ أبي مدين (إشبيلية، قبل سنة ٥٨٠/١١٨٤)

كما ذكرنا في أول هذا الفصل أن الشيخ يوسف الكومي اصطحب مرة معه بعض تلاميذه ومنهم ابن العربي إلى جبل المنتيار وهو جبل عال على بعد فرسخ من إشبيلية. فيضيف الشيخ محيي الدين في روح القدس أنهم لما رجعوا إلى المدينة ركب الشيخ يوسف فرسه وكان ابن العربي يمسك الركاب والشيخ يحدثه بفضائل الشيخ أبي مدين وكراماته رضي الله عنه. ومن شدّة استغراقه بالحديث فني ابن العربي في كلام شيخه ووصفه لأبي مدين فكان لا يحسّ بنفسه وهو يرفع إليه وجهه وينظر إليه في أكثر الأوقات، وكان الشيخ يوسف ينظر إليه ويبتسم ويهمز فرسه فيسرع ويسرع هو معه. ثم وقف وقال له أنظر ما تركت خلفك؟ فنظر الشيخ

[193] الفتوحات المكية: ج٢ص٤٧٦.

محيي الدين فرأى الطريق الذي مشى به كله شوكاً يصل إلى معقد الإزار وشوكاً آخر منبسطا في الأرض. قال له الشيخ يوسف: أنظر إلى قدميك. فنظر إلى قدميه فلم ير بهما أثراً. قال له: أنظر إلى ثوبك فلم ير أثراً كذلك. حينئذ قال له الشيخ يوسف: هذا من بركة ذكرنا أبا مدين رضي الله عنه؛ إلزم الطريق يا بني تفلح. وهمز فرسه وترك ابن العربي خلفه.

فلا شك أن هذه الحادثة التي حدثت قُبيل دخوله إلى طريق الله تعالى، كان لها أثر كبير على ابن العربي وربما كانت الدافع الرئيسي الذي أدى به إلى سلوك طريق التصوف.

وأضاف إلى ذلك أنهم عندما وصلوا إلى المدينة قعد ابن العربي معه بعد العصر فرآه يتعلق للخروج، فقال له الشيخ يوسف: ما شأنك؟ فقال محيي الدين له: علي أربع حوائج أريد أن أقضيها ولي أيام أروم قضاءها وأتعمّل فيها ولا أجد الأشخاص الذين الحوائج بأيديهم. فتبسّم الشيخ يوسف وقال إن تركتني ومشيت ما تنقضي لك منها حاجة! فاقعد معي أذكر لك من أحوال أبي مدين رضي الله عنه، وأنا أضمن قضاءها. فقعد. فلما حان وقت المغرب قال له: أخرج الساعة إلى منزلك فإنك لا تصلي المغرب حتى تنقضي الحوائج كلها. فخرج ابن العربي والشمس قد غربت فوصل إلى منزله ومؤذن المغرب يؤذن. فيقول: فوالله ما أحرمت بالصلاة للمغرب حتى انقضت حوائجي.

فوائده على ابن العربي

ويقول الشيخ محيي الدين أنه قد استفاد من الشيخ يوسف الكومي على وجه الخصوص عدة مسائل منها: مسألة الوصال، و"أنا سيد ولد آدم"، و"آدم ومن دونه تحت لوائي"، و"التدبير نصف العيش" و"إذا أحب الله عبدا ابتلاه"، و"قلب القرآن يس".[194]

المنفعة المتبادلة في الترويض والمواجيد (٥٨٦/١١٩٠)

ولقد ذكرنا في الأعلى أيضاً أن علاقة الشيخ محيي الدين بشيوخه كانت علاقة تعليم متبادل وليست فقط علاقة مريد بشيخه، فيقول الشيخ محيي الدين أنه قد انتفع بالشيخ يوسف كثيرا وما راضه أحد من مشايخه سواه، ولكن الشيخ يوسف أيضاً انتفع من مواجيد الشيخ محيي الدين، فكان له تلميذاً وأستاذاً، وكلّ ذلك لأن الشيخ محيي الدين قد تقدّم فتحه على رياضته كما ذكرنا أعلاه، فبلغ مراتب الشيوخ والمعلمين وهو بعد ما يزال مريدا.[195]

الوصول إلى الله سبحانه وتعالى

من المعروف أن هدف الصوفي هو الوصول إلى الله تعالى، وهذا أمرٌ قد يكون مشكلا على بعض

---

[194] روح القدس ٤٨-٥١.

[195] الفتوحات المكية: ج١ص٦١٦.

الناس، فلا يعرفون كيف يكون، لأن الإنسان اعتاد على تقدير كل شيء بالمسافة والبعد؛ والله ليس كذلك بل هو أقرب إلينا من حبل الوريد. ولكن السالك الذي يسلك طريق الله تعالى، الذي هو الشريعة، ليصل إلى الحقيقة، يمرّ على المقامات القلبية التي يقطعها في سلوكه مثل التوبة والمحاسبة والخوف والرجاء والمراقبة والزهد والورع والصبر واليقين والحياء وغيرها. فليس المُراد من الوصول إلى الله تعالى المعنى المعروف بين ذوات الأشياء المادية وغير المادية، فالله ليس متحيّزا في مكان حتى يُسلك طريق فيوصل إليه. قال ابن عطاء الله السكندري: وصولك إلى الله وصولك إلى العلم به، وإلا فجلّ ربُّنا عن أن يتّصل به شيءٌ أو يتّصل هو بشيء."[196]

وقد يبدو الطريق الموصل إلى الله تعالى، وهو عبور هذه المقامات القلبية التي ذكرناها، طويلا جداً وشاقاً ويحتاج إلى مجاهدة ورياضة طويلة. ولكن ابن العربي يذكر أن الشيخ أبا يعقوب يوسف بن يخلف الكوميّ يقول: بيننا وبين الحق المطلوب عقبة كؤود ونحن في أسفل العقبة من جهة الطبيعة فلا نزال نصعد في تلك العقبة حتى نصل إلى أعلاها، فإذا استشرفنا على ما وراءها من هناك لم نرجع، فإن وراءها ما لا يمكن الرجوع عنه، وهو قول أبي سليمان الداراني: "لو وصلوا ما رجعوا" يريد إلى رأس العقبة، فمن رجع من الناس إنما رجع من قبل الوصول إلى رأس العقبة، والإشراف على ما وراءها."[197]

وأما من يصل من الكُمّل من الرجال فإنه لا يعود إلى الدنيا إلا لطلب الكمال وإرشاد العباد. وقد ذكرنا ذلك في كتاب سلوك القلب من الوجود إلى الفناء ثم البقاء؛ فبعد أن يفنى العبد عن نفسه، ويبقى بربّه، يمكن أن يعود إلى الدنيا ليكون دليلا على ربّه، وهي الدعوة إلى الله على بصيرة كما ذكرها الله تعالى في آخر سورة يوسف.

فيقول الشيخ محيي الدين أن السبب الموجب للرجوع مع هذا إنما هو طلب الكمال، ولكن لا ينزل بل يدعوهم من مقامه ذلك، وهو قوله على بصيرة، فيشهد فيعرف المدعوّ على شهود محقق.

وكذلك فمن الناس من لا يعود بعد الشهود فالذي لم يُردّ ما له وجه إلى العالم فيبقى هناك واقفا، وهو أيضاً المسمى بالواقف، فإنه ما وراء تلك العقبة تكليف ولا ينحدر منها إلا من مات. ثم يقول الشيخ أن من الواقفين من يكون مستهلَكا فيما يشاهده هنالك وقد وجد منهم جماعة وقد دامت هذه الحالة على أبي يزيد البسطاميّ وهذا كان حال أبي عقال المغربيّ وغيره."[198]

وسوف نجد في الفصل الرابع أن الشيخ محيي الدين سيزور الشيخ يوسف الكومي في مدينة سلا جنوبي المغرب، وربما ذهب إلى هناك بشكل مخصوص كي يودع شيخه الذي تربى على يديه لأنه قد قرّر أن يسافر بشكل نهائي إلى المشرق.

---

[196] الحكم العطائية: شرح وتحليل، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر-دمشق، ٢٠٠٣: ج٤ص٤٤٧.

[197] الفتوحات المكية: ج١ص٢٥٣.

[198] الفتوحات المكية: ج١ص٢٥١.

الشيخ المربي أبو العباس العريبي (إشبيلية، بعد ١١٨٤/٥٨٠)

لقد كان الشيخ أبو العباس العريبي أول شيخ يلتقيه ابن العربي في طريق التصوف، فالتزم معه وسلّم إليه نفسه ملتزما بالآداب العامة للمريدين. والعريبي أصله من العلياء في البرتغال غربي الأندلس وكان قد جاء إلى إشبيلية لتربية المريدين وتعليمهم طريق الزهد والتصوف، وكان يدعو إلى تقوية صلة القربى بأهل الله وتفضيلها على القرابة الجسدية:

> كنت قاعداً يوماً بإشبيلية بين يدي شيخنا في الطريق أبي العباس العريبي من أهل العليا بمغرب الأندلس فدخل عليه رجل فوقع ذكر المعروف والصدقة فقد قال الرجل: الله يقول "الأقربون أولى بالمعروف"، فقال الشيخ على الفور: "إلى الله". فما أبردها على الكبد.[199]

المربي الأول

وكان هذا الشيخ هو أول شيخ التزم معه ابن العربي وخدمه وانتفع به. ففي أثناء حديثه عن مقامات العبودية المطلقة قال:

> وقد كان (هذا المقام الذي يحصل للعبد من إطلاق عبوديته وهو أنه يصبح لا يفرح لشيء ولا يحزن لشيء ولا يضحك ولا يبكي ولا يقيّده وصف[200]) لشيخنا أبي العباس العريبي من العليا من غرب الأندلس وهو أول شيخ خدمته وانتفعت به، وله قدم راسخة في هذا الباب باب العبودية.[201]

ذكر الله

وكان الشيخ العريبي يذكر الله تعالى بالاسم الجامع وهو لفظ الجلالة "الله" كما يفعل معظم الصوفية. وهذه نقطة استغلها أكثر المنكرين عليهم محتجّين بحديث النبي محمد صلّى الله عليه وسلّم: "أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله."[202] والحديث الآخر: "خير الدعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيّون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير."[203] وهذه الأحاديث الصحيحة لا تعني أن الذكر بلفظ الجلالة غير جائز! وليس من المهم أيهما أفضل،

---

[199] الفتوحات المكية: ج٣ص٦٩٦، ٧٠٥.

[200] قال أبو يزيد البسطامي رضي الله عنه: ضحكت زماناً وبكيت زماناً وأنا اليوم لا أضحك ولا أبكي. وقال في هذا المقام لما قيل له كيف أصبحت فقال: لا صباح لي ولا مساء إنما الصباح والمساء لمن تقيد بالصفة وأنا لا صفة لي. (الفتوحات المكية: ج٢ص٧٣، ج٢ص١٨٧، ج٣ص٥٣٩، ج٤ص٤٠).

[201] الفتوحات المكية: ج٣ص٥٣٩.

[202] كنز العمال: رقم ١٧٤٨.

[203] كنز العمال: رقم ١٢٠٧٨.

فمع أن الذكر بالتهليل أفضل من الذكر بالتحميد أو التكبير، كما يُفهم من نصّ الحديث، فلا يعني هذا أن الذكر بالتحميد أو التكبير أو غيرهما غير جائز. ولكن مع ذلك فإن الذكر بلفظ الجلالة هو خيرُ وسيلةٍ لاستحضار عظمة الله سبحانه وتعالى في نفس الصوفي وهو معنى الذكر الحقيقي، أي أنّه يبقى ذاكراً لله ومستحضراً عظمته في قلبه حتى تخمد نفسُه وتزول رعونتها. والصوفي يعلم يقيناً أنه لا إله إلا الله، فهو لا يحتاج أن يردّدها كثيراً كما يفعل مع لفظ الجلالة من أجل استحضار عظمة الله تعالى ودوام ذلك في ذاكرته.

ولا أدري لماذا يجادل بعض الناس في أنواع الذكر ويرفض الذكر بلفظ الجلالة أو غيره من الأسماء الإلهية، والله سبحانه يقول بشكل واضح في سورة المزّمل موجّهاً الأمر لمحمّد صلّى الله عليه وسلّم: (وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴿٨﴾)، فاسم ربّنا وربّ محمّد هو الله، ولنا في رسول الله أسوة حسنة، فيجب أن نذكر اسم الله ونتبتّل إليه تبتيلاً، أي ننقطع إليه انقطاعاً كليّاً، وهذا هو معنى التصوّف الصحيح.

وفي هذا الخصوص سأل الشيخ محيي الدين شيخان من شيوخ التصوف أحدهما شيخه العريبي عن سبب تركيزه على الذكر بلفظ الجلالة فأعطاه جواباً رائعاً، ينمّ عن حضور حادّ وعن إدراكٍ عميق لقدرة الله عزّ وجلّ الذي بيده الخلق والأمر وبيده أنفاس العباد في كل آن:

> دخلتُ على شيخنا أبي العباس العريبي من أهل العلياء وكان مستهترا[204] بذكر الاسم "الله" لا يزيد عليه شيئا. فقلتُ له: يا سيدي لم لا تقول "لا إله إلا الله"؟ فقال لي: يا ولدي الأنفاس بيد الله ما هي بيدي، فأخاف أن يقبض الله روحي عندما أقول "لا إله" فأُقبض في وحشة النفي. وسألت شيخا آخر عن ذلك فقال لي: ما رأت عيني ولا سمعت أذني من يقول أنا الله غير الله، فلم أجد من أنفي.[205]

وربما كان بفضل هذا الذكر أن الشيخ العريبي كان من الراسخين في منزل الذكر من العالم العلوي كما ذكره الشيخ الأكبر في الباب الثامن والتسعين ومائتين في معرفة منزل الذكر من العالم العلوي في الحضرة المحمدية، فقال في أول هذا الباب: "اعلم وفقك الله أن شيخنا أبا العباس العريبي كان ممّن تحقّق بهذا المنزل وفاوضناه فيه مراراً فكانت قدمه فيه راسخة رحمه الله."[206]

الحياة الطيبة

وكذلك كان الشيخ العريبي على درجة عالية من الذوق في معنى "الحياة الطيبة" من الآية الكريمة من سورة النحل: (مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ...﴿٩٧﴾) وهو واحدٌ

---

[204] أي: مستغرقا.

[205] الفتوحات المكية: ج١ص٣٢٩.

[206] الفتوحات المكية: ج٢ص٦٨٧.

من قطبين التقاهُما الشيخ محيي الدين في حياته كان لهما هذا المنزل، كما ذكر الشيخ في الباب السابع والثمانين وأربعمائة من الفتوحات المكية، وهما من الذين عجّل الله لهم البشرى في الحياة الدنيا. فيحيُون حياةً طيبةً رغم وجود الألم والمشقات لأنهم يعلمون ما يؤولون إليه من النعيم لما بشّرهم الله تعالى الذي لا يخلف الميعاد:

> قال الله تعالى: (وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ) [النور: ٢٦]، و: (إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ) [فاطر: ١٠]، فالعمل الصالح له الحياة الطيبة وهي تعجيل البشرى في الحياة الدنيا كما قال تعالى: (لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا) [يونس: ٦٤] فيحيى في باقي عمره حياة طيبة لما حصل له من العلم بما سبق له من سعادته في علم الله مما يؤول إليه في أبده، فتهوّن عليه هذه البشرى ما يلقاه من المشقات والعوارض المؤلمة؛ فإن وعد الله حق وكلامه صدق وقد خوطب بالقول الذي لا يُبدّل لديه. وكذلك أيضاً للعمل الصالح التبديل فيبدّل الله سيآته حسنات حتى يودّ لو أنّه أتى جميع الكبائر الواقعة في العالم من العالم كله على شهود منه عين التبديل في ذلك. ولقد لقيت من هو بهذه الحال بمكة من أهل توزر من أرض الجريد، ولقيت أيضاً بإشبيلية أبا العباس العريبي شيخنا من أهل العلياء بغرب الأندلس ما لقيت في عمري إلا هذين من أهل هذا الذوق.[207]

تدخّل الخضر عليه السلام

وكان بفضل الشيخ أبي العباس العريبي أن التقى الشيخ الأكبر بالخضر عليه السلام لأول مرة، وبعد ذلك التقى الشيخ الأكبر بالخضر عليه السلام في أكثر من مناسبة.

ويقول الشيخ محيي الدين أن الخضر اسمه ايليا بن ملكان بن فالغ بن غابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام وكان في جيشٍ فبعثه أمير الجيش يرتاد لهم ماءً، وكانوا قد فقدوا الماء، فوقع بعين الحياة فشرب منه فعاش إلى الآن. وكان لا يعرف ما خصّ الله به من الحياة شارب ذلك الماء، ثم عاد إلى أصحابه فأخبرهم بالماء فسارع الناس إلى ذلك الموضع ليستقوا منه فأخذ الله أبصارهم عنه فلم يقدروا عليه؛ فهذا ما أنتج له سعيه في حقّ الغير.[208]

ويقول الشيخ محيي الدين أن الخضر عليه السلام له من العلم اللّدنّي ومن الرحمة بالعالم ما يليق

---

[207] الفتوحات المكية: ج٤ص١٢٣.

[208] الفتوحات المكية: ج٣ص٣٣٧.

بمن هو على رتبته، كما ذكر تعالى في سورة الكهف: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ۝ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ۝﴾.

وقال الشيخ محيي الدين في الباب الخامس والعشرين من الفتوحات والذي خصّه للحديث عن الخضر عليه السلام وهو بعنوان "في معرفة وتد مخصوص معمّر وأسرار الأقطاب المختصين بأربعة أصناف من العلوم وسرّ المنزل والمنازل ومن دخله من العالم":

> اعلم أيها الولي الحميم أيّدك الله أنّ هذا الوتد هو خضر صاحب موسى عليه السلام أطال الله عمره إلى الآن وقد رأينا من رآه واتفق لنا في شأنه أمرٌ عجيب وذلك أن شيخنا أبا العباس العريبي رحمه الله جرت بيني وبينه مسألة في حق شخص كان قد بشّر بظهوره رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. فقال لي هو فلان ابن فلان وسمّى لي شخصاً أعرفه باسمه وما رأيته ولكن رأيت ابن عمّته فربّما توقفت فيه ولم آخذ بالقبول، أعني قوله فيه لكوني على بصيرة في أمره. ولا شك أن الشيخ رجع سهمه عليه فتأذّى في باطنه ولم أشعر بذلك فإني كنت في بداية أمري. فانصرفت عنه إلى منزلي فكنت في الطريق فلقيني شخص لا أعرفه فسلّم عليّ ابتداءً سلامَ محبٍّ مشفقٍ وقال لي يا محمّد صدّق الشيخ أبا العباس فيما ذكر لك عن فلان، وسمّى لنا الشخص الذي ذكره أبو العباس العريبي. فقلت له نعم وعلمت ما أراد. ورجعت من حيني إلى الشيخ لأعرّفه بما جرى فعندما دخلت عليه قال لي يا أبا عبد الله أحتاج معك إذا ذكرتُ لك مسألة يقف خاطرك عن قبولها إلى الخضر يتعرض إليك يقول لك صدّق فلاناً فيما ذكره لك، ومن أين يتّفق لك هذا في كلّ مسألة تسمعها منّي فتتوقف. فقلت: "إن باب التوبة مفتوح". فقال: "وقبول التوبة واقع". فعلمت أن ذلك الرجل كان الخضر ولا شك أني استفهمت الشيخ عنه أهو هو قال نعم هو الخضر.[209]

وذكر الشيخ محيي الدين في موضع آخر أن لقاءه الأول هذا مع الخضر كان في إشبيلية في موضع اسمه قوس الحنّية حيث التقى به كما ذكرنا وأفاده التسليم للشيوخ وأن لا ينازعهم، مع أن الأمر الذي تنازعا عليه كان كما ذكر الشيخ الأكبر وقد رجع شيخه بعد مدّة إلى قوله في تلك المسألة وقال له أنّه كان على غلط فيها وأنّه هو المصيبُ، ولكن الشيخ محيي الدين علم أنّ مراد الخضر عليه السلام أن يوصيه بالتسليم لشيخه حتى وإن كان متأكّداً أنه هو المصيب في تلك المسألة فإنه ما كان يتعيّن عليه أن ينازعه فيها فإنها لم تكن من الأحكام المشروعة التي يحرم السكوت عنها.[210]

---

[209] الفتوحات المكية: ج١ص١٨٦.

[210] الفتوحات المكية: ج٢ص٣٣٧.

الفقر من الله

ومما تعلّمه أيضاً من الشيخ العريبي من المعاني السامية التي تصقل النفس وتزكي القلب ما يذكره في الوصية التالية:

> وصية: كن فقيراً من الله كما أنت فقير إليه فهو مثل قوله صلّى الله عليه وسلّم: وأعوذ بك منك. ومعنى فقرك من الله أن لا يُشم منك رائحة من روائح الربوبية، بل العبودية المحضة كما أنه ليس في جناب الحق شيء من العبودية ويستحيل ذلك عليه، فهو رب محض فكن أنت عبداً محضاً. فكن مع الله بقيمتك لا بعينك، فإن عينك عليه روائح الربوبية بما خلقك عليه من الصورة بالدعوى. وقيمتك ليست كذلك. بهذا أوصاني شيخي وأستاذي أبو العباس العريبي رحمه الله. فلقيمتك التصرف بالحال لا بالدعوى فكن أنت كذلك فمتى قالت لك نفسك كن غنياً بالله فقد أمرتك بالسيادة فقل لها أنا فقير إلى الله وإلى ما أفقرني الله إليه فإن الله أفقرني إلى الملح أن يكون في عجيني."[211]

أوّل نصيحة

و في كتاب "روح القدس" ذكر الشيخ محيي الدين شيخه أبا العباس العريبي على رأس قائمة الشيوخ الذين استفاد منهم وعاشرهم وتربى على أيديهم، ولكنه هنا يسميه "أبو جعفر أحمد العريبي":

> فمنهم وهو أول من لقيته في طريق الله أبو جعفر أحمد العريبي رضي الله عنه وصل إلينا إلى إشبيلية في أول دخولي إلى معرفة هذه الطريقة الشريفة فكنت أول من سارع إليه، فدخلت عليه فوجدت شخصا مستهترا بالذكر، فتسميت له وعرف حاجتي منه، فقال لي عزمت على طريق الله تعالى؟ فقلت له أما العبد فعازم والمثبّت الله. فقال لي: سُدّ الباب واقطع الأسباب وجالس الوَهّاب يكلّمك الله من دون حجاب. فعملت عليها حتى فُتح لي."[212]

المزيد من صفات العريبي

ثم يذكر الشيخ الأكبر المزيد من صفات شيخه العريبي في رسالة روح القدس فيقول إنه كان بدوياً أمياً لا يكتب ولا يحسب، وكان إذا تكلم في علم التوحيد فحسبك أن تسمع، لا تجده أبداً إلا ذاكراً على طهارة مستقبل القبلة، أكثر دهره صائماً، وكان قوياً في دين الله لا تأخذه في الله لومة لائم. وكان رضي الله عنه كثير التفكّر مبسوطاً مع الحق في عموم أحواله. وكان رضي الله عنه لا يتجرّد لنوم في ثوب ولا يهتزّ في

---

[211] الفتوحات المكية: ج٤ص٤٨٢.

[212] روح القدس، ٤٦-٤٨.

سماع، فإذا سمع القرآن تقصّف وتصدّعت أركانه.

قصة أسر العريبي

ويذكر ابن العربي أيضاً في روح القدس أن الإسبان أسروا الشيخ العريبي مرة، وكان قد أعلم أصحابه بذلك وقال لهم غداً يُؤخذ الكلّ أسرى، فصبّحهم العدوّ فأخذهم عن آخرهم، فأُكرم مثواه ولُطفت له دارٌ حسنة وخُدم، ثم اتفق مع العلج الذي كان عنده على أن يفكّ أسره مقابل خمسمائة دينار، فجاء إلى أصحابه ليجمع المبلغ، فقالوا له: نجمع لك من شخصين أو ثلاثة، فقال لا إنّما أريدها من أشخاص كثيرة لو قدرت أن آخذها من كلّ إنسانٍ ذرّة فعلت؛ إن الله تعالى أخبرني أنّ كلّ نسمة وزنت فيها شيئاً عُتقت من النار فاستغنم الخير لأمّة محمد صلّى الله عليه وسلّم.

الاستسقاء

ومرّة كان الشيخ العريبي بإشبيلية مع أصحابه فقيل له أن أهل قصر كتامة يحتاجون إلى المطر فسر إليهم فاستسق لهم لعل الله أن يسقيهم! فخرج لذلك وخرج معه خادمه محمد وكان على بعد مسيرة ثمانية أيام، فقال له بعض أصحابه أدع الله لهم من هنا، قال: أُمرت بالخروج إليهم. فخرج فلما وصل قصر كتامة وأشرف عليه مُنع من دخوله فاستسقى لهم وهم لا يشعرون، فسقاهم الله في الحين، فرجع من ذلك الموضع ولم يدخل البلد حتى وصل إلى إشبيلية. فأخبرهم محمد خادمه الذي مشى معه لمّا سقاهم الله ونزلت الأمطار أن الغيث كان ينزل عن يمينهم ويسارهم وأمامهم وخلفهم من غير أن يصيبهم منه شيء. فقال الشيخ الأكبر للشيخ العريبي: عزّ عليّ حيث لم تصبك رحمة الله عزّ وجلّ! فصاح الشيخ وقال: فزت بها يا محمد يا حسرة لو تذكرتها هناك.

حامل القرآن

ومرة دخل عليه رجل ومعه ابنه والشيخ الأكبر جالس إلى جانبه، فسلّم الرجل عليه وقال لابنه سلّم عليه، وكان الشيخ العريبي قد ذهب بصره. فقال له الرجل يا سيّدي إن ابني هذا من حملة القرآن يحفظه! فتغيّر الشيخ وطرأ عليه حالٌ، وقال: القديم يحمل الحديث، القرآن يحمل ابنك ويحملنا ويحفظ ابنك ويحفظنا. فهذا كان من حضوره رضي الله عنه.

الابن البار

وكان ابن العربي من أخلص المريدين عند العريبي، فكان إذا دخل عليه يقول له: مرحبا بالابن البار، كلّ أولادي نافق عليّ وجحد نعمتي إلا أنت فإنك مُقرّ بها معترف لا أنساها الله لك.

الشيخ العريبي في بدايته

وقد سأله الشيخ محيي الدين مرة عمّا اتفق له مع الله تعالى في أول بدايته، فقال: كان قوت أهلي في السنة ثمانية أعدال تيناً، والعدل مائة رطل. فلما جلستُ مع الله في الخلوة صاحت عليّ المرأة وسبّتني وقالت لي قُم واخدم وسُق ما يقوم بأولادك لعامهم، فشوّشت عليّ خاطري. فقلت يا ربّ هذه تحول بيني وبينك ولا تزال تُتعبني فإن كنتَ تريد لي مجالستك فأرحني من همّها وإن كنتَ لا تريدني فعرّفني. قال: فناداني الحق في سرّي: "يا أحمد اجلس معنا ولا تبرح فما يذهب النهار حتى نأتيك بعشرين عدلا تيناً قوت عامين". فلم تكن إلا ساعة وإذا بصارخٍ وعلى عنقه عدل من تين هدية فقال لي الحق: "هذا واحد من عشرين". فما غربت الشمس حتى أكمل عندي عشرين عدلا، فسُرّت المرأة والأطفال وشكرتني المرأة ورضيت عنّي.

الجبال والمهاد

وكما ذكرنا أعلاه فإن الشيخ العريبي كان يجتمع مع الشيخ محيي الدين في بيت صاحبه وصفيّه أبي عبد الله الخياط المعروف بالعصّاد وأخيه أبي العباس أحمد الحريري. فيقول الشيخ محيي الدين أنه صلى معهم الصبح مرة فقرأ الإمام "عمّ يتساءلون" فلما وصل إلى قوله تعالى ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ۝ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝﴾ غاب ابن العربي عن قراءة الإمام وما سمع شيئاً ورأى شيخه أبا جعفر العريبي وهو يقول: المهاد العالم والأوتاد المؤمنون، المهاد المؤمنون والأوتاد العارفون، والمهاد العارفون والأوتاد النبيون، والمهاد النبيون والأوتاد المرسلون، فلما رُدّ إلى نفسه فإذا الإمام يقرأ: ﴿وَقَالَ صَوَابًا ۝ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ...۝﴾ فلما فرغوا من الصلاة سأله عن ذلك فوجده قد خطر له في تلك الآية ما شهده.

كرامة أخرى

ثم يروي الشيخ محيي الدين عن شيخ العريبي كرامة أخرى وذلك أن إنساناً هاجمه ليذبحه فأضجعه والسكين في يده والشيخ يمدّ له عنقه، وهمّ به أصحابه ليأخذوه، فقال لهم الشيخ: اتركوه يفعل ما يؤمر به! فكان يأخذ السكين ليمرّ به على حلقومه فيحوّله الله في يده حتى رُمي به وترامى بين يديه تائباً.

ويقول الشيخ الأكبر في روح القدس أنه لولا خشية التطويل لأظهر من أمره وأمر غيره من شيوخه العجائب من الإشارات وما وقع له معهم من المسائل الإلهية في المواقف وغيرها.[213]

---

[213] روح القدس: ص٤٦-٤٨.

المقام العيسوي

ولا عجب أن ترتبط تربية الشيخ الأكبر بالشيخ العريبي وذلك أن العريبي كان على قدم عيسى عليه السلام وهو الذي كان له الفضل في توبة الشيخ الأكبر بداية والاعتناء به طُوال الوقت كما ذكرنا وكما سنفصّل ذلك لاحقا إن شاء الله: "وكان شيخنا أبو العباس العريبي على قدم عيسى عليه السلام."[214] ولكن الشيخ الأكبر يبيّن في مكان آخر أن الشيخ العريبي كان في نهايته على قدم عيسى عليه السلام أما هو فقد كان كذلك في بدايته ثم انتقل إلى الوراثة الموسوية ثم إلى وراثة هود عليه السلام ومن ثم إلى الوراثة المحمدية:

> وكان شيخنا أبو العباس العريبي رحمه الله عيسوياً في نهايته وهي كانت بدايتنا أعني نهاية شيخنا في الطريق كانت عيسوية ثم نُقلنا إلى الفتح الموسوي الشمسي ثم بعد ذلك نُقلنا إلى هود عليه السلام ثم بعد ذلك نُقلنا إلى جميع النبيين عليه السلام ثم بعد ذلك نُقلنا إلى محمد صلّى الله عليه وسلّم. هكذا كان أمرنا في هذا الطريق ثبّته الله علينا ولا حاد بنا عن سواء السبيل."[215]

آخر زيارة للعريبي

دخل عليه الشيخ محيي الدين في آخر مرة رآه فيها وكان معه جماعة، فوجدوه قاعداً فسلموا عليه وقد أراد بعض الجماعة أن يسأله، فإذا به رضي الله عنه قد رفع رأسه وقال: خذوا مسألة، وقد رأيتك بها يا أبا بكر، وأشار إلى ابن العربي، لم أزل أتعجب من قول أبي العباس بن العرّيف: "حتى يفنى من لم يكن ويبقى من لم يزل"، ونحن نعلم أن من لم يكن فانيا ومن لم يزل باقيا فإيش قال أجيبوا؟ فلم يكن في الجماعة من أجابه. فعرض على الشيخ محيي الدين الجواب ولكن نفسه حضرته بعثوره على وجه المسألة دونهم، فلم يتكلم لأنه، كما يقول، كان شديد القهر لنفسه في الكلام. ولكن الشيخ العريبي عرف ذلك منه فلم يُعد عليه."[216]

ونجد الشيخ محيي الدين لاحقا يستخدم هذه العبارة في دعواته وصلواته على النبي محمد صلّى الله عليه وسلّم حيث يقول في الصلوات الفيضية: (اللهم أسألك) أن تُصلي على سيّدنا محمّدٍ صلاةً تكحلُ بها بصيرتي بالنور المرشوش في الأزل، لأشهد فناء ما لم يكن وبقاء ما لم يزل، وأرى الأشياء كما هي في أصلها معدومة مفقودة وكونها لم تشم رائحة الوُجود فضلا عن كونها موجودة."[217]

فالحقيقة أن علم ابن العربي بهذه المسألة، والذي لم يبُح به في وقتها، هو أساس علومه في الفتوحات المكية وغيرها، وهو أن الخلق على الحقيقة إنما يعيشون في عالم الخيال أو البرزخ، وهذه النظرية

---

[214] الفتوحات المكية: ج٣ص٢٠٨.

[215] الفتوحات المكية: ج٢ص٢٢٣.

[216] روح القدس: ص ٤٨.

[217] مطبوعة ضمن توجهات الحروف، مكتبة القاهرة-القاهرة، دت.

التي أسسها ابن العربي لها أبعاد فلسفية جليلة ناقشها الأستاذ سليمان العطار في كتابه "الخيال عند ابن العربي: النظرية و المجالات"، المنشور من قبل دار الثقافة في القاهرة، سنة ١٩٩١. فالخلق كلهم على الحقيقة ليس لهم وجود مطلق بل هم في برزخ يتأرجحون بين الوجود والعدم، فوجودهم بالله تعالى، وليس وجودا تلقائيا أو مطلقا كما نظن ونشهد. ومن هنا كانت رؤية ابن العربي التي يسمونها "وحدة الوجود" التي سنناقشها في الفصل الأخير من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

وراثة الأنبياء

وقبل المضيّ قدما في ذكر شيوخ الشيخ محيي الدين ابن العربي، قد يكون من المستحسن هنا أن نوضّح بعض المفاهيم التي مرّت معنا أعلاه مثل مفهوم وراثة الأنبياء وشجرة الأولياء كالقطب والإمامين والأوتاد والأبدال وغير ذلك.

فيقول الرسول صلّى الله عليه وسلّم أن العلماء ورثة الأنبياء،[٢١٨] فيوضّح الشيخ محيي الدين أن منهم من يرث محمدا ومنهم من يرث عيسى ومنهم من يرث موسى وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام. ولكن بما أن شرع محمد عليه الصلاة والسلام كان ناسخا لما قبله، فإنه يتضمّن كل الشرائع التي سبقته، ثم تميّز عنها ببعض الأمور. فإذا ورث العالمُ أمراً خاصاً بشرع محمد كان وارثاً محمدياً، أما إذا ورث أمراً مشتركاً مع أيّ شرع سابق فإنه وارثٌ للنبي المخصوص بهذا الشرع. ولكن ابن العربي يوضّح أن كلّ الوراثة تكون في الحقيقة من العلم المحمّدي، فيقول:

> ثم اعلم أيها الولي الأكرم أنك وإن ورثت علماً موسوياً أو عيسوياً أو غيرهما مما كان من الرجال بينهما فإنما ورثت علماً محمّدياً ساويت فيه ذلك النبيّ لعموم رسالة محمد الحائز المقام العليّ إليه ترجع عواقب الثناء فهو صاحب جوامع الكلم المسماة بتلك الأسماء، فلآدم الأسماء ولمحمد الاسم والمسمّى والجامع لهما لا شك أنه صاحب المقام الأسمى وحجاب العزة الأحمى.[٢١٩]

وفي الباب السادس والثلاثين في معرفة العيسويين وأقطابهم وأصولهم أنه لما كان شرع محمد صلّى الله عليه وسلّم تضمّن جميع الشرائع المتقدمة وأنه ما بقي لها حكم في هذه الدنيا إلا ما قررته الشريعة المحمدية، فبتقريرها ثبتت فتعبّدنا بها نفوسنا من حيث أن محمدا صلّى الله عليه وسلّم قرّرها لا من حيث أن النبي المخصوص بها في وقته قرّرها. فلهذا أوتي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم جوامع الكلم. فإذا عمل المحمدي -وجميع العالم المكلف اليوم من الإنس والجن محمدي ليس في العالم اليوم شرع إلهي سوى هذا الشرع المحمدي- فلا يخلو هذا العامل من هذه الملة أن يصادف في عمله فيما يفتح له منه في قلبه وطريقه ويتحقق به طريقة من طرق نبي من الأنبياء المتقدمين مما تتضمنته هذه الشريعة وقررت طريقته

---

[218] كنز العمال: رقم ٢٨٧٦٥.

[219] الفتوحات المكية: ج٤ص٣٩٨.

وصحبتها نتيجته، فإذا فتح له في ذلك فإنه ينتسب إلى صاحب تلك الشريعة فيقال فيه عيسوي أو موسوي أو إبراهيمي وذلك لتحقيق ما تميّز له من المعارف وظهر له من المقام من جملة ما هو تحتَ حيطة شريعة محمد صلّى الله عليه وسلّم، فيتميّز بتلك النسبة أو بذلك النسب من غيره ليُعرف أنه ما ورث من محمد صلّى الله عليه وسلّم إلا ما لو كان موسى أو غيره من الأنبياء حياً وتبعه ما ورث إلا ذلك منه. ولمّا تقدمت شرائعهم قبل هذه الشريعة جعلنا هذا العارف وارثاً إذ كان الورث للآخر من الأول فلو لم يكن لذلك الأوّل شرع مقرر قبل تقرير محمد صلّى الله عليه وسلّم لساوينا الأنبياء والرسل إذ جمعنا زمان شريعة محمد صلّى الله عليه وسلّم كما يساوينا اليوم إلياس والخضر وعيسى إذا نزل فإن الوقت يحكم عليه إذ لا نبوة تشريع بعد محمد صلّى الله عليه وسلّم."[220]

ثم يوضح في الباب الخامس والأربعين آلية حصول هذه الوراثة فيقول إن من الرجال الواصلين من يصل إلى حقائق الأنبياء ولطائفهم فإذا وصلوا فتح لهم باب من لطائف الأنبياء على قدر ما كانوا عليه من الأعمال في وقت الفتح فمنهم من يتجلى له حقيقة موسى عليه السلام فيكون موسويّ المشهد ومنهم من يتجلى له لطيفة عيسى وهكذا سائر الرسل فينسب إلى ذلك الرسول بالوراثة، ولكن من حيث شريعة محمد صلّى الله عليه وسلّم المقررة من شرع ذلك النبيّ الذي تجلى له."[221]

وكذلك فإن الشيخ محيي الدين يقول إن العلماء قد ينتقلون من ورث نبي إلى نبي غيره حتى يصلون إلى الوراثة المحمدية الكاملة، فهو يقول في الباب الثاني والستين وأربعمائة أن الأقطاب المحمديين هم الذين ورثوا محمداً صلّى الله عليه وسلّم فيما اختص به من الشرائع والأحوال مما لم يكن في شرع تقدمه ولا في رسول تقدمه فإن كان في شرع تقدم شرعه وهو من شرعه أو في رسول قبله وهو فيه صلّى الله عليه وسلّم فذلك الرجل وارث ذلك الرسول المخصوص ولكن من محمد صلّى الله عليه وسلّم فلا ينسب إلا إلى ذلك الرسول وإن كان في هذه الأمة فيقال فيه موسوي إن كان من موسى أو عيسوي أو إبراهيمي أو ما كان من رسول أو نبي ولا ينسب إلى محمد صلّى الله عليه وسلّم إلا من كان بمثابة ما قلناه مما اختص به محمد صلّى الله عليه وسلّم وليس أعمّ في الاختصاص من عدم التقييد بمقام يتميز به فما يتميز المحمدي إلا بأنه لا مقام له يتعين فمقامه أن لا مقام وهو الأدب."[222]

شجرة الأولياء

ويعتبر الشيخ محيي الدين أن أولياء الله تعالى الذين يحفظ الله بهم العالم إنما هم على مراتب أعلاها مرتبة القطب، ثم يليه الإمامان ثم الأوتاد الأربعة، ثم هناك الأبدال والنقباء والنجباء والرجبيون والأفراد، إلى ما هناك من مراتب كثيرة ذكرها في الباب الثالث والسبعين من الفتوحات المكية، ويعتمد

[220] الفتوحات المكية: ج١ص٢٢٣.

[221] الفتوحات المكية: ج١ص٢٥٣.

[222] الفتوحات المكية: ج٤ص١٣٣.

الصوفية في هذا التقسيم الشجري للأولياء على عدد من الأحاديث بالإضافة إلى علم الكشف الذي يتميّزون به، فمثلا يقول النبي محمد صلّى الله عليه وسلّم ذلك في الحديث الشريف:

> إن لله في الخلق ثلاثمائة قلوبهم على قلب آدم، ولله في الخلق أربعون قلوبهم على قلب موسى، ولله في الخلق سبعة قلوبهم على قلب إبراهيم، ولله في الخلق خمسة قلوبهم على قلب جبريل، ولله في الخلق ثلاثة قلوبهم على قلب ميكائيل، ولله في الخلق واحدٌ على قلب إسرافيل، فإذا مات الواحد أبدل الله مكانه من الثلاثة، وإذا مات من الثلاثة أبدل الله مكانه من الخمسة، وإذا مات من الخمسة أبدل الله مكانه من السبعة، وإذا مات من السبعة أبدل الله مكانه من الأربعين، وإذا مات من الأربعين أبدل الله مكانه من الثلاثمائة، وإذا مات من الثلاثمائة أبدل الله مكانه من العامة، فيهم يُحي ويُميت ويُمطر ويُنبت ويدفع البلاء.[222]

وقد سرد ابن العربي جميع هذه الأصناف وغيرها من الأولياء الذين يسميهم رجال الأنفاس أو العدد أي الذين لهم عدد معيّن في كل وقت لا يزيدون ولا ينقصون، ومنهم من هو غير محصور بعدد. فهو يقول مثلا في الفتوحات المكية في الباب السادس عشر "في معرفة المنازل السفلية والعلوم الكونية ومبدأ معرفة الله منها ومعرفة الأوتاد والأبدال ومن تولاهم من الأرواح العلوية وترتيب أفلاكها" أن الأوتاد الذين يحفظ الله بهم العالم أربعة لا خامس لهم وهم أخصُّ من الأبدال والإمامان أخصُّ منهم والقطب هو أخصُّ الجماعة. والأبدال في هذا الطريق لفظ مشترك حيث يطلقون الأبدال على من تبدّلت أوصافه المذمومة بالمحمودة ويطلقونه على عدد خاص من الرجال، وهم أربعون عند بعضهم، لصفة يجتمعون فيها. ومنهم من قال عددهم سبعة. والذين قالوا سبعة منهم من جعل السبعة الأبدال خارجين عن الأوتاد متميّزين ومنهم من قال إن الأوتاد الأربعة من الأبدال؛ فالأبدال سبعة ومن هذه السبعة أربعة هم الأوتاد واثنان هما الإمامان وواحد هو القطب وهذه الجملة هم الأبدال. وقيل أن الأبدال سُموا أبدالاً لكونهم إذا مات واحد منهم كان الآخر بدله، ويؤخذ من الأربعين واحدٌ وتُكمل الأربعون بواحد من الثلاثمائة وتُكمل الثلاثمائة بواحد من صالحي المؤمنين.

ثم يقول الشيخ محيي الدين أن هؤلاء الأوتاد الواحد منهم على قلب آدم والآخر على قلب إبراهيم والآخر على قلب عيسى والآخر على قلب محمد عليهم السلام. فمنهم من تمدُّه روحانية إسرافيل وآخر روحانية ميكائيل وآخر روحانية جبريل وآخر روحانية عزرائيل. ولكل وتد ركن من أركان بيت الله الذي هو الكعبة، فالذي على قلب آدم عليه السلام له الركن الشامي والذي على قلب إبراهيم له الركن العراقي والذي على قلب عيسى عليه السلام له الركن اليمانيّ والذي على قلب محمد صلّى الله عليه وسلّم له ركن الحجر الأسود وهو لنا بحمد الله.

---

[222] انظر في كنز العمّال: حديث رقم ٣٤٦٢٩.

ولكن الشيخ محيي الدين يعود فيؤكد أن هؤلاء الأولياء الأوتاد (الذين منهم الإمامان والقطب) إنما هم على الحقيقة نائبون عن الأوتاد الأصليين الذين هم الأنبياء والرسل الذين أبقاهم الله أحياءً بأجسادهم في الدار الدنيا بعد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهم إدريس عليه السلام بقي حيا بجسده وأسكنه الله السماء الرابعة، حيث يقول الله تعالى عنه في سورة مريم: (ورفعناه مكانا عليّا)، وأبقى في الأرض أيضاً إلياس وعيسى وكلاهما من المرسلين وهما قائمان بالدين الحنيفي الذي جاء به محمد صلّى الله عليه وسلّم. فهؤلاء ثلاثة من الرسل المجمع عليهم أنهم رسل، وأما الخضر وهو الرابع فهو من المختلف فيه عند الفقهاء ولكن الصوفية يقطعون بأنه نبي. فهؤلاء الأربعة باقون بأجسامهم في الدار الدنيا فكلهم الأوتاد واثنان منهم الإمامان وواحد منهم القطب الذي هو موضع نظر الحق من العالم. فبالواحد يحفظ الله الإيمان و بالثاني يحفظ الله الولاية و بالثالث يحفظ الله النبوة وبالرابع يحفظ الله الرسالة وبالمجموع يحفظ الله الدين الحنيفي فالقطب من هؤلاء لا يموت أبدا أي لا يُصعق لأنه مستثنى في قول الله سبحانه في سورة الزمر: (وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾).[٢٢٤]

ويقول الشيخ محيي الدين أن من رحمة الله بخلقه أن جعل على قدم كل نبيٍّ وليّاً وارثاً له واحداً على الأقل أو أكثر من واحد، فلا بدّ أن يكون في كلّ عصر مائة ألف وليّ وأربعة وعشرون ألف وليّ على عدد الأنبياء ويزيدون ولا ينقصون. فإن زادوا قسم الله علم ذلك النبي على من ورثه فإن العلوم المُنزلة على قلوب الأنبياء لا ترتفع من الدنيا وليس لها إلا قلوب الرجال فتنقسم عليهم بحسب عددهم؛ فلا بدّ من أن يكون في الأمة من الأولياء على عدد الأنبياء وأكثر من ذلك."[٢٢٥]

ثم ذكر الشيخ محيي الدين أنّ الخضر قال إنه ما من يوم حدّث فيه نفسه أنّه ما بقي وليٌّ لله في الأرض إلا قد رآه واجتمع به، فلا بدّ له أن يجتمع في ذلك اليوم مع ولي لله لم يكن عرفه قبل ذلك. وقا أيضاً أنه اجتمع يوما بشخص لم يعرفه فقال له: يا خضر سلام عليك! فقال له: من أين عرفتني؟ فقال: إن الله عرّفني بك. فعلم الخضر أن لله عباداً يعرفون الخضر ولا يعرفهم الخضر.

ومعنى قوله "على قلب فلان" أي أنهم يتقلبون في المعارف الإلهية تقلّب ذلك الشخص، وربما يقول بعضهم فلان على قدم فلان وهو بهذا المعنى نفسه (تقريبا)،[٢٢٦] وهذا يعني أنّه على نفس الحالة من الحضور والمعرفة بالله تعالى، ولكن هناك فرق دقيق وهو أنّ الوليّ الذي هو على قلب نبيّ من الأنبياء لا يكون على قلبه من حيث ما هو نبيّ مشرّع بل فقط من حيث كونه وليّ لله لأن كلّ نبيّ فهو وليّ. ولذلك يقول الشيخ محيي الدين في مكان آخر أنه كان يقول قبل هذا أن ثمّ أولياء على قلوب الأنبياء فقيل له لا بل

---

[٢٢٤] الفتوحات المكية: ج٣ص٦.

[٢٢٥] الفتوحات المكية: ج٣ص٢٠٧.

[٢٢٦] الفتوحات المكية: ج٣ص٨.

قل هم على أقدام الأنبياء لا تقل على قلوبهم؛ فعلمت معنى ذلك لما أطلعه الله على ذلك فرآهم على آثارهم يقفون، ورأى لهم معراجين: المعراج الواحد يكونون فيه على قلوب الأنبياء ولكن من حيث هم الأنبياء أولياء أي من حيث النبوّة التي لا شرع فيها،[227] والمعراج الثاني يكونون فيه على أقدام الأنبياء أصحاب الشرائع لا على قلوبهم، إذ لو كانوا على قلوبهم لنالوا ما نالته الأنبياء من الأحكام المشروعة وليس ذلك لهم."[228]

الشيخ المربي أبو عمران موسى الميرتلي

أما الشيخ أبو عمران موسى بن عمران الميرتلي، فقد كان ذا درجة عالية من المعرفة والعلم الذوقي، كان يلتزم في بيته فلا يخرج منه. عاشره الشيخ محيي الدين واستفاد منه وأفاده فدعا له الشيخ موسى فبشّره الله بالجنة. وكان هذا الشيخ يخاف كثيرا على ابن العربي نظرا لصغر سنه وحداثته في الطريق وكونه فُتح عليه في زمن قصير من غير جهاد ورياضة كما رأينا أعلاه.

بعض صفاته

يقول الشيخ الأكبر في روح القدس عن شيخه أبي عمران موسى الميرتلي لأنه كان له شأن كبير ومعرفة تامة وأدب عظيم، وكان مقبوضا في عموم أحواله، حسن البشاشة لزوّاره. كان يقول في نفسه:

فأنت ابن عمران موسى المسيء ... ولست ابن عمران موسى الكليما

ويضيف الشيخ محيي الدين أنّ شيخه أبا عمران الميرتلي كان يأخذ نفسه بالشدائد حتى إنه لزم بيته منذ ستين سنة لا يخرج. جرى على طريق الحارث بن أسد المحاسبي لا يقبل من أحد شيئاً ولا يطلب حاجةً لنفسه ولا لغيره.

ويقول الشيخ الأكبر أيضاً أن الشيخ أبا عمران كان واحداً من رجال الإمداد، وهم ثلاثة رجال في كل زمان يستمدون من الحق ويمدّون الخلق بلطف ولين ورحمة من غير أن يشعروهم بشيء:

> ومنهم رضي الله عنهم ثلاثة أنفس وهم رجال الإمداد الإلهي والكوني في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون فهم يستمدون من الحق ويمدون الخلق ولكن بلطف ولين ورحمة لا بعنف ولا شدة ولا قهر يقبلون على الله بالاستفادة ويقبلون على الخلق بالإفادة فيهم رجال ونساء قد أهلهم الله للسعي في حوائج الناس

---

[227] وسوف نتحدث عن النبوّة والولاية بمزيد من التفصيل في الفصل السابع حيث أن هذه المسألة من المسائل التي يعارض فيها ابن تيميّة ابن العربي أنه يقول إن الوليّ أعلى مرتبة من النبيّ، وهذا صحيح، ولكن غاب عن ابن تيميّة أن ابن العربي يؤكّد أن كلّ نبيّ فهو وليّ بالضرورة: فهو من كونه وليّ أعلى منه من كونه نبيّ، لا أنّ الوليّ الذي ليس بنبيّ أعلى من النبيّ؛ وذلك لأنّ النبيّ شاركه بالولاية وزاد عليه بالنبوّة.

[228] الفتوحات المكية: ج٢ص٨.

> وقضائها عند الله لا عند غيره وهم ثلاثة لقيت واحداً منهم بإشبيلية وهو من أكبر من لقيته يقال له موسى بن عمران سيد وقته كان أحد الثلاثة لم يسأل أحداً حاجة من خلق الله، ورد في الخبر أن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال من تقبل لي بواحدة تقبلت له بالجنة: أن لا يسأل أحداً شيئاً.[229] فأخذها أبان مولى عثمان بن عفان فعمل عليها فربما وقع السوط من يده وهو راكب فلا يسأل أحداً أن يناوله إياه فينيخ راحته فتبرك فيأخذ السوط من الأرض بيده. وصفة هؤلاء إذا أفادوا الخلق ترى فيهم من اللطف وحسن التأني حتى يظن أنهم هم الذين يستفيدون من الخلق وإن الخلق هم الذين لهم اليد عليهم ما رأيت أحسن منهم في معاملة الناس.[230]

التقليل من المعارف

وكذلك كان الشيخ أبو عمران يطلب الستر حياءً من معارفه. يقول عنه الشيخ الأكبر في جوابه على السؤال الستين من أسئلة الحكيم الترمذي حول الخوض الذي يحصل للناس أثناء وقوفهم في الحشر يوم القيامة:

> السؤال الستون: ما خوض الوقوف؟ الجواب: دخول بعضهم في بعض طلباً للتخلص مما هم فيه من شدة ذلك اليوم وكربه؛ فمنهم الخائض في طلب من يشفع له، ومنهم الخائض في طلب من يتكرم عليه لينقذه من هول ذلك اليوم، ومنهم الخائض في طلب من يشهد له، ومنهم الخائض في طلب الخصم لطلب القصاص، ومنهم الخائض ليختفي ويستتر من خصمائه، ومنهم الخائض ليستتر حياءً من معارفه وعلى هذا كان يعمل شيخنا أبو عمران موسى بن عمران الميرتلي: قلت له يوماً لم تقلل من معارفك فقال: "ربما لا أكون هناك بذاك فأستحي من معارفي فإذا لم أر من أعرف هان علي بعض الحال." ومنهم الخائض ليعرَف بمنزلته لما هو فيه من المكانة عند ربه ليغيظ بهم الكفار. وأمثال هذا هو خوض الوقوف إذا تأملت.[231]

تبشيره له بالجنة

وكان من بركة هذا الشيخ أن بشر الله تعالى ابن العربي بالجنة، وذلك أن الشيخ الأكبر رأى له رؤيا

---

[229] انظر في زيادة الجامع الصغير: حديث رقم ٣٢٧٧.

[230] الفتوحات المكية: ج٢ص١٤.

[231] الفتوحات المكية: ج٢ص٨١.

تدل على أنه سوف ينتقل من مقامه إلى ما هو أعلى منه. فقال له الشيخ الميرتلي: بشّرتني بشّرك الله بالجنة!

وبعد وقت يسير نال الشيخ الميرتلي المقام الذي رآه له الشيخ الأكبر. فدخل عليه في اليوم الذي حصل فيه والسرور باد على وجهه، فقام الشيخ الميرتلي إليه وعانقه. فقال له الشيخ الأكبر: هذا تأويل رؤياي من قبل، وبقيت دعوتك أن يبشرني الله بالجنة! فقال الميرتلي: يكون إن شاء الله تعالى.

فيقول الشيخ الأكبر أنه ما تمّ الشهر حتى بشّره الله بالجنة بإيجاد آية منه ظهرت له مصدّقة لدعوى المبشّر عن الله تحدى بها على صدق بشرى الميرتلي له بالجنة. فيؤكد الشيخ الأكبر أنه يقطع بذلك ولا يشك ألبتة في أنه من أهل الجنة، كما أنه لا يشك في نبوة محمد صلّى الله عليه وسلّم. ولكن الشيخ الأكبر يقول إنه لا يدري هل تمسّه النار أم لا، ويقول: عافانا الله وإياكم وأرجو من كرمه أن لا يفعل.

ولكن، إضافة إلى ذلك، فإن الشيخ الأكبر رضي الله عنه يقول في الباب الثالث والستين وأربعمائة بعد أن اجتمع بالرسل عليهم السلام، كما ذكرنا أعلاه، أنه لمّا أعطاه موسى عليه السلام علم الكشف والإيضاح وعلم تقليب الليل والنهار؛ فلمّا حصل عنده زال الليل وبقي النهار في اليوم كلّه فلم تغرب له شمس ولا طلعت. فيقول إن هذا الكشف كان له إعلاماً من الله تعالى أنه لا حظّ له في الشقاء في الآخرة."[232]

وتجدر الإشارة إلى أن ذلك الأمر على غرابته فإنه ليس ببعيد عن المؤمنين الصالحين الذين تولاهم الله برحمته، حيث يقول الله تعالى في سورة فصلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾

السلطان يطلب ابن العربي للسجن

ثم يزيد الشيخ محيي الدين بعض التفصيل على هذه البشرى بالجنة، التي بشره بها الشيخ الميرتلي، في كتاب "المبشرات" حيث يقول إنه بعد أيامٍ من قول أبي عمران له: "يكون إن شاء الله تعالى" رأى الشيخ محيي الدين في المنام أحد أصحابه الذين توفاهم الله تعالى وكان بينهم حديث طويل قال له فيه صاحبه هذا أنه سيكون صاحبه في الجنة. ولكن الشيخ محيي الدين طلب علامة يتأكّد بها من صدق هذه الرؤيا، فقال لصاحبه في المنام: ما الدليل على قولك؟ فقال له صاحبه: نعم، إذا كان في غدٍ عند صلاة الظهر يطلبك السلطان ليحبسك، فانظر لنفسك. فلما أصبح الشيخ محيي الدين ولم يكن ثمّة أمرٌ يستدعي غضب السلطان عليه، ولكنه يقول إنه لما صلى الظهر جاءه الطلب من السلطان، فقال: صدقت الرؤيا. فكان ذلك له بشرى، ولكنه اختفى عن جنود السلطان خمسة عشر يوما حتى ارتفع ذلك الطلب."[233]

---

[232] الفتوحات المكية: ج٤ص٧٧.

[233] رسالة المبشرات، مخطوطة بايزيد ١٦٨٦.

خوفه على ابن العربي

وكان الشيخ أبو عمران يخاف كثيرا على ابن العربي لأنه كما ذكرنا في الأعلى فُتح له قبل الرياضة وكان شاباً صغيراً لم يتمرّس، وكانت مغريات الحياة الدنيا أمامه كثيرة:

> كانت همته متعلقة بالله في حفظنا وعصمتنا من الفتن والرجوع، فقضى حاجته في ذلك وشهد لي بها، وبشرني وقال لي منه إليّ بمحضر صاحبي عبد الله بدر الحبشي: كنت أتخوّف عليك جداً لصغر سنك وعدم المعنى وفساد الزمان وما ظهر لي في أهل الطريقة من الفساد وهم الذين ألزموني العزلة لما عاينت من فساد الأحوال، فالحمد لله الآن أقرّ عيني بك.

وكما قلنا من قبل فإن مبرّر هذا الخوف هو أن الشيخ محيي الدين قد فُتح له قبل السلوك، وهذه مرتبة خطيرة لا يخرج منها رجل إلا بحكم النادر، فكان ابن العربي من هذه النوادر.

حب ابن العربي لشيخه الميرتلي

فكان الشيخ محيي الدين يحب الشيخ أبا عمران كثيرا وكان ينشده من شعره كثيرا وقد طلب منه أبو عمران أن يقيّد له من شعره شيئاً ففعل وقرأه عليه فسُرّ به، فمما كتبه له أبياتا استحسنها جداً، يذكر الشيخ محيي الدين بعضها في رسالة روح القدس:[٢٢٤]

تركت هواي في هواه فلا هوى ... وكل محب لم يكنه فقد هوى

وأبحرت طرف الأنس في حلية الفنا ... وجزت بحار الشوق في مركب الهوى

وألقيت موسى الوصل في ساحل الرضى ... وناداني الحق المبين من الهوى

ألا فاكتبوا عبدي من العارفين بي ... وهذا نداء الحق في موضع السوى

فراجعته لما سمعت نداءه ... بأن ليس لي همٌّ ولا بغية سوى

وصالك يا مولى ألوذ بقربه ... فإني أخاف من سطوة البين والنوى

فآمنني من كل شيء وقال لي ... ظنونك حسنى إن للمرء ما نوى

ويقول الشيخ محيي الدين أنه ذكر هذه القصيدة في كتاب "إنزال الغيوب".

الفرق بين الميرتلي والعربي

وهكذا فإن ابن العربي قد تربّى على يد هذين الشيخين الجليلين العربي والميرتلي. ولكنه أحيانا كان يقارن بينهما، حيث أنه كان مرة متكدّرا من شدّة ما رأى من مخالفات الناس وحيودهم عن طريق الحق فدخل على شيخه أبي العباس العربي وهو في مثل هذه الحال فقال له الشيخ: عليك بالله! ثم خرج من

---

[٢٢٤] روح القدس: ص٥٧.

عنده ودخل على شيخه أبي عمران الميرتلي وهو على تلك الحالة فقال له: عليك بنفسك! فتعجب من القولين، وقال للميرتلي: يا سيدنا قد جرت بينكما هذا أبو عباس يقول عليك بالله وأنت تقول عليك بنفسك، وأنتما إمامان دالآن على الحق! فبكى أبو عمران وقال للشيخ الأكبر: يا حبيبي الذي دلّك عليه أبو العباس هو الحق وإليه الرجوع، وكل واحد منّا دلّك على ما يقتضيه حاله، وأرجو إن شاء الله أن يُلحقني بالمقام الذي أشار إليه أبو العباس. فاسمع منه فهو أولى بي وبك.

وهكذا كان هؤلاء الشيوخ منصفين ويعرفون المقامات ويقدّرونها. فلما رجع الشيخ الأكبر إلى أبي العباس وذكر له مقالة أبي عمران، قال له: أحسن في قوله: هو دلّك على الطريق وأنا دللتك على الرفيق، فاعمل بما قال لك وبما قلتُه لك فتجمع بين الرفيق والطريق، وكلُّ من لا يصحب الحق في سفره فليس هو على بيّنة من سلامته فيه."[235]

فاطمة القرطبية بنت ابن المثنّى

وكذلك فقد شاركت بعض النساء الصالحات في تربية الشيخ الأكبر، فقد التقى باثنتين منهن على الأقل وكان لهما دور كبير في ذلك، وهن ياسمين من مرشانة الزيتون وفاطمة القرطبية في إشبيلية وهي بنت ابن المثنى وكانت في الخامسة والتسعين من عمرها. كانت فاطمة القرطبية كما ذكرنا أعلاه بمثابة أمّه الروحية كما كانت "نور" أمّه الترابية. فكانت إذا جاءت والدته إلى زيارتها تقول لها "يا نور هذا ولدي وهو أبوكِ فبَرّيه ولا تعقّيه".[236]

بعض أوصافها

يقول عنها في الباب الثامن والأربعين وثلاثمائة من الفتوحات المكية أنه خدمها عدة سنوات وهي تزيد في وقت خدمته إياها على خمس وتسعين سنة، ومع ذلك فكان يستحيي أن ينظر إلى وجهها وهي في هذا السن من حمرة خديها وحسن نعمتها وجمالها: "تحسبها بنت أربع عشرة سنة من نعمتها ولطافتها". كما يصفها. ثم يقول إنه كان لها حال مع الله وكانت تؤثره على كل من يخدمها من أمثاله وتقول: ما رأيت مثل فلان إذا دخل علينا دخل بكلّه لا يترك منه خارجاً شيئا وإذا خرج من عندي خرج بكلّه لا يترك عندي منه شيئا.

ثم يضيف الشيخ الأكبر أنه سمعها تقول: عجبت لمن يقول إنه يحبّ الله ولا يفرح به وهو مشهوده، عينه إليه ناظرة في كل عين، لا يغيب عنه طرفة عين، فهؤلاء البكّاؤون كيف يدّعون محبته ويبكون! أما يستحيون؟ إذا كان قربه مضاعفاً من قرب المتقرّبين إليه والمحبّ أعظم الناس قربةً إليه فهو مشهوده، فعلى من يبكي، إن هذه لأعجوبة! ثم تقول له: يا ولدي ما تقول فيما أقول؟ فيقول لها: يا أمّي القول قولك.

---

[235] الفتوحات المكية: ج١ص١٧٧.

[236] الفتوحات المكية: ج٣ص٣٤٨.

ثم يضيف الشيخ محيي الدين فيقول إنها كانت تضرب بالدف وتفرح، فكان يقول لها في ذلك، فتقول له: إني أفرح به حيث اعتنى بي وجعلني من أوليائه واصطنعني لنفسه؛ ومن أنا حتى يختارني هذا السيّد على أبناء جنسي؟ وعزّة صاحبي لقد يغار عليّ غيرةً ما أصفها؛ ما التفتُ إلى شيء باعتمادٍ عليه عن غفلة إلا أصابني ببلاء في ذلك الذي التفتُّ إليه.

فاتحة الكتاب تخدمها

ويقول الشيخ محيي الدين عن فاطمة القرطبية أن الله تعالى قد أعطاها فاتحة الكتاب تخدمها، فكان إذا أرادت شيئا تقرأ الفاتحة فيتشكل لدى قراءتها صورة هوائية تفعل لها ما تأمرها به. فيذكر الشيخ محيي الدين قصةً حصلت أمامه وذلك أن امرأة دخلت مرة عليهم، وكان الشيخ محيي الدين عند أمه فاطمة القرطبية، فقالت له يا أخي إن زوجي في شريش شذونة أُخبرت أنه يتزوج بها فماذا ترى؟ فقال لها: وتريدين أن يصل؟ قالت نعم. فردّ ابن العربي وجهه إلى العجوز وقال لها: يا أم ألا تسمعين ما تقول هذه المرأة؟ قالت: وما تريد يا ولدي؟ قال: قضاء حاجتها في هذا الوقت، وحاجتها أن يأتي زوجها. فقالت: السمع والطاعة، إني أبعث إليه بفاتحة الكتاب وأوصيها أن تجيء بزوج هذه المرأة، وأنشأت فاتحة الكتاب فقرأتُها وقرأ الشيخ ابن العربي معها. فيقول الشيخ محيي الدين أنها كانت تُنشئ بقراءتها صورةً مجسَّدةً هوائيةً فتبعثها عند ذلك لتقضي ما تريد. فلما أنشأتها صورةً، قالت لها: "يا فاتحة الكتاب تروحي إلى شريش وتجيئي بزوج هذه المرأة ولا تتركيه حتى تجيئي به". فيقول الشيخ أنه لم يلبث إلا قدر مسافة الطريق من مجيئه فوصل إلى أهله.[237]

رؤية الجن

وكانت فاطمة القرطبية ترى الجن من غير تلبيس، وذلك أمر يلتبس على الكثير من الشيوخ الذين يظنون أنهم يرون الجنّ ويخاطبونهم وهم على الحقيقة لا يرون سوى صوراً خياليةً توهمهم الجنُّ إيّاها، كما كان يحدث مع أبي العباس الزقاق الذي التقاه الشيخ الأكبر في مدينة فاس كما سنتكلم عن ذلك في الفصل الثالث.[238]

مجالسة الملائكة

كما ذكر الشيخ محيي الدين أيضاً فإنّ فاطمة القرطبية كانت من بين بعض الرجال والنساء الذين كانوا يجالسون الملائكة ويستفيدون منهم. فالملائكة هم أنوار خالصة لا فضول عندهم، وعندهم العلم الإلهيّ الذي لا مرية فيه فيكون جليسهم في مزيد علم بالله دائماً مع الأنفاس. ولكن كما هو الحال مع رؤية الجن والحديث معهم فكذلك قد يتخيّل بعض الشيوخ أنهم يجالسون الملائكة وهم إنّما يتخيلون صوراً فاسدة،

---

[237] الفتوحات المكية: ج٢ص٣٤٧-٣٤٨.

[238] الفتوحات المكية: ج٢ص٦٢١.

فيقول الشيخ الأكبر أن من ادّعى مجالسة الملأ الأعلى ولم يستفد في نفسه علماً بربّه فليس بصحيح الدعوى وإنما هو صاحب خيال فاسد. ثم يضيف الشيخ الأكبر أن أصدقَ من رآهم في هذا الباب من النساء فاطمة بنت ابن المثنى بإشبيلية، وشمس أم الفقراء بمرشانة، وأم الزهراء بإشبيلية أيضاً، وكليهار بمكة وتدعى ست غزالة. ومن الرجال أبو العباس بن المنذر من أهل إشبيلية، وأبو الحجاج الشبربلي من قرية بشرف إشبيلية تسمى شبربل، ويوسف بن صخر بقرطبة."[٢٢٩]

قرطبة

تعتبر قرطبة من أعظم مدن الأندلس وهي تقع في غرب البلاد وتمتد على الضفة اليمنى لنهر الوادي الكبير. يحدّها من الشمال مدينة ماردة، ومن الجنوب مدينة قرمونة، ومن الغرب مدينة إشبيلية.

تأسست قرطبة في العصر الروماني عام ١٥٢ ق.م وفتحها المسلمون عام ٧١١/٩٣ واستقر بها ولاة الأندلس قرابة ثلاثة قرون بدءً من عام ٧٥٦/١٣٩ عندما أعلنها صقر قريش عبد الرحمن الداخل عاصمة له فجعلها مهدا للعلم والثقافة والفنون والآداب، وبقيت كذلك حتى سقطت الخلافة الأموية عام ١٠١٣/٤٠٤، حين ثار جند البربر على الخلافة ودمروا قصورها وهدّموا آثارها. من أهم معالمها، قصر قرطبة القديم الذي اتخذه عبد الرحمن الداخل مقرّاً له، وقصر الرصافة، والمسجد الجامع بالإضافة إلى أكثر من ٩٠٠ حمام عام.

بعد سقوط الدولة الأموية وظهور ملوك الطوائف مثل بني عبّاد وغيرهم، كما رأينا في الفصل الأول، استولى كلّ أمير على ناحية من الأندلس وخربت قرطبة وعمرت إشبيلية ببني عبّاد حتى صارت عاصمة الأندلس. ولكن بقيت قرطبة كإحدى المدن المتوسطة واستطاعت أن تحتفظ ببعض عظمتها حتى فتحها فرناندو الثالث سنة ١٢٣٦/٦٣٣، فهجرها عدد كبير من سكانها المسلمين واستبدلهم فرناندو بسكان آخرين من النصارى، وحوّل مسجدها الجامع الكبير إلى كنيسة كبرى.

من أهم أعلام قرطبة ابن حزم الظاهري صاحب المحلّى، وقد ذكره ابن العربي بالخير ولكنه نفى عن نفسه أنه قد تأثر به كما ذكرنا من قبل، بالإضافة إلى عدد كبير من الشعراء والعلماء منهم ابن عبد ربّه صاحب كتاب العقد الفريد، وابن زيدون الشاعر المجيد، وأبو عبد الله بن أحمد الأنصاري القرطبي صاحب التفسير المشهور "الجامع لأحكام القرآن"، وعيسى بن دينار فقيه الأندلس، وأبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي زعيم الفقهاء في الأندلس والمغرب والذي كان له الأثر العظيم في نهضة أوربا وقد التقى به ابن العربي عندما كان شابا في أول الطريق كما سنرى بعد قليل.

زيارات ابن العربي لقرطبة

مما لا شك أن ابن العربي قد زار قرطبة عدة مرات غير أنه من الصعب تحديد تواريخ هذه الزيارات. وبما أن والد ابن العربي كان من رجال السلطان في إشبيلية، فيبدو أنه كان يقوم بمهمّات مختلفة

[٢٢٩] الفتوحات المكية: ج١ص٢٧٤، وانظر كذلك: ج١ص٣٠٦.

في البلدان التابعة لها ومنها قرطبة، وربما كان ابن العربي يرافقه منذ صغره حيث نجد أن لقرطبة مكانة رفيعة في نفسه وله فيها ذكريات وتجليات كثيرة نذكر بعضها فيما يلي.

أقطاب الأمم السابقة

ففي قرطبة حصل للشيخ محيي الدين مشهد برزخي رأى فيه جماعة من أقطاب الأمم السابقة وعرفهم بأسمائهم العربية، أي بمعنى أسمائهم باللغة العربية:

> وأما أقطاب الأمم المكملين في غير هذه الأمة ممن تقدمنا بالزمان فجماعة ذُكرت لي أسماؤهم باللسان العربي لمّا أشهدتهم ورأيتهم في حضرة برزخية وأنا بمدينة قرطبة في مشهد أقدس، فكان منهم: المفرق، ومداوي الكلوم، والبكّاء، والمرتفع، والشفاء، والماحق، والعاقب، والمنحور، وشجر الماء، وعنصر الحياة، والشريد، والراجع، والصانع، والطيار، والسالم، والخليفة، والمقسوم، والحي، والرامي، والواسع، والبحر، والملصق، والهادي، والمصلح، والباقي. فهؤلاء المكمّلون الذين سُمّوا لنا من آدم عليه السلام إلى زمان محمد صلّى الله عليه وسلّم."[240]

وربما كان من هذا المشهد وأمثاله أن كتب الشيخ محيي الدين ما كتبه عن مثل هؤلاء الأقطاب السابقين في كتابه الشهير "العبادلة" الذي سنتكلّم عنه في الفصل السادس.

أنوار الرياح

وفي قرطبة أيضاً حصل للشيخ محيي الدين مشهد برزخي آخر رأى فيه أنوار الرياح، وهي، كما يقول الشيخ، أنوارٌ عنصرية أخفاها شدة ظهورها فغشيت الأبصارُ عن إدراكها وما شاهدها الشيخ إلا في الحضرة البرزخية، ثم يقول إن الله قد أتحفه برؤيتها حساً بمدينة قرطبة يوماً واحداً اختصاصاً إلهياً وورثاً نبوياً محمدياً. وهذه الأنوار الرياحية لها سلطان وقوة على جميع بني آدم إلا أهل الله فإن هذه الأنوار تندرج في أنوارهم اندراج أنوار الكواكب في نور الشمس وذلك لضعف نور البصر. وإذا غشيت هذه الأنوار من شاء الله من العامّة لا تغشاه إلا كالسحاب المظلم وإذا غشيت أهل الله لا تغشاهم إلا وهي أنوارٌ على هيئتها."[241]

ولعلّ هذه الأنوار التي يتكلّم عنها الشيخ محيي الدين هنا هي ما يتناقله بعض العلماء الذين يدرسون ما أصبح يعرف الآن بعلم الباراسيكولوجيا وهي علم ما وراء النفس حيث يدّعي بعضهم أنه يمكن أن يرى هالة حول الجسم وخاصة الرأس يكون لها شكل ولون معيّن يتعلّق بالحالة النفسية والروحية لهذا الشخص.

---

[240] الفتوحات المكية: ج١ص١٥١.

[241] الفتوحات المكية: ج٢ص٤٨٨.

لقاؤه مع ابن رشد (~ ١١٨٤/٥٨٠)

عندما سمع ابن رشد بمنزلة محمد وعلومه وما فتح الله به عليه في خلوته تعجّب كثيرا وطلب من والده أن يأتيه به وكان حينئذ قاضي قرطبة وأبو محمد كان من أصدقائه المقربين. ولما كان محمد في ذلك الوقت معتزلا عن الناس ولا يدخل نفسه في الجدالات الفقهية والفلسفية التي كانت شائعة بين العلماء، فقد احتال عليه أبوه حتى يرتّب لقاءه مع ابن رشد فأرسله إليه بحاجة مصطنعة. ولكن محمدا الذي كان ما يزال بعدُ صبيا ما بقَل وجهُه ولا طرّ شاربه لم يكن ليرفض طلباً لأبيه، مع أنه عرف سبب الزيارة. فلمّا دخل على القاضي أبي الوليد بن رشد قام أبو الوليد من مكانه محبّة وإعظاما لمحمّد فعانقه وقال متسائلاً: "نعم؟" فردّ محمد قائلا: "نعم!". فزاد فرحه به لفهمه عنه. ولكن محمدا لما استشعر ما أفرح القاضي قال له مستطرداً: "لا!". فانقبض أبو الوليد وتغيّر لونه وشك فيما عنده من العلم. ثم سأله: "كيف وجدتم الأمر في الكشف والفيض الإلهيّ هل هو ما أعطاه لنا النظر؟" فأجاب محمد: "نعم ... لا، وبين 'نعم' و'لا' تطير الأرواح من موادّها والأعناق من أجسادها". فاصفرّ لون ابن رشد وأخذه الأفكل"[242] وقعد وهو يقول لا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم، بعد أن عرف ما أشار به إليه محمد.

ومع أننا لا نعلم بالتحديد متى كان هذا اللقاء بين ابن العربي وابن رشد، ولكن أغلب الظن أنه تم خلال سنة ١١٨٤/٥٨٠ أو بعدها بقليل، فلا بدّ أن يكون بعد دخول الشيخ محيي الدين لطريق التصوف، رغم أن بعض الباحثين يُرجع ذلك إلى ما قبل سنة ١١٨٤/٥٨٠، وربما في حدود سنة ١١٨٢/٥٧٨، كما ذكرنا في الفصل الأول.

ويبدو أن ما أشار به الشيخ الأكبر للقاضي ابن رشد بهذه العبارات الرمزيّة المختصرة ينبع من العبارة التي قالها له قبل ذلك شيخُه يوسف الكومي كما ذكرنا أعلاه والتي يعتمد عليها ابن العربي بشكل كبير في تأسيس رؤيته للخلق وعلاقتهم مع الخالق سبحانه. وهذه الرؤية هي التي تُعرف باسم الخيال الخلّاق أو أن الخلق موجودٌ في عالم البرزخ يتأرجحون بين الوجود الحقّ والعدم المحض. وهذا بالتحديد معنى جواب ابن العربي لابن رشد بكلمة نعم ولا، وأن بين 'نعم' و'لا' تطير الأرواح من أجسادها. ويقول الشيخ الأكبر في مكان آخر أن أساس هذه الرؤية هو قول الله تعالى في سورة ق: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝﴾، أي أن الناس في لبس، أي في غطاء أو حجاب، من الخلق الجديد الذي يدور في العالم. فالله لم يخلق السموات والأرض في ستة أيام مرة واحدة وانتهى، وإنما هذا الخلق هو على الحقيقة مستمر في كل لحظة، وأن المقصود بالأيام هنا هو الجهات الستة للمكان، فبعد أن يُتمّ الله خلق العالم في ستة أيام، أي في ستة جهات، لا يتعب كما يصفه بذلك اليهود، وإنما يستوي على العرش ليعيد الخلق من جديد في كل لحظة، وبين اللحظتين يفنى العالم ويعود للوجود من جديد ونحن في لبس من هذا الخلق الجديد، لا ندركه

---

[242] الأفكل هو الرعدة أو الرعشة التي تصيب المرء عند البرد أو الخوف.

لأن الله سبحانه وتعالى يقول في سورة الكهف: (مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴿٥١﴾).

باختصار فإن معنى سؤال ابن رشد أنه كان يسأله فيما إذا كانت القوانين والرؤية الفلسفية التي خلص إليها الحكماء تتفق مع رؤية أهل الكشف. فكان جواب ابن عربي هو نعم ولا بنفس الوقت لأنها صحيحة في حال وجود العالم كما نشهده ولكنها غير صحيحة على الإطلاق لأن العالم لا يستمرّ على هذا الوجود. وبالتالي فإنّ هذا الكلام ينسف نظرية السببيّة من أساسها. ففي الحقيقة ليس هناك قانون في العالَم بل هناك خلق متعلّق فقط بإرادة الله تعالى، وإنما قوانين العالم هي قوانين وضعية قد تستطيع أن تفسّر ما مضى ولكنّ تنبّؤها لما سيأتي هو ضرب في الغيب وإن صحّ، لأن ما يأتي يتعلّق فقط بإرادة الله تعالى ولو أنه عادة ما يخلقه وفق ما وضعه من قوانين في الطبيعة. وقد ناقشت هذه المسألة بالتفصيل في رسالة الدكتوراه التي بدأت بإعادة صياغتها باللغة العربية وستُنشر قريبا إن شاء الله تعالى.

ثم يقول الشيخ محيي الدين بعد ذلك أن ابن رشد طلب بعد ذلك من أبيه الاجتماع بالشيخ محيي الدين ليعرض ما عنده عليه هل هو يوافق أو يخالف العلم الكشفي الذي جاء به الشيخ الأكبر رغم اختلاف منهجه بشكل كلي فإنه كان من أرباب الفكر والنظر العقلي في حين أن الشيخ محيي الدين لم يكن مفكراً أو فيلسوفاً. فيقول الشيخ محيي الدين أن ابن رشد كان يشكر الله تعالى أنه كان في زمان رأى فيه من دخل خلوته جاهلاً وخرج مثل هذا الخروج من غير درس ولا بحث ولا مطالعة ولا قراءة، وقال: هذه حالة أثبتناها وما رأينا لها أرباباً، فالحمد لله الذي أنا في زمان فيه واحدٌ من أربابها الفاتحين مغاليق أبوابها، والحمد لله الذي خصني برؤيته.

ثم بعد ذلك أراد الشيخ محيي الدين الاجتماع بابن رشد مرة ثانية فأقيم له في الواقعة في صورة ضُرب بينهما فيها حجاب رقيق ينظر الشيخ الأكبر إليه منه وهو لا يبصره ولا يعرف مكانه، وكان قد شُغل بنفسه عن الشيخ محيي الدين، فأدرك الشيخ محيي الدين أن ابن رشد غير مُراد لما هم عليه أهل التصوف، فما تم الاجتماع بينهما إلى أن مات ابن رشد سنة خمس وتسعين وخمسمائة بمدينة مراكش ونُقل جثمانه إلى قرطبة وقُبر بها كما ذكرنا في آخر الفصل الأول، وكما سنتكلم عن ذلك أيضاً في الفصل الثالث.[٢٤٣]

بداية البشرى (قرطبة، ٥٨٦/١١٩٠)

لقد ذكرنا أعلاه أن الشيخ محيي الدين قد رأى جميع الرسل والأنبياء من آدم إلى محمد عليهم الصلاة والسلام، كما ذكر في الفتوحات المكية. وفي فصوص الحكم يبيّن الشيخ الأكبر أن هذه الرؤيا كانت في قرطبة سنة ٥٨٦/١١٩٠، حيث يقول: "واعلم أنه لمّا أطلعني الحق وأشهدني أعيانَ رسلِهِ عليهم السلام وأنبيائه كلّهم من البشريّين، من آدم إلى محمد صلى الله عليهم وسلم أجمعين، في مشهد أقمتُ فيه بقرطبة

[243] الفتوحات المكية: ج١ص٥٤.

سنة ستٍ وثمانين وخمسمائة، ما كلّمني أحدٌ من تلك الطائفة إلا هودٌ عليه السلام، فإنه أخبرني بسبب جمعيّتهم."[244] وفي مكان آخر يقول الشيخ محيي الدين أنه اجتمع بالأنبياء والرسل مرتين كما ذكرنا أعلاه.

فماذا كان يا ترى سبب جمعيّتهم؟ وما هو دور ابن العربي رضي الله عنه في هذه الجمعية؟ سوف نجد في آخر هذا الفصل أن الشيخ محيي الدين يعطي المزيد من التفصيل عن هذه الرؤيا أن هذا الاجتماع كان عيادة للشيخ أبي محمد مخلوف القباني الذي كان قد مرض المرض الذي سيموت فيه، ولكن -كما توضّح كلوديا عداس في البحث عن الكبريت الأحمر- أن هذا كان ربما أحد الأسباب ولم يكن السبب الرئيسي. أما السبب الرئيسي الذي لا يبوح به ابن العربي هنا فقد تناقله تلاميذه المقربين جيلا بعد جيل كما وضحت الدراسات المختلفة من خلال كتبهم والشروحات التي قدموها على فصوص الحكم، حيث يذكر مؤيّد الدين الجندي، وهو من أحد تلاميذ الشيخ محيي الدين كما سنذكره في الفصل السابع، في شرحه على فصوص الحكم نقلا عن أستاذه صدر الدين القونوي الذي تبناه ابن العربي أن الشيخ محيي الدين قد أخبر أنه سيكون خاتم الأولياء المحمديين في نهاية خلوة دامت تسعة أشهر،"[245] ولا شك هي الخلوة التي قام بها الشيخ محيي الدين في قرطبة سنة ٥٨٦. ويؤكد مثل هذا الخبر أيضاً عدد من التلاميذ الآخرين لابن العربي مثل عبد الرزاق القيشاني (توفي ١٣٣٠/٧٣٠) وداود القيصري (توفي ١٣٥٠/٧٥١) أن رؤية ابن العربي لاجتماع الأنبياء والرسل قد كان من أجل ترشيحه إلى منصب خاتم الولاية المحمّدية."[246]

وسوف نرى لاحقا أن البشارات سوف تتوالى بهذا الصدد إلى أن تتوّج في مكّة حين يبلغ الشيخ محيي الدين سنّ "الرشد" الحقيقي حين يصبح عمره أربعين سنة.

قطب المتوكلين الشيخ عبد الله بن الأستاذ الموروري

يبدو أن ابن العربي قد بدأ رحلاته الاستطلاعية الداخلية، وراء إشبيلية وقرطبة، بمدينة مورور، وهي مدينة صغيرة تقع إلى الشرق من إشبيلية على مسافة بينها وبين رندة. وكان سبب سفره هذا أنه أراد أن يتقن مقام التوكل، فبحث عن منبعه، فأطلعه الله تعالى على قطب المتوكّلين فرأى التوكّل يدور عليه كأنه الرحى حين تدور على قطبها وهو عبد الله بن الأستاذ الموروري الذي كان قطب التوكّل في زمانه، فلما اجتمع به وصحبه عرّفه بذلك فتبسم وشكر الله تعالى."[247]

ولا شك أن عبد الله قد أعجب بالشيخ الأكبر وعلم قدره وعلو علمه ومعرفته، وربما هذا ما دعاه لاحقا لزيارته في إشبيلية حتى يتعلم منه معرفة الله سبحانه وتعالى، وذلك أنه كان له أخ مات فرآه في المنام، فقال له: ما فعل الله بك؟ فقال له: أدخلني الجنّة آكل وأشرب وأنكح. قال له: ليس عن هذا أسألك! هل

---

[244] فصوص الحكم: ص١١٠.

[245] مؤيد الدين الجندي، شرح فصوص الحكم: ص١٠٩. انظر أيضاً في "البحث عن الكبريت الأحمر": ص٩٢.

[246] عبد الرزاق القيشاني، شرح فصوص الحكم: ص١٣٠. انظر أيضاً في "البحث عن الكبريت الأحمر": ص٧٦.

[247] الفتوحات المكية: ج٤ص٧٦.

رأيت ربك؟ قال: لا يراه إلا من يعرفه. فلما استيقظ ركب دابته وجاء إلى الشيخ محيي الدين في إشبيلية وعرّفه بالرؤيا وقال له قد قصدتك لتعرّفني بالله. فلازمه حتى عرف الله بالقدر الذي يمكن للمحدث أن يعرفه به من طريق الكشف والشهود لا من طريق الأدلة النظرية."[٢٤٨]

بعض صفاته

وقد روى الشيخ محيي الدين الكثير من أخبار الشيخ الموروري وصفاته في رسالة روح القدس، وكذلك في كتاب محاضرة الأبرار: فالشيخ أبو محمد عبد الله الموروري كان من تلاميذ أبي مدين الذي كان يسميه الحاج المبرور وقد حج وصاحب في مكة أبا عبد الله بن حسان الذي طلب منه أن يتزوّج ابنته رغبة فيه فأبى عبد الله أن يأخذها مخافة أن لا يقوم بحقها. وكان الشيخ أبو مدين يحبه جدا؛ قال له يوما يا أبا عبد الله كَبُر علي دعائي الناس إلى الله ولا يجيب أحد وأريد أن أصطفيك لنفسي وتخرج معي إلى بعض هذه الجبال فألزم مغارة تصحبني فيها إلى أن أموت ففرح عبد الله بذلك وعلم أن له عند الله مكانا. ولما كان الليل رأى عبد الله الشيخ أبا مدين في النوم إذا تكلم مع الناس صار شمسا وإذا سكت صار قمرا فروى له ذلك في الصباح فتبسم وقال له الحمد لله يا ولدي أريد أن أكون شمساً فإن الشمس تنفي كل ظلمة وتكشف كل كربة.

وكان عبد الله الموروري له همة فعالة وصدق عجيب، سافر من عند الشيخ أبي مدين إلى الأندلس بسبب والدته فأودعه الشيخ أبو مدين سلامه إلى أبي عبد الله الشيخ المسن بمدينة المرية المعروف بالغزّال من أصحاب ابن العرّيف من أقران أبي مدين وأبي الربيع الكفيف الذي كان بمصر وعبد الرحيم الذي كان بقنا وأبي النجا[٢٤٩] الذي كان بجزيرة الذهب رحمهم الله تعالى، فلما وصل عبد الله إلى المرية[٢٥٠] قصد إلى الشيخ أبي عبد الله فوجد أصحابه قعودا فقال لهم استأذنوا لي على الشيخ. فقالوا الشيخ نائم في هذه الساعة ولم يُقبلوا عليه فعزّ عليه ما هم فيه من كثافة الحجاب حيث لم يعرفوه فقال لهم إن كنت جئت إليه في الله فإنه يوقظه الساعة، فإذا الباب فتح والشيخ قد خرج يمسح النوم عن عينه فقال أين هذا الذي جاء فسلم عليه وأكرم نزله. وكان الغالب على أبي محمد البسط وكان أصحاب الشيخ مقبوضين فعندما ودعهم وانصرف قال له أصحاب الشيخ لو انقبضت يا أبا محمد من هذا البسط الذي أنت فيه فقال لهم ما هو البسط؟ فقالوا رحمة. قال وما هو القبض؟ قالوا عذاب. فقال اللهم لا تنقلني من رحمتك إلى عذابك. فخجلوا وانصرف عنهم.

---

[٢٤٨] الفتوحات المكية: ج٤ص٥١٠.

[٢٤٩] أبو النجا سالم الفوي المغربي توفي سنة ٥٣٢ للهجرة، رحل إلى الموصل والتقى بقضيب البان المشهور. ذكره الملق في طبقات الأولياء وذكر له بعض الكرامات؛ قال: "كنت في بدايتي، ما سمعت عن أحد من الرجال أنه عمل عملاً إلا عملته؛ حتى ذكرت الملائكة، وأن غذاءهم التسبيح، فأقمت مدة أتغذى بالذكر، وأشبع منه، كما أشبع بالطعام". وقال أيضاً: "وكنت مرة على جبل الربوة -بدمشق- فقلت: يا رب! الذي تطيّره في الهواء، كيف يفعل! فما فرغت من الكلام إلا وأخذني ورفعني في الهواء، صوب السماء، إلى أن صارت دمشق تحتي كدور الدرهم؛ قلت: أشهد إنك على كل شيء قديراً، ردني إلى موضعي!"

[٢٥٠] الحميري، "الروض المعطار": ص٥٣٧.

بائع الخس

ويذكر الشيخ محيي الدين في كتاب محاضرة الأبرار أنه كان مع عبد الله الموروري عند باب الفتح من باب إشبيلية، فسمع بائع خس من العامة وهو ينادي: الخاص رطب أبيض. فتأوّه عبد الله الموروري وأخذته حالة وقال للشيخ محيي الدين: يا أخي أما تسمع ما يقول هذا البائع؟ "الخاص من عباد الله لسانه رطب من ذكر الله وقلبه أبيض من نور الله"![٢٥١]

الأكل بالإنابة

ومن أخباره رضي الله عنه أنه لما وصل إلى غرناطة نزل عند الشيخ أبي مروان وكان قد عرفه عند أبي مدين وقد رأى أبو مروان عند الشيخ أبي مدين في حق رجل مرض منهم فأخذوا عنه مرضه وحملوه فاستراح من حينه، فأخبر أصحابه بغرناطة فلما وصل شيخنا عبد الله الموروري إليها، قال أبو مروان والناس قد اجتمعوا من أجله في الدار وقد جُعلت بين أيديهم مائدة وعليها مجبّنات بعسل وكان ابن صاحب الدار قد مشى في السَحَر إلى قرية له قريبة من البلد، فتأسّف أهل المجلس لمّا لم يحضر معهم الطعام ابن صاحب الدار. فقال لهم أبو محمد الموروري بعدما أكل وشبع وأكل الناس: إن شئتم أكلت عنه هنا ويشبع هو في قريته من هذا الطعام بعينه؟ فارتابوا من كلامه في باطنهم وظاهرهم تخيل ذلك جملة؛ فقال له أبو مروان بالله يا أبا محمد افعل ذلك. فقال بسم الله وابتدأ يأكل كأنه ما أكل شيئاً حتى وقف وقال قد شبع وإن زدت عليه أكثر من ذلك يهلك، فبُهتَ أهل المجلس وعزموا أن لا يبرح أحدٌ منهم حتى يصل ذلك الرجل الذي أكل عنه. فلما كان عشيّة ذلك اليوم دخل عليهم من القرية فقاموا إليه وأنزلوه وقالوا نراك جئت بزادك الذي حملته معك ما أكلت منه شيئا! فقال لهم يا إخوتي اتفق لي اليوم شيء عجيب أنا عندما وصلت إلى القرية وقعدت فإذا أنا أحس بمجبّنات بعسل تنزل في حلقي فتستقر في معدتي حتى شبعت ولو زادت عليّ أهلكتني، وأنا حتى الآن شابع منها أتجشأها. فتعجب القوم وفرحوا أن رأوا رجلا أخبرهم بالمسألة كيف وجدت. أخبر الشيخَ محيي الدين بذلك في دار عبد الله الشكاز الباغي الشخص الذي أكل عنه فشبع وكان معه صاحبه عبد الله بدر الحبشي مع جماعة يذكرون الموروري ويقولون من مثل عبد الله الموروري ما رأينا مثله.

كتاب التدبيرات الإلهية (مورور)

وعندما كان الشيخ رضي الله عنه في مورور رأى عند الشيخ عبد الله الموروري كتاب سرّ الأسرار[٢٥٢]

---

[251] محاضرة الأبرار: ج١ص٤٧٧.

[252] كتاب سرّ الأسرار لأرسطوطاليس، ألفه لتلميذه الملك الأعظم الإسكندر المعروف بذي القرنين، وقد اشتمل على وصايا وفوائد عظيمة استفاد منها الإسكندر في فتح العديد من البلدان والسيطرة عليها. وقد ذكر أرسطو في هذا الكتاب أصناف الملوك وحالة الملك وهيئته، وكيف يجب أن يكون مأخذه في خاصة نفسه في جميع أحواله وتدابيره. وفي صورة العدل الذي يكمل به الملك وتُساس به الخاصة

للحكيم أرسطو وهو الذي ألفه لذي القرنين لما ضعف أرسطو عن المشي معه، فقال له عبد الله: هذا المؤلف قد نظر في تدبير هذه المملكة الدنيوية، فكنت أريد منك أن تقابله بسياسة المملكة الإنسانية التي فيها سعادتنا. فلبى الشيخ الأكبر طلبه وألف كتاب التدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية، وربما يكون هو أول كتاب ألفه رضي الله عنه، وقد أتمه في أقل من أربعة أيام وهو عند الشيخ أبي محمد عبد الله الموروري في مدينة مورور، ويبلغ هذا الكتاب ثلاثة أو أربعة أضعاف حجم كتاب سر الأسرار، ويقول عنه الشيخ رضي الله عنه أنه كتاب ينتفع به خادم الملوك في خدمته وصاحب طريق الآخرة في نفسه."[٢٥٣]

ولكن يبدو أن الشيخ محيي الدين قد أعجب بكتاب سر الأسرار وأوقفته بعض أفكاره، فنجده ينقل عنه في محاضرة الأبرار فيقول:

وقفت في كتاب سر الأسرار لأرسطو على دائرة اصطنعها للاسكندر يوصيه فيها، تتضمن: العالم بستانٌ سياجُه الدولة-الدولة سلطانٌ يحجبه السنّة-السنّة سياسةٌ يسوسها الملك-الملك راعٍ يعضده الجيش-الجيش أعوانٌ يكفلهم المال-المال رزق تجمعه الرعيّة-الرعيّة عبيد يعبّدهم العدل-العدل مألوفٌ فيه صلاح العالم-ويتصل هذا الكلام بأوله في الدائرة.[٢٥٤] وهذه صورة هذه النصيحة:



مرشانة الزيتون

وأثناء سفره بين إشبيلية ومورور مرّ الشيخ الأكبر بمرشانة الزيتون، وربما كان بصحبة الشيخ عبد الله الموروري الذي ربما رجع معه إلى إشبيلية كما سنرى بعد قليل، حيث اجتمعوا عند شمس أم الفقراء.

والعامة، وفي كتّاب السجلات ومراتبهم، وفي سفرائهم ورسلهم وهيئاتهم ووجه السياسة في تعيينهم، وفي سياسة قوادة والأساورة من أجناده ومن دونهم ومن طبقاتهم، وفي سياسة الحروب. ثم تحدث في خواص الظلمات وأسرار النجوم واستمالة النفوس وخواص الأحجار والنبات. ولقد طبع هذا الكتاب مؤخراً عدة طبعات، منها: سر الأسرار أو السياسة والفراسة في تدبير الرئاسة ويليه رسالة الإسكندر الى أرسطاطاليس، تأليف الحكيم أرسطاطاليس وترجمة يوحنا بن البطريق، تحقيق أحمد فريد المزيدي، الناشر: دار الكتب العلمية-بيروت، ٢٠٠٤.

[٢٥٣] التدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية، ضمن مجموعة "إنشاء الدوائر"، مكتبة الثقافة الدينية-مصر، د.ت.، ص٧٥.

[٢٥٤] محاضرة الأبرار: ج٢ص٥٢-٥٣.

شمس أم الفقراء

وشمس أم الفقراء اسمها ياسمين وكانت من الأولياء الأوّاهين. وكانت أيضاً مسنّة مثل فاطمة القرطبية. ويقول الشيخ محيي الدين أن الله تعالى قد تولّى هذا الصنف من الأولياء بالتأوّه ممّا يجدونه في صدورهم من ردّهم لقصورهم عن عين الكمال والنفوذ، ويكون ذلك عن وجود أو عن وجود وجد على مفقود.[255]

الفعل بالهمة مرة أخرى

فحينما جاؤوا إلى مرشانة الزيتون كان لا بدّ أن يزوروا شمس أم الفقراء التي كان لهم معها قصة توضح قدرة الشيخ عبد الله الموروري على الفعل بالهمّة. وكما ذكرنا في الفصل السابق عن الشيخ محمد الخيّاط أنّه كان يفعل بالهمّة، فكذلك ذكر الشيخ محيي الدين في روح القدس وفي الفتوحات المكية عن الموروري أنه كان يفعل بالهمّة، حيث كانوا عند شمس أم الفقراء بمرشانة الزيتون في يوم أربعاء فقالت العجوز تمنّيت أن يأتينا غداً عبد الله بن قيطون فاكتبوا إليه عسى يصل غداً وكان في بلد قرمونة بينهما سبعة فراسخ وكان أبو الحسن (عبد الله بن قيطون) هذا يعلّم الصبيان القرآن بقرمونة ويعطل الخميس والجمعة. فلما قالت أم الفقراء ذلك قال أبو محمد الموروري: هكذا تعمل العامة! فقالت له العجوز فما تفعل أنت؟ قال: أسوقه بهمّتي. فقالت: افعل. فقال الموروري: قد حركت الساعة خاطره بالوصول إلينا غدا إن شاء الله تعالى. فلما أصبحت قالت له: تراه ما جاء! قال: غفلت عنه ولكني أخرجه لكم الساعة. فأرسل همته إليه فلمّا كان قُبيل الظهر دخل عليهم على غفلة أبو الحسن بن قيطون، فتعجبوا من ذلك. فقال الموروري: سلوه ما الذي أمسكك عنا إلى هذا الوقت، وكيف خطر لك ومتى نويت الوصول إلينا؟ فقال: أمس العصر وجدت في باطني قائلا يقول مُرّ غدا إلى العجوز بمرشانة، فقلت لصبيان المكتب لا يجيء أحدٌ منكم غداً. فلمّا أصبحتُ فتر عني ذلك، فوجهت إلى الصبيان ووصلوا وأخذوا ألواحهم ليكتبوا؛ فبينما أنا كذلك إذ وجدت قلبي قد انقبض وشدّ عليه وقيل لي أخرج الساعة إلى مرشانة إلى زيارة العجوز. فقلت للصبيان سيروا إلى منازلكم. وهو كان خروجي إليكم فهذا الذي أبطأني. فيقول الشيخ محيي الدين أنه لما ذكروا له ما حصل ووصفوا له الحال تعجب وقال هذا والله العظيم كان.

مصاحبة فقهاء الدنيا

ثمّ إن الشيخ محيي الدين يروي أنه بعد هذه الحادثة كان أبو الحسن ينظر بعين التعظيم للشيخ الموروري وأمثاله من أهل الله. فبعد ذلك رحل إلى المرية إلى شيخ كان بها يقال له أبو عبد الله الغزّال وهو من أصحاب ابن العرّيف من أقران أبي الربيع الكفيف وأبي النجا وعبد الرحيم وهذه الطبقة. فرآه وانتفع به

---

[255] الفتوحات المكية: ج٢ص٣٥.

ثم عاد إلى قرمونة فلم يزل يخدم الفقراء ويضيفهم ويتواضع لهم وكان الشيخ محيي الدين يستحسن منه ذلك.

ولكن يقول الشيخ محيي الدين أن أبا الحسن لمّا وصل إلى إشبيلية وصاحب الفقهاء وجالس الطلبة المكبّين على الدنيا وقرأ الفقه وأصوله وعلم الكلام وسكن إشبيلية وكان يعلّم بها القرآن، فأدّاه صحبة أولئك إلى تجهيل الفقراء الصادقين في أحوالهم ونبذهم. ومن أجل ذلك كان الشيخ محيي الدين يذمّ الفقهاء ليس من أجل أنهم فقهاء أو لنقلهم الفقه لأن شرف الفقه وعلم الشرع لا خفاء به ولكنه كان يذم من الفقهاء الصنف الذي تكالب على الدنيا وطلب الفقه للرياء والسمعة وابتغى به نظر الناس ليقال عنه ويُمدح،[256] ولازم المِراء والجدال وأخذ يردّ على أبناء الآخرة الذين اتقوا الله فعلّمهم من لدنه علما: فأخذ هذا الصنف من الفقهاء في الردّ عليهم في علم لا يعلمونه ولا عرفوا أصوله ولو سئلوا عن شرح لفظة مما اصطلح عليه علماء الآخرة ما عرفوها وكفى بهم جهلا.

فيروي الشيخ محيي الدين أنه بعد ذلك وصل عبد الله الموروري إلى الشيخ محيي الدين في إشبيلية فأرادوا أن يزوروا أبا الحسن في داره فقرع عليه الباب وكان معهم عبد الله بدر الحبشي، فلما قرعوا الباب على أبي الحسن قال مَن بالباب؟ فقال عبد الله الموروري جاء ليزورك. فسكت ساعة ثم خرج إليه ابنه وقال له هو مشغول، ثم قال له ما هو هنا. وهكذا انتهى بغضه في الفقراء من شؤم الفقهاء. ثم بعد ذلك كان أبو الحسن هذا كلما لقي الشيخ محيي الدين يعاتبه على صحبتهم ويقول له مثلك من يصحبهم! فيقول له الشيخ محيي الدين: مثلي لا يصلح أن يخدمهم فإنهم السادة.[257]

صاحبه عبد المجيد بن سلمة

وفي مرشانة زار الشيخ الأكبر خطيبها عبد المجيد بن سلمة وهو صديقه وأخوه في الله، كما يسميه الشيخ، ويقول عنه أنه من أهل الجدّ والاجتهاد. ومن القصص الغريبة التي أخبره بها عبد المجيد أنه كان بمنزله ليلة من الليالي فقام إلى حزبه من الليل فبينما هو واقف في مصلاّه وباب الدار وباب البيت مغلق، وإذا بشخص قد دخل عليه وسلم وما يدري كيف دخل فجزع منه وأوجز في صلاته، فلما سلّم قال له الشخص: يا عبد المجيد من تأنّس بالله لم يجزع! ثم نفض الثوب الذي كان تحته يصلي عليه ورمى به وبسط تحته حصيراً صغيراً كان عنده وقال له: صل على هذا. ثم يروي عبد المجدي أن هذا الشخص أخذنه وخرج به من الدار ثم من البلد ومشى به في أرض لا يعرفها ولا يدري أين هو من أرض الله تعالى، فذكروا الله تعالى في تلك

---

[256] ورد في الحديث عن النبي صلّى الله عليه وسلّم أنه قال: "إن أول الناس يدخل النار يوم القيامة ثلاثة نفر: يؤتى بالرجل فيقول: رب علمتني الكتاب فقرأته آناء الليل والنهار رجاء ثوابك. فيقال: كذبت. إنما كنت تصلي ليقال: إنك قارئ مصل، وقد قيل. اذهبوا به إلى النار. ثم يؤتى بآخر، فيقول: رب رزقتني مالا فوصلت به الرحم، وتصدقت به على المساكين، وحملت به ابن السبيل رجاء ثوابك وجنتك. فيقال: كذبت إنما كنت تتصدق وتصلي ليقال: إنه سمح جواد، وقيل. اذهبوا به إلى النار. ثم يجاء بالثالث فيقول: رب خرجت في سبيلك، فقاتلت فيك حتى قتلت مقبلا غير مدبر، رجاء ثوابك وجنتك. فيقال: كذبت. إنما كنت تقاتل ليقال: إنك جريء شجاع وقد قيل. اذهبوا به إلى النار". انظر كنز العمال: رقم ٧٥١٦.

[257] روح القدس: ص٦٣–٦٨.

الأماكن ثم ردّه إلى بيته حيث كان. فسأله عبد المجيد: يا أخي بماذا يكون الأبدال أبدالاً؟ فقال له: بالأربعة التي ذكرها أبو طالب في القوت، وسمّاها له وهي: الجوع والسهر والصمت والعزلة قلباً. ويقول الشيخ الأكبر أن هذا الرجل كان من أكابر أهل الله تعالى ويقال له معاذ بن أشرف الرندي،[258] وهو في الحقيقة من أصحاب ابن العربي كما سنذكره في آخر هذا الفصل أدناه.

كتاب المدينة الفاضلة

ووفي مرشانة أيضاً رأى الشيخ شخصا معه كتاب المدينة الفاضلة[259] ولم يكن قد رآه من قبل ذلك فأخذه من يده وفتحه ليرى ما فيه، فأول شيء وقعت عينه عليه قوله: وأنا أريد في هذا الفصل أن ننظر كيف نضع إلهاً في العالم، ولم يقل الله! فتعجب الشيخ من ذلك ورمى بالكتاب إلى صاحبه ولم يقف بعد ذلك على هذا الكتاب، كما يقول رضي الله عنه، وقد نعت مؤلِّفه بأنه من بعض أهل الكفر.[260]

أطلال مدينة الزهراء

مدينة الزهراء هي المدينة الأندلسية الملكية المشهورة، قام ببنائها الخليفة الأموي عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر في القرن العاشر الميلادي سنة ٣٢٥ للهجرة، وقام بتزيينها وتنميقها وإتقان قصورها وزخرفة مصانعها وتشييد مبانيها. وهي مزينة بالذهب والمرمر والرخام الذي جلب إليها من شتى الأنحاء، وكان فيها أحواض من الزئبق يمكن هزها لنشر أشعة من ضياء الشمس المنعكس عبر جدران وسقوف رخامية، وكانت الأبواب محفورة من العاج والأبنوس، وهي تقود إلى حدائق غنّاء واسعة تضم حيوانات وتماثيل غريبة مصنوعة من العنبر واللؤلؤ.

تقع مدينة الزهراء على بعد حوالي خمسة أميال شمال غرب قرطبة القديمة وتصلها بها طريق مرصوفة بالحجارة. اكتمل بناؤها عام ٩٧٥/٣٦٥ في عهد الحكم بن هشام، ثم خربت ونهبت بعد سقوط الخلافة الأموية. بقيت أطلال الزهراء تتخذ حتى مطلع القرن الماضي محاجر غنية تستخرج منها الأحجار والرخام ومواد البناء حتى تنبهت الحكومة الإسبانية إلى أهمية هذه المدينة الأثرية فأعلنتها أثراً قومياً ويجري الآن ترميمها ببطءٍ شديد.

مرّ الشيخ الأكبر بمدينة الزهراء بعد خرابها وصيرورتها مأوى الطير والوحش، وذكر أن بعض مشايخ قرطبة أخبره عن سبب بناء هذه المدينة أن الخليفة الناصر ماتت له سرية، وتركت مالاً كثيراً، فأمر أن يفك

---

[258] الباب ٥٣ من الفتوحات المكية (ج١ص٢٧٧-٢٧٨)، وانظر أيضاً كتاب روح القدس (ص٦٦-٦٧)، ومقدمة كتاب حلية الأبدال (في مجموعة رسائل ابن عربي، حيدرآباد) الذي خصصه الشيخ محيي الدين لتفصيل هذه الصفات الأربعة، والتي أيضاً ذكرها بالتفصيل في الباب ٥٣ من الفتوحات المكية.

[259] ربما هو الكتاب المشهور للفارابي (٢٥٧/٨٧٠-٣٣٩/٩٥٠) آراء أهل المدينة الفاضلة، تأليف أبو نصر الفارابي، تعليق ألبير نادر، دار المشرق-بيروت، ١٩٩١.

[260] الفتوحات المكية: ج٣ص١٧٨.

بذلك المال أسرى المسلمين، وطلب في بلاد الإفرنج أسيراً فلم يجد فشكر الله تعالى على ذلك، فقالت له جاريته الزهراء، وكان يحبها حباً شديداً: اشتهيت لو بنيت لي مدينة تسميها باسمي، وتكون خاصّة لي، فبناها تحت جبل العروس من قبلة الجبل، وشمال قرطبة، وبينها وبين قرطبة ثلاثة أميال أو نحو ذلك، وأتقن بناءها، وأحكم الصنعة فيها، وجعلها مستنزها ومسكناً للزهراء وحاشية أرباب دولته، ونقش صورتها على الباب، فلمّا قعدت الزهراء في مجلسها نظرت إلى بياض المدينة وحسنها في حجر الجبل الأسود، فقالت: يا سيّدي، ألا ترى إلى حسن هذه الجارية الحسناء في حجر ذلك الزنجي؟ فأمر بزوال ذلك الجبل، فقال بعض جلسائه: أعيذ أمير المؤمنين أن يخطر له ما يشين العقل سماعه، لو اجتمع الخلق ما أزالوه حفراً ولا قطعاً، ولا يزيله إلاّ من خلقه، فأمر بقطع شجره وغرسه تيناً ولوزاً، ولم يكن منظر أحسن منها، ولا سيّما في زمان الإزهار وتفتّح الأشجار، وهي بين الجبل والسهل."[261]

فعندما مرّ الشيخ بها قال أبياتاً تذكّر العاقل، وتنبّه الغافل، وقد ذكرنا هذه الأبيات في الفصل الأول.

التخلّق بالقيّومية والشيخ أبي عبد الله القبرفيقي

ولما ذاعت شهرته بدأ الشيوخ يقصدونه من كل حدب كلما صعبت عليهم مسألة، كما أنه هو أيضاً كان يجوب الآفاق بقصد تبيين المنهج الحق في دقائق الأمور، فقد زاره مرّة الشيخ أبو عبد الله القبرفيقي، وهي بلدة من أعمال رندة، وكان صوفيا ولكنه كان معتزليا لا يجيز التخلّق بالاسم القيّوم وكان يقول بخلق الأفعال.

فيقول الشيخ محيي الدين أن يتخيل من لا معرفة له بالحقائق أنها (أي القيومية) من خصائص الحق التي لا يمكن للخلق التخلّق بها في حين أنه لا فرق بينها وبين سائر الأسماء الإلهية كلّها في التخلّق بها على ما تعطيه حقيقة الخلق كما هي لله بحسب ما تعطيه ذاته تعالى وتقدّس.

فلما اجتمع مع الشيخ محيي الدين وناقشه في الأمر رجع إلى قول الشيخ محيي الدين الذي أبان له معنى قوله تعالى "الرجال قوّامون على النساء" حيث أثبت لهم درجة في القيّومية، فأقنعه الشيخ محيي الدين وجميع أصحابه فشكروا الله على ذلك."[262]

سياحته في الساحل ولقاؤه بالرندي (شذونة، ٥٨٩/١١٩٣)

بعد ذلك بدأ الشيخ محيي الدين رحلة جديدة إلى الساحل جنوبي غرب الأندلس بهدف الاجتماع برجال الله الذين عادة ما يسيحون في تلك المناطق الجبلية، وهناك التقى برجل مشهور من رجال الله اسمه أبو عبد الله محمد بن أشرف الرندي، وهو من الأبدال، وهو الذي ذكرناه أعلاه أنه دخل على عبد المجيد ابن سلمة في خلوته.

---

[261] محاضرة الأبرار: ج١ ص١٠٦.

[262] الفتوحات المكية: ج٢ص١٨٢، ج٤ص١٧٩.

ويروي الشيخ محيي الدين في "روح القدس" قصة لقائه بالشيخ ابن أشرف الرندي فيقول إنه خرج مرة من مدينة شذونة يريد الساحل، فتبعه شاب لا نبات بعارضيه يريد صحبته فأخذه معه. وفي الطريق وجد أمامه شخصان، الواحد أسمر طويل يقال له عبد السلام السائح يجول في الأرض لا يقرّ به قرار،[263] ومعه آخر يقال له محمد بن الحاج، وكانا يمشيان مشيا سريعا. ومع ذلك فقد لحقهما الشيخ محيي الدين وكان بينه وبينهما عدة أميال، فمرّ عليهما مستعجلا، وكان يوم جمعة، فأوى إلى قرية "روطة"[264] من أجل صلاة الجمعة. فدخل الشيخ محيي الدين إلى مسجد الجماعة وركع ركعتين، فلم يلبث أن جاء أبو عبد الله بن أشرف الرندي، فلما دخل قام إليه ذلك السائح عبد السلام وصاحبه فسلما عليه وعرفه، وكان الشيخ محيي الدين مضجعا في الجامع وهو يضرب بيده على صدره ويغني شعرا:

ضاحكٌ عن جُمانٍ سافرٌ عن بدرِ
ضاق عنه الزمانُ وحواه صدري

فجاء إليه الشيخ الرندي وقال له: أتريد أن تستر نفسك؟ فقال له ابن العربي: وكذلك تفعل أنت؟ فكان كذلك.[265]

ثم أقبل شيخ القرية إلى الشيخ محيي الدين ورغب أن يفطر عنده هو ومن شاء، فقال له ابن أشرف: لا تأكل من هذا الطعام شيئا واحمل جميع الفقراء فإذا أكلوا تأتي وتفطر معي. فكان ذلك.

فقال الشيخ محيي الدين إنه أقام معه ثلاثة أيام ووعده أن يلقاه بإشبيلية، وأخبره بأمور كثيرة وبكل ما يتفق له من بعد مفارقته فحصل كما قال حرفا بحرف.

وسوف نعود إلى قصة وعده بلقائه في إشبيلية في بداية الفصل الثالث، ولكن لنذكر هنا بعض صفات الشيخ الرندي كما ذكرها الشيخ محيي الدين، فيقول عنه أنه من الأبدال ويسميه شيخ الجبال والسواحل لأنه انقطع بالجبال والسواحل لا يأوي إلى معمور قرابة ثلاثين سنة. وكان قويَّ الفراسة، كثير البكاء، طويل القيام، دائم الصمت، كثيرا ما ينكت بأصبعه في الأرض مطرقا متفكرا، يرفع رأسه فيتنفس الصعداء ولصدره أزيز، شديد الوجد، غزير الدمعة. وكان له مرتبة عالية وعنده مال وافر خرج عنه. ويقول الشيخ محيي الدين أن سبب شهرته أنه كان كثيرا ما يقعد في جبل شامخ على مورور فمشى بعض الناس إليه لحاجة فرأى عمودا من نور يتشعشع ولا يستطيع النظر إليه فقصده فوجد ذلك النور صاحبنا أبا عبد الله وهو قائم يصلي فأشهره.

عاشره الشيخ محيي الدين زمانا وكان الرندي يفرح به ويستبشر حين يراه. سأله يوما بالساحل عن قوله تعالى: "لا أريد منهم من رزق" فلم يجبه الشيخ محيي الدين وتركه، ثم اجتمع به بعد ذلك بأربع سنين فقال له: يا أبا عبد الله! قال: نعم. قال: خذ جوابك! قال: هات بعد أربع سنين وصل الوقت. فأجابه الشيخ

---

[263] وهو الشيخ عبد السلام الأسود، ذكره الشيخ محيي الدين في روح القدس: ص٨٢، وسنذكره باختصار بعد قليل.

[264] روطة قرية على شاطئ البحر، جنوبي شذونة، وهي موضع رباط ومقر للصالحين مقصودة من جميع الأقطار. راجع الحميري، "الروض المعطار": ص-٣٤، "شريش".

[265] ربما يقصد الشيخان بهذا أن كل واحد منهما كان يستر نفسه ومرتبته عن الناس.

محيي الدين عنها.

وسأله الشيخ محيي الدين عن سبب بكائه فقال: آليت أن لا أدعو على أحد، فأغاظني رجل فدعوت عليه فهلك، فندمت على ذلك إلى الآن.[266]

وكعادته سوف يحرص الشيخ محيي الدين أن يعرّف صاحبه بدرا الحبشي على الشيخ الرندي وسوف يحصل ذلك بعد عودتهما من مدينة فاس على ما سنرى في الفصل الثالث إن شاء الله تعالى.

بعض الشيوخ الآخرين الذين التقاهم الشيخ الأكبر في الأندلس

وقبل اختتام هذا الفصل سنذكر باختصار بعض شيوخ ابن العربي الذين ذكرهم في "روح القدس" وفي "الدرّة الفاخرة"، وهم كثيرون لا يمكننا أن نستوفيهم جميعا في هذا الكتاب ولكن ذكرنا منهم أعلاه من استطعنا من خلال ذكره إلقاء بعض الضوء على الجوانب المختلفة لحياة الشيخ محيي الدين. أما هؤلاء الشيوخ الذين سنذكرهم أدناه فلا نعرف الكثير عن حياتهم وعن علاقتهم بالشيخ محيي الدين سوى القليل مما ذكره عنهم في كتبه من غير تفاصيل مهمة تخص حياته.

صالح العدوي

فمن هؤلاء الرجال الذين تأثر بهم ابن العربي وتعلم منهم الشيخ صالح العدوي الذي ذكره الشيخ محيي الدين في روح القدس فقال إنه كان رضي الله عنه بالله عارفاً ومع الله في كل حالة واقفاً تالياً لكتاب الله العزيز آناء الليل وأطراف النهار، ولم يتخذ مسكنا قط ولا تداوى قط؛ كان يعمل على مقام السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب،[267] كان لا يكلم أحداً يجالسه، يأتي عليه أوقات يدخل في صلاة الضحى فلا يزال واقفاً في الركعة الأولى حتى يقال له قد زالت الشمس، وكان لا يدخر شيئاً لغد أبداً ولا يقبل ما لا يحتاج إليه لا لنفسه ولا لغيره. كان يأوي ليلاً إلى مسجد أبي عامر المقدي. خدمه أبو علي الشكاز (سيأتي ذكره). فلم يزل بإشبيلية على هذه الحالة أربعين سنة حتى مات.

ثمّ يقول الشيخ محيي الدين أنه صاحبه سنينا ومع ذلك فهو يكاد يعدّ كلامه معه من قلته. ولكنه يقول إنه كان له به تعلق وتأمل وقد انتفع به وأخبره بأمور في حقه مما يتفق له في المستقبل فرآها كلها ما غادر منها كلمة.[268]

---

[266] روح القدس: ص٧٤.

[267] ورد في الحديث الذي رواه البزار عن أنس عن النبي صلّى الله عليه وسلّم أنه قال: سبعون ألفا من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب هم الذين لا يكتوون، ولا يكوُون، ولا يسترقّون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون. انظر في كنز العمال: ٥٦٨٣. وفي حديث آخر: أعطيت سبعين ألفا من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب، وجوههم كالقمر ليلة البدر، قلوبهم على قلب رجل واحد فاستزدت ربي عز وجل فزادني مع كل واحد سبعين ألف. (كنز العمال: ٣١٩٣١.)

[268] روح القدس: ص٥١-٥٢.

أبو عبد الله محمد الشرفي

وأما أبو عبد الله محمد الشرفي رضي الله عنه فكان يلازم الصلوات الخمس بجامع العديس بإشبيلية وقد تورمت قدماه من طول القيام، كان إذا وقف في الصلوات تنحدر دموعه على بياض لحيته كأنها اللؤلؤ. سكن في موضع واحد نحو أربعين سنة ما أوقد فيه سراجا ولا نارا. بالغ في العبادة جهده. لم يتخذ قط في المسجد موضعا معينا ولا صلى في موقع واحد من المسجد صلاتين.

يقول الشيخ محيي الدين أنه لقيه يوما وهو واقف على معتوه من جملة الناس فلم يشعر به حتى أخذ بأذنه وأخرجه من الحلقة وقال له: أنت تفعل هذا؟ فخجل ابن العربي ودخل معه الجامع. ويقول أيضاً أنه كان يخبره بالشيء قبل كونه فيكون كما يخبره.[٢٦٩]

أبو يحيى الصنهاجي

وأما أبو يحيى الصنهاجي رضي الله عنه فكان قد عمي وقد أسن فكان مجتهدا في العبادة وله قدم راسخة في الرياضات والإشارات. لما مات بإشبيلية دفنوه في جبل عال قريب وكان لا يخلو من الريح أبدا فسكَّن الله الريح في ذلك الموسم واستبشر الناس وباتوا على قبره يقرؤون القرآن، فلما نزل الناس هبت الريح على عادتها.

يقول الشيخ محيي الدين أنه عاشره شهورا قبل موته وكان من أهل السياحات ملازما للسواحل مؤثرا للخلق.[٢٧٠]

أبو الحجاج يوسف الشبربيلي

وهو من شبربيل وهي قرية شرقي الأندلس على فرسخين من إشبيلية، وكانت أكثر إقامته بالبادية صحب أبا عبد الله بن المجاهد وكان يعيش من عمل يده. دخل طريق التصوف قبل بلوغ الحلم ولم يزل عليها حتى مات. وكان ابن المجاهد إمام هذه الطريقة في إشبيلية يقول التمسوا الدعاء من أبي الحجاج الشبربيلي وكان يُكبره إذا زاره. ويقول الشيخ محيي الدين عنه أنه رأى له بركات كثيرة، وكان ممن يمشي على الماء.

أخبر أبو الحجاج ابن العربي أنه كان يزور شيخه ابن المجاهد كل يوم جمعة فزاره في يوم جمعة على عادته فوجده واقفا على البنّائين بحائط داره التي يسكن بها وكان قد تهدّم فبناه ليستر عياله. فسلم عليه، فقال له: خالفت عادتك يا أبا الحجاج، فقال له يوسف: بل هو يوم الجمعة. فضرب يداً على يد وصاح أوّاه هذا ما فعل الضروريُّ الذي لا بدّ منه، فكيف لو زدنا! وناح وبكى على نفسه وتحسّر على وقته (لأنه فاتت عليه صلاة الجمعة). فكان أبو الحجاج كلما ذكر هذه الحكاية للشيخ محيي الدين يبكي ويقول: هكذا تكون

---

[269] روح القدس: ص٥٢.

[270] روح القدس: ص٥٣.

الرجال يبكون على فوات حظوظهم من الحضور مع الله.

وكان له بداره بالقرية بئر يستقي منها لوضوئه فرأينا بجانب البئر شجرة زيتون قد علت وأورقت وحملت جسمها غليظ فقال له صاحبي يا سيدنا لم غرست هذه الزيتونة في هذا الموضع وضيقت بها على البئر فالتفت إلينا ونظر وكان قد انحنى ظهره من الكبر فقال في هذه الدار ربيت من صغري ووالله ما رأيت قط هذه الزيتونة إلا الآن! فكان بهذه المثابة من الاشتغال بقلبه ما دخلت قط عليه ولا غيري إلا وجدته قارئا في المصحف لم يمسك كتابا غير المصحف حتى مات. وكان له هرة سوداء لا يستطيع أحد أن يمسكها ولا يلقي يده عليها وكانت ترقد في حجره وكان يقول لي لهذه الهرة تمييز لأولياء الله فهذا العذار الذي ترى فيها ما هو سدى قد جعلها الله تأنس بالأولياء فشاهدتها مرارا عنده فيدخل إنسان فتحك خدها في رجله وتتعلق به ويدخل آخر فتفر منه؛ ولقد دخل عليه شيخنا أول مرة دخل عليه -يعني أبا جعفر العريبي رحمه الله تعالى الذي ذكرته أولا- وكانت الهرة في البيت الآخر فخرجت من البيت ونظرت إلى شيخنا أبي جعفر وفتحت يديها على عنقه فعانقته ومرغت وجهها على لحيته فقام إليه أبو الحجاج حتى أجلسه ولم يقل شيئا فأخبرني أبو الحجاج أن ذلك الفعل ما رأيته قط فعلته مع غيره ولم تزل عنده حتى خرج من عنده. وجاءه رجل وأنا عنده في جماعة وفي عينيه وجع شديد يصيح منه مثل النفساء فدخل عليه وقد شق على الناس صياحه فاصفر وجه الشيخ وقعد وقلع يده المباركة ووضعها على عينيه فسكن الوجع من جبينه هذا الشخص كأنه الميت ثم قام وخرج مع الجماعة وما به من بأس. وكان له صاحب من صالح مؤمني الجن أبدا لا يبرح من عنده. دخلت عليه مع شيخنا أبي محمد رضي الله عنهما فقلت يا سيدنا هذا من أصحاب أبي مدين فتبسم الشيخ وقال عجب أمس كان عندنا أبو مدين رضي الله عنه نعم الشيخ وأبو مدين إذ ذاك ببجاية وبينه وبينهما مسيرة خمسة وأربعين يوما فكان كشفا بينهما وكانت هذه الحالة كثيرا تتفق لي مع أبي يعقوب فإن أبا مدين كان قد سكن عن الحركة وأحفظ من أخباره ما شاهدته كثيرا تضيق هذه العجالة عنه. وهكذا كل من أذكره وإنما أذكره ليعلم أن الزمان لا يخلو من الرجال.

الشيخ أبو عبد الله محمد بن قسوم

وكان من محبين الشيخ ابن المجاهد ومريديه فقرأ عليه حتى مات واستخلفه في موضعه فجرى على حالته وزاد فجمع بين العلم والعمل. كان مالكي المذهب قائلا بشرف العلم ومرتبته. صحبه الشيخ محيي الدين وقرأ عليه وسمع منه. كان دعاؤه الذي يختم به أبدا: اللهم أسمعنا خيرا وأطلعنا خيرا، ورزقنا الله العافية وأدامها لنا، وجمع الله قلوبنا على التقوى ووفقنا لما يحبه ويرضاه، وخواتم البقرة. ولذلك التزم الشيخ محيي الدين هذا الدعاء في مجالسه ثم رأى النبي صلّى الله عليه وسلّم في المنام في الحرم وقارئ يقرأ عليه صحيح البخاري فلما فرغ دعا بهذا الدعاء.

يقول عنه الشيخ محيي الدين أنه قسم ليله ونهاره بحيث إذا صلى الصبح ذكر الله حتى تطلع الشمس فيركع ركعتين ويدخل منزله فيأخذ كتبه ويخرج إلى الطلبة فيقرؤون العلم إلى ارتفاع النهار ويدخل

منزله فإذا لم يكن صائما أخذ شيئا من الغداء وصلى ضحاه ونام يسيرا ثم يقوم فيسبغ الوضوء فإن كان له تقييد قيده وإلا ذكر الله فإذا جاء الظهر فتح المسجد وأذن ودخل مسجده يتنفل ويذكر الله إلى وقت دخول الصلاة متمكنا يخرج إلى أن يقيم الصلاة لا يتنفل، يتمايل في محرابه تمايل النشوان مما يجد في باطنه من الوجد بكلام الله. فإذا خرج وتنفل براتبة الظهر وأخذ المصحف ففتحه على ركبته ومشى بيديه على حروفه.[271] وعيناه في المصحف يرتل القرآن بحنان وتدبر حتى يتم خمسة أجزاء وقد حان العصر فيؤذن ويدخل مسجده ويتنفل حتى تجتمع الجماعة فيصلي بهم ثم يدخل منزله يذكر الله حتى يحين وقت المغرب فيخرج يؤذن ويصلي ويدخل فيجيء بين العشاءين حتى يجيء وقت العشاء أو قربها فيسرج القنديل في المسجد ويؤذن ويدخل منزله يتنفل حتى يجتمع الجماعة يخرج يصلي بهم ثم يغلق باب المسجد ويدخل منزله ويحاسب نفسه في حركاته وألفاظه وجميع ما يعلم أن الملك يقيده عليه فتكون حالته على حسب ما يجده في صحيفته، ثم يقوم إلى سريره فينام فإذا مضى من الليل جزء فإن كان أصاب أهله اغتسل ودخل مصلاه يترنم بالقرآن ويتلذذ به تارة في حضرة التوحيد وتارة في الجنة وتارة في الاعتبار وتارة في الأحكام بحسب ما تعطيه الآية حتى يصبح فيخرج من صلاته وقد اطلع على علوم كثيرة في تلاوته من الله تعالى لم تكن عنده فهّمه الله إياها من القرآن كما قال الله تعالى: (واتقوا الله ويعلمكم الله)، فإذا طلع الفجر فتح المسجد وأذن ودخل منزله فركع الفجر وقعد في منزله يذكر الله فإذا أسفر خرج فصلى بالناس. فهكذا كان ديدنه ودأبه.

ويقول عنه الشيخ محيي الدين أيضاً أنه كان لا يتأدم في الجمعة إلا مرتين في ليلة الاثنين وليلة الجمعة، وكان سنيّ الحال والمقام كثير المعرفة قلّ أن يرى مثله. وكعادته جمع الشيخ محيي الدين بينه وبين صاحبه عبد الله بدر الحبشي وصلى خلفه.[272]

عبد الله الخياط

اجتمع به الشيخ محيي الدين في جامع العديس بإشبيلية وكان عمره عشر سنين أو أحد عشر سنة وهو ذو طمرين ممتقع اللون كثير الفكر شديد الوجد والتوله. التقى به ابن العربي وكان قد فُتح عليه في هذا الطريق وما علم به أحد، فأراد ابن العربي الموازنة معه فنظر إليه فتبسم ونظر إليه وأشار إليه فأشار إليه. فيقول الشيخ محيي الدين أنه ما رأى نفسه بين يديه إلا كدرهم زائف، فقال له عبد الله الخياط: الجد الجد فطوبى لمن عرف ما خلق له، ثم صلى معه العصر وأخذ نعله وسلم عليه وانصرف، فذهب ابن العربي يشيعه ليعرف منزله فلم يجد له أثرا، فسأل عنه فلم يجد أحدا يخبره عنه، ثم لم يره بعد ذلك ولا سمع به أبدا.[273]

---

[271] وهذا ما يوصي به ابن عربي في كتاب كنه ما لا بدّ للمريد منه.

[272] روح القدس: ٥٥-٥٧.

[273] روح القدس: ٧٨.

أبو علي حسن الشكاز

وكان من مريدي صالح العدوي، عاشره الشيخ محيي الدين من وقت دخلوه في الطريق حتى مات بإشبيلية، فيقول عنه أنه كان كثير الدمعة لا تزال عينه تهطل أبدا، وكان مولعا بالنكاح جدا لا يستغني عنه، فأراد الشيخ الشبربلي (ذكرناه أعلاه) أن يأخذه لابنة أخيه فمشت إليه أم الزهراء فقالت يا أبا علي إن أبا الحجاج يحب أن يعطيك بنت أخيه، وكان ذلك يوم الأحد، فقال لها أنا كنت من أحب الناس في مصاهرته ولكن قد تزوجت وبعد خمسة أيام من يومنا هذا أدخل بزوجتي عروسا، فقالت له بمن تزوجت قال لها ستري ذلك الوقت، وانصرف إلى منزله ولازم فراشه حتى انقضت خمسة أيام فمات رحمه الله تعالى.[274]

أبو عبد الله محمد بن جمهور

وكان أيضاً شابا من أقران أبي علي الشكاز وأبي عبد الله الخياط (الذي ذكرناه أعلاه) في السن والحال، وكان مجتهدا في العبادة وكان يقرأ القرآن والعربية لم يقرأ شعرا قط. وكان من الراكعين الساجدين حتى قبضه الله، وكان قوي القلب ضعيف البدن مصفر اللون شديدا على نفسه؛ فيقال له أرفق عليها فيقول "للرفق أجهد". وكان رحمه الله كثير النفور من الخلق يحب الخلوة والعزلة، ورعاً زاهداً عارفاً بالله واقفاً مع الله شديد المعاملة طلباً للمواصلة، محب أهل الله أهل القرآن. توفاه الله صغير السن في عنفوان شبابه ونار اجتهاده، ما فاقه أحد في العبادة.[275]

الشيخ أبو عمران موسى السيدراني

وكان من الأبدال وكان مجهولا له عجائب وغرائب وكان سبب اجتماع ابن العربي به أنه قعد مرة بعد صلاة المغرب بمنزله بإشبيلية في حياة الشيخ أبي مدين وتمنى أن لو اجتمع به، وكان الشيخ أبو مدين في ذلك الزمن ببجاية وهي على مسيرة خمسة وأربعين يوما من إشبيلية. فلما صلى الشيخ محيي الدين المغرب وتنفل ركعتين خفيفتين فلما سلمت دخل عليه أبو عمران فسلّم فأجلسه إلى جانبه وقال له: من أين؟ فقال من عند الشيخ أبي مدين من بجاية. قال له ابن العربي: متى عهدك به؟ قال: صليت معه هذا المغرب فردّ وجهه إلي وقال إن محمد ابن العربي بإشبيلية خطر له كذا وكذا فبر إليه الساعة وأخبره عني بكذا وكذا وذكر له من رغبته في لقاء الشيخ وقال له يقول لك الشيخ أبو مدين: أما الاجتماع بالأرواح فقد صح بيني وبينك وثبت، وأما الاجتماع بالأجسام في هذه الدار فقد أبى الله ذلك فسكّن خاطرك والموعد بيني وبينك عند الله في مستقر رحمته.[276] وسوف نذكر المزيد عنه في الفصل الثالث أثناء حديثنا عن الشيخ أبي مدين.

---

[274] روح القدس: ٦٢.

[275] روح القدس: ٦١.

[276] روح القدس: ٧٤-٧٦.

الشيخ أبو محمد مخلوف القباني

يقول عنه الشيخ محيي الدين في روح القدس أنه سكن قرطبة حتى مات عن إذن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. ذهب إليه ابن العربي مع والده رحمه الله تعالى فدعا له وبقيا عنده من غدوة حتى صلاة العصر وأكلا من طعامه. ويقول إنه كان من يدخل بيته يأخذه الحال قبل أن يراه. وكان ذاكرا على الدوام خلاف أوراده فكان له كل يوم خلاف ذكره كذا ألف تسبيحة وكذلك التكبير والتحميد والتهليل. وكان يعم بدعائه أهل السموات وأهل الأرض حتى الحيّات في البحر وكان سريع العَبرة.

ويقول الشيخ محيي الدين أنه تركه في عافية وانصرف إلى منزله فلما جاء الليل وأخذ مضجعه فرأى في المنام كأنه بأرض واسعة وسحاب يدنو فيها صهيل الخيل وقعقعة اللجم ورأى أشخاصا ركبانا وعلى أقدامهم فينزلون في ذلك الفضاء حتى امتلأ بهم الفضاء ما رأى قط أحسن وجوها منهم ولا أنقى ثيابا ولا أحسن من خيلهم، وكان يرى رجلا طويلا عظيم اللحية أشيب يده إلى خده واسع الوجه، فكان من بين الجماعة كلها يقول له أخبرني ما هذا الجم الغفير فيقول له هؤلاء جمع النبيين من آدم إلى محمد عليهم الصلاة والسلام ما بقي أحد منهم إلا نزل. فقال له الشيخ محيي الدين: من أنتَ منهم؟ قال أنا هود صاحب عاد، فكان يقول له: فيم جئتم؟ فيقول جئنا عوّادا زائرين أبا محمد، فاستيقظ ابن العربي فسأل عن الشيخ مخلوف فوجده قد مرض تلك الليلة فلبث أياما ومات رحمه الله تعالى.[٢٢٢]

ويذكر الشيخ محيي الدين ابن العربي أن قد رأى جميع الأنبياء والرسل مرتين في زمانين مختلفين، وكما ذكرنا أعلاه فهناك إشارات إلى أن مثل هذا الجمع الغفير للأنبياء والرسل كان بمثابة البشرى للشيخ محيي الدين أنه هو الذي سيكون خاتم الأولياء المحمديين.

الشيخ صالح الخراز

وكان الشيخ صالح بإشبيلية وهو من أهل الجد والاجتهاد والورع في العبادة: أقبل على العبادة وهو ابن سبع سنين أو دونها، كان مبهوتا أبدا ما لعب قط مع الغلمان ولا كلمهم، فكان طويل الصمت يقول أصحابه الذين كانوا معه ما كلمنا قط إلا فيما لا بد منه. كان يعمل الخرز من أجل ورعه حتى يأكل من عمل يده وكان له والدة وكان باراً بها. نسخ بيده -مع صغر سنه- كتاب ابن العسال الكبير. وكان يحب العزلة حتى انتقل إلى سكن البادية يبتغي الإنفراد والعزلة.

ويروي عنه الشيخ محيي الدين قصة وذلك أنه كان لا يقضي حاجة أبدا ولا يعمل شغلا قط لمن يعرف منه أنه يراه بعين التعظيم: فكان أكثر شغله مع الغرباء الذين يطرقون المدينة لا يعرفونه ولا يعرفهم. فمرة أرسل إليه الشيخ محيي الدين بعض أصحابه بنعله وقد قطعه عمدا ليجد سبيلا إلى مكالمته: فسلّم عليه فردّ عليه السلام، فقال له: هذا نعلي أخرزه لي. فقال له: إن هذا النعل بيدي أصلح شأنه لصاحبه وقد دفع لي

---

[٢٢٢] روح القدس: ٦٧.

أجره وأنا واقف بحيث لا يراني. فقال له: أمسكه عندك حتى تفرغ من هذا النعل وتصلحه. فقال له الشيخ صالح: ولعلي أموت قبل ذلك: ترى غيري دون شغل أدفعه له. فقال: ما أريد أن يصلحه أحد إلا أنت. قال له الشيخ صالح: قد قلت ما سمعت، واشتغل بذكره. قال له: تراني أقعد هنا ونعلي عندي حتى تتمه وتصلحه. قال له ذلك لك إن شئت ولكن حتى أعرفك بأجري عليه. قال له: قل! قال الشيخ صالح: أجري عليه ثمن درهم. قال له الرجل: أنا أدفع لك ربع درهم. قال له الشيخ صالح: ما يساوي. قال له الرجل: ذلك مني سماحة. قال: غيري أحوج إليه مني، إن كنت تعطي لله فإني قد أخذت قوت اليوم. قال له الرجل: لا بد من ذلك. قال له الشيخ صالح: قد صدعتني يا إنسان سر عني لا أعمل لك شغلا، وأقبل على ذكره وشغله. فرجع الرجل إلى ابن العربي منكسر القلب، فقال له ابن العربي قد طوّلت عليه، ارجع إليه مرة أخرى وقل له: إخرزه لي ابتغاء ثواب الله لا أدفع لك عليه شيئا. فرجع إليه فقال له ذلك: فنظر إليه ساعة وقال له أنت مرسول. ثم التفت الشيخ صالح فأبصر ابن العربي فقال للرجل: اترك نعلك وانصرف عني فإذا كان العصر فتعال إلي فإن وجدتني حياً دفعته لك وإن وجدتني ميتاً فتراني أوصي لك هذا الجار. ثم التفت الشيخ صالح وأشار إلى الشيخ محيي الدين فأقبل إليه، فقال هكذا تفعل الأصحاب! يقابلون إخوانهم بما يسوؤهم، لا تعد لمثلها، ولولا ما جعل الله في قلبي من الألفة ما رأيتك، ولكن استر عليّ."[٢٧٨]

الشيخ أبو العباس أحمد بن همام

وهو من أهل إشبيلية أيضاً وقد ألهمه الله رشد نفسه وأقبل على العبادة قبل أن يبلغ الحلم كذلك، وكان ذا جد واجتهاد يبكي أبداً على نفسه كأنه الثكلى على وحيدها، كان له والدٌ يحول بينه وبين طريق الله، كلما اشتدّ ذلك عليه جاء إلى الشيخ محيي الدين وقال له يا أخي اشتدّ علي الأمر وقد طردني أبي وقال لي سر حيث شئت، وأنا أريد الخروج إلى ثغور المسلمين لجهاد العدو وأرابط بموقع منها حتى أموت. فمشى إلى ثغر منها يقال له جلمانية وبقي بها ثم عاد إلى إشبيلية بعد ذلك وأخذ بعض حاجاته ورجع يرابط بها.[279]

الشيخ أبو أحمد السلاوي

وهو من أصحاب الشيخ أبي مدين الذي سنتكلم عنه في الفصل القادم صحبه ثمانية عشر سنة. يقول عنه الشيخ محيي الدين أنه وصل إلى إشبيلية حين كان ابن العربي في تربية شيخه أبي يعقوب الذي ذكرناه أعلاه فكان أبو أحمد رحمه الله قوي الحال كثير الاجتهاد والعبادة شديد البكاء. بات معه ابن العربي شهرا كاملا بمسجد ابن جراد فقام ابن العربي مرة ليلا يريد أن يصلي فتوضأ وجاء إلى مسقف المسجد فرآه نائما عند باب المسقف والأنوار متصلة إلى السماء فبقي الشيخ محيي الدين واقفا ينظر فيقول إنه لا يدري

---

[278] روح القدس: ٧٦-٧٨.

[279] روح القدس: ٧٨.

أين السماء نزلت عليه تلك الأنوار حتى اتصلت به أو منه انبعثت حتى اتصلت بالسماء؛ فلم يزل واقفا عليه يتعجب من حاله حتى استيقظ أبو أحمد وقام يصلي. فيقول إنه كان إذا بكى أبو أحمد يأخذ ابن العربي الدموع إذا سقطت من عينيه على الأرض فيمسح بها وجهه فيجد فيها رائحة المسك فيتخذها طيبا وكان يشمها الناس عليه فيقولون له: هذا المسك من أين اشتريته؟[280]

والسلاوي كان من أهل الضحك ففي الفتوحات المكية يذكر الشيخ محيي الدين أنه رافق السلاوي وساح معه في الأندلس وصحبه سفرا وحضرا فكان لا يفتر عن الضحك.[281] وكما سنرى في الفصل السادس حينما سنتكلم عن بعض عقلاء المجانين الذين التقاهم ابن العربي في دمشق وغيرها، فإن الشيخ محيي الدين يذكر أبا أحمد السلاوي في الفتوحات المكية في الباب الرابع والأربعين أنه كان من هؤلاء المجانين الذين ذهب بعقلهم وارد لطف من الله بسطهم وشغلهم ما تجلى لهم عن تدبير نفوسهم فسخّر الله لهم الخلق فهم مشتغلون بمصالحهم عن طيب نفس فإنّ من أشهى ما إلى الناس أن يأكل واحد من هؤلاء عنده أو يقبل منه ثوبا وذلك من التسخير الإلهي فجمع الله لهم بين الراحتين حيث يأكلون ما يشتهون ولا يحاسبون ولا يُسألون.[282]

الشيخ أبو عبد الله بن زين اليابري

وكان الشيخ أبو عبد اله بن زين بإشبيلية من أفضل الناس، كثير الجد والاجتهاد والتقشف كان يقرأ القرآن والنحو بجامع العديس بإشبيلية لا يؤبه له؛ كان غامضا في الناس، اعتكف على كتب أبي حامد، قرأ ليلة تآليف أبي القاسم بن أحمد في الرد على أبي حامد فعمي، فسجد لله من حينه وتضرع وأقسم أنه لا يقرأه أبدا ويذهبه فردّ الله عليه بصره وكان من فضلاء الناس. ويقول الشيخ محيي الدين أن لقي أيضاً أخاه وكان مثله، وأنه نودي به عند موته: جنتين اثنتين لبني زين.[283]

الشيخ عبد السلام الأسود السائح

وكان لا يقر في بلد واحد، يقول عنه الشيخ محيي الدين أنه كلما دخل قرية قيل من هنا مرّ الشيخ عبد السلام. فسأله ابن العربي عن عدم قراره فقال: أجد حالة طيبة في الحركة.[284] وقد التقاه الشيخ محيي الدين عندما كان يجول في الساحل في جنوب غرب الأندلس قرب روطة كما رأينا أعلاه.

---

[280] روح القدس: ٧٨-٧٩.

[281] الفتوحات المكية: ج٢ص١٨٦.

[282] الفتوحات المكية: ج١ص٢٤٩.

[283] روح القدس: ص٨٢.

[284] روح القدس: ص٨٢-٨٣.

الشيخ أبو العباس أحمد بن منذر

وكان في مدينة إشبيلية وهو من أهل القرآن والعربية والفقه، وكان معلما في مذهب مالك رضي الله عنه. يقول عنه الشيخ محيي الدين أنه من كراماته أنه كان إذا اعتاصت عليه مسألة في المذهب يرى مالكا يحلها له، وكان يتعرض إليه في داره الروحانيون والرجال يسلمون عليه وتُلقى الدراهم بين يديه فيأبى أن يأخذها ويردّها فترفع عنه، غلب عليه الورع وكان مباركا صالحا.[٢٨٤]

[284] روح القدس: ص٨٣.

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الثالث

الضحى

تنقله بين مدن المغرب والأندلس

٥٨٩/١١٩٣ - ٥٩٧/١٢٠٠

هذا الوجودُ العامْ   علمي به أولى
لأنّه إنعامْ   من حضرة المولى
وبومُه من عامْ   في الشمس إذْ تُجلى
ترى البصيرْ   بلا تبصيرْ   يعطي البشيرْ
إعطاء ذاتْ   بلا صفاتْ   سوى السِّماتْ
فانهض إلى   مأوى العلا   من عِند لا
تُبصر وُجود الواحد الأعلى   يعطي العلومْ   من حضرةٍ مُثلى[286]

الخلاصة

بعد أن بدت الشمس في الأفق وبدأت تتسلق نحو صدر السماء، بدأ معها محمد يدرك جمال المشهد البديع، فبدأت أسرار الكون تدعوه تباعاً حتى يفكّ ألغازها ويحلّ رموزها، فلم تقرّ له عين ولم يهدأ له بال، وهو يسعى وراء الآيات والعِبَر، ويطلب رجالها حتى يستفيد منهم فيكون دائماً في مزيد علمٍ وتحقيق. فمع أن الشيخ محيي الدين قد حكى في كتبه عن مئات الرجال وذكر العديد من المنازل والأقوال، فهو ما يزال

---

[286] الديوان: ص١١٠.

يؤكّد أنّه لم يعرف منزلاً ولا نحلة ولا ملّة إلا رأى قائلاً بها ومعتقداً لها ومتّصفاً بها باعترافه من نفسه، فما يحكي مذهباً ولا نِحلة إلا عن أهلها القائلين بها وإن كان قد علمها من الله بطريق خاص، ولكنه يقول إنّ الله لا بدّ أن يريه قائلاً بها فضلاً منه وعناية.[287]

فبعد أن جاب مُدنَ الأندلس وأنحاءها، وكان كلّما سمع عن شيخ في مدينة أو ناحية ذهب إليه وخالطه وسمع منه وناقشه وتعلّم منه وعلّمه، صار يتطلع إلى أفق أوسع؛ فذهب إلى بلدان المغرب العربي وافريقية، حيث قضى سنوات عديدة فيها وانتقل مرّات عديدة بين ضفتي المضيق من الأندلس إلى مدن المغرب وتونس وبالعكس. وأغلب الظن أنه قصد المغرب أول مرّة من أجل لقاء شيخه أبي مدين، مع أنه في الحقيقة لم يلقاه، ولكنّه تعرّف هناك على بعض الرجال الذين كانوا من التلاميذ المقرّبين عند أبي مدين الذين انتشروا في أنحاء المغرب العربي. فخلال السنوات الستة التالية ما بين سنة ٥٨٩ وحتى سنة ٥٩٥ زار الشيخ محيي الدين العديد من مدن المغرب وتونس عدة مرات ورجع إلى الأندلس حتى ختم رحلاته بمدينة مرسية (ثم المرية)، مسقط رأسه، التي زارها سنة ٥٩٥ لينهي بعض أعماله هناك. ثم بعد ذلك اعتزل لأكثر من سنة حتى بداية سنة ٥٩٧ حيث لا نعرف بالتحديد كيف قضى هذه الفترة قبل أن يترك الأندلس نهائيا ويرحل إلى المغرب ومنها إلى مكّة المكرّمة.

قبل الرحيل (إشبيلية ٥٨٩/١١٩٣)

لقد رأينا في الفصل السابق كيف أن الشيخ محيي الدين رضي الله عنه كان قد التقى أثناء سياحته في الساحل جنوب غربي الأندلس قرب قرية روطة الشيخ أبي عبد الله محمد بن أشرف الرندي الذي وعده أن يلقاه بإشبيلية. ولكن لما وصل الشيخ محيي الدين إلى إشبيلية أقام الله بخاطره الرحلة إلى عبد العزيز المهدوي بتونس ليراه وينتفع به. ويقول الشيخ محيي الدين أن ذلك كان يوم الثلاثاء؛ فشاور والدته في السفر فأذنت له، فأرسل له صاحبه الرندي مع شخص غريب قادم إلى إشبيلية ليقول له: "صاحبك الرندي يُقرؤك السلام وهذا كان طريقه إليك، ولكن خطر لك الساعة أن ترحل إلى تونس فسر مسلّماً عافاك الله، واجتماعنا إن شاء الله إذا وصلت إشبيلية".[288]

فمن الواضح إذاً أن الشيخ محيي الدين قد خطرة له بشكل مفاجئ فكرة السفر إلى تونس، وأخذ الإذن من والدته مع أن عمره كان قريبا من ثلاثين سنة، مما يؤكّد برّه الشديد بها. ثم بعد أن بارك له صاحبه الشيخ محمد بن أشرف الرندي ودعا له بالسلامة، فعندئذ شدّ الرحال وبدأ بالترحال.

وتوضح كلوديا عدّاس من خلال مناقشتها لرسالة صفي الدين أبي المنصور ابن ظافر التي ترجمها دنيس غريل إلى الفرنسية،[289] بالإضافة إلى كتاب "مشاهد الأسرار القدسية"[290] الذي كتبه الشيخ الأكبر في

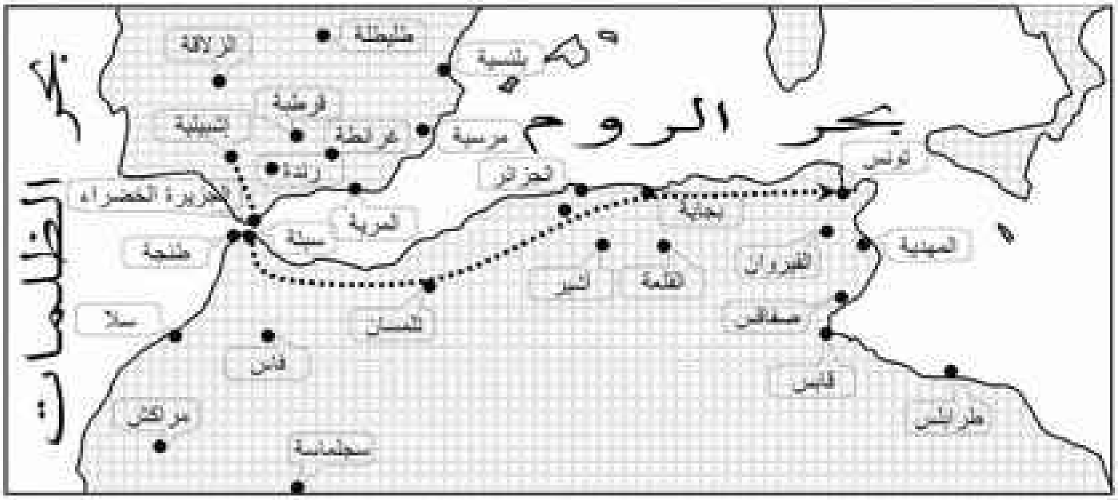
[287] الفتوحات المكية: ج٣ص٥٢٣.

[288] روح القدس: ص٧٣.

[289] (Risala De Safi Al-Din Ibn Abi L-Mansur Ibn Zafir, trans. Denis Gril, Le Caire, IFAO 1986).

إشبيلية بعد عودته من هذه الرحلة أنه من المحتمل أن والده قد كان مرافقا له في هذه الرحلة وذلك لأنه يذكر أنه عندما كانوا في تونس ذهبوا بصحبة بعض المشايخ يوما إلى أحد الحمامات فقضوا فيه بعض الليل ثم رجعوا إلى بيت عبد العزيز المهدوي فأمضوا بقية الليل في الذكر. ثم يقول إنه في الصباح سأله والده: ماذا حدث في الحمام؟ غير أننا لا نملك أية معلومات أخرى عن هذا الموضوع.

الجزيرة الخضراء (٥٨٩/١١٩٢)



رحلته الأولى إلى المغرب العربي (تونس)

ففي عام ٥٨٩ شدّ محمد ابن العربي الرحال إلى الضفة الأخرى من المضيق ليزور بعض مدن المغرب، وكان قصده زيارة عبد الله المهدوي في تونس وهو أحد التلاميذ المقربين للشيخ أبي مدين. وقبل عبور المضيق إلى المغرب العربي كان لا بدّ أن يمرّ الشيخ بالجزيرة الخضراء وهي مدينة مشهورة بالأندلس يقابلها من المغرب سبتة، وهي تقع شرقي شذونة وقبلي قرطبة، ويقال لها أيضاً "جزيرة طريف"، وقد وصفها ياقوت الحموي بأنها من أشرف المدُن وأطيبها أرضاً وسورها يضرب به ماء البحر ولا يحيط بها البحر كما تكون الجزر عادة لكنها متصلة ببرّ الأندلس لا حائل من الماءِ دونها. بين الجزيرة الخضراء وقرطبة خمسة وخمسون فرسخاً وهي على نهر برباط، وقد نسب إليها جماعة من أهل العلم، منهم أبو زيد عبد الله بن عمر بن سعيد التميمي الجزيري.[291]

ويعتقد بعض العلماء أن مضيق جبل طارق حيث يجتمع البحر المتوسط مع البحر المحيط هو مجمع البحرين وهو المكان الذي اجتمع فيه موسى بالخضر عليهما السلام كما قال الله تعالى في سورة الكهف: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ۝﴾، فيقال إن أهل

---

[290] مؤلفات ابن عربي: ص٥٥٧-٥٦٠.

[291] معجم البلدان: رقم ٣١١٠.

هذه المدينة هم الذين أبوا أن يضيفوا موسى والخضر عليهما السلام. وبها أقام الخضر الجدار وخرق السفينة. وكان الجلندى، وهو ملك قرطاجة في ذلك الوقت، هو الذي كان يأخذ كل سفينة غصباً. حكى ذلك عن وكيع بن الجراح."[202] ولكن ياقوت الحموي ينقل أن مدينة تلمسان هي التي أقام الخضر فيها الجدار كما سنرى بعد قليل.

الشيخ أبو إسحق ابن طريف (الجزيرة الخضراء، ٥٨٩/١١٩٢)

وفي الجزيرة الخضراء التقى الشيخ الأكبر بالشيخ أبي اسحق ابن طريف القيسي في داره هناك، وكذلك التقاه عند العودة في مدينة سبتة على الطرف المقابل للجزيرة الخضراء من المغرب، ثم التقاه أيضاً في مصر حيث يبدو أنه استقر فيها حتى توفي رحمه الله.

يقول عنه الشيخ محيي الدين في روح القدس أنه كان سمح الخلق لين الجانب قائلا بالحق لا تأخذه في الله لومة لائم. من أهل الجد والاجتهاد كان يحن إلى العزلة ولا يقدر عليها من أجل الحرفة. كان يبيع الفخار. قيّد كثيرا من كتب الطريق كانت المعاملة غالبة عليه يحب المعارف ويحن إليها."[203]

العفو عن الناس

إن العفو عن الناس صفة كريمة لا يتصف بها إلا كريم، والله سبحانه قال في القرآن الكريم في سورة آل عمــــــــران: (ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾)، وكذلك كان الشيخ أبو إسحق يعفو عن جميع من يؤذيه وأكثر من ذلك أنه كان يرى جميع الناس في حقّه أولياء سواء الذين يحبونه ويمدحونه أو الذين لا يحبونه ويسبّونه، فإن أهل الله يرون وجوب الشفاعة فيمن آذاهم لأن الذين أحسنوا إليهم يشفع لهم إحسانهم لهم عند الله تعالى، وأما الذين آذوهم فهم يشفعون لهم عندما يأذن الله لهم يوم القيامة ويفتح لهم باب الشفاعة، فإذا كان يوم القيامة وظهر ما لهم من الجاه عند الله خاف منهم من آذاهم هنا في الدنيا فأول ما يشفعون يوم القيامة فيمن آذاهم قبل المؤاخذة، وهذا نص أبي يزيد البسطامي، كما يقول الشيخ الأكبر الذي يضيف أن هذا هو مذهبه أيضاً؛ فإن الذين أحسنوا إليهم يكفيهم عين إحسانهم فهم بإحسانهم شفعاء أنفسهم عند الله بما قدّموه من الخير في حق هــذا الــولي: و(هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴿٦٠﴾) [الــرحمن]، (فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ...﴿٤٠﴾) [الشورى]، وذلك للعافين عن الناس، بل الولي لا ينسى من يعرف الشيخ وإن كان الشيخ لا يعرفه فيسأل الله تعالى أن يغفر ويعفو عمّن سمع بذكره فسبّه وذمّه أو أثنى عليه خيراً. ويقول الشيخ محيي الدين أنه ذاق ذلك من نفسه وأعطاه ربه بحمد الله ووعده بالشفاعة يوم القيامة فيمن أدركه بصره ممّن عرف ومن لا

---

[202] الحميري، "الروض المعطار": ص٢٢٣، ٢٦٤، ٣٣٨.

[203] روح القدس: ص٧٩.

يعرف وعيّن له هذا المشهد حتى عاينه ذوقاً صحيحاً لا يشك فيه، كما يقول عن نفسه في الباب الواحد والسبعين من الفتوحات المكية. ثم يضيف الشيخ الأكبر أن هذا أيضاً هو مذهب شيخه أبي إسحق بن طريف، ويقول إنه قال له يوما وهو عنده في جزيرة طريف سنة ٥٨٩: يا أخي والله ما أرى الناس في حقي إلا أولياء عن آخرهم ممن يعرفني! قال له الشيخ الأكبر: كيف تقول يا أبا إسحق؟ فقال: إن الناس الذين رأوني أو سمعوا بي إما أن يقولوا في حقي خيراً أو يقولوا ضد ذلك؛ فمن قال في حقي خيراً وأثنى عليَّ فما وصفني إلا بصفته، فلولا ما هو أهلٌ ومحلٌ لتلك الصفة ما وصفني بها، فهذا عندي من أولياء الله تعالى. ومن قال فيَّ شراً فهو عندي وليٌ أطلعه الله على حالي فإنه صاحب فراسةٍ وكشفٍ ناظر بنور الله، فهو عندي وليٌ فلا أرى يا أخي إلا ولياً لله."[294]

قصة موت الشيخ ابن طريف

يقول الشيخ محيي الدين عن الشيخ ابن طريف القيسي أنه كان من الشيوخ الذين يحاسبون أنفسهم على أنفاسهم ويعاقبونها على غفلاتها. وقد مات في عقوبة غفلة كما ذكرها الشيخ محيي الدين في رسالة روح القدس، حيث قال إن سبب موته هو أنه كان هناك إنسان من أهل البلد الذي يسكنه فيه داء في عنقه يقال له نفنفة، فجاءه يوما رجلٌ يسأله عن هذا الإنسان فلم يعرفه الشيخ جيّدا، فألحّ عليه الرجل في السؤال، فقال له ابن طريف: أراك والله تسأل عن ذلك الرجل صاحب النفنفة في عنقه؟ قال: عنه أسأل. قال الشيخ ابن طريف: فناداني الحقّ في سرّي أن يا إبراهيم ما تعرفُ عبادَنا إلا بما تبتليهم؟ أما كان له اسم تذكره به؟ لأميتنّك بها! فأصبح وقد خرجت النفنفة في عنقه فقاساها يسيرا ثم مات."[295]

يروي الشيخ محيي الدين هذه الحكاية في "روح القدس" عن محمد ابن هذا الشيخ إبراهيم بن طريف حيث التقاه بالحرم في مكة، وقال له محمد أن أباه قال له أنه ما غلط في مثل هذا النوع منذ عشرين سنة!

قبل أن يعبر المضيق (الجزيرة الخضراء، ١١٩٢/٥٨٩)

يذكر لنا تلميذُه مؤيّدُ الدين الجندي أن الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي قد قال لتلميذه صدر الدين القونوي الذي سنذكره لاحقا أنه لما وصل إلى البحر أخذ على نفسه عهدا أنه لن يقطع البحر حتى يُكشف له عن أحواله الداخلية والخارجية التي سيكون عليها حتى وقت وفاته. فتوجّه ابن العربي إلى الله تعالى بالدعاء بإخلاصٍ وحضورٍ تامٍ حتى أشهده الله كلَّ أحواله المستقبلية حتى أيامه الأخيرة. فيقول الشيخ الأكبر لصدر الدين أنه علم من ذلك الوقت أن أباه اسحق بن محمد سيكون صاحبه، حتى إنه اطّلع على أحواله ومعرفته التي سيصل إليها، والخبرات والمقامات والتجليات التي سيمنحها الله له، أي لصدر

---

[294] الفتوحات المكية: ج١ص٦١٧.

[295] روح القدس: ص٧٩.

الدين. وفقط بعد ذلك عبر الشيخ الأكبر البحر على بصيرةٍ ويقينٍ من مصيره. ويقول الشيخ له أنَّ كلَّ شيء حدث معه تماما كما هو مقدَّرٌ أن يكون."[296]

على كل حال يجب أن لا نأخذ هذا التقرير على أن الشيخ محيي الدين يعلم الغيب أو قد علم الغيب، وإنما ذلك نوع من الاستشراف الذي تكلم عنه الشيخ محيي الدين مرارا، وهو أن تستشفَّ ما سيكون عليه الأمر على وجه الإجمال، ورغم أن الشيخ هنا يذكر تفاصيل دقيقة، ولكن كلّ ذلك يعدّ معرفة إجمالية، فالمعرفة التفصيليّة الحقيقية هي أن نعيش الأحداث كما هي، أما المعرفة الإجمالية فهي تشبه الرؤيا التي يراها النائم. وفي كل الأحوال فإن هذه المعرفة تأتي من لوح المحو والإثبات الذي يمحو الله ويُثبت ما يشاء فيه (وعنده أمّ الكتاب التي هي اللوح المحفوظ)، ولا تأتي من الغيب المطلق الذي هو اللوح المحفوظ. من أجل ذلك نجد أن الشيخ محيي الدين مثلا، وكما نوّهت كلوديا عدّاس،"[297] لم يكن قد قرّر أنه لن يعود إلى الأندلس حين غادر لأول مرة إلى مكة سنة ٥٩٨، بل ذكر لصاحبه عبد العزيز المهدوي في مقدمة الفتوحات المكية أنه نوى "الحج والعمرة، ثم يُسرع إلى مجلسه الكريم الكرّة"."[298] فهنا تتساءل كلوديا عداس فيما إذا كان هذا يتناقض مع كونه قد علم على وجه الإجمال ما سيؤول إليه مصيره؟ أنا لا أرى أي تناقض: لأن الشيخ محيي الدين رضي الله عنه حين كُشف له عن أحواله المستقبلية فمن ضمن ما علمه ما ينوي عمله وإن لم يعمله، فهو ما كان يعرف وقتها أنه لن يعود إلا على وجه الإجمال الذي يكسبه نوعا من الظنّ القريب من اليقين ولكنه ليس يقينا، كمن يرى رؤيا مبشّرة وهو واثق بها ولكنه لا يعرف بالتحديد كيف ستتحقق هذه الرؤيا، ولذلك يتصرّف كما لو أنه غير متأكد وينتظر انكشاف المستقبل حتى يؤكّد نبوءته. وهذا الكلام في الحقيقة ينطبق على البشارة التي تلقاها الشيخ الأكبر في قرطبة سنة ٥٨٦ ثم توالت عليه التأكيدات، كما سنرى، في تونس سنة ٥٩٠ وفي فاس سنة ٥٩٤ ثم في مكة سنة ٥٩٩ أنه هو خاتم الولاية المحمدية، ومع ذلك لم يكن يتصرّف وفق هذه البشارات حتى تأكّد له الأمر وحصل بالواقع في مكة سنة ٥٩٩."[299]

في مدينة سبتة (شهر رمضان ٥٨٩/١١٩٣)

وعلى الطرف الآخر من المضيق مرّ الشيخ محيي الدين بمدينة سبتة المغربية وهي المدينة التي كانت منطلقا أساسيا لجميع الجيوش الإسلامية التي عبرت البحر باتجاه الأندلس، فهي بالإضافة إلى أهميتها التجارية ذات أهمية جغرافية كبيرة لأنها تطل على جميع السفن التي تعبر جبل طارق، ولذلك سمّيت "باب الجهاد". أصبحت مدينة سبتة خلال عصر المرابطين من أهم مراكزهم الحربية، وأقام فيها يوسف بن تاشفين

---

[296] الجندي، "شرح فصوص الحكم": ص٢١٥–٢٢٠، عن كلوديا عداس، "البحث عن الكبريت الأحمر": ص١١١.

[297] كلوديا عداس، "البحث عن الكبريت الأحمر": ص١٨٠.

[298] الفتوحات المكية: ج١ص١٠.

[299] لقد حيّرت هذه المسألة بعض الباحثين مثل ميشيل كودكوفيتش في كتابه "ختم الأولياء" (The Seal of the Saints: Prophethood and Sainthood in the Doctrine of Ibn Arabi, by Michel Chodkiewicz, Cambridge: Islamic Texts Society, 1993, p140) حيث اقترح موضوع نائب الختم للخروج من هذا التناقض الظاهري. وسوف نعود لهذه النقطة في حينها.

مدّة من الزمن للإشراف على الجيش الإسلامي الذي أرسله لنصرة إخوانهم في الأندلس في آخر عهد ملوك الطوائف الأولى. وبعد ذلك شهدت هذه المدينة مقاومة عنيفة للموحّدين لأن سكانها، بقيادة القاضي عياض،[300] رفضوا حكم الموحدين الذين لم يأخذوا بالمذهب المالكي الذي كان مذهب معظم أهل المغرب.

بالإضافة إلى ذلك فقد كانت مدينة سبتة خلال فترة وجود الشيخ الأكبر في المغرب من أهمّ مراكز الحركة العلمية في السواحل المغربية، وكان فيها مئات المساجد والمكتبات العلمية والزوايا التي يؤمها الصوفية والفقراء من أهل الله.

في هذه المدينة التقى الشيخ محيي الدين بعلمائها ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبيد الله الحجري (توفي ١١٩٤/٥٩١) حيث حضر دروسه وقرأ عليه صحيح البخاري. ذكر الشيخ الأكبر في مقدمة الفتوحات المكية أنه زاره في داره وروى عنه حديث أبي هريرة أنه أخذ عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وعاءين من العلم بثّ أحدهما واحتفظ بالآخر، ولو بثّه بين الناس لاتهموه بالكفر.[301] ويعدّ هذا الحديث مرجعا مهمًا عند أهل الله ويعتمدون عليه كأساس لاستعمالهم لغة الإشارات فيما يكتبون وكذلك لوجود التفسيرات الباطنية لبعض الآيات والأحاديث في كتبهم كما ذكرنا أعلاه. وقد ورد هذا الحديث في صحيح البخاري بنص: حدثنا إسماعيل قال: حدثني أخي، عن ابن أبي ذئب، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: "حفظت من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وعاءين: فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم".[302]

القاضي بن يغمور والمحدث ابن الصائغ

وفي ذلك الوقت كان قاضي سبتة هو الشيخ أبو إبراهيم بن يغمور الذي يقول عنه الشيخ الأكبر أنه كان لا يغضب إلا لله وكان مُقسطا يحكم بالعدل ويُقيم الحد على من يتعدى حدود الله. ويقول الشيخ محيي الدين ابن العربي في الباب السادس والستين وثلاثمائة في أثناء حديثه عن المهدي المنتظر عليه السلام والذي أيضاً يتصف أنه لا يغضب إلا لله تعالى، فيقول الشيخ الأكبر أن من علامة من يدّعي هذا المقام إذا غضب لله وكان حاكماً وأقام الحدّ على المغضوب عليه أنه يزول عنه الغضب على ذلك الشخص عند الفراغ منه وربما قام إليه وعانقه وآنسه وقال له: "أحمدُ اللهَ الذي طهّرك"، وأظهر له السرور والبشاشة وربما أحسن إليه

---

[300] القاضي عياض هو أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض اليحصبي الأندلسي ثم السبتي المالكي، ولد ١٠٥٤/٤٤٦ وتوفي سنة ١١٥٠/٥٤٤. قال القاضي شمس الدين ابن خلكان في "وفيات الأعيان" هو إمام الحديث في وقته، وأعرف الناس بعلومه، وبالنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم. ومن تصانيفه كتاب "الإكمال في شرح صحيح مسلم"، وكتاب "مشارق الأنوار" في تفسير غريب الحديث ، وكتاب "التنبيهات". انظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، حققه إحسان عباس، دار صادر-بيروت، ١٩٦٩-١٩٧٧: ج٣ص٤٨٣.

[301] الفتوحات المكية: ج١ص٣٢.

[302] صحيح البخاري، في الجزء الأول، كتاب العلم، باب حفظ العلم، الحديث رقم ١٢٠.

بعد ذلك: هذا ميزانه ويرجع لذلك المحدود رحمةً كلّه. ثم يقول إنه رأى ذلك من الشيخ القاضي ابن يغمور في سبتة.

ثم يضيف الشيخ محيي الدين أن القاضي ابن يغمور كان يسمع أيضاً معهم الحديث على الشيخ أبي الحسين بن الصائغ (توفي ١٢٠٣/٦٠٠) وهو من ذرية أبي أيوب الأنصاري، وسمع فيها أيضاً على أبي الصبر أيوب الفهري (توفي ١٢١٢/٦٠٩) وعلى أبي محمد بن عبد الله الحجري الذي ذكرناه أعلاه. وكان القاضي ابن يغمور لا يأتي إلى مجلس السماع هذا راكباً، بل يمشي بين الناس؛ فإذا لقيه رجلان قد تخاصما وتداعيا إليه وقف إليهما وأصلح بينهما. وكان غزير الدمعة، طويل الفكرة، كثير الذكر، يُصلح بين القبيلتين بنفسه فيصطلحان ببركته.[303]

يقول الشيخ محيي الدين عن الشيخ أبي الحسين بن الصائغ أنه إمام محدث صوفي زاهد، "وهذا من الأعجوبات محدث صوفي"، ولكنه يضيف أنه كبريت أحمر،[304] له بركات كثيرة، وقد عاشره كثيرا وروى عنه وقرأ عليه وكان زاهداً متجرداً.[305] وروى الشيخ الأكبر أيضاً أنه كان في بيت شيخه ابن الصائغ في سبتة يتحدثون، فقال لهم: "لأكلُ الدنيا بالدفّ والمزمار خيرٌ لي من أني آكلها بالدِّين"،[306] ولذلك نرى أن الشيخ محيي الدين يذم في رسالة روح القدس الفقهاء الذين يتخذون الدِّين للمصلحة والتقرّب إلى السلطان.

ويروي عنه الشيخ محيي الدين أيضاً أنه روى له قصة عن شيخه أبي عبد الله محمد بن رزق رحمه الله حيث كانوا في سياحة معه وهو يقرأ عليه بعض أجزاء الحديث، فلما مرّوا بمسجد خراب في فلاة من الأرض، قال: أدخلُ أركع فيه ركعتين، فدخل فوجد قلبه في ذلك الموضع فقعد فيه سنتين.[307]

في مدينة تلمسان (١١٩٣/٥٩٠)

تِلِمْسَان أو تُلَمْسَانْ، في اللهجة الجزائرية الدارجة، وبعضهم يقول أيضاً تِنِمسَان، هي مدينة قديمة في الجبال غرب الجزائر قريبا من حدود المغرب، وكانت عاصمة الدولة في القرون الوسطى، وهي الآن عاصمة الولاية التي تحمل أيضاً نفس الاسم. ولقد رأينا في الفصل السابق أن أحد أخوال الشيخ الأكبر، وهو يحيى بن يغان، كان ملكا لهذه المدينة قبل أن يزهد في الدنيا ويخرج عن ملكه بعد كلام جارح تلقاه من الشيخ الزاهد عبد الله التونسي.

يقول ياقوت الحموي أن البعض قد زعم أن تلمسان هي البلد الذي أقام به الخِضر عليه السلام

---

[303] الفتوحات المكية: ج٣ص٣٣٤.

[304] الكبريت الأحمر يرمز إلى الإكسير الذي يقال عنه في علم الكيمياء القديمة أنه يحول الفضة إلى ذهب، وهو رمز صوفي يدل على أن صاحبه له قوة التأثير على غيره من الأشياء والناس، وقد كان تلاميذ الشيخ الأكبر في بعض الفترات يدعونه بهذا الاسم كما ذكرنا في مقدمة هذا الكتاب.

[305] روح القدس: ص٨٣.

[306] الفتوحات المكية: ج٤ص٤٨٩.

[307] الفتوحات المكية: ج٢ص٦٢٨، ومعنى "وجد قلبه" أي وجد ارتياحا في هذا المكان وملاءمة.

الجدار المذكور في القرآن في سورة الكهف. ولكننا ذكرنا أعلاه أن هذا الكلام يُقال أيضاً عن الجزيرة الخضراء التي تقع على مجمع البحرين (مضيق جبل طارق). ولكن يبدو أن قصة الخضر وموسى قد حدثت فعلا في المغرب العربي بين تونس والأندلس، ولذلك لا نستغرب أن يلتقي الشيخ الأكبر بالخضر في تونس وفي المغرب وفي الأندلس أكثر من مرة. كما سنروي بعد قليل.

وكانت مدينة تلمسان مركزا للمصنوعات اليدوية بالإضافة إلى كونها مركزا ثقافيا ودينيا تُدرّس بها التعاليم الإسلامية في المدارس الدينية.

لا ندري إن كان الشيخ رضي الله عنه قد مرّ بتلمسان أثناء ذهابه إلى تونس أو أثناء عودته منها، ولكن حتما كان بها في سنة ١١٩٣/٥٩٠. ويقول الشيخ الأكبر أنه رأى في تلمسان بعض الصنّاع الماهرين الذين كانوا يصنعون نوعا من السهام تعود إلى راميها تلقائيا بعد أن يرميها، فأخذ من ذلك عبرة مهمة وهي أن الأعمال ترجع في النهاية إلى من عملها:

> وقد عاينتُ هذا النبال بمدينة تلمسان من عالم بصنعة الرمي وإنشاء القسيّ والنبال: فرأيته يرمي بالسهم فإذا انتهى السهم إلى مرماه عاد إلى الرامي وحده. فكان ذلك لي عبرة في كون الأعمال ترجع إلى عامليها.[308]

وفي الفترة التي مرّ بها الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي رضي الله عنه في تلمسان، كانت هذه المدينة والساحل الشمالي عموما تحت حكم يعقوب المنصور سلطان الموحدين في الأندلس، وكان والي تلمسان وتونس المعيّن من قبل الموحدين هو أبو زيد بن أبي حفص (١١٨٥/٥٨١-١١٩٩/٥٩٥) ثم أبو الربيع بن عبد الله بن عبد المؤمن (١١٩٩/٥٩٥-١٢٠٨/٦٠٤)، وكانت المنطقة تعيش في أمن وسلام نسبي. ولكن ما لبثت أن قامت الثورات والانقلابات في هذه المنطقة حيث زحف بنو غانية على تلمسان (١٢٠٩/٦٠٥) ثم سيطر عليها الحفصيون وانفصلوا عن الموحدين في الأندلس.

بقي الشيخ محيي الدين لبعض الوقت في تلمسان حيث زار قبور بعض الأولياء في منطقة خارج المدينة تُسمى "العبّاد" حيث يوجد هناك قبر خاله يحيى بن يغان وأبي عبد الله التونسي،[309] وهناك أيضاً سوف دفن الشيخ أبو مدين الذي توفي قبل ذلك بقليل كما ذكرنا أعلاه.

وفي تلمسان أيضاً التقى الشيخ الأكبر بالشاعر أبي يزيد عبد الرحمن الفازازي (توفي ١٢٣٠/٦٢٧)، وقد أنشده من شعره بيتا يستشهد به الشيخ محيي الدين في الفتوحات المكية أثناء حديثه عن أنواع النجاسات حيث يقول إن كل متردّد بين هواءين لا بدّ من هلاكه، كما قال الفازازي:[310]

هوىً صحيحٌ وهواءٌ عليلْ ... صلاحُ حالي بهما مستحيلْ

---

[308] الفتوحات المكية: ج٣ص١٨٠.

[309] محاضرة الأبرار: ج٢ص٦١.

[310] الفتوحات المكية: ج١ص٣٧٠.

رؤيته للنبي صلّى الله عليه وسلّم في المنام (تلمسان، ٥٩٠/١١٩٤)

ولقد ذكرنا في أول هذا الفصل أعلاه أن الشيخ محيي الدين يعتبر أن الشيخ أبا مدين شيخه رغم أنه لم يرَه في الواقع، ولكنه يحبه كثيرا ويعتقد فيه لدرجة أنه كان يبغض من يبغضه. فعندما كان الشيخ في تلمسان سنة تسعين وخمسمائة، تعرّف على رجل من أهل الله اسمه عبد الله الطرطوسي، فدار بينهما حديث عن الشيخ أبي مدين فعلم الشيخ ابن العربي أن الطرطوسي يبغض الشيخ أبا مدين فبغضه لذلك، ولكنه في نفس الليلة رأى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في المنام فقال له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: لِم تكره فلاناً؟ فقال: لبُغضه في أبي مدين. فقال له: أليس يحبُّ الله ويحبُّني؟ فقال له: بلى يا رسول الله، إنه يحبُّ الله ويحبُّك. فقال له: فلِم بغضته لبغضه أبا مدين وما أحببته لحبّه الله ورسوله؟ فقال له: يا رسول الله من الآن، إني والله زللتُ وغفلتُ والآن فأنا تائب وهو من أحبِّ الناس إليّ، فلقد نبّهتَ ونصحتَ صلّى اللهُ عليك.

فلما استيقظ الشيخ ركب دابته وجاء إلى منزل عبد الله وأخذ له هدية وأخبره بما جرى، فبكى عبد الله الطرسوسي وقبل الهدية وأخذ الرؤيا تنبيهاً من الله فزال عن نفسه كراهته في أبي مدين وأحبّه. وذكر للشيخ الأكبر أن سبب كراهته في أبي مدين أنه قسم مرة الأضحيات على أصحابه وما أعطاه منها شيئاً.[311]

الشيخ أبو مدين

يعدّ الشيخ أبو مدين، الذي كان يُدعى في العالم العلوي بأبي النجاوبة،[312] من الرجال الذين تأثر بهم الشيخ الأكبر كثيرا لكثرة ما ينقله عنه من أخبار وأقوال ويدعوه بكلمة "شيخنا". من أجل ذلك سنذكر هنا بعض صفاته مما يذكره عنه الشيخ الأكبر رضي الله عنهما، مع أنه لم يلتقيه أبدا في الواقع، وإنما التقاه في عالم الروح والمثال.

رغم أن بعض الدارسين لابن العربي وتاريخه، مثل آسين بلاثيوس،[313] يتحدثون عن احتمال لقاء الشيخ محيي الدين مع شيخه أبي مدين الذي يعتقد أكثر المؤرخين خطأً أنه قد توفي سنة ٥٩٤/١١٩٨ (في تلمسان) في حين أن ابن العربي كان في تلمسان سنة ٥٩٠ وفي بجاية سنة ٥٩٧، فيقول بلاثيوث أنه ربما زاره في سنة ٥٩٠ أثناء زيارته الأولى لتونس. ولكن الشيخ أبا مدين قد توفي سنة ٥٨٩ قبيل مغادرة ابن العربي للأندلس كما سنذكر بعد قليل، يضاف إلى ذلك أن الشيخ محيي الدين قد ذكر صراحة في "روح القدس" أن الشيخ أبا مدين قد أخبره عن طريق أحد أصحابه بأن الله لم يقدّر لقاء الأجساد بينهما ولكنهما التقيا كثيرا في عالم الروح والمثال. وكان ذلك يحدث ربما بمجيء أبي مدين إلى عند ابن العربي ليعلّمه ويربيه بما يتفق

---

311 الفتوحات المكية: ج٤ص٤٩٨.

312 لقد ذكر ذلك الشيخ الأكبر كما سنرى بعد قليل، وربما يدل هذا الاسم على أن الشيخ أبي مدين كان من النجباء. والنجباء هم ثمانية في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون وهم الذين تبدو منهم وعليهم أعلام القبول من أحوالهم ... وهم أهل علم الصفات الثمانية ... ومقامهم الكرسي لا يتعدوه ماداموا نجباء ... (الفتوحات المكية: ج٢ص٨).

313 ابن العربي حياته ومذهبه، تأليف آسين ميغيل بلاثيوس، ترجمة عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات-الكويت، ١٩٧٩، ص٣٤-٣٥.

ويلزم، فقد ذكر ابن العربي أن أبا مدين كان يأتي، من غير سفر حقيقي، إلى الشيخ أبي الحجاج يوسف الشبربيلي الذي يسكن في قرية قريبة من إشبيلية:

> دخلت عليه مع شيخنا أبي محمد رضي الله عنهما فقلت يا سيدنا هذا من أصحاب أبي مدين فتبسم الشيخ وقال: عجب أمس كان عندنا أبو مدين رضي الله عنه، نعم الشيخ. وأبو مدين إذ ذاك ببجاية وبينه وبينهما مسيرة خمسة وأربعين يوما، فكان كشفا بينهما. وكانت هذه الحالة كثيرا تتفق لي مع أبي يعقوب فإن أبا مدين كان قد سكن عن الحركة وأحفظ من أخباره ما شاهدته كثيرا تضيق هذه العجالة عنه. وهكذا كل من أذكره وإنما أذكره ليعلم أن الزمان لا يخلو من الرجال.[314]

أو كذلك ربما كان الشيخ أبو مدين يرسل له بعض رجاله فيفاوضهم في أمور كثيرة، كما ذكر الشيخ محيي الدين في "روح القدس" أيضاً:

> ومنهم رضي الله عنهم موسى أبو عمران السيدراني. كان من الأبدال وكان مجهولا له عجائب وغرائب. كان سبب اجتماعي به أني قعدت بعد صلاة المغرب بمنزلي بإشبيلية في حياة الشيخ أبي مدين وتمنيت أن لو اجتمعت به، والشيخ في ذلك الزمن ببجاية مسيرة خمسة وأربعين يوما. فلما صليت المغرب تنفلت ركعتين خفيفتين فلما سلَّمت دخل علي هذا -أبو عمران- فسلَّم فأجلسته إلى جانبي وقلت: من أين؟ فقال: من عند الشيخ أبي مدين من بجاية. قلت: متى عهدك به؟ قال: صليت معه هذا المغرب فردّ وجهه إلي وقال إن محمد ابن العربي بإشبيلية خطر له كذا وكذا فسر إليه الساعة وأخبره عني بكذا وكذا وذكر لي من رغبتي في لقاء الشيخ وقال لي يقول لك: "أما الاجتماع بالأرواح فقد صح بيني وبينك وثبت، وأما الاجتماع بالأجسام في هذه الدار فقد أبى الله ذلك فسكِّن خاطرك والموعد بيني وبينك عند الله في مستقر رحمته"، وذكر كلاما خلاف هذا ورجع إليه.[315]

لا بد أن ذلك حدث سنة ٥٨٦ حيث ذكر الشيخ محيي الدين في الفتوحات المكية في الباب الثالث والسبعين حينما كان يتحدث عن الأبدال فقال: وكنا قد رأينا منهم موسى السيدراني بإشبيلية سنة ست وثمانين وخمسمائة وصل إلينا بالقصد واجتمع بنا.[316]

وكان موسى السيدراني، كما يقول عنه الشيخ محيي الدين، من أهل السعة في الدنيا فخرج عن

---

[314] روح القدس: ص٥٣-٥٥.

[315] روح القدس: ص٧٤-٧٦.

[316] الفتوحات المكية: ج٢ص٦٨٢.

ملكه ففتح الله عليه في ثمانية عشر يوما، والتحق بالأبدال فكان يتبوأ من الأرض حيث يشاء. ويذكر الشيخ محيي الدين كيف التقى موسى بالشيخ أبي مدين (واسمه شعيب) وذلك أنه وُشي به مرّة إلى السلطان فأمر بتقييده فقُيِّد بالحديد وسير به إليه فلما قرب من فاس ألقي في بعض المنازل في بيت وأُقفل عليه وبات عليه الحرس، فلما كان الصبح فُتح الباب فوجدوا الحديد الذي كان عليه مطروحا وما وجدوا أحداً، فدخل فاس وقصد دار أبي مدين، فقرع عليه الباب فخرج الشيخ بنفسه وقال له: من أنت؟ قال: أنا موسى، فقال له الشيخ: وأنا شعيب أدخل (لا تخف نجوت من القوم الظالمين)."[317]

من هو أبو مدين

وأبُو مَدْيَن التِلمْساني (٥١٤/١١٢٠-٥٨٩/١١٩٣) هو شعيب بن الحسن الأندلسي التلمساني، صوفي شهير أصله من الأندلس، من حصن منتوجب قرب إشبيلية. أقام بفاس وسكن بجاية، وكثر أتباعه حتى خافه السلطان يعقوب المنصور. وقد أخذ الشيخ أبو مدين علومه وتربيته عن الشيخ الفقيه الصالح أبي الحسن علي بن حرزهم (توفي ٥٥٩/١١٦٤)."[318] ذكره أبو عبد الله الأبّار، وقال: كان من أهل العمل والاجتهاد، منقطع القرين في العبادة والنُسك، وقال أيضاً: وتوفي بتلمسان في نحو التسعين وخمسمائة، وكان آخر كلامه: اللهُ الحيّ، ثم فاضت نفسه."[319] وكذلك ذكره الشعراني في "الطبقات" وروى عنه بعض القصص والأحوال."[320]

لقد اختلف المؤرخون في تاريخ وفاة أبي مدين: فمنهم من قال إنه "توفي بتلمسان وقد قارب الثمانين أو تجاوزها"،[321] (مما يعني أنه توفي بعد ٥٩٤، وهذا غير صحيح) ومنهم من قال "توفي الشيخ أبو مدين سنة ٥٩٤ ودفن بعبّاد تلمسان"،[322] وقال ابن الملقن في طبقات الأولياء إنه توفي سنة ٥٩٣، وأنه ولد سنة ٥١٤.[323] ولكن الشيخ محيي الدين ابن العربي رضي الله عنه قد أرّخ وفاته سنة ٥٨٩ بشكل صريح (ولكن غير مباشر) وذلك في عنوان الباب السادس والخمسين وخمسمائة "في معرفة حال قطب كان منزله (تَبَٰرَكَ

---

[317] الآية ٢٥ من سورة القصص.

[318] الوفيات (معجم زمني للصحابة وأعلام المحدثين والفقهاء والمؤلفين من سنة ١١-٨٠٧ هجرية)، لأبي العباس أحمد بن حسن بن علي ابن الخطيب الشهير بابن قنفذ القسطيني، حققه و علق عليه عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة-بيروت، ١٩٨٣، ص٢٨٣. وابن حرزهم هو أبو الحسن علي ابن إسماعيل بن محمد بن عبد الله بن حرزهم، فقيه زاهد، من كبار رجال التصوف بالمغرب، من أهل فاس، جمع التادلي أخباره في "التشوف".

[319] الذهبي، "تاريخ الإسلام": حوادث وفيات ٥٨١--٥٩٠ (ص٣٩٨-٣٩٩)، ولم يؤرخ له وفاة، بل ذكره تحت عنوان: ممن كان في هذا الوقت ولم تتصل بي وفاته.

[320] الطبقات الكبرى، عبد الوهاب بن أحمد الشعراني، دار الفكر العربي-القاهرة، ١٩٧٠، ص١٣٣.

[321] الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين)، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين-بيروت، ١٩٩٠: ج٣ص١٦٦.

[322] ابن قنفذ، "الوفيات": ص٢٩٧.

[323] طبقات الأولياء، لابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد المصري، حققه وخرجه نور الدين شريبه، مكتبة الخانجي-مصر، ١٩٧٣، ص٤٣٧.

﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ وهو من أشياخنا درج سنة تسع وثمانين وخمسمائة رحمه الله". ثم قال إن هذا الذكر كان لشيخه أبي مدين،[٣٢٤] ويذكر ابن العربي كثيرا أن شيخه أبا مدين كان أحد الإمامين الذين يكون ذكرهم عادة هذه الآية من سورة تبارك.

وهذا قد يفسّر بشكل أفضل سبب عدم لقاء الشيخ محيي الدين بشيخه أبي مدين عندما ذهب إلى تونس سنة ٥٨٩/٥٩٠،[٣٢٥] بل ربّما يعني أن قد شرع بالسفر رغبة في لقائه قبل أن يموت ولكن الله لم يقدّر ذلك.

حب الشيخ الأكبر له

وكان الشيخ الأكبر يحب الشيخ أبا مدين كثيرا ويعتقد فيه، حتى إنه كان يبغض الطرسوسي لأنه كان كان يكره أبا مدين، إلا أنه تراجع عن ذلك بعد تنبيهٍ أتاه من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في المنام، كما رأينا أعلاه، مما دعاه أن يذهب إليه بهدية ويصالحه.

الخصام يكون بين الشياطين

فإن الخصام ليس من خُلق أهل الله لأنه صفة نفسية شيطانية مذمومة، وإن حصل لهم بعض الخصام يعودون عنه بسرعة ويتوبون إلى الله تعالى. وفي سياق مشابه يحكي الشيخ الأكبر قصة خصام قصير حدث بين أبي مدين وأبي الحسن بن الدقّاق الذي كان يواظب على حضور مجلسه، فلما تخاصما انقطع عن الحضور فاستدعاه الشيخ أبو مدين وقال له "يا أبا الحسن ما شأنك انقطعت؟ إن شيطاني خاصم شيطانك ونحن على وُدّنا كما كنّا ما تغيّرنا ولا نُدخل أنفسنا بينهما." فتذكّر أبو الحسن وقبل وصية الشيخ واستغفر الله ورجع إلى حضور مجلسه.[٣٢٦]

مقام الشيخ أبي مدين ومرتبته

ويقول الشيخ الأكبر عن الشيخ أبي مدين أنه هو أحد الإمامين،[٣٢٧] فقال في أثناء حديثه عن مقام المُلك:

ومن أقطاب هذا المقام ممن كان قبلنا محمد ابن علي الترمذي الحكيم

---

[324] الفتوحات المكية: ج٤ص١٩٥.

[325] أسين بلاثيوس، "ابن عربي، حياته ومذهبه": ص٣٥.

[326] الفتوحات المكية: ج٤ص٥٣٢.

[327] الإمامان هما رجلين من رجال الله من الأولياء رجال الأنفاس ولا يزيدون في كل زمان على إثنين لا ثالث لهما الواحد عبد الرب والآخر عبد الملك والقطب عبد الله ... وهما اللذان يخلفان القطب إذا مات وهما للقطب بمنزلة الوزيرين الواحد منهم مقصور على مشاهدة عالم الملكوت والآخر مع عالم الملك. (الفتوحات المكية: ج٢ص٦).

> ومن شيوخنا أبو مدين رحمه الله وكان يُعرف في العالم العلوي بأبي النجاوية هكذا يسمونه الروحانيون. وكان يقول رضي الله عنه سورتي من القرآن: تبارك الذي بيده الملك، ومن أجل هذا كنا نقول فيه أنه أحد الإمامين لأن هذا هو مقام الإمام.[328]

وكذلك كانت مرتبة الشيخ أبي مدين عالية بين الأولياء وكان محبوبا من الجميع مع أن بعض الناس كان يحاول الإيقاع به وقتله، وكان معروفا في العالم العلوي، كما يروي له الشيخ يوسف ابن يخلف الكومي سنة ٥٨٦، وربما كان هذا ما دعا الشيخ محيي الدين للرغبة في زيارته:

> أخبرني يوسف ابن يخلف الكومي من أكبر من لقيناه في هذا الطريق سنة ست وثمانين وخمسمائة رحمه الله قال أخبرني موسى السيدراني وكان من الأبدال المحمولين قال: لما مشيت أنا ورفيقي إلى الجبل المسمى قاف وهو جبل محيط بالبحر المحيط بالأرض وقد خلق الله حية على شاطئ ذلك البحر والجبل دارت بجسمها بالبحر المحيط إلى أن اجتمع رأسها بذنبها فوقفنا عندها فقال لي صاحبي سلم عليها فإنها ترد عليك. قال موسى فسلمت عليها فقالت وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، ثم قالت لي كيف حال الشيخ أبي مدين، وكان أبو مدين ببجاية في ذلك الوقت، فقلت لها تركته في عافية، وما علمك به؟ فتعجبت وقالت وهل على وجه الأرض أحد لا يحبه ويجهله؟ إنه والله مذ اتخذه الله ولياً نادى به في ذواتنا وأنزل محبته إلى الأرض في قلوبنا فما من حجر ولا مدر ولا شجر ولا حيوان إلا وهو يعرفه ويحبه. فقلت لها والله لقد ثم أناس يريدون قتله لجهلهم به وبغضهم فيه. فقالت ما علمت أن أحداً يكون على هذه الحال فيمن أحبه الله.[329]

وكذلك يقول الشيخ الأكبر أن الشيخ أبا مدين هو من "الرجال الظاهرين بأمر الله عن أمر الله"، وهم من رجال العدد[330] وعددهم ثمانية عشر نفساً لا يزيدون ولا ينقصون في كل زمان، ظهورهم بالله قائمون بحقوق الله مثبتون الأسباب، خرق العادات عندهم عادة، آيتهم (قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ ...) [الأنعام]، وأيضاً (ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا) [نوح]. فكان منهم أبو مدين؛ وكان يقول لأصحابه: "أظهروا للناس ما عندكم من الموافقة كما يَظهر الناس بالمخالفة، واظهروا بما أعطاكم الله من نعمه الظاهرة، يعني خرق العوائد، والباطنة، يعني المعارف، فإن الله يقول: (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) [الضحى] وقال عليه السلام: "التحدث بالنعم

---

[328] الفتوحات المكية: ج١ص١٨٤، وانظر كذلك: ج١ص٢١.

[329] الفتوحات المكية: ج٢ص٦٨٣.

[330] رجال العدد هم من رجال الأنفاس الذي يكون عددهم محدد في كل وقت لا يزيدون ولا ينقصون، (انظر الباب ٧٣ من الفتوحات).

شكر". وكان يقول أيضاً بلسان أهل هذا المقام: (أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ) [الأنعام].[331]

ويقول الشيخ الأكبر أيضاً أن الشيخ أبا مدين رحمه الله كان إذا جاءه مأكول طيّب أكله وإذا جاءه مأكول خشن أكله، أما إذا جاع وجاءه نقد علم أن الله قد خيّره: فإذا أراد أن يطعمه أيَّ صنف شاء من المأكولات جاء به إليه، فيقول: هذا النقد ثمن المأكول جاء به الله للتخيير والاختبار، فينظر في ذلك الوقت ما هو الأحب إلى الله من المأكولات بالنظر إلى صالح المزاج للعبادة لا إلى الغرض النفسي واتباع الشهوة، فإن وافقه كلّ مأكول حينئذ يرجع إلى موطن الدنيا وما ينبغي أن يعامل به من الزهد في ملذوذاتها مع صلاح المزاج الذي تقوم بصلاحه العبادة المشروعة، فيعدل بحكم الموطن إلى شظف العيش الذي تكرهه النفس لعدم اللذة به بلذة الحاجة فإنه يتناوله عند الضرورة؛ فإنّ لذّة الضرورة ما فوقها لذّة لأن الطبع يطلبها وإذا حصل للطبع طلبه التذّ به.[332]

بعض كرامات أبي مدين

ومن بعض صفاته الخارقة للعادة أيضاً، أن الشيخ أبا مدين كان "كلّه نظر". وهذا مقام عزيز لا يناله إلا المقرّبون من الله تعالى، وأصله من الحديث القدسي الشهير عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: إن الله قال:

> من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرّب إلي عبدي بشيء أحبّ إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرّب إلي بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذني لأعيذنّه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته.[333]

فإذا كان الله سبحانه وتعالى هو بصر العبد المؤمن وسمعه ويده ورجله، أصبح العبد لشدّة قربه من الله تعالى يُبصر بما به يسمع، وبيده وكُلّه، لأنه يصبح كلُّه نور. ونجد أجمل وصف عن هذه الأحوال في قصيدة نظم السلوك لابن الفارض حيث يقول فيها:[334]

فكُلّي لسانٌ ناظرٌ مسمعٌ يدٌ ... لنطقٍ وإدراكٍ وسمعٍ وبطشةِ
فعيني ناجت واللسان مشاهدٌ ... وينطق مني السمع واليد أصغتِ
وسمعي عينٌ تجتلي كل ما بدا ... وعيني سمعٌ إن شدا القوم تنصتِ
ومني عن أيدٍ لساني يدٌ كما ... يدي لي لسانٌ في خطابي وخطبتي

[331] الفتوحات المكية: ج٢ص١١.
[332] الفتوحات المكية: ج٢ص٢٣٣.
[333] صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع، ٦١٣٧.
[334] ديوان ابن الفارض، ص٢٩٤.

كـذاك يـدي عـينٌ تـرى كـلَّ مـا بـدا ... وعـينِي يـد مبسـوطةٌ عنـد سـطوتي
وسمعـي لسـانٌ في مخـاطبتي كـذا ... لسـاني في إصـغائه سمـعٌ منـصت
وللشـمّ أحكـام اطّـراد القيـاس في اتـ ... ـحاد صـفاتي أو بعكـس القـضية
ومـا فيّ عـضوٌ خُـصّ مـن دون غـيره ... بتعـيين وصـف مثـل عـين بـصيرة
ومـني علـى إفرادهـا كـلُّ ذرة ... جوامـع أفعـال الجـوارح أحـصت
....

إلى أن يقول:

هـي الـنفس إن ألقـت هواهـا تـضاعفت ... قواهـا وأعطـت فعلـها كـلُّ ذرة

فيروي الشيخ الأكبر عن الشيخ أبي مدين قصةً خارقة بهذا الخصوص عن ابن الشيخ أبي مدين الذي كان يرى الأشياء البعيدة في عرض البحر بواسطة أبيه:

> كان للشيخ أبي مدين ولد صغير من سوداء وكان أبو مدين صاحب نظر (أي أنه يدرك كل شيء بحاسة النظر، أو أيضاً هو نفسه نظر) فكان هذا الصبي وهو ابن سبع سنين ينظر ويقول أرى في البحر في موضعِ صفته كذا وكذا سفنا وقد جرى فيها كذا وكذا فإذا كان بعد أيام وتجيء تلك السفن إلى بجاية مدينة هذا الصبي التي كان فيها يوجد الأمر على ما قاله الصبي، فيقال للصبي بماذا ترى؟ فيقول: بعيني، ثم يقول: لا إنما أراه بقلبي، ثم يقول: لا إنما أراه بوالدي إذا كان حاضر أو نظرت إليه رأيت هذا الذي أخبركم به وإذا غاب عني لا أرى شيئا من ذلك.[٣٣٥]

حرف الباء

ينقل الشيخ الأكبر عن الشيخ أبي مدين أيضاً قوله أنه ما رأى شيئا إلا رأى الباء عليه مكتوبة، فيقول الشيخ الأكبر في تفسيره لباء البسملة:

> بسم: بالباء ظهر الوجود وبالنقطة تميز العابد من المعبود. قيل للشبلي رضي الله عنه: أنت الشبلي؟ فقال: أنا النقطة التي تحت الباء. وهو قولنا النقطة للتمييز، وهو وجود العبد بما تقتضيه حقيقة العبودية. وكان الشيخ أبو مدين رحمه الله يقول ما رأيت شيئا إلا رأيت الباء عليه مكتوبة. فالباء المصاحبة للموجودات من حضرة الحق في مقام الجمع والوجود أي: بي قام كل شيء وظهر وهي من عالم الشهادة.[٣٣٦]

---

[335] الفتوحات المكية: ج١ص٢٢١.

[336] الفتوحات المكية: ج١ص١٠٢.

وقد ورد مثل ذلك عن الإمام علي كرم الله وجهه أنه قال: "أنا نقطة تحت الباء".[337] وقد ذكر الشيخ عبد الكريم بن إبراهيم الجيلي في كتاب "الكهف والرقيم في شرح بسم الله الرحمن الرحيم"، أنه قد ورد في الحديث أن كلّ ما في "بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ" فهو في الباء، وكلّ ما في الباء فهو في النقطة التي تحت الباء.[338]

ويعتبر الشيخ الأكبر وغيره من العارفين بالله أن عالم الحروف هو عالم قائم بذاته وأن فيهم أقطاب وأوتاد وأبدال كما هو حال الأولياء من البشر. وفوق ذلك فإن الشيخ الأكبر يعتبر أن العالم على الحقيقة هو تركيب هذه الحروف التي هي مفرداته، وذلك أن الله يخلق بالقول للشيء "كن" فيكون، فالعالم كلُّه على الحقيقة هو كلمات الله تعالى التي لا تنفد، كما أن عيسى ابن مريم على الخصوص كلمته ألقاها إلى مريم. ويضيف الشيخ محيي الدين أن الحروف رغم عددها فهي ترجع إلى بعضها البعض وكلها ترجع في النهاية إلى حرف الألف الذي هو القطب، فمنه تنشأ بقيّة الحروف كما هو الحال بالنسبة للقطب في العالم الإنساني. ومن أجل ذلك يعتبر الصوفية أن حرف الألف، والرقم واحد، يرمز لله تعالى، الذي خلق كل شيء. ولكن بالإضافة إلى حرف الألف فإن حرف الباء أيضاً له أهمية خاصة وذلك أنه يرمز إلى العقل الأول الذي هو القلم الأعلى الذي خلقه الله وأمره أن يكتب في اللوح المحفوظ ما يلقيه إليه من العلم بما يريد سبحانه أن يخلقه إلى يوم القيامة كما ورد في الأحاديث النبوية الشريفة.[339]

فلما كان العالم كلمات الله، والكلمات حروف، والحروف تتركب من بعضها البعض، وتعود في أصلها إلى حرف الألف الذي يرمز إلى الله تعالى الذي لا يمكن أن نراه سبحانه من حيث ذاته وإنما نشهده في العالم الذي خلقه من حيث أفعاله، فلما كان حرف الباء أقرب حرف إلى الألف، وهو يرمز كما قلنا إلى القلم الأعلى الذي يخلق الله به العالم، فمن أجل ذلك يعتبر الصوفية أن حرف الباء يصاحب كل شيء في الوجود. ولذلك فإن جميع سور القرآن تبدأ بحرف الباء لأنه أول حرف في البسملة، وحتى سورة التوبة التي لا تبدأ بالبسملة تبدأ بحرف الباء في قوله تعالى في أولها: (بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ

---

[337] راجع شرح فصوص الحكم للقيصري، ص٣٦.

[338] "الكهف والرقيم في شرح بسم الله الرحمن الرحيم"، تأليف: عبد الكريم بن إبراهيم الجيلي، تحقيق: عاصم الكيالي، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣، ص١٠٨. ورواه القروي في "الاسم الأعظم، أو: البسملة و الحمدلة"، تأليف محمد القروي، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٨٢، ص٤٥، رقم ٤٠. وفي كنز العمال: ج٤ ص٣٠٧، عن عمر بن الخطاب بمعناه.

[339] ورد العديد من الأحاديث بمعنى "أول ما خلق الله..." وهي في الحقيقة متطابقة رغم تباينها الظاهري. فورد في الحديث عن النبي صلّى الله عليه وسلّم أنه قال: "إن أول ما خلق الله القلم، ثم قال له اكتب فقال وما أكتب قال اكتب القدر فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة" (كنز العمال: رقم ٥٩٧، ١٥١١٦، ١٥١١٧، ١٥٢٢٠، ١٥٢٢٣، ١٥٢٢٤ ...). ووردت أحاديث أخرى كثيرة عن أول ما خلق الله تعالى، مثل: النور المحمدي، العرش، اللوح المحفوظ، الروح، العقل. والجمع بين هذه الأحاديث المختلفة أن هذه الأشياء التي خلقها الله تعالى أول شيء هي أسماء وصفات مختلفة للنور المحمدي، الذي خلق الله منه كل شيء، وقد ذكر أيضاً في القرآن بمسميات كثيرة منها: الإمام المبين، العدل، "كل شيء"، القلم، الحق في مثل قوله تعالى: (وما خلقنا السموات والأرض إلا بالحق)، ولذلك يسميه الشيخ محيي الدين باسم: "الحق المخلوق به" و"الحقيقة المحمدية" (الفتوحات المكية: ج١ص١١٩، ٧٣١، ج٢ص٦٠، ١٠٤، ٢٨٣، ٢٨٥، ٣١٠-٣١٣، ٣٩١، ٣٩٦، ٤١٥، ٤٨٨، ج٣ص٧٧، ٩٢، ١٥٠، ٣٥٤-٣٥٥، ٤٤٤، ج٤ص٢١١)، والله تعالى أعلم.

ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿﴾)، وكذلك فإن التوراة تبدأ بحرف الباء كما يقول الشيخ الأكبر.[340]

فحرف الباء إذاً مرافق لكل شيء، وخاصة نقطة الباء. وهذا معنى قول أبي مدين أنه ما رأى شيئا إلا رأى الباء عليه مكتوبة.

علم النقل والكشف

وحول موضوع الفرق بين علم الذوق وعلم الخبر أو النقل، ينقل الشيخ الأكبر قول أبي يزيد البسطاميّ رضي الله عنه وهو يخاطب علماء الرسوم، الذين يعتمدون على علم الخبر والرواية: "أخذتم علمكم ميتاً عن ميت وأخذنا علمنا عن الحيّ الذي لا يموت؛ يقول أمثالنا حدثني قلبي عن ربي وأنتم تقولون حدثني فلان، وأين هو؟ قالوا: مات، عن فلان، وأين هو؟ قالوا: مات".

وفي هذا الصدد يقول الشيخ الأكبر أن الشيخ أبا مدين رحمه الله كان إذا قيل له: قال فلان عن فلان عن فلان، يقول: "ما نريد نأكل قديداً هاتوا ائتوني بلحم طري"، أي حدثوا عن ربكم واتركوا فلاناً وفلاناً، فإن أولئك أكلوه لحماً طرياً، والواهب لم يمت، وهو أقرب إليكم من حبل الوريد، والفيض الإلهيّ والمبشرات ما سُدّ بابها، وهي من أجزاء النبوّة، والطريق واضحة، والباب مفتوح، والعمل مشروع، والله يهرول لتلقي من أتى إليه يسعى، وما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم، وهو معهم أينما كانوا. فمن كان معك بهذه المثابة من القرب مع دعواك العلم بذلك والإيمان به لِمَ تترك الأخذ عنه والحديث معه وتأخذ عن غيره ولا تأخذ عنه فتكون حديث عهد بربك؟[341]

وفي المعنى نفسه يقول الشيخ الأكبر في حديثه عن أنواع الفتوح ومقاماته من الباب السادس عشر ومائتان من الفتوحات المكية أن الشيخ أبا مدين يقول في الفتوح: "أطعمونا لحماً طرياً كما قال الله تعالى، لا تطعمونا القديد". أي لا تنقلوا إلينا من الفتوح إلا ما يفتح به عليكم في قلوبكم، لا تنقلوا إلينا فتوح غيركم.[342]

خلاف بسيط

ولكن هذا لا يمنع أن يختلف ابن العربي مع شيخه في بعض الأمور نظرا لاختلاف المشهد، فقال مثلا في حكم تأمين الإمام إذا فرغ من قراءة الفاتحة، هل يقول آمين أم لا يقولها؟ فيجيب أن العلماء اختلفوا في ذلك فمن قائل يؤمّن ومن قائل لا يؤمن. ثم يقول إن اعتبار ذلك في الباطن هو:

> إنّ جعلَ الإنسان نفسه أجنبية عنه فإنه يخاطبها مخاطبة الأجنبي. يقول الله تعالى: (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه) وهذا يجده كل إنسان ذوقا تقتضيه نشأته. ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول للإنسان المكلف: "إن

---

[340] الفتوحات المكية: ج١ص٨٣.

[341] الفتوحات المكية: ج١ص٢٨٠.

[342] الفتوحات المكية: ج٢ص٥٠٥.

لنفسك عليك حقا" فأضاف النفس إليه والشيء لا يضاف إلى ذاته فجعل النفس غير الإنسان وأوجب لها عليه حقا تطلبه منه. فإن كان هو التالي فلا بد لنفسه عند فراغ الفاتحة آمين وإن كانت النفس التالية فلا بد أن يقول هو آمين والإنسان واحد العين كثير بالقوى ويؤيده قوله: (فمنهم ظالم لنفسه) و"بادرني عبدي بنفسه" في القاتل نفسه. فمن كان هذا مشهده قال يؤمن الإمام والمنفرد. ومن رأى أن الإمام عين واحدة أو يرى أنه قال بربه في قوله: "بي يسمع وبي يبصر وبي يتكلم"، وقد كان الشيخ أبو مدين ببجاية يقول لا يؤمن الإمام. والتأمين أولى بكل وجه فإن المكلف مأمور إذا دعا أن يبدأ بنفسه وقوله آمين دعاء يقول "اللهم أمّنا بالخير وبما قصدناك فيه" والإنسان بحكم حاله ومشهده وفي الحديث الثابت: "إذا أمّن الإمام فأمّنوا".[٢٤٣]

علم المناسبات

ويروي الشيخ الأكبر عن علم المناسبات قصة طريفة، وذلك أثناء حديثه عن المعاني الباطنية للعبادات. ويبين هذا المقطع كيف يربط الشيخ الأكبر والشيخ أبو مدين بين بواطن الأمور وظواهرها:

(باب الوضوء من حمل الميت) قالت به طائفة من العلماء ومنع أكثر العلماء من ذلك وبالمنع أقول. (وصل حكم الباطن فيه) أما حكم الباطن في ذلك فإنه يتعلق بعلم المناسبة؛ فلا يجتمع شيء مع شيء إلا لمناسبة بينهما. قال أبو حامد الغزالي: رأى بعض أهل هذا الشأن بالحرم غرابا وحمامة ورأى أن المناسبة بينهما تبعد فتعجب وما عرف سبب أنس كل واحد منهما بصاحبه فأشار إليهما فدرّجا فإذا بكل واحد منهما عرج فعرف أن العرج جمع بينهما. وكان رجل من التجار يقول لشيخنا أبي مدين أريد منك إذا رأيت فقيرا يحتاج إلى شيء تعرّفني حتى يكون ذلك على يديّ فجاءه يوما فقير عريان يحتاج إلى ثوب، وكان مقام الشيخ وحاله في ذلك عدم الاعتماد على غير الله في جميع أموره في حق نفسه وفي حق غيره فإن الشيوخ قد أجمعوا على أنه من صح توكله في نفسه صح توكله في غيره، فتذكر أبو مدين رغبة التاجر فخرج مع الفقير إلى دكان التاجر ليأخذ منه ثوبا فماشاه إنسان أنكره الشيخ فسأله عن دينه فإذا هو مشرك فعرف المناسبة وتاب إلى الله من ذلك الخاطر فالتفت فإذا بالرجل قد فارقه ولم يعرف حيث ذهب. فلما أخبرت بحكايته وأنا أعرف بلادنا ما في بلاد الإسلام منها دينان أصلا فعلمت أن الله أرسل إليه من خاطره ذلك شخصا ينبهه

---

[٢٤٣] الفتوحات المكية: ج١ص٤٤٨.

فإن الله علمنا منه أنه يخلق من أنفاس العالم خلقا. فكذلك من هذا الباب من حمل ميتا فلمناسبة بينهما وهو الموت فإما موت عن الأكوان وإما موت عن الحق فالميت عن الحق يتوضأ والميت عن الأكوان باق على وضوئه."[344]

التفسير الباطني

أما عن موضوع التفسير الباطني الذي يتميز به أهل الله من الصوفية، فيقول الشيخ الأكبر:

وإنما فرّقنا في التعبير بين الإشارة والتحقيق لئلا يتخيل من لا معرفة له بما آخذ أهل الله إنهم يرمون بالظواهر فينسبونهم إلى الباطنية وحاشاهم من ذلك بل هم القائلون بالطرفين. كان شيخنا أبو مدين يذم الطرفين على الانفراد ويقول إن الجامع بين الطرفين هو الكامل في السنّة والمعرفة."[345]

فلقد اتهم بعض المعارضين الشيخ الأكبر وأمثاله من أهل الله بالقول بمذهب الباطنية، وهم الذين يسعون وراء تأويلات باطنية للقرآن الكريم والسنّة الشريفة ويبطلون ظاهرها، وهذا بهتان وقول مردود لأن الشيخ ابن العربي قد نفى ذلك بشكل قطعي وأوضح بطلان هذا المذهب. ولكنه رضي الله يدعو دائما إلى النظر في المعاني الباطنة من غير أن يُبطل المعاني الظاهرة. ولقد ناقشنا هذا الموضوع بشكل مستفيض في كتاب سلوك القلب، وبيّنا الفرق بين التفسير والتأويل الذي هو التفسير الباطني وبيّنا أن التأويل لا يُبطل التفسير بل هو وجه آخر من وجوه التفسير الكثيرة. فإن القرآن الكريم من أعظم الأشياء وأبينها وأجلّها وأعزّها وفيه من المعاني ما تجفّ في كتابتها الأقلام وتعجز عن وصفها الألسن. فالقرآن الكريم كلام الله ومن أوتي الفهم في القرآن فقد أوتي الحكمة وفصل الخطاب. ويقول الله تعالى في سورة البقرة: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾﴾، فمن أوتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً لما فيها من الوجوه الكثيرة، منها المباشرة التي لا تحتاج إلى تأويل ومنها ما تحتاج للتأويل. فلا يقتصر معنى القرآن على التفسير الظاهري بل هو أعزّ من ذلك بكثير، فقد قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "مَا مِن آيةٍ من آياتِ القرآنِ إلا ولها ظهرٌ وبطنٌ ولبطنِهِ بطنٌ إلى سبعةِ أبطنٍ"، وفي رواية: "إلى تسعةٍ". ومع أن هذه الأحاديث قد تكون ضعيفة ولكنّ لها ما يقوّيها، حيث روى ابن حبان مثلا في صحيحه من حديث عبد الله ابن مسعود: "إن للقرآن ظهراً وبطناً وحداً ومطّلعاً".[346] ويضيف الشيخ محيي الدين فيقول: وقد أجمع أصحابنا أهل الكشف على صحة خبر عن النبي صلّى الله عليه وسلّم أنه قال: ما مِن آيةٍ إلاّ ولها ظاهرٌ وباطنٌ وحدٌّ ومُطّلعٌ."[347] ثم يفصّل في مكان آخر أن لكل مرتبة من هذه المراتب رجال ولكل طائفة من هؤلاء

---

[344] الفتوحات المكية: ج١ص٣٥٦.

[345] الفتوحات المكية: ج١ص٦٥٤.

[346] رواه الطبراني في المعجم الكبير وذكر مثله السيوطي في الجامع الصغير عن ابن مسعود (حديث رقم ٢٧٤٢).

[347] الفتوحات المكية: ج١ص١٨٧، كذلك: ج٣ص٩٤، ج٣ص٢٩١، ج٤ص٤١١.

الرجال قطب وعلى ذلك القطب يدور فلك ذلك الكشف.[٣٤٨]

الريّ

ومن الموضوعات التي يستشهد فيها الشيخ الأكبر بأقوال شيخه أبي مدين هو موضوع الريّ، فيقول إن الريّ هو ما يحصل به الاكتفاء ويضيق المحل به عن الزيادة منه. ثمّ يفصّل القول أنه لا يقول بالريّ إلا من يقول بأن ثمة نهاية وغاية للعالم، وهم الذين كُشف لهم عالَم الحياة الدنيا ونهاية مدّتها وهم أهل الكشف في اللوح المحفوظ المعتكفون على النظر فيه، أو من كان كشفه في نظرته ما هو الوجود عليه ثم يسدل الحجاب دونه ويرى التناهي إذ كل ما دخل في الوجود متناه، وليس لصاحب هذا الكشف من الكشف الأخروي شيء. فمن رأى الغاية قال بالريّ وعلّق همّته بالغاية وهؤلاء هم الذين قال فيهم الشيخ أبو مدين إنه من رجال الله من يحنّ في نهايته إلى البداية، وذلك لأن الله ما كشف لهم عن حقيقة الأمر على ما هو عليه، كالقائلين برجوع الشمس في طول النهار، وما هو رجوع في نفس الأمر، فالقائلون بالريّ هم القائلون بالدور لما يرونه من تكرار أيام الجمعة والشهور.

وأما الذين لا يقولون بالريّ فهم الذين يسمّون النهار والليل الجديدان وليس عندهم تكرار جملة واحدة. فالأمر له بدء وليس له غاية لكن فيه غايات بحسب ما تتعلق به همم بعض العارفين، فيوصلهم الله إلى غاياتهم، ومن هناك يقع لهم التجديد فيه، لا عليه، فيفوتهم خير كثير من الحكم وعلم كبير في الإلهيات، بل يفوتهم من علم الطبيعة خير كثير، فإن تركيبها لا نهاية له في الدنيا والآخرة.

ثم يضيف الشيخ الأكبر أن سبب الريّ الحقيقي أنه لمّا لم يتمكن صاحب الريّ أن يقبل من الحق إلا ما يعطيه استعداده وليس هناك منع فحصل الاكتفاء بما قبله استعداد القابل وضاق المحل عن الزيادة من ذلك. فقال صاحب هذا الذوق: ارتويت! فما يقول بالريّ إلا من هو واقف مع وقته وناظر إلى استعداده، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.[٣٤٩]

الشيخ أبو يعزى والورث الموسوي

لقد تكلمنا في الفصل السابق عند الحديث عن المقام العيسوي عن معنى وراثة الأنبياء عليهم السلام، وقلنا أن من الأولياء من يكون عيسويا ومنهم من يكون موسويا ومنهم من يكون محمديا، وقد يرتقون في هذه المقامات كالشيخ محيي الدين رضي الله عنه الذي بدأ بالمقام العيسوي وارتقى إلى مقامات أخرى حتى كمل له الورث المحمدي في مكة المكرّمة، كما سنذكر أيضاً في الفصل الرابع.

فيقول الشيخ محيي الدين أن الشيخ أبا يعزى كان من الوراثين الموسويين، وكان له كرامات كثيرة ومشهورة في المغرب، كان من المعاصرين للشيخ الأكبر ولكنه لم يستطع أن يقابله لشغله في ذلك الوقت.

---

[٣٤٨] الفتوحات المكية: ج١ص١٨٧، كذلك: ج٤ص٩.

[٣٤٩] الفتوحات المكية: ج٢ص٥٥٢.

والشيخ أبو يعزى هو يلنور بن ميمون بن عبد الله الدكالي الهزميري ولد سنة ١٠٤٧/٤٣٨ وتوفي سنة ١١٧٧/٥٧٢، عن عمر يناهز ١٣٠ سنة، سكن في فاس مدة ثم خرج إلى بلاد مغراوة واستقر بها بقرية تاغيا، وبها توفي رحمه الله.[350]

ثم يضيف الشيخ الأكبر فيقول إن موسى عليه السلام لما جاء من عند ربّه من جبل الطور بعد أن كلّمه الله تكليما، كساه الله نوراً على وجهه يُعرف به صدق ما ادعاه، فما رآه أحدٌ إلا عمي من شدة نوره، فكان يتبرقع حتى لا يتأذّى الناظر إلى وجهه عند رؤيته. ثم يضيف ابن العربي:

> وكان شيخنا أبو يعزى بالمغرب موسويّ الورث فأعطاه الله هذه الكرامة، فكان ما يرى أحدٌ وجهه إلا عمي فيمسح الرائي إليه وجهه بثوب مما هو عليه فيردّ الله عليه بصره. وممن رآه فعمي شيخنا أبو مدين رحمة الله تعالى عليهما، حين رحل إليه فمسح عينيه بالثوب الذي على أبي يعزى فردّ الله عليه بصره.[351]

بعض أقوال أبي مدين

وقد فاق إعجاب الشيخ محيي الدين بالشيخ أبي النجاوبة كل حدّ رغم أنه لم يعاشره في الواقع، ونراه في الفتوحات المكية وغيرها ينقل عنه أقوالا كثيرة، كقوله الشهير: "لا يكون المريد مريداً حتى يجد في القرآن كل ما يريد."[352]

وحول حديث النبي صلّى الله عليه وسلّم: "لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر"،[353] يقول الشيخ الأكبر:

> فكان شيخنا أبو مدين رضي الله عنه يقول: صَدَقَ، يُزَالُ فيدخل صاحبه الجنة دونه، ويبقى هو (أي الكبر) في النار صورة مجسدة أو يعود الكبر إلى من هو له فيأخذ كل ذي حق حقه.[354]

وذلك مثال قول النبي صلّى الله عليه وسلّم ممازحا للعجوز في الحديث الضعيف الذي رواه الطبراني في الأوسط أن الجنة لا تدخلها عجوز.[355]

---

[350] انظر ترجمته في الطبقات الكبرى للشعراني: ج١ص١٣٦، رقم الترجمة ٢٥٧. وفي الأعلام للزركلي: ج٨ص٢٠٨، وخصّه العلامة أحمد بن أبي القاسم الهروي الصومعي بتأليف سماه: المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى، وكذلك أفرد له الشيخ التميمي (وهو من أصحاب الشيخ محيي الدين) عدة صفحات في "المستفاد"، ص٢٨-٤٠.

[351] الفتوحات المكية: ج٤ص٥١.

[352] الفتوحات المكية، باب٣٢٥.

[353] حديث صحيح متفق عليه، انظر كنز العمال: رقم ٧٧٤٢، وكذلك في صحيح مسلم، باب الإيمان، رقم ١٤٩.

[354] الفتوحات المكية: ج٣ص١١٧.

[355] ذكر الهيثمي في "مجمع الزوائد"، رقم ١٨٧٦٤ عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلّى الله عليه وسلّم أتته عجوز من الأنصار فقالت: يا رسول الله ادع الله أن يدخلني الجنة، فقال نبي الله صلّى الله عليه وسلّم: "إن الجنة لا تدخلها عجوز". فذهب نبي الله صلّى الله عليه وسلّم فصلى ثم رجع إلى عائشة فقالت عائشة: لقد لقيت من كلمتك مشقة وشدة، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "إن ذلك

وحول العبودية، يقول الشيخ أبو مدين: "لا بد من بقاء رسم العبودية ليقع التلذذ بمشاهدة الربوبية."[356]

وحول العلم الذي عندنا من الله تعالى، يقول ابن العربي في قول الله عز وجل: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝﴾ [الإسراء]، أن شيخه أبا مدين يقول إذا سمع من يتلو هذه الآية: "القليل أعطيناه ما هو لنا بل هو معار عندنا والكثير منه لم نصل إليه فنحن الجاهلون على الدوام".[357]

وكذلك قال في مكان آخر يقول: "وكان أبو مدين يأمر أصحابه بإظهار الطاعات فإنه لم يكن عنده فاعل إلا الله."[358]

وكذلك نقل عنه قوله بخصوص عودة الشيخ الواصل للإرشاد:

> فكان شيخنا أبو مدين رضي الله عنه كثيرا ما يقول: "من علامات صدق المريد في إرادته فراره عن الخلق". وهذه حالة الرسول صلّى الله عليه وسلّم في خروجه وانقطاعه عن الناس في غار حراء للتحنث. ثم يقول: "ومن علامات صدق فراره عن الخلق وجوده للحق": فما زال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يتحنث في انقطاعه حتى فَجأه الحق. ثم قال: "ومن علامات صدق وجوده للحق رجوعه إلى الخلق". يريد حالة بعثه صلّى الله عليه وسلّم بالرسالة إلى الناس، ويعني في حق الورثة بالإرشاد."[359]

وكذلك نقل الشيخ محيي الدين ابن العربي في كتاب "محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار في الأدبيات والنوادر والأخبار" أخبارا كثيرة عن الشيخ أبي مدين حدثه بها صاحبه الشيخ أبي عبد الله المروزي، الذي سنتكلم عنه بعد قليل، منها قوله، أي قول أبي مدين:

"من عرف الله من الجيب، رزقه من الجيب. ومن عرفه من الغيب، رزقه من الغيب."[360]

وهكذا نجد أن الشيخ محيي الدين قد تأثر كثيرا بالشيخ أبي مدين بشكل مباشر عن طريق اللقاءات بينهما في عالم المثال، وكذلك عن طريق أحاديثه مع تلاميذه الذي انتشروا في أنحاء الأندلس والمغرب مثل الشيخ عبد الله الموروري والشيخ أبي محمد عبد الله المهدوي في تونس كما سنرى بعد قليل وغيرهم الكثير. وقد ذكرنا في الفصل الأول كيف أن هناك علاقة رابطة بين الشيخ أبي مدين وداود الطائي

كذلك، إن الله إذا أدخلهن الجنة حولهن أبكاراً." رواه الطبراني في الأوسط وفيه "مسعدة بن اليسع" وهو ضعيف، وقد حسنه الألباني لشواهده.

[356] الفتوحات المكية: ج٢ص٣٩٦.

[357] الفتوحات المكية: ج١ص٢٥٣.

[358] الفتوحات المكية: ج٢ص٢٢٢.

[359] الفتوحات المكية: ج١ص٢٥١.

[360] محاضرة الأبرار: ج٢ص٤٨٤.

الذي يبدو أنه من أجداد الشيخ محيي الدين رضي الله عنهم أجمعين.

إقامته الأولى في تونس (٥٩٠/١١٩٣)

وفي السنة نفسها وصل الشيخ محيي الدين إلى تونس حيث أقام فيها مدة، وكان هدفه من هذه الزيارة كما قلنا الاجتماع بشيخ صوفي كبير هو أبو محمد عبد العزيز المهدوي القرشي، ولكنه لم يقم هناك طويلا لأنه عاد في السنة نفسها إلى إشبيلية من الطريق الذي سلكه أثناء قدومه حيث سار بمحاذاة الشاطئ ولم يتوغّل في بلاد المغرب ربما بسبب الاضطرابات التي كانت تسود المنطقة بسبب الحرب بين الموحدين وبين بني غانية.

وفي تونس كان للشيخ الأكبر شأن وقبول عند سلطانها أبي زيد بن أبي حفص محمد بن عبد المؤمن وكان من الموحدين، فكان الناس يقصدونه ليقضي لهم حاجاتهم عند السلطان، كما فعل ابن معتب أحد كبراء تونس الذي أعدّ للشيخ الأكبر وليمة كبيرة وهدايا كثيرة فلما علم الشيخ أنه يريد منه أن يقضي له حاجة عند السلطان يُردّ له بها حقّه لم يقبل منه هداياه ولا أكل من طعامه ولكنّه أجاب له طلبه وقُضيت حاجته. ولذلك يوصي الشيخ الأكبر رضي الله عنه:

> وإياك أن تقبل هدية من شفعت فيه شفاعة فإن ذلك من الربا الذي نهى الله عنه بنص رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في ذلك[361] ولقد جرى لنا مثل هذا في تونس من بلاد أفريقية دعاني كبير من كبرائها يقال له ابن معتب إلى بيته لكرامة استعدّها لي فأجبت فعندما دخلت بيته وقدم الطعام طلب مني شفاعة عند صاحب البلد وكنت مقبول القول عنده متحكماً فأنعمت له في ذلك وقمت وما أكلت له طعاماً ولا قبلت منه ما قدمه لنا من الهدايا وقضيت حاجته ورجع إليه ملكه ولم أكن بعد وقفت على هذا الخبر النبوي وإنما فعلت ذلك مروءة وأنفة وكان عصمة من الله في نفس الأمر وعناية إلهية بنا.[362]

مرسى عبدون

لقد اشتهرت تونس وخاصة في فترة حكم المرابطين والموحدين ثم الحفصيين بالزوايا الصوفية التي كان يتجمّع بها العديد من الفقراء والزهّاد ويحضرون فيها حلقات الذكر عند الشيوخ المرشدين. كان من أهم هذه الأماكن مكان يعرف باسم مرسى عبدون وهو مكان مشهور في تونس يؤمّه الصوفية من كل بقاع المغرب، ولا يزال حتى الآن في حيّ شهير يعرف باسم سيدي بو سعيد. في ذلك الوقت، عند قدوم الشيخ

---

[361] أخرج أبو داود في كتاب البيوع عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: "مَنْ شَفَعَ لأخيه شَفَاعَةً فَأَهْدَى لَهُ هَدِيَّةً عَلَيْهَا فَقَبِلَهَا فَقَدْ أَتَى بَاباً عَظِيماً مِنْ أَبْوَابِ الرِّبَا." (كنز العمال: رقم ١٥٠٧٠).

[362] الفتوحات المكية: ج٤ص٤٨٩.

محيي الدين إلى تونس، كان الشيخ أبو عبد الله بن خميس الكناني، شيخ عبد العزيز المهدوي، مرابطا في هذا المكان، ويقود حلقة صوفية تخرّج منها الكثير من المشاهير.

بعد وفاة الشيخ الكناني تولى الشيخ عبد العزيز المهدوي الإشراف على حلقات الذكر في المرسى الذي رابط فيه الكثير من أصحاب الشيخ محيي الدين وغيرهم من الصوفية مثل الشيخ محمد الدباغ وأبو يوسف يعقوب الدهماني (توفي ٦٢١) وأبو علي النفطي والشيخ أبو القاسم علي الهوازي والشيخ أبو سعيد الباجي الذي تولّى مشيخة الحلقة الصوفية بعد وفاة الشيخ عبد العزيز المهدوي (١٢٢٤/٦٢١). ومن ضمن الصوفية المشهورين الذي تخرّجوا من هذا المكان الإمام أبو الحسن الشاذلي (توفي ١٢٥٨/٦٥٦) الذي نشأ في مرسية المدينة نفسها التي ولد بها الشيخ محيي الدين وتتبع خطواته فجاء إلى تونس في حوالي ١٢٢٣/٦٢٠ ليتتلمذ على يد أبي سعيد الباجي في مرسى عبدون.

ويذكر الشيخ محيي الدين في الفتوحات المكية أن الشيخ عبد العزيز المهدوي حدثه عن أسرار هذا المكان وعن تاريخه الروحي وصلته بالأنبياء والحكماء والأولياء والعلماء وأنه مكان مقدّس يتجلى به الحق إلى قلوب العارفين، وسوف نرى بعد قليل كيف أن الشيخ محيي الدين اجتمع بالخضر عليه السلام في هذا المكان. يقول الشيخ محيي الدين في الباب الرابع من الفتوحات المكية، عن الشيخ المهدوي:

> وقد كان رضي الله عنه يترك الخلوة في بيوت المنارة المحروسة الكائنة بشرقيّ تونس بساحل البحر وينزل إلى الرابطة التي في وسط المقابر بقرب المنارة من جهة بابها وهي تُعزى إلى الخضر، فسألته عن ذلك فقال إن قلبي أجده هنالك أكثر منه في المنارة! وقد وجدت فيها أنا أيضاً ما قاله الشيخ. وقد علم وليي أبقاه الله أن ذلك من أجل من يعمر ذلك الموضع إمّا في الحال من الملائكة المكرّمين أو من الجن الصادقين وإما من همّة من كان يعمره وفُقد كبيت أبي يزيد الذي يسمى بيت الأبرار وكزاوية الجنيد بالشونيزية وكمغارة ابن أدهم بالتعن وما كان من أماكن الصالحين الذين فنوا عن هذه الدار وبقيت آثارهم في أماكنهم تنفعل لها القلوب اللطيفة، ولهذا يرجع تفاضل المساجد في وجود القلب لا في تضاعف الأجر فقد تجد قلبك في مسجد أكثر مما تجده في غيره من المساجد وذلك ليس للتراب ولكن لمجالسة الأتراب أو هممهم ومن لا يجد الفرق في وجود قلبه بين السوق والمساجد فهو صاحب حال لا صاحب مقام.[٢٦٣]

ثم يوضح الشيخ رضي الله عنه فضل المسجد الحرام على بقية المساجد كما سنذكره في الفصل الرابع عند الحديث عن مكة المكرمة.

---

[263] الفتوحات المكية: ج١ص٩٩.

الشيخ أبو عبد الله بن خميس الكناني

كان الشيخ الكناني مرابطا في مرسى عبدون وكان الشيخ المرشد للصوفية الذين يؤمّون هذا المكان، وكان ذا مرتبة عالية بين الرجال مع أنه كان يخفيها ولا يعلم ذلك منه إلا القليل. ولكن الشيخ محيي الدين ابن العربي، رغم صغر سنه وحداثة عهده في التصوف، كان مطلعا على مرتبة الشيخ الكناني ويذكر في رسالة الدرّة الفاخرة أنه قضى برفقته أقل من سنة وكان يحبّه ويجلّه كثيراً في حين أن صاحبه الشيخ المهدوي لم يكن يعرف المقام الرفيع لهذا الشيخ ولذلك لما أراد الشيخ محيي الدين الرحيل أوصاه الشيخ الكناني أن لا يبوح لصاحبه المهدوي عن مقامه وحاله، وحتى طلب منه أن لا يفكر هو نفسه بذلك.[٢٦٤]

ومع ذلك فإن علوّ درجة الشيخ الأكبر بين مشاهير الأولياء والشيوخ الكبار لم تكن تمنعه من احترامهم وتبجيلهم، حيث يذكر الشيخ الأكبر أن الشيخ الكناني كان له شأن رفيع في العلم بالله تعالى وله بركات مشهودة، وقد زاره الشيخ محيي الدين حافيا على قدميه في شدة الحر[٢٦٥] تأسّيا بشيخيه أبي يعقوب وأبي محمد الذين قالا له إنهما زاراه على هذه الحالة.[٢٦٦]

الشيخ عبد العزيز المهدوي

وهو الشيخ عبد العزيز بن أبي بكر المهدوي المعروف بابن الكره (توفي ١٢٢٤/٦٢١)، وهو أحد تلاميذ الشيخ أبي مدين، وكان الشيخ محيي الدين يحبه كثيرا، وهو الذي يعود له الفضل في كتابة العديد من الكتب المهمة التي كتبها الشيخ محيي الدين وأهداها للشيخ أبي محمد عبد العزيز المهدوي سواء في بيته في تونس أو من مكة وأرسلها له، ومنها رسالة روح القدس ورسالة الدرة الفاخرة التين لا غنى عنهما لمن يريد أن يكتب عن حياة ابن العربي لأنه ذكر فيهما العديد من الرجال الذين التقى بهم مع تحديد المكان والزمان في كثير من الأحيان. ويقول الشيخ الأكبر في كتاب روح القدس موجها كلامه لعبد العزيز:

> وأبشرك يا وليّي رضي الله عنك أني جربت إخواني في هذا الطعام من باب المغرب إلى باب مكة فما دخل في بطني أخلص من طعامك. كنت أجد له ما لا يمكن وصفه وذلك لطيب النفوس وعدم تعلق خاطرك به إلا في وقت ما تعرفه أنت وابن المرابط وتعرف سببه. وهذا أعجب ما تسمع في هذا الباب وله أصل يستند إليه في اللحم الذي تصدق به على بريرة وهو حرام على النبي صلّى الله عليه وسلّم فلما أهدت منه للنبي صلّى الله عليه وسلّم أكله حلالا محضا

---

[٢٦٤] مرجع، كلوديا ١١٥.

[٢٦٥] هذا يعني أن الزيارة كانت في الصيف، وربما كانت في بداية قدوم الشيخ محيي الدين لتونس التي بقي فيها قريب السنة مما يعني أنه قدم إلى تونس في شهر جمادى الأول أو الثاني سنة ٥٨٩ (يونيو- ١١٩٣ يوليو).

[٢٦٦] روح القدس: ص٨٤.

> وقال هو عليها صدقة ولنا هدية."[٣٦٧] فالق بالك يا وليي وأحضر ذهنك في هذه المسألة فإنها لطيفة وقد قصدتك بها متحفا فإنها من أعظم التحف لأنها تعطيك من أسرار وضع الشرع من عند الله في عبيده علما كثيرا."[٣٦٨]

وكذلك ينقل الشيخ محيي الدين عن الشيخ عبد العزيز قوله حول قارئ القرآن الذي هو كلام الله أنه يقول: ما دام في بشريته فالكلام له من وراء حجاب ولكن إذا خرج عن بشريته ارتفع الحجاب، فيقول الشيخ محيي الدين أن عبد العزيز قد أصاب في ذلك القول وأخطأ فأما إصابته فإثباته وتقريره للكلام من وراء الحجاب وإنه لم يجمع بينه وبين المشاهدة وأما خطؤه فقوله "ارتفع الحجاب" ولم يقيّد وإنما يقال ارتفع حجاب بشريته ولا شك أنه خلف حجاب بشريته."[٣٦٩]

رسالة إلى أصحاب الشيخ عبد العزيز المهدوي

وفي تونس (أو ربّما بعدما عاد منها إلى الأندلس) كتب الشيخ محيي الدين ابن العربي رسالة إلى أصحاب الشيخ عبد العزيز يحاورهم فيها عن الفرق بين الماهيّة والهويّة. ويشار إلى أنّ هذه الرسالة هي نفسها الرسالة التي تحمل اسم رسالة ابن العربي إلى ابن عمّه أبي عليّ بن عبد الله بن محمد ابن العربي."[٣٧٠]

العالم أحمد بن داود الملفاوي

وفي بيت عبد العزيز المهدوي التقى الشيخ الأكبر بالعالم أبي العباس أحمد بن داود بن علي بن ثابت بن منصور الحريري الملفاوي الذي روى له رؤيا تشير إلى أهمية العمل في علم الحديث: يقول أبو عباس:

> كان لي اعتقاد كبير في الإمام أبي حنيفة لحسن رأيه وجودة ذهنه وكنت أميل إليه من دون الأئمة، فرأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في النوم فلم يكلمني وهبت أن أساله وكان أبو بكر خلفه، فقلت يا أبا بكر: كيف مراتب الأئمة عندكم؟ فقال: اللاحق بنا أحمد بن حنبل، ثم الشافعي، ثم مالك، ثم أبو

---

[٣٦٧] من المعلوم أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لا يأكل من الصدقة ويأكل من الهدية، ولكن ورد في الحديث الصحيح (متفق عليه) أنه جاءت وليدة لبني هلال اسمها بريرة تستعين عائشة في كتابتها فسامت عائشة بها أهلها، فقالوا: لا نبيعها إلا ولنا ولاؤها، فتركتها وقالت لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: أبوا أن يبيعوها إلا ولهم ولاؤها، فقال: لا يمنعك ذلك إنما الولاء لمن أعتق، فابتاعتها عائشة وأعتقتها، فخيرت بريرة فاختارت نفسها، فقسم لها النبي صلّى الله عليه وسلّم شاةً، فأهدت لعائشة منها، فقال النبي صلّى الله عليه وسلّم: هل عندكم من طعام؟ فقالت: لا إلا ذا الشاة التي أعطيت بريرة، فنظر ساعة ثم قال: قد وقعت موقعها، "هي عليها صدقة ولنا هدية"، فأكل منها. انظر كنز العمال: رقم ٢٩٧٠٦.

[٣٦٨] روح القدس: ص٤٥.

[٣٦٩] الفتوحات المكية: ج٢ص٦٠٢.

[٣٧٠] مؤلفات ابن عربي: ص٣٢١-٣٢٢، ٣٢٥-٣٢٦.

حنيفة. قال أبو العباس: فتعجبت وعلمت أن النجاة في متابعة الحديث."[371]

كتاب خلع النعلين

وفي تونس في هذه السنة سنة تسعين وخمسمائة لا بدّ أن الشيخ محيي الدين قرأ كتاب خلع النعلين للإمام أبي القاسم ابن قسي على ابن المؤلف الذي أجازه برواية هذا الكتاب فكتب الشيخ الأكبر شرحا له توجد منه مخطوطة في إستانبول.

ذكر حاجي خليفة في كتابه "كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون" حول كتاب "خلع النعلين في الوصول إلى حضرة الجمعين" أنه للشيخ أبي القاسم بن قسي شيخ الصوفية هو أبو القاسم أحمد بن قسي الأندلسي (توفي ~ ٥٦٠/١١٦٥) وهو مختصر أوله الحمد لله الذي أوجد بالحرفين دائرة الوجود الخ وشرحه الشيخ محيي الدين محمد بن علي ابن العربي وذكر فيه أن المصنف كان من أهل الأدب والفضل متضلع من اللغة فلا يقصد إلى كلمة إلا لحكمة يراها وشرحه أيضاً الشيخ عبدي شارح الفصوص."[372]

هل يمكن رؤية الله تعالى

الجواب المباشر على هذا السؤال هو "لا" وذلك لأن عائشة رضي الله عنها قالت: "من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية"،"[373] فإن الله سبحانه وتعالى يقول في سورة الأنعام: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾، ولكن الله تعالى ترك باباً واسعا للرؤية في هذه الآية لأنه ما حجر إلا رؤية العين والأبصار ولم يحجر رؤية القلب والبصيرة.

بعد أن ذكر حديث عائشة الذي ذكرناه للتوّ يقول الشيخ محيي الدين في الباب الثاني والتسعين وأربعمائة أثناء حديثه عن العلم بالله تعالى:

> وهنا سرّ فابحثْ عليه ولا تقل قد حجرت واسعاً فإني ما حجرت عليك أن لا تعلم وإنما حجرت عليك إنك لا تعلم مثل هذا من الحق إلا في صورة محمدية، وقد بيّنا أن أعظم الرؤية رؤية محمدية في صورة محمدية، وإليه ذهب الإمام أبو القاسم بن قسي رحمه الله في كتاب خلع النعلين له وهو روايتنا عن ابنه عنه بتونس سنة تسعين وخمسمائة وما رأيت هذا النّفَس لغيره فتعيّنه فإنه وصل إلينا فيمكن أن يكون كما علمته أنا من الله تعالى إلقاءً إلهياً من غير واسطة، أعني ما علمه ابن قسي في ذلك، ويمكن أيضاً أن يكون غير ابن قسي قبله أو بعده أو

---

[371] رسالة المبشرات، مخطوطة بايزيد ١٦٨٦.

[372] كشف الظنون، حاجي خليفة.

[373] صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق (حديث رقم ٣٠٦٢)، صحيح مسلم، كتاب الإيمان (حديث رقم ١٧٧).

> في زمانه قد أطلعه على ذلك وما وصل إلينا ما وصل إلينا والله أعلم، فلا شرف يعلو شرف العلم ولا حالة تسمو على حالة الفهم عن الله.[٣٧٤]

ثم يضيف الشيخ محيي الدين في كتاب "الإعلام بإشارات أهل الإلهام"، فيقول من غير أن يرجّح أحد هذه الأقوال:

> قال الصدّيق رضي الله عنه: "ما رأيت شيئا إلا رأيت الله قبله"، وقال الفاروق رضي الله عنه: "ما رأيت شيئا إلا رأيت الله معه"، وروي عن عثمان رضي الله عنه: "ما رأيت شيئا إلا رأيت الله بعده"، ومنهم من قال: "ما رأيت شيئا إلا رأيت الله عنده"، ومنهم من قال: "ما رأيت شيئا إلا رأيت الله فيه"، ومنهم من قال: "ما رأيت شيئا حين رأيت"، ومنهم من قال: "ما رأيت شيئا"، ومنهم من قال: "من رآه لم ير شيئا"، ومنهم من قال: "لا يُرى إلا في شيء"، ومنهم من قال: "أغلقت عيني ثم فتحتها فما رأيت إلا الله"، ومنهم من قال: "من رأى نفسه فقد رآه فإن الرؤيا تتبع ومن عرف نفسه فقد عرف ربه"، ومنهم من قال: "لا تثبت الرؤيا إلا بنفيها، فمن لم يره فقد رآه"، ومنهم من قال: "منذ رأيته لم أر غيره"، ومنهم من قال: "لا يراه إلا من عرفه على ما عرفه".[٣٧٥]

لقاؤه الثاني بالخضر عليه السلام

وفي الباب الخامس والعشرين "في معرفة وتد مخصوص معمّر وأسرار الأقطاب المختصين بأربعة أصناف من العلوم وسر المنزل والمنازل ومن دخله من العالم" يذكر الشيخ الأكبر ما جرى له في تونس مع الخضر عليه السلام، وذلك بعد أن زار الشيخ الأكبر شيخه الجراح بن خميس الكناني الذي كان مرابطاً بمرسى عبدون، وعندما غادره في الليل إلى المركب في مرسى تونس، أحس الشيخ الأكبر بوجع في بطنه أثناء الليل وكان أهل المركب قد ناموا، فقام إلى جانب السفينة وتطلّع إلى البحر فرأى شخصاً على بعد في ضوء القمر، وكانت ليلة مبدرة، وهذا الشخص يأتي على وجه الماء حتى وصل إليه فوقف معه ورفع إحدى قدميه واعتمد على الأخرى فرأى الشيخ الأكبر باطنها وما أصابها بلل، ثم اعتمد عليها ورفع الأخرى فكانت كذلك، ثم تكلم معه ثم سلّم وانصرف إلى المنارة على شاطىء البحر على تلّ على بعد ميلين فقطع تلك المسافة في خطوتين أو ثلاثة، فسمع الشيخ محيي الدين صوته وهو على ظهر المنارة يسبّح الله تعالى. فلمّا جاء الشيخ محيي الدين إلى المدينة لقي رجلاً صالحاً فقال له كيف كانت ليلتك البارحة في المركب مع الخضر، ما قال لك وما قلت له؟[٣٧٦]

---

[٣٧٤] الفتوحات المكية: ج٤ص١٢٩.

[٣٧٥] كتاب الإعلام، رسائل ابن العربي (حيدرآباد)، ص٢.

[٣٧٦] الفتوحات المكية: ج١ص١٨٦.

أرض الحقيقة الواسعة

وفي تونس حدث معه أمر عظيم عندما دخل إلى منزل الأرض الواسعة، وهي أرض "لا نهاية لها وكل أرض سواها فمحدودة ليس لها هذا الحكم"،[٣٧٧] وهي في الحقيقة أرض العبادة.[٣٧٨] فعندما دخل هذه الأرض وكان يصلي مع الناس صاح صيحة عظيمة صعق منها الجميع ولكنه في الحقيقة لم يكن يعلم ما حصل:

> ولما دخلت هذا المنزل وأنا بتونس وقعت مني صيحة ما لي بها علم أنها وقعت مني غير أنه ما بقي أحد ممن سمعها إلا سقط مغشيا عليه ومن كان على سطح الدار من نساء الجيران مستشرفاً علينا غشي عليه ومنهن من سقط من السطوح إلى صحن الدار على علوّها وما أصابه بأس وكنت أول من أفاق وكنا في صلاة خلف إمام فما رأيت أحداً إلا صاعقاً فبعد حين أفاقوا فقلت ما شأنكم فقالوا أنت ما شأنك لقد صحت صيحة أثرت ما ترى في الجماعة فقلت والله ما عندي خبر أني صحت.[٣٧٩]

وقد كتب الشيخ محيي الدين كتاباً خاصاً عن أرض الحقيقة،[٣٨٠] وكذلك خصص لها الباب الثامن من الفتوحات المكية.

تبشيره بختم الولاية (تونس، ٥٩٠/١١٩٤)

لقد ذكرنا من قبل أن رؤية الشيخ محيي الدين لجميع الأنبياء والرسل في قرطبة ربما كانت أول بشارة له أنه سينال مرتبة خاتم الولاية، ولكن ذلك على الحقيقة كان تخمينا. أما البشارة الحقيقية الأولى فكانت هنا في تونس في هذه السنة سنة ٥٩٠، وربما في نفس الوقت الذي دخل فيه الشيخ محيي الدين ابن العربي إلى أرض الحقيقة، وهي أرض عبوديّته، ولكنّه لم يعرفها إلا بعد أربع سنوات في فاس. لم يذكر الشيخ الأكبر ذلك إلا بعد حوالي نصف قرن، في "الديوان الكبير"، وسوف نتكلم عن ذلك بعد قليل حينما نتكلم عن فترة وجود الشيخ محيي الدين في مدينة فاس، ثم في الفصل الرابع حين وجوده في مكة المكرمة.

القرآن والسبع المثاني

وربما أيضاً كان بمناسبة دخوله لمنزل أرض الحقيقة أن تلفّظ الشيخ محيي الدين بهذه الأبيات العظيمة:

---

[٣٧٧] الفتوحات المكية: ج٣ص٣٢٤.

[٣٧٨] الفتوحات المكية: ج٣ص٢٤٧-٢٥٠، وكذلك: ج٢ص٢٩٣.

[٣٧٩] الفتوحات المكية: ج١ص١٧٣.

[٣٨٠] مؤلفات ابن عربي: ص٣٢٤.

أنا القرآن والسبع المثاني   وروح الروح لا روح الأواني[381]
فؤادي عند معلومي مقيم   يشاهده وعندكم لساني
فلا تنظر بطرفك نحو جسمي   وعُدْ عن التنعُّم بالمعاني
وغُصْ في بحر ذات الذات تبصر   عجائبَ ما تبدَّتْ للعيان
وأسراراً تراءت مبهماتٍ   مستَّرة بأرواح المعاني[382]

ويذكر الشيخ الأكبر رضي الله عنه أنه ما أنشد من هذه القطعة بيتا إلا وكأنه يسمعه ميتا، أي أنه كان فانيا عن نفسه ولا يتكلم بلسانه.

مقصورة ابن المثنى

وفي جامع تونس جلس الشيخ محيي الدين مرة عند صلاة العصر شرقي الجامع قرب مكان يعرف بمقصورة ابن المثنى وقال بعض الأبيات من الشعر وهي:

مقصورة ابن المُثنّى   أمسيت فيها مُعنّى
بشادنٍ[383] تونسيٍّ   حلواً لما يتمنى
خلعت فيه عذارى[384]   فأصبح الجسم مُضنى
وهزّ عطفيه عُجبا   كالغصن إذ يتثنى
وقال أنت غريب   إليك يا هذا عنا
فذبت شوقاً ويأسا   ومتُّ وجداً وحزنا

ومع أنه لم يكتبها ولم يخبر بها أحدا، ولكنه سيتفاجأ أنه عندما سيعود إلى إشبيلية سيروي له بعض الناس ممن لا يعرفه نفس هذه الأبيات ويقول له إنها لابن العربي وقد كتبها في المكان والزمان المحدد نفسه.

الرجوع إلى الأندلس

ولكن إقامة الشيخ الأكبر الأولى هذه في تونس لم تكن طويلة لأنه رجع في السنة نفسها إلى الأندلس. وربما يكون سبب رجوعه هو علمه بأن أبوه كان مريضا وأن منيّته قد دنت، حيث سنجد أنه قد مات رحمه الله في نفس هذه السنة، وكذلك أمّه. لا نعلم إن كان أحد قد أخبره أو لأنه رأى ذلك في رؤيا أو نحوها، أو ربّما كان أبوه معه في تونس كما ذكرنا أعلاه.

---

[381] ربما يقصد بـ"روح الروح" روح القدس، أما "روح الأواني" فهي روح الجسد، والله أعلم.

[382] الفتوحات المكية: ج١ص٩. وكذلك في كتاب الإسراء.

[383] الشادن هو الظبي.

[384] العِذارُ من اللجام وهو ما سال على خد الفرس، وعِذارُ الرجل: شعرُه النابت في موضع العذار. يقال: ما أحْسَنَ عِذارَه أي خطَّ لحيته. وخَلَعَ العِذارَ أي الحياء؛ وهذا مثل للشابِّ المُنْهمِك في غَيِّه. لسان العرب (عذر).

وأثناء عودته من تونس لا بدّ أنه سلك الطريق الذي أتى منه حيث أنه من المحتمل أن يكون قد مرّ ببجاية وتلمسان رغم أنه لم يترك أيّ خبر عن ذلك ربّما لأنّه لم يتوقّف فيهما كثيرا، وكذلك في سبتة. ولكنّه حتماً توقّف في الجزيرة الخضراء حيث التقى هنا بالشيخ أبي عبد الله القلفاط.

لقاؤه بأبي عبد الله القلفاط (الجزيرة الخضراء ٥٩٠/١١٩٣)

وفي الجزيرة الخضراء التي تقع على الطرف الأندلسي من المضيق اجتمع بالشيخ أبي عبد الله القلفاط وكان بينهما مناظرة حول المفاضلة بين الغني الشاكر والفقير الصابر، كما رجّح بعض العارفين الفقر إلى الله على الغنى بالله. فقال له عبد الله أن أبا العباس بن العرّيف الصنهاجيّ سأله أصحابه مرّة فقال إن رجلين كان عند كل واحد منهما عشرة دنانير فتصدّق أحدهما من العشرة بدينار واحد وتصدق الآخر بتسعة دنانير من العشرة التي عنده. فأيهما أفضل؟ فقال الحاضرون أن الذي تصدق بالتسعة هو الأفضل. فقال الشيخ: بماذا فضلتموه؟ فقالوا له: لأنه تصدق بأكثر مما تصدق به صاحبه. فقال: حسنٌ، ولكن لم يصلكم روح المسألة وغاب عنكم. فقيل له: وما هو؟ فقال: فرضناهما على التساوي في المال، فالذي تصدّق بالأكثر كان دخوله إلى الفقر أكثر من صاحبه، ففُضّل بسبقه إلى جانب الفقر، وهذا لا ينكره من يعرف المقامات والأحوال، فإن القوم ما وقفوا مع الأجور وإنما وقفوا مع الحقائق والأحوال وما يعطيه الكشف وبهذا فُضّلوا على علماء الرسوم، ولو تصدق بالكل وبقي على أصله لا شيء له كان أعلى، فنقصه من الدرجة والذوق على قدر ما تمسك به.[٣٨٥]

عودته إلى إشبيلية (إشبيلية، ٥٩٠/١١٩٤)

ذكرنا في هذا الفصل أعلاه وفي نهاية الفصل الثاني أن الشيخ محيي الدين قبل أن يقصد المجيء إلى تونس كان على موعد مع الشيخ ابن أشرف الرندي الذي التقاه في سواحل الأندلس الغربية، فلما نوى زيارة تونس أرسل له الشيخ الرندي يعتذر له ويقول له أنه سيلاقيه بعد عودته إن شاء الله تعالى.

فيقول الشيخ محيي الدين أنه في يوم وصوله من هذه الرحلة أو ثاني يوم اجتمع به هذا الشيخ الرندي وبات معه في دار أبي عبد الله القسطيلي.[٣٨٦]

رجال الغيب (إشبيلية، ٥٩٠/١١٩٤)

ثم يقول الشيخ الأكبر أن أي واحد أو جماعة قلّت أو كثرت لا بدّ أن يكون معهم من رجال الغيب واحد عندما يتحدّثون فذلك الواحد ينقل أخبارهم في العالم ويجد ذلك الناس من نفوسهم في العالم حيث يجتمع جماعة في خلوة أو يحدّث الرجل نفسه بحديثٍ لا يعلم به إلا الله، فيخرج أو تخرج تلك الجماعة فتسمعه في النّاس والنّاس يتحدثون به.

---

[385] الفتوحات المكية: ج١ ص٥٧٧.

[386] روح القدس: ص٧٤.

ثم يذكر الشيخ محيي الدين أنه لما رجع إلى إشبيلية، وبينها وبين تونس مسيرة ثلاثة أشهر للقافلة، اجتمع به إنسان لا يعرفه فأنشده بحكم الاتفاق الأبيات التي عملها بمقصورة ابن المثنى بشرقي جامع تونس كما ذكرنا أعلاه، ولم يكن قد كتبها لأحد. فقال له الشيخ: لمن هي هذه الأبيات؟ فقال له: لمحمد ابن العربي! فقال له الشيخ: ومتى حفظتها؟ فذكر له التاريخ الذي عملها والزمان مع طول هذه المسافات! فقال له: ومن أنشدك إياها حتى حفظتها؟ فقال له: كنت جالساً ليلة شرق إشبيلية في مجلس مع جماعة على الطريق ومرّ بنا رجل غريب لا نعرفه كأنه من السياح فجلس إلينا فتحدث معنا ثم أنشدنا هذه الأبيات فاستحسنّاها وكتبناها وقلنا له: لمن هذه الأبيات فقال لمحمد ابن العربي، فقلنا له: فهذا المكان "مقصورة ابن المثنى" ما نعرفها ببلاد؟ فقال: هي بشرقي جامع تونس وهنالك عملها في هذه الساعة وحفظتها منه، ثم غاب عنّا فلم ندر ما أمره ولا كيف ذهب عنّا وما رأيناه."[٢٨٧]

موت أبيه وأمه رحمهما الله تعالى (١١٩٤/٥٩٠)

بعد وصوله إلى إشبيلية توفي والد الشيخ محيي الدين ابن العربي ووالدته رحمهما الله. لا نعرف على وجه التحديد متى حدث ذلك في سنة ٥٩٠، إلا أن وفاة والده كان يوم الأربعاء وقت الظهر من السنة ١١٩٤/٥٩٠، ولكننا لا نعرف أي شهر كان، ولكنّه لا شكّ في أواخر السنة لأنّ هذه السنة دخلت عليه وهو ما يزال في تونس.

ويذكر الشيخ محيي الدين بعض الكرامات التي حدثت لوالده عند وفاته كان منها أنه أخبره عن موعد وفاته قبل حصوله وأنه ظهرت على جبينه بقعة بيضاء لها نور يتلألأ ثم انتشرت على جميع بدنه. ويبدو أن والد الشيخ محيي الدين كان كذلك متحققا في عالم الأنفاس، وهي صفة ذكرناها من قبل عند الحديث عن عبد الله ابن العربي الطائي عمّ الشيخ الأكبر في الفصل الثاني، وكذلك عند الحديث عن أهل اليمن في شرح قصيدة الفصل الأول في آخره، ويقول الشيخ محيي الدين أن مَن هذه صفته يصعب التحقق من موته من مجرّد النظر إليه لأنه يبدو وكأنه حيّ. فيقول في الباب الخامس والثلاثين من الفتوحات المكية، متذكرا يوم وفاة والده:

> وقد رأيت ذلك لوالدي رحمه الله يكاد أنا ما دفناه إلا على شك مما كان عليه في وجهه من صورة الأحياء ومما كان من سكون عروقه وانقطاع نفَسه من صورة الأموات، وكان قبل أن يموت بخمسة عشر يوما أخبرني بموته وأنه يموت يوم الأربعاء وكذلك كان. فلما كان يوم موته، وكان مريضاً شديد المرض، استوى قاعداً غير مستندٍ وقال لي: "يا ولدي اليوم يكون الرحيل واللقاء". فقلت له: "كتب الله سلامتك في سفرك هذا، وبارك لك في لقائك." ففرح بذلك وقال لي: "جزاك الله يا ولدي عني خيراً! كلّ ما كنت أسمعه منك تقوله ولا أعرفه

[٢٨٧] الفتوحات المكية: ج٣ص٣٣٩.

وربما كنتُ أنكر بعضه هو ذا أنا أشهده." ثم ظهرت على جبينه لمعة بيضاء تخالف لون جسده من غير سوء، لها نور يتلألأ، فشعر بها الوالد، ثم إن تلك اللمعة انتشرت على وجهه إلى أن عمّت بدنه؛ فقبّلته وودّعته وخرجت من عنده وقلت له: "أنا أسير إلى المسجد الجامع إلى أن يأتيني نعيك." فقال لي: "رُح ولا تترك أحداً يدخل عليّ"، وجمع أهله وبناته. فلما جاء الظهر جاءني نعيه، فجئت إليه فوجدته على حالة يشكُّ الناظر فيه بين الحياة والموت وعلى تلك الحالة دفنّاه، وكان له مشهد عظيم. فسبحان من يختص برحمته من يشاء. فصاحب هذا المقام حياته وموته سواء."[388]

كتاب المشاهد القدسية

عندما رجع الشيخ محيي الدين إلى إشبيلية كتب كتابا من كتبه الغامضة وهو كتاب "مشاهد الأسرار القدسية ومطالع الأنوار الإلهية"،[389] وهي أربعة عشر مشهداً، وهي رسالة كتبها إلى صاحبه التونسي الشيخ أبي محمد عبد العزيز بن أبي بكر القرشي المهدوي.

وهناك شروحات كثيرة لهذا الكتاب منها شرح قامت به ست العجم بنت النفيس بن أبي القاسم البغدادية، وهي امرأة أميّة، وتقول في مقدمة شرحها الذي فرغت منه سنة ١٤٤٨/٨٥٢ بحلب أنها رأت الشيخ محيي الدين في المنام فطلب منها أن تشرح هذا الكتاب."[390]

تدهور الوضع الأمني في الأندلس

لقد ذكرنا في الفصل الأول كيف أن أمر النصارى الإسبان بدأ يستفحل في الأندلس حين انشغل السلطان يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بإخماد الثورات التي قامت ضده في أفريقية، فطمع بعض أقربائه الذين ولّاهم على إمارات الأندلس واختلفوا فيما بينهم وحاولوا الاستقلال بالحكم دونه. ولما أحسّ ألفونسو السادس (الأدفنش) بضعف المسلمين نقض الهدنة وخرجت جيوشه تعيث فساداً في الأندلس ووجّه كتاباً إلى السلطان يعقوب في مراكش يسخر بالمسلمين ويدعوه فيه إلى القتال، فأجابه السلطان يعقوب على ظهر الرقعة التي فيها كتابه، مبتدئا بقول سليمان عليه السلام كما قال الله تعالى في سورة النمل: (ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾) ثم قال له: "الجواب ما ترى لا ما تسمع"،

---

[388] الفتوحات المكية: ج١ص٢٢٣.

[389] مؤلفات ابن عربي: ص٥٥٧-٥٦٠.

[390] شرح المشاهد القدسية، ست عجم بنت النفيس، تحقيق بكري علاء الدين وسعاد الحكيم، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية - دمشق، ٢٠٠٤، ص٥.

وبدأ الاستعداد وجمع الجيوش وكانت معركة الأرك الشهيرة في التاسع من شعبان سنة ٥٩١ هـ التي انتهت بفوز ساحق للمسلمين الذين اقتحموا حصن الأرك، وقلعة رباح وغيرهما من القلاع القريبة.

مع بداية اندلاع هذه الحروب والمناوشات بين النصارى والمسلمين في الأندلس، بدأ الشيخ الأكبر رحلته من جديد حيث رحل إلى مدينة فاس فأقام فيها مدة ثم عاد إلى إشبيلية لفترة ثم عاد من جديد إلى فاس فأقام فيها عدة سنوات. ولقد حاول بعض الكتاب الغربيون الطعن بابن العربي واتهموه بأنه هرب من الحرب وعاد بعد انتهائها ولكنه لما وجد الوضع غير مستقر في الأندلس هرب من جديد إلى المغرب.[391] ولكن كلوديا عداس دحضت بكل وضوح هذا الادّعاءات وذلك لأن ابن العربي غادر الأندلس سنة ١١٩٧/٥٩٣ بعد الهزيمة المنكرة لألفونسو في موقعة الأرك وبعد أن تمّ استئصال خطر الإسبان في ذلك الوقت.[392]

ويبدو من الواضح أن رحلات ابن العربي الكثيرة بين الأندلس والمغرب ليس لها علاقة بالحروب التي كانت تدور من وقت لآخر في تلك المناطق، لأن ابن العربي كان يسعى وراء الشيوخ والمربّين كما رأينا في رحلته الأولى إلى تونس. فمدينة فاس كانت في ذلك الوقت معقل التصوف في المغرب، وهي المدينة التي اختارها شيخه أبا مدين ليتلقى فيها تربيته الصوفية، وفيها تعرّف على شيخه أبي الحسن عليّ ابن حرزهم (توفي ١١٦٥/٥٥٩) وأبي عبد الله الدقاق[393] الذين خلّفوا العديد من المريدين الذين انتشروا في المغرب والأندلس وخاصة في فاس.

رحلته الثانية إلى المغرب العربي (١١٩٤/٥٩١)

بعد عودته من تونس سنة ٥٩٠ ما لبث الشيخ الأكبر أن عبر المضيق مرة أخرى متوجها إلى مدينة فاس حيث سيجتمع بمشاهير شيوخها ورجالها.

فاس

وتقع مدينة فاس في شمال المغرب وهي تشغل الطرق السهلة التي تصل بين ساحل المغرب المطل على المحيط الأطلنطي ووسطه. يعود تاريخ مدينة فاس إلى القرن الثاني الهجري عندما قام إدريس بن عبد الله مؤسس دولة الأدارسة عام ٧٨٩/١٧٢ ببناء مدينة على الضفة اليمنى لنهر فاس لتكون بدلا عن العاصمة القديمة ولتلي أيضاً تلك العاصمة القديمة التي كانت قد ازدحمت بالسكان. ثم وفد إليها عشرات العائلات العربية من القرويين ليقيموا أول الأحياء فيما عرف بعد ذلك بعدوة القرويين. كما وفد إليها

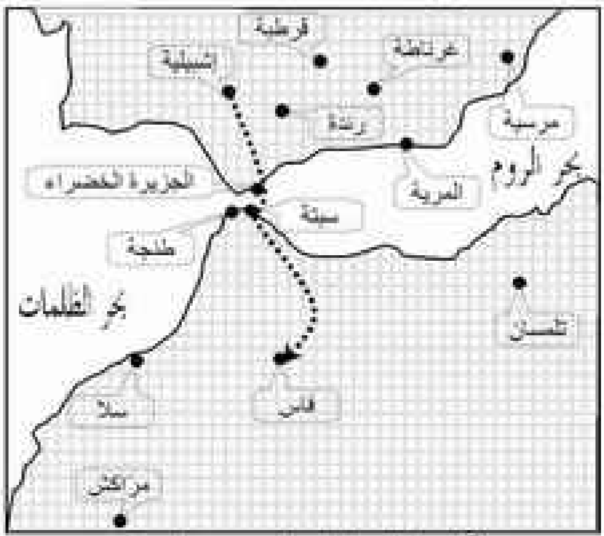
---

[391] انظر (D. Urvoy, Le Monde des Ulémas andalous, Genève: Droz, 1978, p. 191.).

[392] البحث عن الكبريت الأحمر: ص١٣٤.

[393] لقد قام الشيخ محمد بن عبد الكريم التميمي الفاسي (وهو صاحب الشيخ محيي الدين) بترجمة هؤلاء الشيوخ في كتاب "المستفاد" الذي سنذكره أدناه، وقد كان هذا الكتاب مفقودا إلى أن وجد مؤخرا وقام الدكتور محمد الشريف بتحقيقه ونشره في المغرب سنة ٢٠٠٢. انظر مثلا لترجمة الشيخ ابن حرزهم في الجزء الثاني ص١٥-٢٨، ولترجمة الشيخ أبي عبد الله الدقاق انظر الجزء الثاني ص١٨٦-١٨٩.

الأندلسيون الذين أرغموا على الهجرة من الأندلس ليكوّنوا عدوة الأندلسيين. ولكن إدريس توفي قبل تطوير مدينة فاس، وبعد ذلك بعشرين سنة أسس ابنه إدريس بن إدريس المدينة الثانية على الضفة اليسرى من النهر. وقد ظلت المدينة هكذا إلى أن دخلها المرابطون فأمر يوسف بن تاشفين بتوحيد المدينتين وجعلهما مدينة واحدة فصارت القاعدة الحربية الرئيسية في شمال المغرب.



رحلته الثانية إلى المغرب العربي

تجدر الإشارة إلى أن الشيخ محيي الدين قد أقام في مدينة فاس ثلاث مرات على الأقل لفترات متفاوتة سنة ٥٩١ وسنة ٥٩٣-٥٩٤ وسنة ٥٩٧ كما سنرى بعد قليل، ولذلك فإن بعض الأحداث التي ذكرها في فاس من غير أن يذكر تاريخها لم نستطع نحن تحديد تاريخها إلا على وجه التخمين، فربما تكون قد ذكرناها في غير مكانها، والله أعلم.

أبو عبد الله محمد بن قاسم التميمي (فاس، ٥٩١/١١٩٤)

إن من أوائل الشيوخ الذين لقيهم الشيخ محيي الدين العربي في فاس هو الشيخ أبو عبد الله محمد بن قاسم التميمي (توفي ٦٠٣/١٢٠٦)، وهو إمامٌ محدثٌ حافظٌ ذاكرٌ للحديث ورجاله وتواريخهم وطبقاتهم وكان فقيهاً متفنّناً محصلاً راويةً رحّالاً، رحل في طلب العلم إلى الأندلس والمشرق ثم توصّل إلى التصوف وعاد إلى فاس حيث تتلمذ على يدي الشيخ أبي مدين والشيخ أبي يعزى.[٢٩٤] ومن الشيوخ الذين صحبهم بسبتة الشيخ أبي محمد بن عبيد الله الحجري (توفي ٥٩١/١١٩٤)، وهو إمام محدث التقاه الشيخ محيي الدين بسبتة سنة ٥٩٠ (قبل سنة من وفاته رحمه الله) ودرس معه صحيح البخاري كما ذكرنا أعلاه. ومن غير المستبعد أن يكون الشيخ محيي الدين قد التقى مع الشيخ محمد التميمي هناك في سبتة عند الشيخ محمد الحجري فدعاه لزيارته في فاس.

---

[٢٩٤] للمزيد عن ترجمة الشيخ أبي عبد الله محمد التميمي انظر في: ابن الأبار، "التكملة لكتاب الصلة": ج١ ص٣٧٤-٣٧٥. ابن عبد الملك المراكشي، "الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة": ج٨ص٣٥٢.


جانب من مسجد عين الخيل في فاس

كان الشيخ محمد التميمي إمام المسجد الأزهر في عين الخيل في فاس والذي لا يزال قائما حتى هذا الوقت، وهناك اجتمع معه الشيخ محيي الدين وحضر دروسه وتدارس معه الحديث وروى عنه الكثير من الأحاديث في الفتوحات المكية وغيرها.[٢٩٥] وربما هناك أيضاً تلقى الشيخ محيي الدين الخرقة من الشيخ التميمي للمرة الثانية كما سنرى بعد قليل.

وكذلك كان الشيخ محيي الدين يتدارس حال الشيخ أبي عبد الله الدقاق مع صاحبه أبي عبد الله محمد ابن قاسم بن عبد الرحمن بن عبد الكريم التميمي الفاسي الإمام بالمسجد الأزهر بعين الخيل من مدينة فاس والذي ألف كتابا في مناقب الشيخ الدقاق سمّاه "المستفاد في ذكر الصالحين من العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد".[٢٩٦] ولكن ذلك كان على ما يبدو خلال إقامته الثانية في فاس سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة.[٢٩٧]

رجال القهر، أبو عبد الله الدقاق (فاس)

كما هو الحال مع شيخه أبي مدين، فرغم أنه لم يلتقيه في الواقع إلا أن الشيخ محيي الدين ينقل الكثير من الأخبار عن الشيخ أبي عبد الله الدقاق حتى إننا نظنّ أنه من المحتمل أن يكونا قد اجتمعا بشكل ما في عالم المثال كما حصل بينه وبين شيخه أبي مدين.

والشيخ أبو عبد الله الدقاق كان يتردد من فاس إلى سجلماسة، وهو أحد شيوخ شيخه أبي مدين الذي تتلمذ على يديه وعلى يدي ابن حرزهم كما ذكرنا أعلاه. يروى عن الشيخ الدقاق أنه كان يقول: "أنا وليّ أخذ عنه الشيخ أبو مدين علم التصوف".[٢٩٨]

---

[295] انظر مثلا الفتوحات المكية: ج١ص٢٤٤، ج٢ص٦، ج٢ص٤٥١، ج٤ص٥٤٩.

[296] يذكر أحمد توفيق في مقدمة تحقيقه لكتاب "التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي"، تأليف ابن الزيات أبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي، (من منشورات كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، الرباط، الطبعة الأولى، ١٩٨٤، ص١٥-١٨) أن كتاب "المستفاد" يعتبر مفقودا، ولكن هذا الكتاب النفيس قد صدر مؤخرا بتحقيق ودراسة الدكتور محمد الشريف عن منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان (المغرب)، سنة ٢٠٠٢. ويعتبر هذا الكتاب أصل مهم لمعلومات ترجمة بعض شيوخ فاس مما لا يوجد في أي مصدر سواه حيث قدّم مؤلفه مائتين وخمسة وسبعين خبرا عن الأولياء من أفراد عائلته وشيوخه.

[297] الفتوحات المكية: ج١ص٢٤٤، ج٤ص٥٠٣.

[298] شعر أبي مدين التلمساني (الرؤيا و التشكيل)، أ. د. مختار حبار، دراسة – من منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق – ٢٠٠٢.

ويقول الشيخ محيي الدين ابن العربي رضي الله عنه أن الشيخ الدقاق كان من رجال القهر الثمانية ويقال لهم رجال القوة الإلهية، آيتهم من كتاب الله: (أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ ...) [الفتح]، لهم من الأسماء الإلهية: "ذو القوة المتين"، جمعوا ما بين علمِ ما ينبغي أن تُعلم به الذات الواجبة الوجود لنفسها من حيث هي، وبين علمِ ما ينبغي أن تُعلم به من حيث ما هي إله. ويضيف الشيخ محيي الدين أن هؤلاء الرجال لا تأخذهم في الله لومة لائم ولهم هِمم فعّالة في النفوس وبهذا يُعرفون. ومن ذلك أن الشيخ أبا عبد الله الدقاق كان يقول: "ما اغتبت أحداً قط ولا اغتيب بحضرتي أحدٌ قط".[399] أي أنّه يؤثر في نفوس الحاضرين عنده فلا يتكلّمون في غيبة بحضرته، ثم يضيف الشيخ محيي الدين أنه لقي من رجالا القهر ببلاد الأندلس جماعة وكان لهم أثر عجيب وكلّ معنى غريب وكان بعض شيوخه منهم.[400]

وفي موضع آخر يقول الشيخ محيي الدين أنه ما رأى أحداً تحقق بمثل هذا في نفسه مثل الشيخ أبي عبد الله الدقاق بمدينة فاس من بلاد المغرب لأنه ما اغتاب أحداً قط ولا اغتيب بحضرته أحد قط، وأنه ربما كان يقول: "لم يكن بعد أبي بكر الصدّيق صدّيق مثلي" ويذكر هذا.[401]

أبو عبد الله المهدوي (فاس)

أما أبو عبد الله المهدوي الذي التقاه ابن العربي بفاس، وهو غير عبد العزيز المهدوي الذي التقاه بتونس، فهو من رجال الاشتياق، وهم خمسة أنفس، وهم أصحاب القلق، فالأشواق تقلقهم في عين المشاهدة. يقول الشيخ محيي الدين عنهم أنهم من ملوك أهل طريق الله، وهم رجال الصلوات الخمس؛ كل رجل منهم مختص بحقيقة صلاة من الفرائض، وإلى هذا المقام يؤول قوله عليه السلام: "وجُعلت قرة عيني في الصلاة".[402] ويضيف الشيخ الأكبر أن الله يحفظ وجود العالم بهؤلاء الخمسة، وآيتهم من كتاب الله: (حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ ...) [البقرة]، وهم لا يفترون عن صلاة لا في ليل ولا نهار. فيقول الشيخ أن لقي منهم رجلا اسمه صالح البربري وصحبه إلى أن مات وانتفع به، وكذلك كان أبو عبد الله المهدوي بمدينة فاس منهم.[403]

توفي أبو عبد الله المهدوي بفاس سنة ١١٩٨/٥٩٥ ويبدو أنه كان من الأغنياء الأسخياء إذ يقول عنه صاحب التشوّف أنه قد أنقذ أهل المدينة من المجاعة حين وزّع عليهم الطحين جميعا، وأنه بقي أربعين سنة في المسجد مواجها للقبلة،[404] بل أن الشيخ محيي الدين يقول في "روح القدس" أن أبا عبد الله

---

[399] الفتوحات المكية: ج٤ص٥٠٣.

[400] الفتوحات المكية: ج٢ص١٢.

[401] الفتوحات المكية: ج١ص٢٤٤، ج٤ص٥٠٣.

[402] كنز العمال: رقم ١٨٩١٢، ١٨٩١٣، ١٨٩٧٥.

[403] الفتوحات المكية: ج٢ص١٥، ج٣ص٣٤.

[404] التشوف: ص٣٣٢-٣٣٤، رقم ١٦٨.

المهدوي بقي نيفا وستين سنة ما استدبر القبلة حتى مات.[405]

عبد الله بن تاخمست (فاس)

وكذلك التقى الشيخ محيي الدين في فاس بالشيخ عبد الله بن تاخمست (توفي ٦٠٨/١٢١١)، الذي يقول عنه التادلي في كتاب "التشوف" أنه أنقذ مرة ركاب السفينة بمحض وجوده معهم.[406] ويبدو أن ابن العربي التقاه أيضاً في إشبيلية حيث يقول عنه أن أهل إشبيلية يعدّونه من الأبدال.[407] وكذلك يعدّه الشيخ محيي الدين من الملامية.[408]

الملامية

ولقد ذكرنا في المقدمة أن الصوفية هم على الحقيقة صنف من أصناف رجال الله الذين يقسمهم الشيخ محيي الدين إلى ثلاثة أصناف: العبّاد والصوفية والملامية. ويقول الشيخ محيي الدين أن عبد الله بن تاخمست وأبو عبد الله المهدوي كانا من الملامية، وهو مقام رفيع بين أهل الله فوق مقام العبّاد والصوفية. ففي الباب التاسع وثلاثمائة "في معرفة منزل الملامية من حضرة المحمدية" يقول الشيخ الأكبر رضي الله عنه أن هذا المقام هو مقام رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأبي بكر الصديق رضي الله عنه وضيف أن ممن تحقق به من الشيوخ: حمدون القصار، وأبو سعيد الخراز، وأبو يزيد البسطامي. وفي زمانه منهم: أبو السعود بن الشبل، وعبد القادر الجيلي، ومحمد الأواني، وصالح البربري، وأبو عبد الله الشرفي، ويوسف الشبربلي، ويوسف بن تعز، وابن جعدون الحناوي، ومحمد بن قسوم، وأبو عبد الله بن المجاهد، وعبد الله بن تاخمست، وأبو عبد الله المهدوي، وعبد الله القطان، وأبو العباس الحصار، والكثير مما يضيق الكتاب عن ذكرهم.

ثم يوضح الشيخ محيي الدين في هذا الباب أن رجال الله ثلاثة لا رابع لهم وهو العبّاد، والصوفية، والملامية. فالعبّاد هم رجال غلب عليهم الزهد والتبتل والأفعال الطاهرة المحمودة كلها، وطهروا أيضاً بواطنهم من كل صفة مذمومة قد ذمها الشارع، غير أنهم لا يرون شيئاً فوق ما هم عليه من هذه الأعمال ولا معرفة لهم بالأحوال ولا المقامات ولا العلوم الوهبية اللدنية ولا الأسرار ولا الكشوف ولا شيئاً مما يجده غيرهم.

وأما الصوفية فمقامهم فوق مقام العبّاد وهم يرون الأفعال كلها لله وأنه لا فعل لهم أصلاً فزال عنهم الرياء جملة واحدة وإذا سألتهم في شيء مما يحذره أهل الطريق يقولون: (أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾) [الأنعام]، ويقولون: (قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ ... ﴿٩١﴾) [الأنعام]، وهم مثل العبّاد في الجد والاجتهاد والورع والزهد والتوكل وغير ذلك، غير أنهم مع ذلك يرون أن ثم شيئاً فوق ما هم عليه من الأحوال

---

[405] روح القدس: ص٨١.

[406] التشوف: ص٣٩٠-٣٩١، رقم ٢١٣.

[407] روح القدس: ص٨١.

[408] الفتوحات المكية: ج٣ص١٥، ج٣ص٣٤.

والمقامات والعلوم والأسرار والكشوف والكرامات فتتعلق هممهم بنيلها، فإذا نالوا شيئاً من ذلك ظهروا به في العامة من الكرامات لأنهم لا يرون غير الله، وهم أهل خُلق وفتوة. ولكنهم بالنسبة إلى الملامية فهم أهل رعونة وأصحاب نفوس وتلامذتهم مثلهم أصحاب دعاوى يشمرون على كل أحد من خلق الله ويظهرون الرياسة على رجال الله.

وأما الصنف الثالث وهم الملامية فهم رجال لا يزيدون على الصلوات الخمس إلا الرواتب لا يتميزون عن المؤمنين المؤدين فرائض الله بحالة زائدة يُعرفون بها، يمشون في الأسواق ويتكلمون مع الناس، لا يبصر أحد من خلق الله واحداً منهم يتميزون عن العامة بشيء زائد من عمل مفروض أو سنة معتادة في العامة. قد انفردوا مع الله راسخين لا يتزلزلون عن عبوديتهم مع الله طرفة عين، ولا يعرفون للرياسة طعماً لاستيلاء الربوبية على قلوبهم وذلتهم تحتها. قد أعلمهم الله بالمواطن وما تستحقه من الأعمال والأحوال؛ وهم يعاملون كل موطن مما يستحقه، قد احتجبوا عن الخلق واستتروا عنهم بستر العوام فإنهم عبيد خالصون مخلصون لسيّدهم، مشاهدون إياه على الدوام في أكلهم وشربهم ويقظتهم ونومهم وحديثهم معه في الناس، يضعون الأسباب مواضعها ويعرفون حكمتها حتى تراهم كأنهم الذي خلق كل شيء مما تراهم من إثباتهم الأسباب وتحضيضهم عليها؛ يفتقرون إلى كل شيء لأن كل شيء عندهم هو مسمّى الله ولا يُفتقر إليهم في شيء لأنه ما ظهر عليهم من صفة الغنى بالله ولا العزة به ولا أنهم من خواص الحضرة الإلهية أمر يوجب افتقار الأشياء إليهم، وهم يرون كون الأشياء لا تفتقر إليهم ويفتقرون إليها كون الله قال للناس: (أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ۝) [فاطر]، فهم وإن استغنوا بالله فلا يظهرون بصفة يمكن أن يطلق عليهم منها الاسم الذي قد وصف الله نفسه به وهو الاسم الغني، وأبقوا لأنفسهم ظاهراً وباطناً الاسم الذي سماهم الله به وهو "الفقير"، وقد علموا من هذا أن الفقر لا يكون إلا إلى الله الغنيّ، ورأوا الناس قد افتقروا إلى الأسباب الموضوعة كلها وقد حجبتهم في العامة عن الله، وهم على الحقيقة ما افتقروا في نفس الأمر إلا إلى من بيده قضاء حوائجهم وهو الله، قالوا فهنا قد تسمى الله بكل ما يُفتقر إليه في الحقيقة والله لا يَفتقر إلى شيء، فلهذا افتقرت هذه الطائفة إلى الأشياء ولم تفتقر إليهم الأشياء، وهم من الأشياء، والله لا يفتقر إلى شيء، ويفتقر إليه كل شيء. فهؤلاء هم الملامية وهم أرفع الرجال وتلامذتهم أكبر الرجال يتقلبون في أطوار الرجولية وليس ثم من حاز مقام الفتوة والخلق مع الله دون غيره سوى هؤلاء؛ فهم الذين حازوا جميع المنازل ورأوا أن الله قد احتجب عن الخلق في الدنيا وهم الخواص له فاحتجبوا عن الخلق لحجاب سيدهم فهم من خلف الحجاب لا يَشهدون في الخلق سوى سيدهم، فإذا كان في الدار الآخرة وتجلى الحق ظهر هؤلاء هناك لظهور سيّدهم فمكانتهم في الدنيا مجهولة العين.

فالعبّاد متميزون عند العامة بتقشّفهم وتبعّدهم عن الناس. والصوفية متميزون عند العامة بالدعاوي وخرق العوائد من الكلام على الخواطر وإجابة الدعاء والأكل من الكون وكل خرق عادة لا يتحاشون من إظهار شيء مما يؤدي إلى معرفة الناس به قربهم من الله فإنهم لا يُشاهدون في زعمهم إلا الله وغاب عنهم علم كبير، وهذا الحال الذي هم فيه قليل السلامة من المكر والاستدراج. وأما الملامية فلا يتميزون عن أحد من

خلق الله بشيء فهم المجهولون حالهم حال العوام.

وسبب تسميتهم بالملامية هو لأحد أمرين حسب مرتبتهم: فيطلق هذا الاسم على تلامذتهم لكونهم لا يزالون يلومون أنفسهم في جنب الله. وأما الأكابر منهم فيُطلق عليهم في ستر أحوالهم ومكانتهم من الله حيث فعلوا مثل العامة في لوم من يفعل المذموم لكونهم لم يروا الأفعال من الله وإنما يرونها ممن ظهرت على يده فناطوا اللوم والذمّ بها. فلو كشف الغطاء ورأوا أن الأفعال لله لما تعلّق اللوم بمن ظهرت على يده وصارت الأفعال عندهم في هذه الحالة كلها شريفة حسنة.[409]

الفيلسوف أبو عبد الله ابن الكتاني

وكان عالم الكلام الشهير أبو عبد الله بن الكتاني (توفي ٥٩٧/١٢٠٠)[410] من العلماء الذين التقى بهم الشيخ محيي الدين في فاس وكان له معهم نقاشات عدّة حول موضوعات فلسفية في علم الكلام.

فيقول الشيخ محيي الدين في الباب الخامس والستين من الفتوحات المكية أن الطريق الموصلة إلى العلم بالله طريقان لا ثالث لهما ومن وحّد الله من غير هذين الطريقين فهو مقلّد في توحيده. فأما الطريق الأولى فهي طريق الكشف، وهو علم ضروري يحصل عند الكشف يجده الإنسان في نفسه لا يقبل معه شبهة ولا يقدر على دفعه ولا يعرف لذلك دليلا يستند إليه سوى ما يجده في نفسه، وأما الطريق الثانية فهي طريق الفكر والاستدلال بالبرهان العقليّ وهذا الطريق دون الطريق الأوّل، فإن صاحب النظر في الدليل قد تدخل عليه الشُبَه القادحة في دليله فيتكلف الكشف عنها والبحث عن وجه الحق في الأمر المطلوب.[411]

وتجدر الإشارة هنا إلى أننا سوف نجد في الفصل الأخير من هذا الكتاب أن هناك اتفاق بين الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي وشيخ الإسلام تقيّ الدين ابن تيمية رغم ما يُعرف عن انتقاد ابن تيمية لابن العربي وتكفيره له، ولكن هناك نقاط اتفاق كثيرة تدلّ على أنهما في كثير من الأحيان وصلا إلى نفس النتيجة وإنما بطريقين مختلفين، فالشيخ ابن العربي سلك طريق الكشف وهو الطريق الأول الذي ذكرناه أعلاه، والشيخ ابن تيمية سلك الطريق الثاني وهو طريق الفكر، رغم أنه مؤمن بالأصل ومقلّد للنبيّ محمد صلى الله عليه وسلّم، وإنما نقصد أنّه سلك طريق الفكر في الوصول إلى المبادئ الأساسية التي اعتمد عليها في رؤيته كنفي المجاز الذي شاركه به ابن العربي من طريق الكشف.

ولكن الشيخ محيي الدين ابن العربي قد اختلف هنا مع الكتاني حول موضوع العلم الذي يأخذه الولي من طريق الكشف والفتح، هل يُفتح له مع دليله أم لا؟ فيقول الشيخ محيي الدين أنه قد يفتح له فيه ولا يفتح له في دليله، وقد ذاقه هو. أما صاحبه الشيخ الإمام أبو عبد الله الكتاني فكان يقول إنه لا بدّ أن يُفتح له في الدليل من غير فكر ويرى ارتباطه بمدلوله. فلما سمع الشيخ الأكبر منه ذلك علم أن الله تعالى ما فتح عليه

---

[409] الفتوحات المكية: ج٣ص٣٤-٣٦.

[410] التشوف: ص٣٣٥، رقم ١٦٥، والمقدمة ص١٦.

[411] الفتوحات المكية: ج١ص٣١٩.

في مثل هذا العلم إلا على هذا الحد فما قال إلا ما كان فيه ذوقه: فإخباره أنه كذا رآه صحيح ولكن حكمه أنه لا يكون إلا هكذا فهو باطل."[412] وقد ناقشه الشيخ محيي الدين في ذلك وأوضح له سبب قوله."[413]

ثم يضفي الشيخ الأكبر بعض التفصيل عن معرفة الحق تعالى في الفتوحات المكية في الباب السادس عشر "في معرفة المنازل السفلية والعلوم الكونية ومبدأ معرفة الله منها". فيقول إن الكون لا تعلّق له بعلم الذات أصلاً، وإنما متعلقه العلم بالمرتبة وهو مسمى الله، فهو الدليل المحفوظ الأركان السادّ على معرفة الإله وما يجب أن يكون عليه سبحانه من أسماء الأفعال ونعوت الجلال وبأيّة حقيقة يصدر الكون من هذه الذات المنعوتة بهذه المرتبة المجهولة العين والكيف. ثم يقول إنه لا خلاف عندهم في أن الذات لا تُعلم بل يُطلق عليها نعوت تنزيه صفات الحدث وأن القِدم لها والأزل الذي يطلق لوجودها إنما هي أسماء تدل على سُلوب من نفي الأولية وما يليق بالحدوث. ثم يضيف أن هذه المسألة هي موضع خلاف بينهم وبين جماعة من المتكلمين الأشاعرة الذين يتخيلون أنهم قد علموا من الحق صفة نفسية ثبوتية، وهيهات أنّى لهم بذلك! ولكن الشيخ محيي الدين يقول أيضاً أن بعض أصحابه كأبي عبد الله الكتاني وأبي العباس الأشقر والضرير السلاوي صاحب الأروجوزة في علم الكلام قد أخذوا من علماء الكلام مثل أبي سعيد الخرّاز وأبي حامد وأمثالهما في قولهم: "لا يعرف الله إلا الله"."[414]

رسالة تهذيب الأخلاق (٥٩١/١١٩٤)

وفي هذه السنة قام الشيخ محيي الدين ابن العربي بتأليف كتاب لطيف صغير الجرم كبير الفائدة وسمّاه "تهذيب الأخلاق"، ويقسم فيه الشيخ محيي الدين رضي الله عنه هذا الكتاب إلى ثمانية أقسام، حيث عرض في القسم الأول والثاني الأخلاق المذمومة ثم الأخلاق المحمودة، خصّص الأقسام الثلاثة التالية إلى توضيح أنواع النفوس التي تصدر عنها هذه الأخلاق المختلفة وهي النفس الشهوانية المسؤولة عن الملذات التي يسعى وراءها الإنسان من طعام وشراب وجماع، وهذه أمور يشترك بها الإنسان والحيوان؛ فمن ملكته نفسه الشهوانية كان أشبه بالبهائم منه بالناس فيقلّ حياؤه ويسعى وراء أصحاب الفجور ويهرب من أهل العلم. وأما من ملك نفسه الشهوانية فيصبح عفيفا شريفا ضابطا لنفسه. وأما النفس الغضبية فهي أيضاً مشتركة بين الإنسان والحيوان وهي تدعو صاحبها للغضب والدفاع عن نفسه وممتلكاته وتدعوه إلى حب الرئاسة والغلبة، وهي أقوى وأضرّ من النفس الشهوانية إذا ملكت صاحبها.

وأما النفس الثالثة التي تميّز بها الإنسان عن سائر الحيوانات فهي التي يكون بها الفكر والفهم والتمييز، ومع ذلك فإن لها فضائل ورذائل فمن فضائلها التحكم بالنفس الشهوانية والنفس الغضبية وهي تدعو الإنسان لاكتساب العلوم والسعي وراءها. وأما رذائلها فهي الخبث والحيلة والخديعة والمكر والحسد والرياء.

---

[412] الفتوحات المكية: ج٣ص٨.

[413] الفتوحات المكية: ج٤ص٨٠.

[414] الفتوحات المكية: ج١ص١٦٠.

وبعد ذلك سرد الشيخ محيي الدين في القسم السادس أنواع الأخلاق المختلفة وبيَن حدودها ومذمومها من محمودها، مثل العفة والقناعة والحلم والوقار والود والرحمة والوفاء وأداء الأمانة وكتمان السر والتواضع والبشر والصدق والسخاء والشجاعة والمنازعة والهمة والحميّة والعدل والفجور والشرّه والتبذل والسفه والخرق، وهو كثرة الكلام، والقحة، وهو قلة الاحتشام، والعشق والقساوة والتهاون والغدر والخيانة وإفشاء السر والكبر والعبوس والكذب والخبث والبخل والجبن والحسد والجزع والجور إلى ما هنالك من الصفات.

ثم خصّص الشيخ رضي الله عنه القسمين الآخرين لتوضيح طريق تحصيل الأخلاق الحميدة والتعوّد عليها، ثم ذكر أوصاف الإنسان التام الجامع لمحاسن الأخلاق وكيف يمكن أن يصل الإنسان إلى هذه المرتبة.

فكان الكتاب كما قلنا صغيرا في الجرم عظيما في الفائدة.[415] ولكن تجدر الإشارة هنا إلى أن بعض الباحثين يرون أن كتاب الأخلاق الذي كتبه ابن العربي ليس هو هذا الكتاب المعروف والمطبوع الذي لخصناه هنا.

مقام الحزن

يقول الشيخ الأكبر أنه التقى بفاس برجل اسمه عبد الله السمّاد الذي كان الغالب عليه مقام الحزن. ويقول الشيخ محيي الدين أن الحزن إذا فُقد من القلب خرب؛ فالعارف يأكل الحلوى والعسل، والمحقق الكبير يأكل الحنظل، فهو كثير التنغيص لا يلتذّ بنعمة أبداً مادام في هذه الدار لشغله بما كلّفه الله من الشكر عليها. فالعارفون بالنظر إلى هؤلاء كالأطفال الذين لا عقول لهم يفرحون ويلتذون بخشخاشه فما ظنك بالمريدين فما ظنك بالعامة.[416]

ثم يقول الشيخ الأكبر في الباب الرابع ومائة في مقام الحزن أن الحُزن مشتق من الحَزَن وهو الوعر الصعب والحزونة في الرجل صعوبة أخلاقه والحزن لا يكون إلا على فائت والفائت الماضي لا يرجع لكن يرجع المثل فإذا رجع ذكّر بذاته من قام به مثله الذي فات ومضى فأعقب هذا التذكر حزناً في قلب العبد ولا سيما فيمن يطلب مراعاة الأنفاس وهي صعبة المنال لا تحصل إلا لأهل الشهود من الرجال وليس في الوسع الإمكاني تحصيل جملة الأمر فلا بد من فوت فلا بد من حزن. وهذه الدار وهذه النشأة غفلة ما هي نشأة حضور إلا بتعمّل واستحضار فهل ما طلب منا نعجز عنه أو لا نعجز؛ ومحال أن يُطلب منا ما لم يجعل فينا قوة الإتيان به ويمكننا من ذلك فإن الله حكيم وقد أعطانا في نفس هذا الطلب علمنا بأن فينا قوة ربانية ولكن من

---

[415] لقد ذكر الشيخ محيي الدين هذا الكتاب في نهاية كتاب الفتوحات المكية الذي ختمه بباب كبير فيه العديد من الوصايا المفيدة وهو الباب ٥٦٠ الذي يوجد منه طبعات كثيرة بشكل منفصل باسم كتاب الوصايا. أما بالنسبة لكتاب الأخلاق الذي ذكرناه فهو مطبوع أيضاً بعدة طبعات منها ضمن مجموعة رسائل ابن العربي، دار المحجة البيضاء، بيروت، ٢٠٠٠.

[416] الفتوحات المكية: ج١ص٢١٣.

حيث أنا مظهرها أكسبناها قصورا عمّا تستحقه من المضاء في كل ممكن فطلبنا المعونة منه فشرع لنا أن نقول "وإياك نستعين" و"لا حول ولا قوة إلا بالله".

وما يزيل الحزن إلا العلم الخاص وهو قوله "فبذلك فليفرحوا" (أي بفضل الله ورحمته، وليس بما يجمعون، حتى وإن كان من العمل الصالح) فإن الحزن مثل العلم سواء يرتفع بارتفاع المحزون عليه ويتّضع كذلك كالعلم يشرف بشرف المعلوم. والحزن مقام صعب المرتقى قليل من الخلق عليه وهو للكمّل من الناس.[417]

ثم قال رضي الله عنه في الباب الذي يلي ذلك وهو الباب الخامس ومائة في ترك الحزن أن ترك الحزن هو حال وليس بمقام وهو مؤدٍّ إلى خراب القلوب وفي طيّه مكر إلهي إلا للعارف؛ فإنه لا يخرج عن مقام الحزن إلا من أقيم في مقام سلب الأوصاف عنه، كما قيل لأبي يزيد البسطامي: "كيف أصبحت؟"، فقال: "لا صباح لي ولا مساء، إنما هي لمن تقيّد بالصفة وأنا لا صفة لي".[418]

الساقطون

وفي مدينة فاس أيضاً التقى الشيخ محيي الدين برجل كان عليه كآبة كأنه يخدم في الأتون فسأل عنه أبا العباس الحصّار (توفي ١١٨٣/٥٧٩)،[419] وكان من كبار الشيوخ، وقد رآه يجالسه ويحنّ إليه، فقال له أبو العباس هذا رجل كان في مقام فانحطّ عنه فكان في هذا المقام وكان من الحياء والانكسار بحالة أوجبت عليه السكوت عن كلام الخلق. فصار الشيخ محيي الدين يلاطفه ويزيل عنه مرض تلك الزلّة ولم يزل به حتى سرى ذلك الدواء في أعضائه فأطلق محيّاه وفتح له في عين قلبه باباً إلى قبوله، ومع هذا فكان الحياء يستلزمه كما يقول عنه الشيخ الأكبر.[420]

ثم يذكر رضي الله عنه في الباب الحادي والخمسين وثلاثمائة في معرفة منزل اشتراك النفوس والأرواح أنه رأى بقونية في مشهد من المشاهد شخصاً إلهياً يقال له سقيط الرفرف ابن ساقط العرش ورأى أيضاً بفاس شخصاً كأنه يوقد في الأتون ممن سقط وصحبه ونفعه؛ فإن جماعة من أهل الله يُعرضون عن الساقطين وسبب ذلك أنهم ما بلغوا من معرفة الله بحيث أنهم يرونه عين كل شيء فلما حضروه صار عندهم كل من سقط من ذلك المقام الإلهي الذي عينوه أعرضوا عنه لبعده عندهم من الله تعالى، والعلماء بالله ما لهم حالة الإعراض عن هؤلاء لأنهم في حال الثبوت وحال السقوط ما خرجوا عن المقام الإلهي وإن خرجوا عن المقام السعادي فلا أثر للسقوط عندهم فهم مُقبلون على كل ساقط قبول رحمة أو قبول علم ومعرفة لأنهم علموا أين حصل لمّا سقط أو من هو الذي سقط، وقد رفع الله المؤاخذة عنهم وعمّن كانوا عنده؛ وهذا من

---

[417] الفتوحات المكية: ج٢ص١٨٧.

[418] الفتوحات المكية: ج٢ص١٨٧، وكذلك: ج٣ص٥٣٩، ج٤ص١٣، ٤٠، ٥٧، ٥٩، ٩٧، ٣١٩، ٤١٧.

[419] وهو من تلاميذ الشيخ أبي الربيع سليمان التلمساني. انظر في التشوف: ص٢٨٠. ويعتبره الشيخ محيي الدين من الملامية (الفتوحات المكية: ج٣ص٣٤).

[420] الفتوحات المكية: ج١ص٢٣٣.

أعظم العناية لمن عقل عن الله بهم، وهم لا يشعرون ولا يشعر بهم أي العلماء بالله تعالى وما تسقط من ورقة وهي ما تسقط إلا من خشية الله كما قال وإن منها لما يهبط من خشية الله والهبوط سقوط بسرعة عن غير اختيار والجبر الأصل فهذا حكم الأصل قد ظهر في الساقطين."[421]

مع الشيخ يوسف بن يخلف بفاس

لقد ذكرنا من قبل في الفصل الثاني أن الشيخ الإمام أبا يعقوب يوسف بن يخلف الكومي كان من الشيوخ الأوائل الذي عرّفوا الشيخ محيي الدين على طريق الله وكان له عليه فضل كبير لن ينساه ابن العربي. فيبدو أن الشيخ أبا يعقوب قد ترك الأندلس واستقرّ في المغرب، ويبدو أنهما كانا يلتقيان في فاس، حيث يذكر الشيخ محيي الدين في "محاضرة الأبرار" أنه كان يذهب مع الشيخ يوسف لزيارة قبر أبي العباس الخشاب،[422] وكان من الشيوخ المعاصرين لأبي مدين كما ذكره التميمي في كتاب "المستفاد".[423]

البشرى بنصر المؤمنين في معركة الأرك

يذكر الشيخ محيي الدين في الفتوحات المكية أنه كان بمدينة فاس سنة إحدى وتسعين وخمسمائة حين عبرت عساكر الموحدين إلى الأندلس لقتال العدوّ حين استفحل أمره على الإسلام. فيقول إنه لقي هناك رجلاً صالحا وكان من أخصّ أودّائه فسأل ابنَ العربي: ما تقول في هذا الجيش هل يُفتح له ويُنصر في هذه السنة أم لا؟ فقال له الشيخ محيي الدين: ما عندك في ذلك؟ فقال: إن الله قد ذكر ووعد نبيّه صلّى الله عليه وسلّم بهذا الفتح في هذه السنة وبشّر نبيّه صلّى الله عليه وسلّم بذلك في كتابه الذي أنزله عليه، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝﴾ [الفتح]، فموضع البشرى "فتحاً مبيناً" من غير تكرار الألف فإنها لإطلاق الوقوف في تمام الآية، فانظر أعدادها بحساب الجمّل. فيقول الشيخ محيي الدين أنه حينئذ نظر في حساب الجمل لهذه الآية فوجد الفتح يكون في سنة إحدى وتسعين وخمسمائة. وقد حصل ذلك فعلا إذ أنه لما جاز إلى الأندلس بعد فترة وجيزة فكان الله قد نصر جيش المسلمين وفتح الله به قلعة رباح والأركو وكركوي وما انضاف إلى هذه القلاع من الولايات.

ثم يوضح الشيخ الأكبر كيف تم الحساب فيقول إنه إذا أخذنا للفاء ثمانين وللتاء أربعمائة وللحاء المهملة ثمانية وللألف واحد وللميم أربعين وللباء اثنين وللياء عشرة وللنون خمسين والألف قد أخذنا عددها؛ فكان المجموع إحدى وتسعين وخمسمائة.[424]

---

[421] الفتوحات المكية: ج٣ص٢٢٨.

[422] محاضرة الأبرار: ج٢ص٤١٦.

[423] المستفاد في مناقب العبّاد بمدينة فاس وما يليها من البلاد، أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم التميمي الفاسي، تحقيق د. محمد الشريف، القسم الثاني، ص٤٨-٥٠.

[424] الفتوحات المكية: ج٤ص٢٢٠.

معركة الأرك (١١٩٥/٥٩١)

بعد أن تولى يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الخلافة انشغل بإخماد الثورات التي قامت ضده في أفريقية، حتى كتب ألفونسو السادس كتاباً يدعوه فيه إلى القتال وفيه سخرية واستهانة شديدة بالمسلمين، فلما قرأ أبو يوسف الخطاب كتب على ظهر رقعة منه: "﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [النمل]، الجواب ما ترى لا ما تسمع". وأمر بالتأهب للحرب في الأندلس وأذاع كتاب ألفونسو في جنوده فثار الناس للجهاد ضد الإسبان. فسار بقواته إلى الأندلس في العشرين من رجب سنة ٥٩١، ثم بادر بالسير إلى قشتالة، ولكنه لما علم أن ملك قشتالة قد حشد قواته على مقربة من قلعة الأرك وهي تقع على الحدود بين قشتالة والأندلس، اتجه بجيشه إلى ذلك المكان.

وفي التاسع من شعبان سنة ٥٩١ وقعت موقعة الأرك الفاصلة، فتلقى المسلمون عدة ضربات وكادوا يخسرون المعركة لولا احكام الخطة التي وضعوها حيث هجم أمير الموحدين وباغت ألفونسو قائد الإسبان فنفذ إلى قلب جيشهم حين كان معظمهم يقاتلون في الصفوف الأمامية، فالتفوا عليهم، وتساقط معظم الفرسان النصارى حول ملكهم الذي رفض الهروب حتى اقتاده بعض جنوده بعيداً عن الميدان وأنقذوا حياته.

وهكذا انتهى يوم الأرك بهزيمة النصارى على نحو مروع، وسقط منهم في القتال ثلاثون ألف قتيل، وأسروا عشرين ألفاً، وغنم المسلمون معسكر الإسبان بجميع ما فيه من المتاع والمال، واقتحموا عقب المعركة حصن الأرك، وقلعة رباح وغيرهما من القلاع القريبة.

مبايعة القطب (فاس)

ولكن الشيخ محيي الدين قد علم نصر المؤمنين في معركة الأرك من طريق آخر وهو ما ذكره في الباب السادس والثلاثين وثلاثمائة "في معرفة مبايعة النبات القطب صاحب الوقت في كل زمان وهو من الحضرة المحمدية" فيقول في آخر هذا الباب أنه من هذا المنزل علم حين وقف عليه سنة إحدى وتسعين وخمسمائة نصر المؤمنين على الكفار قبل وقوعه بمدينة فاس من بلاد المغرب، وذلك على ما يبدو لأن أحد العلوم المستفادة من باب مبايعة القطب، كما يقول الشيخ الأكبر هو علم فتوح المكاشفة.[٤٢٥]

يقول الشيخ محيي الدين في هذا الباب السادس والثلاثين وثلاثمائة أن المبايعة العامة لا تكون إلا لواحد الزمان خاصة وأن واحد الزمان هو الذي يظهر بالصورة الإلهية في الأكوان، هذا علامته في نفسه ليعلم أنه هو، ثم له الخيار في إمضاء ذلك الحكم أو عدم إمضائه والظهور به عند الغير فذلك له: فمنهم الظاهر ومنهم من لا يظهر ويبقى عبداً إلا إن أمره الحق بالظهور فيظهر على قدر ما وقع به الأمر الإلهي لا يزيد على ذلك شيئاً. هذا هو المقام العالي الذي يعتمد عليه في هذا الطريق لأن العبد ما خُلق بالأصالة إلا ليكون لله

---

[٤٢٥] الفتوحات المكية: ج٣ص-١٤٠.

فيكون عبداً دائماً، ما خلق أن يكون رباً فإذا خلع الله عليه خلعة السيادة وأمره بالبروز فيها برز عبداً في نفسه، سيداً عند الناظر إليه: فتلك زينة ربه وخلعته عليه.

ويقول الشيخ محيي الدين في هذا المقام أنه قيل لأبي يزيد البسطامي رحمه الله في تمسّح الناس به وتبركهم فقال رضي الله عنه: "ليس بي يتمسّحون وإنما يتمسّحون بحلية حلاّنيها ربّي أفأمنعهم ذلك وذلك لغيري"، وقيل أيضاً لأبي مدين في تمسّح الناس به بنيّة البركة وتركّهم يفعلون ذلك: "أما تجد في نفسك من ذلك أثراً؟" فقال: "هل يجد الحجر الأسود في نفسه أثراً يُخرجه عن حجريّته إذا قبّلته الرسل والأنبياء والأولياء وكونه يمين الله؟" قيل لا، قال: "أنا ذلك الحجر".

ويضيف الشيخ الأكبر أنه في هذا المقام قال تعالى: "إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله". فنفاه بعدما أثبته صورة كما فعل ربه في الرمي سواء، أثبته ونفاه: "وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى"، ثم قال الله تعالى: "يد الله فوق أيديهم". فجعل الله يده في المبايعة فوق أيدي المبايعين.

فيقول الشيخ محيي الدين أن الله سبحانه إذا ولّى القطب، وهو واحد الزمان والغوث والخليفة، للنظر في العالم نصب له في حضرة المثال سريراً أقعده عليه ينبئ صورة ذلك المكان عن صورة المكانة كما أنبأ صورة الاستواء على العرش عن صورة إحاطته علماً بكل شيء. فإذا نصب له ذلك السرير خلع عليه جميع الأسماء التي يطلبها العالم وتطلبه بها حللاً وزينة متوجاً مسوراً مدملجاً لتعمّه الزينة علواً وسفلاً ووسطاً وظاهراً وباطناً. فإذا قعد عليه بالصورة الإلهية وأمر الله العالم ببيعته على السمع والطاعة في المنشط والمكره فيدخل في بيعته كل مأمور أعلى وأدنى إلا العالين وهم المهيمون العابدون بالذات لا بالأمر. فيدخل في أول من يدخل عليه في ذلك المجلس الملأ الأعلى على مراتبهم الأول فالأول فيأخذون بيده على السمع والطاعة ويسألهم عن علمهم بالله ويفيدهم علما لم يكن عندهم.

ثم يضيف الشيخ محيي الدين أنه ألّف كتابا مستقلا سماه "مبايعة القطب"[426] يتضمن علماً كبيراً وفيه سؤالات القطب للمبايعين له التي وقعت في زمان ابن العربي من قطب وقته، فإنها ما هي مسائل معيّنة تتكرر من كل قطب وإنما يسأل كل قطب فيما يخطر الله في ذلك الحين مما جرى لهذا الذي بايعه من الأرواح.

ثم يضيف الشيخ محيي الدين أن أول مبايع للقطب هو العقل الأول ثم النفس ثم المقدّمون من عمّال السموات والأرض من الملائكة المسخّرة ثم الأرواح المدبّرة للهياكل التي فارقت أجسامها بالموت، ثم الجن، ثم المولّدات (ومنهم النبات)، وذلك أنه كل ما سبح الله من مكان ومتمكن ومحل وحالّ فيه يبايعه إلا العالين من الملائكة وهم المهيمون والأفراد من البشر الذين لا يدخلون تحت دائرة القطب وما له فيهم تصرّف وهم كمّل مثله مؤهّلون لما ناله هذا الشخص من القطبية لكن لما كان الأمر لا يقتضي أن يكون في الزمان إلا واحد يقوم بهذا الأمر تعيّن ذلك الواحد لا بالأولوية ولكن بسبق العلم فيه بأن يكون الوالي، وفي الأفراد من يكون أكبر منه في العلم بالله."[427]

---

[426] مؤلفات ابن عربي: ص٥٤١.

[427] الفتوحات المكية: ج٣ص١٣٧، وكذلك: ج١ص٩٣، ١٥١، ١٥٦، ١٦٠، ١٨٧، ١٩٩، ج٢ص٦، ١٩، ١٣٠، ٥٧٤، ٦٧٥، ج٣ص١٣٧، ٥٢٠،

الفناء عن المعاصي (فاس، ٥٩١)

يذكر الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي في الباب العشرين ومائتان في معرفة الفناء وأسراره أن الفناء عند الطائفة يقال بإزاء أمور فمنهم من قال إن الفناء فناء المعاصي ومن قائل الفناء فناء رؤية العبد فعله بقيام الله على ذلك وقال بعضهم الفناء فناء عن الخلق وهو عندهم على طبقات منها الفناء عن الفناء وأصّله بعضهم إلى سبع طبقات ذكرها الشيخ محيي الدين في هذا الفصل وذكرناها في كتاب"سلوك القلب من الوجود إلى الفناء ثم البقاء". ثم يقول الشيخ رضي الله عنه أن الفناء لا يكون إلا عن كذا كما أن البقاء لا يكون إلا بكذا ومع كذا، وفي طريق أهل الله لا يكون الفناء إلا عن أدنى بأعلى وأما الفناء عن الأعلى فليس هو اصطلاح القوم وإن كان يصح لغة.

فأما الطبقة الأولى في الفناء فهي أن تفنى عن المخالفات فلا تخطر لك ببال عصمة وحفظاً إلهياً، ورجال الله هنا على قسمين: القسم الواحد رجال لم يُقدّر عليهم المعاصي فلا يتصرفون إلا في مباح وإن ظهرت منهم المخالفات المسماة بالمعاصي شرعاً في الأمة إلا أن الله وفّق هؤلاء، فكانوا ممن أذنبوا فعلموا أن لهم رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب فقيل لهم على سماع منهم لهذا القول "اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم"، كأهل بدر:[428] ففنيت عنهم أحكام المخالفات فما خالفوا فإنهم ما تصرفوا إلا فيما أبيح لهم فإن الغيرة الإلهية تمنع أن ينتهك المقربون عنده حرمة الخطاب الإلهي بالتحجير وهو غير مؤاخذ لهم لما سبقت لهم به العناية في الأزل فأباح لهم ما هو محجور على الغير وسائر من ليس له هذا المقام لا علم له بذلك فيحكم عليه بأنه ارتكب المعاصي وهو ليس بعاص بكلام الله المبلغ على لسان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وكأهل البيت حين أذهب الله عنهم الرجس ولا رجس أرجس من المعاصي وطهرهم تطهيرا وهو خبر والخبر لا يدخله النسخ وخبر الله صدق وقد سبقت به الإرادة الإلهية فكل ما ينسب إلى أهل البيت مما يقدح فيما أخبر الله به عنهم من التطهير وذهاب الرجس فإنما ينسب إليهم من حيث اعتقاد الذي ينسبه لأنه رجس بالنسبة إليه، وذلك الفعل عينه ارتفع حكم الرجس عنه في حق أهل البيت؛ فالصورة واحدة فيهما والحكم مختلف.

والقسم الآخر رجال اطّلعوا على سرّ القدر وتحكّمه في الخلائق وعاينوا ما قُدّر عليهم من جريان الأفعال الصادرة منهم من حيث ما هي أفعال لا من حيث ما هي محكوم عليها بكذا أو كذا، وذلك في حضرة النور الخالص الذي منه يقول أهل الكلام: أفعال الله كلها حسنة ولا فاعل إلا الله، فلا فعل إلا لله. وتحت هذه الحضرة حضرتان حضرة السدفة وحضرة الظلمة المحضة؛ وفي حضرة السدفة ظهر التكليف وتقسّمت الكلمة إلى كلمات وتميّز الخير من الشرّ، وحضرة الظلمة هي حضرة الشرّ الذي لا خير معه، وهو الشرك. والفعل

ج٤ص٧٨.

[428] ورد في الحديث (في الصحيحين وغيرهما) أن الصحابي حاطب بن أبي بلتعة الذي شهد بدرا أنه لما أرسل إلى ناس بمكة من المشركين يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. فقال عمر: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال عليه الصلاة والسلام: إنه قد شهد بدرا، وما يدريك لعل الله قد اطلع على من شهد بدرا فقال: "اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم". انظر في كنز العمال: رقم ٣٠١٩٣، ٣٣٨٩٠، ٣٣٨٩١، ٣٧٩٥٧، ٣٧٩٥٨.

الموجب للخلود في النار وعدم الخروج منها، وإن نُعِم فيها. فلما عاين هؤلاء الرجال من هذا القسم ما عاينوه من حضرة النور بادروا إلى فعل جميع ما علموا أنه يصدر منهم وفنوا عن الأحكام الموجبة للبعد والقرب ففعلوا الطاعات ووقعوا في المخالفات كل ذلك من غير نيّة لقرب ولا انتهاك حرمة. فيقول الشيخ محيي الدين أن هذا فناء غريب أطلعنه الله عليه بمدينة فاس ولم ير له ذائقاً مع علمه بأن له رجالاً ولكن لم يلقهم ولا رأى أحداً منهم، غير أنه يقول إنه رأى حضرة النور وحكم الأمر فيها غير أنه لم يكن لتلك المشاهدة فيه حكم بل أقامه الله في حضرة السدفة وحفظه وعصمه، فكان له حكم حضرة النور وأقامه في السدفة وهو عند القوم أتم من الإقامة في حضرة النور."[429]

والفناء شأنه عجيب، وقد تكلمنا عنه في كتاب سلوك القلب،[430] ومن أعجب ما حدث لبعض أصحاب الشيخ محيي الدين في مدينة فاس وهو الأستاذ النحوي عبد العزيز بن زايد وكان ينكر حال الفناء، ولكنه ذات يوم دخل على الشيخ محيي الدين وهو فرح مسرور فقال له: يا سيدي الفناء الذي تذكره الصوفية صحيح عندي بالذوق قد شاهدته اليوم! قال له كيف؟ قال: ألست تعلم أن أمير المؤمنين دخل اليوم من الأندلس إلى هذه المدينة؟ قلت له بلى، قال اعلم أني خرجت أتفرج مع أهل فاس فأقبلت العساكر فلما وصل أمير المؤمنين ونظرت إليه فنيت عن نفسي وعن العسكر وعن جميع ما يحسه الإنسان وما سمعت دوي الكوسات ولا صوت طبل مع كثرة ذلك ولا البوقات ولا ضجيج الناس ولا رأيت ببصري أحداً من العالم جملة واحدة سوى شخص أمير المؤمنين. ثم أنه ما أزاحني أحد عن مكاني ووقفت في طريق الخيل وازدحام الناس وما رأيت نفسي ولا علمت أني ناظر إليه بل فنيت عن ذاتي وعن الحاضرين كلهم بشهودي فيه، ولما انحجب عني ورجعت إلى نفسي أخذتني الخيل وازدحام الناس فأزالوني عن موضعي وما تخلصت من الضيق إلا بشدة وأدرك سمعي الضجيج وأصوات الكوسات والبوقات فتحققت أن الفناء حق وأنه حال يعصم ذات الفاني من أن يؤثر فيه ما فني عنه. فيقول ابن العربي: هذا يا أخي فناء في مخلوق فما ظنك بالفناء في الخالق!"[431]

وجه بلا قفا (فاس)

وبالإضافة إلى الفناء حيث ينسلخ المرء بشكل ما عن جسمانيته ويصبح روحاً محضاً خارجاً عن المادة، فقد ذاق ابن العربي حالة أخرى مشابهة أصبح فيها كله وجه بلا قفا. ولقد كان مثل هذا الحال لرسول الله صلى الله عليه وسلّم فيقول ابن العربي أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كله وجه بلا قفا فإنه قال صلّى الله عليه وسلّم إني أراكم من خلف ظهري"[432] فأثبت الرؤيا لحاله ومقامه فثبتت الوجهية له، وذكر الخلف والظهر

---

[429] الفتوحات المكية: ج٢ص٥١٢-٥١٣.

[430] سلوك القلب: ص٢٠١-٢٠٦.

[431] الفتوحات المكية: ج٢ص٥١٤.

[432] في الحديث عن أبي هريرة أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: "يا فلان ألا تتقي الله! ألا تنظر كيف تصلي! إن أحدكم إذا قام يصلي إنما يقوم يناجي ربه، فلينظر كيف يناجيه، إنكم ترون أني لا أراكم إني والله لأرى من خلف ظهري كما أرى من بين يدي".

لبشريّته فإنهم ما يرون رؤيته ويرون خلفه وظهره. ثم يضيف ابن العربي أنه لمّا ورث النبي صلّى الله عليه وسلّم في هذا المقام وكانت له هذه الحال كان يصلي بالناس بالمسجد الأزهر بمدينة فاس فإذا دخل المحراب يرجع بذاته كلها عيناً واحداً فيرى من جميع جهاته كما يرى قبلته لا يخفى عليه الداخل ولا الخارج ولا واحد من الجماعة حتى إنه ربما يسهو من أدرك معه ركعة من الصلاة فإذا سلّم وردّ وجهه إلى الجماعة يدعو فيرى ذلك الرجل يجبر ما فاته فيخلّ بركعة فيقول له فاتك كذا وكذا فيتمّ صلاته ويتذكّر. ويضيف الشيخ محيي الدين أن لا يعرف هذه الأشياء ولا هذه الأحوال إلا من ذاقها ومن كانت هذه حاله فحيث كانت القبلة فهو مواجهها وهكذا ذاقه هو بنفسه.[٤٣٣]

منزل النور (فاس، ٥٩١)

ويبدو أن هذه الأحوال الغريبة التي وصفناها أعلاه تحصل للمرء من منزل النور: حيث يصبح كلّه نورا أي روحا. فالجسم مزيج بين النور والظلمة وهو الذي يقيّنا في حدود المادّة وفي حدود الزمان والمكان. أما إذا خرج الإنسان عن جسمانيته فيصبح نورا محضا. وبذلك النور يرى من خلفه مثل ما يرى من بين يديه. فيقول ابن العربي أن هذا المقام ناله سنة وثلاث وتسعين وخمسمائة بمدينة فاس في صلاة العصر وهو يصلي بجماعة بالمسجد الأزهر بجانب عين الخيل فرآه نوراً يكاد يكون يكشف من الذي بين يديه، غير أنه لما رآه زال عنه حكم الخلف وما رأى لنفسه ظهرا ولا قفا ولم يفرّق في تلك الرؤية بين جهاته بل كان مثل الأكرة لا يعقل لنفسه جهة إلا بالفرض لا بالوجود. ويضيف الشيخ أن هذا الأمر كما شاهده كان قد تقدم له قبل ذلك كشف الأشياء في عرض حائط قبلته ولكن هذا كشف لا يشبه ذلك الكشف.[٤٣٤]

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول ليلة حين فرغ من صلاته: "اللّهمّ إنّي أسألُكَ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِكَ تَهْدِي بِهَا قَلْبِي، وتَجْمَعُ بِهَا أَمْرِي، وَتَلُمّ بِهَا شَعَثِي، وتُصْلِحُ بِهَا غَائِبِي، وَتَرْفَعُ بِهَا شَاهِدِي، وَتُزَكّي بِهَا عَمَلِي، وَتُلْهِمُنِي بِهَا رُشْدِي، وتَرُدّ بِهَا الفَتِي، وَتَعْصِمُنِي بِهَا مِنْ كُلِّ سُوءٍ. اللّهُمّ أَعْطِنِي إِيمَاناً وَيَقِيناً لَيْسَ بَعْدَهُ كُفْرٌ. ورَحْمَةً أَنَالُ بِهَا شَرَفَ كَرَامَتِكَ فِي الدّنْيَا وَالآخِرَةِ. اللّهُمّ إِنّي أَسْأَلُكَ الفَوْزَ فِي العَطَاءِ (ويروى في القَضَاءِ) وَنُزُلَ الشّهَدَاءِ وَعَيْشَ السّعَدَاءِ وَالنّصْرَ عَلَى الأَعْدَاءِ. اللّهُمّ إِنّي أُنْزِلُ بِكَ حَاجَتِي وَإِنْ قَصُرَ رَأْيِي وَضَعُفَ عَمَلِي افْتَقَرْتُ إِلى رَحْمَتِكَ. فَأَسْأَلُكَ يا قَاضِيَ الأُمُورِ، وَيا شَافِيَ الصّدُورِ، كَمَا تُجِيرُ بَيْنَ البُحُورِ، أَنْ تُجِيرَنِي مِنْ عَذَابِ السّعِيرِ، وَمِنْ دَعْوَةِ الثّبُورِ، وَمِنْ فِتْنَةِ القُبُورِ. اللّهُمّ مَا قَصُرَ عَنْهُ رَأْيِي وَلَمْ تَبْلُغْهُ نِيّتِي وَلَمْ تَبْلُغْهُ مَسْأَلَتِي مِنْ خَيْرٍ وَعَدْتَهُ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ أَوْ خَيْرٍ أَنْتَ مُعْطِيهِ أَحَداً مِنْ عِبَادِكَ فَإِنّي أَرْغَبُ إِلَيْكَ فِيهِ وَأَسْأَلُكَهُ بِرَحْمَتِكَ رَبّ العَالَمِينَ. اللّهُمّ ذَا الحَبْلِ الشّدِيدِ، وَالأَمْرِ الرّشِيدِ، أَسْأَلُكَ الأَمْنَ يَوْمَ الوَعِيدِ، وَالجَنّةَ يَوْمَ الخُلُودِ مَعَ المُقَرّبِينَ الشّهُودِ، الرّكّعِ السّجُودِ، المُوفِينَ بِالعُهُودِ، أَنْتَ رَحِيمٌ وَدُودٌ،

أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب الصلاة وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي. انظر كنز العمال: رقم ٢٠١٠٣.

[٤٣٣] الفتوحات المكية: ج١ص٤٩١.

[٤٣٤] الفتوحات المكية: ج٢ص٤٨٦.

وَإِنَّكَ تَفْعَلُ ما تُرِيدُ. اللَّهُمَّ اجْعَلْنا هادِينَ مُهْتَدِينَ غَيْرَ ضَالِّينَ وَلاَ مُضِلِّينَ سِلْماً لأَوْلِيَائِكَ وَعَدُوّاً لأَعْدائِكَ، نُحِبُّ بِحُبِّكَ مَنْ أَحَبَّكَ وَنُعَادِي بِعَدَاوَاتِكَ مَنْ خالَفَكَ. اللَّهُمَّ هَذَا الدُّعاءُ وَعَلَيْكَ الاستِجابَةُ وَهَذا الجُهْدُ وَعَلَيْكَ التُّكْلاَنُ. اللَّهُمَّ اجْعَلْ لِي نُوراً في قَبْرِي، وَنُوراً في قَلْبِي، ونُوراً مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ، ونُوراً مِنْ خَلْفِي، ونُوراً عَنْ يَمِينِي، ونُوراً عَنْ شِمَالِي، ونُوراً مِنْ فَوْقِي، وَنُوراً مِنْ تَحْتِي، وَنُوراً في سَمْعِي، وَنُوراً في بَصَرِي، وَنُوراً في شَعْرِي، وَنُوراً في بَشَرِي، وَنُوراً في لَحْمِي، وَنُوراً في دَمِي، ونوراً في عِظَامِي. اللَّهُمَّ أَعْظِمْ لِي نُوراً وأَعْطِنِي نُوراً وَاجْعَلْ لِي نُوراً (وفي رواية: وَاجْعَلْنِي نُوراً). سُبْحَانَ الَّذِي تَعَطَّفَ العِزَّ وقال بِهِ، سُبْحَانَ الَّذِي لَبِسَ المَجْدَ وَتَكَرَّمَ بِهِ، سبحَان الَّذِي لا يَنْبَغِي التَّسْبِيحُ إلاّ لَهُ. سُبْحَانَ ذِي الفَضْلِ وَالنِّعَمِ. سُبْحَانَ ذِي المَجْدِ والكَرَمِ، سُبْحَانَ ذِي الجَلاَلِ والإِكْرَام."[٤٣٥]

وما يهمنا في هذا الدعاء الطويل الذي ذكرناه بكامله للفائدة هو إلحاح رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بأن يجعل الله له نورا في قلبه وقبره ومن بين يديه ومن خلفه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته وفي سمعه وفي بصره وفي شعره وفي بشره وفي لحمه وفي دمه وفي عظامه، وأن يُعظم له الله نورا ويعطيه نورا ويجعل له نورا، وفي رواية ويجعله نورا.

فيقول الشيخ محيي الدين في فصل السجود في الصلاة من الباب الثامن والستين من الفتوحات المكية أنه إذا سجد العارف دعا بهذا الدعاء ليجعل له الله في كل عضو إدراكا بنور خاص يقع به التمييز ثم يقيمه بعد هذا في عين الجمع والوجود فتتحد الأنوار بأحدية العين بأن "يجعله نورا" إن كان في حالة الأحدية أو "يجعل فيه نورا" يهتدي به في ظلمات كونه إن لم يكن هناك.[٤٣٦]

ثم يفصّل الشيخ الأكبر في الباب السادس ومائتين حيث يتكلم عن التجلي وأنواع الأنوار فيقول إن النور هو العلم فالنور الذي هو من فوقنا هو العلم الخارج عن الكسب أي هو علم الكشف الذوقي وأما النور الذي من تحتنا فهو العلم الذي تحكم عليه بالفكر والعقل، وأما النور الذي هو عين ذاتنا فهو كما دعا فيه صلّى الله عليه وسلّم "واجعلني نوراً" فهو عين ذاته، وفي رواية "واجعل لي نوراً" فهو جميع ما ذكر من الأنوار (في الباب السادس ومائتين). ثم يقول إن قوله صلّى الله عليه وسلّم: :اجعلني نوراً" هو مشاهدة نور ذاته إذ لا يُشهد إلا به فإنّ ذاته ما قبلت هذه الأنوار من هذه الجهات الست إلا لعدم إدراكها نور نفسها الذي قال فيه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "من عرف نفسه عرف ربه" و"(ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ...﴿٣٥﴾)" وغيرها من الأمثلة التي مثّله بها.

ثم يقول الشيخ محيي الدين في هذا الباب أن العبد إذا حصل له هذا المقام يشاهد الأنوار منفهقة منه يتنور بذاته عالم سمواته وأرضه، فما يحتاج إلى نور غريب يستضيء به، لأنه يصبح هو المصباح والفتيلة والمشكاة والزجاجة، فإذا عرف هذا عرف أيضاً الزيت، وهو الإمداد الإلهي، وعرف الشجرة التي يكاد زيتها

---

[٤٣٥] كنز العمال: رقم ٣٦٠٨، وهذا الحديث أخرجه الطبراني والبيهقي في الدعوات عن ابن عباس والترمذي في سننه في كتاب الدعوات رقم ٣٤١٥، وقال: هذا حديث غريب.

[٤٣٦] الفتوحات المكية: ج١ص٤٣٤.

يضيء. ويضيف قائلا: "فإذا كانت الزجاجة كالكوكب الدرّي، وهو الشمس هنا، فما ظنك بالمصباح الذي هو عين ذاتك! فلا يكن يا أخي دعاؤك أبداً إلا أن يجعلك الله نوراً. ويزيد قائلا أن هنا سرّ عجيب ينبه عليه من غير شرح لأنه لا يحتمل الشرح؛ وهو أن الله يضرب الأمثال لنفسه ولا تُضرب له الأمثال فيُشبهُ الأشياء ولا تُشبهُهُ الأشياء. فيقال: "مَثَلُ الله في خلقه مَثَلُ الملك في ملكه" ولا يقال: "مَثَلُ الملك في ملكه مَثَلُ الله في خلقه"، فإنّه عين ما ظهر وليس ما ظهر عينه، فإنّه الباطن كما هو الظاهر في حال ظهوره، فلهذا قلنا هو مثل الأشياء وليست الأشياء مثله إذ كان عينها وليست عينه. ويقول الشيخ محيي الدين أن هذا من العلم الغريب الذي تغرّب عن وطنه وحيل بينه وبين سكنه، فإن نكرته العقول لأنها معقولة (أي مقيّدة) غير مسرّحة. ولذلك نجد أن الكثيرين ممن انتقدوا الشيخ الأكبر وحتى من الدارسين والمحبين له قد أشكل عليهم بعض أقواله التي تنطلق من هذه المشكاة ومن هذا النوع من النور الذي لا يتميّز إلا لصاحب القلب الذي ألقى السمع وكثيرا ما يقف عندها صاحب العقل لأن عقله يقيّده من قبول هذه المعاني التي قد تفوق طوره مع أنه يمكن أن يعقلها حين يدرسها ويتلقاها بصدر رحب من غير حكم مسبق.

ثمّ يتكلم الشيخ محيي الدين رضي الله عنه في هذا الباب البديع عن بقية أنواع الأنوار كأنوار المعاني المجردة عن المواد وأنوار الأرواح والأنوار الطبيعية وأنوار الرياح التي ذكرنا من قبل أنها تجلّت له حين كان في قرطبة كما ذكرنا في الفصل الثاني."[٤٣٢]

وما أطلنا الشرح في هذا المقام إلا لأهميّته وفائدته العظيمة، وأنه ربما يزيل الغطاء عن بعض القلوب المعاندة ويكشف ظلمة بعض العقول الغافلة، ومن أراد الزيادة فليراجع الباب المذكور من الفتوحات المكية وهو الباب السادس ومائتين.

ويقول الشيخ الأكبر رضي الله عنه في الباب الخامس والأربعين وثلاثمائة "في معرفة منزل سرٍّ صدق فيه بعض العارفين فرأى نوره كيف ينبعث من جوانب ذلك المنزل، وهو من الحضرات المحمدية" أن هذا المنزل من منازل التوحيد والأنوار وقد أدخله الله تعالى هذا المنزل مرتين وصار فيه نوراً كما قال صلّى الله عليه وسلّم في دعائه "واجعلني نوراً". ثم يقول إنه من هذا المنزل علم الفرقان بين الأجسام والأجساد: فالأجسام هي هذه المعروفة في العموم لطيفها وشفافها وكثيفها، ما يُرى منها وما لا يُرى. أما الأجساد فهي ما يظهر فيها الأرواح في اليقظة الممثلة في صور الأجسام وما يُدركه النائم في نومه من الصور المشبّهة بالأجسام فيما يعطيه الحسّ وهي في نفسها ليست بالأجسام.

ثم يقول إنه لما أعطي هذا المنزل وأقام فيه سنة إحدى وتسعين وخمسمائة (وكان في فاس) شُبّه له بالماء في النهر إذ لا يتميز فيه صورة معيّنة قبل أن يحصل في الأواني، بل هو عين الماء لا غير، فإذا حصل ما حصل منه في الأواني تعيّن عند ذلك ماءُ الحَبّ من ماء الجرّة من ماء الكوز وظهر فيه شكل إنائه ولون إنائه، فحكمت عليه الأواني بالتجزيء والأشكال مع أننا نعلم أنه هو عين الماء الذي النهر مما لم يظهر فيه شكل، ولكن الفرقان بين الصورتين في ضرب المثل هو أن ماء الأواني إذ فقدت الأواني رجعت إلى النهر

[٤٣٢] الفتوحات المكية: ج٢ص٤٨٨.

الأصلي، وكذلك أنوار المنازل إذا فُقدت المنازل رجعت إلى النور الأصلي، ولكن لمّا أراد الله بقاء هذه الأنوار على ما قبلته من التمييز خلق لها أجساداً برزخية تميزت فيها هذه الأرواح عند انتقالها عن هذه الأجسام الدنيوية في النوم وبعد الموت، وخلق لها في الآخرة أجساماً طبيعية كما جعل لها في الدنيا ذلك."[438]

أي أنه سبحانه لو لم يُرد لهذه الأنوار أن تبقى على ما هي عليه من التمييز، لرجعت إلى النور الأصلي وهو الله سبحانه، من اسمه النور، وهو نور السموات الأرض، وقد قال: "واليه ترجعون"، ولولا ذلك أي لولا أنه سبحانه جعل لهذه الأنوار أجسادا برزخية لما كان هناك بعث وحياة بعد الموت، ومن هنا نستطيع أن نفهم قول الله سبحانه وتعالى في سورة الزمر: (ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ... ﴿٤٢﴾)، والله أعلم وهو علاّم الغيوب، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

ونختم هذه الفقرة الطويلة بدعاء النور للشيخ محيي الدين ابن العربي رضي الله عنه:

اللَّهُمَّ إِنَّكَ المَلِكُ الحَقُّ المُبِينُ، أَنْتَ اللهُ، نُورُ الأَنْوَارِ، وَعَالِمُ الأَسْرَارِ، وَمُدَبِّرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَالقَائِلِ فِي الكِتَابِ الكَرِيمِ المَكْنُونِ: (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾) [الأنعام].

سَيِّدِي: بِفَضْلِكَ لاَ تجعَلْنِي مِمَّنْ عَدَلَ بِطُغْيَانِهِ، وَغَلَبَتْ شَقَاوَتُهُ عَلَى إِيمَانِهِ، وَامْدُدْنِي بِرَقِيقَةٍ مِنْ رَقَائِقِ اسْمِكَ النُّورُ لِيَفِيضَ مَدَدُهَا عَلَى ذَاتِي بِنُورِكَ وَامْتِنَانِكَ، فَتَمْلأُ قَلْبِي بِنُورِ إِيمَانِكَ، وَعَقْلِي بِنُورِ مَعْرِفَتِكَ، وَبَصَرِي بِنُورِ مُشَاهَدَتِكَ، وَسَمْعِي بِنُورِ خِطَابِكَ، وَفِكْرِي بِنُورِ اقْتِرَابِكَ، وَتَوَلَّ أَمْرِيَ بِنُورِ ذَاتِكَ، وَأَسْفِرْ وَجْهِيَ بِنُورِ صِفَاتِكَ، وَأَسْبِلْ عَلَيَّ مِنْ فَوْقِي نُوراً مِنْ سِتْرِكَ وَبِرِّكَ، وَمِنْ تحتِي نُوراً يحْفَظُنِي مِنْ مَكْرِكَ، وَعَنْ يَمِينِيَ نُوراً إِلهِياً قُدْسِياً، وَعَنْ شِمَالِيَ نُوراً مُنِيفاً مُحَمَّدِياً، وَمِنْ أَمَامِيَ نُوراً شَرِيفاً مِنْ نُورِكَ القَدِيمِ، أَهْتَدِي بِهِ إِلى صِرَاطِكَ المُسْتَقِيمِ، وَأَيِّدْ أَمْرِيَ بِنُورِ تَدْبِيرِكَ وَضِيَاءِ إِرَادَتِكَ، وَأَيِّدْ رِزْقِي بِقُدْرَتِكَ وَنُورِ مَشِيئَتِكَ.

مَلِيكِي: وَأَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ فِيمَا سَأَلْتُهُ مِنْكَ بِمُحَمَّدٍ الكَامِلِ، الفَاتِحِ الخَاتِمِ، نُورِ أَنْوَارِ المَعَارِفِ، وَسِرِّ أَسْرَارِ العَوَارِفِ، صَفْوَةِ خَلْقِكَ وَسِرِّ عِلْمِكَ. وَأَسْأَلُكَ بِنُورِ وَجْهِكَ وَبِسَاطِ رَحمَتِكَ، أَنْ تَكْسُوَنِي خِلْعَةً مِنْ نُورِ جَلاَبِيبِ العِصْمَةِ، وَأَدْخِلْنِي بِفَضْلِكَ فِي مَيَادِينِ الرَّحمَةِ، وَكُنْ لِي مِنْ حَيْثُ لاَ أَكُونُ، وَاحْفَظْنِي فِي الحَرَكَةِ وَالسُّكُونِ. يَا أَللهُ يَا نُورُ يَا حَقُّ يَا مُبِينُ: نَوِّرْ قَلْبِيَ بِنُورِكَ، وَأَيْقِظْنِي بِشُهُودِكَ، وَعَرِّفْنِي الطَّرِيقَ إِلَيْكَ، وَسَهِّلْهُ بِفَضْلِكَ، وَأَدِّبْنِي بَيْنَ يَدَيْكَ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ. وَالصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِين[439].

---

[438] الفتوحات المكية: ج٣ص١٨٨.

[439] صيغة دعاء النور، من المخطوطة رقم ١٠٠٤٣ في مكتبة الأسد، دمشق.

عودته إلى الأندلس (٥٩٢/١١٩٦)

رغم النموّ الروحي الملحوظ الذي حظي به الشيخ محيي الدين في مدينة فاس، إلا أنه تركها ليعود إلى الأندلس من جديد، ربما بسبب التزاماته العائلية التي خلّفها موت أبيه ومن ثم أمه كما رأينا من قبل، حيث بقيت أختاه يتيمتان وكان لا بدّ له من العناية بهما. فبعد أقلّ من سنة على إقامته في فاس نجد الشيخ محيي الدين في إشبيلية من جديد خاصة بعد انتصار المسلمين في معركة الأرك وعودة الأمن والاستقرار إلى إشبيلية. ولكن الشيخ محيي الدين لم يرجع إلى إشبيلية ليستقر هناك، وإنما سنجده يعود بسرعة إلى فاس ليقضي فيها هذه المرة أكثر من سنتين بشكل مستمر.

شيء من الفكاهة (إشبيلية ٥٩٢/١١٩٦)

ولما رجع الشيخ محيي الدين إلى إشبيلية سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة يقول إنه بات ليلة عند أبي الحسين بن أبي عمرو بن الطفيل وكان يحتشمه ويلتزم الأدب بحضوره وبات معهم أبو القاسم الخطيب وأبو بكر ابن سام وأبو الحكم بن السرّاج، فلما رأى الشيخ محيي الدين أن شدّة احترامهم له قد منعتهم من الانبساط فالتزموا الأدب والسكون، أراد رضي الله عنه أن يعمل الحيلة في مباسطتهم، وكان أن سأله صاحب المنزل أن يقف على شيء من كلامه ليستفيدوا من علمه، فوجد الشيخ طريقاً إلى ما كان في نفسه من مباسطتهم فقال له: عليك من تصانيفنا بكتاب سميناه "الإرشاد في خرق الأدب المعتاد" فإن شئت عرضت عليك فصلاً من فصوله؟ فقال له صاحب الدار: أشتهي ذلك. فمدّ الشيخ رجله في حجره وقال له: "كبّسني"، فحينئذ فهم الجماعة قصده فانبسطوا وزال ما كان بهم من الانقباض والوحشة وباتوا بأنعم ليلة في مباسطة دينية، كما يروي الشيخ الأكبر رضي الله عنه.[٤٤٠]

وطبعا لم يكن لدى الشيخ أي مصنف يتحدث عن خرق الأدب، إنما أراد أن يوضّح للجماعة أن الوقت وقت انبساط وليس وقت انقباض لأنهم ليسوا في مجلس علم ولا في وقت عمل، وإنما كانوا يستعدّون للنوم بعد يوم طويل فلا بدّ من رفع الكلفة والوحشة وترك الأحاديث الرسمية جانبا. ولكن هذه الحيلة التي أتى بها الشيخ محيي الدين رضي الله عنه عندما ذكر اسم هذا الكتاب الغريب قد انطلت في بداية الأمر على صاحب الدار وكادت تنطلي أيضاً على الباحث عثمان يحيى رحمه الله الذي أمضى الكثير من عمره في دراسة الشيخ محيي الدين وجمع كتبه ومؤلفاته، ولكنه لا شكّ لم يجد مثل هذا الكتاب إلا أنه صنّفه ضمن الكتب التي ألّفها الشيخ محيي الدين وذكرها في كتبه وعدّه من ضمن المصنفات الـ ٣١٧ التي ذكرها الشيخ الأكبر لنفسه،[٤٤١] ولكنه عاد وذكر داخل كتابه أن قراءة الفقرة التي ذكر الشيخ فيها هذا الكتاب توحي بأن هذا الكتاب وهمي ولا حقيقة له.[٤٤٢]

---

[٤٤٠] الفتوحات المكية: ج٤ص٥٣٩.

[٤٤١] مؤلفات ابن عربي: ص٥٦-٥٧.

[٤٤٢] مؤلفات ابن عربي: ص١٧٦.

لقاؤه بأبي الوليد أحمد بن محمد ابن العربي (إشبيلية ٥٩٢/١١٩٦)

وفي إشبيلية يبدو أن الشيخ محيي الدين كان يجالس المحدثين بحثا عن الحديث النبوي الذي اعتبر أن رسول الله أمره به في المنام عندما قال له: "تمسّك بي جيّدا وسوف تنجو"، كما ذكرنا في الفصل الأول. وأبو الوليد أحمد بن محمد ابن العربي هو ابن العالم الجليل القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله ابن العربي،[٤٤٣] المشهور في الفقه والأصول والحديث وله العديد من المؤلفات كما ذكرنا في المقدمة، والذي كثيرا ما يخطئ الناس بينه وبين الشيخ الأكبر، فكلاهما يلقب بابن العربي.

يذكر الشيخ الأكبر في مقدمة الفتوحات المكية أنه سمع من أبي الوليد في داره حديث أبي هريرة الذي ذكرناه أعلاه أنه أخذ عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وعاءين من العلم بثّ أحدهما واحتفظ بالآخر، ولو بثّه بين الناس لاتهموه بالكفر.[٤٤٤]

لبس الخرقة لأول مرة (إشبيلية ٥٩٢/١١٩٦)

من المعروف أن الصوفية قد درجوا على عادة تلقي الخرقة من الشيوخ المكملين بهدف تلقي بركاتهم واتّباع مناهجهم. وقد تكلم الصوفية كثيراً في الخرقة وألفوا حولها الكتب العديدة وحاولوا إيجاد أصل شرعي لها. والخرقة عند الصوفية ترمز إلى الصحبة والمبايعة وارتباط المريد بالشيخ. وتعتبر الخرقة رمزا لاتصال المريد بسلسلة الرجال الذين تلقى منهم الشيخ الخرقة من قبل. ولذلك فهناك سلاسل كثيرة للبس الخرقة تعود كلها في النهاية إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ثم إلى الله تعالى الذي قال في سورة الأعراف: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ...﴿٢٦﴾﴾، وهي الآية التي يُرجع إليها الشيخ الأكبر أصل رمزية لبس الخرقة مع أنه يقول إنه لا يوجد سند متصل بذلك. وكان الشيخ محيي الدين رضي الله عنه لا يقول بلبس الخرقة إلى أن وجد أن الخضر عليه السلام قد أقرّها حين تلقّاها الشيخ محيي الدين في إشبيلية سنة ٥٩٢ من الشيخ تقيّ الدين عبد الرحمن بن علي بن ميمون بن أبي الوزري الذي لبسها من يد صدر الدين شيخ الشيوخ بالديار المصرية وهو ابن حمويه وكان جده قد لبسها من يد الخضر. فيقول الشيخ الأكبر أنه منذ ذلك الوقت أصبح يقول بلباس الخرقة وألبسها الناس لمّا رأى الخضر قد اعتبرها وكان قبل ذلك لا يقول بالخرقة المعروفة، لأن الخرقة عنده إنما هي عبارة عن الصحبة والأدب والتخلّق ولهذا لا يوجد لباسها متصلاً برسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ولكن توجد صحبة وأدباً وهو المعبّر عنه بلباس التقوى. ثم يضيف الشيخ رضي الله عنه موضحا المعنى الحقيقي لعادة لباس الخرقة أنه جرت عادة أصحاب الأحوال إذا رأوا أحداً من أصحابهم عنده نقص في أمر ما وأرادوا أن يكمّلوا له حاله يتحد به هذا الشيخ فإذا اتحد به أخذ ذلك الثوب الذي عليه في حال ذلك الحال ونزعه وأفرغه على الرجل الذي يريد

---

[٤٤٣] لمزيد من التعريف بالقاضي أبي بكر وسيرته راجع مقدمة هذا الكتاب، ولتعريف ابنه أبي الوليد راجع "نفح الطيب": ج٢ص٦٣٦.

[٤٤٤] الفتوحات المكية: ج١ص٣٢.

تكملة حاله فيسري فيه ذلك الحال فيكمُل له ذلك. ويضيف أنه هذا هو اللباس المعروف عنده والمنقول عن المحققين من شيوخه."[٤٤٥]

ثم بعد ذلك تلقى الشيخ محيي الدين الخرقة بطرق مختلفة في فاس ومكة والموصل وغيرها، كما سيأتي ذكرها في حينها. ولقد ذكر الشيخ بمزيد من التفصيل سند الخرقة التي تلقاها في إشبيلية وغيرها في رسالة له سماها "نسب الخرقة"، ولكن يبدو أن النسخ المطبوعة منها كلها ناقصة ولا تتفق مع المخطوطات الموجودة والتي قدّمت لها كلوديا عداس دراسة جيدة في كتابها "البحث عن الكبريت الأحمر" الذي ذكرناه في المقدمة. وتقول كلوديا عداس أن الشيخ محيي الدين لم يذكر التاريخ الذي لبس فيه الخرقة إلا في مخطوطة أرسلها لها الدكتور عثمان يحيى رحمه الله. وقد وضعت كلوديا عداس في نهاية كتابها هذا ملحقا عن الطرق المختلفة التي تلقى بها الشيخ محيي الدين الخرقة، وأوضحت أنه هناك بعض التناقض في رجال السلسلة بين النص الذي ذكرناه أعلاه والذي ذكره الشيخ الأكبر في الفتوحات المكية في الباب الخامس والعشرين عندما تكلّم عن الخضر عليه السلام، وبين النص المذكور في رسالة نسب الخرقة. ولكن كلوديا عدّاس أخطأت عندما اعتبرت أن الشيخ محيي الدين قد غيّر رأيه بلبس الخرقة عندما تلقاها في الموصل من شيخه علي ابن جامع بحضور قضيب البان وذلك كان سنة ٦٠١،[٤٤٦] وإنما هو قال إنه أصبح يقول بلباس الخرقة لمّا رأى الخضر قد اعتبرها وذلك بعدما تلقاها من الشيخ تقيّ الدين عبد الرحمن بن علي بن ميمون بن أبي الوزري في إشبيلية سنة ٥٩٢.

لقاؤه بأمير المؤمنين يعقوب المنصور (إشبيلية، ٥٩٢)

بعد أن انتصر المسلمون بقيادة أميرهم يعقوب المنصور في معركة الأرك أقام أمير المؤمنين بإشبيلية بقية سنة ٥٩١ ثم تابع الغزو في السنة الثانية فنزل على مدينة طليطلة بعساكره، ثم عاد في السنة الثالثة أيضاً وتوغل شمالا إلى أن وصل إلى مواضع لم يصل إليها ملك من ملوك المسلمين قط ورجع إلى مدينة إشبيلية، فأرسل الأدفنش (ألفونسو الثامن) يسأله المهادنة فهادنه إلى عشر سنين ثم عبر المضيق بعد أن أصلح الأندلس ورتّب فيها من يقوم بحمايتها وقصد مدينة مراكش وذلك في سنة ٥٩٤.

فلما خرج أمير المؤمنين إلى الغزوة الثانية سنة ٥٩٢ كتب قبل خروجه إلى جميع البلاد بالبحث عن الصالحين وحملهم إليه فكان يجعلهم بين يديه كلما سار للحرب، وكان كلما نظر إليهم يقول لمن عنده: هؤلاء الجند لا هؤلاء! ويشير إلى العسكر."[٤٤٧]

---

[٤٤٥] الباب ٢٥، والتاريخ موجود في رسالة نسب الخرقة، مخطوطة يحيى أفندي رقم ٢٤١٥، راجع كتاب عثمان يحيى عن تاريخ مؤلفات ابن العربي، ترجمة أحمد الطيبي، المؤلف رقم ٩٣٦.

[٤٤٦] راجع كتاب كلوديا عداس، ص١٤٥.

[٤٤٧] المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تأليف عبد الواحد علي المراكشي (توفي ١٢٤٩/٦٤٧)، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، ط٧، الدار البيضاء، ١٩٧٨، ص١٧٦.

ويبدو أن أمير المؤمنين حاول أن يحمل ابن العربي على العمل معه وصحبته وربما يمنحه بعض المناصب كأبيه، ولكن الشيخ محيي الدين كان يرفض ذلك. يقول الشيخ محيي الدين في كتاب الدرة الفاخرة في ترجمته لشيخه صالح البربري الذي كان قد نصحه من قبل أن لا يلتفت إلى دعوات أهله وقومه أن يترك طريق الزهد ويسعى وراء حياته الشخصية ويستقر ويؤمّن العيش لأهله وأختيه اليتيمتين التين تركهما له والده بعد وفاته رحمه الله.

فيقول الشيخ محيي الدين أن أمير المؤمنين كان يرسل القاضي أبا القاسم أحمد بن محمد بن بقي إلى الشيخ محيي الدين ليقنعه بالعمل مع السلطان يعقوب المنصور ولكنه كان يرفض. ويبدو أن أمير المؤمنين كان يتوقع ذلك لأنه كان يأمر القاضي أن يعرض عليه الأمر من غير أن يجبره.

ثم يقول الشيخ محيي الدين أنه التقى بعد ذلك بأمير المؤمنين الذي سأله عن أختيه اللتين كانتا بحاجة إلى حماية ورعاية بعد وفاة أبيه، وعرض عليه أن يجد لهما زوجان مناسبان، ولكن الشيخ محيي الدين شكره وقال له أنه هو سيتولى ذلك. ولكن الأمير أصرّ وقال له أن لهما عنده مهمة كبيرة.

ثم بعد هذا اللقاء أرسل له أمير المؤمنين رسولا يجدد له العرض الذي عرضه عليه. ولكن الشيخ يقول إنه بعد هذا اللقاء بقليل ترك إشبيلية ورحل مع أهله وابن عمه إلى فاس.

رحلته الثالثة إلى المغرب العربي (١١٩٧/٥٩٣)

فإذن قرر الشيخ محي الرحيل إلى المغرب من جديد، ويبدو أنه ما ترك مدينة فاس إلا ليعود إليها ولكنه اضطر أن يذهب إلى إشبيلية حتى يحضر أهله وخاصة أختيه اللتين كانتا بحاجة إليه.

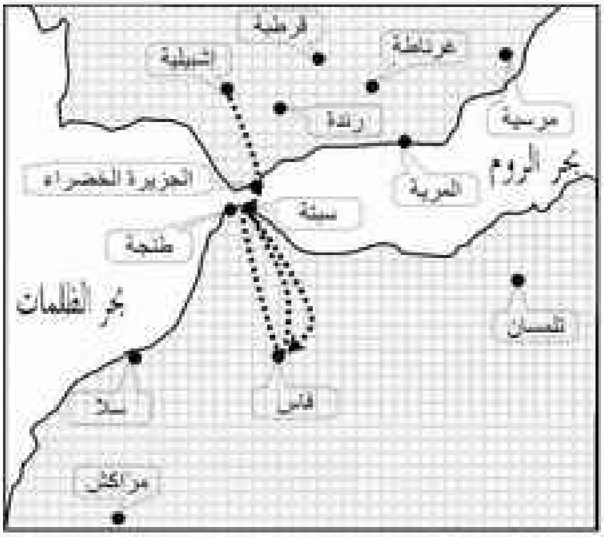
لا يخبرنا الشيخ محيي الدين فيما إذا كان قد توقف على الطريق في الجزيرة الخضراء وفي سبتة كما كان يفعل من قبل حين ذهب إلى تونس مثلا، ربما لم يتوقف كثيراً هذه المرة ربما لأن أهله معه فكان يريد أن يوصلهم إلى مدينة فاس التي وجد فيها الاستقرار وفيها سيزوّج أختيه حالما يصل. ولكننا نعلم من خلال تحليل بعض النصوص أنّ الشيخ محيي الدين قد ألّف كتاباً في سبتة هو كتاب مفتاح أقفال الإلهام.

كتاب مفتاح أقفال الإلهام (سبتة)

فيقول الشيخ محيي الدين أنّه ألّف كتاب "مفتاح أقفال الإلهام الوحيد وإيضاح أشكال أعلام المريد في شرح أحوال أبي يزيد" في سبتة وذلك عن أمرٍ إلهيّ وجاء هذا الكتاب في كرّاسين.[٤٨٨] ويبدو أن ابن العربي قد ألّف هذا الكتاب في هذه السنة أثناء مغادرته الأندلس إلى فاس لأنّه يذكره في كتاب منزل القطب الذي يبدو أنّه قد ألّفه في فاس سنة ٥٩٣ كما سنرى أدناه.

---

[٤٨٨] مؤلفات ابن عربي: ص٥٧٣.



رحلته الثالثة إلى المغرب العربي (الثانية إلى فاس)

إقامته الثانية في فاس (١١٩٧/٥٩٣-١١٩٩/٥٩٥)

وهذه المرة، بعد أن أحضر الشيخ محيي الدين معه أهله، سوف يستقر في مدينة فاس لمدة أطول، وسوف تكون هذه الفترة أيضاً مثمرة على الجانب الروحي وجانب التأليف والتدريس واجتماع المريدين حوله من كل مكان واتصاله برجال الله الأكابر كالقطب والأوتاد وتعرفه عليهم رغم صغر سنه. وفي فاس أيضاً في هذه المرة سوف تستمر الفتوح على الشيخ الأكبر ويختبر من جديد منزل النور الذي ذكرناه أعلاه وكذلك سوف يختبر المعراج ربما لأول مرة.

تزويج أختيه (فاس، ١١٩٧/٥٩٣)

يقول الشيخ محيي الدين في الدرة الفاخرة كما ذكرنا أعلاه أنه بعد أن عرض عليه أمير المؤمنين تزويج أختيه والالتحاق بحاشيته ورفضه ذلك فجاء إلى فاس مع أهله وأختيه. فيقول إنه بعد قدومه إلى فاس بمدة قصيرة زوّج أختيه هناك. لا نعلم إلى من ولكن ربما كان إلى بعض مريديه وتلاميذه الذين بدأوا يتكاثرون حوله ويحضرون دروسه.

وفي كتاب المبشرات يذكر الشيخ محيي الدين في رؤيا طويلة رأى فيها الحق سبحانه وتعالى يوم القيامة وقد أذن له أن يشفع بالناس، فبدأ يشفع بأقربائه، فذكر أختيه فقال "وأختي أم علاء"،"وأختي أم سعد".[449]

[449] رسالة المبشرات، مخطوطة بايزيد ١٦٨٦.

الأوتاد (ابن جعدون الحناوي)

لقد تكلمنا عن رجال العدد وذكرنا منهم القطب والإمامين والأوتاد والأبدال في الفصل الثاني، فيقول الشيخ محيي الدين أنه رأى منهم شخصاً بمدينة فاس يقال له ابن جعدون وكان ينخل الحناء بالأجرة.[450]

ويبدو أن ذلك كان أول قدوم الشيخ محيي الدين إلى فاس في هذه المرة، إذ يبدو أن بعض الناس كانوا ينتظرونه مما سمعوا عنه مع أنهم لا يعرفونه وذلك أنه لما وصل مدينة فاس كان ذكره قد بلغ من بها فأحبوا الاجتماع به ولكنه كان يفرّ من الدار إلى الجامع فعندما لا يجدونه في الدار يطلبونه في الجامع فمرة جاؤوا إليه وهم لا يعرفونه وهو يراهم فأتوه وسألوه عنه فقال لهم: اطلبوه حتى تجدوه، وكان هو قاعد وعليه ثياب رفيعة جداً، وإذا بهذا الشيخ قد قعد بين يديه ولم يكن يعرفه من قبل ذلك، فقال له السلام عليك ورحمة الله وبركاته، فرد عليه السلام. ففتح الشيخ ابن جعدون كتاب "شرح المعرفة" للمحاسبي فقرأ منه كلمات ثم قال له اشرح وبيّن ما قال! فيقول الشيخ محيي الدين أنه حينئذ خوطب بسره بأحواله ومن هو ومقامه وأنه من الأوتاد الأربعة وأن ابنه يرث مقامه، فقال له: عرفتك فأنت فلان، فأغلق كتابه وقام واقفا وقال للشيخ ابن العربي: الستر الستر إني أحبك فأحببت أن أتعرف إليك، فقد تم المقصود. ثم انصرف فلم يكن الشيخ محيي الدين يجالسه قط إلا إذا لم يكن معهما أحد. ويقول عنه أنه كان معقود اللسان لا يتكلم إلا عن مشقة فإذا تلا القرآن كان من أحسن الناس صوتا وأبدعهم مساقا. وكان كثير الاجتهاد وكان ينخل الحنّا بالأجرة، قلّ ما تراه إلا مكحول العينين أشعث أغبر. وإنما كان يكحل عينيه من أجل غبار الحنّا.[451]

ويضيف الشيخ محيي الدين أن ابن جعدون الحناوي رضي الله عنه سأل الله تعالى أن يُسقط حرمته من قلوب العالم فكان إذا غاب لم يفتقد وإذا حضر لم يستشر وإذا جاء لا يوسع له وإذا تكلم بين قوم ضُرب وسخِّف. مات بفاس سنة سبع وتسعين وخمسمائة وقد جمع ابن العربي بينه وبين صاحبه عبد الله الحبشي كما يفعل مع جميع شيوخه وأصحابه.[452]

وهؤلاء الأوتاد الأربعة الذين منهم الشيخ ابن جعدون الحناوي كما يقول الشيخ محيي الدين ابن العربي، بهم يحفظ الله الجهات فواحد للمشرق وولايته فيه والآخر المغرب والآخر الجنوب والآخر الشمال والتقسيم من الكعبة. وهؤلاء قد يُعبّر عنهم بالجبال لقوله تعالى في سورة النبأ: (أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝)، فإنه بالجبال سكن ميد الأرض كذلك حكم هؤلاء في العالم حكم الجبال في الأرض والى مقامهم الإشارة بقوله تعالى عن إبليس في سورة الأعراف: (ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ

---

[450] الفتوحات المكية: ج٢ص٧، وكذلك: ج٣ص١٥، ج٣ص٣٤، وأيضاً: روح القدس: ص٧٣.

[451] روح القدس: ص٧٣.

[452] روح القدس: ص٧٣.

وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ ﴿١٧﴾)، فيحفظ الله بالأوتاد هذه الجهات وهم محفوظون من هذه الجهات فليس للشيطان عليهم سلطان إذ لا دخول له على بني آدم إلا من هذه الجهات. وألقابهم عبد الحي وعبد العليم وعبد القادر وعبد المريد."[453] ولقد تكلمنا من قبل في الفصل الثاني عن الأوتاد وتشبيههم بالجبال عندما ذكرنا علاقة الشيخ محيي الدين مع شيخه أبي العباس العريبي.

لقاؤه مع قطب الزمان (فاس، ٥٩٣/١١٩٧)

وكذلك اجتمع الشيخ محيي الدين بقطب الزمان سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة بمدينة فاس حيث أطلعه الله عليه في واقعة وعرفه به فلما اجتمعوا يوماً ببستان بن حيّون بمدينة فاس وهو في الجماعة لا يُؤبه له وكان غريباً من أهل بجاية أشلَ اليد، وكان في المجلس معهم، كما يقول الشيخ محيي الدين، شيوخ من أهل الله معتبرون في طريق الله منهم أبو العباس الحصار (توفي ٥٧٩/١١٨٣)[454] وأمثاله. ويقول الشيخ الأكبر أن هذه الجماعة كانوا إذا حضروا يتأدّبون معه، أي مع الشيخ محيي الدين، فلا يكون المجلس إلا له ولا يتكلم أحد في علم الطريق فيهم غيره وإن تكلموا فيما بينهم رجعوا فيها إليه. فكان أن وقع ذكر الأقطاب وهذا القطب موجود في الجماعة، فقال لهم الشيخ محيي الدين: يا إخواني إني أذكر لكم في قطب زمانكم عجباً. فالتفت إليه ذلك الرجل الذي أراه الله في منامه أنه قطب الوقت وقال له: قل ما أطلعك الله عليه ولا تُسمّ الشخص الذي عيّن لك في الواقعة، وتبسّم وقال الحمد لله. فأخذ الشيخ الأكبر يذكر للجماعة ما أطلعه الله عليه من أمر ذلك الرجل فتعجب السامعون ولكن الشيخ لم يذكر اسمه ولا عيّنه، إلى أن انتهى المجلس مع هؤلاء الإخوان الكرام. فلما انفضت الجماعة جاء ذلك القطب وقال للشيخ محيي الدين جزاك الله خيراً ما أحسن ما فعلت حيث لم تسمّ الشخص الذي أطلعك الله عليه، والسلام عليك ورحمة الله. فكان ذلك سلام وداع ولم يعلم الشيخ محيي الدين بذلك ولكنه يقول إنه ما رآه بعد ذلك في المدينة إلى الآن.[455]

ثم يقول الشيخ محيي الدين أن الأقطاب المحمديين هم الذين ورثوا محمداً صلّى الله عليه وسلّم فيما اختص به من الشرائع والأحوال مما لم يكن في شرع تقدمه ولا في رسول تقدمه، فإن كان في شرع تقدم شرعه وهو من شرعه أو في رسول قبله وهو فيه صلّى الله عليه وسلّم فذلك الرجل وارث ذلك الرسول المخصوص ولكن من محمد صلّى الله عليه وسلّم، فلا ينسب إلا إلى ذلك الرسول وإن كان في هذه الأمة فيقال فيه موسوي إن كان من موسى أو عيسوي أو إبراهيمي أو ما كان من رسول أو نبي ولا يُنسب إلى محمد صلّى الله عليه وسلّم إلا من كان ممن اختص به محمد صلّى الله عليه وسلّم.[456] ولقد تكلمنا من قبل عن موضوع وراثة الأنبياء في الفصل الثاني.

---

[453] الفتوحات المكية: ج٢ص٧.

[454] انظر في "التشوف": ص٢٨٠.

[455] الفتوحات المكية: ج٤ص٧٦.

[456] الفتوحات المكية: ج٤ص٧٦.

كتاب منزل القطب (فاس)

ويبدو أنّه في نفس هذا الوقت كتب الشيخ محيي الدين كتاب منزل القطب وهو نفسه كتاب القطب والإمامين (والمدلجين)،[457] وقد طبع هذا الكتاب في مجموعة رسائل ابن عربي (طبعة حيدر آباد ١٩٤٨). وقد تكلّمنا عن القطب مراتب الأولياء في الفصل الثاني.

تبشير المؤمن في الدنيا (فاس، ١١٩٧/٥٩٣)

ومن المَشاهد التي شاهدها الشيخ محيي الدين ابن العربي في مدينة فاس في ليلة واحدة مائة موقف من الرحمة التي يؤول إليه العبد في الدار الآخرة فيقول إنه لو قُسمت تلك الليلة على قدر الوقوف ما وسعته وقد شاهد في كل موقف من اتساع الرحمة ما لا يمكنه النطق به وكان ذلك لاتساع ذكر الرحمة فكيف بذكر الرحمن إذا حصل للعبد، ولا يحصل إلا للعبد الجاني، و أما غير الجاني فهو عين رحمة الله في خلقه به يرحم الله الخلق."[458]

التحذير من القول بالاتحاد (فاس)

عندما يكون العبد قريبا من الله تعالى من كثرة النوافل والمقربات كما ذكر في الحديث القدسي الشهير الذي ذكرناه أعلاه أن الله يقول ما يزال العبد يتقرّب إليه بالنوافل حتى يحبّه، فإذا أحبه كان سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها."[459] فقد يُشكل على بعض من هذه حالهم فيظنون أنهم اتحدوا بالله تعالى أو أن الله سبحانه حلّ بهم، أو قد يصدر عن هؤلاء أقوال تصف حال قربهم الشديد من الله تعالى توحي للسامع بأنهم يقولون بالاتحاد أو بالحلول الذي لا يليق لجلال الله سبحانه. ومن هنا نجد الكثيرين من الذين ينتقدون أهل التصوف قد اتخذوا هذا المأخذ عليهم أساسا وبنو عليه، وهم في بعض الأحيان محقون لأن بعض أهل التصوف شطحوا في القول بما قد يخالف السنّة.

ولكن الشيخ محيي الدين ابن العربي رضي الله عنه قد نفى بشكل قطعي القول بالحلول أو الاتحاد، إذ قال صراحة: "من قال بالحلول فهو معلول وهو مرض لا دواء لدائه ولا طبيب يسعى في شفائه"،[460] وقال إن الحق سبحانه يتعالى عن الحلول في الأجسام،[461] وقال: "وما قال بالاتحاد إلا أهل الإلحاد"،[462] وغير ذلك مما سنناقشه في الفصل الأخير إن شاء الله تعالى.

---

[457] مؤلفات ابن عربي: ص٥١٥.

[458] الفتوحات المكية: ج٤ص١٥٣.

[459] صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع، ٦١٣٧.

[460] الفتوحات المكية: ج٤ص٣٧٩.

[461] الفتوحات المكية: ج٢ص٦١٤، وكذلك: ج٣ص٥٢، ج٤ص٣٧٩.

[462] الفتوحات المكية: ج٤ص٣٧٢.

وفي هذا السياق يقول الشيخ محيي الدين في الباب التاسع والخمسين وخمسمائة وهو الباب ما قبل الأخير من الفتوحات المكية حيث لخص الشيخ رضي الله عنه جميع الأبواب السابقة. فقال على شكل سجع نعيد صياغته بما يناسب أنه دخل على بعض الشيوخ من أهل العناية بالرسوخ بمدينة فاس فأفاده علما بهذه المسألة وقال له احذر من الالتباس: الخلوة بالمحبوب هو المطلوب، والانفراد معه غاية الدعة، والخروج من الضيق إلى السعة، لا يفرح بهذا الانفراد إلا أهل المحبة والوداد، ما هو منفرد من هو بحبيبه متحد:

روحُـــه روحـــي وروحـــي روحُـــه ... إن يـــشأ شِـــئتُ وإن شِـــئتُ يـــشأْ

ثم قال: توحدت الإرادة بين الأحباب وإن تعددت الأعيان فإلى واحد المآب، الأمر عند أهل التحقيق في صادق وصديق، الصديقان يفترقان لأنهما مثلان، والمثلان ضدان، والضد مدافع فلا تنازع.[463]

الصحبة الطيِّبة

وخلال فترة إقامته في فاس كان الشيخ محيي الدين يتردد بشكل مستمر على الجامع الكبير بعين الخيل حيث يوجد الشيخ محمد بن قاسم التميمي كما ذكرنا أعلاه وهو إمام محدث وصوفي نقل عنه الشيخ محيي الدين الكثير من الأحاديث، وكذلك لبس منه خرقة الخضر كما سنرى بعد قليل. فكان يحضر عنده دروس الحديث الشريف مع مجموعة من الأصحاب والمريدين.

فمن الأحاديث التي يرويها الشيخ محيي الدين عن الشيخ التميمي هذه الوصية النبوية: حدثّنا بها محمد بن قاسم بمدينة فاس قال ثنا هبة الله بن مسعود ثنا محمد بن بركات ثنا محمد بن سلامة بن جعفر ثنا هبة الله بن إبراهيم الخولاني نبأ علي بن الحسين ابن بندار ثنا اسماعيل بن أحمد بن أبي حازم حدثنا أبي ثنا عمرو بن هاشم ثنا سليمان بن أبي كريمه عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "يا أبا هريرة أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً وأحسن مصاحبة من صاحبك تكن مؤمناً واعمل بفرائض الله تكن عابداً وارض بقسم الله تكن زاهداً."[464]

وكذلك قال في الوصايا عن موضوع التأني قبل القول، قال: سمعت محمد بن قاسم بن عبد الرحمن بن عبد الكريم التميمي الفاسي بمدينة فاس العدل أظن في سنة أربع وتسعين وخمسمائة يقول: تكلم أربعة من الملوك بأربع كلمات كأنما رميت عن قوس واحدة قال كسرى: "أنا على رد ما لم أقل أقوى مني على رد ما قلت"، وقال ملك الهند: "إذا تكلمت بكلمة ملكتني وإن كنت أملكها"، وقال قيصر ملك الروم: "لا أندم على ما لم أقل وقد ندمت على ما قلت"، وقال ملك الصين: "عاقبة ما قد جرى به القول أشد من الندم على ترك القول".[465]

---

[463] الفتوحات المكية: ج٤ص٢٧٣، وكذلك: ج٣ص٣٥٣، ج٤ص٦١، ٢١٠، ٢٧٢.

[464] الفتوحات المكية: ج٤ص٥٢١.

[465] الفتوحات المكية: ج٤ص٥٤٩.

الذكر بالقرآن

وبالإضافة إلى دراسة الحديث النبوي كان دأب ابن العربي وأصحابه الاجتماع في حلقات الذكر، وخاصة الذكر بالقرآن الكريم، وهو أرفع الذكر. فيبدو أنهم كانوا يجتمعون في جامع عين الخيل مع الراغبين في طريق الله من الشيوخ والمريدين وكانوا يقضون أوقاتا في الذكر بالقرآن الكريم خاصة كما يقول الشيخ محيي الدين حينما ذكر الملائكة الذي يبحثون عن حلقات الذكر وأنهم يفضلون الذكر الذي يكون عن القرآن فإن لم يجدوه قنعوا بالذكر الذي يكون بغير القرآن فإن في ذلك غذاؤهم كما يقول الشيخ محيي الدين. فيقول إنهم كانوا بفاس من بلاد المغرب قد سلكوا هذا المسلك لموافقة أصحاب موفقين كانوا له سامعين وطائعين ولكنه بعدما فقدهم فقدَ لفقدهم هذا العمل الخالص وهو أشرف الأرزاق وأعلاها. فلما فقد مثل هؤلاء الصحبة بدأ في بثّ العلم من أجل الأرواح الذين غذاؤهم العلم ولكنه آثر أن لا يورد شيئاً من العلم إلا من أصلٍ هو مطلوب لهذا الصنف الروحاني وهو القرآن فيقول إن جميع ما يتكلم فيه في مجالسه وتصانيفه إنما هو من حضرة القرآن وخزائنه حيث أعطي مفتاح الفهم فيه والإمداد منه وهذا كله حتى لا يخرج عنه فإنه أرفع ما يمنح.[٦٦]

الخواطر والتوفيق

تكلمنا أيضاً في كتاب سلوك القلب عن موضوع التوفيق ومراقبة الخواطر التي تكون إما خواطر شيطانية أو خواطر نفسية أو خواطر ملكية أو خواطر ربانية، وهي تأمر إما في واجب أو مندوب أو مباح أو مكروه أو محرم: فمن راقب خواطره من طريقها فقد أفلح فإنه يعلم من يأخذها ومن يتعرض إليها من القاعدين لها كل مرصد ومن غفل عن طريقها وما شعر بها حتى وجدها في المحل كما تجدها العامة عمل بمقتضاها عمل الجاهل بالشيء فإن كان خيرا فبحكم المصادفة وإن كان شراً فكذلك، لأن الخاطر الأول الذي أتاه بالعلم بمن يأتي بعده من الخواطر وعلى يد من يأتيه لم يشعر به ولا علمه ولا شاهده ففاته حكمه فلما فاجأته هذه الخواطر العملية على حين غفلة وعدم تيقظ ومراقبة لطرقها عمل بمقتضاها فكان خيره وشره مصادفة.

ورغم ذلك فبعض الناس قد وفقهم الله لعمل الخير من غير علم منهم ولا احتساب، ويروي الشيخ محيي الدين مثالا عن ذلك شخص رآه في مدينة فاس لم يكن صاحب علم بالشريعة ولكنه لم يكن يخطئ أبدا فيها:

> ورأيت ابن الحجازي المحتسب بمدينة فاس، ولم يكن صاحب علم بالشريعة، يوفقه الله لإصابة الحكم؛ وأعرف من صلاحه أنه ما فاتته تكبيرة الإحرام خلف الإمام في الصلوات كلّها بجامع القرويين إلى أن مات، فكانت أحكامه في

---

[٦٦] الفتوحات المكية: ج٣ص٣٣٤.

حسبته تجري على السداد إلهاماً من الله، فكان يقول إني لأعجب من أمري ما اشتغلت بعلم أحكام الشريعة وأوفّق لحكم الشرع في جميع أحكامي. ولم يقدر أحد من علماء الشريعة يأخذ عليه في حكم لم يقل به مجتهد، هذا وحده رأيته من عامة الناس معتنى به ولم يكن من أهل الطريق بل كان حريصاً على الدنيا مكبّاً عليها كسائر عامة الناس لكن كان منوّر الباطن ولا يشعر بذلك."[467]

صاحبه عبد الله بدر الحبشي

أثناء هذه الرحلة الثانية عاد الشيخ محيي الدين إلى الأندلس ومعه رفيق جديد اسمه بدر الحبشي وهو الذي سوف يصحبه في جميع أسفاره إلى المشرق ولن يفارقه حتى آخر يوم من عمره. ويقول الشيخ محيي الدين في "الدرة الفاخرة" أن بدراً الحبشي كان مجاوراً في مكة المكرمة، فرأى في واقعته أن يصاحب ابن العربي فرحل إليه وقابله في فاس،[468] وصحبه ثلاثاً وعشرين سنة حتى توفي في بيته في ملطية.

وكان الشيخ محيي الدين يبدي تجاه صاحبه الجديد بدر الحبشي حبّاً شديداً وعطفاً لا مثيل له، حتى إنه لن يفوّت فرصة في السنوات القليلة التالية التي سيقضيها الشيخ في الأندلس من غير أن يعرّف صاحبه بدراً على جميع شيوخه فيها، ثم سوف يرافقه إلى المشرق وسوف يستمرّ الودّ بينهما حتى إنه سوف يهديه العديد من كتبه، وأهمها الفتوحات المكية، إلى أن يموت بدرٌ بين يدي صاحبه وشيخه محيي الدين في ملطية سنة ٦١٨/١٢٢١.

وبدر الحبشي هو المسعود أبو محمد عبد الله بدر بن عبد الله الحبشي اليماني وكان عبداً عند أبي الغنائم بن أبي الفتوح الحرّاني فحرّره وأطلقه فصحب الشيخ محيي الدين، ولا يُعرف له من المؤلفات سوى كتاب واحد بعنوان "الإنباه" جمع فيه بعض الحكم والوصايا من الشيخ محيي الدين، وقد قام بترجمته مؤخرا الأستاذ دينيس غريل.[469]

على الرغم من أنه لم يذكر سيرته ولا تكلم عن تفاصيل علاقته به، إلا أنه من الواضح أن بدرا الحبشي كان صاحب ابن العربي المقرب منه على الرغم مما يبدو من الفوارق الطبقية بينهما والتي لا شك أن الشيخ محيي الدين لم يكن يعيرها أي اهتمام ولا يفكّر بها مطلقا. فكان الشيخ محيي الدين كلما تعرّف على شيخ من أهل الله يحب دائما أن يعرّف صاحبه بدرا عليه وقد ذكر ذلك كثيرا في "روح القدس" عندما تكلم عن الشيوخ الذين انتفع بهم في طريق الله أمثال الشيخ أبي عبد الله محمد بن قسوم والشيخ أبي عبد الله محمد الباغي الشكاز والشيخ أبي محمد عبد الله القطان وغيرهم. فهو يقول مثلا في أثناء حديثه عن أبي

[467] الفتوحات المكية: ج٢ص٥٦٥.

[468] مخطوطة أسعد أفندي ١٧٧٢، مختصر الدرة الفاخرة، ص-١٢٠.

[469] مؤلفات ابن عربي: ص٢٠٥، ويجمع فيه بدر الحبشي مجموعة من الحكم من أقوال الشيخ محيي الدين، وهو غير مطبوع، وقد ترجم دنيس غريل هذا الكتاب إلى اللغة الفرنسية سنة ١٩٧٩ ثم ترجمته كارين هولدينغ إلى الإنكليزية، ونشر في مجلة جمعية محيي الدين ابن عربي، أوكسفورد، العدد (XV) سنة ١٩٩٤.

اسحق إبراهيم بن طريف العبسي: "قصدته في بلده مرتين وكان يحبني واجتمعت به مع صاحبي عبد الله الحبشي في سبتة وفي بلده رضي الله عنه ونفعه."[٤٧٠] وفي حديثه عن أبو عبد الله محمد بن قسوم يقول: "جمعت بينه وبين صاحبي عبد الله بدر الحبشي وصلى خلفه."[٤٧١] وعندما ذهب إلى غرناطة لزيارة الشيخ أبي عبد الله محمد الباغي الشكاز، يقول: "اجتمعت به في منزله مع صاحبي عبد الله بدر الحبشي."[٤٧٢] وعن الشيخ أبي محمد عبد الله القطان في قرطبة: "جمعت بينه وبين صاحبي عبد الله بدر الحبشي بقرطبة ومشينا معه إلى منزله رضي الله عنه."[٤٧٣]

ومن شدّة حبّه لصاحبه بدر كان الشيخ محيي الدين يدعو الله أن يهبه المقامات والكرامات التي وهبها له، فقال في الديوان الكبير:

اختلـــــسنا مـــــن كـــــرا	مـــات الكيـــــان الأبـــــدي
ورجعنـــــــا بمقـــــــا	مـــات العيـــان الأزلــــــي
ورفعنـــــا عـــــن تكـــــا	ليـــف الوجـــود العملـــــي
لمـــــضاهاة اســـــتواءٍ	فـــوق عـــرشٍ فلكـــــيّ
فرأينـــــا مَـــــن تعـــــالى	بـــالوجود الخلقـــــيّ
في لطيـــــف ملكـــــيّ	وكثيـــــف بـــــشريّ
وســـــألناه بأســـــرا	رِ المقـــــام القدســـــيّ
نيـــل مـــا قـــد نحـــن نلنـــا	هُ لبـــــدر الحبـــــشيّ"[٤٧٤]

وبذلك يتضح أن بدرا الحبشي كان أقرب صديق لابن العربي وكان أيضاً خزينة أسراره التي تسمع ولا تتكلم، فكان يطلعه على أسرار كشوفه حتى تلك التي لا يمكن كشفها لأحد، فيقول مثلا:

> ولقد منحني الله سراً من أسراره بمدينة فاس سنة أربع وتسعين وخمسمائة فأذعته فإني ما علمت أنه من الأسرار التي لا تذاع، فعوتبت فيه من المحبوب، فلم يكن لي جواب إلا السكوت، إلا أني قلت له: "تولّ أنت أمر ذلك فيمن أودعته إياه إن كانت لك غيرة عليه فإنك تقدر ولا أقدر"، وكنتُ قد أودعته نحوا من ثمانية عشر رجلاً. فقال لي: "أنا أتولى ذلك". ثم أخبرني أنه سلّه من صدورهم وسلبهم إياه، وأنا بسبتة، فقلت لصاحبي عبد الله الخادم إن الله أخبرني أنه فعل كذا وكذا فقم بنا نسافر إلى مدينة فاس حتى نرى ما ذكر لي في ذلك. فسافرت فلما جاءتني تلك الجماعة وجدت الله قد سلبهم ذلك

---

[٤٧٠] روح القدس: ص٧٩.

[٤٧١] روح القدس: ص٥٧.

[٤٧٢] روح القدس: ص٦٩.

[٤٧٣] روح القدس: ص٧١.

[٤٧٤] الديوان: ص٢٣-٢٤.

وانتزعه من صدورهم فسألوني عنه فسكت عنهم، وهذا من أعجب ما جرى لي في هذا الباب فللّه الحمد.[475]

وكذلك لقد روى أيضاً الشيخ محيي الدين عن صاحبه بدر الحبشي:

وإذا كنت في سفر وأردت التعريس بالليل فاجتنب الطريق فإن الهوام بالليل تقصد الطريق فربما يؤذيك شيء منها وقل إذا نزلت منزلاً "أعوذ بكلمات الله التامات كلها من شر ما خلق" فإنه لن يضرّك شيء ما دمت في ذلك المنزل. أخبرني صاحبي عبد الله بدر الحبشي الخادم عن الشيخ ربيع بن محمود الحطاب المارديني قال بتنا ليلة برأس العين في مسجد وبرأس العين عقارب تسمى الجرارات لا ترفع أذنابها إلا عند الضرب وهي قتالة ما ضربت أحداً فعاش فجاء شخص فبات في المسجد وذكر هذه الاستعاذة فضربته العقرب في تلك الليلة فقال للشيخ ربيع حديثه فقال له صح الحديث فإن الله قد رفع عنك الموت فإنها ما ضربت أحداً إلا مات وقد رأيت أنا مثل هذا من نفسي لدغتني العقرب مرّة بعد مرّة في وقت واحد فما وجدت لها ألماً وكنت قد ذكرت هذه الاستعاذة إلا أنه كان في حرامي بندقتان وكنت قد سمعت أن البندق بالخاصية يدفع ألم الملسوع فلا أدري هل كان ذلك للبندق أو للدعاء أو لهما معاً إلا أنه تورم رجلي وحصل فيه خدر وبقي الورم ثلاثة أيام ولا أجد ألماً ألبتة.[476]

وقال أيضاً في أثناء حديثه عن مقام الاقتداء التام برسول الله محمد صلّى الله عليه وسلّم:

وما رأينا أحداً ممن رأيناه أو سمعنا عنه عمل على هذا القدم إلا رجلا كبيرا باليمن يقال له الحداد رآه الشيخ ربيع بن محمود الماردينى الحطاب وأخبر أنه كان على هذا الحال من الإقتداء؛ أخبرني بذلك صاحبي الخادم عبد الله بدر الحبشي عن الشيخ ربيع.[477]

الشيخ أبو يحيى بن أبي بكر الصنهاجي

ويقول عنه الشيخ محيي الدين في روح القدس أنه كان شيخا عارفا سائحا متجودا منقطعا صادقا صالحا مسنا وهو من أهل المعارف والإشارات والتمكين قلّ أن تلقى مثله. كانت بينه وبين ابن العربي مسائل كثيرة عن الحقائق يضيق الوقت عن ذكرها وقد ألّف ابن العربي من أجله كتاب "عنقاء مغرب في معرفة ختم

[475] الفتوحات المكية: ج٢ص٣٤٩.

[476] الفتوحات المكية: ج٤ص٥٠٥.

[477] الفتوحات المكية: ج٣ص٥٠٢، وكذلك: ج٤ص٥٠٥.

الأولياء وشمس المغرب".[٤٧٨]

كتاب عنقاء مغرب

ويعدّ هذا الكتاب من الكتب الغامضة للشيخ محيي الدين ابن العربي، وهو يشبه إلى حدّ كبير في بنيته وهدفه كتاب مواقع النجوم الذي سنتكلم عنه بعد قليل وكتاب التدبيرات الإلهية الذي تحدثنا عنه في الفصل الثاني، حيث يعتمد على موضوع المضاهاة بين الإنسان والعالم من جهة وبين الإنسان والأسماء الإلهية من جهة أخرى. فيقول الشيخ محيي الدين في بداية هذا الكتاب في تبيين الغرض منه أنه كان قد ألّف كتابا روحانياً وإنشاءً ربّانياً سمّاه التدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية وتكلّم فيه على أن الإنسان عالم صغير مسلوخ من العالم الكبير؛ فكلّ ما ظهر في الكون الأكبر فهو في هذا العين الأصغر. ثم يقول ابن العربي أنه لم يتكلّم في ذلك الكتاب على مضاهاة الإنسان بالعالم على الإطلاق ولكن على ما يقابله من جهة الخلائق والتدبير، فبيّن فيه ما هو الكاتب والوزير والقاضي العادل والأمناء ...الخ (كما ذكرناه من قبل في الفصل الثاني). فيقول إنه كان ينوي أن يجعل فيه ما يوضحه تارة ويخفيه أين يكون من هذه النشأة مقام الإمام المهدي وأين يكون مقام ختم الأولياء وطابع الأصفياء، ولكنه خاف من نزغة العدوّ الشيطان أن يحمله على التصريح فيقول عليه ما لا ينويه، فلم يقدم على ذلك. ثم بعد ذلك رأى أن يتوكّل على الله ويودع هذه الأسرار في هذا الكتاب الجليل الذي سمّاه عنقاء مغرب في ختم الأولياء وشمس المغرب.[٤٧٩]

ويقول الشيخ محيي الدين أن معرفة هذه المضاهاة أمر لا بدّ منه من أجل النجاة في طريق الله تعالى، وليس الهدف من ذكره ذلك معرفة العالَم بل معرفة الإنسان نفسه وكيفية تطبيق ذلك على نفسه: "هل ينفعني في الآخرة كون السلطان عادلا أو جائرا، أو عالما أو حائرا؟" فالإمام الحقيقي هو العقل فيجب على الإنسان إتباعه ومبايعته على الإصلاح، وهكذا يجب على الإنسان النظر إلى أعضائه وآلاته ويعاملها بما يناسب كل عضو منها وهي وإن خفيت عليه فقد جعل الله العالَم كله مثالا له لما في نفسه فلينظر في العالم ويعتبر.

هذا هو الهدف الرئيسي من هذه الكتب الثلاثة التي كتبها الشيخ محيي الدين في المغرب وهي كتاب التدبيرات الإلهية وكتاب عنقاء مغرب وكتاب مواقع النجوم. ولقد ذكرنا بعض تفاصيل المملكة الإنسانية ومقارنتها مع العالَم في فصل خاص في كتاب سلوك القلب اعتمادا على ما ورد في هذه الكتب بالإضافة إلى كتابه الرئيسي الفتوحات المكية. فكل شيء في الإنسان يقابله شيء من العالم الخارجي من الكواكب والنجوم وحتى من الناس والشجر والحجر والنبات والجن والملائكة. فكما قال الإمام عليّ ابن أبي طالب رضي الله عنه:

---

[٤٧٨] روح القدس: ٨١.

[٤٧٩] من مقدمة كتاب عنقاء مغرب.

دواؤك فيــــك ومـــــا تــــشعرُ | وداؤك منـــــك وتـــــستنكرُ
وتحـــسب أنـــك جُـــرم صغـــيرٌ | وفيـــك انطـــوى العـــالم الأكـــبرُ
وأنـــتَ الكتـــاب المـــبين الـــذي | بأحرفـــــه يظهـــــر المُــــضمرُ

أما من حيث العالم المشهود فإن شمس المغرب هو في الحقيقة المهدي عليه السلام وهو الذي سيظهر قبل قيام الساعة والذي سيملأ الأرض عدلا كما مُلِئت ظلما وجورا كما هو معروف في العديد من الأحاديث النبوية الشريفة. وأما ختم الأولياء فهو على الحقيقة الشيخ محيي الدين ابن عربي نفسه كما ذكرنا أكثر من مرّة وكما سنرى في الفصل الرابع بمزيد من التفصيل.

بعض الشيوخ الآخرين الذين التقاهم ابن العربي بفاس

ومن ضمن الشيوخ الذين التقاهم الشيخ محيي الدين بمدينة فاس الشيخ علي بن موسى بن البقران وكان مجهولا غامضا للناس ولكنه كان لديه معرفة تامة وكانت له فيها فراسة. وكان عند الناس مشهورا بالقراءات والروايات رحمه الله."[480]

ومنهم أيضاً الشيخ موسى المعلم وهو من قلعة بني سعيد من نظراء غرناطة وابنه عبد الله نشأ صالحا لا يعرف المعصية وهو شاب تائب لا يعرف له صبوة وكان حافظا لكتاب الله."[481]

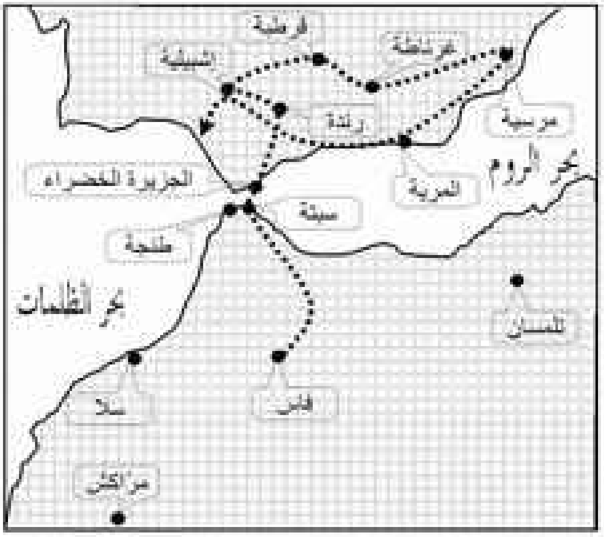
عودته إلى الأندلس (~جمادى الأولى ٥٩٥/١١٩٨)

لا ندري بالتحديد ما الذي دعا الشيخ محيي الدين على قطع إقامته في مدينة فاس والرجوع من جديد إلى الأندلس. ولكن هناك احتمالان أولهما أنه ذهب إلى هناك ليقضي بعض أعماله وينهي كل ارتباطاته بالأندلس لأنه سوف يغادرها إلى الشرق بشكل نهائي عمّا قريب، حيث نراه ذهب في هذه السنة نفسها إلى مرسية مسقط رأسه التي ربّما بقي له فيها بعض الممتلكات، خاصة وأننا نعلم أن أباه كان من الأغنياء ومن أتباع السلطان ابن مردنيش ثم أمراء الموحدين كما ذكرنا. ومن جهة أخرى فمن المحتمل أن يكون ذهابه إلى الأندلس في هذه المرة هو للاعتزال عن الناس والهروب من المريدين والشيوخ الذين بدأوا يتكاثرون حوله وربما يشغلوه عن الخلوة مع الله، ولذلك نجد أنه في هذه المرة لم يستقر في إشبيلية ولا في أي مكان محدّد، وحتى إنه قضى أكثر من سنة من غير أن يخبرنا أين كان بالتحديد ولا ماذا حدث معه في هذه الفترة.

---

[480] روح القدس: ص٨٢.

[481] روح القدس: ص٨٣.



عودته إلى الأندلس سنة ٥٩٥/١١٩٨

ولقد كتب الشيخ كتابا قصيرا هو إحدى الرسائل أو الكتب المهمة المطبوعة في "كتاب الكتب" في "رسائل ابن العربي"، وهو يصف فيه مسارَه حين عودته من المغرب إلى أحد أصدقائه الذي لم يذكر اسمه ولكن ربما يكون الشيخ محمد بن قاسم التميمي، أو ربما يكون موجها للشيخ المسن أبي يحيي بن أبي بكر الصنهاجي الذي كان قد انتهى لتوّه من كتابة كتاب عنقاء مغرب من أجله كما رأينا أعلاه.

ويبدو أن الشيخ الأكبر جاء إلى الأندلس كما قلنا إمّا مودّعا أو ليعتزل عن الناس، فقال في آخر هذا الكتاب بعد أن ذكر المواقف التي وقف بها والشيوخ الذين قابلهم خلال سنة ٥٩٥ في الأندلس، قال: وهنا انتهى ما لقيت، ولا أزور أحدا بعدها ما بقيت. والسلام."[٤٨٢]

الشيخ أبو محمد عبد الله بن إبراهيم المالقي (سبتة، ٥٩٥/١١٩٨)

وفي سبتة التقى الشيخ الأكبر وصاحبه عبد الله الحبشي بالشيخ أبي محمد عبد الله بن إبراهيم المالقي المعروف بالقلفاط وهو صاحب أبي الربيع الكفيف وإبراهيم بن طريف الذي ذكرناه أعلاه. يقول عنه الشيخ محيي الدين أنه كان يعمل على طريق الفتيان،"[٤٨٣] وظهرت عليه أحوال هذا المقام وبدت عليه أعلامه فما تراه يمشي قطّ إلا في حق غيره: لا يلتفت لنفسه ولا لحقها، وكان يذهب إلى الحكام في حوائج الناس، وكانت داره مباحة للفقراء. كان محافظا للشريعة والآداب، مشروح الصدر أكثر من إبراهيم بن طريف، حيث كان ابن طريف عنده جمود.

[482] عن "كتاب الكتب" ص٥-١٠، الرسالة رقم ٢١ من الجزء الثاني من رسائل ابن العربي.

[483] يعرِّف الشيخ محيي الدين الفتى بأنه هو الذي يمشي في حق غيره. (الفتوحات المكية: ج١ص٢٤٢، ج٣ص٢٣٤.)

رفض دعوة السلطان (سبتة، ٥٩٥/١١٩٨)

ويذكر الشيخ محيي الدين قصة حصلت له في سبتة مع صاحبيه الشيخ عبد الله المالقي والشيخ إبراهيم ابن طريف وتدل هذه القصة بوضوح على اهتمام سلاطين الأندلس به كما أسلفنا في بداية الفصل الثاني رغم أنه هو لم يكن يأبه بهم بل وكان ينتقدهم بوضوح.

يذكر ابن العربي أنه كان بمدينة سبتة ومع ابن طريف وعبد الله المالقي، فكان أن وجّه له السلطان أبو العلاء طعاما مرتين ولم يكن هو حاضراً فأخذهما الفقراء الذين كانوا وصلوا إلى الموضع من أجل استقباله، أما خواص أصحابه فإنهم أحجموا عن أكل هذه الأعطية. ثم في الليلة الثانية وجّه إليهم السلطان كذلك مرتين فلم يقبل الشيخ محيي الدين وكان بعض الفقراء قد أتوا إليهم بالقصد لمّا سمعوا أن السلطان يبعث إليهم. فأقام ابن العربي صلاة العشاء وصلى، فقال بعض الفقراء "لا صلاة بحضرة طعام" فلم يجبه الشيخ الأكبر، فغضب ذلك الشخص، فقال ابن العربي: "أنا لم أقبل ذلك الطعام ولا أرى أن آكله فإنه عندي حرام، ولا يمكن لي أن آمركم بأكله فإني أحب لكم ما أحب لنفسي." ثم بيّن لهم وجه الحرام فيه، ثم قال: "هذا طعام حاضر من استحلّه أكله ومن لم يستحلّه تركه"، ودخل إلى البيت الذي كان فيه وأدخل معه خواص أصحابه. فلما أصبح مشى ذلك الشخص ووشى بالشيخ الأكبر عند الوزراء بأنه يقول فيهم أنهم أهل حرام وغير ذلك. فاغتاظ الوزير وقال: "إن السيّد والله هو الذي يتناول توجيه ذلك الطعام بنفسه وقام لذلك وقعد!" فوصلت المسألة إلى السلطان وكان عاقلا فقال: "نحن ما قصدنا إلا الخير وهو أعرف بحاله لا تُدخل عليه مضرّة ولا ما يسوؤه، ولم يُعر لهذه المسألة بالا.

ثم بلغ الخبر إلى صاحبه عبد الله المالقي فاجتمع بالشيخ الأكبر وخاف عليه وعلى أصحابه لأنه يعرف هذه البلاد وأهلها، وعاتبه على ذلك وقال له: "هذا في حق نفسك حسن، غير أن المضرة تنسحب فيه على الطائفة وهؤلاء القوم ما يحتملون مثل هذا، وقد قال بعضهم ذلّ من ليس له ظالم يعضده وضلّ من ليس له عالم يرشده." (وهو يقول ذلك من مقام الفتوة كما يبدو) فلمّا رأى الشيخ محيي الدين أن الرحمة غلبت عليه في حق الناس وتشديد الأمور والأخذ بالأرجح في المصلحة الدنيوية قال له: "بئس العبد لله يستند إلى عدوّ الله، لا راعى الله العالم إذا لم يُراعوا حق الله، الله أحق." ونفض الشيخ الأكبر يده وقام فانصرف، فلقي ابن طريف وقد علم بالخبر، فقال له: "السياسة أولى"، فقال الشيخ الأكبر: "ما دام رأس المال محفوظا"، (يعني الدين)، فسكت الشيخ ابن طريف.[٤٨٤]

عبوره إلى الأندلس (الجزيرة الخضراء، ٥٩٥/١١٩٨)

يقول الشيخ محيي الدين حسب هذا الكتاب القصير أنه لما فارق صاحبه، لم يزل يقطع المناهل بتذكاره حتى وصل إلى قصر كتامة، وهناك التقى بشيخ لم يذكر اسمه ولكنه ذكره في كتاب الدرة الفاخرة،

---

[٤٨٤] الفتوحات المكية: ج٤ص٥٤٠.

وهو الشيخ عبد الجليل بن موسى. ثم رجع نحو الجزيرة الخضراء، فلقي بها صديقه القديم الشيخ العارف أبا إسحاق بن طريف الذي ذكرناه سابقا، وعرفه على صاحبه الجديد عبد الله بدر الحبشي، ومن غير المستبعد أن يكون رافقهم من سبتة حيث كان معهم هناك كما رأينا في الفقرة السابقة.

رندة (١١٩٨/٥٩٥)

ثم سار ابن العربي إلى رندة فنزل بمحل الصوفي المحقق، الرباني المتخلق، أبو الحسن القنوني، وهو الذي قال عنه في كتاب روح القدس أنه من أهل الفتوة والمعارف السنية.[٤٨٥]

وفي رندة أيضاً التقى الشيخ محيي الدين بصاحبه ابن أشرف الرندي الذي يبدو أنه كان يحدث عنه صاحبه بدراً وكان دائماً يتمنى أن يراه، فيقول الشيخ محيي الدين في "روح القدس" أنه لما دخل الأندلس معه ونزلا برندة وجدا جنازة فصلّوا عليها وإذا بأبي عبد الله الرندي أمامهما فعرّفه ابن العربي عليه، فلما ذهبا بعد صلاة الجنازة ونزلوا في موضع عند بعض الأصحاب، قال عبد الله بدر الحبشي لصاحبه: "وددت أن أرى من كراماته شيئا". فلما جاء المغرب وصلّوا أبطأ الذي نزلوا عنده بالمصباح، فقال بدر الحبشي: "أريد المصباح". فقال أبو عبد الله الرندي: نعم، ثم أخذ بيده قبضة من حشيش من البيت الذي كانوا فيه وهم ينظرون ما يصنع، فضربها بأصبعه المسبّحة، وقال: هذا نار! فاشتعل الحشيش نارا، حتى أشعلوا المصباح، وكان يغترف النار بيده من الكانون لحاجة ما فيمسكه ما شاء الله ولا تعدو عليه وكان من الآمنين.[٤٨٦]

إشبيلية (١١٩٨/٥٩٥)

ثم شدّ ابن العربي وصحبه الرحال إلى إشبيلية حيث يقول إنه التقى فيها بالوارث الإمام الأوحدي، أبي عبد الله المحاسبي، والشيخ أبي عمران موسى ابن عمران الميرتلي، والفقيه العابد التقيّ الزاهد أبي عبد الله بن عيسوم، خليفة الإمام أبي عبد الله المنسوب إلى قسطلة. ثم قدم أيضاً إليهم هناك الحاج السني الأخلاق أبو محمد عبد الله الموروري الذي ذكرناه في الفصل الثاني.

قرطبة (١١٩٨/٥٩٥)

ثم وصل ابن العربي إلى قرطبة وهناك التقى بالشاب الصالح أبي عبد الله الأسطني، فذكر له من محاسن صاحبه ما يُحب، فدعا له بمنال أسنى الرتب (كما ذكر في الرسالة التي ذكرناها).

جنازة ابن رشد (قرطبة، ~شهر صفر ١١٩٨/٥٩٥)

ولقد نوّهنا من قبل أن الشيخ محيي الدين قد ذكر أنه حضر جنازة ابن رشد الذي توفي في هذه

---

[٤٨٥] روح القدس: ص٨١.

[٤٨٦] روح القدس: ص٧٤.

السنة في اليوم التاسع من شهر صفر (١١٩٨/١٢/١١) في مراكش وحُمل إلى قرطبة حيث يروي الشيخ الأكبر في الباب الخامس عشر من الفتوحات المكية أنه عندما مات ابن رشد في مراكش وحُمل إلى إشبيلية جُعل التابوت الذي فيه جسده على الدابة وجُعلت مؤلفاته تعادله من الجانب الآخر، وكان الشيخ محيي الدين واقفا ومعه الفقيه الأديب أبو الحسين محمد بن جبير (توفي ١٢١٧/٦١٤) كاتب السيد أبي سعيد وصاحبه أبو الحكم عمرو ابن السراج الناسخ. فيقول الشيخ محيي الدين أن أبا الحكم التفت وقال: ألا تنظرون إلى من يعادل الإمام ابن رشد في مركوبه، هذا الإمام وهذه أعماله يعني مؤلفاته. فقال له ابن جبير: يا ولدي نعم ما نظرت لا فُضَّ فوك. ومن ذلك الوقت يقول الشيخ محيي الدين أنه قيّدها عنده موعظة وتذكرة وقال فيها شعرا:

هــــذا الإمـــــام وهــــــذه أعمـــــــاله   يـــا ليــت شــعري هــل أتــت آمالــه![487]

الشيخ أبو محمد عبد الله الشكاز (غرناطة ١١٩٩/٥٩٥)

وفي الشهور الأولى من سنة ٥٩٥ مرّ الشيخ بمدينة غرناطة ليزور فيها صاحبه الشيخ عبد الله الشكّاز وهو من أهل باغة بغرناطة، وهو يقول عنه أنه من أكبر من لقيه في هذا الطريق لم ير في طريقه مثله في الاجتهاد. وينقل الشيخ الأكبر عن عبد الله ما يؤكد صحة الحديث الذي أجمع أهل الكشف على صحته عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنه قال في آي القرآن "إنه ما من آية إلا ولها ظاهر وباطن وحد ومطلع". فقال له عبد الله الشكاز أن الرجال أربعة: (رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِ ...۝) [الأحزاب]، وهم رجال الظاهر، و(رِجَالٌ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ ...۝) [النور]، وهم رجال الباطن جلساء الحق تعالى ولهم المشورة، ورجال الأعراف وهم رجال الحدّ قال الله تعالى (وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٌ ...۝) [الأعراف]، أهل الشم والتمييز والسراح عن الأوصاف فلا صفة لهم كان منهم أبو يزيد البسطامي، ورجال إذا دعاهم الحق إليه يأتونه رجالاً لسرعة الإجابة لا يركبون (وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا ...۝) [الحج]، وهم رجال المطّلع.[488]

ويذكره أيضاً في كتاب روح القدس فيقول عنه أنه سكن غرناطة وهو بها حتى الآن (أي حتى وقت كتابة رسالة روح القدس سنة ٥٩٩ في مكة المكرمة)، وقد اجتمع به الشيخ محيي الدين في منزله مع صاحبه عبد الله بدر الحبشي وكانت عادة الشيخ محيي الدين، كما يقول، أنه إذا دخل على أحد من شيخ أو فقير يدفع إليه كل درهم يكون عنده، لا يمسك شيئا؛ فلم يكن عنده في ذلك الوقت سوى درهم واحد، فدفعه إليه.

---

[487] الفتوحات المكية: ج١ص١٥٤.

[488] الفتوحات المكية: ج١ص١٨٧–١٨٨.

ويصفه الشيخ محيي الدين فيقول إنه كان رضي الله عنه من أهل الجد والاجتهاد الغالب عليه الحزن والبكاء يكره المعصية كما يكره الكفر ويكره الصغيرة كما يكره الكبيرة ويحقق في مقام المحافظة، يكاد يكون معصوما، كان رضي الله عنه ليله قائم ونهاره صائم لا يقدر مريد قط على صحبته لأنه كان يطلبه باجتهاد فيفر منه، عاش وحيدا فريدا ليس عنده ولا له على النفس رحمة، يقال له عن رحمة الصحابة بأنفسهم فيقول لو لم يكن لهم إلا الصحبة متى نلحق بهم! ومن أجل ذلك نجد الشيخ محيي الدين يشبهه بخاله أبي مسلم الخولاني التابعي الذي تكلمنا عنه في الفصل الثاني وكان يضرب ساقيه بالقضيب ويقول أيظن أصحاب محمد صلّى الله عليه وسلّم أن يفوزوا به دوننا! والله لأزاحمنهم عليه حتى يعلموا أن خلّفوا بعدهم رجالا.[489]

ابن سيدبون (مرسية ٥٩٥/١١٩٩)

ثم تابع الشيخ الأكبر رحلته إلى مسقط رأسه مرسية وكأنه يريد أن يلقي عليها النظرة الأخيرة، وربما قصد تصفية أموره فيها حيث أنه يعتزم السفر بشكل نهائي إلى المشرق.

وفي مرسية التقى الشيخ محيي الدين بالإمام أبي أحمد بن سيدبون، الذي التقاه بوادي آش، ولم تكن حالته جيدة مع الحق مع أن أغراضه كانت حميدة كما يقول عنه الشيخ رضي الله عنه في كتاب الكتب الذي ذكرناه أعلاه، فيقول:

فلقيته بمرسية وقد أدبه الحق وهجره الخلق، مكسوف البدر خامل القدر، لا يُنظر إليه ولا يُعوّل عليه، قد هجره حبيبه ومقته قريبه، تصفية إن شاء الله وتطهيرا، ليتحقق بكون الله عليما خبيرا، وذلك لأمور طرأت لا يمكن ذكرها إلا مشافهة، ولا يُتحدث بها إلا مواجهة، لكن الشيخ، وفقه الله، أغراضه حميدة، ومساعيه في نفسه منجحة سعيدة، غير أنه أعطي ملكا غاب عنه تدبيره، فأول من ثار عليه وزيره، وحُرم سياسته فلم يحكم رياسته،[490] يبدو لك الصدق على وجهه والمقصد الحسن على عرضه، فإن أمضاه في عالم الشهادة عاد قبيحا، وصار فاسدا بعد ما كان صحيحا، فدعا لكم والشيخ أبي عمران المعلم وثبته بكل صفة فاضلة فيه، فرحلت من عنده وقد بكى لفراقي متفجعا، وخرج معي إلى بعض الطريق مشيعا.[491]

ولا شك أن أبا أحمد بن سيدبون كان عالما جليلا حيث يقول عنه الشيخ الأكبر رضي الله عنه في الفتوحات المكية أنه عندما التقاه بمرسية سأله إنسان عن اسم الله الأعظم فرماه بحصاة يشير إليه أنك اسم الله الأعظم.[492]

وفي الباب الثالث والثمانين ومائتان في معرفة منزل القواصم وأسرارها من الحضرة المحمدية، يذكر الشيخ محيي الدين أن الشيخ أبا أحمد ابن سيدبون رغم علوّ مرتبته فقد يلتبس عليه الأمر مثل الإمام

---

[489] روح القدس: ص٦٩–٧٠.

[490] الوزير هنا بمعنى العقل، راجع معنى ذلك في كتاب التدبيرات الإلهية (ضمن مطبوعة "إنشاء الدوائر")، ص١٢١.

[491] انظر في كتاب الكتب، ضمن مجموعة رسائل ابن عربي، طبعة حيدرآباد.

[492] الفتوحات المكية: ج٢ص٦٤١.

أبي حامد الغزالي وغيره من العلماء الذين قالوا أن الإنسان إنما يطرأ عليه التلبيس ما دام في عالم العناصر فإذا ارتقى عنها وفُتحت له أبواب السماء عصم من التلبيس فإنه في عالم الحفظ والعصمة من المردة والشياطين فكل ما يراه هنالك حق. ولكن الشيخ محيي الدين يقول إن الذي ذهبت إليه هذه الطائفة من رفع التلبيس فيما يرونه لكونهم في محالٍّ لا تدخلها الشياطين فهي محالٌّ مقدسة مطهرة كما وصفها الله وذلك صحيح أن الأمر كما زعموه، ولكن إذا كان المعراج فيها جسماً وروحاً كمعراج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وأما من عرج به بخاطره وروحانيته بغير انفصال موت بل بفناء أو قوّة نظر يعطى إيّاها وجسده في بيته وهو غائب عنه بفناء أو حاضر معه لقوة هو عليها فلا بدّ من التلبيس إن لم يكن لهذا الشخص علامة إلهية بينه وبين الله يكون فيها على بيّنه من ربّه فيما يراه ويشاهده ويخاطب به. فإن كان له علامة يكون بها على بيّنة من ربّه والتلبيس يحصل له وعدم القطع بالعلم في ذلك إن كان منصفاً وقد يكون الذي شاهده حقاً ويكون معصوماً محفوظاً في نفس الأمر ولكن لا علم له بذلك فإذا كان على بيّنة من ربّه حينئذ يأمن التلبيس كما أمِنته الأنبياء عليهم السلام فيما يُلقي إليهم من الوحي في بيوتهم."[493]

الشيخ المسرف (مرسية ٥٩٥/١١٩٩)

وفي مرسية أيضاً التقى الشيخ محيي الدين برجل فقيه إمام متكلم ولكنه كان مسرفا على نفسه يشرب الخمر مع رفاق السوء، إلا أنه مع ذلك كان لا يصرّ على المعصية كما أخبره عنه بعض الصالحين بمدينة قرطبة أنه ولقد أخبرني بعض الصالحين بمدينة قرطبة أنه سمع أن بمرسية رجلاً عالماً كان مسرفاً على نفسه فقصد زيارته فامتنع من الخروج إليه لراحة كان عليها مع إخوانه فلما أبى إلا رؤيته فقال العالم أخبروه بالذي أنا عليه، فقال لا بدّ لي منه، فدخل عليه وقد فرغ ما كان بأيديهم من الخمر، فقال له بعض الحاضرين: أكتب إلى فلان يبعث إلينا شيئاً من الخمر، فقال: لا أفعل! أتريدون أن أكون مصراً على معصية الله؟ والله ما أشرب كأساً إذا تناولته إلا وأتوب عُقَيبه إلى الله تعالى ولا أنتظر الكأس الآخر ولا أحدّث به نفسي، فإذا وصل الدور إليّ وجاء الساقي بالكأس ليناولني إيّاه أنظر في نفسي فإن رأيت أن أتناوله منه تناولته وشربته وتبت."[494]

ولذلك يقول الشيخ الأكبر في الوصايا عندما يذكر هذه القصة: وإياك والإصرار وهو الإقامة على الذنب، بل تب إلى الله في كل حال وعلى أثر كل ذنب. وقال في موضع آخر من الفتوحات أيضاً عندما ذكر هذه القصة أن الحقّ أشهده في سرّه في واقعة وقال له بلّغ عبادي ما عاينته من كرمي بالمؤمن: الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والسيئة بمثلها. فيقول ابن العربي أن السيّئة لا يقاوم فعلها الإيمان بها أنها سيئة وينقل قول الله تعالى: ما لعبادي يقنطون من رحمتي ورحمتي وسعت كل شيء وأنا عند ظن عبدي بي فليظن بي خيراً."[495]

---

[493] الفتوحات المكية: ج٢ص٦٢٢.

[494] باب ٥٦٠، انظر أيضاً الباب ٧٢، وكتاب الكتب (ضمن رسائل ابن عربي، حيدرآباد).

[495] الفتوحات المكية: ج١ص٧٠٨.

ولم يذكر الشيخ رضي الله عنه اسم هذا الشخص مع أنه التقاه ويعرفه ويقول: ما منعني أن أسميه إلا خوفي أن يُعرف إذا سميته. فإن ذلك يعدّ غيبة. وكان هذا الشخص في أشدّ الشوق لرؤية ابن العربي ولكنه عندما اجتمع به في مرسية سنة ٥٩٥ لم يعرفه، بل سأله عنه، ومات وفي قلبه حسرة من كونه لم يلقاه.

مواقع النجوم، (المرية، رمضان ٥٩٥/١١٩٩)

لما ودّع الشيخ الأكبر مرسية الوداع الأخير مرّ هو وصحبه في طريق عودتهم بالمرية وهي مدينة تقع على الشاطئ الجنوبي للأندلس بين مرسية وقرطبة. وهناك هلّ عليه هلال شهر رمضان فأقام فيها يتعبّد ويتهجّد، وهناك رأى الحقّ تعالى في المنام مرتين وهو يقول له: "انصح عبادي" فلبّى الأمرَ عندما جاءه رسول الإلهام بتأليف كتاب "مواقع النجوم ومطالع أهلّة الأسرار والعلوم" الذي ألّفه في أحد عشر يوما من النصف الثاني من شهر رمضان سنة ٥٩٥ في مدينة المرية. وهذا الكتاب هو من أهم كتب الشيخ محيي الدين ابن العربي وهو يقارب بمرتبته الفتوحات المكية وفصوص الحكم رغم صغر جرمه ولكنه لم يحظى بالعناية الكافية من الشارحين والدارسين ربما لأنه مبني على الإشارة والرمز. يذكره الشيخ الأكبر في الفتوحات المكية كثيرا ويشير إليه كلما دعت الحاجة لمزيد من التفصيل وضاق عنها المحل. وهو يقول عنه في الباب الثامن والستين من الفتوحات حينما كان يذكر تكاليف أعضاء الجسم من يدٍ ورجلٍ وقلبٍ وعقلٍ:

> وقد بيناها بكمالها وما لها من الأنوار والكرامات والمنازل والأسرار والتجليات في كتابنا المسمى مواقع النجوم ما سبقنا في علمنا في هذا الطريق إلى ترتيبه أصلا و قيدته في أحد عشر يوما في شهر رمضان بمدينة المرية سنة خمس وتسعين وخمسمائة، يغني عن الأستاذ، بل الأستاذ محتاج إليه، فإن الأستاذين فيهم العالي والأعلى، وهذا الكتاب على أعلى مقام يكون الأستاذ عليه ليس وراءه مقام في هذه الشريعة التي تعبدنا بها فمن حصل لديه فليعتمد بتوفيق الله عليه فإنه عظيم المنفعة. وما جعلني أن أعرفك بمنزلته إلا أني رأيت الحق في النوم مرتين وهو يقول لي انصح عبادي، وهذا من أكبر نصيحة نصحتك بها والله الموفق وبيده الهداية وليس لنا من الأمر شيء.[٤٩٦]

وكذلك يقول عنه في الباب الثامن والستين ومائة أنه ما سبقه أحد إلى ترتيبه، لا إلى علم ما فيه، وهو كتاب صحيح الطريق عظيم الفائدة صغير الجرم بناه على المناسبة[٤٩٧] فإن المناسبة أصل وجود العالم.[٤٩٨]

وفي بداية هذا الكتاب مواقع النجوم يذكر الشيخ الأكبر سبب تأليفه بمزيد من التفصيل فيقول:

---

[٤٩٦] الفتوحات المكية: ج١ص٣٣٤.

[٤٩٧] المناسبة علم مهم عند أهل الله الذين يعتبرون أنه لا يجتمع أمران إلا لمناسبة بينهما، كما في القصة التي ذكرها الشيخ محيي الدين عن شيخه أبي مدين مع الشخص المشرك الذي كان يمشي بجانبه، والتي ذكرناها في أول هذا الفصل.

[٤٩٨] الفتوحات المكية: ج٢ص٣٧٢، وكذلك: ج٣ص٣٢٦.

لما شاء الله أن يخرج هذا الكتاب الكريم إلى الوجود ويتحف خلقه بما اختاره لهم من لطائفه وبركاته في خزائن جوده على يدي من شاء من عبيده، حرّك خاطري امتطاء المطية من المرسية إلى المرية فامتطيت الرحال وأخذت في الترحال مرافقا أطهر عصبة وأكرم فتية سنة خمس وتسعين وخمسمائة، فلما وصلتها لأقضي أمورا أملتها تلقاني شهر رمضان المعظم بهلاله وصافحني على مسامرته بها إلى أوان انفصاله، فألقيت بها عصا التسيار وأخذت في الذكر والاستغفار، وكان لي أكرم جليس وأحسن أنيس. فبينما أنا أتبتل وأتخضع وأخشع في بيوت أذن الله أن ترفع، وقد أقمر هلاله وفاز بما مضى من أيامه ولياليه رجاله، إذ أرسل إليّ سبحانه رسول إلهامه مؤيدا ثم أردفه بما أوحى به للابن التقي (ربما يقصد بدر الحبشي) في منامه، فوافق المنام الإلهام، ونظم عقد الحكم في هذا الكتاب أبدع نظام، وعلمت عند ذلك أنني كما ذكرته من شاء من عباده في إبراز هذا الكتاب وإيجاده، وأني الخازن على هذا العلم والمتحكم في هذه المراسم؛ فنفث في روعي روحه القدسي، وطلع بأفق سماء همتي بدره البديع، فانبعث الروح العقلي لتصنيفه، وتوفرت دواعيه لتأليفه، ونظر الروح الفكري في تكييفه الرفيع وحسن نظمه البديع، فرتبته على ثلاث مراتب، وسلكت في أنجح المذاهب.[499]

ثم يُشرع الشيخ في تفصيل برنامج الكتاب وأنه كما ذكر على ثلاث مراتب هي مرتبة العناية وهي التوفيق، والهداية وهي علم التحقيق، والولاية وهي التي توصل إلى مقام الصدّيق. ثم جعل كل مرتبة تجري على تسعة أفلاك ثلاثة منها إسلامية وثلاثة إيمانية وثلاثة إحسانية، فالإسلامية جسمانية والإيمانية نفسانية والإحسانية روحانية، ثم قسّم فقرات الكتاب إلى مطالع ومنازل ووزّع الأفلاك على أعضاء جسم الإنسان وحواسه، فكان في الجملة كتاب لطيف شريف بديع فيه من العلم ما يفيد الجميع.

ولكن الشيخ محيي الدين يقول في كتاب "حلية الأبدال" أنه بعد أن انتشر كتاب مواقع النجوم في البلاد استدرك عليه الشيخ محيي الدين وزاد قسما خاصا بعضو القلب سنة ٥٩٧/١٢٠٠ في مدينة بجاية.[500]

بعض الكتب الأخرى التي ألّفها الشيخ في هذه الفترة

على الرغم من أنّ نشاط الشيخ محيي الدين في التأليف لا يزال حتى الآن محدوداً، ولكن بالإضافة بعض الكتب التي ذكرناها أعلاه مثل كتاب التدبيرات الإلهية وكتاب مشاهد الأسرار القدسية ومطالع الأنوار الإلهية وكتاب الإسرا إلى المقام الأسرى وكتاب تهذيب الأخلاق وكتاب مواقع النجوم، هناك عدد كبير

---

[499] مواقع النجوم ومطالع أهلة الأسرار والعلوم، ابن العربي، مكتبة محمد علي صبيح–القاهرة، ١٩٦٥، ص٥.

[500] حلية الأبدال، ضمن رسائل ابن العربي (حيدرآباد)، ص٨.

من الكتب التي يبدو أنّ الشيخ محيي الدين قد ألّفها في هذه الفترة رغم أنّه لا توجد دلائل واضحة على التاريخ الدقيق لتأليفها.

فمن هذه الكتب كتاب الاحتفال فيما كان عليه رسول الله من سنيّ الأحوال، وكتاب المعلّى في مختصر المحلّى (لابن حزم)، وكتابي اختصار الترمذي واختصار مسلم، وكتاب الأدب، وكتاب إنزال الغيوب، وكتاب البغية في اختصار كتاب الحلية لأبي نعيم الأصفهاني (توفي ٤٣٠/١٠٣٨)، وكتاب التحقيق في شأن السرّ الذي وقر في نفس الصدّيق، وكتاب الجان (صنّف سنة ٥٩١)، وكتاب الجذوة المقتبسة والخطرة المختلسة، وكتاب الجلا في آداب الملأ الأعلى، وكتاب جلاء القلوب، وكتاب الجمع والتفصيل في أسرار معاني التنزيل،[501] وكتابي جواب عن مسألة الدرّة البيضاء وهو العقل الأول وجواب عن مسألة الزمرّدة الخضراء أو الياقوتة الحمراء وهي النفس الكلّية، ورسالة عن فضل الذكر (أو: أي الذكر أفضل)، ورسالة في الصحابة، وكتاب الزمان،[502] وكتاب شفاء العليل في إيضاح السبيل، وكتاب عقلة المستوفز،[503] وكتاب الفتح الفاسي،[504] وكتاب كشف المعنى عن سرّ أسماء الله الحسنى، وكتاب المبادئ والغايات في أسرار الحروف المكنونات في الأسماء والدعوات، وكتاب المثلثات الواردة في القرآن،[505] وكتاب المسبعات الواردة في القرآن،[506] وكتاب المركز، وكتاب المصباح في الجمع بين الصحاح، وكتاب مطالع الأنوار الإلهيّة،[507] وكتاب مفتاح السعادة في معرفة المدخل إلى طريق الإرادة، وكتاب منهاج الارتقاء،[508] وكتاب المنتخب في مآثر العرب، وكتاب الميزان في حقيقة الإنسان، وكتاب النار.[509]

---

[501] مؤلفات ابن عربي: ص٤٧٦. وذكرنا من قبل أن هذا الكتاب هو كتاب كبير في تفسير القرآن الكريم يقول عنه في الإجازة للملك المظفر الأيوبي أنه بلغ أربعة وستين جزءً وقد وصل فيه فقط إلى الآية ٥٩ من سورة الكهف (وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح...)، ويقول عنه في الفهرس الذي كتبه لتلميذه صدر الدين القونوي أنه أنشأه على ثلاثة مقامات: مقام الجلال أولا ثم مقام الجمال ثم مقام الاعتدال.

[502] مؤلفات ابن عربي: ص٣٧٨، ولكنّ هذا الكتاب الثمين لا يزال مفقودا.

[503] مؤلفات ابن عربي: ص٤١٦، وقد نشر هذا الكتاب (مع كتاب إنشاء الدوائر وكتاب التدبيرات الإلهيّة) في ليدن (هولندا) سنة ١٩١٩ على أساس أربع مخطوطات موجودة في برلين، ثمّ أعيد نشره مرارا.

[504] مؤلفات ابن عربي: ص٤٣٠، ويبدو من عنوانه أنه ألّف في مدينة فاس.

[505] مؤلفات ابن عربي: ص٥٤٢، وهو كتاب تفسير يشرح فيه الشيخ محيي الدين بعض الآيات ذات التقسيم الثلاثي مثل قوله تعالى في سورة البقرة: "لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ...﴿٦٨﴾"، وقوله في سورة الإسراء: "وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾".

[506] مؤلفات ابن عربي: ص ٥٥٦. ويشرح هذا الكتاب الآيات التي ورد فيها العدد سبعة.

[507] مؤلفات ابن عربي: ص٥٦٤. وقد ذكر هذا الكتاب في كتاب التدبيرات الإلهية، فلا شكّ أنّ ابن العربي قد ألّفه قبل سنة ٥٨٦.

[508] مؤلفات ابن عربي: ص٥٨٩. ويقول عنه الشيخ محيي الدين في الفهرس أنه يحتوي على ثلاثة آلاف مقام مقسمة على ثلاثمائة باب كل باب عشر مقامات، ولكن عثمان يحيى يقول أنّ هذا الوصف لا ينطبق على المخطوطات المتوفرة عن هذا الكتاب والتي تبدو أنها مجرّد اختصار للباب الأول من الفتوحات المكية.

[509] مؤلفات ابن عربي: ص١١٥—١٢٠.

وللمزيد من المعلومات عن هذه الكتب يمكن مراجعة تصنيف عثمان يحيى لمؤلفات ابن العربي وكذلك الملحق الثاني الذي وضعناه آخر هذا الكتاب.

اعتزاله لأكثر من عام (من شهر شوال ١١٩٨/٥٩٥ حتى ١٢٠٠/٥٩٧)

بعد ذلك يبدو أن الشيخ محيي الدين ابن العربي قد قرر الاعتزال عن الناس لمدة وجيزة، ولكن ربما كان يصطحب معه صاحبه الدائم عبد الله بدر الحبشي الذي أصبح يرافقه كظله. لا نعرف كيف قضى الشيخ محيي الدين هذه الفترة، ولكننا سنجده بعد أكثر من سنة في جنوب المغرب في مدينة سلا حيث سيلتقي بالخضر عليه السلام للمرة الثالثة.

وهناك أيضاً إشارات إلى أن الشيخ محيي الدين كان في هذه الفترة في إشبيلية حيث تذكر إحدى المخطوطات لكتاب مواقع النجوم أنه كتب منه نسخة هناك في شهر ربيع الأول سنة ٥٩٦.[٥١٠] وكما سنجد في الفصل القادم فمن شبه المؤكّد أن الشيخ محيي الدين قد سافر إلى جنوب المغرب عن طريق البحر المحيط وليس عن طريق الجزيرة الخضراء وسبتة كما كان يفعل عادة. وهذا يعني أنه غادر الأندلس من الساحل الجنوبي الغربي ربما من منطقة روطة التي اعتاد أن يقضي بها أياما في السياحة كما ذكرنا من قبل. فمن غير المستبعد إذا أن يكون قد قضى معظم فترة عزلته في هذه الأماكن الساحلية والجبلية والتي قال عنها من قبل أنها تعتبر مكانا مفضّلا لأهل الله من الزهّاد والفقراء كما التقى فيها بالشيخ بن أشرف الرندي كما ذكرنا في آخر الفصل الثاني وأوّل هذا الفصل أعلاه.

[٥١٠] وذلك اعتمادا على معلومات غير منشورة زودنا بها مشكورا الدكتور ستيفين هرتنشتاين واستخلصها من مخطوطة بايزيد رقم ٣٧٥٠.

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الرابع

الظُّهْر

سفره إلى المشرق بقصد الحج وإقامته في مكة

١٢٠٣/٦٠٠ - ١٢٠٠/٥٩٧

رأى البرق شرقيًا فحنّ إلى الشرق ... ولو لاح غربياً لحنّ إلى الغرب
فإن غرامي بالبريق ولمحه ... وليس غرامي بالأماكن والترب
روته الصَّبا عنهم حديثاً معنعنا ... عن البثّ عن وجدي عن الحزن عن كربي
عن السكر عن عقلي عن الشوق عن جوىً ... عن الدمع عن جفني عن النار عن قلبي
بأن الذي تهواه بين ضلوعكم ... تقلّبه الأنفاس جنباً إلى جنب
فقلت لها: بلّغ إليه بأنه ... هو الموقدُ النارَ التي في داخل القلب
فإن كان إطفاءٌ فوصلٌ مخلّدٌ ... وإن كان إحراقٌ فلا ذنب للصبّ"[٥١١]

الخلاصة

بعد أن دار الشيخ الأكبر دورته الأخيرة في الأندلس وكأنه كان يودعها، وبعد أكثر من سنة من الاعتزال؛ بعد أن ملأ قلبه نورا، وروحه سرورا، تاقت نفسه حنينا إلى الأصل، فقرر الرجوع إلى مطلع الشمس متتبعا أثرها نحو المشرق، نحو المنبع، نحو بكّة، فهناك طلعت شمس المعرفة، في تلك البقعة المقدسة، التي فيها النقطة الأقدس، مركز الأرض، ومركز الكون، حيث الكعبة المشرفة، التي فيها الحجر الأسود، يمين الله في

[٥١١] ترجمان الأشواق: ص٥٤.

الأرض، من مسحه فقد بايع الله سبحانه وتعالى.[512] وبذلك، لما جاءه الأمر الإلهي عن طريق الرؤيا، شدّ محمد الرحال نحو المشرق متتبعا الطريق الذي جاء منه وهو ما يزال بعد في عالم الذر.

بدأ الشيخ الأكبر رحلته إلى المشرق سنة ٥٩٧/١٢٠٠ من المغرب حيث سيلتقي الشيخ الشهير أبا العباس السبتي وغيره من أهل الله تعالى. وهناك أمر في الرؤيا أن يصطحب معه شخصا اسمه محمد الحصّار الذي التقاه في مدينة فاس وشدّا رحالهما معاً إلى المشرق، ومعه صديقه المخلص عبد الله بدر الحبشي. وكان لا بد أن يزور صاحبه في تونس عبد العزيز المهدوي ومن ثم مرّوا في مصر فأقاموا بها قليلا، وهناك توفي صاحبه محمد الحصّار فتابع الشيخ رحلته نحو مكة في شهر رمضان سنة ٥٩٨، ولكنه ما كان ليذهب إلى مكة قبل أن يمرّ بمدينة الخليل ليزور مقام إبراهيم الخليل عليه السلام ثم يذهب إلى القدس ويصلي في المسجد الأقصى الذي حرّره صلاح الدين قبل خمس عشرة سنة. وبعد أن أتم الحج سنة ٥٩٨ بقي في مكة مجاوراً حتى نهاية سنة ٦٠٠، حيث سيبتدئ شوطا جديداً من الترحال نحو الشمال. وفي مكة ذاع صيته واشتهر هناك بين العلماء وصار يلقي الدروس في الحرم الشريف ويتحلّق حوله المريدون، وهناك أيضاً ابتدأ بكتابة موسوعته الشاملة لعلوم التصوف وفنونه وهي الفتوحات المكية التي سيستغرق في كتابتها حوالي ثلاثين سنة.

مغادرته الأندلس لآخر مرة

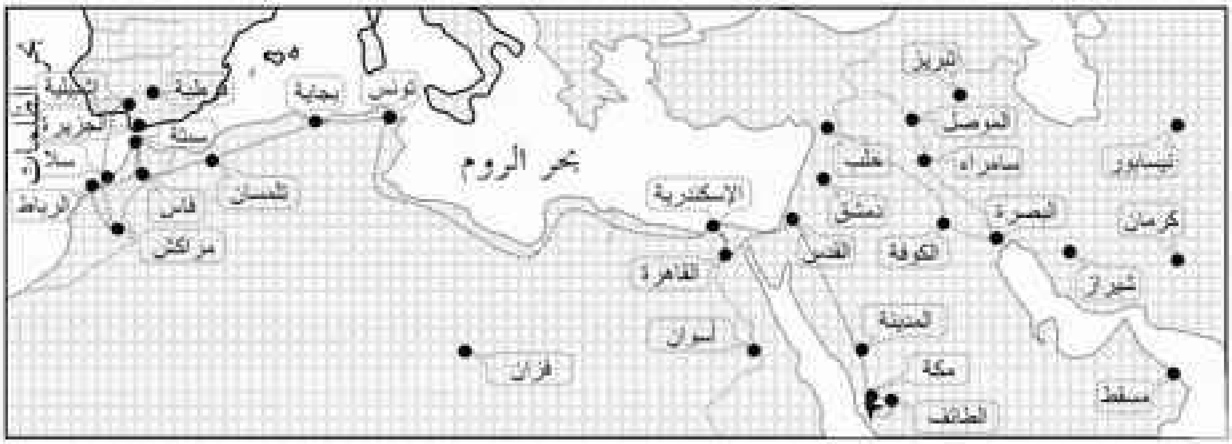
بعد أن قضى أكثر من سنة معتزلاً عن الناس كما رأينا في نهاية الفصل الماضي، غادر الشيخ محيي الدين الأندلس بشكل نهائي متجهاً إلى المغرب العربي ومنه إلى المشرق عن طريق تونس ومصر. لا نعلم على وجه التحديد متى غادر ابن العربي الأندلس ولا من أين غادرها، ولكن من المؤكّد أنه رضي الله عنه كان في نهاية سنة ٥٩٦ أو بداية سنة ٥٩٧ في المغرب في مدينة يقال لها "منقطع التراب" لأنه ليس وراءها إلا البحر المحيط، وهي مدينة سلا على الساحل الغربي للمغرب إلى الغرب من مدينة فاس. وقد قررنا هذا التاريخ لأننا سنجد الشيخ محيي الدين في بلدة أبجيسل بين سلا ومراكش في شهر محرم أول سنة ٥٩٧ الموافق تشرين الثاني أو كانون الأول سنة ١٢٠٠.

ولكن كيف وصل الشيخ محيي الدين إلى مدينة سلا من غير أن يمرّ، على ما يبدو، بالمدن الرئيسية الأخرى على الطريق مثل سبتة أو فاس، والتي لا بدّ لمن يقصد المغرب قادما من الأندلس أن يمرّ بها، إلا إذا فرضنا أنه مرّ بها بشكل سريع من غير أن يترك أي خبر عن ذلك، وذلك احتمال بعيد لأننا نجده يصف بعض تفاصيل رحلته من سلا نحو مراكش وفاس وسبتة وليس العكس. يبدو أن الاحتمال المعقول هو أنه وصل إلى "سلا" قادما من الأندلس عن طريق البحر، ثم ذهب منها إلى مراكش وفاس وغيرها كما سنرى. ليس هناك أية

[512] انظر في كنز العمال: رقم ٣٤٧٢٩، ٣٤٧٣٠، ٣٤٧٤٤، والحديث يوجد بأسانيد ومتون عديدة، كما روى: الطبراني في معجمه وأبو عبيد القاسم بن سلام عن ابن عباس رضي الله عنهما رفعه، وابن أبي الفوارس عن ابن عباس رضي الله عنهما، والأزرقي في تاريخه، والقضاعي أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفا عليه، والديلمي عن أنس، والحارث بن أبي أسامة في مسنده عن جابر. انظر في كشف الخفاء، حرف الحاء، رقم ١١٠٩.

إشارة مباشرة وصريحة في كتب ابن العربي لهذا الافتراض خاصة وأننا نجده دائما يفضّل السفر عن طريق البرّ بدلاً من البحر عملاً بالنصيحة التي يستشفّها من القرآن الكريم، حيث يقول الله تعالى في سورة يونس: (هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴿٢٢﴾)، فيقول ابن العربي: "ابدأ بما بدأ الله به".[513] ولكنّ ذلك لا يعني أنه لا يجوز السفر في البحر أو أنّ الشيخ محيي الدين لن يقوم بذلك، بل في الحقيقة فإن من المؤكد أن الشيخ محيي الدين قد سافر فعلا في البحر، سفرا طويلا غير الذي كان يقوم به كلما عبر المضيق.

يقول الشيخ محيي الدين في الباب السابع والستين وثلاثمائة حين كان يتحدّث عن قوة الريح أنه رأى ذلك ذوقاً من نفسه حين جرت بهم الريح الشديد من ضحى اليوم إلى غروب الشمس مسيرة عشرين يوماً رغم أن الموج كان كالجبال، "فكيف لو كان البحر فارغاً والرّيح من ورائنا كنّا نقطع أكثر من ذلك، ولكن أراد الله أن يرينا آيات كل صبّارٍ شكور".[514]



رحلته إلى المشرق

(روطة-سلا-أزمور-مراكش-فاس-سبتة-فاس-تلمسان-بجاية-تونس-الإسكندرية-القاهرة-الخليل-القدس-المدينة-مكة)

من حيث المبدأ هناك احتمالان اثنان لمثل هذه الرحلة: أن تكون في البحر المحيط (بحر الظلمات وهو الذي يسمى الآن بالمحيط الأطلسي) من الأندلس إلى سلا، أو أن تكون في البحر المتوسّط من تونس إلى الإسكندرية مثلاً؛ فإننا لا نملك أي دليل أيضاً عن كيفية انتقال الشيخ محيي الدين في هذا المسار أثناء رحلته إلى المشرق، ولكن الطريق من تونس إلى مصر براً يحتاج أكثر من عشرين يوما، بخلاف الرحلة من الأندلس (شريش أو روطة مثلا) إلى سلا الذي يحتاج تقريباً إلى عشرين يوماً.

فإذاً يبدو الاحتمال منطقياً أن الشيخ محيي الدين قد سافر من جنوب غرب الأندلس إلى غرب المغرب عن طريق بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) والذي يكون موجه عادة أعلى من موج بحر الروم (البحر المتوسّط)، ثم إنّ وصف الشيخ محيي الدين أن السفر الذي ذكره لم يكن باتجاه الريح يوحي على

---

[513] الفتوحات المكية: ج1ص563.

[514] الفتوحات المكية: ج3ص344.

الأغلب أنه لم يكن بين الغرب والشرق بل بين الشمال والجنوب.

على كل حال غادر الشيخ محيي الدين بلاد الأندلس بشكل نهائي في أواخر سنة ٥٩٦ متجها نحو المغرب ليبدأ منها رحلته نحو مكة المكرّمة.

اجتماعه بالخضر للمرة الثالثة (جنوب غرب الأندلس)

فإذا افترضنا إذاً أن الشيخ محيي الدين قد غادر الأندلس عن طريق البحر، فإن المكان المحتمل لذلك هو شذونة أو شريش حيث كان هناك في روطة وقد قابل الخضر هناك للمرة الثالثة، مع أننا لا نعرف بالتحديد متى كان ذلك، ولكنه حتما بعد سنة ٥٩٠، بعدما رجع من تونس، ومن المستبعد أن يكون خلال السنوات التي كان فيها في فاس، وهي تزيد عن ثلاث سنوات بالمجموع، فإذا لم يكن ذلك في الفترات القصيرة التي قضاها الشيخ محيي الدين في الأندلس بين رحلاته إلى المغرب كما رأينا أعلاه، فيبقى الاحتمال الأغلب أنه بعد سنة ٥٩٥ وبالتالي قريبا من نهاية ٥٩٦ قبل مغادرته الأندلس بشكل نهائي.

ولقد ذكرنا من قبل أن الشيخ محيي الدين قد التقى بالخضر عليه السلام مرة في إشبيلية كما ذكرنا في الفصل الثاني، ومرة في تونس كما ذكرنا في الفصل الثالث، وهذه هي المرة الثالثة قريبا من روطة.

يتابع الشيخ محيي الدين حديثه عن الخضر في الباب الخامس والعشرين من الفتوحات المكية كما ذكرنا أعلاه فيقول إنه التقى به للمرة الثالثة على ما يبدو بعدما التقى به في تونس سنة ٥٩٠، فيقول إنه لما كان بعد ذلك التاريخ خرج إلى السياحة بساحل البحر المحيط ومعه رجل ينكر خرق العوائد للصالحين، فدخل مسجداً خراباً منقطعاً ليصلي فيه هو وصاحبه صلاة الظهر، فإذا بجماعة من السائحين المنقطعين دخلوا أيضاً يريدون الصلاة في ذلك المسجد وكان فيهم ذلك الرجل الذي كلمه على البحر في تونس وقيل له أنه الخضر، وفيهم أيضاً رجل كبير القدر أكبر منه منزلة وكان بينه وبين ذلك الرجل اجتماع قبل ذلك ومودّة.

فيقول الشيخ محيي الدين أنه قام وسلّم على ذلك الرجل الذي يعرفه من قبل فسلّم عليه وفرح به وتقدم يصلي بهم، فلما فرغوا من الصلاة خرج الإمام وخرج الشيخ محيي الدين خلفه إلى باب المسجد وكان الباب في الجانب الغربي يشرف على البحر المحيط بموضع يسمى بكة، فأخذ الشيخ محيي الدين يتحدث معه على باب المسجد وإذا بذلك الرجل الذي هو الخضر قد أخذ حصيراً صغيراً كان في محراب المسجد فبسطه في الهواء على قدر علو سبعة أذرع من الأرض ووقف على الحصير في الهواء يتنفّل. فقال الشيخ محيي الدين لصاحبه: أما تنظر إلى هذا وما فعل! فقال له: اذهب إليه واسأله. فترك الشيخ الأكبر صاحبه واقفاً وجاء إلى الخضر، فلما فرغ من صلاته سلّم عليه وأنشده من شعره بما فيه شيءٌ من النقد لهذا الفعل الخارق للعادة، إذ يجب على العارف بالله دائما أن يستتر من الكرامات:

شُغل المحبُّ عن الهواء بسرّه	في حبِّ من خلق الهواء وسخّره
العارفون عقولهم معقولة	عن كلّ كون ترتضيه مطهّره
فهمُ لديه مكرّمون وفي الورى	أحوالهم مجهولة ومُستّره

فقال له الخضر أنه ما فعل ذلك إلا في حق هذا المنكر وأشار إلى صاحبه الذي كان ينكر خرق العوائد، وهو قاعد في صحن المسجد ينظر إليه، ليعلم أن الله يفعل ما يشاء مع من يشاء. فردّ الشيخ محيي الدين وجهه إلى صاحب المنكر وقال له: ما تقول؟ فقال: ما بعد العين ما يقال.

ثم يقول الشيخ محيي الدين أنه رجع إلى صاحبه الرجل الآخر ذي المكانة الرفيعة والذي لم يسمّه، وهو ينتظره بباب المسجد، فتحدث معه ساعة وقال له: من هذا الرجل الذي صلى في الهواء؟ من غير أن يذكر له ما اتفق له معه قبل ذلك في تونس. فقال له: هذا الخضر.

وبعد ذلك يقول الشيخ محيي الدين أنهم انصرفوا يريدون مدينة روطة وهي مكان يقصده الصلحاء من المنقطعين وهو بمقربة من بشكنصار على ساحل البحر المحيط."[515]

وبلدة روطة تقع على الشاطئ جنوب غربي إشبلية وهي جنوب مدينة شريش وهي موضع رباط ومقر للصالحين مقصود من الأقطار، كما يقول الجميري في "صفة جزيرة الأندلس".[516]

سلا (١٢٠٠/٥٩٧)

وبكل الأحوال، سواء قدِم براً أو بحراً، فإن الشيخ محيي الدين قد قطع عزلته وسياحته وترك الأندلس بعد أن ودّع شيوخه فيها وبقي عليه أن يودّع شيوخه في المغرب. لقد رأينا في الفصل الثاني أن من أوائل الشيوخ الذين كان لهم الفضل في تعليم ابن العربي وتربيته هو الشيخ أبو يعقوب يوسف بن يخلف الكومي والذي كان في هذا الوقت في مدينة سلا.[517] فربما كان هذا هو السبب الرئيسي لمجيء الشيخ محيي الدين إلى هذه المدينة النائية.

يذكر الشيخ محيي الدين في ترجمته لشيخه الكومي في رسالة روح القدس أنه قال به قصيدة حين فارقه وهو متوجه إلى مراكش وكان الشيخ حينئذ يقطن بسلا، قال فيها:[518]

إذا قيل من في الوجود أشرف ... سيدنا يوسف بن يخلُف
إلى أن يقول ....
قد يكسف البدر في علاه ... وبدر مولاي ليس يُكسف

فإذا كان بكل هذا الوصف فإنه لا شكّ يستحق عناء السفر ليلقي عليه نظرة الوداع الأخيرة، وهذا لا شكّ من الوفاء الذي تميّز به الشيخ الأكبر رضي الله عنه.

وفي مدينة سلا روى الشيخ محيي الدين أن رجلا صالحا من عامة المسلمين روى له رؤيا تحثّ على التمسّك بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلّم. وكما رأينا في الفصل السابق فإن الشيخ محيي الدين

---

[515] الفتوحات المكية: ج١ص١٨٦، وكذلك: ج٣ص٦٩.
[516] صفة جزيرة الأندلس: محمد بن عبد المنعم، ص٣٧.
[517] روح القدس: ص٥٠.
[518] روح القدس: ص٥١.

يستشهد ببعض المنامات المبشرات على أهمية جمع الحديث كما ذكر في كتاب المبشرات التي رآها هو أو رواها له بعض الصالحين سواء في كتاب المبشرات أو في الكتب الأخرى مثل الفتوحات المكية وكلها تحثّ على طلب الحديث والعمل به. فيقول الشيخ الأكبر أن هذا الرجل التقاه في مدينة سلا وهي مدينة بالمغرب على شاطئ البحر المحيط يقال لها "منقطع التراب" ليس وراءها أرض، فقال له هذا الرجل الصالح:

> رأيت في النوم محجة بيضاء مستوية عليها نور سهلة ورأيت عن يمين تلك المحجة وشمالها خنادق وشعاباً وأودية كلها شوك لا تسلك لضيقها وتوعّر مسالكها وكثرة شوكها والظلمة التي فيها. ورأيت جميع الناس يخبطون فيها عشوا ويتركون المحجة البيضاء السهلة، وعلى المحجة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ونفر قليل معه يسير وهو ينظر إلى من خلفه، وإذا في الجماعة متأخر عنها لكنه عليها الشيخ أبو اسحق إبراهيم بن قرقور المحدث، كان سيداً فاضلاً في الحديث اجتمعت بابنه. فكان يفهم عن النبي صلّى الله عليه وسلّم أنه يقول له ناد في الناس بالرجوع إلى الطريق. فكان ابن قرقور يرفع صوته ويقول في ندائه، ولا من داع ولا من مستدع، هلموا إلى الطريق هلموا! فلا يجيبه أحد ولا يرجع إلى الطريق أحد."[519]

وفي مدينة سلا أيضاً التقى الشيخ محيي الدين بالشيخ عبد الحليم الغماد الذي كان يغلب عليه الوله، ويقول عنه الشيخ محيي الدين أنه كان إذا رأى شخصاً راكباً ذا إشارة يعظمه الناس وينظرون إليه يقول له ولهم: "تراب راكب على تراب"، ثم ينصرف وينشد:[520]

حتى متى وإلى متى تتوانا   أتظنّ ذلك كلّه نسياناً

مقام القربة (أبجيسل، شهر محرم ٥٩٧/١٢٠١)

فلمّا ودّع الشيخ محيي الدين شيخه يوسف الكومي في سلا توجه نحو مراكش كما قال في روح القدس، وهي مدينة تبعد مسيرة حوالي عشرة أيام عن سلا. ولكنه كان له محطة مهمة توقف فيها على الطريق وكان لها انطباعٌ مهمٌ في حياته حيث أنه دخل هناك في منزل غريب ما رأى فيه أحداً غيره. وهو منزل القربة وهو مقام بين الصدّيقيّة والنبوّة وقد خصّص له ابن العربي الباب الحادي والستين ومائة من الفتوحات المكية بالإضافة إلى كتاب آخر هو كتاب القربة.[521]

فيقول الشيخ محيي الدين في الباب الحادي والستين ومائة "في المقام الذي بين الصدّيقية والنبوّة وهو مقام القربة" أن القربة نعت إلهي وهو مقام مجهول أنكرت آثاره الخاصّة من الرسل عليهم السلام

---

[519] الفتوحات المكية: ج٣ص٦٩.

[520] الفتوحات المكية: ج٤ص٥٠٦.

[521] هذا الكتاب مطبوع ضمن مجموعة رسائل ابن العربي، طبعة حيدر آباد ١٩٤٨.

مع الافتقار إليه منهم وشهادة الحق لصاحبه بالعدالة والاختصاص وهو مقام الخضر مع موسى، وما أذهله إلا سلطان الغيرة التي جعل اللهُ في الرسل عليهم السلام على مقام شرع الله على أيديهم.

ويقول الشيخ محيي الدين أن بعض العلماء، مثل أبي حامد الغزالي، قد أنكروا هذا المقام وقالوا ليس بين الصديقية والنبوة مقام ومن تخطى رقاب الصديقين وقع في النبوة، والنبوة باب مغلق، فكان يقول لا تتخطوا رقاب الصديقين. ويضيف الشيخ محيي الدين أنه لا شك أن الأنبياء أصحاب الشرائع هم أرفع عباد الله من البشر ومع هذا لا يبعد أن يخص الله المفضول بعلم ليس عند الفاضل ولا يدلّ تميّزه عنه أنه بذلك العلم أفضل منه. ولذلك قال الخضر لموسى: يا موسى أنا على علمٍ علمنيه الله لا تعلمه أنت وأنت على علمٍ علمكه الله لا أعلمه أنا. وما قال له أنا أفضل منك."[522]

أبو عبد الرحمن السلمي (أنجال، ١٢٠١/٥٩٧)

ثم يقول ابن العربي أنه دخل هذا المقام في شهر محرّم سنة سبع وتسعين وخمسمائة وهو مسافر بمنزل أبجيسل ببلاد المغرب، فتاه به فرحاً ولم يجد فيه أحداً فاستوحش من الوحدة. ثم رحل عن أبجيسل فلقي رجلاً من الرجال ببلدة قريبا تسمى أنجال فصلى العصر في الجامع فجاء الأمير أبو يحيى بن واجتن، وكان صديقه، وفرح به وسأله أن ينزل عنده فأبى، ونزل عند كاتبه وكانت بينهما مؤانسة. فشكى الشيخ محيي الدين إليه ما هو فيه من انفراده بهذا المقام رغم سروره به فبينما هو يؤانسه، يقول الشيخ محيي الدين أنه لاح له ظل شخص، فنهض من فراشه إليه عسى أن يجد عنده فرجاً، فعانقه، فتأمله، فإذا به أبو عبد الرحمن السلمي (توفي ١٠٣٠/٤٢١)، وهو مؤلف كتاب "طبقات الأولياء" الشهير. يقول الشيخ محيي الدين أنه قد تجسدت له روحه وبعثه الله إليه رحمة به. فقال له الشيخ محيي الدين: أراك في هذا المقام (أي مقام القربة)؟ فقال: فيه قُبضتُ وعليه مُتُّ، فأنا فيه لا أبرح. فذكر له الشيخ محيي الدين وحشته فيه وعدم الأنيس، فقال له: الغريب مستوحش! وبعد أن سبقت لك العناية الإلهية بالحصول في هذا المقام فاحمد الله، ولمن يا أخي يحصل هذا ألا ترضى أن يكون الخضر صاحبك في هذا المقام!

ثم جرى بينهما حديث طويل ذكره الشيخ محيي الدين في الباب الواحد والستين ومائة، وفي كتاب القربة."[523]

مرّاكُش (١٢٠٠/٥٩٧)

ثم تابع الشيخ محيي الدين ابن العربي رضي الله عنه طريقه إلى مرّاكش، ويبدو أنه بقي فيها عدة شهور لأنه دخلها بعدما قدم من أبجيسل وكانت السنة الهجرية في أولها ثم سنجده يقضي شهر رمضان في مدينة بجاية قريبا من تونس، ولكن من المحتمل أيضاً أن يكون قد قضى هذه الشهور في مدينة فاس وهي

---

[522] الفتوحات المكية: ج٢ص٢٦٢.

[523] هذا الكتاب منشور من ضمن رسائل ابن العربي: طبعة حيدرآباد، الكتاب رقم ٦.

المكان المفضّل عنده في المغرب.

كانت مراكش عاصمة المغرب، وهي تقع في وسط البلاد إلى الجنوب من الدار البيضاء حاليا. يعود تاريخها إلى بداية قيام دولة المرابطين (٤٤٠-٥٤٠ هـ) حيث كانت بلاد المغرب الأقصى ذات أراض واسعة من غير أية مراكز حضارية مهمة، وكانت تُعرف ببلاد السوس. وقد بدأ أمير المرابطين أبو بكر بن عمر في بناء مراكش عام ٤٥١/١٠٦٠، وأتمها يوسف بن تاشفين الذي تولى رئاسة المرابطين، وما كاد بناء هذه المدينة يتم حتى تحولت إلى مركز من مراكز الحضارة الإسلامية خاصة مع سيطرة المرابطين على الأندلس بعد أن أزاحوا المعتمد بن عباد من إشبيلية واسترجعوا الكثير من بلدان الأندلس من الإسبان وأحكموا سيطرتهم عليها كما رأينا في الفصل الأول. وقد تطورت مراكش بشكل سريع خلال عصر المرابطين فأنشئت فيها المساجد والأسواق، وقد اعتمدت في الحصول على حاجتها من الماء على مجارٍ تحت الأرض أنشأها عرب أندلسيون. وظلّت مدينة مراكش معسكراً حربياً، وقاعدةً عسكريةً لقوات المرابطين إلى أن حاصرتها قوات الموحدين بقيادة عبد المؤمن بن علي عام ١١٤٧/٥٤١، فأصبحت عاصمة لهم.

صاحب الصدقات الشيخ أبو العباس السبتي (مراكش، ٥٩٧/١٢٠٠)

ففي بداية سنة ٥٩٧/١٢٠٠ وصل الشيخ الأكبر إلى مراكش حيث التقى هناك الشيخ الزاهد الشهير أبا العباس السبتي. والسبتي، كما يقول عنه الشيخ محيي الدين، كان من الأولياء الذين قدّم الله لهم إجابة دعائهم في الدنيا بواسطة الصدقة، فكان يُمرض ويُشفي ويُحيي ويُميت ويُولّي ويَعزل ويفعل ما يريد بإذن الله، وكل ذلك بفضل الصدقة! ولذلك كان الشيخ محيي الدين يسمّي السبتيَّ بصاحب الصدقة أو صاحب الصدقات، ولكنه ذكر للشيخ محيي الدين أن الله سبحانه خبّأ له عنده ربع درهم للآخرة خاصة ولا يعرف ذلك منه إلا من ذاقه أو من سأله عن ذلك من الناس وأخبرهم عن نفسه. ولكن الشيخ محيي الدين بيّن أن مثل هذه الحالة رغم علوّها فهي في الحقيقة نقص عن الكمال وهو أن يعطي الله من يشاء في الدنيا من غير طلب، فإن أهل الله لا يريدون في الدنيا شيئاً لأنفسهم أو بأنفسهم بل بالله تعالى. فيقول الشيخ الأكبر:

> وقد يعطي الله ما أعطى السبتي المذكور لا من كونه أراد ذلك ولكن الله عجّل له ذلك زيادة على ما ادّخره له في الآخرة فإنه غير مريد تعجيل ذلك المدخر؛ كعمر الواعظ بالأندلس ومن رأينا من هذا الصنف، وعملت أنا عليه زماناً في بلدي في أول دخولي هذا الطريق ورأيت فيه عجائب؛ وكان هذا لهم من الله ولنا لا من إرادتهم ولا من إرادتنا. ولو عرف أبو العباس السبتي نفسه معرفتي بها منه ما استعجل ذلك فإنه كان على صورة لا يكون عنها إلا هذا، إلاّ أنه سأل ذلك من الله فأعطاه إيّاه عن سؤال منه ولو سكت لفاز بالأمرين في الدارين لكن جهله بنفسه وطبعها الذي طُبعت عليه صورتُه التي ركّبه الله عليها جَعَلَتْه يسأل فخسر حين ربح غيره والعمل واحد، ولهذا يفرح بالعمل لأنه أشرف

صفة يتحلى بها العبد."[524]

وأبو العباس السبتي هذا هو غير أحمد بن هرون الرشيد الملقب بالسبتي أيضاً (ليس لكونه من مدينة سبتة ولكن لأنه كان يعمل يوم السبت فقط) والذي التقى به (روحيا) الشيخ محيي الدين أثناء طوافه حول الكعبة كما سنذكر ذلك لاحقا.

النكاح يذهب الفقر

وكان السبتي على علم بسرّ النكاح وأنه يُذهب الفقر، كما ورد في بعض الأحاديث النبوية،[525] فقد روى عنه الشيخ الأكبر في آخر الباب الموفي ستين وثلاثمائة في معرفة منزل الظلمات المحمودة والأنوار المشهودة وهو يتكلم عن العلوم المدرجة في هذا المنزل، أنه قد جاءه إنسان يشكو الفقر فقال له تزوج! فتزوج، فشكى إليه الفقر ثانية، فقال له تزوج أخرى! فتزوج اثنين فشكى إليه الفقر مرة أخرى، فقال له ثلّث فثلّث فشكى إليه الفقر، فقال له ربّع فربّع فقال الشيخ السبتي قد كمل! فاستغنى هذا الرجل ووسّع الله في رزقه ولم يكن في نسائه اللاتي أخذهُن مَن عندَها شيء من الدنيا، فأغناه الله بالنكاح."[526]

علم مناسبة ترتيب آيات القرآن الكريم

وذكر الشيخ محيي الدين أيضاً أن السبتي كان من الرجال القلائل الذين يعلمون المناسبة في ترتيب آيات القرآن الكريم (وليس فقط سوره). فقال في أثناء حديثه عن علم الذوق وكيف أنه في الحقيقة هو رؤية كلية ولكن الصوفي يقوم فقط بتفصيلها أثناء الكلام عنها أو كتابتها ومن أجل ذلك تجد كلام أهل الذوق مترابطا ومنتظما يدلّ جميعه على أصل واحد، وذلك بخلاف كلام المؤلفين الذين غالبا لا نعلم وجهتهم في كتبهم ولا إلى أين يريدون أن يحملوننا معهم، لأنهم أنفسهم ربما لا يعلمون وإن علموا فغالباً ما تخونهم العبارة وتشتتهم الأفكار، أما كلام أهل الذوق فهو تفصيل لأمر كلّي فيأتي مترابطاً بعضه ببعض لأنه عينٌ واحدةٌ والكلام تفصيلها. فبعض أهل الذوق يعرفون مناسبة آي القرآن وسبب مجيئها في نسق واحد وعلاقة بعضها ببعض ويعرفون الجامع بين الآيتين وإن كان بينهما بُعد ظاهر إذ لا بدّ من وجهٍ جامعٍ مناسبٍ بين الآيتين هو الذي أعطى أن تكون هذه الآية مناسبةً لما جاورها من الآيات لأنه نظمٌ إلهيّ. وقد كان الشيخ أبو العباس السبتي صاحب الصدقات من أصحاب الموازين يعلم المناسبة الجامعة بين آيات القرآن الكريم، كما يقول عنه الشيخ محيي الدين،[527] وكما ذكرنا من قبل فإن علم المناسبة أصل في تكوين العالم كلّه.

---

[524] الفتوحات المكية: ج٤ص١٢١.

[525] ورد في الحديث عن النبي صلّى الله عليه وسلّم أنه قال: " الْتَمِسُوا الرِّزْقَ بِالنِّكَاحِ" أخرجه الديلمي من حديث ابن عباس. انظر كنز العمال: رقم ٤٤٤٣٦. وكذلك أخرج الديلمي من حديث عائشة مرفوعاً: "تَزَوَّجُوا النِّسَاءَ فَإِنَّهُنَّ يَأْتِينَ بِالْمَالِ". انظر كنز العمال: رقم ٤٤٤٣١.

[526] الفتوحات المكية: ج٣ص٣٩٢.

[527] الفتوحات المكية: ج٣ص٥٤٨.

الشيخ محمد المرّاكشي (مراكش، ٥٩٧/١٢٠٠)

وبالإضافة إلى أبي العباس السبتي فقد التقى الشيخ الأكبر في مراكش بالشيخ محمد المراكشي وكان قطباً متحققاً في مقام الصبر على الشدائد فكانت الشدائد تمرّ عليه فلا يتلقّاها إلا بالفرح والضحك فتُفرّج عنه وهو ينتقل من فرحٍ إلى فرحٍ ومن سرورٍ إلى سرور. يقول الشيخ محيي الدين أنه كان يقول له: هل تصبر على حلول هذه النوازل المكروهة طبعاً (أم تطبّعاً)؟ فيقول: لما صبرت أولا فأنتج لي ذلك الصبر على الحكم الإلهيّ مشاهدة العين، فشغلتني عن كل حكم؛ فما أتلقّاه إلا به.[528] وربما من هنا معنى قول الله تعالى في سورة النحل (وما صبرك إلا بالله): ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

ولقد كان المراكشي كثير الكلام والنصيحة والدعوة إلى الله تعالى، لا يصمت أبداً عن دلالة الناس على الله عز وجل، سواء أصغى له الناس أم لا. فإذا قيل له في ذلك يقول: أنا أؤدي فريضتي في كلامي وأنتَ بالخيار في مجالستي والإصغاء إلى ما نورده، أنا أتكلم مع من يسمع ما أتكلم مع من لا يسمع.

وكان الشيخ محمد المراكشي من أحفظ الناس على أوقات عبادته، وكان يريد أن يصطحب الشيخ الأكبر في سفره نحو المشرق وتحسّر كثيراً على فراقه ولكنه قال له: والله لولا مشاهدة العين التي حجبتني عن نفوذ الحكم الربّاني فيّ لسافرت معك! فوالله ما يغيب عنّي منك إلا تحوّل صورة الحق إلى صورة أخرى فأشهده غيباً ومحضراً! وربما من هذا المقام كان الشيخ محيي الدين ابن العربي ينشد في الباب الثامن والسبعين ومائة في مقام الحب:

أغيب فيُفني الشوق نفسي فألتقي   فلا أشتفي فالشوق غيباً ومحضراً
ويُحدثُ لي لقياه ما لم أظنه   مكان الشفا داءً من الوجد آخرا
لأني أرى شخصاً يزيد جماله   إذا ما لقيناه نخوة وتكبرا
فلا بدّ من وجدٍ يكون مقارناً   لما زاد من حسنٍ نظاماً محررا

ويقول إنه يشير بذلك إلى تجليه سبحانه في صور مختلفة في الآخرة لعباده وفي الدنيا لقلوب عباده كما ورد في صحيح مسلم من تحوله سبحانه وتعالى في الصور،[529] كما ينبغي لذاته من غير تشبيه ولا

---

[528] الفتوحات المكية: ج٣ص١٤٣.

[529] حديث تحول الله سبحانه وتعالى في الصور من الأحاديث المهمة التي يعتمدها ابن العربي في رؤيته للوجود والخلق وعلاقته بالخالق تعالى. وقد ورد ذلك في حديث طويل وهو حديث صحيح رواه مسلم في صحيحه (الجزء الأول، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم ٢٩٩) حدثني زهير بن حرب، حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا أبي عن ابن شهاب، عن عطاء بن يزيد الليثي: أن أبا هريرة أخبره: أن ناسا قالوا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: يا رسول الله! هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "هل تضارُّون في رؤية القمر ليلة البدر؟" قالوا: لا يا رسول الله! قال: "هل تضارُّون في الشمس ليس دونها سحاب؟" قالوا: لا يا رسول الله! قال "فإنكم ترونه كذلك؛ يجمع الله الناس يوم القيامة، فيقول: من كان يعبد شيئا فليتبعه. فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت. وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها. فيأتيهم الله، تبارك

تكييف.[530]

الشيخ أبو القاسم البجائي (مراكش، ٥٩٧/١٢٠٠)

وفي مراكش أيضاً التقى الشيخ محيي الدين بأبي القاسم البجائي، الذي نقل إليه بعض أحاديث الشيخ أبي مدين وأصحابه الذين عاصرهم مثل أبي عبد الله الغزّال العارف الذي كان بالمرية وأبي عبد الله الهوازي بتونس وأبي يعزي وأبي شعيب السارية وأبي الفضل اليشكري وأبي النجا وتلك الطبقة.[531]

اتقوا النار ولو بشق تمرة

وحول موضوع أهمية الصدقة أيضاً يروي الشيخ محيي الدين أنه جرى لبعض شيوخه من أهل الموازنة بالمغرب الأقصى أنّ السلطان رفع إليه في حقه أموراً يجب قتله بها، فأمر بإحضاره مقيداً وينادي في الناس أن يحضروا بأجمعهم حتى يسألهم عنه، وكان الناس فيه على كلمة واحدة في قتله والقول بما يوجب ذلك وزندقته. فمرّ الشيخ في طريقه برجل يبيع خبزاً فقال له أقرضني نصف قرصة فأقرضه فتصدق بها على شخص عابر، ثم حُمل وأُجلس في ذلك الجمع الأعظم والحاكم قد عزم عليه إن شهد فيه الناس بما ذُكر عنه أنه يقتله شرّ قتلة، وكان الحاكم من أبغض الناس فيه. فقال الحاكم: يا أهل مراكش هذا فلان ما تقولون فيه؟ فنطق الكل بلسان واحد: إنه عدلٌ رضيٌ! فتعجب الحاكم، فقال له الشيخ لا تعجب فما هي هذه المسألة بعيدة؛ أيّ غضب أعظم غضبك أو غضب الله وغضب النار؟ قال غضب الله وغضب النار؟ قال وأيّ وقاية أعظم وَزناً وقدراً؛ نصف قرصة أو نصف تمرة؟ قال نصف قرصة. قال: دفعت غضبك وغضب هذا الجمع بنصف رغيف لمّا سمعت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقول "اتقوا النار ولو بشق تمرة"،[532] وقال: "إن الصدقة لتطفيء غضب الرب وتدفع ميتة السوء"،[533] وقد فعل الله ذلك؛ دفع عنّي شركم وميتة السوء بنصف رغيف مع حقارتكم وعظم صدقتي فإن صدقتي أعظم من شق تمرة وغضبكم أقل من غضب النار وغضب الرب. فتعجب الحاضرون من قوّة إيمانه.[534]

وتعالى، في صورة غير صورته التي يعرفون، فيقول: أنا ربّكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربُّنا، فإذا جاء ربُّنا عرفناه، فيأتيهم الله تعالى في صورته التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربُّنا، فيتبعونه، ويُضرب الصراط بين ظهري جهنم، فأكون أنا وأمتي أول من يجيز، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، ودعوى الرسل يومئذ: اللهم! سلم، سلم... الحديث.

[530] الفتوحات المكية: ج٢ص٣٢٦.

[531] الفتوحات المكية: ج٤ص٥٥٠.

[532] أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عديّ بن حاتم رضي الله عنه (وهو الجد الأعلى لابن العربي) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ". انظر في كنز العمال: حديث رقم ١٥٩٣٨، ١٥٩٣٩، ١٦٠٨٨، ١٦٠٨٩، ٤٣٣٨٧، ٤٣٧٥١.

[533] رواه الترمذي في كتاب الزكاة باب ما جاء في فضل الصدقة رقم (٦٤٤) وقال: حسن غريب. انظر في كنز العمال: حديث رقم ١٥٩٩٥، ١٦٠٩٥، ١٦١١٤.

[534] الفتوحات المكية: ج١ص٥٧٢، وكذلك: ج٤ص٤٩٦.

الأمر الإلهي في الرؤيا وصاحبه محمد الحصّار (مراكش/فاس ٥٩٧/١٢٠٠)

وفي أثناء إقامته في مراكش رأى الشيخ الأكبر رؤية عظيمة ظهر له فيها العرش وأنواره ورأى الكنوز التي تحت العرش وخاصة كنز "لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم"[٥٣٥] الذي هو على الحقيقة آدم عليه السلام. ورأى الكثير من الصالحين على شكل طيور تطير في فضاء العرش، وكان منهم محمد الحصّار الذي كان قد طلب من الله أن يحمله إلى المشرق وكان في مدينة فاس فذهب إليه الشيخ الأكبر وصحبه معه إلى مصر. يقول الشيخ الأكبر في الفتوحات المكية حينما كان يصف العرش:

> واعلم أن هذا العرش قد جعل الله له قوائم نورانية لا أدري كم هي لكنّي أشهدتها ونورها يشبه نور البرق ومع هذا فرأيت له ظلاً فيه من الراحة ما لا يقدّر قدرها، وذلك الظلّ ظلّ مقعّر هذا العرش يحجب نور المستوي الذي هو الرحمن. ورأيت الكنز الذي تحت العرش الذي خرجت منه لفظة لا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم، فإذا الكنز آدم صلوات الله عليه. ورأيت تحته كنوزاً كثيرة أعرفها ورأيت طيوراً حسنة تطير في زواياه فرأيت فيها طائراً من أحسن الطيور فسلّم عليّ فألقى لي فيه أن آخذه صحبتي إلى بلاد الشرق وكنت بمدينة مراكش حين كشف لي عن هذا كلّه، فقلت ومن هو؟ قيل لي محمد الحصار بمدينة فاس سأل الله الرحلة إلى بلاد الشرق فخذه معك، فقلت السمع والطاعة. فقلت له وهو عين ذلك الطائر تكون صحبتي إن شاء الله. فلما جئت إلى مدينة فاس سألت عنه فجاءني فقلت له هل سألت الله في حاجة فقال نعم سألته أن يحملني إلى بلاد الشرق فقيل لي أن فلاناً يحملك وأنا أنتظرك من ذلك الزمان؛ فأخذته صحبتي سنة سبع وتسعين وخمسمائة وأوصلته إلى الديار المصرية ومات بها رحمه الله.[٥٣٦]

تلمسان (٥٩٧/١٢٠١)

لقد ذكرنا في الفصل الثاني قصة خاله يحيى بن يوجان (أو يغان) الذي كان ملك تلمسان ثم سلك طريق الزهد على إثر معاتبة جارحة من الشيخ الصوفي عبد الله التونسي، وقد ذكر الشيخ محيي الدين هذه

---

[٥٣٥] ورد في الحديث أن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال لأبي ذر الغفاري رضي الله عنه: "يا أبا ذر ألا أعلمك كلمات من كنز الجنة؟" قال أبو ذر: "بلى جعلني الله فداءك". قال النبي صلّى الله عليه وسلّم: "قل لا حول ولا قوة إلا بالله." (مجمع الزوائد، للحافظ الهيثمي، كتاب العلم، رقم ٥٧)، وكذلك أخرج الإمام محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين (المجلد الأول، كتاب الإيمان) أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: "ألا أعلمك -أو قال: ألا أدلك على- كلمة من تحت العرش من كنز الجنة، تقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، فيقول الله: أسلم عبدي واستسلم".

[٥٣٦] الفتوحات المكية: ج٢ص٤٣٦.

القصة في الفتوحات المكية وفي كتاب محاضرة الأبرار حيث يقول في آخر القصة أنه زار قبريهما (قبر خاله وقبر عبد الله التونسي) وكذلك قبر الشيخ أبي مدين بالعبّاد بظاهر تلمسان.[٥٣٧] ولكن بما أن الشيخ أبا مدين قد توفي سنة ٥٨٩ كما ذكرنا في الفصل الثالث، فقد تكون هذه الزيارة إلى تلمسان خلال سنة ٥٨٩-٥٩٠ أثناء ذهابه إلى تونس أو عودته منها أو قد تكون سنة ٥٩٧ أثناء ذهابه من مراكش إلى تونس.

في بجاية (١٢٠١/٥٩٧)

فلما شدَ الشيخ الأكبر وصاحبه محمد الحصّار رحالهما نحو المشرق مرّا بمدينة بُجَايَة (أو بِجَايَة) وهي مدينة في الجزائر على شاطئ البحر المتوسط بين مدينة الجزائر ومدينة جيجل، كما أنها عاصمة ولاية بجاية الآن. أسسها السلطان الزيري الناصر تحت اسم الناصرية في حدود سنة ١٠٦٥/٤٥٧، لكن رجع اسمها إلى الاسم البربري للمنطقة وهو "بكايث".

وفي بجاية التقى الشيخ محيي الدين مع الشيخ أبي إسحاق القرطبي وكان من أصحاب الشيخ أبي مدين وكان من الموحدين، كما ذكره في روح القدس.[٥٣٨]

وكذلك التقى الشيخ محيي الدين ابن العربي في بجابة بالشيخ أبي زكريا يحيى بن حسن الحسني وكان من العلماء العاملين السادة صاحبَ زهدٍ وورعٍ ونصيحة؛ خلى به ابن العربي يوما عن إذنه فتبادلا الأسئلة فيقول ابن العربي في روح القدس أنه كان الغالب عليه الخوف وأخباره عجيبة في تقشفه وأكله. لقيه ابن العربي مراراً وقرأ عليه من بعض تآليفه.[٥٣٩]

وفي بجاية كما ذكرنا أعلاه قام الشيخ محيي الدين بإضافة قسم عضو القلب إلى كتابه مواقع النجوم.

نكاح النجوم والحروف (بجاية، شهر رمضان ١٢٠١/٥٩٧)

وفي بجاية في هذه السنة رأى الشيخ الأكبر رؤيا عظيمة تدل على مدى العلم الذي سيمنحه له الله تعالى. فيقول في كتاب الباء أنه لما كان ببجاية في شهر رمضان سنة سبعة وتسعين وخمسمائة رأى ليلةً في المنام أنه نكح نجوم السماء كلّها فما بقي نجم في السماء إلا نكحه بلذّة عظيمة روحانية. ثم لمّا أكمل نكاح النجوم، أعطي الحروف فنكحها كلّها في حال إفرادها وتركيبها. ويقول إنه شُخّص له حرف فاء[٥٤٠] الذي هو فاء الباء الظرفية فأُعطي فيها سراً إلهياً يدلُّ على شرفها وما أودع الله فيها من الجلال عندها.[٥٤١]

ثم يقول الشيخ محيي الدين أنه عرض هذه الرؤيا بشكل غير مباشر على رجل عارف كان بصيراً

---

[٥٣٧] محاضرة الأبرار: ج٢ص٦٨.

[٥٣٨] روح القدس: ص٨١.

[٥٣٩] روح القدس: ص٨٣.

[٥٤٠] هكذا وردت في المطبوعة.

[٥٤١] كتاب الباء: ص١٠-١١، وأيضاً كتاب الكتب: طبعة حيدر آباد، ص٤٩.

بالرؤيا وتعبيرها وقال للذي عرضها عليه أن لا يذكره عند هذا الرجل. فلما ذكر المنام له استعظمه وقال: هذا هو البحر الذي لا يُدرَك قعرُه، صاحب هذه الرؤيا يُفتح له من العلوم العلويّة وعلوم الأسرار وخواصّ الكواكب والحروف ما لا يكون بيد أحدٍ من أهل زمانه. ثم سكتَ هذا الرجل ساعةً وقال إن كان صاحب هذه الرؤيا في المدينة فهو هذا الشاب الذي وصل إليها وذكر ابن العربي. فبهتَ صاحب الشيخ محيي الدين الذي نقل الرؤيا وتعجّب، فقال له الرجل: ما هو إلا هو، فلا تخفي عني! فقال: نعم هو صاحب الرؤيا. فقال الرجل: ولا ينبغي أن يكون في هذا الزمان إلا له، فعسى أن تحملني إليه لأسلّم عليه. فقال: لا أفعل حتى أستأذنه. فلما استأذن الشيخ أمره ابن العربي أن لا يعود إليه، ثم سافر بعد ذلك بقليل ولم يجتمع به."[542]

إقامته الثانية في تونس (شهر شوال ٥٩٧-رجب ٥٩٨)

إذن بعد هذه الرؤيا مباشرة غادر الشيخ محيي الدين بجاية، بصحبة محمد الحصار وصاحبه عبد الله بدر الحبشي متجها إلى تونس التي كان قد زارها سنة ٥٩٠ وأقام فيها عند الإمام أبي محمد عبد العزيز المهدوي، والذي سيبقى بصحبته هذه المرة حوالي تسعة أشهر كما سنرى.

كنز الكعبة المشرّفة (تونس، ١٢٠٢/٥٩٨)

وأثناء وجوده في تونس أُتي له بقطعة ذهب من الكنز الموجود تحت الكعبة، حيث يقول ابن العربي أن الله تعالى قد أودع في الكعبة كنزاً أراد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يُخرجه فينفقه ثم بدا له في ذلك لمصلحة رآها، ثم أراد عمر بعده أن يخرجه فامتنع اقتداءً برسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فهو فيه إلى الآن. ثم يضيف الشيخ محيي الدين قائلا أنه سبق له من هذا الكنز لوح من ذهب جيء به إليه وهو بتونس سنة ثمان وتسعين وخمسمائة وفيه شق غلظه أصبع عرضه شبر وطوله شبر أو أزيد مكتوب فيه بقلم لم يعرفه. ولكن ابن العربي يقول إنه سأل الله أن يردّ هذا اللوح إلى موضعه أدباً مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ولو أخرجه إلى الناس لثارتْ فتنة عمياء فتركه أيضاً لهذه المصلحة، فإنه صلّى الله عليه وسلّم ما تركه سدىً وإنما تركه ليُخرجه القائم بأمر الله في آخر الزمان أي المهدي عليه السلام الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلئت جوراً وظلماً."[543]

كتاب إنشاء الدوائر (تونس، ١٢٠٢/٥٩٨)

وهناك أيضاً في أثناء زيارته هذه لتونس بدأ ابن العربي بكتابة كتابه الشهير "إنشاء الدوائر والجداول" والذي يعدّ تكملة لما ذكره في كتاب التدبيرات الإلهية وكتاب عنقاء مغرب حول موضوع المضاهاة بين الإنسان والعالم كما ذكرنا أعلاه، ولذلك قد يسمى هذا الكتاب أحياناً باسم "مضاهاة الأكوان

---

[542] كتاب الباء: ص١١.

[543] الفتوحات المكية: ج٤ص٥٥٠.

فيما يقابلها من الإنسان" ويدرس فيه الشيخ محيي الدين موضوع الوجود والعدم وعلاقة الوجود بأسماء الله الحسنى، مع أن هذه الموضوعات قد فصّلها الشيخ محيي الدين لاحقا في كتاب الفتوحات المكية.[٤٤٤]

ومن خلال هذا الكتاب وأمثاله بنى الشيخ محيي الدين رؤيته التي تعتمد على أساس التشابه بين الإنسان والعالم وأن الإنسان عالم صغير والعالم إنسان كبير. فيقول مثلا في الباب السادس من الفتوحات المكية:

> وأما قولنا في هذا الباب ومعرفة أفلاك العالم الأكبر والأصغر الذي هو الإنسان فأعني به عوالمك كلياته وأجناسه وأمراؤه الذين لهم التأثير في غيرهم وجعلتها مقابلة هذا نسخة من هذا وقد ضربنا لها دوائر على صور الأفلاك وترتيبها في كتاب إنشاء الدوائر والجداول الذي بدأنا وضعه بتونس بمحل الإمام أبي محمد عبد العزيز ولينا وصفينا رحمه الله."[٤٤٥]

ولكن الشيخ محيي الدين لم يستطع أن يكمل هذا الكتاب في تونس لأنه كان لا بدّ أن يكمل رحلته نحو مكة بقصد الحج خاصة وأنه سوف يمرّ بمصر والخليل والقدس والمدينة المنوّرة. ولقد خاطب الشيخ الأكبر صديقه أبا محمد عبد العزيز من مكة وهو يحثّه على الحج إليها ويبيّن له فضلها على بقيّة الأماكن حيث أن الأماكن قد تتفاضل بسبب من يسكنها أو كان قد سكنها من الأنبياء أو الأولياء أو الأرواح، فقال في الباب الرابع من الفتوحات المكية في مقدمة حديثه عن سبب بدء العالم:

> قد وقف الصفيّ الوليّ أبقاه الله على سبب بدء العالم في كتابنا المسمى بعنقاء مغرب في معرفة ختم الأولياء وشمس المغرب وفي كتابنا المسمى بإنشاء الدوائر الذي ألفنا بعضه بمنزله الكريم في وقت زيارتنا إياه سنة ثمان وتسعين وخمسمائة ونحن نريد الحج فقيّد له منه خديمه عبد الجبار أعلى الله قدره القدر الذي كنت سطّرته منه ورحلت به معي إلى مكة زادها الله تشريفاً في السنة المذكورة لأتممه بها فشغلنا هذا الكتاب عنه وعن غيره بسبب الأمر الإلهيّ الذي ورد علينا في تقييده مع رغبة بعض الإخوان والفقراء في ذلك حرصاً منهم على مزيد العلم ورغبة في أن تعود عليهم بركات هذا البيت المبارك الشريف محل البركات والهدى والآيات البيّنات."[٤٤٦]

أبو محمد عبد الله الغزّال

وهو أحد تلاميذ الصوفي الأندلسي الشهير ابن العرِيف (توفي ٥٣٦/١١٤١ بمراكش)، ويذكر عثمان

---

[٤٤٤] انظر مثلا في الفتوحات المكية: ج٣ص٤١٦-٤٤٨.

[٤٤٥] الفتوحات المكية: ج١ص١٢٠.

[٤٤٦] الفتوحات المكية: ج١ص٩٨.

يحيى أنّ الشيخ محيي الدين قد أرسل إلى الشيخ الغزّال رسالة (ربّما من تونس) قبل أن يغادر إلى المشرق سنة ١٢٠١/٥٩٨ وتدور الرسالة حول موضوع النفس الإنسانية وقواها الإدراكية قبل اتحادها بالبدن.[٥٤٧]

بعض الشيوخ الآخرين الذين التقى بهم ابن العربي في تونس

فمنهم الشيخ الحاج أبو محمد عبد الله البرجاني وهو صاحب عبد العزيز المهدوي وكان يحب السنّة وأهلها، كان صالحاً جليل القدر كثير السكون سمعه الشيخ محيي الدين يوما يقول في قوله تعالى من سورة البقرة (ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ...﴿١٢١﴾): لم تلوه هؤلاء حق تلاوته؟ فقال له ابن العربي: يا أبا محمد السؤال منك والجواب منك! فتبسم وقال: لأنه آتاهم فسبقت لهم العناية؛ فلما أعطوا أعينوا. فيقول ابن العربي أن هذه إشارة بديعة تحتها بحور تزخر لمن نظر وتفكّر، ومنها قول النبي صلّى الله عليه وسلّم في الإمارة "إن أعطيتَها أعنْتَ عليها وإن طلبتها لم تُعَن عليها".[٥٤٨]

ومنهم الشيخ أبو عبد الله محمد البابلي الساكن بدار القبر وكان ممن خدم عبد العزيز المهدوي ففتح الله له على يديه.[٥٤٩]

دخوله مصر لأول مرة (١٢٠١/٥٩٨)

يقول الشيخ محيي الدين أن إقامته في تونس هذه المرة كانت تسعة شهور إلا أياما كما ذكر في مقدمة الفتوحات المكية.[٥٥٠] وبعد أن غادر تونس قدم الشيخ الأكبر إلى مصر، ولكن لا نعرف هل سافر برّاً على الطريق المعروف المتبع من قبل القافلات أو أنه ركب البحر عن طريق السفن والقوارب التي كانت تجوب ساحل المتوسط في ذلك الوقت. ومن المحتمل أنه قد قدم إلى مصر عن طريق البحر وذلك لأنه لا يذكر أيّ شيء في كتبه عن المدن الكثيرة التي سيمر عليها لو أنه قدم عن طريق البرّ. ولقد رأينا في أول هذا الفصل كيف أن الشيخ رضي الله يفضل سفر البرّ ولكن كما رأينا أدركه الوقت ولم يستطع إكمال كتاب إنشاء الدوائر الذي بدأه في تونس فأخذه معه ليكمله في مكة، فربما كان هذا سبب اختياره للبحر، وإن كان كذلك فسوف ينزل على الأغلب في الإسكندرية قبل أن يتوجه إلى الفسطاط (القاهرة) التي كانت تحت الحكم الأيوبي.

وكذلك لا نعرف متى وصل الشيخ محيي الدين إلى مصر ولكننا نعرف أنه غادرها في نفس السنة بعد أن قضى شهر رمضان مع أصدقاء طفولته الشيخ أحمد الخياط والشيخ محمد الحريري اللذان كانا قد ذهبا

---

[٥٤٧] مؤلفات ابن عربي: ٣٣٦.

[٥٤٨] روح القدس: ص٨٣. وقد ورد في صحيح البخاري ومسلم عن عبد الرحمن بن سمرة أنه قال: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم "يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ لاَ تَسْأَلِ الإِمَارَةَ، فَإِنَّكَ إِن أُعْطِيتَهَا عَن مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَن غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا، وَإِذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْراً مِنْهَا فَكَفِّرْ عَن يَمِينِكَ، وَائْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ". انظر في كنز العمّال: حديث رقم ١٤٣١٠، ١٤٦٤٨، ١٤٧٥٤.

[٥٤٩] روح القدس: ص٨٤.

[٥٥٠] الفتوحات المكية: ج١ص١٠.

إلى الحج في سنة ١١٩٣/٥٩٠ ثم استقرّا في القاهرة. هذا يعني في الحقيقة أن هناك وقتاً كافياً لكي يصل الشيخ محيي الدين إلى مصر براً، إذا فرضنا أنه وصلها مع بداية شهر رمضان وغادر تونس في شهر رجب. في كل الأحوال، سواء قدم عن الطريق البحر أو عن طريق البرّ، فمن غير المستبعد أن يكون قد مرّ بالإسكندرية قبل أن يصل إلى القاهرة، مع أنه لا يذكرها إلا مرة واحدة في كتبه ولا نعرف هل زارها في هذا الوقت أم في زياراته القادمة إلى مصر والتي سنذكرها في الفصل الخامس.

الإسكندرية

فلقد ذكر الشيخ محيي الدين الإسكندرية مرة واحدة بشكل عابر في الفتوحات المكية، ولا نعلم متى بالتحديد كان هناك ولكن يبدو أن ذلك كان في أول دخوله إلى مصر. وفي الإسكندرية التقى ببعض رجال الله الذين لهم مقامات العلم بأسماء الله تعالى من حيث دلالتها على الذات الإلهية، وهي المقامات التي حصّلها الشيخ محيي الدين بُعيد دخوله في طريق الله تعالى بقليل كما ذكرنا في بداية الفصل الثاني.

وهناك أيضاً إشارة أخرى إلى الإسكندرية حيث يقول رضي الله عنه في وصاياه عن الشيخ عبد الله المغاور الذي كان في إشبيلية ثم ذهب إلى الحج فأقام في الإسكندرية مدة إلى أن مات، فيقول إنه قد أدركه ولكنه لم يجتمع به. ولكن من غير الواضح فيما إذا كان ابن العربي يقصد أنه قد أدركه في الإسكندرية أو في إشبيلية.[551]

الدولة الأيوبية في مصر (١١٧١/٥٦٧–١٢٥٠/٦٤٨)

وُلد صلاح الدين، الذي يعود له الفضل بتوحيد مصر والشام وتحرير القدس، بمدينة تكريت سنة ١١٣٧/٥٣٢ على نهر دجلة شمالي سامراء بالعراق ثم نشأ في ظل البيت الزنكي وتعلم علوم أولاد الأمراء من حفظ القرآن وتعلم الأدب ودراسة الفقه وفنون القتال والفروسية.

وصلاح الدين هو أبو المظفر يوسف بن أيوب بن شاذي الملقب بالناصر صلاح الدين الأيوبي كان أبوه وأهله من قرية دوين في شمال أذربيجان وهم بطن من قبيلة الروادية الكردية، ولكنهم سكنوا في تكريت. ترعرع صلاح الدين في كنف أبيه نجم الدين الذي لزم خدمة نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي في دمشق، فأحبه نور الدين (الذي كان صوفياً زاهداً بقدر ما كان قائدا مجاهداً وشجاعاً) وأولاه رعاية كبيرة في التربية والتعليم والتدريب على فنون القتال. ولكن صلاح الدين لم يكن له ميولا إلى الحرب بل كان يميل إلى دراسة الطب والدين وكان يحبّ حلقات الصوفية ويلتزم معهم، ولكن عندما وجّه نور الدين زنكي حملةً إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه لنجدة شاور بن مجير السعدي وزير العاضد الفاطمي ضد خصمه ضرغام بن عامر اللخمي، أصرّ أسد الدين على اصطحاب ابن أخيه صلاح الدين معه إلى مصر. وبعد انتهاء هذه الحملة وقتل ضرغام وإعادة شاور إلى الوزارة، عاد أسد الدين وصلاح الدين إلى دمشق بعد

---

[551] الفتوحات المكية: ج٤ص٥٢١.

تدخّل الفرنجة. ولكن لم يلبث أن استنجد العاضد الفاطمي بنور الدين محمود زنكي من جديد لينقذه من شاور الذي استبدّ بالسلطة. فذهب أسد الدين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين إلى مصر مرة ثانية فهرب شاور ثم قبضوا عليه وقتلوه وقلّد العاضد الوزارة لأسد الدين شيركوه فتولاها ولكنه توفي بعد بضعة أشهر فقام العاضد بتقليد الوزارة لابن أخيه صلاح الدين ولقبه بالملك المظفّر صلاح الدين. فتولى صلاح الدين السلطة وباشرها بحزم وقوة وعدل. ولما مرض العاضد مرض موته قطع صلاح الدين الخطبة عن العاضد وخطب للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله فأنهى بذلك حكم الدولة الفاطمية وأصبح صلاح الدين هو صاحب السلطة في مصر ابتداءً من سنة ١١٧٤/٥٧٠.

ولمّا توفي نور الدين زنكي سنة ١١٧٣/٥٦٩ فخلفه ابنه الصالح إسماعيل، وكان لا يزال صغيرا، فاضطربت الأمور ودُعي صلاح الدين لضبطها. فلما أقبل سنة ١١٧٤/٥٧٠ إلى دمشق استقبله أهلها بحفاوة كبيرة واستولى بعد ذلك على بعلبك وحمص وحماة وحلب، ثم تخلى عن حلب للملك الصالح إسماعيل.

قام صلاح الدين بالإصلاح الداخلي في مصر والشام وبنى القلاع والمدارس، وصدّ غارات الصليبيين وهاجم حصونهم وقلاعهم في بلاد الشام حتى توسعت دولته وتوالت انتصاراته على الصليبيين في فلسطين والساحل الشامي حتى موقعة حطين الكبرى في يوم السبت الرابع عشر من ربيع الآخر سنة ١١٨٧/٥٨٣ التي هزم فيها الصليبيين هزيمة مريعة تلاها استرداد طبرية وعكا ويافا وبيروت ثم توّج كل ذلك بتحرير القدس سنة ١١٨٧/٥٨٣ التي استولى عليها الفرنجة سنة ١٠٩٩/٤٩٢.

وكان وقع الهزيمة على ملوك أوروبا كبيرا فجمعوا حملة كبيرة بقيادة ملك الإنكليز ريتشارد قلب الأسد الذي استطاع أن يدخل عكا سنة ١١٨٩/٥٨٥ وقامت بينه وبين صلاح الدين عدة معارك ومناوشات انتهت بعقد اتفاق للصلح سنة ١١٩٢/٥٨٨، وتوفي صلاح الدين بعدها بقليل عام ١١٩٣/٥٨٩ بقلعة دمشق عن عمر يناهز السبعة وخمسين عاما. ثم بويع لولده الأفضل نور الدين علي من بعده وكان نائبه على دمشق.

كان صلاح الدين إلى جانب هيبته وشدته رقيق النفس والقلب وكان رجل سياسة وحرب، بعيد النظر، متواضعا مع جنده وأمراء جنده. له اطلاع حسن على جانب من الحديث والفقه والأدب ولا سيما أنساب العرب ووقائعهم. لم يدخر لنفسه مالاً ولا عقاراً وكانت مدة حكمه بمصر ٢٤ سنة وبسورية ١٩ سنة، وخلّف من الأولاد ١٧ ولدا ذكراً وأنثى واحدة.

ويذكر الشيخ محيي الدين بعضاً من مناقب السلطان صلاح الدين يوسف ابن أيوب فيقول إنه قيل له سنة إحدى وثمانين وخمسمائة لما ذكر أبو القمح المنجّم أن ريحاً عظيمة في هذه السنة تكون فلا تمرّ على شيء إلا جعلته كالرميم. فأشار عليه بعض جلسائه أن يتّخذ في الأرض سرداباً يكون فيه ليلة هبوب تلك الريح فقال صلاح الدين: ويهلك الناس! قيل له نعم. فقال: إذا هلك الناس فعلى من أكون ملكاً أو سلطاناً؟ لا خير في الحياة بعد ذهاب الملك. دعني أموت ملكاً، والله لا فعلت. فيقول ابن العربي: فانظر ما أحسن هذا.[552]

[552] الفتوحات المكية: ج٢ص٢٦٤.

بعد وفاة الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي خلفه على مصر اثنان من أبنائه هما العزيز بن صلاح الدين الذي تولى الحكم من سنة ٥٨٩ إلى سنة ٥٩٥ ثم ابنه المنصور بن العزيز لسنة واحدة ليتولّى الحكم بعده السلطان العادل أخو صلاح الدين الأيوبي من سنة ٥٩٦ إلى سنة ٦١٥، وهكذا انتقل الحكم من أبناء صلاح الدين إلى أخيه العادل وأبنائه، وحدث بعدها اختلاف كبيرٌ بين أبناء البيت الأيوبي في مصر والشام وتحاربوا فيما بينهم فاستعانوا بالمماليك الذين قدموا من مختلف البلاد المجاورة وازداد نفوذ هؤلاء المماليك في عصر السلطان الصالح بن الكامل نجم الدين أيوب، إلا أن السلطان نجم الدين الأيوبي توفي سنة ٦٤٧ وهو يحارب الصليبيين فاضطرت زوجته شجرة الدرّ لإخفاء موته حتى انتصر المسلمون على الصليبيين في موقعة المنصورة ثم فارسكور سنة ٦٤٧ ثم تقلدت شجرة الدرّ الحكم بعد أن تخلصت من توران شاه ابن الصالح نجم الدين الأيوبي سنة ٦٤٨، وهكذا انتهى حكم الدولة الأيوبية في مصر بعد أن حكموها إحدى وثمانين سنة ليبدأ بعد ذلك عصر المماليك.

انحسار النيل وحدوث المجاعة في مصر (١٢٠٠/٥٩٧)

مع بداية سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيوب على مصر في سنة ١٢٠٠/٥٩٧ قبل شهور من قدوم الشيخ محيي الدين إليها، حدث انحسار كبير لمياه النيل، ولم يُعهد ذلك في الإسلام إلا مرّة واحدة في دولة الفاطميين، ولم يبق منه إلا شيء يسير؛ واشتد الغلاء والوباء بمصر، فهرب الناس إلى المغرب والحجاز واليمن والشام وتفرقوا وتمزقوا كل ممزّق، وتعرّض الذين بقوا في مصر إلى مجاعة كبيرة لم تشهد البلاد مثلها من قبل زاد من وطأتها الزلزال الذي حدث في ذلك العام ودمّر الكثير من البيوت على رؤوس أصحابها في مصر وبلاد الشام.

وقد نقل بعض المؤرخين العجائب عن تلك المجاعة لا ندري إن كان فيها بعض المبالغة أم لا. قال أبو المظفر: كان الرجل يذبح ولده الصغير وتساعده أمه على طبخه وشيّه؛ وأحرق السلطان جماعة فعلوا ذلك ولم ينتهوا. وكان الرجل يدعو صديقه وأحب الناس إليه إلى منزله ليضيفه فيذبحه ويأكله، وفعلوا بالأطباء كذلك، فكانوا يدعونهم ليبصروا المرضى فيقتلونهم ويأكلونهم، وفقدت الميتات والجيف من كثرة ما أكلوها، وكانوا يختطفون الصبيان من الشوارع فيأكلونهم. وكفن السلطان في مدة يسيرة مائتي ألف وعشرين ألفاً؛ وامتلأت طرقات المغرب والمشرق والحجاز والشام برمم الناس، وصلى إمام جامع الإسكندرية في يوم على سبعمائة جنازة."[553]

وقال العماد الكاتب الأصبهاني: في سنة سبع وتسعين وخمسمائة: اشتد الغلاء، وامتد البلاء؛ وتحققت المجاعة، وتفرقت الجماعة؛ وهلك القوي فكيف الضعيف! ونحف السمين فكيف العجيف! وخرج الناس حذر الموت من الديار، وتفرق فريق مصر في الأمصار؛ ولقد رأيت الأرامل على الرمال، والجمال باركة

---

[553] النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تأليف جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر-القاهرة، ١٩٦٣، ج٦ص١٧٣.

تحت الأحمال، ومراكب الفرنج واقفة بساحل البحر على اللقم، تسترق الجياع باللقم. وجاءت في شعبان، زلزلة هائلة من الصعيد هدمت بنيان مصر، فمات تحت الهدم خلق كثير، ثم امتدت إلى الشام والساحل فهدمت مدينة نابلس، فلم تبق فيها جداراً قائماً إلا حارة السمرة؛ ومات تحت الهدم ثلاثون ألفاً، وهدمت عكا وصور وجميع قلاع الساحل؛ وامتدت إلى دمشق فرمت بعض المنارة الشرقية بجامع دمشق، وأكثر الكلاسة والبيمارستان النوري، وعامة دور دمشق إلا القليل؛ فهرب الناس إلى الميادين، وسقط من الجامع ست عشرة شرفة، وتشققت قبة النسر."[554]

إقامته في مصر (القاهرة، شهر رمضان ٥٩٨/١٢٠٢)

ولذلك ربما لم تكن إقامة ابن العربي في مصر سعيدة خاصة وأنّه خسر رفيقه محمد الحصار، وكذلك فإن صديق طفولته الشيخ محمد الخياط الذي قدم إلى مصر قبله والتقى به فيها قد مرض مرضاً شديداً أقعده هو وأخوه محمد الذي بقي معه لرعايته ولم يستطيعا الذهاب مع ابن العربي إلى مكة.

ويصف الشيخ الأكبر هذا الوضع لصاحبه عبد العزيز المهدوي في "روح القدس" فيقول أثناء حديثه عن صاحبيه محمد الخياط وأخيه أحمد:

> ومنهم رضي الله عنهم الأخوان الشقيقان أبو عبد الله الخياط وأبو العباس أحمد الإشبيلي رضي الله عنهما صاحبتهما زماناً بإشبيلية إلى عام تسعين وخمسمائة خرجا يريدان الحج وهو العام الذي رحلت فيه إليك ووصلا مكة، فأما أحمد فجاور بها سنة وخرج إلى مصر ودخل طريق الملامتية. وأما محمد فجاور بها خمسة أعوام ولحق بأخيه بمصر فأقمت معهما وتأبى عبد الله زمانة فصمت معهما رمضان وخرجت إلى القدس الشريف ومشيت إلى مكة شرّفها الله تعالى وأقمت بها إلى الآن وفي قلبي من فراقهما لهيب."[555]

ولكن الشيخ الأكبر رضي الله عنه ذكر عن هذه المجاعة الرهيبة ما يوحي أنها كانت انتقاماً من الله تعالى بأهل مصر الذي طغوا وأفسدوا كثيراً في ذلك الوقت ولم يقيموا حدود الله تعالى، فهو يروي عن صاحبه أحمد أبي العباس أخي محمد الخياط الذي كان من أهل الله ومن كراماته أنه كان الله تعالى يخاطبه كثيرا في سرّه كما رأينا في الفصل الثاني. فيقول ابن العربي أنه لما حلّت بمصر المسغبة والوباء الذي هلك فيه أهلها فمشى أحمد أبو العباس يوماً فرأى الأطفال الصغار الرضّع يموتون جوعاً، فقال يا ربّ ما هذا! فنودي: يا عبدي هل ضيّعتك قط؟ قال لا. قال فلا تعترض؛ هؤلاء الأطفال الذين رأيتهم أولاد الزنا، وهؤلاء

---

[554] بن تغري، "النجوم الزاهرة": ج٦ص١٧٣.

[555] روح القدس: ص٥٩-٦١.

هم قوم عطّلوا حدودي فأقمت عليهم حدودي فلا يكن في نفسك من ذلك، ثم سرّي عنه فبقي راضياً بتلك الحالة للخلق. وعنده من هذه المخاطبات كثير."[556]

وذكر ابن العربي كذلك أنه في وقت هذه المجاعة صار الناس يباعون عبيداً فذكر عن رجل التقاه في مكة سنة ٥٩٩/١٢٠٢، وهو من أهل تونس يقال له عبد السلام بن السعرية، أنه كانت عنده جارية اشتراها بمصر في الشدة التي وقعت سنة ٥٩٧/١٢٠٠، فقال لها يا جارية أوصيك بأمرين: حفظ السرّ والأمانة، فقالت له الجارية: ما تحتاج فإني أعلم أن الشخص إذا كان أميناً شارك الناس في أموالهم وإذا كان حافظاً للسرّ شاركهم في عقولهم. فاستحسن صاحبها هذا الجواب منها فسأل عنها فوجدها حرّة قد بيعت في غلاء مصر، فأعتقها وسرّحها فرجعت إلى أمّها وإخوتها."[557]

ولكن الشيخ محيي الدين سيعود مرة أخرى إلى القاهرة بعد خمسة سنوات حيثُ سيلتقي ببعض أصحابه الأندلسيين أيضاً، إلا أن هذه الزيارة الثانية أيضاً لن تكون هانئة كما سنذكر في الفصل الخامس.

الخليل (شهر شوال/ذو القعدة ٥٩٨/١٢٠٢)

ولكن الشيخ الأكبر لم يذهب مباشرة إلى مكة، وربما كان سبب عدم توقفه كثيرا في مصر أنه كان يخطط لزيارة إبراهيم الخليل ولوطا عليهما السلام في مدينة الخليل في فلسطين.

ومدينة الخليل تقع في وسط فلسطين إلى الشمال الشرقي من الضفة الغربية شمال مدينة القدس، وتعود في تاريخها إلى أكثر من ٣٥٠٠ سنة قبل الميلاد وقد أطلق الكنعانيون عليها اسم "أربع" نسبة إلى اسم ملكهم ثم لمّا خضعت لحكم العبرانيين الذين خرجوا مع موسى عليه السلام من مصر أطلقوا عليها اسم حبرون وهو يعني عصبة أو اتحاد، ولما اتصلت المدينة ببيت خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام والذي يقع على سفح الجبل المقابل سمّيت المدينة الجديدة بالخليل. وكان إبراهيم عليه السلام قد وفد إليها مع أهله في القرن التاسع عشر قبل الميلاد وقد دفن فيها هو و زوجته سارة وولده إسحاق وزوجته رفقة وكذلك النبي يعقوب وولده يوسف عليهما السلام بعد أن نُقل جثمانهما من مصر. خضعت مدينة الخليل للحكم الإسلامي سنة ٦٣٨ ميلادية وقد اهتم بها المسلمون كثيرا نظرا لأهميتها الدينية كونها تضم رفات العديد من الأنبياء.

وسوف يزور الشيخ محيي الدين ابن العربي مدينة الخليل عدداً من المرّات كلّما مرّ بفلسطين وفيها كتب واحداً من كتبه البديعة وهو كتاب اليقين الذي سمّاه على اسم مسجد اليقين في نفس البقعة التي سجد فيها إبراهيم عليه السلام حينما رأى انتقام الله تعالى من قوم لوط كما سنذكر في الفصل الخامس.

---

[556] روح القدس: ص٦٠-٦١.

[557] الفتوحات المكية: ج٤ص٥٥٠.

القدس (شهر شوال/ذو القعدة ١٢٠٢/٥٩٨)

وكذلك قبل أن يذهب الشيخ محيي الدين إلى مكة أيضاً كان لا بدّ أن يزور بيت المقدس في مدينة القدس ويصلي في المسجد الأقصى.

وتعتبر القدس واحدة من أكبر مدن فلسطين وكانت تسمى أورشليم أي بلد السلام وهي مدينة مقدسة لكل من المسيحيين والمسلمين واليهود حيث فيها كنيسة القيامة التي يعتقد أن المسيح بن مريم عليه السلام قد قام فيها، وهي للمسلمين أولى القبلتين تتبعها مكة المكرمة وثالث الحرمين الشريفين في مكة والمدينة المنورة، ويعتقد اليهود أن فيها هيكل سليمان عليه السلام. تُعتبر القدس من أقدم المدن في التاريخ، فترجع نشأتها إلى سنة ٥٠٠٠ ق.م، حين عمرها الكنعانيون، وفي سنة ٣٠٠٠ ق.م. سكنتها العرب اليبوسيون الذين بنوا المدينة وأطلقوا عليها اسم مدينة السلام، نسبة إلى سالم أو شالم "إله السلام" عندهم.

ازدهرت المدينة في عهد اليبوسيين خلال فترة بعثة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ثم فتحها داود عليه السلام في حوالي سنة ١٠٠٠ ق.م وجعل منها عاصمة لمملكته، ثم بنى فيها سليمان عليه السلام الهيكل. دمّرها الرومان بقيادة تيتوس عام ٧٠ م ثم أعيد بناؤها في عهد هادريانس عام ١٣٥ م، ثم أحرقها الفرس عام ٦١٤ م وفتحها المسلمون عام ٦٣٨ م في عصر الخليفة عمر بن الخطاب حيث استلم مفاتيحها من البطريارك صفرونيوس فأصبح اسمها القدس وعاش فيها المسلمون مع اليهود والنصارى بسلام ووفاق وفق وثيقة الأمان التي كتبها عمر رضي الله عنه. احتلها الصليبيون عام ١٠٩٩/٤٩٢ ثم استرجعها المسلمون بقيادة صلاح الدين الأيوبي بعد معركة حطين عام ١١٨٧/٥٨٣. وفي العصر الحديث تم احتلال القسم الغربي من القدس عند إقامة دولة إسرائيل في العام ١٩٤٨/١٣٦٧، كما تم احتلال القسم الشرقي الحاوي على البلدة القديمة في عام ١٩٦٧/١٣٨٦.

ولما فُتحت القدس اختار صلاح الدين خطيباً شاباً من بين جميع الشيوخ ليخطب الجمعة الأولى بعد الفتح، وهذا الشاب هو القاضي الشهير محيي الدين ابن الزكي الذي كان قاضياً في حلب ثم عيّنه صلاح الدين قاضياً في دمشق، فقال ابن الزكي من جملة ما قال: "... إياكم أن يستذلكم الشيطان... فيخيل إليكم أن هذا النصر بسيوفكم الحداد وبخيولكم الجياد وبجلدكم في موقع الجلاد... والله وما النصر إلا من عند الله... إن الله عزيز حكيم". وكان هذا القاضي محيي الدين ابن الزكي هو الذي صلى بالناس على جنازة صلاح الدين بعد ذلك ببضع سنوات. وتجدر الإشارة هنا إلى أن بني الزكي من العائلات الشهيرة في دمشق وقد تولّوا وتوارثوا منصب قاضي القضاة على مدى عدّة عقود وسوف نرى في الفصل السادس أنهم هم الذين قد أكرموا الشيخ محيي الدين ابن العربي عند استقراره في دمشق ووفّروا له ولمريديه الرعاية ومات الشيخ الأكبر في بيت ابن الزكي ودفن في المقبرة المخصصة لبني الزكي في الصالحية كما سنرى في الفصل السادس.

أصبحت القدس في عهد الإسلام مركزاً مهماً من مراكز الحضارة العربية الإسلامية وقد أقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيها مسجداً وأزال التراب المتراكم على الصخرة المشرفة وأقام عليها مصلّى، وفي

العهد الأموي بنى عبد الملك بن مروان مسجد الصخرة، ورصد لبنائه خراج مصر لسبع سنين ثم توالى الخلفاء والأمراء فجددوا وزخرفوا فيه حتى أصبح من أجمل الأبنية.

على الرغم من أن أهالي القدس عانوا معاناة شديدة إبّان الغزو الفرنجي لها وسالت في المسجد والمدينة دماء عشرات الألوف من أبناءها، ولكن حين حررها الناصر صلاح الدين الأيوبي أعطى الفرنجة نموذجا رائعاً في الرحمة والتسامح حيث لم يعاملهم بعملهم واكتفى بدفع فدية قليلة ودفع هو من ملكه الخاص عن الفقراء الذين لا يملكون دفع الفدية.

أمر صلاح الدين بإعادة أبنية القدس إلى حالها القديم، وطهّر المسجد والصخرة من الأقذار بعدما دنّسها الصليبيّون، وصلى فيهما ونصب منبراً في المسجد كان قد أمر بصنعه نور الدين محمود زنكي. وعمل صلاح الدين على توسيع المسجد الأقصى وتدقيق نقوشه، وزوده بالمصاحف والكتب، فعاد إلى المسجد رونقه وبهاؤه وجلاله، فازدهرت القدس من جديد في ظل الحكم الإسلامي، وبرز فيها عدد من العلماء الأجلاء. وقد سلمت القدس وفلسطين ومصر من غارات المغول الذين اجتاحوا العراق وسورية سنة ١٢٤٣/٦٤٠ بفضل انتصار الظاهر بيبرس على المغول في معركة عين جالوت سنة ١٢٦٠/٦٥٨.

التنبّؤ بفتح بيت المقدس

وفي الحقيقة فقد تنبّأ بعض العلماء بفتح القدس قبل حصوله. فقد ذكر أبو الحكم عبد السلام بن برجان في تفسيره المسمى "تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب والتعرف على الآيات والأنباء العظام"، الذي ألفه سنة ١١٢٦/٥٢٠، طريقة استنتج فيها تاريخ فتح القدس اعتماداً على الحروف التي في بداية بعض السور وخاصة سورة الروم.

ولكن الشيخ محيي الدين يقول إن أبا الحكم ذكر ذلك من جهة علم الفلك، وجعل ذلك ستراً على كشفه حين قطع بفتح بيت المقدس سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة. ولكن الشيخ محيي الدين يبيّن بوضوح كيفيّة استنتاج ذلك من أوائل سورة الروم فيعتبر أن البضع الذي في سورة الروم ثمانية (لأن فتح مكة كان سنة ثمانية)، ثم يأخذ عدد حروف "الم" بالجزم الصغير (ا=١، ل=٣، م=٤) فتكون ثمانية أيضاً، فتجمعها إلى ثمانية البضع فتكون ستة عشر، فتزيل الواحد الذي للألف للأس فيبقى خمسة عشر، فتمسكها عندك ثم ترجع إلى العمل في ذلك بالجمل الكبير، وهو الجزم، فتضرب ثمانية البضع في أحد وسبعين (ا=١، ل=٣٠، م=٤٠)، واجعل ذلك كله سنين، يخرج لك في الضرب خمسمائة وثمانية وستون (٨×٧١=٥٦٨)، فتضيف إليها الخمسة عشر المذكورة فتصير ثلاثة وثمانين وخمسمائة سنة (٥٦٨+١٥=٥٨٣)، وهو زمان فتح بيت المقدس على قراءة من قرأ "غَلَبت الروم"، بفتح الغين واللام، "سيُغلَبون"، بضم الياء وفتح اللام. ففي سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة كان ظهور المسلمين في أخذ حج الكفار وهو فتح بيت المقدس.[٥٥٥]

[٥٥٥] الفتوحات المكية: ج١ص٦٠، وكذلك ج٤ص٢٢٠.

ولكن الشيخ محيي الدين لا يبيّن لماذا تمت عملية الحساب بهذا الشكل، وعلى كل حال فعلم الحروف وحساب الجمل علم قائم بذاته ولا يتطرق له الشيخ محيي الدين ابن العربي إلا نادراً.

المدينة المنورة (موسم الحج ١٢٠٢/٥٩٨)

من القدس ذهب الشيخ محيي الدين إلى المدينة المنورة لزيارة النبي محمد صلّى الله عليه وسلّم قبل أن يذهب إلى مكة المكرمة ليقضي مناسك الحج، وليقيم هناك لمدة تزيد عن سنتين. فإنه وإن كانت مكة أعظم في الفضل كما سنرى بعد قليل، فقد ثبت في الحديث عن النبي محمد صلّى الله عليه وسلّم أنه قال: "صَلاَةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا، خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلاَةٍ فِيمَا سِوَاهُ، إِلاَّ الْمَسْجِدِ الْحَرَامَ".[١٩٠] من أجل ذلك نجد أن الشيخ محيي الدين رضي الله عنه سيزور المدينة كلما قصد الحج وربما كلما رحل عن مكة إلى بلاد الشام أو العراق، حيث تمر معظم قوافل الحج من المدينة المنورة.

في الحقيقة يقول الشيخ محيي الدين لصاحبه عبد العزيز المهدوي في رسالة روح القدس يصف له هذه الأسفار فيقول: "وخرجت إلى القدس الشريف ومشيت إلى مكة شرفها الله تعالى". فربما يكون ذلك تصريح بأن ابن العربي ذهب من القدس الشريف إلى مكة المكرّمة (عن طريق المدينة المنوّرة) مشياً على الأقدام، كما فعل في تونس حين ذهب إلى شيخه أبي عبد الله بن خميس الكناني حين زاره حافيا على قدميه في شدة الحرّ كما رأينا في الفصل الثالث. ولكن من جهة أخرى فربما لا يقصد الشيخ الأكبر المعنى الحرفي لهذا الوصف.

مكة المكرمة (موسم الحج ١٢٠٢/٥٩٨)

وها هو أخيراً يصل إلى مكة المكرمة، أرض الخير والبركات، التي تعادل الصلاة في حرمها مئة ألف من الصلوات، لفضل البيتَ المبارك الشريف محلّ البركات والهدى والآيات البينات.

وسوف تكون مكة المكرمة من أهم المحطات في حياة الشيخ الأكبر بالإضافة إلى دمشق، ففي مكة سيبدأ الشيخ محيي الدين بكتابة كتابه الشهير الفتوحات المكية الذي سوف ينهيه بدمشق بعد حوالي ثلاثين سنة. وفي مكة أيضاً سيكتب الشيخ محيي الدين ترجمان الأشواق الذي يعدّ من أفضل ما قيل في شعر الغزل والذي يحمل بالإضافة إلى ذلك معانٍ روحية سامية تفضّل الشيخ رضي الله عنه وبيّنها لاحقاً في كتاب ذخائر الأعلاق في شرح ترجمان الأشواق. ومن مكة أيضاً سيكتب الشيخ محيي الدين رسالة مهمة إلى شيخه عبد العزيز المهدوي الذي تركه في تونس والتي لا بدّ لأي باحث في حياة الشيخ الأكبر أن يستعين بهذه الرسالة المهمة التي ذكر فيها الشيخ رضي الله عنه عدداً كبيراً من الشيوخ الذين عاشرهم واستفاد منهم في طريق الله تعالى، وهي رسالة "روح القدس" التي ذكرناها كثيرا. وأيضاً في مكة كتب الشيخ محيي الدين كتابا مشابها لروح القدس هذا سمّاه الدرّة الفاخرة فيمن انتفعت بهم في طريق الآخرة، ولم يتيسّر لهذا الكتاب أن يُنشر

[١٩٠] شرح صحيح مسلم، الإمام محيي الدين بن شرف النووي، الجزء التاسع، تتمّة كتاب الحجّ.

حتى الآن إلا أن أسين بلاثيوس ترجم أجزاءً منه إلى الإسبانية وكذلك نشرت منه أجزاء باللغة الإنكليزية في كتاب "متصوفو الأندلس".[560]

ولكن الأهم من جميع ذلك أنه في مكة المكرمة سوف يتأكد للشيخ محيي الدين ما بُشّر به منذ حوالي عشر سنوات في إشبيلية ثم في تونس سنة ٥٩٠ ثم في فاس سنة ٥٩٥/٥٩٤ من أنه هو ختم الولاية المحمدية، حيث يبشره رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن فيه شعرة منه وكفى بذلك فضلاً وشرفاً عظيماً، يضاف إلى ذلك الرؤيا التي سيراها أنه كان بمثابة لبنتي الفضة والذهب اللتان أكملتا بناء الكعبة المشرّفة كما سنروي بعد قليل.

تاريخ مكة المكرمة والمسجد الحرام

تعتبر مكة المكرمة مدينة تاريخية قديمة واسمها مشتق من اللغة السامية من كلمة "بك" التي تعني الوادي وقد ورد مثل هذا الاسم بلفظ بكة في القرآن الكريم في قوله تعالى في سورة آل عمران: (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾). وذكر ياقوت الحموي في معجمه عدة روايات عن تسمية مكة منها أنها تمكّ الذنوب أي تذهب بها كما يمك الفصيل ضرع أمه فلا يبقي شيئا. ومنها أيضاً أنها تمكّ من ظلم أي تقصمه.[561]

تقع مدينة مكة المكرمة بين جبال تهامة وجبال السروات غربي الجزيرة العربية قرب البحر الأحمر، وكانت منطقة جرداء لا ينبت فيها الزرع حين قدم إليها إبراهيم الخليل عليه السلام الذي قدم من فلسطين مع زوجته هاجر وابنه الرضيع إسماعيل وتركهما هناك بأمر من الله تعالى ورجع إلى فلسطين. فيقول الله تعالى في سورة إبراهيم: (رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾)، وكان ذلك في القرن التاسع عشر قبل الميلاد. فاستجاب الله تعالى لدعوة خليله وفجّر الله فيها نبع زمزم وبدأت القبائل تتوافد إلى مكان الماء، وعمرت المنطقة بالناس.

بعد ذلك رجع رسول الله سيدنا إبراهيم عليه السلام إلى مكة المكرمة وكان هو وولده النبي إسماعيل عليهما السلام أول من رفعا القواعد من البيت الحرام بأمر من الله عز وجل. يقول الله تعالى في سورة البقرة: (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾)، ومع انتشار الدين الحنيفي بدأ الناس يتوافدون إلى الحج تلبية لنداء إبراهيم الخليل الذي قال له الله

[560] Sufis of Andalusia, Ralph J. Austin (London: George Allen & Unwin, 1971).

[561] معجم البلدان: رقم ١١٤٩٧.

تعالى كما ورد في سورة الحج: (وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾).

في أواخر القرن الثالث الميلادي تولّت قبيلة خزاعة بزعامة ربيعة بن الحارث زعامة مكة، وجاء بعده عمرو بن لحي الخزاعي الذي بدّل دين إبراهيم عليه السلام وأحضرت الأوثان إلى الكعبة وصار الناس يعبدونها. ثم انتقلت الزعامة إلى قريش الذين استمروا في عبادة الأصنام، وتركوا الدين الحنيف.

وفي سنة ٥٧١ ميلادية، قدم أبرهة الأشرم إلى مكة بجيش كبير مدجّجٍ بالأسلحة ومحمولٍ على الفيلة يريد هدم البيت الحرام، وسمي ذلك العام بعام الفيل وهي السنة التي ولد فيها سيدنا محمد صلّى الله عليه وسلّم. ولكن الله عزّ وجلّ حمى بيته بأن أرسل على أصحاب الفيل طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول، كما ذكر الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم في سورة الفيل.

وما هي إلا سنوات حتى ظهر الرسول صلّى الله عليه وسلّم برسالة الإسلام، فحاربوه وهجّروه وقامت حروب كثيرة معروفة انتهت بفتح مكة وبدأ الإسلام ينتشر في أرض الجزيرة ثم توسّع إلى بلاد الشام في عهد الخلفاء الراشدين وبدء المسلمون يتوافدون إلى مكة المكرمة من أجل قضاء فريضة الحج، وأصبح المسجد الحرام يزدحم بالمسلمين فقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه بتوسعته للمرة الأولى ثم قام الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه بتجديده وتوسعته مرة أخرى.

بعد ذلك جاء الأمويون وقاموا أيضاً بتوسعة المسجد الحرام وزخرفته، وجاء من بعدهم العباسيون الذين ضاعفوا مساحة الحرم واهتموا بتطويره من الناحية الجمالية والعمرانية وشجّعوا العلماء وحلقات الدروس التي كانت تقام في الحرم الشريف.

ومع بدء انهيار الدولة العباسية وضعفها خضعت مكة لحكم عدد من الطوائف كالقرامطة والإخشيديين ثم الأشراف الموسويين ثم السليمانيين ثم الهواشم الذين استمر حكمهم إلى سنة ١٢٠٠/٥٩٧،[562] وذلك قُبيل قدوم الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي إلى مكة المكرمة.

كان بنو قتادة يسكنون البادية فلمّا كثر عددهم سار بهم قتادة إلى ينبع فاحتلها، ثم تطلّع إلى إمارة مكة المكرمة فسار إليها بجيش كبير فاستولى عليها وأجلى منها بني هاشم سنة ١٢٠٠/٥٩٧ وظلت هذه الطبقة في الحكم نحو سبعة قرون و نصف إلى أن أجلاهم السعوديون عنها سنة ١٩٢٤/١٣٤٣، الذين قاموا أيضاً بتوسعات كبيرة في الحرم الشريف وخاصة في العقود الأخيرة.

وقتادة هو الشريف قتادة بن إدريس الينبعي المكي ويكنى أبا عزيز وكان يسكن في العلقمية من ينبع، وأصبح في قومه رئيساً، فجمعهم وحارب الأشراف بني حراب لما بلغه من انهماكهم في اللهو والظلم. وكان قتادة مهيباً وقوراً قويّ النفس شجاعاً بقداماً. يذكر ابن الأثير أنه كان أول ملكه حسن السيرة، فقد أزال

[562] مرجع السياعي ٢٠٢، تاريخ أمراء مكة المكرمة، عارف عبد الغني، ص٤٦٣-٤٧٥.

عن مكة العبيد المفسدين وحمى البلاد وأحسن إلى الحجاج وأكرمهم. إلا أنه بعد ذلك وفي آخر أيامه ساءت سيرته وتوفي في سنة ٦١٧/١٢٢٠ أو ١٢٢١/٦١٨ ، والله أعلم."[563]

فضل مكة المكرمة والحرم

قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يوم فتح مكة: "هَذَا الْبَلَدُ حَرَّمَهُ اللهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ يُعْضَدُ شَوْكُهُ وَلاَ يُنَفَّرُ صَيْدُهُ وَلاَ يَلْتَقِطُ لُقَطَتَهُ إِلاَّ مَنْ عَرَّفَهَا وَلاَ يُخْتَلَى خَلاَهُ".[564] وقال أيضاً في فضل مكة المكرمة: "وَاللهِ إِنِّي لأَعْلَمُ أَنَّكِ خَيْرُ أَرْضِ اللهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللهِ إِلَيَّ، وَلَوْلاَ أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ".[565]

وقال عليه الصلاة والسلام عن فضل الصلاة في المسجد الحرام: "صَلاَةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ مِئَةُ أَلْفِ صَلاَةٍ، وَصَلاَةٌ فِي مَسْجِدِي أَلْفُ صَلاَةٍ، وَفِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ خَمْسُ مِئَةِ صَلاَةٍ."[566]



المسلمون يطوفون حول الكعبة المشرفة في مكة المكرمة في موسم الحج

من أجل ذلك ذهب كثير من العلماء، كالشافعي وأحمد، إلى استحباب المجاورة في مكة المكرمة، لما يحصل فيها من ثواب لا يحصل في غيرها، فسكّان مكّة في ثوابٍ دائمٍ للنظر إلى البيت والقرب منه. ولذلك سنجد أن الشيخ محيي الدين رضي الله عنه قد ترك بلاده في الأندلس وأهله هناك، وترك أيضاً العزّ والجاه الذي كان يلقاه عند الملوك والأمراء هناك، ولم يأبه لهذا كلّه وآثر جوار الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام، حيث سيبقى في هذه المرّة سنتين متواصلتين ثم يعود إليها عدة مرات بعد ذلك بقصد الحجّ ويجاور فيها لفترات متقطعة.

---

[563] ابن الأثير، "الكامل في التاريخ" ج٩ص٣٤٥ حوادث سنة ٦١٨هـ، وانظر كذلك "تاريخ ابن خلدون": ج٤ص١٣٤-١٣٦، وانظر السباعي، "تاريخ مكة": ص٢٢٤-٢٢٧.

[564] صحيح البخاري، في كتاب الحج، باب فضل الحرم، رقم ١٥١٠، وكذلك في صحيح مسلم في كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها، رقم ١٣٥٣.

[565] المستدرك على الصحيحين في الحديث، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق مصطفى عبد القادر، دار الكتب العلمية-بيروت، ١٩٩٠: ج٣ص٣١٦.

[566] فيض القدير، شرح الجامع الصغير، للإمام المناوي، الجزء الرابع، رقم ٥١٠٩.

وقد وَجدت بعض الدراسات الحديثة أن مكّة المكرّمة تُعتبر مركز اليابسة على سطح الكرة الأرضية لتساوي جميع أطراف القارات بالبعد عنها، وكذلك فإن مكة تقع أيضاً في المركز المغناطيس للكرة الأرضية.[٥٦٧]

ومن كثرة ما وَجد فيها من البركة أراد الشيخ محيي الدين ابن العربي أن يستحثّ صاحبه العزيز عبد العزيز المهدوي على زيارتها فكتب له في مقدمة الفتوحات المكية[٥٦٨] التي أهداها إليه كما سنرى لاحقا وقال:

> و(نريد) أن تعرّف أيضاً في هذا الموضوع الصفيّ الكريمَ أبا محمد عبد العزيز رضي الله عنه ما تعطيه مكة من البركات وأنها خير وسيلة عبادية وأشرف منزلة جمادية ترابية عسى تنهض به همة الشوق إليه وتنزل به رغبة المزيد عليه، فقد قيل لمن أوتي جوامع الكلم وكان من ربه في مشاهدة العين أدنى من قاب قوسين، ومع هذا التقريب الأكمل والحظّ الأوفر الأجزل أنزل عليه (وقل ربّ زدني علماً). ومن شرط العالِم المُشاهِد صاحب المقامات الغيبية والمَشاهد أن يعلم أن للأمكنة في القلوب اللطيفة تأثيراً ولو وجد القلب في أي موضع كان الوجود الأعم فوجوده بمكة أسنى وأتم، فكما تتفاضل المنازل الروحانية كذلك تتفاضل المنازل الجسمانية، وإلا فهل الدرّ مثل الحجر إلا عند صاحب الحال، وأما المُكمّل صاحب المقام فإنه يميّز بينهما كما ميّز بينهما الحق: هل ساوى الحق بين دارٍ بناؤها لبن التراب والتبن ودارٍ بناؤها لبن العسجد واللجين! فالحكيم الواصل من أعطى كلّ ذي حقٍّ حقّه فذلك واحد عصره وصاحب وقته. وكثيرٌ (الفرق) بين مدينة يكون أكثر عمارتها الشهوات وبين مدينة يكون أكثر عمارتها الآيات البيّنات؛ أليس قد جمع معي صفيّي أبقاه الله أن وجود قلوبنا في بعض المواطن أكثر من بعض. وقد كان رضي الله عنه يترك الخلوة في بيوت المنارة المحروسة الكائنة بشرقيّ تونس بساحل البحر وينزل إلى الرابطة التي في وسط المقابر بقرب المنارة من جهة بابها، وهي تُعزى إلى الخضر، فسألته عن ذلك فقال إن قلبي أجده هنالك أكثر منه في المنارة وقد وجدت فيها أنا أيضاً ما قاله الشيخ. وقد علم وليّي أبقاه الله أن ذلك من أجل من يعمر ذلك الموضع إمّا في الحال من الملائكة المكرّمين أو من الجنّ الصادقين وإمّا من همّة من كان يعمره وفُقد، كبيت أبي يزيد الذي يُسمي بيت الأبرار وكزاوية

---

[٥٦٧] انظر كتاب، المنظار الهندسي للقرآن الكريم، خالد فائق العبيدي، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٥.

[٥٦٨] يبدو أنّ الفتوحات المكية كانت في البداية عبارة عن رسالة عاديّة وجّهها الشيخ الأكبر من مكة المكرّمة إلى صديقه عبد العزيز في تونس، ثم بعد ذلك وضع فيها الفصول والأبواب الكثيرة وما أكملها إلا بعد ثلاثين سنة كما سنرى في الفصل السادس. ولذلك نجد العديد من الكتب والرسائل المنفصلة قد تكاملت ودمجها الشيخ محيي الدين في الفتوحات المكيّة.

الجنيد بالشونيزية وكمغارة ابن أدهم بالتعن، وما كان من أماكن الصالحين الذين فنوا عن هذه الدار وبقيت آثارهم في أماكنهم تنفعل لها القلوب اللطيفة.

ولهذا يرجع تفاضل المساجد في وجود القلب لا في تضاعف الأجر فقد تجد قلبك في مسجد أكثر مما تجده في غيره من المساجد وذلك ليس للتراب ولكن لمجالسة الأتراب أو هممهم، ومن لا يجد الفرق في وجود قلبه بين السوق والمساجد فهو صاحب حال لا صاحب مقام. ولا أشك كشفاً وعلماً أنه وإن عمرت الملائكة جميع الأرض مع تفاضلهم في المعارف والرتب فإن أعلاهم رتبة وأعظمهم علماً ومعرفةً عَمَرةُ المسجد الحرام. وعلى قدر جُلسائك يكون وجودك فإنه لِهمَمِ الجلساء في قلب الجليس لهم تأثيراً وهِمَمُهم على قدر مراتبهم.

وإن كان من جهة الهمم فقد طاف بهذا البيت مائة ألف نبي وأربعة وعشرون ألف نبي سوى الأولياء، وما من نبي ولا وليّ إلا وله همة متعلقة بهذا البيت وهذا البلد الحرام لأنه البيت الذي اصطفاه الله على سائر البيوت وله سرّ الأولية في المعابد كما قال تعالى (في سورة آل عمران) "إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ۝ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا" من كلّ مخوف إلى غير ذلك من الآيات.

فلو رحل الصفي أبقاه الله إلى هذا البلد الحرام الشريف لوجد من المعارف والزيادات ما لم يكن رآه قبل ذلك ولا خطر له بالبال. وقد علم رضي الله عنه أن النفس تُحشر على صورة عِلمها والجسم على صورة عمَله، وصورة العلم والعمل بمكة أتمّ ممّا في سواها، ولو دخلها صاحب قلب ساعةً واحدةً لكان له ذلك فكيف إن جاور بها وأقام وأتى فيها بجميع الفرائض والقواعد، فلا شكّ أنّ مشهده بها يكون أتمّ وأجلى ومورده أصفى وأعذب وأحلى وإذ وصفيّي أبقاه الله قد أخبرني أنه يُحس بالزيادة والنقص على حسب الأماكن والأمزجة. ويعلم أن ذلك راجع أيضاً إلى حقيقة الساكن به أو همّته كما ذكرنا، ولا شك عندنا أن معرفة هذا الفنّ، أعني معرفة الأماكن والإحساس بالزيادة والنقص، من تمام تمكّن معرفة العارف وعلوّ مقامه وشرفه على الأشياء وقوّة ميزه. فالله يكتب لوليّي فيها أثراً حسناً ويهبه فيها خيراً طيباً إنه الولي بذلك والقادر عليه.[269]

[269] الفتوحات المكية: ج١ ص٩٩.

الشيخ أبو شجاع الأصفهاني (مكة ٥٩٨/١٢٠١)

عندما وصل الشيخ محيي الدين إلى مكة لقي بها الشيخ أبا شجاع زاهر بن رستم بن أبي الرجا الأصفهاني[570] (توفي ٦٠٩/١٢١٢) وهو إمام المقام الإبراهيمي في الحرم الشريف والذي كان على ما يبدو يلقي دروسا في الحديث الشريف هناك، فكان هناك صحبة وعلاقة وثيقة بينه وبين الشيخ محيي الدين الذي سمع عليه كتاب سنن الترمذي وغيره من كتب الحديث. ويذكر صاحب "الرياض النضرة في مناقب العشرة" أن الشيخ أبا شجاع له كتاب اسمه "نزهة الناظر".[571]

وكذلك كانت فخر النساء أخت الشيخ أبي شجاع عالمة جليلة لا تزال تهتم بالعلم والحديث النبوي وروايته رغم عمرها المتقدم، فبعث إليها الشيخ محيي الدين يطلب أن يسمع عنها ما ترويه من الحديث، فاعتذرت في بداية الأمر بسبب تقدم سنّها وانشغالها بالعبادة، فأرسل لها الشيخ محيي الدين بيتاً من الشعر يقول لها:

حالي وحالك في الرواية واحدٌ ... ما القصد إلا العلم واستعماله

فأذنت لأخيها الشيخ أبي شجاع أن يكتب للشيخ محيي الدين إجازة عامة في جميع رواياتها.[572] وقد نقل عنها بعض الروايات في كتاب "محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار".[573]

وقد روى الشيخ محيي الدين في الفتوحات المكية أيضاً العديد من الأحاديث عن أبي شجاع مثل حديث انقطاع الرسالة والنبوة بعد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأنه ما بقي من النبوة إلا المبشرات،[574] والحديث عن الدجال،[575] وغيره من الأحاديث.[576]

ولكن علاقة الشيخ أبي شجاع مع الشيخ محيي الدين لم تتوقف على الصحبة العلمية بل ربما أصبحت علاقة عائلية طويلة الأمد وكان لها أثر كبير على إنتاج الشيخ محيي الدين العلمي والأدبي، وذلك من خلال ابنته التي كان يُلقبها بعين الشمس والبهاء وتدعى نظام.

نظام

من الواضح أن نظام كانت تعرف الشيخ محيي الدين ربما من خلال زيارته لأبيها وصحبته له وشهرته في الوسط العلمي الذي تربّت به تحت كنف والدها وعمتها، فكانت هي أيضاً ذات أدب وفصاحة

---

[570] شذرات الذهب في أخبار من ذهب، أبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي، دار المسيرة-بيروت، ١٩٧٩: ج٥ص٣٧.

[571] "الرياض النضرة في مناقب العشرة"، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: عيسى بن عبد الله بن محمد بن مانع الحميري، دار الكتب العلمية-بيروت، ١٩٩٦: ج١ص٢.

[572] ترجمان الأشواق: ص٧.

[573] محاضرة الأبرار: ج١ص٤٤٤.

[574] الفتوحات المكية: ج٢ص٣٧٦.

[575] الفتوحات المكية: ج٣ص٣٣٠.

[576] الفتوحات المكية: ج٢ص٤٠٧.

وبيان لا يضاهى بالإضافة إلى ما حباها الله به من الجمال والحسن الطبيعي والروحاني الذي جذب الشيخ محيي الدين إليها فكان بينهما علاقة ودّ ومحبة روحانية طاهرة انتهت على الأغلب بالزواج كما سنوضح بعد قليل.

يصف الشيخ محيي الدين نظام في بداية ترجمان الأشواق فيقول:

بنت عذراء طفلة هيفاء، تقيّد النواظر، وتزين المَحاضر، وتُسرّ المُحاضِر، وتحيّر المَناظر تسمى بالنظام،[377] وتُلقب بعين الشمس والبهاء، من العالمات العابدات، السائحات، الزاهدات. شيخة الحرمين، وتربية البلد الأمين الأعظم بلا مَين.[378] ساحرة الطرف، عراقية الظرف. إن أسهبت أتعبت، وإن أوجزت أعجزت، وإن أفصحت أوضحت. إن نطقت خرس قسّ بن ساعدة، وإن كرُمت خنس معن بن زائدة، وإن وفّت قصر السموأل خطاه، وأغرى وراى بظهر الغرر وامتطاه. ولولا النفوس الضعيفة السريعة الأمراض، السيئة الأغراض، لأخذت في شرح ما أودع الله تعالى في خَلقها من الحسن، وفي خُلقها الذي هو روضة المزن. شمس بين العلماء، بستان بين الأدباء، حُقّة مختومة، واسطة عقد منظومة...[379]

ويصف الشيخ محيي الدين أول نظرة رأى فيها نظام في مقدمة الكتاب الشهير الذي كتبه في محاسنها ونشر فيها من الغزل الروحاني اللائق والنسيب الرائق ما فاق فيه الشعراء وفتح باباً جديداً في التعبير عن العلوم الروحانية بطريقة شعرية ما سبقه إليها أحد، وترك الشعراء والأدباء والنقّاد على مدى العصور بعده يتيهون في التأويلات المختلفة لهذه العلاقة الغريبة بين الشيخ وهذه الفتاة، فتارة يبرّرون وتارة ينتقدون وكثيراً ما يعجزون عن التفسير، ولكن الجميع لا يستطيع إلا أن يبدي إعجابه بهذا النظم البديع والأدب الرفيع.

يقول الشيخ محيي الدين في مقدمة شرحه لكتاب "ترجمان الأشواق" أنه كان يطوف ذات ليلة بالبيت فطاب به الوقت وهزّه حال كان يعرفه من قبل، فخرج من البلاط بعيداً عن الناس، وصار يطوف على الرمل، فتذكر أبياتا من الشعر وأنشدها بهدوء بحيث لا يُسمع إلا نفسه ومن يليه لو كان هناك أحد، وهي:

ليـــــت شـــــعري هـــــل دروا ... أيّ قلـــــــب ملكـــــــوا
وفـــــــؤادي لـــــــو درى ... أيّ شـــــعب ســـــلكوا
أتـــــراهم ســـــلموا ... أم تـــــراهم هلكـــــوا
حـــــار أربـــــاب الهـــــوى ... في الهـــــوى وارتبكـــــوا

ثم يتابع فيقول:

فلم أشعر إلا بضربة بين كتفيّ بكفّ ألين من الخزّ؛ فإذا بجارية من بنات

---

[377] قد يكون هذا الاسم أيضاً وصفا بمعنى النظم والانتظام وليس اسما، فربما يكون اسمها غير ذلك.

[378] المين هو الكذب وجمعه مُيونٌ؛ يُقال أكثرُ الظُّنُون مُيون. انظر مختار الصحاح (م ي ن).

[379] ترجمان الأشواق: ص٨.

الروم لم أر أحسنَ منها وجهاً، ولا أعذبَ منطقاً، ولا أرقَّ حاشيةً، ولا ألطفَ معنىً، ولا أدقَّ إشارةً، ولا أظرفَ محاورةً منها، قد فاقتْ أهل زمانها ظرفاً وأدباً وجمالاً ومعرفةً.

فطلبتْ منه هذه الفتاة أن يُعيد ما قاله، وكانت تعرفه ولم يكن يعرفها، فأعاد عليها البيتَ الأول، فاستوقفته وقالت: عجباً منك أنتَ عارف زمانك تقول مثل هذا! وأخذت تناقشه في الأبيات بيتاً بيتاً، وتوضح له أن حال المحب الكامل الفاني في محبوبه لا يكون كما وصف وإنما لا يكون له لسان يصف به ولا قلب يحتار به.

فقال لها الشيخ محيي الدين: يا بنت الخالة، ما اسمك؟ قالت: قرّة العين. قال: لي.[580]

ثم سلّمتْ نظام وانصرفتْ، ولكنها تركتْ في قلب الشيخ الأكبر أثراً كبيراً غيّر حياته الروحية، لتكون أكثر ضياءً وصفاءً وبهاءً وعطاءً، وليس كما قد يظن البعض أنها قد تكون فتنته فأثنته عمّا هو في سبيله من الزهد والعبادة، فلكل شيء ميزان، وقد آن الأوان، وانقضى عهد الرهبانية بعد الوصول إلى الأمان، وقد بلغتْ الشمس الآن وضع الزوال وحان وقت الأذان. فهل تزوّج الشيخ محيي الدين من هذه الفتاة؟

زواجه

ربما لاحظنا أنه لم يرد حتى الآن أي ذكر لحياة ابن العربي العائلية، فيما إذا كان تزوج ومن ومتى؟ نحن نعرف أن الشيخ محيي الدين قد تزوج أكثر من مرة ولكننا لا يمكننا أن نحدد متى حصل ذلك ولا كم مرة على وجه التحديد. ولكن يبدو على الأغلب أن الشيخ محيي الدين فضّل في البداية الابتعاد عن النساء والارتباط العائلي حتى يتمكن من الرحيل والتنقل دون أن يشغل باله بمستلزمات العائلة، ولقد كان موفقا في ذلك إلى حد بعيد حيث وجدنا أنه بعد وفاة والده ووالدته بسنتين تقريبا زوّج أختيه وتخلّص من الارتباطات العائلية التي تستوجب منه تفرغا كاملا، بعيدا عن أي ارتباط يعيقه عما هو في سبيله. ولكن هذا الحال لا يمكن أن يدوم لأنه "لا صرورة في الإسلام"،[581] والرسول صلّى الله عليه وسلّم قال في جوابه على الثلاثة الذين كان أحدهم يقوم الليل كله والآخر يصوم ولا يفطر والثالث لا يتزوج النساء، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في الحديث المتفق عليه: "أمَا والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء؛ فمن رغب عن سنتي فليس مني!" وقال أيضاً في الحديث الآخر: "حُبِّبَ إليَّ النساءُ والطيبُ وجُعلت قرّة عيني في الصلاة".[582]

---

[580] ترجمان الأشواق: ص١٢، وكذلك في محاضرة الأبرار: ج٢ص٥٦.

[581] ورد ذلك في الحديث عن النبي صلّى الله عليه وسلّم (عون المعبود، شرح سنن أبي داود، للآبادي، كتاب المناسك، رقم ٥٥٩). والصرورة هي التبتل وترك النكاح وأيضاً الذي تقال لمن لم يحج قط، وأصله من الصر الحبس والمنع، والحديث الشائع "لا رهبانية في الإسلام" لا أصل له بهذا الشكل، انظر كشف الخفاء: رقم ٣١٥٤ (حرف اللام ألف).

[582] روي هذا الحديث بأسانيد كثيرة ومتون متقاربة: رواه الطبراني في الأوسط والصغير عن أنس رفعه، وكذا الخطيب في تاريخ بغداد، ورواه النسائي عن أنس، ورواه الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم، وأخرجه ابن عدي عن أنس، وأبو يعلى في مسنده، وأبو عوانة في

يقول ابن العربي في الباب الثالث والستين وأربعمائة من الفتوحات المكية في تعليقه على موضوع هذا الحديث الأخير أنه كان من أكره خلق الله تعالى في النساء وفي الجماع في أول دخوله إلى هذا الطريق وبقي على ذلك نحواً من "ثمان عشرة سنة"، إلى أن وقف على الخبر النبويّ أن الله حبّب النساء لنبيّه صلّى الله عليه وسلّم؛ فما أحبهن طبعاً ولكنه أحبّهن بتحبّب الله إليه. ويضيف الشيخ محيي الدين فيقول: "فلما صدقتُ مع الله في التوجّه إليه تعالى في ذلك من خوفي مقت الله حيث أكره ما حبّبه الله لنبيّه أزال عني ذلك بحمد الله، وحبّبهن إليّ؛ فأنا أعظم الخلق شفقة عليهنّ وأرعى لحقّهن لأني في ذلك على بصيرة، وهو عن تحبّب لا عن حبّ طبيعي."

ويضيف الشيخ الأكبر فيقول إنه لا يعلم قدر النساء إلا من علم وفَهِم عن الله ما قاله في حق زوجتَيْ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عندما تعاونتا عليه وخرجتا عليه كما ذكر الله في سورة التحريم وجعل في مقابلة هاتين المرأتين في التعاون عليه من يعاون رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عليهما وينصره وهو الله وجبريل وصالح المؤمنين ثم الملائكة بعد ذلك ظهير،"[٥٨٣] وليس ذلك إلا للاختلاف في السبب الذي لأجله يقع التعاون؛ فثمّ أمر لا يمكن إزالته إلا بالله لا بمخلوق ولذلك أمرنا أن نستعين بالله في أشياء وبالصبر في أشياء وبالصلاة في أشياء فاعلم ذلك.[٥٨٤]

فإذن، بعد ثمانية عشر سنة من دخوله الطريق، عاد الشيخ محيي الدين وغيّر موقفه من النساء لما حبّبهنّ الله إليه فأصبح يحبّهن على بصيرة. فأين ومتى حدث ذلك التغيّر بالتحديد؟ أغلب الظن أنه حدث في مكة المكرمة في هذه السنة سنة ٥٩٨، إذا افترضنا أنه دخل الطريق سنة ٥٨٠ كما ذكر هو في مكان آخر حيث قال: "ونلتُ هذه المقامات في دخولي هذه الطريقة سنة ثمانين وخمسمائة في مدة يسيرة"،[٥٨٥] رغم أن بعض الباحثين يرجّح أن الشيخ محيي الدين قد دخل طريق الله قبل ذلك بكثير كما ذكرنا في بداية الفصل الثاني.

إذا كان الأمر كذلك، فهذا يخالف ما قرّره، من غير أي دليل، أسين بلاثيوث في كتابه عن حياة ابن العربي حيث يفترض أن ابن العربي قد تزوّج حتى قبل دخوله الطريق وأن من المحتمل أن يكون دخوله الطريق كان بتأثير زوجته مريم بنت محمد بن عبدون التي سنذكرها بعد قليل. ولكن هذا الكلام غير منطقي على الإطلاق وليس له أي دليل.

فإذا كان الأمر كذلك، فبمن تزوّج ابن العربي؟ ومن هي المرأة التي كانت أوّل زوجاته التي غيّرت حياته على هذا النحو؟ من غير المستبعد أن تكون نظام قرة العين هي التي غيّرت حياة ابن العربي بهذا الشكل فكانت أول امرأة فكّر بالزواج بها إن لم يكن فعلا قد تزوّجها، على ما سنذكره في الفقرة التالية.

مستخرجه، والبيهقي في سننه، ورواه الديلمي.

[٥٨٣] من سورة التحريم: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾.

[٥٨٤] الفتوحات المكية: ج٤ص٨٤.

[٥٨٥] الفتوحات المكية: ج٢ص٤٢٥.

قرّة العين

بعد هذه الحادثة وهذا التبادل الشعري بين الشيخ محيي الدين ابن العربي وهذه الفتاة التي كانت لا شكّ تعرفه وتعرف مقداره، وبعد أن انصرفت الفتاة سأل عنها الشيخ محيي الدين فعرفها، ويقول إنه بعد ذلك عاشرها ورأى عندها من لطائف المعارف ما لا يصفه واصف.

ولكن السؤال الذي أثار قريحة النقّاد وحتى المحبين: ما هي علاقة نظام بالشيخ محيي الدين؟ هل هي علاقة مشروعة، أم هل يليق بشيخ مثله أن يتغزّل بفتاة، مهما كانت بالنسبة له.

في الحقيقة يصعب تحديد هذه العلاقة بشكل جازم، فليس لنا أن نحكم على الغيب الماضي إذا لم تتوفر لنا المصادر، ولكن من غير المستبعد، بل من الواضح وربّما من المؤكد، أن يكون الشيخ الأكبر رضي الله عنه قد تزوج هذه الفتاة، فإن جوابه لها فيه خِطبة صريحة ليس فيه مواراة؛ فعندما سألها عن اسمها، قالت: "قرة العين"، فرَدّ بدون تفكير: "لي". ثم يقول إنه بعد ذلك عرفها وعاشرها ورأى عندها من لطائف المعارف ما لا يصفه واصف. فلا يكون ذلك من غير أن يكون قد تزوجها، أو على الأقل خطبها ثمّ فرّق الزمان بينهما كما سنحلّل ذلك الاحتمال بعد قليل. ولا ننسى من هي ومن هو؛ فما هي غانية شاردة، بل هي بنت أصل وشرف ودين، وما هو إلا محيي الدين وسلطان العارفين وخاتم الأولياء المكمّلين. فلا يجوز أن نترك المجال للقلوب المريضة أن تذهب شرقاً وغرباً، وتظنّ أنها قد اكتشفت في نظام الكون عيباً.

وهناك إشارات واضحة أخرى تؤكد ما ذهبنا إليه، فهو يقول في "محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار" بعد أن ذكر قصة لقائهما الأول التي رويناها أعلاه: "وكان لنا أهل تقرّ العين بها، ففرّق الدهر بيني وبينها، فتذكّرتها، ومنزلها بالحِلّة من بغداد."[586] فكلمة "أهل" تعني بشكل صريح الزوجة، وعبارة "تقرّ العين بها" مشتقّة من اسمها "قرّة العين". ومعروف أن هذه الفتاة نظام وأهلها ليسوا من أهل مكة، بل هي روميّة، وكانت بلاد الروم في ذلك الوقت بلاد إسلام خاضعة مع شمال العراق إلى الدولة السلجوقية. وقد توفي والد نظام الشيخ أبو شجاع الأصفهاني سنة ١٢١٢/٦٠٩، فمن غير المستبعد أن تكون نظام قد غادرت مع أهلها إلى العراق بعد وفاة والدها. بل يصرّح الشيخ محيي الدين فيقول إن نظام، التي كتب فيها ومن أجلها ترجمان الأشواق، كانت ساكنة في بغداد، فيقول في كتاب ترجمان الأشواق الذي لم يُكتب في سنة ١٢٠١/٥٩٨ حين التقى الشيخ محيي الدين بنظام، بل بعد ذلك بسنوات عديدة في سنة ١٢١٤/٦١١، مع احتمال كتابة بعض القصائد التي فيه قبل ذلك، يقول ابن العربي:

أحـــبّ بـــلاد الله لـــي بعـــد طيبـــة ... ومكـــة والأقـــصى مدينـــة بغـــدان
ومـــا لـــيَ لا أهـــوى الـــسلام ولـــي بهـــا ... إمـــام هـــدىً ديـــني وعقـــدي وإيمـــاني
وقـــد ســـكنتها مـــن بنيّـــات فـــارس ... لطيفـــة إيمـــاءٍ مريـــضة أجفـــان
تحيّـــي فتُحيـــي مـــن أماتـــت بلحظهـــا ... فجـــاءت بحـــسنى بعـــد حـــسنٍ وإحـــسان[587]

---

[586] محاضرة الأبرار: ج٢ص٥٨.

[587] ترجمان الأشواق: ص١٥٠.

وعلى كل حال، كما قلنا، يصعب تحديد علاقة الشيخ محيي الدين بنظام إلا على وجه التخمين وغلبة الظن، ولكن حسن الظن واجب، فربما يكون قد تزوجها أو على الأقل خطبها، ثم حالت الظروف بينهما. وهناك بعض الإشارات تؤكد نظرية الخِطبة أيضاً.

فيقول الشيخ محيي الدين في الفتوحات المكية بعد أن ذكر كتاب ترجمان الأشواق وانتقاد بعض فقهاء حلب له ثم توبتهم بعد أن شرح هذا الكتاب في ذخائر الأعلاق، كما سنعود إلى ذلك عند الحديث عن هذه الكتب، يقول الشيخ بعد ذلك موضحا ضرورة حسن الظن قبل الرجم طالما لا يوجد يقين: فيقول إنه لو رأينا رجلاً ينظر إلى وجه امرأة وهو خاطب لها ونحن لا نعرف أنه خاطب وكنّا منصفين في الأمر، لم نُقدم على الإنكار عليه إذا جهلنا حاله حتى نسأله ما دعاه إلى ذلك. فإن قال أو قيل لنا أنه خاطب لها، أو هو طبيب وبها مرض يستدعي في ذلك المرض نظر الطبيب إلى وجهها، علمنا أنه ما نظر إلاّ إلى ما يجوز له النظر إليه فيه، بل نظره عبادة لورود الأمر من الرسول صلّى الله عليه وسلّم في ذلك. ولا يُنكَر عليه ابتداءً مع وجود هذا الاحتمال: فليس الإنكار عليه من المنكِر بأولى من الإنكار على المنكِر في ذلك، مع إمكان وجود هذه الاحتمالات.

ثم يضيف رضي الله عنه أن هذا مما يغلط فيه كثير من المتديّنين، لا من أصحاب الدين: فإن أصحاب الدين المتين أوّل ما يحتاط أحدهم على نفسه ولا سيّما في الإنكار خاصة، لأن الله ندبنا إلى حسن الظن بالناس لا إلى سوء الظن بهم، فلا ينكر صاحب الدين مع الظن وقد سمع قول الله تعالى في سورة الحجرات: "يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ...﴿١٢﴾"، فلعلّ هذا من ذلك البعض وإثمه أن ينطق به، وإن وافق العلم في نفس الأمر (أي وإن كان صحيحاً في النهاية)، فإن الله يؤاخذه بكونه ظنّ وما علم، فنطق فيه بأمرٍ محتملٍ ولم يكن له ذلك. ثم يضيف الشيخ رضي الله عنه فيقول إن سوء ظن الإنسان بنفسه أولى من سوء ظنه بالغير لأنه من نفسه على بصيرة وليس هو من غيره على بصيرة.[588]

ولكن السؤال الذي ربّما يكون مشروعا هو أنّه إن كان تزوّجها فعلا أو خطبها لماذا لم يصرّح بذلك دفعا للريبة والغيبة. فالجواب على ذلك السؤال هو أننا حقيقة لا نملك من كتب الشيخ محيي الدين ابن العربي التي كتبها إلا اليسير وأكثرها تعتبر مفقودة حتى الآن، فربما كان قد ذكر ذلك ولم يصلنا. من جهة أخرى نحن نرى بوضوح من خلال ما نقلناه في الفصل الثاني وما بعده أنّ الشيخ محيي الدين نادرا ما يتكلّم عن حياته الشخصية العائليّة وهو إنّما يذكر علاقته بشيوخه تذكيرا بأحوال أهل الله وليس تسجيلا لسيرته الذاتية، وهذا أمر واضح من خلال كتبه وخاصة روح القدس والدرّة الفاخرة. وقد رأينا في الفصل الثاني كيف أنه لا يتحدّث عن أمّه كثيرا ولا حتى عن أبيه إلا بشكل عابر، ولم يذكر اسم أمّه نور في كتبه إلا مرّة واحدة حين نقل قول فاطمة بنت ابن المثنى لها في عبارتها الشهيرة: "يا نور هذا ولدي وهو أبوك فبرّيه ولا تعقّيه".[589] وسوف نرى في الفقرات التالية أنّه نادراً ما يذكر أسماء زوجاته أو أيّ شيء عن عائلته وحياته

---

[588] الفتوحات المكية: ج٣ص٥٦٣.

[589] الفتوحات المكية: ج٢ص٣٤٨.

الشخصية.

زوجته فاطمة بنت يونس بن يوسف أمير الحرمين

إذا لم نكن متأكدين من زواج الشيخ محيي الدين ابن العربي من بنت الشيخ أبي شجاع إمام الحرم الإبراهيمي، فمن المؤكد أنه تزوّج من فاطمة بنت أمير الحرمين يونس بن يوسف، مع أنه لم يذكرها إلا مرّة واحدة في آخر الفتوحات المكية، فهي التي أنجبت له أكبر أولاده الذي سمّاه محمّدا ولقبه عماد الدين، وهو الذي أهدى إليه النسخة الأولى من الفتوحات المكية كما ذكر هو في آخر النسخة الثانية منها، حيث يقول:

> هذه النسخة سبعة وثلاثون مجلداً وفيها زيادات على النسخة الأولى التي وقفتها على ولدي محمد الكبير الذي أمّه فاطمة بنت يونس بن يوسف أمير الحرمين وفقه الله، وعلى عقبه وعلى المسلمين بعد ذلك شرقاً وغرباً براً وبحراً وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين.[٥٩٠]

زوجته مريم بنت محمد بن عبدون

وكذلك، بخلاف الحالة مع نظام بنت الشيخ أبي شجاع الأصفهاني، فمن المؤكد أن الشيخ محيي الدين قد تزوج من مريم بنت محمد بن عبدون، ولكنه لم يتحدّث عنها بمثل ما تحدّث عن نظام، ولا نعلم عنها إلا القليل، ويبدو من خلال حديثه عنها أنها كانت أيضاً من أهل الطريق. يقول ابن العربي في الباب الثاني والخمسين وثلاثمائة في حديثه عن الفرق بين أصحاب الذوق والشهود وغيرهم ممن ليس لهم شهود في الحق:

> وما رأيت واحداً من أهل هذا المقام (مقام تجسيد الخيال للمعاني) ذوقاً إلا أنه أخبرتني أهلي مريم بنت محمد بن عبدون أنها أبصرت واحداً وصفت لي حاله، فعلمت أنه من أهل هذا الشهود إلا أنها ذكرت عنه أحوالاً تدل على عدم قوّته فيه وضعفه مع تحقّقه بهذا الحال، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.[٥٩١]

وقال أيضاً في أثناء حديثه عن الأمور التي يجب على المريد إتباعها قبل أن يجد الشيخ المناسب، وهي تسعة أشياء: أربعة في الظاهر وهي الجوع والسهر والصمت والعزلة، وهي نفسها التي تكلّم عنها في كتاب حلية الأبدال الذي كتبه في الطائف كما سنذكره بعد قليل، وخمسة في الباطن وهي التوكل واليقين والصبر والعزيمة والصدق، فيقول:

> حدثتني المرأة الصالحة مريم بنت محمد بن عبدون بن عبد الرحمن

---

[٥٩٠] الفتوحات المكية: ج٤ص٥٥٤.

[٥٩١] الفتوحات المكية: ج٣ص٢٣٥.

البجائي، قالت رأيت في منامي شخصاً كان يتعاهدني في وقائعي وما رأيت له شخصاً قط في عالم الحس فقال لها: تقصدين الطريق؟ قالت فقلت له: إي والله أقصد الطريق، ولكن لا أدري بماذا! قالت فقال لي: بخمسة وهي: التوكل، واليقين، والصبر، والعزيمة، والصدق. فعرضت رؤياها عليّ فقلت لها هذا مذهب القوم."[٥٩٢]

وكما أشرنا أعلاه ينوّه أسين بلاثيوس إلى أن زواج ابن العربي بمريم بنت محمد بن عبدون قد تمّ في أشبيلية ربما قبل سنة ١١٨٤/٥٨٠، وأنه ربّما من تأثره بها، حيث كانت امرأة صالحة، دخل طريق التصوّف.[٥٩٣] وهذا الكلام رجم في الغيب ليس عليه أي دليل، بل كما ذكرنا من المرجّح أن الشيخ محيي الدين لم يتزوّج إلا بعد قدومه إلى المشرق سنة ١٢٠٢/٥٩٨.

والحقيقة أن عائلة "ابن عبدون" عائلة كبيرة وعريقة تعود إلى القرون الأولى في الإسلام، ولا يمكننا تحديد هويّة محمد بن عبدون تماما؛ فنعرف مثلا أن عبد الله بن عبدون كان كاتبا عند أمير المسلمين في الأندلس وكان مشهورا بالعلم والخطابة وسنذكر سبب ذلك في الفصل الخامس حيث يبدو أن الشيخ محيي الدين قد التقى بابن أخيه المنجنيقي وهو ابن عبد المجيد بن عبدون وذلك في قونية، فمن غير المستبعد إذا أن يكون الشيخ قد التقى بفروع هذه العائلة هناك وتزوّج من بنتهم مريم التي يمكن أن تكون هي أم ابنه سعد الدين محمّد الذي وُلد في ملطية سنة ١٢٢١/٦١٨.

زوجات أخريات

من جهة أخرى تقول بعض الروايات أن الشيخ محيي الدين قد تزوج أيضاً أرملة صاحبه مجد الدين إسحق القونوي (توفي ١٢٢٠/٦١٧)، حتى يتسنّى له تربية ابنها صدر الدين القونوي الذي أصبح من الشيوخ الكبار تحت تربية الشيخ محيي الدين كما سنرى في الفصول القادمة. فمن المحتمل أيضاً أن تكون هي التي ولدت له سعد الدين، ولكن ذلك احتمال بعيد نظراً لوجود فترة صالعدّة وأن سعد الدين قد ولد بعد فترة قصيرة من موت زوجها الأوّل مجد الدين الرومي، إلا إذا كان مجد الدين توفي في أول سنة ١٢٢٠/٦١٧ ووُلد سعد الدين في أواخر سنة ١٢٢٢/٦١٨.

وكذلك تقول بعض الروايات أن الشيخ محيي الدين قد تزوّج في دمشق من إحدى بنات بني الزكي الذين أكرموه واحتفلوا به كثيرا كما سنرى لاحقا في الفصل السادس إن شاء الله تعالى. ويقول أيضاً المقرّي صاحب "نفح الطيب" أن قاضي القضاة المالكيّة في دمشق زوّجه بابنته، وترك القضاء بنظرة وقعت عليه من الشيخ.[٥٩٤]

---

[٥٩٢] الفتوحات المكية: ج١ص٢٧٨.

[٥٩٣] أسين بلاثيوس، "ابن عربي، حياته ومذهبه": ص١٠.

[٥٩٤] نفح الطيب: ص١٧٩.

وفي كتاب المبشّرات يذكر الشيخ محيي الدين في رؤيا طويلة رأى فيها الحقّ سبحانه وتعالى يوم القيامة وقد أذن له أن يشفع بالناس، فبدأ يشفع بأقربائه، فذكر منهم زوجته "أم عبد الرحمن".[٥٩٥] ولا نعرف من هي، وهل له ولد اسمه عبد الرحمن أم أنه كان من زوج قبله، الله أعلم.

بداية تأليف الفتوحات المكية (مكة ٥٩٨/١٢٠٢)

يعدّ كتابُ الفتوحات المكية من أهم كتب التصوف الإسلامي على الإطلاق. بدأ ابن العربي تأليف هذا الكتاب لأول مرة بمكة سنة ٥٩٨/١٢٠٢ إلى أن أكمله بدمشق سنة ٦٢٩/١٢٣٢، ثم أعاد كتابته مرة أخرى في الفترة بين سنة ٦٣٢/١٢٣٥ إلى ٦٣٦/١٢٣٩ حيث أضاف وحذف وعدّل على النسخة الأولى.

وقد بدأ الشيخ محيي الدين رضي الله عنه تأليف هذا الكتاب الموسوعة في مكة المكرّمة إثر حديث روحاني بينه وبين "الفتى الفائت" وهو روح رآه الشيخ أثناء طوافه حول الكعبة سنة ٥٩٨ فأخذ منه كلّ ما سطّره في الفتوحات المكية. يقول الشيخ محيي الدين في الباب الأول "في معرفة الروح الذي أخذت من تفصيل نشأته ما سطرته في هذا الكتاب وما كان بيني وبينه من الأسرار" أنه بينما كان يطوف حول الكعبة إذ لقي وهو عند الحجر الأسود "الفتى الفائت، المتكلم الصامت، الذي ليس بحيّ ولا مائت، المركب البسيط، المحاط المحيط". فيقول إنه عندما أبصره يطوف بالبيت عرف حقيقته وأطلعه الله على منزلته وأنه منزّه عن الزمان والمكان. ثم يقول الشيخ محيي الدين:

> فلما عرفت منزلته وإنزاله، وعاينت مكانته من الوجود وأحواله، قبّلت يمينه، ومسحت من عرق الوحي جبينه، وقلت له: أنظر من طلب مجالستك، ورغب في مؤانستك، فأشار إليّ إيماءً ولغزاً، أنه فُطر على أن لا يكلّم أحداً إلا رمزاً، وأن رمزي إذا علمته وتحققته وفهمته علمت أنه لا تدركه فصاحة الفصحاء، ونطقه لا تبلغه بلاغة البلغاء.

فقال له الشيخ محيي الدين:

> عرّفني باصطلاحك، وأوقفني على كيفيّة حركات مفتاحك، فإني أريد مسامرتك، وأحب مصاهرتك.

وبعد أن كشف له هذا الروح عن رمزه قال له الشيخ محيي الدين:

> أطلعني على بعض أسرارك، حتى أكون من جملة أحبارك.

فقال له:

> انظر في تفاصيل نشأتي، وفي ترتيب هيأتي، تجد ما سألتني عنه فيّ مرقوماً، فإني لا أكون مكلِّماً ولا كليماً، فليس علمي بسواي، وليست ذاتي مغايرة لأسمائي، فأنا العلم والمعلوم والعليم، وأنا الحكمة والمُحكم والحكيم.

---

[٥٩٥] رسالة المبشرات، مخطوطة بايزيد ١٦٨٦.

ثم قال له:

> طُف على أثري، وانظر إليَّ بنور قمري، حتى تأخذ من نشأتي ما تسطره في كتابك، وتمليه على كتّابك، وعرفني ما أشهدك الحق في طوافك من اللطائف، مما لا يشهده كل طائف، حتى أعرف همّتك ومعناك، فأذكرك على ما علمت منك هناك.[596]

ثم ذكر الشيخ رضي الله عنه تكملة حديثه مع هذا الروح وما استفاد منه وأفاده من العلم في هذا الباب الأول من الفتوحات المكية، وبعد ذلك شرع في الأبواب الأخرى التي بلغت ٥٦٠ بابا من العلوم والمعارف الرفيعة التي أودعها في هذا الكتاب. ويقول الشيخ رضي الله عنه في الباب الثاني من الفتوحات أن تأليفه هذا الكتاب وغيره لا يجري مجرى التواليف، ولا يجري هو فيه مجرى المؤلفين؛ وذلك أنه لا يختار ما يقول وما يرتب ويصنّف وإنما هي قلوب عاكفة على باب الحضرة الإلهية مراقبة لما ينفتح له الباب، فقيرة خالية من كل علم، لو سئلت في ذلك المقام عن شيء ما سمعت لفقدها إحساسها، فمهما برز لها من وراء ذلك الستر أمرٌ ما بادرت لامتثاله وألّفته على حسب ما يُحدّ لها في الأمر. ولذلك فقد يضع بعض الأمور بغير ترتيب منطقي ولا مناسبة ظاهرة ولكن يكون هناك مناسبة خفيّة لا يشعر بها إلا أهل الكشف، وكذلك قد يلقى إلى هذا القلب أشياء يؤمر بإيصالها وهو لا يعلمها في ذلك الوقت لحكمة إلهية غابت عن الخلق.[597]

ثم يضيف رضي الله عنه فيقول:

> فشتّان بين مؤلف يقول: "حدثني فلان رحمه الله عن فلان رحمه الله"، وبين من يقول: "حدثني قلبي عن ربي"، وإن كان هذا رفيع القدر فشتان بينه وبين من يقول: "حدثني ربي عن ربي"، أي حدثني ربي عن نفسه.[598]

ولكن الشيخ رضي الله عنه لم ينهِ هذا الكتاب الكبير إلا بعد أكثر من ثلاثين سنة في دمشق كما سنتكلم عن ذلك في الفصل السادس.

وتجدر الإشارة إلى أن للشيخ محيي الدين كتب أخرى بأسماء مشابهة، منها "الفتح الفاسي"،[599] و"الفتوحات المدنية"، و"الفتوحات المصرية"،[600] وهي ليست بمثل حجم وأهمية كتاب الفتوحات المكية والذي يسمى أيضاً "الفتح المكي"، والاسم الكامل له هو: "الفتوحات المكية في معرفة الأسرار المالكية والملكية".

---

[596] الفتوحات المكية: ج١ص٤٨.

[597] الفتوحات المكية: ج١ص٥٩.

[598] الفتوحات المكية: ج١ص٥٧.

[599] مؤلفات ابن عربي: ٤٣٠.

[600] مؤلفات ابن عربي: ٤٧٤.

وقد أهدى الشيخ رضي الله عنه هذا الكتاب لصاحبه التونسي عبد العزيز المهدوي ولرفيق دربه بدر الحبشي.[601] وله عدّة مخطوطات أهمها نسخة قونية التي كتبها الشيخ الأكبر بخط يده وأوقفها على ولده عماد الدين محمد الكبير الذي أمّه فاطمة بنت يونس بن يوسف أمير الحرمين.[602]

كتاب الآباء العلوية والأمهات السفلية

وفي مكة كتب الشيخ محيي الدين كتابا مفصلا عن موضوع النكاح المعنوي الذي ذكرناه في الفصل الثاني. ويبدو أنّ هذا الكتاب "الآباء العلوية والأمهات السفلية" ضمّنه الشيخ محيي الدين لاحقا في الفتوحات المكية وهو نفسه الباب الحادي عشر منها الذي يحمل نفس العنوان.

ويضيف الشيخ محيي الدين في هذا الباب أن آباءنا العلويات أربعة وهم العقل الأول وهو القلم والنفس الكلية وهي اللوح والطبيعة الكلية والهباء أما أمهاتنا السفليات فهي العناصر الأربعة التراب والماء والهواء والنار.[603]

كتاب أسرار الحروف

وكذلك في مكة المكرمة كتب الشيخ محيي الدين كتابا عن أسرار الحروف وقد يكون أيضاً متضمنا في الفتوحات المكية في الباب الثاني منها. وقد ألّف الشيخ محيي الدين هذا الكتاب في مكة المكرّمة قبل سنة ١٢٠٣/٦٠٠ وتوجد منه بعض المخطوطات إلا أن عثمان يحيى أوضح أن هناك اختلاف كبير بين النسخ المختلفة لهذه المخطوطات.[604]

الشهب في سماء مكة واليمن (محرم ١٢٠٢/٥٩٩)

ويروي الشيخ محيي الدين أنه في أثناء طوافه حول الكعبة شاهد تساقط الشهب بكثافة كبيرة فوق اليمن فتنبّأ بنزول مصائب شديدة وأمراض، وذكر الشيخ محيي الدين أيضاً تفسيراً علمياً مقنعاً لمصدر هذه الشهب ومكان تشكّلها فقال إن هذه الأركان كان وجودها قبل وجود هذه الأفلاك (أي الكواكب، وبمعنى آخر المجموعة الشمسية) من حيث ما تقول سموات لا من حيث ما هي أفلاك. وهي متصلة بالهواء والهواء حارّ رطب بما فيه من الرطوبة، فإذا اتصل بهذا الأثير أثّر فيه لتحركه اشتعالاً في بعض أجزاء الهواء الرطبة فبدت الكواكب ذوات الأذناب وذلك لسرعة اندفاعها تظهر في رأي العين تلك الأذناب. ثم يقول ابن العربي أنك إذا أردت تحقيق هذا فانظر إلى شرر النار إذا ضرب الهواءُ النار بالمروحة وغيرها؛ يتطاير منها شرر أمثال

---

[601] انظر مقدمة الفتوحات المكية: ج١ص١٠.

[602] انظر خاتمة الفتوحات المكية: ج٤ص٥٥٤.

[603] مؤلفات ابن عربي: ١٦٥.

[604] مؤلفات ابن عربي: ١٨١-١٨٢.

الخيوط في رأي العين ثم تنطفئ كذلك هذه الكواكب (الذي هو الشهاب). ثم يقول إن الله جعلها منذ زمان بعث الرسول صلّى الله عليه وسلّم رجوماً للشياطين. فإن الشياطين، وهم كفار الجن، لهم عروج إلى السماء الدنيا يسترقون السمع، أي ما تقول الملائكة في السماء، وتتحدّث به ممّا أوحى الله فيها. فإذا سلك الشيطان أرسل الله عليه شهاباً رصَداً ثاقباً ولهذا يعطي ذلك الضوء العظيم الذي تراه ويبقى ذلك الضوء في أثره طريقاً.

ثم يروي ما حدث سنة ١٢٠٢/٥٩٩ فيقول إنه رأى مرة أثر أحد هذه الشهب قد بقي ضوؤه ساعة وأزيَد من ساعة وهو بالطواف رآه مع جماعة الطائفين بالكعبة وتعجّب الناس من ذلك، ثم قال إنهم ما رأوا قط ليلة أكثر منها ذوات أذناب، بقيت الليل كله إلى أن أصبح، حتى كانت تلك الكواكب لكثرتها وتداخل بعضها على بعض كما يتداخل شرر النار تحول بين الأبصار وبين رؤية الكواكب. فقالوا ما هذا الأمر إلا لأمر عظيم، وبعد قليل وصل إليهم أنّ أهل اليمن ظهر فيه حادث في ذلك الوقت الذي رأوا هذا وجاءتهم الريح بتراب كثير شبيه التوتيا إلى أن عمّ أرضهم وعلا على الأرض إلى حدّ الرُكب، وخاف الناس وأظلم عليهم الجو بحيث أنهم كانوا يمشون في الطريق في النهار بالسرج وحال تراكم الغمام بينهم وبين نور الشمس، وكانوا يسمعون في البحر دوياً عظيماً. ثم يقول الشيخ محيي الدين أن ذلك كان في سنة ستمائة أو تسع وتسعين وخمسمائة والشك منه فإنه ما قيّدها في وقتها ذلك وما قيّدها إلا في سنة سبع وعشرين وستمائة ولذلك أصابه الشك كما يقول لبعد الوقت، ثم يضيف فيقول: لكنه معروف عند الخاص والعام من أهل الحجاز واليمن.[605]

وهذه الحادثة معروفة في التاريخ وقد شوهدت ليس فقط من مكة واليمن بل وحتى من مصر حيث يقول ابن تغري في "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" أنه في سنة تسع وتسعين وخمسمائة في ليلة السبت سلخ المحرم ماجت النجوم في السماء شرقاً وغرباً، وتطايرت كالجراد المنتشر يميناً وشمالاً؛ ولم يُرَ هذا إلا عند مبعث النبي صلّى الله عليه وسلّم، وفي سنة إحدى وأربعين ومائتين، وكانت هذه السنة أعظم.[606]

كتاب حلية الأبدال، الطائف (ليلة الاثنين ١٢ جمادى الأولى ١٢٠٢/٥٩٩)

ومن مكة ذهب الشيخ محيي الدين إلى الطائف لكي يزور قبر ابن عباس رضي الله عنهما. وهناك يبدو أن حديثا دار بين الشيخ محيي الدين ابن العربي وأصحابه عن الأبدال، وهم من رجال العدد، يكونون سبعة في كل وقت، وقد ذكرناهم في الفصل الثالث. فطلب منه أصحابه تقييد كتاب لهم عن هذا الموضوع، فيقول الشيخ محيي الدين أنه استخار الله تعالى في ذلك ليلة الاثنين الثاني عشر من جمادى الأولى سنة تسع وتسعين وخمسمائة وكان ذلك عن طلب من صاحبه بدر الحبشي الذي يرافقه كظله كما قلنا من قبل وكذلك صاحبه أبي عبد الله محمد بن خالد التملساني، فكتب كتاب "حلية الأبدال وما يظهر عنها من المعارف والأحوال" لكي تكون لهما ولغيرهما عوناً على طريق السعادة وباباً جامعاً لفنون الإرادة.[607]

---

[605] الفتوحات المكية: ج٢ص٤٥٠.

[606] ابن تغري، "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة"، ص٦٧٦.

[607] مقدمة حلية الأبدال، مطبوع ضمن رسائل ابن العربي، طبعة حيدرآباد، ١٩٤٨.

وفي هذا الكتاب يتكلم الشيخ محيي الدين رضي الله عنه عن الأربعة الأركان التي هي عماد الطريق وهي الجوع والسهر والصمت والعزلة. ويذكر قصة عبد المجيد ابن سلمة التي ذكرناها في الفصل الثاني، حيث التقى عبد المجيد بشخص روحاني اسمه معاذ بن الأشرس فسأله عبد المجيد: يا أخي بماذا يكون الأبدال أبدالاً؟ فقال له: بالأربعة التي ذكرها أبو طالب في القوت،[608] وسماها له وهي الجوع والسهر والصمت والعزلة. وقد فصّل الشيخ محيي الدين هذه الأمور أيضاً في الباب الثالث والخمسين من الفتوحات المكية.

الطاعون يحل في الطائف (رجب-رمضان ٥٩٩/١٢٠٣)

ثم يضيف الشيخ محيي الدين في روايته لحادثة تساقط الشهب التي ذكرناها أعلاه أن الناس رأوا في تلك السنة عجائب كثيرة وحلّ الوباء بالطائف حتى ما بقي فيها ساكن: حلّ بهم من أوّل رجب إلى أوّل رمضان سنة تسعة وتسعين وخمسمائة، وكان الطاعون الذي نزل بهم إذا كانت علامته في أبدانهم ما يتجاوزون خمسة أيّام حتى يهلك، فمن جاز خمسة أيّام لم يهلك، وامتلأت مكة بأهل الطائف وبقيت ديارهم مفتّحة أبوابها وأقمشتهم ودوابهم في مراعيها. فيقول ابن العربي أنه كان الغريب في تلك المدة إذا مرّ بأرضهم فتناول شيئاً من طعامهم أو قماشهم أو دوابهم إذ لم يكن هناك حافظ يحفظه أصابه الطاعون من ساعته وإذا مرّ ولم يتناول شيئاً سلم، فحمى الله أموالهم في تلك المدة لمن بقي منهم ولمن ورثهم وتابوا وورّثوا البنات في تلك السنة وسكنت الفتن التي كانت بينهم، فلما نجّاهم الله من ذلك ورفعه عنهم واستمر لهم الأمان عادوا إلى ما كانوا عليه من الإدبار.[609] ولقد ذكر ابن فهد في "إتحاف الورى" قصة الطاعون هذه وذكر نفس الأسباب والعوارض التي ذكرها الشيخ محيي الدين.[610]

ولا نعلم إن كان ذلك حدث قبل أن يغادر الشيخ محيي الدين الطائف أم بعد ذلك حيث كان هناك في شهر جمادى الأولى كما ذكرنا أي قبل حلول الطاعون بشهر واحد، ولكن يبدو أنه كان قد غادرها لأنه يتحدث عن قدوم أهل الطائف إلى مكة في ذلك الوقت.

مشكاة الأنوار (مكة، ٣ جمادى الآخر ٥٩٩/١٢٠٣)

وفي مكة، كونه كان يدرس الحديث مع الشيخ أبي شجاع وغيره، كتب الشيخ محيي الدين كتاباً سماه "مشكاة الأنوار فيما روي عن الله من الأخبار" وجمع فيه بعض الأحاديث القدسية المروية عن جلال الله سبحانه وتعالى. وقد قسم الشيخ محيي الدين هذا الكتاب إلى ثلاثة أقسام يتضمن الأول أربعين حديثاً بسندٍ متّصل إلى النبي محمد صلّى الله عليه وسلّم، ويضم القسم الثاني أربعين حديثاً مرفوعاً إلى النبي محمد

---

[608] كتاب قوت القلوب

[609] الفتوحات المكية: ج٢ص٠٤٥.

[610] ابن فهد، "إتحاف الورى": ج٢ ص٥٦٩. انظر أيضاً تاريخ أمراء مكة المكرمة ، عارف عبد الغني، ص٤٦٥.

صلّى الله عليه وسلّم من غير ذكر الأسانيد. وأما القسم الأخير فيضم واحداً وعشرين حديثاً مرسلا منسوبة إلى الله تعالى من دون ذكر السند.

طُبع هذا الكتاب مرات عديدة ويوجد منه مخطوطات عديدة منتشرة في مكتبات العالم. وله أسماء أخرى كثيرة منها "حديث الأربعين" و"الأحاديث القدسية" و"الرياض الفردوسية".[611]

مبشرة في معرفة المسجد الحرام (مكة ١٢٠٣/٥٩٩)

يذكر الشيخ محيي الدين رضي الله عنه في كتاب المبشرات أنه رأى حين كان بمكة سنة تسع وتسعين وخمسمائة في النوم أبا بكر الصديق رضي الله عنه فسأله أين حدُّ المسجد الحرام الذي تكون الصلاة فيه بمائة ألف، هل هو الحرم كلّه أو هل هو المسجد المعروف وحده؟ فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: لا أقول هو الحرم كله ولا أقول هو المسجد وحده! ولكني أقول: كلُّ موضعٍ في الحرم توقع الصلاة فيه فهو مسجد وهو في الحرم، فهو من المسجد الحرام والصلاة فيه بمائة ألف، هكذا هو عندنا.

لبس الخرقة القادرية (مكة، ١٢٠٣/٥٩٩)

وفي مكة أيضاً لبس الشيخ محيي الدين الخرقة الصوفية مرّة أخرى، ولكن هذه المرة لم تكن خرقة الخضر وإنما الخرقة القادرية التي تُنسب إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني الذي توفي سنة ١١٦٥/٥٦١، بُعيد ولادة الشيخ محيي الدين رضي الله عنهما.

ففي مكة سنة ٥٩٩ لبس الشيخ محيي الدين الخرقة القادرية من صاحبه يونس بن يحيى الهاشمي (توفي ١٢١١/٦٠٨) وهو الذي أخذ عنه الشيخ محيي الدين عدداً كبيراً من الأحاديث والروايات التي ذكرها في كتبه وخاصة في محاضرة الأبرار. وقد ذكر الشيخ محيي الدين لبسه للخرقة القادرية في رسالة نسب الخرقة.[612]

لقاؤه بالقطب أحمد ابن هارون الرشيد (مكة ١٢٠٣/٥٩٩)

لقد رأينا من قبل في الفصل الثاني أن الشيخ محيي الدين كان عنده قوة رؤية الأرواح المتجسدة ومعرفتها وذلك من خلال ثلاث طرق ذكرها تلميذه صدر الدين القونوي.[613] ورأينا أيضاً كيف أنّ الشيخ محيي الدين التقى بأشخاص قد ماتوا منذ زمن بعيد، منهم مثلا أبو عبد الرحمن السلمي صاحب كتاب طبقات الأولياء كما ذكرنا أعلاه والمتوفى سنة ١٠٣٠/٤٢١. ومن ذلك يذكر الشيخ محيي الدين عدة مرات في الفتوحات المكية أنه التقى بالقطب بالسبتي أحمد ابن هارون الرشيد في مكة سنة ٥٩٩ أثناء الطواف حول

---

[611] مؤلفات ابن عربي: ص٥٦٠-٥٦٣.

[612] مخطوطة أسعد أفندي رقم ١٥٠٧ لكتاب نسب الخرقة، انظر في "البحث عن الكبريت الأحمر": ص ٢١٤.

[613] ابن العماد، "شذرات الذهب": ج٥ص١٩٦.

الكعبة المشرّفة، وكان يوم جمعة. وكان أحمد بن هارون الرشيد يُلقَّب بالسبتي لأنّه كان يعمل يوم السبت ويتفرّغ بقيّة الأيام للعبادة. فلذلك لُقّب السبتي وليس لأنه من مدينة سبتة في المغرب كما هو حال العديد من أصحاب الشيخ محيي الدين الذين يلقبون أيضاً بالسبتي كما رأينا في الفصل الثاني وكذلك سنرى أدناه.

فيقول مثلاً أنه كان يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة بمكة قد دخل الطواف فرأى رجلاً حسن الهيئة له هيبة ووقار وهو يطوف بالبيت أمامه. فصرف نظره إليه عسى أن يعرفه فما عرفه في المجاورين ولم يرَ عليه علامة قادمٍ من سفر لما كان عليه من الغضاضة والنضارة. ثم يقول إنه رآه يمرّ بين الرجلين المتلاصقين في الطواف ويعبر بينهما ولا يفصل بينهما ولا يشعران به! فصار يتتبع بأقدامه مواضع وطأة أقدامه ما يرفع قدماً إلا وضع قدمه في موضعها وهو مركّز ذهنه إليه وبصره معه حتى لا يفوته. فيقول الشيخ محيي الدين أنه أصبح هو نفسه كذلك يمرّ بالرجلين المتلاصقين اللذين يمرّ هو بينهما فيجوزهما في أثره كما يجوزهما ولا يفصل بينهما. فتعجب الشيخ من ذلك. ولما أكمل هذا الشخص أسبوعه (أي أشواطه السبعة) وأراد الخروج مسكه الشيخ محيي الدين وسلم عليه فردَّ عليه السلام وتبسّم له. والشيخ لا يصرف نظره عنه مخافة أن يفوته لأنه ما كان يشكّ فيه أنه روح تجسّد. ويعلم الشيخ الأكبر أن البصر يقيّده.[٦١٤]

فقال له الشيخ محيي الدين: إني أعلم أنك روح متجسّد! فقال: صدقت. فقال له الشيخ: فمن أنت يرحمك الله؟ فقال: أنا السبتي بن هارون الرشيد. فقال له الشيخ: أريد أن أسألك عن حالٍ كنت عليه في أيام حياتك في الدنيا. قال: قُل. فسأله ابن العربي: بلغني أنك ما سُمّيت السبتي إلا لكونك كنت تحترف كلّ سبتٍ بقدر ما تأكله في بقيّة الأسبوع. فقال: الذي بلغك صحيح، كذلك كان الأمر. فقال الشيخ: فلم خصصت يوم السبت دون غيره من الأيام أيام الأسبوع؟ فقال: نِعم ما سألت. ثم قال في الردّ: بلغني أن الله ابتدأ خلق العالم يوم الأحد وفرغ منه يوم الجمعة فلمّا كان يوم السبت استلقى ووضع إحدى رجليه على الأخرى وقال أنا الملك. هذا بلغني في الأخبار وأنا في الحياة الدنيا. فقلت والله لأعملنّ على هذا؛ فتفرّغت لعبادة الله من يوم الأحد إلى آخر الستة أيام لا أشتغل بشيء إلا بعبادته تعالى وأقول أنه تعالى كما اعتنى بنا في هذه الأيام الستة فأنا أتفرّغ إلى عبادته فيها ولا أمزجها بشغل نفسي. فإذا كان يوم السبت أتفرّغ لنفسي ما تحصل لها ما يَقوتها في باقي الأسبوع، كما روينا من إلقاء إحدى رجليه على الأخرى وقوله أنا الملك ... الحديث، وفتح الله لي في ذلك. فقال له الشيخ محيي الدين: من كان قطب الزمان في وقتك؟ فقال: أنا ولا فخر. فقال له الشيخ: كذلك وقع لي التعريف. قال: صدقك من عرّفك. ثم قال له عن أمرك (يريد المفارقة). فقال له الشيخ محيي الدين: ذلك إليك. فسلّم عليه سلام محبٍّ وانصرف.

ثم يضيف الشيخ محيي الدين أنه كان بعض أصحابه والجماعة في انتظاره لكونهم كانوا يدرسون معه إحياء علوم الدين للغزالي رحمه الله. فلما فرغ من ركعتي الطواف جاء إليهم. فقال له بعضهم وهو نبيل

---

[٦١٤] تظهر الأرواح اللطيفة كالجن والملائكة بشكل متجسّد في صور خيالية تتحول بسرعة مع تحول الخيال. فمن رأى روحاً متجسداً وأراد أن يقيّده فيجب عليه أن يثبّت خياله عليه لأنه ليس له جسم طبيعي ثابت إنما هو صورة في خياله. فإذا تحوّل خياله تحوّلت هذه الصورة ومتى ثبت ثبتت. فلذلك نرى هنا أن الشيخ الأكبر كان يحاول أن لا يصرف نظره عن هذه الصورة حتى لا يتحول خياله عنها.

بن خزر بن خزرون السبتي (من أهل سبتة) رأيناك تكلّم رجلاً غريباً حسن الوجه وسيماً لا نعرفه في المجاورين من كان ومتى جاء؟ فيقول الشيخ محيي الدين أنه سكتَ ولم يخبرهم بشيء من شأنه إلا بعض إخوانه فإنه أخبرهم بقصته فتعجبوا لذلك."[615]

وفي مكان آخر في الباب الثالث والسبعين من الفتوحات المكية يقول الشيخ محيي الدين أثناء ذكره لرجال العدد الذين تكلمنا عليهم من قبل أن منهم رضي الله عنهم ستة في كلّ زمان لا يزيدون ولا ينقصون وكان منهم السبتي ابن هارون الرشيد الذي تجسّد له روحه في الطواف حساً كما تجسّد جبريل في صورة أعرابي.[616] ثم يقول ابن العربي أن هؤلاء الرجال الستة هم رجال الأيام الستة التي خلق الله فيها العالم ولهم سلطان على الجهات الستّ التي ظهرت بوجود الإنسان. وكان منهم أيضاً رجلٌ من أهل أرزن الروم كان الشيخ محيي الدين رضي الله عنه يعرفه واجتمع به في دمشق وفي سيواس وفي مالطة وفي قيصرية وكان له والدة كان براً بها كثيرا."[617]

وحدة الوجود والخلق في ستة أيام

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الشيخ محيي الدين ابن العربي له رؤية فريدة لم يتطرّق لها أحدٌ قبله أو بعده من العلماء المسلمين وغيرهم من الفلاسفة والعلماء، وذلك بخصوص خلق العالم في ستة أيام كما ذكر الله تعالى في القرآن الكريم وفي التوراة وكما ورد في العديد من الأحاديث النبويّة الشريفة، مثل قوله تعالى في سورة الحديد: "هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ...﴿٤﴾" وقال أيضاً في سورة ق: "وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾". فأغلب العلماء والمفسّرين يؤوّلون ذلك بطرقٍ مختلفةٍ وذلك لعدم إمكانيّة تصوّر استغراق الله تعالى لفترة زمنيّة حتى يتمّ الخلق وكذلك كون الأيام لم تكن معروفة قبل الخلق أصلا، كما يتخيّل الجميع.

والحقيقة أن رؤية ابن العربي تخرج من كلّ هذه التناقضات فتعطي تفسيراً علمياً جميلاً وبديعاً من غير أن يتناقض مع صفات التنزيه الإلهيّة. ولقد أوضحنا هذه الرؤية في بحث الدكتوراه عن مفهوم الزمن عند الشيخ محيي الدين وأقوم الآن بإعادة صياغته باللغة العربية وسأعدّه للنشر قريبا بإذن الله تعالى. ولكن لا بأس أن أختصر هذه الرؤية الغريبة والبديعة للخلق هنا كونَ هذا الكتاب يتكلّم عن حياة الشيخ محيي الدين ومذهبه، لأنّ هذه الرؤية هي في النهاية أساس الكثير من الأفكار الغامضة التي جاء بها الشيخ محيي الدين مثل وحدة الوجود وغيرها، والتي انتقد كثيرا بسببها كما سنرى في الفصل السابع.

فيقول الشيخ محيي الدين أن الله تعالى يعيد خلق العالَم بشكل مستمرّ في ستة أيام ثم يستوي على

---

[615] الفتوحات المكية: ج٤ص١٢، وكذلك: ج١ص٦٣٨، ج٣ص٦، ج٣ص١٤، ج٤ص١١-١٢.

[616] الحديث عن أبي موسى قال: أتى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم جبريل في صورة أعرابي... الحديث، وفيه يسأله عن الإيمان والإسلام والإحسان. انظر كنز العمال: رقم ١٣٦٤.

[617] الفتوحات المكية: ج٣ص١٥.

العرش، ولكننا لا نشهد العالَم أثناء الخلق وإنما فقط نشهده مخلوقاً أي نشهد منه حال استواء الله تعالى على العرش وهو يوم السبت. فكل حياتنا هي في الحقيقة يوم سبت وهو الزمن الذي يمرّ علينا، وهو يوم الأبد. أمّا الأيام الستة الأخرى فهي متوالجة في هذا اليوم بحيث تتكرّر في كلّ لحظة حيث أن الله تعالى يخلق بها العالم من حيث المكان الثلاثي الأبعاد أو السداسي الجهات، في كل يوم جهة؛ لأن اليوم في اللغة العربية يحمل معنى الجهة. ولقد قال الله تعالى في سورة الكهف: "مَآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾"، وقال أيضاً في سورة ق: "أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾". ففي كلّ لحظة يخلق الله تعالى العالم في ستة أيام ثم يستوي على العرش من غير تراخٍ زماني ولا انتقالٍ مكاني، بل هو سبحانه وتعالى يخلق بذلك المكان والزمان في هذا الأسبوع الأصلي الذي هو في الحقيقة لحظة واحدة من حياتنا؛ فالأيام الستة الأولى من يوم الأحد إلى يوم الجمعة هي لخلق المكان، وفي يوم السبت يظهر العالم فيكون لحظة في الزمان، ومع توالي الخلق تتوالى اللحظات التي هي في الحقيقة أيام وإنما نحن نشهدها لحظات لأننا نعيش في نقطة من العالم، فهي بالنسبة للعالم يوم وبالنسبة لنا لحظة. فالآن مثلاً هناك يوم كامل في كلّ أنحاء العالم: صباح في مكان ومساء في مكان وظهر في مكان وعصر في مكان.

وهكذا نجد أنّه ولأوّل مرّة في التاريخ يكون هناك معنى فيزيائياً للأسبوع فهو واحدة الزمكان (أي الزمان والمكان) كما وحّدت بينهما نظرية النسبيّة من غير فهم طبيعتهما وكيفية ارتباطهما. ويفسّر الشيخ محيي الدين رضي الله عنه سبب كون الأيام سبعة وأصلها وأصل الزمان والمكان، ولكن ليس هنا موضع الحديث عن ذلك فنتركه إلى الكتاب القادم إن شاء الله تعالى.

ولكن من أهم النتائج الفلسفية، سوى النتائج العلمية التي فصّلناها في الأطروحة، لهذه الرؤية التي اختصرناها اختصاراً شديداً هنا هي أن الخلق يتمّ بشكل متسلسل رغم أننا نراه أمامنا خلقاً جاهزاً ومستمراً، بل هو في الحقيقة خلق جديد يتجدّد مع الآنات. فالله تعالى يخلق أجزاء العالم بشكل متسلسل ومستمرّ فهو في كلّ آن واحد من الزمن يخلق جزءاً واحداً من العالم ونحن لا نشهد ذلك، بل لا نشهد سوى الخلق بعد أن يكتمل. فلو قدّرنا أنّنا استطعنا أن نوقف الزمن فلن نرى من العالم سوى نقطة واحدة هي الصورة الجوهرية التي يخلقها الله تعالى في كلّ يوم (أي لحظة)، والعالم هو مجموع هذه الصور التي يخلقها الله تعالى ويعيد خلقها مع مرور الزمن. وهكذا نجد أن حقيقة العالم واحدة ومظهره متكثّر والرابط بين الوحدة والكثرة هو الزمن؛ وهذا هو معنى وحدة الوجود وحقيقتها باختصار شديد. ولقد عبّر الله تعالى عن ذلك أوضح تعبير في القرآن الكريم في سورة الرحمن حين قال عزّ وجلّ: "كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾" فلو كان شؤونا لكان هناك تعدّد ولكنّه شأن واحد، لأن الله واحد، ولا يصدر عن الواحد إلا واحد. والكثرة المشهودة في الواقع ما هي إلا تكرار الظهور لهذا الجوهر الواحد الذي خلقه الله تعالى وهو في الحقيقة القلم وهو روح نبيّنا محمّد صلى الله عليه وسلّم الذي يكتب ما يريد الله تعالى أن يخلقه في العالم، ولذلك فإن العالَم هو في الحقيقة كتاب

مسطور (سورة الطور آية ٢)، حقيقة وليس مجازا.

وإذا صعب علينا فهم ذلك لنأخذ مثال شاشة التلفزيون أو الكومبيوتر، فنحن عندما نشاهد الصور المختلفة عليها نتخيّل أجساما وحركات، وما هي في الحقيقة سوى حزمة إلكترونية واحد ترسم نقطة واحدة في أسفل الشاشة ثم تنتقل فتمسح الشاشة وفي كلّ مكان تظهر بصور مختلفة ذات شدّة إضاءة ولون مختلف فكلّما انتهت من مسح الشاشة عادت وشكّلتها من جديد ولكن بصور مختلفة قليلا، وهكذا نتخيّل وجود الحركة، وكلّ ذلك يتمّ بواسطة شعاع إلكتروني واحد يقوم بمسح الشاشة يميناً وشمالاً وأعلى وأسفل حتى يتمّها ثم يعيد مسحها من جديد. فلو أننا كنّا مخلوقات على هذه الشاشة لقال لنا الخالق أنه يخلق عالمنا في أربعة أيّام ثم يستوي على العرش، ولكننّا كوننا الآن في عالم ثلاثي الأبعاد فيخلقه الله تعالى في ستّة أيّام ثم يستوي على العرش.

لقد اختصرنا هذا العرض المكثّف من كتب الشيخ محيي الدين الكثيرة، ولذلك لم نضع هنا أي مرجع لأنّ هذه الآراء لا ترد أبداً في مكان واحد بل منثورة لأنها في الحقيقة هي من عقيدة الخواص كما ذكر الشيخ محيي الدين أنّه نثر هذه العقيدة في كتبه حتى لا يساء فهمها. ولكن يريد المراجع والمزيد عن هذه التفاصيل التي ذكرناها فليراجع الأطروحة. وفي الحقيقة فقد كرّس الشيخ محي كتبه جميعها لذلك، وكذلك فإنّ حياته نفسها كانت انعكاسا لهذه الرؤية كما ذكرنا في المقدّمة. ومن أجل ذلك اخترنا عنوان شمس المغرب لهذا الكتاب وقسمناه إلى سبعة فصول، كما كان الخلق في سبعة أيام، كل واحد منها يرمز إلى مرحلة من اليوم والخلق.

الكعبة المشرّفة والحجر الأسود

ذكرنا أن الله سبحانه وتعالى أمرَ نبيه إبراهيم ونبيه إسماعيل عليهما السلام فرفعا القواعد من البيت الحرام، الذي هو الكعبة المشرّفة، ولكن بعض الروايات تفيد أن أوّل من بناها على الحقيقة هم الملائكة ثم آدم عليه السلام ثم أعيد بناؤها بعد ذلك عدداً من المرّات، ولمّا بنتها قريش قبل بعثة النبي محمد صلّى الله عليه وسلّم اختلفوا فيمن يضع الحجر الأسود حتى كاد ينشب بينهم قتال بالسيوف، فقالوا: اجعلوا بينكم أوّل رجل يدخل من الباب، فدخل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؛ فقالوا : هذا الأمين، فأمرَ النبيّ بثوبٍ فبسطه، ثم وضع الحجر فيه، ثم قال: ليأخذ من كلّ قبيلة رجل من ناحية الثوب، ثم رفعوه، ثم أخذه النبي صلّى الله عليه وسلّم فوضعه، وكان هذا قبل بعثته بخمس سنين.[٦١٨]

والحجر الأسود يقع في الركن الشرقي من الكعبة المشرّفة وهو يمين الله في الأرض يصافح بها عباده المؤمنين،[٦١٩] وهو حجرٌ ثقيل بيضاوي الشكل أسود اللون مائل إلى الحمرة، وقد ورد في الحديث أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال إن الحجر الأسود نزل من الجنّة أشدّ بياضاً من اللبن فسوّدته خطايا بني

---

[٦١٨] ابن سعد، "الطبقات الكبرى": ج١ص١٤٦.

[٦١٩] انظر في كنز العمال: رقم ٣٤٧٢٩، ٣٤٧٣٠، ٣٤٧٤٤. والحديث يوجد بأسانيد ومتون عديدة، ذكرناها أول هذا الفصل.

آدم.[620]

ومن جهة أخرى يقال إن البقعة المباركة التي بُنيت عليها الكعبة هي مركز الأرض، ومنها دُحيَت الأرض. وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس قال: لمّا أراد الله أن يخلق الخلق أرسل الريح فسفت الماء حتى أبدَت عن حشفة، وهي التي تحت الكعبة، ثم مدّ الأرض حتى بلغت ما شاء الله من الطول والعرض، وكانت هكذا تميد، وقال بيده وهكذا وهكذا، فجعل الله الجبال رواسي أوتادًا، فكان أبو قبيس من أول جبل وضع في الأرض.[621] ولقد رأينا أعلاه كيف أن بعض الدراسات الحديثة أثبتت أن مكّة المكرّمة هي في مركز الأرض الجغرافي والمغناطيسي.

وكذلك لقد رأينا من قبل أن الشيخ محيي الدين يعتبر في تصنيفه للأولياء في الباب الثالث والسبعين من الفتوحات المكية أنّ الأوتاد الأربعة هم الجبال وأنّ لهم الأركان الأربعة من الكعبة المشرّفة ثم يضيف أنّ ركن الحجر الأسود هو له بفضل الله تعالى.[622] وكذلك يربط الشيخ محيي الدين أبعاد الكعبة بأمور روحانية فيقول إن ارتفاع البيت سبعة وعشرون ذراعاً وذراع التحجير الأعلى فهو ثمانية وعشرون ذراعاً، كل ذراع مقدار لأمرٍ مّا إلهي يعرفه أهل الكشف: فهي هذه المقادير نظير منازل القلب (والذي هو مثل القمر) التي تقطعها كواكب الإيمان السيّارة لإظهار حوادث تجري في النفس المضاهي لمنازل القمر والكواكب السيارة لإظهار الحوادث في العالم العنصري سواءً حرفاً حرفاً ومعنىً معنىً.[623]

وخلال وجوده في مكة وطوافه حول الكعبة كان للشيخ محيي الدين أحوال كثيرة مع الكعبة المشرّفة وماءِ زمزم وكذلك التقى هناك مع أرواح من الملائكة وبعض الناس المعروفين الذين ماتوا منذ زمن مثل أحمد ابن هارون الرشيد وكذلك "الفتى الفائت" وهو الروح الذي أخذ منه جميع ما سطره في الفتوحات المكية.

معنى الطواف حول الكعبة المشرّفة

ويربط الشيخ محيي الدين ابن العربي رضي الله عنه بين خلق العالم في أسبوع كما اختصرناه أعلاه وبين الطواف سبعة أشواط حول الكعبة المشرّفة، حيث أن الصورة الجوهريّة التي ذكرنا أن الله تعالى

---

[620] الحديث عن ابن عباس أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال إن الحجر الأسود كان أشد بياضا من الثلج حتى سودته خطايا بني آدم. (كنز العمال: رقم ٣٤٧٣٣) وفي حديث آخر: "الحجر الأسود من الجنة، وكان أشد بياضا من الثلج حتى سودته خطايا أهل الشرك" (كنز العمال: رقم ٣٤٧٣٦)، وفي حديث آخر: "نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضا من اللبن فسودته خطايا بني آدم". (أخرجه الترمذي كتاب الحج باب ما جاء في فضل الحجر الأسود، رقم ٨٧٧، وقال حسن صحيح، انظر كنز العمال: رقم ٣٤٧٣٧).

[621] الحديث عن ابن عباس أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال إن أول بقعة وضعت من الأرض موضع البيت ثم مدت منها الأرض، وإن أول جبل وضعه الله تعالى على وجه الأرض أبو قبيس ثم مدت منه الجبال. انظر في كنز العمال: رقم ٣٤٦٣٩، وهو حديث صحيح ذكره الإمام محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين (المجلد الثاني، كتاب التفسير، تفسير سورة عم يتساءلون، رقم ٣٨٨٩-١٠٢٧).

[622] الفتوحات المكية: ج١ص١٦٠، وكذلك: ج٢ص٥.

[623] الفتوحات المكية: ج١ص٦٦٦.

يخلقها في ستّة أيّام ثم يعيد خلقها في العالم بصور مختلفة تمثّل الكعبة المشرّفة التي هي بمثابة اللبنة بالنسبة لبناء العالم. فلمّا كان العالم في ثلاثة جهات كانت الشكل الأساسي به هو المكعب الذي له أربع قوائم هم مثل حملة العرش وثمانية زوايا هم مثل الأسماء الإلهية الثمانية وهي الذات مع السبعة صفات (الحياة، العلم، الإرادة، القدرة، السمع، البصر، الكلام) وهي الصفات التي تلزم وتكفي حتى يكون الله تعالى إلهاً خالقا لهذا العالم.

فالكعبة المشرّفة إذاً هي بمثابة الجوهر الفرد الذي خلق الله منه العالم، ولكنّ هذا الجوهر الذي هو أصل العالم هو نفسه مخلوق ومركّب؛ وبالتالي فإنّ وحدة الوجود على هذا المستوى الذي وصفناه أعلاه لا تعني أبداً وحدة الخلق بالخالق سبحانه وتعالى، كما يعتقد من لا يفهمها من المنتقدين بغير علم. بل هي وحدة الخلق والعالم من حيث الأصل وليس من حيث الفصل: فهي وحدة لها مظاهر كثيرة. ولكن من جهة أخرى وعلى مستوى أعلى فإنّ الخلق كلّه لا يمكن أن يكون له وجود مستقلّ عن الله تعالى، أي لا يمكن أن يكون الخلق قائما بنفسه بل هو قائم بالله تعالى. ولذلك فإنّ هذا الجوهر الفرد الذي هو مثل الكعبة المشرّفة له أجزاء يقوم منها وهذه الأجزاء هي أيضاً ليست متكثّرة بل هي واحدة بالأصل كثيرة بالمظهر، مثل قوائم الكعبة المشرّفة وبنيانها هي عبارة عن تكرار اللبنات من الحجر التي أساسها الحجر الأسود الذي هو يمين الله في الأرض كما رأينا وكما وردت في ذلك الأحاديث الكثيرة. وبشكل مشبه يقول ابن العربي أن الجوهر الفرد رغم أنه لا يجزّأ إلا أنه في نفسه مؤلّف من شيء آخر يسمّيه العنصر الأعظم الذي هو أكمل شيء في الوجود. فالعنصر الأعظم والجوهر الفرد والعالم مثل الحجر الأسود والكعبة والعالم أو مثل الذرّة واللبنة والبناء؛ فأيّ بناء يتألّف من وحدات أساسية هي اللبنات ولكنّ اللبنة رغم أنها واحدة فهي تتألّف من ذرّات هي التي كوّنتها. فالبناء ما هو غير اللبنات، واللبنات ما هي غير الذرّات، وهكذا.

خلاصة وحدة الوجود وإشكالياتها

والخلاصة فإنّ العالم كثيرٌ في الظاهر واحد في الباطن وأصله الجوهر الفرد، والجوهر الفرد هو واحدٌ مركّبٌ في الظاهر وأحدٌ (أي لا يتجزّأ) في الباطن لأنّه يتشكّل من العنصر الأعظم الذي هو واحدٌ وأحدٌ، وهذا العنصر الأعظم هو مثل الحجر الأسود على الصورة الإلهيّة في العالم والتي منها يتشكّل كلّ شيء في الوجود. وهذا هو معنى قول الله تعالى في بداية سورة الحديد لمن فهم: "هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝" ثم أتبعها بقوله: "هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝".

وبالتالي فإذا حقّقنا فإنّ ابن العربي يقول بوحدة الوجود ويقول بأحديّة الوجود رغم أنّه لم يصرّح بهذا التعبير حتى لا يُساء فهمه، ولكنّه لا يعارض بذلك القرآن الكريم ولا العقيدة الإسلامية بل يؤازرها. فبعكس

ما يُفهم من ذلك أكثر المتعرّضين لوحدة الوجود، إن ابن العربي لا يقول أبداً أن الخالق والخلق شيءٌ واحد سبحان الله وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

وقد اختصر الله تعالى وحدة الوجود في القرآن الكريم في العديد من الآيات لمن تفكّر، مثل قوله تعالى: "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ"؛ فمن يتفكّر في معنى البسملة على ضوء ما ذكرناه أعلاه لا يجد سوى وحدة الوجود. وكذلك قول الله تعالى في بداية أوّل سورة من القرآن الكريم وهي الفاتحة التي نقرؤها في كلّ ركعة من كلّ صلاة، فيقول الله تعالى بعد بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ: "الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ"، أي أنّ الحمد له سبحانه وليس لنا! فنحن عندما نقول الحمد لله نقصد بها "نحمدُ الله" وهذا خطأ، بل الحمد لله أي هو الحامد وهو المحمود، فهو الحامد نفسه بنفسه، ففي الحقيقة لا وجود لغيره، والعالم ليس سوى صور ومظاهر. ولذلك لمّا فصّلها الله تعالى في آيات أخرى كثيرة من القرآن الكريم كما يقول في سورة الإسراء مثلا: "تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾"، فقال إنه كان (أي يكون، فهو دائماً) حليماً علينا لأنّنا لا نفقه تسبيح الأشياء بحمده، بل نحسب أننا نحن والأشياء الذين يسبّحون فنقول الحمد لله بمعنى نحمد الله، ولكن الحقيقة أنّ الله هو الحامد لا غيره لأنّه هو الظاهر وهو الباطن، ثم قال الله تعالى بعد ذلك "غفورا" أي يغفر أي يغطي ويستر هذه الأفعال التي نفعلها فننسبها لنا في حين أن الله خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (الصافات، آية ٩٦).

طبعاً هنا تنشأ إشكاليات كثيرة هي التي استوقفت الكثيرين وهي التي منعت ابن العربي من التصريح بهذا الكلام حتى لا يُساء فهمه. فمثلاً إذا كان لا وجود حقيقي إلا لله تعالى ولا فعل حقيقي إلا لله تعالى فكيف يكون الحساب ولماذا هناك ثواب وعقاب، هل نحن مخيّرون أم مسيّرون؟ وهذا موضوع يصعب الخوض فيه، ولكننا نقول هنا باختصار أن المشكلة تنشأ من المزج والخلط بين المستويات الوجودية المختلفة لأنّنا كثيراً ما لا ندقّق في الكلام الذي نقرؤه فلا نفهمه بتفاصيله. فنحن ما قلنا وابن العربي لم يقل أن الوجود ليس متعدّدا وأنّه لا وجود إلا لله تعالى على الإطلاق، بل قلنا لا وجود حقيقي إلا لله تعالى: فعلى المستوى الدنيوي الذي نعيش فيه يوجد أنا وأنت وهو وجميع الضمائر وهي التي تُثاب أو تُعاقب على ما تقوم به. وأما على المستوى الغيبي الباطن المطلق فليس هناك إلا هو؛ فهو الله أحد، وهو الله الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وَهُوَ اللهُ (سواء) فِي السَّمَاوَاتِ وَ(سواء)فِي الأَرْضِ، وفي كلّ مكان، وَهُوَ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الحَمْدُ (وليس لنا، فهو الحامد وهو المحمود بكلّ لسان) فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ.

لبنتي الفضة والذهب في حائط الكعبة (مكة، ٥٩٩/١٢٠٣)

لقد رأينا من قبل كيف توالت الرؤى والمبشّرات على الشيخ محي أنه هو خاتم الولاية المحمدية، ولكنه رضي الله عنه ما كان يفرض لنفسه هذا المنصب العظيم قبل أن يتأكد له ذلك. فمنذ أن رأى الرسل والأنبياء في قرطبة سنة ٥٨٦ والمبشرات تتوالى عليه، في تونس وفي فاس، وفي مكة أيضاً حيث رأى مناما

أوّله على أنه سيكون هو خاتم الأولياء.

يقول الشيخ محيي الدين أنه رأى رؤيا لنفسه أخذها بشرى من الله لأنها مطابقة لحديث نبويّ عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حين ضرب لنا مثله في الأنبياء عليهم السلام فقال صلّى الله عليه وسلّم: مثلي في الأنبياء كمثل رجل بنى حائطا فأكمله إلا لبنة واحدة فكنت أنا تلك اللبنة، فلا رسول بعدي ولا نبيّ."[624] فشبه النبوةّ بالحائط والأنبياء باللِّبن التي قام بها هذا الحائط، وهو تشبيه في غاية الحسن فإنّ مسمى الحائط هنا المشار إليه لم يصح ظهوره إلا باللِّبن، فكان صلّى الله عليه وسلّم خاتم النبيين. ثم يروي الشيخ الأكبر الرؤيا فيقول:

> كنت بمكة سنة تسع وتسعين وخمسمائة أرى فيما يرى النائم الكعبة مبنية بلبن فضة وذهب: لبنة فضة ولبنة ذهب، وقد كملت بالبناء وما بقي فيها شيء وأنا أنظر إليها وإلى حسنها فالتفتُّ إلى الوجه الذي بين الركن اليماني والشامي هو إلى الركن الشامي أقرب، فوجدت موضع لبنتين لبنة فضة ولبنة ذهب ينقص من الحائط في الصفّين في الصفّ الأعلى ينقص لبنة ذهب وفي الصف الذي يليه ينقص لبنة فضة فرأيت نفسي قد انطبعت في موضع تلك اللبنتين فكنت أنا عين تينك اللبنتين، وكمل الحائط ولم يبق في الكعبة شيء ينقص وأنا واقف أنظر واعلم أني واقف واعلم أني عين تينك اللبنتين لا أشك في ذلك وأنهما عين ذاتي واستيقظت فشكرت الله تعالى، وقلت متأوّلا أني في الأتباع في صنفي كرسول الله صلّى الله عليه وسلّم في الأنبياء عليهم السلام، وعسى أن أكون ممن ختم الله الولاية بي وما ذلك على الله بعزيز، وذكرت حديث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في ضربه المثل بالحائط وأنه كان تلك اللبنة.

ثم يقول ابن العربي أنه قصّ تلك الرؤيا على بعض العلماء بمكة من أهل توزر فأخبره في تأويلها بمثل ما وقع له، مع أنه كعادته لم يسمّ له الرائي."[625]

خاتم الولاية المحمدية (مكة، ١٢٠٣/٥٩٩)

فإذاً قد تمّت البشرى في مكة المكرّمة بهذا المقام الرفيع بين الأولياء، ولكن ما هو المعنى الدقيق لمقام خاتم الولاية المحمدية؟ يقول الشيخ محيي الدين أن الختم ختمان: ختم للولاية عامّة وهو عيسى عليه

---

[624] أخرج مسلم عن أبي هُرَيْرَةَ أنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قال: "مَثَلِي وَمَثَلُ الأَنْبِيَاءِ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بُنْيَاناً فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، فَجَعَلَ النَّاسُ يُطِيفُونَ بِهِ، يَقُولُونَ: مَا رَأَيْنَا بُنْيَاناً أَحْسَنَ مِنْ هَذَا، إِلاَّ هَذِهِ اللَّبِنَةَ. فَكُنْتُ أَنَا تِلْكَ اللَّبِنَةَ". (صحيح مسلم: الجزء الرابع، ٢٢٨٦). وفي الحديث عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال: "إن الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدي ولا نبي ولكن المبشرات رؤيا الرجل المسلم، وهي جزء من أجزاء النبوة". أخرجه الترمذي في كتاب الرؤيا، باب ذهبت النبوة وبقيت المبشرات، رقم ٢٢٧٣، وقال حسن صحيح، انظر كنز العمال: رقم ٤١٤٠٧.

[625] الفتوحات المكية: ج٤ص١٢٣، وكذلك: ج١ص٣١٩.

السلام عندما سينزل في آخر الزمان في محروسة دمشق ويحكم بدين الإسلام، وختم خاص للولاية المحمدية الذي هو الشيخ محيي الدين ابن العربي رضي الله عنه. ولكي نفهم معنى خاتم الولاية المحمدية نعود إلى مفهوم الوراثة النبوية الذي تكلمنا عنه في الفصل الثاني، حيث يقول الشيخ محيي الدين أن كل وليّ لا بدّ أن يكون وارثاً لنبيّ ما من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وذلك رغم أنه يدين بدين الإسلام، ولكن الشريعة الإسلامية جاءت مكمّلة للشرائع التي كانت قبلها، فمنها ما هو موجود في شريعة من هذه الشرائع السابقة، ومنها ما هو مختص بها. فمَن كان من الأولياء مختصاً بعلم ما من الشريعة الإسلامية ممّا كان موجودا من قبل في شريعة سابقة، فهو وارثٌ لنبيّ تلك الشريعة؛ فيقال فيه وارثٌ عيسويّ ووارثٌ موسويّ وهكذا. وأما الوارث المحمدي فهو الذي ورث علوم الشريعة الإسلامية كاملة بما فيها الشرائع الأخرى المتضمنة فيها.

وقد رأينا من قبل في الفصل الثاني أن الشيخ أبا العباس العريبي كان عيسويّ المقام، وكان الشيخ محيي الدين في بدايته عيسويّ المقام أيضاً مثل شيخه، ثم ارتقى إلى الوراثة المحمدية الكاملة، وربما حصل ذلك مع هذه الرؤيا في مكّة المكرّمة. وبالإضافة إلى ذلك فإنّه كان خاتم هذا الصنف من الأولياء المحمّديين، وهذا مقام رفيع لا يناله إلا الأفراد من الرجال، وقد بُشّر به الشيخ محيي الدين مرات عديدة حتى ناله فعليا في مكة المكرمة في هذه السنة، سنة ٥٩٩، على ما يبدو.

في الحقيقة لقد بُشّر الشيخ محيي الدين أنه سينال مقام الختم منذ بداية دخوله الطريق سنة ٥٨٠، وذلك جليّ في قوله:

> ... فدخلنا في كل ما ذكرناه في هذه الإمدادات الإلهية ذوقاً مع عامّة أهل الله وزدنا عليهم باسم إلهي وهو "الآخر" أخذنا منه الرياسة وروح الله الذي يناله المقربون من قوله تعالى (فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾)، ونلت هذه المقامات في دخولي هذه الطريقة سنة ثمانين وخمسمائة في مدة يسيرة في حضرة النكاح مع أهل الصفاء وفي حضرة الشكوك مع أهل القهر والغلبة من أجل الاختلال في الشروط وهي المواثيق التي أخذت على العالم بالله، فمنّا من غدر ومنّا من وفّى، فكنّا ممّن وفّى بحمد الله.[626]

فكونه زاد على عامّة أهل الله تعالى وأخذ الرياسة عليهم من الاسم الإلهي "الآخر" فيه تصريح على أنه سينال مرتبة الختم، ولا بدّ أنه رضي الله تعالى عنه قد عرف هذه المرتبة منذ ذلك الوقت، ولكنه آثر عدم إظهارها وإعلانها حتى ينالها بالفعل خوفا من المكر الإلهي. وفي الحقيقة نراه حتى بعد أن نال هذه المرتبة العظيمة يطلب من الله تعالى أن يخفيها عليه ولا يظهره بها أمام الناس، وهذا ما حصل على أكثر المستويات ولكن كان لا بدّ من إظهارها وإشهارها لأنها أمرٌ كونيّ. فيطلب ابن العربي من الله تعالى في الديوان الكبير

[626] الفتوحات المكية: ج٢ص٤٢٥.

في القصيدة الطويلة التي ذكرنا طرفا منها في الفصل الثالث أن يجعله مثل "ابن جعدون الحناوي" الذي ذكرناه في الفصل الثالث أيضاً، وكان من الأوتاد، وكان ينخل الحنّا، وكان رضي الله عنه سأل الله تعالى أن يُسقط حرمته من قلوب العالم فكان إذا غاب لم يفتقد وإذا حضر لم يُستشر وإذا جاء لا يوسَع له وإذا تكلم بين قوم ضُرِب وسخَف.[627] وابن جعدون، كما ذكرنا، جاء إلى الشيخ محيي الدين أول قدومه إلى فاس وطلب منه أن يشرح له بعض الفقرات من كتاب "شرح المعرفة" للمحاسبي، ولم يكن يبدو عليه أنه من رجال الله، ولكن الشيخ محيي الدين خوطب بسرّه بأحواله ومن هو ومقامه وأنه من الأوتاد الأربعة وأن ابنه يرث مقامه، فقال له: عرفتك فأنت فلان، فأغلق كتابه وقام واقفاً وقال للشيخ ابن العربي: الستر الستر إني أحبك فأحببت أن أتعرف إليك، فقد تم المقصود.[628]

فيقول الشيخ محيي الدين في هذه القصيدة طالباً من الله الستر:

سألتك ربي أن تجود لعبدكم	بأن يكُ مستوراً إلى آخر الدهر
كمثل ابن جعدون وقد كان سيّداً	إماماً فلم يبرح من الله في ستر
سألتك ربي عصمة الستر إنّه	على سنّة الحنّاوي سنّتنا تجري
لقد عاينَت عيني رجالا تبرّزوا	خضارمة عليا وما عندهم سرّي[629]

فإذاً، ما حصل للشيخ محيي الدين هو أنه كان يبشر منذ بداياته بمقام الختم، ولكنه ما كان يريد إظهار ذلك وهو نفسه أيضاً لم يكن منه على حقيقة اليقين، بل مثل من يرى رؤيا يصدّقها ولكنّه ينتظر تأويلها، حتى تم له المقام بالفعل في مكة المكرّمة. ومن أجل ذلك نجد الشيخ محيي الدين يعطي صوراً مختلفة من قبل، كما ناقشناها في الفصل الثالث.

ما جرى بينه وبين الكعبة وزمزم (مكة ٦٠٠/١٢٠٣)

ومن ضمن الأمور الغريبة التي جرت بين ابن العربي وبين الكعبة حيث يذكر الشيخ محيي الدين أنها كانت تسأله الطواف بها رغبة منها بالاتصال بالمؤمن، وكان يسمع ذلك منها نطقا مسموعا بالأذن، وكذلك كان زمزم يسأله التضلّع[630] من مائه وكان يسمع ذلك، فكان يخاف على نفسه من الحجاب لعظيم شرفهما ومكانتهما عند الله تعالى فخاف أن يحجبه ذلك عمّا هو عليه من القرب الإلهيّ الذي يليق بذلك الموطن،

---

[627] روح القدس: ص٧٣.

[628] روح القدس: ص٧٢، وكذلك: الفتوحات المكية: ج٢ص٧، ج٣ص١٥ ، ٣٤.

[629] الديوان: ص٣١١.

[630] تضلّعَ اي امْتَلأ شِبَعاً أو رِيّاً حتى بَلَغَ الماءُ أضْلاعَه (القاموس المحيط: باب العين فصل الضاد)، وعن رسول الله صلى الله عليه وسلّم أنه قال:" آية ما بيننا وبين المنافقين أنهم لا يتضلعون من زمزم"، أخرجه ابن ماجه في كتاب المناسك، باب الشرب من زمزم، رقم ٣٠٦١، والحاكم في المستدرك على الصحيحين: ج١ص٤٧٢، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: إسناده صحيح ورجاله موثقون. انظر كنز العمال: حديث رقم ٣٤٧٨٢.

فخاطبهما مبيّنا فضل المؤمن عليهما رغم شرفهما وعلو مكانتهما،[٦٣] لأنهما مهما علا شأنهما فهما لا يزالان من الجمادات.

ولكن الشيخ محيي الدين رضي الله عنه يقول إنه نزل مرّة ليلاً في يوم باردٍ وفيه مطر خفيف ليطوف حول الكعبة ولم يكن أحد يطوف حولها إلا رجل واحد فنظر إليها فرآها فيما تخيّل له قد شمّرت أذيالها واستعدّت مرتفعة عن قواعدها تريد أن تدفعه عنها إذا وصل بالطواف إلى الركن الشامي وترمي به عن الطواف بها، ويقول إنها كانت تتوعّده بكلامٍ يسمعه بأذنه، فجزع جزعاً شديداً وأظهر الله له منها حرجاً وغيظاً بحيث لم يقدر على أن يبرح من موضعه ذلك وتستّر بالحجر ليقع الضرب عليه فجعله كالمجنّ الحائل بينه وبينها. ويقول الشيخ محيي الدين:

> وأسمعها والله وهي تقول لي تقدّم حتى ترى ما أصنع بك! كم تضع من قدري وترفع من قدر بني آدم وتفضّل العارفين عليّ! وعزة من له العزة لا تركتك تطوف بي!

فيقول إنه رجع مع نفسه وعلم أن الله يريد تأديبه، فشكر الله على ذلك وزال جزعه الذي كان يجده. ويحلف الشيخ الأكبر بالله أنه كان يُخيّل له أنها قد ارتفعت عن الأرض بقواعدها مشمّرة الأذيال كما يتشمّر الإنسان إذا أراد أن يثب من مكانه يجمع عليه ثيابه، وكانت في صورة جارية لم يرَ صورة أحسن منها ولا يتخيّل أحسن منها. ثم يقول إنه ارتجل أبياتاً في الحال يخاطبها بها ويستنزلها عن ذلك الحرج الذي عاينه منها فما زال يثني عليها في تلك الأبيات وهي تتسع وتنزل بقواعدها على مكانها وتُظهر السرور بما يُسمعها إلى أن عادت إلى حالها كما كانت وأمّنته وأشارت إليه بالطواف. فيقول الشيخ رضي الله عنه أنه حينئذ رمى بنفسه على المستجار وهو يضطرب من قوّة الحال إلى أن سرّي عنه وصالحها وأودعها شهادة التوحيد عند تقبيل الحجر. فيقول إنه نظر بعينيه فرأى الشهادة قد خرجت عند تلفظه بها في صورة سلك وانفتح في الحجر الأسود مثل الطاق حتى نظر إلى قعر طول الحجر فرآه نحو ذراع ورأى الشهادة قد صارت مثل الكبة واستقرت في قعر الحجر وانطبق الحجر عليها وانسدّ ذلك الطاق وهو ينظر إليه. فقال له الحجر الأسود هذه أمانة عندي أرفعها لك إلى يوم القيامة أشهد لك بها عند الله. فشكر الله ثم شكر الكعبة والحجر على ذلك.

وتجدر الإشارة هنا إلى تشابه هذا الوصف مع وصف الشيخ محيي الدين لمقابلته مع الروح الذي أخذ منه ما سطّره في الفتوحات المكية كما ذكرنا أعلاه، حيث قال له هذا الروح من ضمن ما قال: طُف على أثري، وانظر إليّ بنور قمري، حتى تأخذ من نشأتي ما تسطره في كتابك، وتمليه على كتّابك، وعرّفني ما أشهدك الحق في طوافك من اللطائف، مما لا يشهده كل طائف، حتى أعرف همّتك ومعناك، فأذكرك على ما

---

[٦٣] لقد ورد في الحديث عن النبي صلّى الله عليه وسلّم أنه قال: "ما أطيبك وأطيب ريحك ما أعظمك وأعظم حرمتك، يعني الكعبة، والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك ماله ودمه وإن يظن به إلا خيرا." رواه السيوطي في الجامع الصغير عن ابن عمر، رقم ٢٦١٤، ونحوه عند البيهقي عن ابن عباس، وكذلك عن ابن عمر بسند ضعيف.

علمت منك هناك:"[632] فقوله أنه سيذكره هناك هو معنى إيداع الشهادة في الحجر الأسود كما يفعل المسلمون في الحج. فهذا يعني أن هذا الروح هو في الحقيقة ذات الحجر الأسود خاصة وأننا وجدنا أن كلّ وتد من الأوتاد له ركن من أركان الكعبة وابن العربي له ركن الحجر الأسود. وكما رأينا أعلاه قبل قليل أن الحجر الأسود يقابل في العالم العنصر الأعظم الذي منه يتكوّن الجوهر الفرد، فيكون قول هذا الروح لابن العربي: طف على أثري، أي طف معي وأنا أشكّل هذه الكعبة أي الجوهر الفرد ومن ثمّ العالم بأثره الذي ما هو إلا صور هذا الجوهر الفرد. فمن يطوف حول الكعبة بهذه المثابة هو كمن يطوف مع العنصر الأعظم في تشكيل الجوهر الفرد ثم معه في تشكيل العالم حيث يكمله في سبعة أيام كما قلنا كما يكمل الطائف سبعة أشواط، فمن يطوف هكذا يكون يجري مع الوقت ولا يجري عليه الوقت. ولذلك فإن الصوفي العادي هو ابن وقته في حين أن الصوفي المتمكّن هو في الحقيقة أبو وقته، وهذا معنى ما نوّهنا عليه في المقدّمة أن ابن العربي هو صاحب الوقت وقطب الزمان. وذكرنا أيضاً في الفصل الثاني كيف أن ابن العربي أخذ العلم عن بعض الأنبياء فأعطاه موسى عليه السلام علم الكشف والإيضاح وعلم تقليب الليل والنهار فلمّا حصل ذلك عنده زال الليل وبقي النهار في اليوم كلّه فلم تغرب له شمس ولا طلعت،"[633] فكلّ هذا معناه أن ابن العربي قد تحلّل من قيود الزمان والمكان. وكما يقول ابن العربي في مواضع كثيرة فإن قطب الزمان له من الأركان ركن الحجر الأسود، وبالتالي فهذا الوصف ينطبق عليه حقيقة.

تاج الرسائل (مكة، ٦٠٠/١٢٠٣)

ويضيف الشيخ محيي الدين أنه من ذلك الوقت وقع الصلح بينه وبينها وخاطبها بعد ذلك بسبعة رسائل كتبها في كتاب سماه "تاج الرسائل ومنهاج الوسائل" لكل شوط رسالة مخصصة إلى الصفة الإلهية التي تجلت له في ذلك الشوط.

وقد ألف الشيخ محيي الدين هذا الكتاب في مكة سنة ٦٠٠، وفي نفس هذه السنة، في الرابع والعشرين من ذي القعدة، قرأ أيضاً هذا الكتاب على تلاميذه ومنهم عبد الله بدر الحبشي وإسماعيل بن محمد الرومي.[634]

ثم يقول ابن العربي أنه بعد ذلك جاءه بشرى من الكعبة المشرّفة على لسان رجل صالح من أهل الكشف لم يكن عنده خبر بما كان بينه وبينها مما ذكرناه أعلاه، فقال له هذا الرجل: "رأيت البارحة فيما يرى النائم هذه الكعبة وهي تقول لي يا عبد الواحد سبحان الله ما في هذا الحرم من يطوف بي إلا فلان،

---

[632] الفتوحات المكية: ج١ص٤٨.

[633] الفتوحات المكية: ج٤ص٧٧.

[634] مؤلفات ابن عربي: ص٢٢٨.

وسمّتك لي باسمك، ما أدري أين مضى الناس! ثم أقمتَ لي في النوم وأنت طائف بها وحدك لم أرَ معك في الطواف أحداً. فقالت لي انظر إليه: هل ترى بي طائفاً آخر؟ فقلتَ: لا والله لا أرى."[635]

وقد ذكر الشيخ محيي الدين في بداية الباب الأول من الفتوحات المكية، الذي خصصه لمعرفة الروح الذي أخذ من تفاصيل نشأته ما ذكره في الكتاب كما ذكرنا، ذكر بعضاً من أسرار الطواف بالكعبة المشرّفة ومعنى الأدوار (الأشواط) السبعة. ومن ذلك قال شعراً:

قلـت عنـد الطـواف: كيـف أطـوف! … وهـو عـن درك سـرّنا مكفـوف

جُلمـد غـيرُ عاقـل حركـاتي … قيـل: أنـت المحيَّـر المتلـوف

انظـر البيـت نـورُه يـتلالا … لقلـوبٍ تطهَّـرت مكـشوف

نظرتُـه بـالله دون حجـاب … فبـدا سـرّه العلـيّ المنيـف

وتجلّـى لهـا مـن أفـق جلالـي … قمـرُ الـصدق مـا اعـتراه خـسوف

لـو رأيـتَ الـوليّ حـين يـراه … قلـتَ فيـه مدلَّـهُ ملـهوف

يلـثم الـسرّ في سـواد يمـيني … أيُّ سـرٍّ لـو أنـه معـروف

جُهلـت ذاتـه فقيـل كثيـفٌ … عنـد قـوم وعنـد قـوم لطيـف

قـال لـي حـين قلـت: لـم جهلـوه؟ … إنمـا يعـرف الـشريفَ الـشريفُ

عرفـوه فلازمـوه زمانـا … فتـولاّهم الـرحيم الـرؤوف

واسـتقاموا فمـا يُـرى قـطُّ فـيهم … عـن طـواف بذاتـه تحريـف

قـم فبـشّر عـني مُجـاور بـيتي … بأمـانٍ مـا عنـده تخويـف

إن أمِـتهم فـرَحتُهم بلقـائي … أو يعيـشوا فـالثوب مـنهم نظيـف[636]

فسرّ الحجر الأسود هو العنصر الأعظم، وهو عنصر شريف، ولا يعرف الشريف غير الشريف. وتجدر الإشارة إلى أنّ الشيخ محيي الدين ابن العربي يتكلّم كثيرا في كتبه عن هذا العنصر الأعظم ولكن من غير تصريح وهو لا يذكره بهذا الاسم إلا في بعض كتبه مثل كتاب عقلة المستوفز حيث يقول هناك إن العنصر الأعظم الشريف هو لكرة العالم كالنقطة والقلم لها كالمحيط واللوح ما بينهما، وفي كتاب مرآة العارفين يقول إن العنصر الأعظم هو حالة الرتق، وكما بيّنت الدكتورة سعاد الحكيم أن ابن العربي يعتبر أن الماء أحد أسماء هذا العنصر الأعظم وذلك من قوله تعالى في سورة الأنبياء: "أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾".[637] وهناك أسماء أخرى منها

---

[635] الفتوحات المكية: ج١ص٧٠٠-٧٠١.

[636] الفتوحات المكية: ج١ص٤٧.

[637] انظر المعجم الصوفي، الحكمة في حدود الكلمة: ص٨٢٦-٨٢٩.

"حقيقة الحقائق"، ويقول ابن العربي في عقلة المستوفز أن هذا العنصر هو أكمل موجود في العالم ولولا عهد الستر الذي أخذ عليه في بيان حقيقته لبسط الكلام فيه وبيّن كيفيّة تعلّق كلّ ما سوى الله به.[638]

المحجة البيضاء (مكة، ٦٠٠/١٢٠٣)

وكذلك من الكتب المهمّة التي كتبها الشيخ محيي الدين في مكة أيضاً في هذه السنة كتاب "المحجة البيضاء في الأحكام الشرعية"،[639] ويتحدث فيه عن أحكام الشريعة الإسلامية في الطهارة والصلاة وبقية العبادات، ويبدو أن الشيخ محيي الدين قد ضمّن هذا الكتاب الكبير في الفتوحات المكية في الأبواب ٦٨–٧٢ وهي أبواب الأحكام الشرعية في أركان الإسلام، حيث يوضّح جميع الوجوه الفقهية لكل حكم وآراء الفقهاء بها ثم يرجّح أحدها أو بعضها ثم يبيّن اعتبار ذلك في الباطن.

الدرة الفاخرة (مكة، ربيع الأول ٦٠٠/١٢٠٣)

وكذلك من الكتب المهمة أيضاً كتاب "الدرة الفاخرة في ذكر من انتفعت بهم في طريق الآخرة"، وهو رسالة ألّفها الشيخ محيي الدين في مكة سنة ٦٠٠/١٢٠٤ وأرسلها إلى صاحبه عبد العزيز المهدوي في تونس وذكر فيها العديد من شيوخه،[640] ولكن هذا الكتاب لم يلق بعدُ العناية اللازمة ولم يتم تحقيقه وطبعه مع أنه قد تمّ ترجمة أجزاء منه إلى الإسبانية والإنكليزية.

ويعدّ هذا الكتاب، بالإضافة إلى كتاب "روح القدس"، مرجعاً أساسياً لدراسة حياة الشيخ محيي الدين وعلاقته بشيوخه.

وكذلك فقد كتب الشيخ محيي الدين في دمشق كتاباً مختصراً سمّاه "مختصر الدرة الفاخرة في ذكر من انتفعت بهم في طريق الآخرة".[641]

رسالة روح القدس في مناصحة النفس (مكة ٦٠٠/١٢٠٤)

وكما ذكرنا من قبل فيعدّ كتاب "رسالة روح القدس في مناصحة النفس" من أهم الكتب التي يُعتمد عليها في دراسة حياة الشيخ محيي الدين وسيرته، حيث ذكر الشيخ رضي الله عنه أيضاً العديد من الشيوخ الذين التقى بهم وعاملهم. وهذا الكتاب عبارة عن رسالة طويلة كتبها بمكة سنة ٦٠٠ وأرسلها إلى أخيه أبي محمد عبد العزيز بن أبي بكر القرشي المهدوي في تونس.

---

[638] عقلة المستوفز: ص٣٩.

[639] مؤلفات ابن عربي: ص٥٤٦.

[640] مؤلفات ابن عربي: ص٣٠٩–٣١٠.

[641] مؤلفات ابن عربي: ص٥٤٧–٥٤٨.

وقد طبع هذا الكتاب طبعات كثيرة وترجمت أجزاء منه إلى عدة لغات، وله أسماء أخرى منها "الرسالة القدسية" و"الروح القدسية" و"رسالة مهدوية". ويوجد منه مخطوطات عديدة ويعود الفضل للسماعات المذيَّلة في هذه المخطوطات لتحديد مسار الشيخ محيي الدين ابن العربي في الكثير من رحلاته التي قام بها بعد سنة ٦٠٠، حيث كان يقرأ هذا الكتاب على تلاميذه في أغلب المدن التي يزورها."[642]

ولكن بالإضافة إلى كونه يحوي على معلومات مهمة عن سيرة الشيخ محيي الدين، فقد ذكر الشيخ في هذا الكتاب، كما يوحي به عنوانه، طريقة صارمة لتهذيب النفس ونصحها وتعريتها من الدعوى التي قد تحجبها عن حقيقتها فتظن أنها وفَّت حقَّ ربِّها وأنها تفوَّقت على غيرها؛ فبدأ الشيخ محيي الدين يقارن نفسه مع مشاهير الصحابة والصالحين ويُظهر ما تميّز به كل واحد منهم مما لم يقم به هو فيُظهر لنفسه كم هي مقصِّرة في حق الله تعالى وأنه لا يجوز لها الغرور والظن الحسن بنفسها.

[642] مؤلفات ابن عربي: ص٥٧٣–٥٧٨.

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الخامس

العصر

سفره بين العراق وبلاد الروم وبلاد الشام ومصر ومكة المكرمة

١٢٠٣/٦٠٠ - ١٢٢٣/٦٢٠

هـــذي المنـــازل والفـــؤادُ الـــاري ... فيهـــا بحُكـــمِ تـــصرُّف الأقـــدارِ
دارت بـــه الأفـــلاكُ في فَـــتَحاتها ... والكـــونُ في الأدوارِ بـــالأكوارِ
فـــإذا تحـــلُّ بمنـــزلٍ تهفـــو لـــه ... شـــوقاً إليـــه مطـــارحُ الأنـــوارِ
فيمـــدّها بـــالفيض في غـــقِ الـــدُّجى ... حتـــى يـــشمّرَ عـــسكرُ الأســـحارِ
للانتقـــال مـــن البـــسيطة قاصـــداً ... جهـــة الـــيمين ومغـــربَ الأســـرارِ
ويحـــلّ إدريـــسُ العلـــيُّ ببوقـــه ... في إثـــر ذاك العـــسكرِ الجـــرّارِ
يخفـــي علـــى عـــين المـــشاهد نـــورَه ... كالـــشمسِ تنفـــي ســـطوةَ الأقمـــارِ
فـــالزمهرير مـــع الأثـــير تحكّمـــا ... بـــالبرد والتـــسخينِ في الأطـــوارِ[643]

الخلاصة

بعد أن ملأ ابن العربي قلبه من نور الفتوحات المكية أراد أن يقرع أبواب المدن الشمالية، ويطوف قليلاً في البلاد ليختار في النهاية مكانا يستقرّ فيه. ففي نهاية سنة ١٢٠٣/٦٠٠ بدأ ابن العربي رحلته إلى شمال العراق مرورا ببغداد قاصدا الموصل ليخلع عليه الشيخ علي بن جامع خرقة الخضر. ثم ارتحل إلى مصر مرة أخرى في سنة ١٢٠٦/٦٠٣ ولكن لم تطِب له الإقامة فيها حيث قابله فقهاؤها بالاعتراض ودسّوا عليه لدى

[643] الديوان: ص٤٣-٤٤.

الأمير فعاد إلى مكة في سنة ١٢٠٧/٦٠٤ فأقام فيها مدة ثم بدأ رحلة جديدة نحو الشمال فكان في قونية سنة ١٢١٠/٦٠٧ وزار العديد من المدن في تركيا وأرمينية وحرّان قبل أن يعود إلى بغداد للمرة الثالثة عام ١٢١١/٦٠٨. بعد ذلك رجع للمرة الثالثة إلى مكة المكرمة سنة ١٢١٤/٦١١ ومنها غادر من جديد نحو الشمال إلى سيواس في عام ١٢١٥/٦١٢ إلى ملك الروم المسلم كيكاوس الذي كرّمه أشد تكريم وكان يشاوره في كل أموره، ولكن الشيخ لم يقم عنده كثيرا فرجع مروراً بالعراق إلى حلب سنة ١٢١٧/٦١٣ فبقي فيها فترة قبل أن ينتقل بشكل نهائي إلى دمشق. وفي حلب كما في دمشق احتفى به الملوك الأيوبيون أشدّ حفاوة وكانوا لا يردّون له شفاعة.

وتمثّل هذه المرحلة حقبة مهمة من حياة ابن العربي مليئة بالنشاط والحركة الجسمية والروحية، فبالإضافة إلى رحلاته الكثيرة المتعددة والتي لم يَقم بمثلها من قبل في تاريخه الحافل بالسفر والترحال، فيجتمع حوله في هذه المرحلة العديد من المريدين ويلتقي بالعديد من الشيوخ ويكتب العديد من الكتب المهمة التي قاربت الخمسين كتابا.[٦٤٤]

الأمر الإلهي بالنصيحة

كما كان الأمر في الأندلس حين كتب الشيخ الأكبر كتابه الشهير مواقع النجوم كما ذكرناه في الفصل الثالث بعد أن رأى الحق في المنام وهو يقول له "انصح عبادي" فكذلك كان الحال في مكة وكذلك لاحقا في دمشق حيث يذكر الشيخ في الباب الأحد والسبعين حينما كان يتحدّث عن قيام شهر رمضان أن الله سبحانه قد أمره على لسان نبيّه صلّى الله عليه وسلّم بالنصيحة لله ولرسوله ولأئمّة المسلمين وعامّتهم خطاباً عاماً، كما ورد في الحديث (الدين النصيحة)،[٦٤٥] ثم خاطبه على الخصوص من غير واسطة أكثر من مرّة بمكة وبدمشق فقال له "انصح عبادي" وذلك في رؤيا مبشّرة، ولذلك يقول إن الأمر قد تعيّن عليه أكثر مما تعيّن على غيره ويطلب من الله أن يجعل ذلك له عنايةً وتشريفاً لا ابتلاءً وتمحيصاً.[٦٤٦]

ولعلّ ذلك كان سبباً رئيساً في رحلاته الكثيرة التي سيقوم بها بين بلاد الشام والروم (تركيا) ومصر ومكة كما سنرى في هذا الفصل. لقد بدأ تلك ابن العربي هذه الرحلات برفقة صديق له تعرّف عليه في مكة هو الشيخ مجد الدين اسحق بن يوسف والد تلميذه المعروف صدر الدين القونوي حيث قصدوا إلى الشمال إلى الدولة السلجوقية التي كان يحكمها كيخسرو الأول والذي كان مجد الدين أحد معلّميه وله عنده مكانة مرموقة.

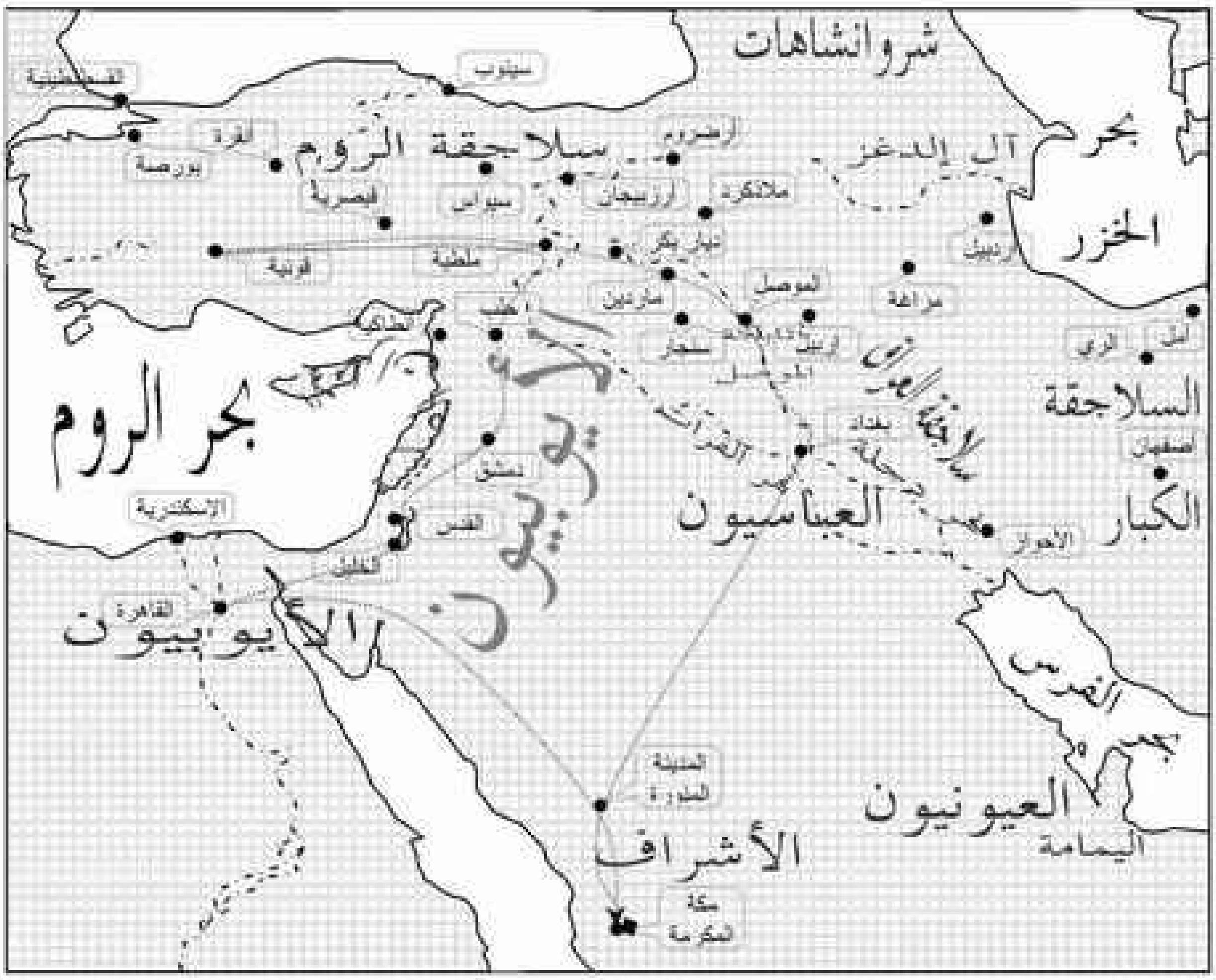
---

[٦٤٤] مؤلفات ابن عربي: ص١٢٠-١٢٥.

[٦٤٥] في الحديث أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: "إنّ الدّينَ النّصيحَةُ، إنّ الدّينَ النّصيحَةُ، إنّ الدّينَ النّصيحَةُ. قالُوا: لِمَنْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قالَ: للهِ وَكِتابِهِ وَرَسُولِهِ وَأَئِمَّةِ المُؤْمِنِينَ وَعامَّتِهِمْ، أو أَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ وَعامَّتِهِمْ". وهو حديث شهير في العديد من كتب الحديث ومنها الصحاح، انظر كنز العمال: رقم ٧١٩٧، ٧٢٠١، ٨٧٧٤-٨٧٧٦.

[٦٤٦] الفتوحات المكية: ج١ص٦٥٨، وكذلك رسالة المبشرات، مخطوطة بايزيد ١٦٨٦.

الرحلة نحو الشمال، الدورة الأولى (٦٠١/١٢٠٥-٦٠٤/١٢٠٨)



رحلته نحو الشمال، الدورة الأولى:

(مكة-المدينة-بغداد-الموصل-ملطية-قونية-ملطية-حلب-دمشق-القدس-الخليل-القاهرة-مكة)

فبعد أكثر من سنتين من المجاورة في بيت الله العتيق، قرّر الشيخ محيي الدين وصحبه الرحيل إلى المناطق الشمالية، فبدؤوا بالمدينة المنوّرة ثم بغداد ثم الموصل إلى ملطية ثم قونية ثم عادوا إلى ملطية ومنها إلى حلب ثم دمشق ثم القدس ثم الخليل ثم إلى القاهرة ومنها إلى مكة مرة أخرى.

الدولة السلجوقية الرومية في الأناضول

السلاجقة الروم هم سلالة تركية حكمت الأناضول من القرن العاشر إلى القرن الثالث عشر الميلادي وكان مقرّهم إزنيق ثم قونية. وتفرعت هذه الأسرة عن السلاجقة الكبار، الذين كانوا يملكون شمال غرب القارة الأسيوية. بعد وقعة ملاذكرد سنة ٤٦٣/١٠٧١ وهزيمة الروم حيث بسط السلاجقة سيطرتهم على معظم الأناضول. كان مؤسس الدولة قتلمش بن أرسلان من أقرباء الحاكم السلجوقي طغرل بك فاستولى ابنه

سليمان الأول على إزنيق عام ١٠٧٨/٤٧٠ وبدأ حكمهم تحت وصاية السلاجقة الكبار أولاً إلى أن تمّ استقلالهم مع ظهور الدويلات الصليبية في المنطقة.

بلغت الدولة أوجها في عهد قلج أرسلان الثاني ثم قسمت المملكة بين أبناءه الإثني عشر سنة ١١٩٢/٥٨٩ إلى أن أعاد غياث الدين كيخسرو توحيدها واستمرّت دولةً قويةً في عهد ولديه عزّ الدين كيكاوُس الذي تولى الحكم في ١٢١١/٦٠٧ واستمرّ حتى ١٢١٩/٦١٥ ثم علاء الدين كيقباذ الذي تولى بعده حتى ١٢٣٧/٦٣٤، ثم بدأت الدولة تتهاوى مع حروب المغول سنة ١٢٤٣/٦٤٠ وأخذت مناطق نفوذهم تتقلص حتى لم يتبقّ لهم إلا أنطاكية وما حولها.

الشيخ مجد الدين إسحق بن يوسف الرومي

في مكة التقى الشيخ محيي الدين بالشيخ مجد الدين إسحق بن يوسف الذي سيكون له دور كبير في هذه المرحلة من حياة الشيخ الأكبر. والشيخ مجد الدين أصله من جنوب شرق الأناضول من مدينة اسمها ملطية سنذكرها بعد قليل. وقد لعب الشيخ مجد الدين دوراً مهمّاً في إنعاش الحياة الروحية في الإسلام في بغداد وغيرها حينما كان يعمل مساعداً للخليفة الناصر هناك وكان له الفضل هو وشهاب الدين السهروردي الذي سنأتي على ذكره في تخصيص أماكن للفقراء أصبحت تُعرف باسم "الفتوات" وهي التي أصبحت فيما بعد مكاناً يؤمّه الصوفية. وكذلك كان مجد الدين شخصاً مهماً في الدولة السلجوقية حيث حاول تطبيق تجربته في بغداد هناك وكان كذلك معلما لأبناء الأمراء والملوك السلجوقيين الذين كان منهم الأمير أبو الفتح غياث الدين كيخسرو الأول بن قلج أرسلان الثاني الذي تولى حكم الدولة السلجوقية سنة ١١٩٢/٥٨٩ فأصبح أستاذه مجد الدين من رجاله المقربين. ولكن عندما انقلب ركن الدين القاهر سليمان شاه الثاني سنة ١١٩٦/٥٩٣ على أخيه كيخسرو واستلم الحكم بدلاً عنه اضطر مجد الدين للهرب إلى دمشق لبضع سنوات ومن هناك ذهب إلى مكّة بقصد الحج حيث التقى بالشيخ محيي الدين كما ذكرنا سنة ١٢٠٤/٦٠٠. بعد ذلك بقليل سنة ١٢٠٥/٦٠١ استلم كيخسرو الحكم من جديد بعد الملك عزّ الدين قلج أرسلان الثالث بن سليمان شاه الثاني الذي لم يدم حكمه سوى سنة واحدة منذ تولاه بعد ركن الدين سليمان سنة ١٢٠٤/٦٠٠.

فبعد أن تولى كيخسرو الحكم من جديد أرسل للشيخ مجد الدين يدعوه إليه ليكون مستشارا له، وكان من الطبيعي أن يصطحب معه الشيخ محيي الدين الذي أصبح من أعزّ أصدقائه.

ومن خلال المرجع الوحيد المتوفر الذي يتطرّق لسيرة الشيخ مجد الدين ابن إسحق، يذكر المؤرخ ابن بابي في "الأوامر العلائية في الأمور العلائية" أنه كان رجلاً لطيفاً ورحيماً وروحانياً ويصفه بأنه "شرف الأوتاد"، وفي رسالة إلى الملك كيكاوُس يشير إليه الخليفة العباسي الناصر بأنه "عمدة العارفين".[٦٤٧] ولكن الأهم من ذلك أنه يتضح من خلال حديث ابن بابي أن مجد الدين كان له مكانة رفيعة عند الملك كيخسرو الذي كتب له قصيدة يدعوه فيها إلى العودة إلى بلده بعدما غادر إلى سورية عندما أزيح كيخسرو عن

[٦٤٧] الأوامر العلائية في الأمور العلائية، تأليف ابن بابي، طبع في تركيا سنة ١٩٥٦، ص١٥٧.

العرش، وأنه استُقبل استقبالاً ملكياً عندما رجع (ولا شكّ أن ابن العربي كان معه) تلبيةً للملك كيخسرو الذي استعاد الملك سنة ١٢٠٥/٦٠١ كما ذكرنا أعلاه.[٦٤٨]

وبذلك بدأ الشيخ محيي الدين رحلته نحو الشمال برفقة مجد الدين وكذلك صاحبه القديم الذي لا يفارقه أبداً بدر الدين الحبشي. ولكنهم قبل أن يذهبوا إلى ملطية وقونية مرّوا بالمدينة المنورة وبغداد والموصل حيث قضى فيها الشيخ محيي الدين مع أصحابه أوقاتاً جميلة من العبادة والتدريس وتأليف الكتب.

زيارة قبر الرسول صلّى الله عليه وسلّم (المدينة المنورة، ١٢٠٥/٦٠١)

فبدأ الركب رحلتهم شمالا بالمدينة المنورة ثم بغداد متوجهين نحو الموصل. حيث يقول الشيخ محيي الدين في ترجمان الأشواق:

أحـــبّ بـــلاد الله لـــي بعـــد طيبـــة ومكـــة والأقـــصى مدينـــة بغـــدان

وقال أيضاً في الديوان الكبير:

يـــا حبّـــذا المـــسجد مـــن مـــسجد وحبّـــذا الروضـــة مـــن مـــشهد
وحبّـــذا طيبـــة مـــن بلـــدة فيهـــا ضـــريح المـــصطفى أحمـــد
صـــلّى عليـــه الله مـــن ســـيّد لـــولاه لم نفلـــح ولم نهتـــد
قـــد قـــرن الله بـــه ذكـــره في كـــلّ يـــوم فـــاعتبر ترشـــد
عـــشرٌ خفيّـــاتٌ وعـــشرٌ إذا أعلـــنّ بالتـــأذين في المـــسجد
فهـــذه عـــشرون مقرونـــة بأفـــضل الـــذكر إلى الموعـــد[٦٤٩]

ولا شك أن الشيخ محيي الدين كان يزور المدينة في رحلاته المختلفة من وإلى مكة المكرمة لزيارة قبر رسول الله محمد صلّى الله عليه وسلّم. فقد قال في الباب الثاني والخمسين وخمسمائة في معرفة حال قطب كان منزله (من سورة النساء، الآية ٦٤) "وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ"، أن هناك فرق بين الظالم نفسه والظالم لنفسه، فالظالم لنفسه هو من المصطفين الذين ورثوا الكتاب بفضل الله كما قال الله سبحانه وتعالى فيهم في سورة فاطر: (ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ۝)، وهو ما خرج عن ربه حتى يرجع إليه. وأما الظالم نفسه عليه أن يرجع إلى الله تعالى، ولكن لمّا كان محمد هو رسول الله يجيء له هذا الظالم نفسه حتى يستغفر الله ويستغفر له الرسول.

ثم يضيف الشيخ الأكبر فيقول إن صاحب هذا الذكر بالآية المذكورة يتجسّد له الحقّ في الصورة المحمّدية إمّا في النوم أو في اليقظة كيف كان، وإن لم يتجسّد له فما هو ذلك الرجل، فإذا تجسّد له فلا يخلو

---

[٦٤٨] ابن باي، "الأوامر العلائية": ص٩١-٩٣.

[٦٤٩] الديوان: ص٥٢.

أن يستغفر الله هذا الظالم نفسه أو لا يستغفر الله، فإن استغفر الله ولم يرَ صورة الرسول تستغفر له فيعلم عند ذلك أنه ما استغفر الله، فإن استغفر له الرسول صلّى الله عليه وسلّم فإنه يجد الله عند ذلك توّاباً رحيماً، كما ذكر الله في الآية.

ثم يقول ابن العربي رضي الله عنه أنه قد ظلم نفسه وجاء إلى قبره صلّى الله عليه وسلّم فرأى الأمر على ما ذكره، وقضى الله حاجته وانصرف، ولم يكن قصده في ذلك المجيء إلى الرسول إلا هذا الهجير (أي الذكر) وهكذا تلاه على الرسول صلّى الله عليه وسلّم في زيارته إيّاه عند قبره فكان القبول وانصرف وذلك في سنة إحدى وستمائة."[٦٥٠]

مروره في بغداد لأول مرة (١٢٠٤/٦٠١)

كانت منطقة بلاد ما بين النهرين (دجلة والفرات) مركزاً للعديد من الحضارات الإنسانية التي ترجع إلى ٣٧٠٠ قبل الميلاد ومن أهمها الحضارة السومرية العربية، ثم الدولة الأكدية، ثم الدولة البابلية الأولى ثم الكاشيين، ثم الدولة الآشورية، ثم الدولة الكلدانية (البابلية الثانية)، ثم الحكم الفارسي.

تحولت العراق بالفتح الإسلامي وخاصة إبّان فترة الحكم العباسي إلى مركز سياسي وعلمي مهم، وصارت بغداد عاصمة العالم الثقافية والعلمية إلى أن سقطت بأيدي المغول سنة ١٢٥٨/٦٥٦. ففي العهد الراشدي شيّد عمر بن الخطاب مدينتي البصرة والكوفة، وخلال الحكم الأموي كانت العراق تابعة للعاصمة الأموية في دمشق. ولمّا قامت الخلافة العباسية انتقلت إدارة الدولة الإسلامية إلى العراق، وتألقت بغداد التي بناها العباسيون لتصبح عاصمة العلم والترجمة عن مختلف الحضارات السابقة التي كانت تتم في بيت الحكمة الذي أسّسه الخليفة المأمون سنة ٨٣٠/٢١٥. تعرضت العراق في عهد العباسيين إلى العديد من الثورات والحروب الداخلية إلى أن سقطت على يد القائد المغولي هولاكو سنة ١٢٥٨/٦٥٦.

ففي الشهور الأولى من سنة ٦٠١ دخل ابن العربي بغداد ولكنه لم يُقم فيها سوى اثني عشر يوماً حيث أنه كان يقصد الموصل لزيارة عليّ بن عبد الله بن جامع. ولكن بغداد لا شك قد أخذت من نفسه مكانة كبيرة، فقال في الفتوحات المكية:

فبغـــــداد داري لا أرى لـــــي موطنـــــا ـــــسواها فـــإن عـــزّت جنحـــت إلى مـــصري"[٦٥١]

قراءة كتاب روح القدس (بغداد، ١١ صفر ١٢٠٥/٦٠١)

وعلى الرغم من هذه الإقامة القصيرة فقد تجمّع المريدون حوله حيث تجد من خلال السماعات المدوّنة على بعض المخطوطات أن الشيخ محيي الدين قرأ في هذه الزيارة لبغداد كتاب روح القدس في

---

[٦٥٠] الفتوحات المكية: ج٤ص١٩٣.

[٦٥١] الفتوحات المكية: ج٣ص٣٦١.

مناصحة النفس على بعض التلاميذ ومنهم عبد الوهاب بن علي المشهور بابن سكينة،[652] بالإضافة إلى أصحابه بدر الحبشي ومحمود بن إسحق بن يوسف الرومي، ومحمد بن محمود الملطي.

إقامته في الموصل (١٢٠٤/٦٠١)

يعود تاريخ الموصل إلى عام ١٠٨٠ قبل الميلاد عندما اتخذ الآشوريون مدينة نينوى عاصمة لهم إلى أن دُمّرت سنة ٦١٢ ق.م. ثم عمرت بعد ذلك في القرن الرابع قبل الميلاد قرية قريبة منها يطلق عليها اسم مسبلا والتي أصبح لها شأن بعد سقوط نينوى فكانت بالتالي موضع خلافات وحروب كثيرة بين الروم والفرس، وعُرفت بعد ذلك باسم الموصل.

وقد تم الفتح الإسلامي للموصل في عام ٦٣٧/١٦ وأخذ العرب يقطنون البلاد المفتوحة ويتخذونها مقاماً لهم وكانت قبيلة طيء من أهم القبائل التي سكنتها. واهتم الأمويون بالموصل كثيراً نظراً لأهميتها الحربية والتجارية. ولكن في العصر العباسي الأول نُكبت الموصل على إثر ثورة أهلها على محمد بن صول سنة ٧٥٠/١٣٣ وفتك بها العباسيون فتكاً ذريعاً على يد يحيى بن محمد أخي السفاح، ثم بعد ذلك أخذت المدينة تستعيد مركزها الاقتصادي في خلافة هارون الرشيد. ومع ضعف الحكم العباسي انقسمت البلاد بين ملوك الحمدانيين والسلاجقة إلى أن تسلّم عماد الدين زنكي الموصل عام ١١٢٧/٥٢١ وبدأ بذلك العهدُ الأتابكي، وكان قد استفحل خطر الصليبيين واحتلوا أكثر البلاد السورية ووصلوا إلى أسوار حلب فحشد عماد الدين جيوشه وبدأ بأمراء الأطراف ثم سار إلى حلب ثم إلى حماة فاستولى عليها عام ١١٣٠/٥٢٤، ثم التفت إلى ما جاوره من حصون النصارى فهاجمهم ودخل معهم في معارك كبيرة انتصر بها عليهم.

ولما توفي نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي قدم صلاح الدين من مصر، التي كان قد ملكها كما ذكرنا من قبل، لإصلاح اضطراب الأمور في البلاد الشامية والجزيرة حتى دانت له البلاد من آخر حدود مصر وليبيا غرباً إلى حدود الموصل شرقاً، وحاول صلاح الدين دخول الموصل وحاصرها ولكنه فشل في دخولها فبقيت بيد الزنكيين. واستمر ذلك الوضع حتى بعد فتح القدس سنة ١١٨٧/٥٨٣ إلى أن توفي صلاح الدين بعد بضع سنوات، ثم تفرقت البلاد بين أولاده وأولاد عمومته.

وفي الفترة التي قدم بها الشيخ محيي الدين إلى الموصل كان الحاكم عليها هو الأمير الزنكي نور الدين أرسلان شاه بن مسعود الذي حكمها منذ ١١٩٣/٥٨٩ ثم تولى من بعده ابنه عز الدين مسعود بن أرسلان شاه منذ ١٢١١/٦٠٧.

على الرغم من أنها لم تكن أكثر شهر واحد، فقد كانت فترة وجود الشيخ محيي الدين القصيرة في الموصل مثمرة ومبهجة، حيث التقى بالعديد من الشيوخ ولبس خرقة الخضر من يد شيخه عبد الله ابن جامع وألّف الكثير من الكتب المهمّة مثل كتاب التنزّلات الموصلية وكتاب الجلال والجمال وكتاب الكُنه، وكذلك قرأ بعض كتبه السابقة على عدد من المريدين الذين بدؤوا يتحلّقون حوله ويلازمونه ويحضرون دروسه،

---

[652] مؤلفات ابن عربي: ص٣٧٥.

وخاصة كتاب روح القدس الشهير.

عبد الله بن جامع ولبس الخرقة

وعلي بن عبد الله بن جامع هو من أصحاب علي المتوكل وأبي عبد الله قضيب البان وكان يسكن بالمقلي في بستان خارج الموصل. فعندما وصل الشيخ محيي الدين إلى الموصل ذهب إلى عبد الله بن جامع للانتفاع منه وهو الذي سوف يتلقى منه خرقة الخضر للمرة الثالثة، وكان بن جامع قد اجتمع بالخضر عليه السلام الذي ألبسه الخرقة بحضور قضيب البان، فلما اجتمع مع الشيخ الأكبر ألبسه الخرقة بالموضع الذي ألبسه فيه الخضر من بستانه وبصورة الحال التي جرت له معه في إلباسه إياها.

وقد لبس الشيخ الخرقة مرات عديدة قبل ذلك ذكرناها في الفصل الثالث والرابع. وكما ذكرنا من قبل فإن أصل لباس الخرقة هو لباس التقوى ولكن الشيخ محيي الدين يقول إنه جرت عادة أصحاب الأحوال إذا رأوا أحداً من أصحابهم عنده نقص في أمرٍ ما وأرادوا أن يكمّلوا له حاله يتّحد به هذا الشيخ فإذا اتّحد به أخذ ذلك الثوب الذي عليه في حال ذلك الحال ونزعه وأفرغه على الرجل الذي يريد تكملة حاله فيسري فيه ذلك الحال فيكمُل له ذلك."[653] يقول الشيخ محيي الدين في الديوان:[654]

لبس التُّقى للنفس خير لباس ... يزهو به المسعود بين الناس
إن الشريف هو التقيّ المرتضى ... لا الهاشميّ ولا بنو العباس
إلا إذا اتقوا الإله فإنهم ... أهل المكارم والتُّقى والباس
إني لبست بحمص[655] أندلسٍ وبالـ ... ـحرم الشريف ومكة وبفاس
من سادةٍ مثل الشموس أئمةٍ ... اللهُ أكرمهم بخير لباس
بهُدى هداتهم اهتديت لأنهم ... في الليلة الظلماء كالنبراس"[656]

وذكرنا أيضاً أن الشيخ محيي الدين لم يكن يعتقد بلباس الخرقة على الوجه التقليدي الذي يفعله الصوفية ولكن لمّا وجد الخضر عليه السلام قد اعتبرها قال بها الشيخ رضي الله عنه وألبسها لبعض الرجال والنساء منهم حفيدته صفية، ولو أن أكثر ذلك كان في المنام، كما سنرى في الفصل السادس.[657]

---

[653] الفتوحات المكية: ج١ص١٨٧، والتاريخ موجود في رسالة نسب الخرقة، مخطوطة يحيى أفندي رقم ٢٤١٥، راجع "تاريخ مؤلفات ابن عربي": ص٦٠٧-٦٠٨.

[654] الديوان: ص٥٩.

[655] حمص الأندلس هي إشبيلية.

[656] النبراس هو المصباح.

[657] الديوان: ص٥٥-٦٠.

قضيب البان

ومن الشيوخ الذين يذكرهم الشيخ محيي الدين عن فترة وجوده في الموصل شيخٌ يعرف باسم قضيب البان. وعبد الله قضيب البان كان له القدرة على التروحن والتشكل في صور مختلفة كما يشاء من صور بني آدم أمثاله وفي صور الحيوانات والنبات والحجر وقد وقع ذلك منه، فيقول ابن العربي أن في قوة الإنسان ما ليس في قوة عالَم الغيب فإن في قوة الإنسان من حيث روحه التمثل في غير صورته في عالم الشهادة.[658]

وكذلك فقد كان قضيب البان عنده قدرة الفعل بالهمة الذي ذكرناه في الفصل الثاني، وهو أمر عام في الآخرة ولكنه نادر في الدنيا، إلا أنه موجود في الدنيا لأن الله تعالى أبدع العالم ووضع فيه كل مراتب الكمال. فكما يقول الإمام أبي حامد أنه ليس في الإمكان أبدع من هذا العالم لأنه ليس أكمل من الصورة التي خُلق عليها الإنسان الكامل، فلو كان لكان في العالم ما هو أكمل من الصورة التي هي للحضرة الإلهية. ولكن ابن العربي يقول إن الفعل بالهمة في الدنيا ليس لكلّ أحد وإنما قد يكون في الدنيا لغير الولي كصاحب العين والغرانية بأفريقية، ولكن ما يكون بسرعة تكوين الشيء بالهمة في الدار الآخرة وهو في الدار الدنيا نادر شاذ كقضيب البان وغيره وهو في الدار الآخرة للجميع، في الجنة وفي النار، كما ذكرنا في الفصل الثاني.[659]

ومن كرامات قضيب البان أيضاً أنه كان له القدرة على تدبير أكثر من جسم في نفس الوقت فإن الروح الواحد يدبر أجساماً متعددة إذا كان له الاقتدار على ذلك، ويكون ذلك في الدنيا للولي بخرق العادة وفي الآخرة أيضاً، فإن نشأة الإنسان تعطي ذلك. فكان قضيب البان ممّن له هذه القوّة وكذلك ذو النون المصريّ. فكما يدبّر الروح الواحد سائر أعضاء البدن من يدٍ ورجلٍ وسمعٍ وبصرٍ وغير ذلك كما تؤاخذ النفس بأفعال الجوارح على ما يقع منها كذلك الأجساد الكثيرة التي يدبّرها روح واحد أيّ شيء وقع منها يسأل عنه ذلك الروح الواحد وإن كان عين ما يقع من هذا الجسم من الفعل مثل ما يقع من الجسم الآخر فيكون ما يلزمه من المؤاخذة على فعل أحد الجسمين يلزمه على فعل الآخر وإن كان مثله.[660]

ويقول الشيخ محيي الدين أيضاً أنه كان يوحَى إلى قضيب البان كتابة على الورق؛ فالوحي على ضروب شتى فمنه ما يكون مُتلقّى بالخيال كالمبشّرات في عالم الخيال وهو الوحي في النوم، فالمتلقي خيال والنازل كذلك والوحي كذلك، ومنه ما يكون خيالاً في حسّ على ذي حسّ، ومنه ما يكون معنى يجده الموحى إليه في نفسه من غير تعلّق حسّ ولا خيال بمن نزل به، وقد يكون كتابة. فيقول ابن العربي أن ذلك يقع ذلك كثيراً للأولياء وبه كان يوحى لأبي عبد الله قضيب البان ولأبي زكريا البجائي بالمعرة بدير النقرة ولبقي بن مخلد تلميذ أحمد بن حنبل صاحب المسند، ولكن كان أضعف الجماعة في ذلك فكان لا يجده إلا

---

[658] الفتوحات المكية: ج٣ص٤٢.

[659] الفتوحات المكية: ج١ص٢٥٩.

[660] الفتوحات المكية: ج١ص٦٢١.

بعد القيام من النوم مكتوباً في ورقة.[661] ولا يقصد بالوحي هنا وحي الأنبياء الذي يأتيهم به جبريل عليه السلام ليسنّوا الشرائع لله تعالى، وإنما هو وحي الإلهام الذي يعطي العلم الكشفي الذوقي، لأن نبوة التشريع قد انقطعت بعد محمّد صلّى الله عليه وسلّم، ولكن النبوة العامة لم تنقطع.

مقام النبوة

ومن الموصل في هذه السنة سنة إحدى وستمائة كتب الشيخ الأكبر لأحد إخوانه يوضح له أن مقام النبوة هو مقام غير مكتسب وذلك بعكس ما يقوله بعض أهل الفكر والنظر. فقال شعرا:

ألا إن الرسـالة برزخيـه ... ولا يحتـاج صـاحبها لنيـة
إذا أعطـت بنيتـه قواهـا ... تلقتهـا بقوتهـا البنيـة
وإن الاختـصاص بهـا منـوط ... كمـا دلـت عليـه الأشـعرية[662]

ويفرّق ابن العربي بين نبوة التشريع والنبوة العامة، حيث أن الأولى مقام يختص به الله من يشاء من عباده ويختارهم لكي يسنّوا الشرائع للبشر، وهذه قد انقطعت بعد النبي محمد صلّى الله عليه وسلّم فلا نبي بعده ولا رسول، أما النبوة العامة فهي لا تنقطع، وهي نوع من الاستشراف على الغيب تشبه الرؤيا ولكنّها تكون في النوم وفي اليقظة.

وتعدّ آراء الشيخ محيي الدين بخصوص النبوة أحد الأسباب الرئيسية التي جعلت ابن تيمية ينتقده بشدة ويتهمه بالكفر حيث يقول الشيخ الأكبر أن دائرة الولاية أكبر من دائرة النبوة وأن مقام الولي أعلى من مقام النبي، ولكن ابن العربي يضيف أن كل نبيّ هو بالضرورة وليّ فهذا لا يعني أن الولي أعلى مقاماً من النبي ولكن النبي مقامه عند الله أعلى من كونه وليّ، الأمر الذي لم يستوعبه ابن تيمية مما أدّى به لانتقاد ابن العربي بحدة، كما سنتكلم عن ذلك بالتفصيل في الفصل السابع.

الشيخ أبو الحسن ابن الكناري

وفي هذه السنة وفي الموصل التقى الشيخ الأكبر بالشيخ أبي الحسن بن الكناري الذي روى له حديثا غريبا ذكره الشيخ محيي الدين في وصاياه مؤكّدا صحة روايته عن أبي الحسن الذي رواه بسند طويل عن عدد من الشيوخ عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ثم عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه وهو يروي مباشرة عن ميكائيل عليه السلام الذي يروي عن إسرافيل عليه السلام عن الله تعالى، من غير أن تتصل الرواية بالنبي محمد صلّى الله عليه وسلّم. فقال الشيخ محيي الدين:

وصية: إذا قرأت فاتحة الكتاب فصل بسملتها معها في نَفَس واحد من غير
قطع فإني أقول بالله العظيم لقد حدثني أبو الحسن عن أبي الفتح المعروف

---

[661] الفتوحات المكية: ج٢ص٦٣٢.

[662] الفتوحات المكية: ج٢ص٢٥٦.

والده بالكناري بمدينة الموصل سنة إحدى وستمائة وقال بالله العظيم لقد سمعت شيخنا أبا الفضل عبد الله بن أحمد بن عبد القاهر الطوسي الخطيب يقول بالله العظيم لقد سمعت من لفظ أبي بكر بن الفضل بن محمد الكاتب الهروي وقال بالله العظيم لقد حدثنا أبو بكر محمد بن علي الشاشي الشافعي من لفظه وقال بالله العظيم لقد حدثني عبد الله المعروف بأبي نصر السرخسي وقال بالله العظيم لقد حدثنا أبو بكر محمد بن الفضل وقال بالله العظيم لقد حدثنا أبو عبد الله محمد بن علي بن يحيى الوراق الفقيه وقال بالله العظيم لقد حدثني محمد بن يونس الطويل الفقيه وقال بالله العظيم لقد حدثني محمد بن الحسن العلوي الزاهد وقال بالله العظيم لقد حدثني أبو بكر الراجعي وقال بالله العظيم لقد حدثني عمار بن موسى البرمكي وقال بالله العظيم لقد حدثني أنس بن مالك وقال بالله العظيم لقد حدثني علي بن أبي طالب وقال بالله العظيم لقد حدثني أبو بكر الصديق وقال بالله العظيم لقد حدثني محمد المصطفى صلّى الله عليه وسلّم وقال بالله العظيم لقد حدثني ميكائيل عليه السلام وقال بالله العظيم لقد حدثني إسرافيل عليه السلام وقال قال الله تعالى يا إسرافيل بعزتي وجلالي وجودي وكرمي من قرأ "بسم الله الرحمن الرحيم" متصلة بفاتحة الكتاب مرّة واحدة واشهدوا على أني قد غفرت له وقبلت منه الحسنات وتجاوزت عنه السيئات ولا أحرق لسانه بالنار وأجيره من عذاب القبر وعذاب النار وعذاب القيامة والفزع الأكبر يلقاني قبل الأنبياء والأولياء أجمعين."[٦٦٣]

ورغم غرابة هذا الحديث، خاصة وأنه يقرّر أن من يقرأ الفاتحة بهذه الصفة يلقى الله تعالى قبل الأنبياء والأولياء، فرغم غرابة ذلك إلا أنه لا شيء يصعب على جلال الله تعالى فلا يجوز أن ننكر مثل هذا الحديث قبل أن نتأكد من رجال السند، فالحديث إن صحّ ففيه خير كثيرٌ لا يفوّته إلا خاسر.

ولكن ما الذي يعني قراءة البسملة مع الفاتحة بنفس واحد؟ لقد أجاب الأمير عبد القادر الجزائري في كتاب المواقف عن مثل هذا التساؤل حين سأله بعض الإخوان عن الحكمة في هذا الفضل العظيم بهذا العمل اليسير، فقال له في البداية كلاماً عاماً أن الله خصّ سوراً وآياتٍ بفضائل ما جعلها لغيرها من السور والآيات كما ورد في صحيح الأخبار، ثم قال: "غيرُ هذا ما كان عندي ثم أُلهِمَ و عَلَّمَ (أي اللهُ تعالى) ما لم أكنْ أعلَمُ بأن هذا الفضل إنما كان لأن القارىء بهذه الصيغة وهي الجمع بين البسملة والفاتحة في نفَس واحد يعني بعض الفاتحة لا كلّها، فإنه قال صِلْ بسملتها معها". ثم فسّر ذلك بأن البسملة تضمّنت الرحمة الذاتية، وهي خاصة وعامة، والفاتحة تضمنت الرحمة الصفاتية، وهي أيضاً خاصة وعامة: فالذاتيتان في قوله بسم الله

---

[٦٦٣] الفتوحات المكية: ج٤ص٤٩٥.

الرحمن الرحيم والصفاتيتان في قوله الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم. ثم تابع بتفصيلٍ لا مجال لذكره هنا، فليُراجع في كتاب المواقف.[٦٦٤]

وعلى كل حال، إن كان وجه الغرابة في هذا الخبر أن من يفعل ذلك يلقى الله قبل الأنبياء والأولياء أجمعين، فما ذلك بمستحيل، ولا يعني ذلك أن مقام هذا الإنسان يكون أعلى من مقام الأنبياء، بل إن الأنبياء يوم الحشر لهم عمل كبير منوط بهم فيما يخص أممهم. وربما يكون هناك دلالة روحية لذلك عند الشيخ الأكبر محيي الدين رضي الله عنه، فهو يقول إن أيام الأنفاس هي الأيام التي تحدث فيها الشؤون الإلهية، ويوم الشأن هو اليوم الذي يخلق فيه الله سبحانه وتعالى شأناً واحداً في العالم يشمل العالم كله. فربما يكون من يقرأ الفاتحة، وهي أم الكتاب، في نفس واحد مع شهودٍ لمعانيها كمن يشهد العالم كله في هذا النفس، فيخرج عن حدود جسمانيته وعن حدود المكان والزمان الذي تقيده الأيام.

أحمد بن مسعود بن شداد المقري الموصلي (الموصل، ١٢٠٤/٦٠١)

ويبدو أن الشيخ محيي الدين كان له منزل في الموصل حيث يقول في محاضرة الأبرار أنه كان في منزله هناك وكان عنده أحمد بن مسعود الذي حدثه حديثاً فيه بعض الحِكَم.[٦٦٥]

المعارض للقرآن الكريم (الموصل، ١٢٠٤/٦٠١)

وفي الموصل التقى الشيخ محيي الدين بشخص كان يُعارض القرآن الكريم، أي يقول كلاماً من عنده ويدّعي أنه مثل القرآن. ويقول الشيخ محيي الدين في الباب الثالث وثلاثمائة في معرفة منزل العارف الجبرائيلي من الحضرة المحمدية أنه من هذا المنزل يُعرف من عارض القرآن من أين أتى عليه، فيبدو أنه على الرغم من أنه لا أحد يستطيع أن يبرّز مثل هذه الجريمة إلا أن معرفة السبب تزيل العجب، وكذلك معرفة السبب ومن أين يأتي مثل هؤلاء الناس بما يقولونه يمكن أن تقي ضعاف الإيمان من التصديق بهم، فإنهم ينظمون آياتٍ قد تشبه القرآن وربّما يغترّ بهم بعض الجهلاء إذا سمعوهم. فمثل هؤلاء الناس عندهم قوة خيال ويتخيلون أن لهم قدرة على رؤية الأرواح والجان، كما ذكرنا في الفصل الثالث عن جماعة في فاس، ولكن في الحقيقة هم لا يرون إلا أمثلة خيالية قامت في خيالهم لشدة سيطرته عليهم، فيحاورون هذه الصور ويعتقدون أنها أرواح تنبؤهم بعلوم وكشوف غيبية.

فيقول الشيخ محيي الدين أنه التقى في الموصل بالمهذب ثابت بن عنتر الحلوي، الذي كان يعارض القرآن، سنة إحدى وستمائة، وسمعه يتلو بعضاً من السور التي أنشأها معارضة للقرآن الكريم، ويقول عنه أنه كان في مزاجه اختلال إلا أنّه كان من أزهد الناس وأشرفهم نفساً ومات في تلك السنة.[٦٦٦]

---

[٦٦٤] كتاب المواقف للأمير عبد القادر بن محيي الدين بن مصطفى الجزائري الحسني، دار اليقظة العربية-دمشق، ١٩٦٦، الموقف ٣١٤.

[٦٦٥] محاضرة الأبرار: ج٢ص٤١٩، ص٤٥٠-٤٥١.

[٦٦٦] الفتوحات المكية: ج٣ص١٧.

التنزلات الموصلية (الموصل ٦٠١/١٢٠٥)

وفي الموصل في هذه السنة كتب الشيخ محيي الدين كتاب "التنزلات الموصلية في أسرار الطهارات والصلوات والأيام الأصلية" الذي يتناول موضوع المعاني الباطنية للوضوء والصلاة وعلاقة الأيام الأصلية بأوقات الصلوات، وقد ألفه الشيخ محيي الدين في بضعة أيام في الموصل.

وتجدر الإشارة إلى أن الشيخ محيي الدين ابن العربي لديه رؤية فريدة في معاني الأيام وأنواعها وعلاقتها مع بعضها لا توجد عند غيره من المفكرين أو الفلاسفة. فهو يعتبر أن هناك ثلاثة أنواع من الأيام هي الأيام المشهودة وهي الأيام العادية المعروفة، ثم أيام السلخ وهي المشار إليها في قوله تعالى في سورة يس: (وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴿٣٧﴾)، وهي ترتبط بالأيام المشهودة بعلاقة معينة ذكرها الشيخ محيي الدين في كتاب أيام الشأن. وأما النوع الثالث من الأيام فهي أيام الإيلاج وهي الأيام الأصلية المقصودة في عنوان هذا الكتاب، وهي أيضاً مذكورة بالتفصيل في كتاب أيام الشأن.[٦٦٣]

ونشير في هذا الصدد أيضاً أن رؤية الشيخ محيي الدين للزمن وطبيعته تعتبر رؤية فريدة لم يسبق لأحد من العلماء أو الفلاسفة أن تحدّث عنها، ولقد قمنا في الأطروحة بدراسة تفصيلية لمفهوم الزمن عند الشيخ محيي الدين ابن العربي ومقارنته مع النظريات العلمية الحديثة وخلصنا إلى نتائج مهمة تدل على إمكانية الاستفادة من رؤية الشيخ محيي الدين عن الزمن في تفسير بعض الظواهر الفيزيائية المستعصية وبناء نظرية متكاملة عن أصل العالم وتركيبه. وكما ذكرنا من قبل فسوف نعدّ هذه الأطروحة للنشر باللغة العربية قريبا إن شاء الله تعالى.

كتاب الجلال والجمال (الموصل ٦٠١/١٢٠٥)

وكذلك في الموصل كتب الشيخ محيي الدين كتاب الجلال والجمال في يوم واحد كما يقول في نهاية هذا الكتاب حسب بعض المخطوطات.[٦٦٨] وقد ناقش الشيخ رضي الله عنه في هذا الكتاب معنى الجلال والجمال بالنسبة لله تعالى وذكر أن الجلال هو معنى يرجع منه إليه وهو الذي منَعَنا من المعرفة به، أما الجمال فهو معنى يرجع منه إلينا وهو أعطانا المعرفة به. ويضيف أن الجلال والجمال صفتان يقابلهما في الإنسان الهيبة والأنس. ويقول الشيخ محيي الدين أن صفة الجلال المطلق ليس لأي مخلوق مدخل في معرفتها، أما ما ذكره الله تعالى من معاني الجلال في القرآن الكريم، فهو من باب جلال الجمال وليس الجلال المطلق. وبسبب هاتين الصفتين المختلفتين وصف الله نفسه بأنه له يدين وعرّفنا بالقبضتين، ولذلك فما من آية رحمة في القرآن الكريم إلا ويقابلها آية فيها تحذير من عذاب الله وعقابه. ثم ذكر الشيخ محيي الدين إشارات كثيرة عن معاني الجلال والجمال وأسرارهما.

---

[٦٦٧] كتاب أيام الشأن، مطبوع ضمن مجموعة رسائل ابن عربي، طبعة حيدر آباد.

[٦٦٨] مؤلفات ابن عربي: ص٢٧٢-٢٧٣.

كتاب الكنه (الموصل ١٢٠٥/٦٠١)

وكذلك كتب الشيخ محيي الدين في الموصل كتاب "كنه ما لا بد للمريد منه" ويسمى أيضاً "إرشاد الطالبين وتنبيه المريدين والمسترشدين"، وقد وضع الشيخ محيي الدين رضي الله عنه في هذا الكتاب بأوضح عبارة مختصرة الأسس البسيطة التي يجب على المريد التمسك بها والتي لا بد له منها لكي يبدأ في الطريق.[٦٦٩]

وقد طبع هذا الكتاب طبعات كثيرة وترجم إلى اللغة التركية وغيرها.[٦٧٠]

قراءة كتاب روح القدس (الموصل، ٢٩ رمضان ١٢٠٥/٦٠١ [أيار])

فمن السماعات المدونة في بعض مخطوطات روح القدس سماع في الموصل مؤرخ بتاريخ ٢٩ رمضان ٦٠١ على عدد من المستمعين منهم: عبد الله بدر الحبشي، إسحق بن محمد بن يوسف الرومي، علي بن أبي الفتح الكناري، يحيى بن عبد الله السخي الواسطي وأخوه أحمد، أحمد بن مسعود بن شداد المقري، عبد الكريم بن يوسف بن الحسين الموصلي، أبو بكر بن الحسين الصفار الموصلي، محمد بن أبي بكر بن علي.[٦٧١]

ديار بكر

بعد أن قضوا شهر رمضان في الموصل، يبدو أن الركب شد رحاله إلى ملطية بلد الشيخ مجد الدين إسحق بن يوسف الرومي والد صدر الدين القونوي حيث سيزوره في بيته قبل أن يتوجّهوا إلى قونية تلبية لدعوة الملك كيكاوس كما ذكرنا أعلاه. ولكن لا بدّ أن الشيخ محيي الدين والركب الذين معه قد ساروا محاذين لنهر دجلة فلا بدّ أنهم قد مرّوا بالجزيرة في ديار بكر في منطقة حرّان وماردين قبل أن يصلوا إلى ملطية.

وقد أشار الشيخ محيي الدين مرّات عديدة في الفتوحات المكية أنه التقى بأشخاص في هذه المناطق مع أنه لم يحدد التاريخ، ولكن لا بدّ أن ذلك كان خلال رحلاته بين العراق وتركيا وسورية، التي تمت بين سنة ٦٠٢ وسنة ٦١٨.

الأقطاب النيّاتيّين والشيخ عمر الفرقوي (دنيسر)

فقد ذكر الشيخ محيي الدين أنه التقى في دنيسر بشخص يقال له عمر الفرقوي وكان من الأقطاب النيّاتيّين الذين يراقبون خواطرهم فهُم في حضورٍ دائمٍ وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه من أكابرهم،

---

[٦٦٩] راجع كتاب "كنه ما لا بد منه" (كتاب الكنه) للشيخ محيي الدين ابن العربي، مكتبة محمد علي صبيح-القاهرة، ١٩٦٧.

[٦٧٠] مؤلفات ابن عربي: ص٥٢٣.

[٦٧١] مؤلفات ابن عربي: ص٣٧٦-٣٧٧.

ويقول الشيخ محيي الدين أن هذا المقام ضيّق جداً وقليل الذين يصمدون فيه.

وبلدة دنيسرُ هي بلدة كبيرة مشهورة من نواحي الجزيرة قرب ماردين بينهما فرسخان ولها اسم آخر يقال لها قوج حصار.[٦٧٢]

الرجبيّون (دنيسر)

ومن الأشخاص الذين التقى بهم الشيخ محيي الدين في الجزيرة في بلدة دنيسر أيضاً شخص ينتمي إلى الرجبيين، وهم مجموعة من الأولياء من رجال العدد، يكون عددهم في كل وقت أربعين نفساً (أي يمكن أن يكون منهم نساء رغم تسميتهم رجالا كما نوّهنا من قبل)[٦٧٣] في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون وهم رجال حالهم القيام بعظمة الله وهم من الأفراد[٦٧٤] وهم أرباب القول الثقيل من قوله تعالى، في سورة المزّمّل: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ۝﴾ وسُمّوا رجبيون لأن حال هذا المقام لا يكون لهم إلا في شهر رجب من أول استهلال هلاله إلى انفصاله ثم يفقدون ذلك الحال من أنفسهم فلا يجدونه إلى دخول رجب من السنة الآتية، وقليل من يعرفهم من أهل هذا الطريق وهم متفرقون في البلاد ويعرف بعضهم بعضاً؛ منهم من يكون باليمن وبالشام وبديار بكر.

ويقول الشيخ محيي الدين أن هؤلاء الرجبيون أول يوم يكون في رجب يجدون كأنما أطبقت عليهم السماء فيجدون من الثقل بحيث لا يقدرون على أن يطرفوا ولا يتحرّك فيهم جارحة ويضجعون فلا يقدرون على حركة أصلاً ولا قيام ولا قعود ولا حركة يد ولا رجل ولا جفن عين. يبقى ذلك عليهم أول يوم، ثم يخف في ثاني يوم وفي ثالث يوم أقل وتقع لهم الكشوفات والتجليات والاطلاع على المغيبات ولا يزال مضطجعاً مسجّىً يتكلم بعد الثلاث أو اليومين ويُتكلم معه ويقال له إلى أن يكمل الشهر، فإذا فرغ الشهر ودخل شعبان قام كأنما نشط من عقال. فإن كان صاحب صناعة أو تجارة اشتغل بشغله وسلب عنه جميع حاله كلّه إلا من شاء الله أن يبقى عليه من ذلك الشيء أبقاه الله عليه.

فيقول الشيخ محيي الدين أنه لقي واحداً منهم بدنيسر من ديار بكر ما رأى منهم غيره وكان بالأشواق إلى رؤيتهم، والذي اجتمع به منهم كان في شهر رجب وكان في هذه الحال التي ذكرناها.[٦٧٥]

كشف حال الروافض من أهل الشيعة

فيقول الشيخ محيي الدين أن بعض الرجبيين الذي يظهر الحال عليهم في شهر رجب يبقى يصحبهم في سائر السنة أمرٌ ما ممّا كان يكاشف به في حاله في رجب، ومنهم من لا يبقى عليه شيء من ذلك،

---

[672] معجم البلدان: رقم ٤٨٩٩.

[673] حيث أنّ تسميتهم رجالا هي من الرجولة وهي الثبات في المواقف.

[674] ذكرنا من قبل أن الأفراد هم رجال من الأولياء خارجين عن دائرة القطب.

[675] الفتوحات المكية: ج٢ص٨.

ثم يضيف أن الشخص الذي رآه في دنيسر كان قد أبقي عليه كشف الروافض من أهل الشيعة في سائر السنة فكان يراهم خنازيراً! فيأتي الرجل المستور الذي لا يعرف منه هذا المذهب قط وهو في نفسه مؤمن به يدين به ربه، فإذا مرّ عليه يراه في صورة خنزير فيستدعيه ويقول له تُب إلى الله فإنك شيعي رافضي! فيبقى الآخر متعجباً من ذلك فإن تاب وصدق في توبته رآه إنساناً، وإن قال له بلسانه تبت وهو يُضمر مذهبه لا يزال يراه خنزيراً، فيقول له كذبت في قولك تبت. وإذا صدق يقول له صدقت. فيعرف ذلك الرجل صدقه في كشفه فيرجع عن مذهبه ذلك الرافضي.

ثم يضيف الشيخ محيي الدين أنه لقد جرى مثل هذا مع رجلين عاقلين من أهل العدالة من الشافعية ما عُرف منهما قط التشيّع ولم يكونا من بيت التشيّع ولكن أدّاهما إليه نظرهما وكانا متمكّنين من عقولهما فلم يُظهرا ذلك وأصرّا عليه بينهما وبين الله. فكانا يعتقدان السوء في أبي بكر وعمر ويتغالون في عليّ. فلما مرّا بهذا الرجل ودخلا عليه أمر بإخراجهما من عنده فإن الله كشف له عن بواطنهما في صورة خنازير، وهي العلامة التي جعل الله له في أهل هذا المذهب، وكانا قد علما من نفوسهما أنّ أحداً من أهل الأرض ما اطلع على حالهما وكانا شاهدين عدلين مشهورين بالسنّة، فقالا له في ذلك فقال أراكما خنزيرين وهي علامة بيني وبين الله فيمن كان مذهبه هذا، فأضمرا التوبة في نفوسهما فقال لهما إنكما الساعة قد رجعتما عن ذلك المذهب فإني أراكما إنسانين؛ فتعجبا من ذلك وتابا إلى الله.[٦٧٦]

وقد ذكر الشيخ محيي الدين قصة هذا الرجل في كتاب محاضرة الأبرار أيضاً وقال إنه كان بائع خضار وجزر ولكنه قال هناك أنه يرى الرافضة على شكل كلاب.[٦٧٧]

ونقول أنه من الواضح من هذه الرواية أن الشيخ محيي الدين رضي الله عنه، رغم حبّه في أهل البيت وموافقته لبعض عقائد الشيعة حول موضوع قرب عليّ كرّم الله وجهه من النبي صلّى الله عليه وسلّم وحول موضوع المهدي وفيما يخص الأئمة، ولكنّه لم يكن أبداً شيعيًا ولا يذكر الصحابة جميعهم إلا بالخير وخاصة أبا بكر رضي الله عنه وعمر الفاروق، وكذلك عثمان ذو النورين رضي الله عنه وعلي كرّم الله وجهه، ويعدّهم أنهم من الأقطاب.[٦٧٨] ويقول أيضاً بشكل صريح في مكان آخر أن الشيطان ألقى إلى الشيعة أصلا صحيحا وهو حب آل البيت، ولكنهم زادوا فمنهم، ولاسيما الشيعة الإمامية، من تعدى إلى بغض الصحابة وسبّهم، ومنهم من قدح في رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وفي جبريل عليه السلام وفي الله جلّ جلاله.[٦٧٩]

وفي ذلك ردّ واضح على من اتّهم الشيخ محيي الدين بالتشيّع، وسوف يكون لنا عودة لهذا الموضوع في الفصل السابع والأخير إن شاء الله تعالى.

---

[٦٧٦] الفتوحات المكية: ج٢ص٨.

[٦٧٧] محاضرة الأبرار: ج١ص٤١٨.

[٦٧٨] الفتوحات المكية: ج٢ص٦.

[٦٧٩] الفتوحات المكية: ج١ص٢٨٨، ج٣ص١٣٨.

رجال الأيام/الجهات الستة (حرّان)

لقد ذكرنا من قبل أن الشيخ محيي الدين التقى، روحيا، بالقطب أحمد السبتي ابن هارون الرشيد وهو يطوف حول الكعبة سنة ٥٩٩، وذكرنا أن الشيخ محيي الدين يعتبر السبتي، الذي سمّي كذلك لأنه كان يحترف يوم السبت ويعبد الله بقية الأسبوع، أنه من رجال العدد الذين يحفظ الله بهم الجهات الستة. وهؤلاء الرجال هجيرهم قول الله تعالى في سورة ق: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾).

ويذكر الشيخ محيي الدين أيضاً أنه التقى برجل آخر من هذا الصنف وهو من أهل حرّان في شمال شرق سورية من أهل أرزن الروم وصحبه وكان هذا الشخص يعظّم الشيخ محيي الدين ويراه كثيراً واجتمع به في دمشق وفي سيواس وفي مالطة (ملطية) وفي قيصرية، وخدمه مدّة. ويقول الشيخ محيي الدين عنه أنه كان غنياً ذا مال كثير وكانت له والدة وكان باراً بها؛ اجتمع به في حرّان في خدمة والدته فيقول إنه ما رأى فيما رأى من برّ أمه مثله.[680]

الملك أبو بكر بن أيوب (ميافارقين)

وفي خلال تجوّله في الجزيرة السورية مرّ الشيخ محيي الدين في ميافارقين التي كانت تحت إمرة السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر (٥٩٦/١٢٠٠–٦١٥/١٢١٨). ويبدو أنه كان له معه اختلاط مثل سلطان حلب الملك الظاهر كما رأينا.

وميافارقين هي مدينة آرامية من أهم مدن الجزيرة، تقع في الحوض الأعلى لنهر دجلة قرب آمد، وكانت أشهر مدن ديار بكر قبل الإسلام وبعده، واستمرت من أهم المراكز الحصينة حتى ما بعد القرن السابع الهجري، وهي تقع الآن في كردستان تركيا.

يروي الشيخ محيي الدين في الباب الثامن وخمسين وخمسمائة في أثناء حديثه عن حضرات الأسماء الإلهية، ومنها حضرة البسط وهي للاسم الباسط، أنّ الله وفّق بعض الناس لوجود أفراح العباد على أيديهم، وأول درجة في ذلك من يضحك الناس بما يرضى الله أو بما لا رضا فيه ولا سخط وهو المباح. فيقول الشيخ محيي الدين أن ذلك نعتٌ إلهيٌ لا يُشعر به وحتى إن الجاهل يهزأ به ولا يقيم وزنا لمن يضحك الناس، وهذا هو المسمى في العرف "مسخرة". ويذكُر الشيخ محيي الدين أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد مازح العجوز والصغير وهو يباسطهم بذلك ويفرحهم.[681]

---

[680] الفتوحات المكية: ج٢ص١٥.

[681] ذكرنا قصة مزاحه صلّى الله عليه وسلّم مع العجوز حين قال لها "إن الجنة لا تدخلها عجوز". أما بخصوص ممازحته للصغار فهو الحديث في الصحيحين وغيرهما عن أنس بن مالك، قال: كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أحسن الناس خُلقا، وكان لي أخ يقال له أبو عمير، (قال الراوي: أحسبه قال: كان فطيما،) قال: فكان إذا جاء رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فرآه قال (أبا عمير! ما فعل النغير؟)، قال: فكان يلعب به. انظر في كنز العمال: رقم ٨٣٢٤. والنغير طائر صغير.

وبهذا الصدد يذكر الشيخ محيي الدين أنه لم يرَ من الملوك من تحقق بهذا المقام مثل الملك العادل أبي بكر بن أيوب الذي كان يباسط صغار أولاده بحضور أمرائه والرسل عنده والشيخ محيي الدين كان حاضر عنده بميافارقين. فيقول الشيخ محيي الدين أنه رأى ملوكاً كثيراً ولم ير منهم مثل ما رآه من الملك العادل في هذا الباب، وكان يرى ذلك من جملة فضائله ويعظم به في عينه وشكره على ذلك. ويقول أيضاً أنه رأى من رفقه بالحريم وتفقّد أحوالهنّ وسؤاله إياهنّ ما لم ير لغيره من الملوك.[682]

مَلَطْيَة (شوال ١٢٠٥/٦٠١)

وبعد مرورهم بدنيسر وحرّان وصل الركب إلى ملطية، وهي بلدة في ديار بكر؛ يقال إن الإسكندر هو الذي بناها ثم أعاد المسلمون بناءها بعدما فتحوها سنة ٧٥٧/١٤٠. وفي هذه المدينة الصغيرة سيكون للشيخ محيي الدين تاريخٌ مُشرق وسيقضي بها عدة سنين من حياته وسيكون له فيها أسرة ويولد له فيها ولد وستكون محطة ينطلق منها متابعاً رحلاته إلى المدن المختلفة ثم يعود إليها.

ومع ذلك فإن الشيخ محيي الدين لم يكن ليمر في هذه البلدة من غير أن يلقي فيها دروساً ويقرأ فيها على المريدين بعض كتبه، ومنها روح القدس.[683]

قونية (شوال ١٢٠٥/٦٠٢)

يقول ياقوت الحموي في معجم البلدان أن قُونية كانت من أعظم مدن الإسلام ببلاد الروم، وبها سُكنى ملوكها، وقال ابن الهروي إن بها قبر أفلاطون الحكيم، ومن أشهر أعلام التصوف الذي عرفتهم قونية هو جلال الدين الرومي الذي استقر فيها سنة ١٢٢٦/٦٣٢ بعد أن تركها ابن العربي ببضع سنوات إلى أن توفي فيها سنة ٦٧٢/ ١٢٧٣، وسوف نذكر أدناه قصّة لقائه بابن العربي حين كان لا يزال بعدُ صغيراً يمشي مع والده.

ولقد ذكرنا أعلاه أنه لما أعاد غياث الدين كيخسرو توحيد بلاد الروم جعل من قونية عاصمة له واستقر فيها حتى سنة ١٢١١/٦٠٧ ثم خلفه ابنه كيكاوس الذي كان أميراً على ملطية قبل ذلك وكان أستاذه ومربيه مجد الدين الرومي وهو صاحب ابن العربي.

عندما وصل مجد الدين إلى ملطية أرسل له الملك كيخسرو حتى يكلّفه بمهمة إصلاح الوضع الاجتماعي ببناء الفتوات كما فعل عند الخليفة الناصر لدين الله في بغداد. ويبدو أن الشيخ محيي الدين جاء برفقته إلى قونية فتعرّف عليه كيخسرو وأكرمه وأجلّه كثيرا، ويقول المقرّي في "نفح الطيب" أن ملك الروم، وهو إمّا كيخسرو أو ابنه كيكاوس، أمر له مرّة بدارٍ تساوي مائة ألف درهم، فلمّا نزلها وأقام بها مرّ به في بعض

---

[682] الفتوحات المكية: ج٤ص٢٢٥.

[683] روح القدس، نسخة استانبول، السماع ٧٩.

الأيّام سائل، فقال له: شيء لله! فقال: ما لي غير هذه الدار، خذها لك. فتسلّمها السائل وصارت له.[٦٨٤]

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الشيخ محيي الدين رضي الله عنه يرى إباحة الأخذ من عطاء السلطان ويقول إنه ما هو إلا أمانة عنده للمسلمين، فمن عرض عليه السلطان شيئاً فليأخذه لأنه هو صاحبه على الحقيقة وما كان إلا أمانة له عند السلطان. وفي المقابل فإن الشيخ يرفض الأخذ من الناس ويعتبر أن ذلك شيء يأخذ من المروءة. فيقول الشيخ محيي الدين في "محاضرة الأبرار":

إن الحـــلال مــــن المكاســـب همّــــتي	والأخـــذ مـــن مـــال الفتـــوح أجانبـــه
تمـــضي المـــروءة أخـــذه مـــن عـــالم	مذمومــــــة أحوالـــــه ومذاهبـــــه
تمـــتنّ مـــن قبـــل العطـــاء وربّمـــا	ســـألت عليـــك بمـــا يعيـــل مدائبـــه
فلتجتنـــب أخـــذ الفتـــوح فإنـــه	يجـــني علـــى الأعقـــاب منـــك عقائبـــه
إلا مـــن الـــسلطان فهـــو تـــصيبكم	ممـــا تعـــيّن بالـــشريعة واجبـــه
هـــو عنـــده للمـــسلمين أمانـــة	فمتـــى حبـــاك فخـــذه إنـــك صـــاحبه"[٦٨٥]

ولذلك نجد أن الشيخ محيي الدين لا يرفض الهبة من السلاطين، بل كان يأخذها ويتصدق بها إن لم يكن بحاجتها. فقد ذكر المقرّي في "نفح الطيب" أيضاً أن صاحب حمص رتّب له كلّ يوم مائة درهم، وابن الزكي كلّ يوم ثلاثين درهماً. فكان يتصدّق بالجميع.[٦٨٦]

رسالة الأنوار (قونية ١٢٠٥/٦٠٢)

وفي قونية استمر الشيخ محيي الدين بالكتابة فأنتج عدداً من الكتب منها رسالة الأنوار وكذلك كتاب "الأمر المحكم المربوط" وكتاب "العظمة".

وتُعتبر رسالة الأنوار من أهم الكتب التي ألّفها الشيخ محيي الدين في قونية وقد ذكر فيها الشيخ رضي الله عنه كيفيّة الدخول بالخلوة الصحيحة ومن ثَمّ ما هي الأنوار التي يمكن أن تتجلى للمريد في خلوته وكيف يحتاط لنفسه من الهلاك إذا لم تكن خلوته كاملة وكان لا يزال في قلبه تعلّق في الدنيا وأهلها؛ فيقول الشيخ رضي الله عنه أنه ليس المراد من الخلوة الابتعاد عن الناس وإنما الابتعاد عن التعلّق بهم، فإذا أغلق المريد باب بيته عن الناس وباب قلبه عن الدنيا واشتغل بذكر الله تعالى تنفتح في قلبه عيون الكشف وتبدأ أنوار التجليات تتوالى على قلبه ويطّلع على أسرار العالم السفلي والعلوي. ولكن الشيخ محيي الدين يقول إن جُلّ ذلك إنما يكون ابتلاءً من الله تعالى، فلا يجوز الوقوف مع هذه الأنوار. فأول ما يُكشف للمريد أسرار الأحجار المعدنية وغيرها. فإن لم يقف معها يُكشف له عن عالم سريان الحياة السببية في الأحياء. فإن لم يقف معها يُرفع له عن اللوائح اللوحية. فإن لم يقف معها يُرفع له عن نور الطوالع... ثم عن مراتب العلوم ثم

[٦٨٤] نفح الطيب: ج٢ص١٦٤.

[٦٨٥] محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار: ج٢ص٤٠٨.

[٦٨٦] نفح الطيب: ج٢ص١٦٦.

عن عالم الجمال ثم عن مراتب القطبية ثم عن عالم الغضب ثم عن عالم الحيرة ...، وهكذا.

ويضيف الشيخ محيي الدين رضي الله عنه أنه إذا لم يكن للمريد تعلّقٌ في همّته إلا في الجنة خاصّة انكشفت له هذه الأنوار ولم يقف معها ولم تصبه منها آيّة آفة. أما إذا تعلّقت همّته بشيء ما فإنه كالمريض تسقط قواه كلُّها ولم ينكشف له شيء."[٦٨٧]

الأمر المحكم المربوط (قونية ٦٠٢/١٢٠٥)

وذكر الشيخ محيي الدين في هذا الكتاب الأسس التي يجب على أهل الله الالتزام بها، وذكر أيضاً الصفات التي يجب أن يتميّز بها الشيخ المرشد؛ فكان عنوان الكتاب هو "الأمر المحكم المربوط فيما يلزم أهل الله من الشروط".

ولقد تُرجم هذا الكتاب إلى اللغة التركية عدة مرات،[٦٨٨] وله أسماء أخرى عديدة منها: "شروط أهل الطريق"، و"أدب القوم"، و"أدب الشيخ والمريد"، ويوجد منه العديد من المخطوطات ولكن بعضها غير كامل، وقد تم طباعة هذا الكتاب ونشره اعتماداً على مخطوطات ناقصة ولم يتم عمل تحقيق جيّد له حتى الآن.

ولكنّ الشيخ محيي الدين لم يكمل هذا الكتاب في قونية، حيثُ تدلّ بعض المخطوطات أنه أكمله في شهر جمادى الأولى في دمشق من نفس هذه السنة كما سنرى بعد قليل.

كتاب العظمة (قونية ٦٠٢/١٢٠٥)

ومن الكتب التي ألفها الشيخ محيي الدين في قونية كتاب العظمة وهو كتاب يعالج موضوع أسرار الحروف وقد عالج الشيخ محيي الدين هذا الموضوع أيضاً في الفتوحات المكية، وخاصة في الباب الثالث والثمانين وثلاثمائة، ولكن أيضاً هناك أبواب أخرى في هذا الموضوع منها الباب الثاني الذي يزيد عن الأربعين صفحة، والباب الثامن والتسعين ومائة الذي يقارب المئتي صفحة من الفتوحات المكية.

ويوجد مخطوطات عديدة لهذا الكتاب في مكتبات العالم وعدة سماعات في حلب ودمشق ذكرها عثمان يحيى في تصنيفه.[٦٨٩]

الشيخ أوحد الدين حامد الكرماني (قونية)

وفي قونية تعرّف الشيخ محيي الدين على الشيخ أوحد الدين الكرماني (٥٥٩/١١٦٤–٦٣٥/١٢٣٨)،[٦٩٠] الذي سيكون له أثر كبير في نشر التصوف في شمال شرق آسيا وإيران، وكذلك سوف يكون له

---

[٦٨٧] ملخصة من رسالة الأنوار، مجموعة رسائل ابن عربي، طبعة حيدر آباد، ١٩٤٨.

[٦٨٨] مؤلفات ابن عربي: ص٢٠٣-٢٠٤.

[٦٨٩] مؤلفات ابن عربي: ص٤١٣-٤١٤.

[٦٩٠] ذكر ذلك في الأمر المحكم المربوط.

دور كبير هو والشيخ محيي الدين في تربية صدر الدين القونوي بعد وفاة والده الشيخ مجد الدين الرومي وهو الذي سيكون له الفضل في نشر التصوف في البلاد التركية.

والشيخ أوحد الدين أصله من إيران، من كرمان، وكان ابن أمير من السلاجقة هناك، ثم ذهب إلى بغداد للدراسة وأصبح شيخاً لأحد الفتوّات هناك، ثم جاء إلى الأناضول لإصلاح المؤسسات الدينية عن طريق الفتوات التي أثبتت نجاحها في بغداد. ولكن يبدو أن الشيخ الكرماني واجه معارضة شديدة في قونية فغادرها واستقر في قيصرية، نحو الشمال بين قونية وملطية.[691]

ولقد كان للشيخ أوحد الدين دور مهم في نشر التصوف في هذه المناطق وشكّل ما أصبح يعرف بالطريقة الأوحدية التي تعتمد أصولها على التحليق في الآفاق والأنفس والهيام في جمال حسان الوجوه لبلوغ العشق الإلهي. ولكن بعض الدراسات عن حياة أوحد الدين كرماني ومؤلّفاته ورباعيّاته ومنهجه في السير والسلوك الصوفي، تشير إلى أنه كان مفتوناً بجمال الشباب.[692] وهو الأمر الذي يرفضه الشيخ محيي الدين رفضا قاطعا كما وضّح في الباب الثامن ومائة، الذي خصصه الشيخ لمعرفة الفتنة والشهوة وصحبة الأحداث والنسوان، أن ذلك يعدّ من سوء المزاج وأن الشيوخ إنما حذّروا من أخذ الرفاق من النساء ومن صحبة الأحداث لما فيه من الميل الطبيعي، ثم يضيف أنه حرام على المريدين والصوفية صحبة الأحداث لاستيلاء الشهوة الحيوانية عليهم بسبب العقل الذي جعله الله مقابلاً لها فلولا العقل لكانت الشهوة الطبيعية محمودة. ولكن هذا لا يعني الابتعاد عن الأحداث، وهم صغار السن، والنفور منهم وجفاءَهم وخاصة بالنسبة للشيوخ الذين لهم قدمٌ راسخة في الطريق، لأنهم حديثو عهدٍ بربهم فهم أقرب دلالة وأعظم حرمة وأوفر لدواعي الرحمة به من الكبير البعيد عن هذا المقام.[693]

لقد ساهم الشيخ أوحد الدين الكرماني بنقل التجربة الصوفية الشرقية إلى الشيخ محيي الدين عن طريق الروايات التي كان يرويها له عن أهل العراق والمشرق، فقد ذكر الشيخ محيي الدين مثلا في الفتوحات المكية أن الشيخ الكرماني حدثه عن كرامة رآها من شيخ كان يخدمه وهو شاب فمرض ذلك الشيخ وأخذ بطنه يؤلمه كثيرا، فقال له يا سيدي اتركني أطلب لك دواء ممسكاً من صاحب مارستان سنجار من السبيل. قال الكرماني: فلما رأى احتراقي قال لي رح إليه. فلما راح إلى صاحب السبيل، وهو في خيمته جالس ورجاله بين يديه قائمون والشمعة بين يديه وكان صاحب المرستان والكرماني لا يعرفون بعضهم. فلما رآه واقفاً

---

[691] الرحمن المطلق: ص١٧٩.

[692] كتاب: أوحد الدين كرماني وحركت أوحديه [أوحد الدين كرماني والطريقة الأوحدية]. ترجمة: منصورة حسيني: داود وفايي، طهران. يقول الناشر عن هذا الكتاب أنه دراسة عن حياة أوحد الدين كرماني ومؤلّفاته و رباعيّاته ومنهجه في السير والسلوك الصوفي، ويشير المؤلف إلى رحلات هذا المتصوف الذي عاش في العصر السلجوقي، كما يذكر أصول الأوحديّة وطريقتها وخلفاء أوحد الدين. ويرى المؤلّف أنّ أصول هذه الطريقة في التصوف تستند إلى التحليق في الآفاق والأنفس والهيام في جمال حسان الوجوه لبلوغ العشق الإلهي. ويقول عن أوحد الدين أنّه كان مفتوناً بجمال الشباب. ويعد الشيخ نصيرالدين خوئي (أخي أورون) وزوجته فاطمة خاتون من أتباعه وكذلك الشيخ شمس الدين تفليسي وزين الدين صدقة.

[693] الفتوحات المكية: ج٢ص١٩٠.

بين الجماعة قام إليه وأخذ بيده وأكرمه وسأله عن حاجته فاستحضر له الدواء وأعطاه إياه وخرج معه في خدمته والخادم بالشمعة بين يديه. فلما جاء للشيخ وأعطاه الدواء وذكر له ما حصل، تبسم الشيخ وقال له: يا ولدي إني أشفقت عليك لمّا رأيت من احتراقك من أجلي فأذنت لك فلما مشيت خفت أن يخجلك الأمير بعدم إقباله عليك فتجردت عن هيكلي هذا ودخلت في هيكل ذلك الأمير صاحب المرستان وقعدت في موضعه فلما جئتَ أكرمتُك وفعلتُ معك ما رأيت ثم عدت إلى هيكلي، هذا ولا حاجة لي في هذا الدواء وما استعمله![694]

سقيط الرفرف بن ساقط العرش (قونية)

وفي قونية رأى الشيخ محيي الدين شخصاً سمّاه باسم مقامه "سقيط الرفرف بن ساقط العرش"، وهو من رجال العدد، وآيته من كتاب الله الآية الأولى من سورة النجم "وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝"، وهو دائم الشغل بنفسه وبربه، شأنه كبير وحاله عظيم. يقول عنه الشيخ محيي الدين أنه صاحب انكسار وذلّ ورؤيته في هذه الحالة مؤثرة. ويضيف الشيخ محيي الدين أن هذا الشخص كان له لسانٌ في المعارف وهو شديد الحياء."[695]

وفي الباب الثامن والتسعين ومائة يقارن الشيخ محيي الدين بين الأبدال وبين سقيط الرفرف بن ساقط العرش فيقول إنه اجتمع بهؤلاء الأبدال السبعة بحرم مكة خلف حطيم الحنابلة وكانوا يركعون هناك فسلم عليهم وسلموا عليه وتحدث معهم فما رأى أحسن سمتاً منهم ولا أكثر شغلاً منهم بالله، ثم يقول: ما رأيت مثلهم إلا سقيط الرفرف ابن ساقط العرش بقونية وكان فارسياً."[696]

ولقد ذكرنا من قبل في الفصل الثالث أن الشيخ رأى بفاس رجلا "ساقطا" عليه من الحزن بحيث كان يبدو كأنه يوقد في الأتون وصحبه الشيخ ونفعه بعد أن بيّن له سبب زلّته، ولكن يضيف أنه مع ذلك بقي الحزن عليه. ثم يقول الشيخ رضي الله عنه أن جماعة من أهل الله يُعرضون عن الساقطين بسبب أنهم ما بلغوا من معرفة الله بحيث أنهم يرونه عين كل شيء؛ فلما حصروه صار عندهم كل من سقط من ذلك المقام الإلهي الذي عيّنوه أعرضوا عنه. أما العلماء بالله فما لهم حالة الإعراض عن هؤلاء لأنهم في حال الثبوت وحال السقوط ما خرجوا عن المقام الإلهي وإن خرجوا عن المقام العادي."[697]

المصور المبدع (قونية)

يعتبر الشيخ محيي الدين أن الأسماء الإلهية هي الفاعلة في العالم ولو أن أكثر الناس لا يشعرون

---

[694] الفتوحات المكية: ج١ص١٢٧.

[695] الفتوحات المكية: ج٢ص١٤.

[696] الفتوحات المكية: ج٢ص٤٥٦.

[697] الفتوحات المكية: ج٣ص٢٢٨.

بذلك ويحسبون أنهم هم الفاعلين، ويختص كل اسم إلهي بإمداد فئة معينة من الناس أو نشاط معين يخصه. فمثلا، يقول الشيخ محيي الدين أن الاسم "الباري" منه يكون الإمداد للأذكياء من المهندسين أصحاب الاستنباطات والمخترعين الصنائع والواضعين الأشكال الغريبة، فهم عن هذا الاسم يأخذون. وهذا الاسم أيضاً هو الممد للمصورين (الرسامين والنحاتين) في حسن الصورة وتحديد موازينها من حيث الألوان والأبعاد.

ويذكر الشيخ محيي الدين أن من أعجب ما رأى في هذا الخصوص في قونية من بلاد يونان مصوراً اختبره الشيخ محيي الدين وأفاده في صنعته من حيث صحة التخيل ما لم يكن عنده. فيقول إنه صور يوماً حجلة وأخفى فيها عيباً لا يُشعر به وجاء بها إلى الشيخ محيي الدين ليختبره في ميزان التصوير، وكان قد صوّرها في طبق كبير على مقدار صورة الحجلة في الجرم، وكان هناك بازي: فعندما أبصرها أطلقه من كان في يده عليها فركَضها برجله لمّا تخيل أنها حجلة في صورتها وألوان ريشها! فتعجّب الحاضرون من حسن صَنعته.

فقال المصور للشيخ محيي الدين: ما تقول في هذه الصورة؟ فقال له الشيخ: هي على غاية التمام، إلا أن فيها عيباً خفياً، وكان المصوِّر قد ذكره للحاضرين فيما بينه وبينهم. فقال له: وما هو، هذه أوزانها صحيحة! فقال له الشيخ محيي الدين: في رجليها من الطول عن موازنة الصورة قدر عرض شعيرة. فقام المصور وقبّل رأس الشيخ محيي الدين وقال له: بالقصد فعلت ذلك لأجرّبك، وصدّقه الحاضرون وقالوا أنه ذكر ذلك لهم قبل أن يوقفه عليها.[٦٩٨]

المنجيقي بن عبد المجيد بن عبدون (قونية)

وفي قونية التقى الشيخ محيي الدين برجل يدعى بالمنجيقي وهو ابن عبد المجيد بن عبدون أخي عبد الله بن عبدون الذي كان كاتب أمير المسلمين في الأندلس أثناء وجود الشيخ محيي الدين هناك. ويقول الشيخ محيي الدين أن المنجيقي أخبره قصة أبيه وأعمامه الذين اتفق أنهم أكلوا من حيّة مسكوها في غرب الأندلس، فاكتسبوا علوما خاصة بمجرّد أكلهم منها وكانوا من البارزين في هذه العلوم. وهذا أمرٌ غريب ولكنه مذكور في العديد من كتب التراث القديمة مثل كتاب الحيوان للجاحظ وكتاب الحيوان للدميري.

يوجد في العديد من كتب التراث بعض الإشارات إلى الخواص الغريبة لبعض المخلوقات من حيوانات وجمادات وغيرها، وربما يكون في ذلك بعض الحقيقة التي وجدها القدماء بطريق التجربة أو غيرها كما هي الحالة مثلا في خواص الأعشاب وتخصّصها لشفاء أمراضٍ معينة. ولكن ربما أيضاً يكون في الكثير من هذه الوصفات بعض الشعوذة والخلط الذي لا يمكن للعاقل أن يقبله. وبين هذا الطرف وذاك تضيع الحدود وتتداخل الحقائق.

ولكن الشيخ محيي الدين يؤكد أن هناك بعض الخواص الغريبة التي لا يمكن إنكارها، ولو أنه لا يعطي تفسيراً لها. ولكنه يذكر قصة الأخوة الثلاثة الذين أكلوا من حية معيّنة توجد في بلاد الأندلس فكان كل

[٦٩٨] الفتوحات المكية: ج٢ص٤٢٤.

واحد منهم مضطلعا بنوع من العلم اكتسبه بمجرّد أكله لهذا الجزء من هذه الحية.

فيقول الشيخ محيي الدين أن مثل هذه الخواص هي من ضمن العلوم المختصة بمنزلٍ ذكره في الباب الخامس والتسعين ومائتان "في معرفة منزل الأعداد المشرّفة من الحضرة المحمدية". فيقول في هذا الباب أنه هناك حيوان (حيّة) إذا أُكل أعلاه أعطي بالخاصية لمن أكله علم النجوم، وإذا أُكل وسطه أعطي علم النبات، وإذا أُكل عجزه وهو ما يلي ذنبه أعطي علم المياه المغيبة في الأرض فيعرف صاحبه إذا أتى أرضاً لا ماء فيها على كم ذراع يكون الماء فيها. وهذا الحيوان هو حيّة ليست بالكبيرة ولا بالصغيرة ولا توجد إلا بأحواز شلب من غرب الأندلس، وكان قد وقع بها عبد الله بن عبدون كاتب أمير المسلمين فقطع رأسها وذنبها بسكين ذي شعبتين في ضربة واحدة وقسمها ثلاث قطع، وكانوا ثلاثة أخوة، فأكل عبد الله أعلاها فكان في علم القضاء بالنجوم آية من غير مطالعة كتاب أو توقيف إمام، وأكل أخوه عبد المجيد الوسط منها فكان آية في علم النبات وخواصه وتركيباته من غير مطالعة كتاب ولا توقيف، وأكل الأخ الثالث القطعة الأخيرة التي تلي الذنب منها فكان آية في استخراج المياه من جوف الأرض. فسبحان من أودع أسراره في خلقه.[٦٩٩]

الخضوع لحكم القضاء والقدر (قونية)

يعدّ موضوع القضاء والقدر من الموضوعات التي تُقلق فكر الكثير من الباحثين والمفكرين وحتى العامة من المسلمين، فالإيمان بهما واجب؛ ولكن ماذا يعني القضاء وماذا يعني القدر؟

يقول الشيخ محيي الدين في الباب الثلاثين وثلاثمائة أن القضاء يحكم على القدر والقدر لا حكم له في القضاء بل حكمه في المقدّر لا غير، وذلك بحكم القضاء. فالقاضي حاكم والمقدّر مؤقّت، فالقدر التوقيت في الأشياء، وذلك من الاسم "المقيت": قال الله تعالى في سورة النساء: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾.

فيقول الشيخ محيي الدين أنه أشهد هذا المنزل بقونية في ليلة لم يمرّ عليه أشدّ منها لنفوذ الحكم وقوّته وسلطانه، فحمد الله على قصوره عليه في تلك الليلة ولم يكن حكمَ تأييد وإنما كان حكم وقوع مقدّر، فلما رُدّ إلى نفسه وقد سقط في يده وعلم ما أنزل الله عليه وما قدّره الحق لديه وفرّق بين قضائه وقدره في الأشياء، كتب بذلك إلى أخٍ له في الله يعرّفه بما جرى وكان ذلك الأخ قد أرسل له للتوّ كتابا قد ورد عليه يطلب منه شرح أحواله، فصادف هذا الكتاب ورودَ هذا الحال على ابن العربي فكتب إليه الشيخ محيي الدين يصف له حاله هذا في كتابٍ طويل على شكل شعر ونثر.

فلمّا وصل الكتاب إلى صاحبه، ويبدو أن اسمه كان "شهاب الدين"، سُرّ بوروده وأمعن النظر فيه وإليه. فيقول الشيخ محيي الدين أنه أورثه التفكير فيه علّة كانت السبب في رحلته وسرعة نقلته فما بقي إلا أيّاماً ودرج وعلى أسنى معراجٍ إلى مقصوده عرج. ويضيف الشيخ أنه شهد احتضاره بالدار البيضا إلى أن

---

[٦٩٩] الفتوحات المكية: ج٢ص٦٧٤.

قضى.[700]

تجدر الإشارة هنا إلى أن "الدار البيضا" المذكورة هنا لا يمكن أن تكون تلك المدينة المغربية المعروفة كما افترض ذلك عثمان يحيى رحمه الله،[701] وذلك لأن الشيخ محيي الدين كان قد ترك المغرب منذ زمن وهو هنا يتكلم عن حادثة حصلت معه وهو في قونية.

من الممكن أن "الدار البيضاء" هنا هي مدينة في الأناضول قريبة من قونية وتسمى (Aksehir) وهي تعني بالتركية الدار البيضاء. ولكن من هو هذا الشخص الذي يتكلم عنه ابن العربي ويدعوه "شهاب الدين"!

من المحتمل أن يكون هذا الشخص هو شهاب الدين مدّ الله زيلا وهو أستاذ زين الدين محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي الذي يبدو أنه كان يدرّس الحديث في مدرسة قريبة من قونية والدار البيضاء (Aksehir) وقد ذكره الناسخ في مخطوطة أسعد أفندي ٣١٢ لكتاب مشكاة الأنوار،[702] ويبدو أنه من معارف الشيخ محيي الدين مع أننا لا نعرف أية معلومات أخرى عنه.[703]

من جهة أخرى من المحتمل أن يكون هذا الشخص هو شهاب الدين السهروردي! رغم أن هذا الافتراض غريب ولكن هناك أدلّة تؤيّده، فالدار البيضاء هنا قد تكون إشارة إلى بغداد نفسها لأنها كما هو معروف بُنيت على موقع مدينة "طيسفون" العاصمة الفارسية القديمة للعراق والتي يعني اسمها بالفارسية "المدينة البيضاء"، وهي الآن لا تزال موجودة جنوبي بغداد وتسمى "المدائن".

ولكن هذا الفرض إن صح فمن شأنه أن يغيّر الكثير من رؤيتنا لسيرة الشيخ الأكبر لأنه يعني أن الشيخ رضي الله عنه كان في قونية في أواخر سنة ٦٣١ (حين مات السهروردي) وذهب منها إلى بغداد حيث حضر احتضاره وشيّعه ثم عاد، بينما نحن نعرف أن الشيخ محيي الدين قد استقرّ في دمشق منذ سنة ٦٢٠ كما سنرى في الفصل السادس، ولكن هذا لا يعني أنه لم يغادر دمشق أبداً، حيث هناك دلائل على أنه كان في حلب سنة ٦٢٣، وكذلك لا نعلم أين كان في سنة ٦٣١ تحديداً وخاصة في أواخرها.

على كلّ حال، وإن لم يكن هذا الاحتمال الذي فرضناه ممكنا عملياً، فمن الممكن أيضاً أن يكون الشيخ محيي الدين قد ذهب فعلا إلى بغداد ولكن ليس بالطريق الطبيعي المعروف، وانما بشكل روحاني كما يفعله أصحاب الخطوة، ولقد ذكر الشيخ محيي الدين رضي الله عنه أشياءً حصلت معه من هذا القبيل من قبل. وهذا ما يفسّر غموض الشيخ محيي الدين في هذا الموضوع وعدم ذكره الاسم الكامل لشهاب الدين. ولكننا لا نعرف أي شخص آخر بهذا الاسم يمكن أن يتجاوب مع الشيخ محيي الدين ويفهم هذه القصيدة التي أرسلها له تعبيراً عمّا حصل له في هذه الليلة العصيبة مما أدى به إلى الموت من شدّة التفكير بها.

---

[700] الفتوحات المكية: ج٣ص١١٢.

[701] مؤلفات ابن عربي: ص١١١.

[702] مؤلفات ابن عربي: ص٥٦٠-٥٦١.

[703] يعود الفضل في توفير هذه المعلومات لنا للدكتور ستفين هرتنشتاين، وقد ذكر أيضاً هذه المعلومات في كتاب (Divine Sayings, pp. 137-8).

الرجوع إلى ملطية (٩ ربيع الأول ١٢٠٥/٦٠٢ [تشرين الأول])

بعد إقامته في قونية التي قاربت السنة قضى فيها صيفا ممتعا هناك، أراد الشيخ محيي الدين أن يعود جنوبا إلى فلسطين ومصر، وستكون هذه هي المرة الأولى التي يمرّ بها في سورية وخاصة بدمشق. ولكن الشيخ لم يذهب إلى دمشق مباشرة بل يبدو أنه عاد إلى ملطية. ما يجعلنا نؤكد ذلك هو وجود إشارة على مخطوطة لكتاب حلية الأبدال، الذي كان قد كتبه في الطائف قبل ثلاث سنوات، تقول أن الشيخ محيي الدين كان في ملطية بتاريخ ٩ ربيع الأول ٦٠٢.[704]

بعد ذلك شدّ الركب رحاله جنوبا باتجاه فلسطين مرورا بسورية في رحلة ستدوم عدة سنوات يزورون فيها القدس والخليل والقاهرة ومكة وبغداد. ولا شك أنهم مروا في حلب ودمشق مع أنه لا توجد وثائق مؤكدة بذلك.

دمشق (١٢٠٦/٦٠٢)

لم يذكر الشيخ محيي الدين أية أخبار عن زيارته هذه إلى دمشق، ولكنه ذكر في الفتوحات المكية أكثر من مرة حين حديثه عن عقلاء المجانين أنه التقى في دمشق بالبهلول المجنون الشهير مسعود الحبشي كما سنذكر ذلك في الفصل السادس.[705]

وتؤكد بعض المصادر التاريخية أن مسعود الحبشي قد توفي سنة ٦٠٢ بين شهري صفر وشوال،[706] مما يعني أن الشيخ محيي الدين كان في دمشق في شهر رمضان على أبعد تقدير، خاصة وأننا سنجده في الخليل في الرابع عشر من شهر شوال من هذه السنة.

ويعود الفضل للدكتور ستفين هرتنشتاين في مراجعة بعض المخطوطات والتأكيد على أن الشيخ محيي الدين كان في دمشق في بداية شهر جمادى الأولى وربما جمادى الآخرة حيث أكمل كتاب الأمر المحكم المربوط الذي بدأه في قونية كما رأينا أعلاه،[707] بالإضافة إلى بعض الكتب الأخرى التي سنذكرها أدناه.

فمن المؤكّد إذا أن ابن العربي كان في دمشق في بداية شهر جمادى الأولى وربّما بقي بها حتى شهر رمضان قبل أن يصل إلى الخليل في شوّال، أو ربّما كان بعد شهر جمادى في مدينة القدس وقضى شهر رمضان هناك.

---

[704] مخطوطة يوسف آغا رقم ٤٨٦٨.

[705] الفتوحات المكية: ج١ص٢٥٠، ج٣ص٥٢٢.

[706] تراجم رجال القرنين السادس والسابع (المعروف بالذيل على الروضتين)، شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة المقدسي الدمشقي، عرّف الكتاب وترجم للمؤلف وصححه محمد زاهد بن الحسين الكوثري، عني بنشره وراجع أصله ووقف على طبعه عزت العطار الحسيني، دار الجيل-بيروت، ١٩٧٤، ص٥٤.

[707] انظر مخطوطة وليّ الدين رقم ٥١.

وكما سنرى فإن دمشق ستكون هي المحطة الأخيرة والمستقرّ الهانئ الذي سيقضي فيه الشيخ محيي الدين بقية حياته، ولكن ليس قبل أن يقوم برحلات كثيرة ليستكشف المنطقة حولها. ويقول الشيخ الأكبر في الباب الثامن والسبعين ومائة أنه لما دخل إلى دمشق وجد في نفسه حباً مجهولاً لا يعرف سببه، ولكن لا نعرف إن كان ذلك قد حصل في هذه الزيارة الأولى أو لاحقاً عندما استقر هناك. على كل حال سنترك تفصيل الحديث عن ذلك إلى الفصل القادم الذي سنخصصه للفترة الدمشقية من حياة الشيخ الأكبر.

كتاب المقنع في إيضاح السهل الممتنع (دمشق ٦٠٢/١٢٠٦)

وكذلك من الكتب التي ألفها الشيخ محيي الدين في القدس في هذه السنة كتاب المقنع، وهو كتاب يحوي على نصائح لمن يريد أن يسلك طريق الله. وتجدر الإشارة هنا إلى أن عثمان يحيى رحمه الله قد أخطأ في قوله أن هذا الكتاب قد صنّفه الشيخ محيي الدين ابن العربي في القدس،[٧٠٨] والحقيقة أنّه في دمشق كما هو واضح من مخطوطة ولي الدين رقم ٥١ وكذلك من مخطوطة بيازيد رقم ٣٧٥٠. وفي الحقيقة لقد كرّر المرحوم عثمان يحيى نفس الخطأ في العديد من الكتب الموجودة في مخطوطة ولي الدين وانطلى هذا الخطأ على العديد من المؤرخين الذين اعتمدوا على كتاب عثمان يحيى حول مؤلفات ابن العربي.

كتاب القطب والنقباء (دمشق ٦٠٢/١٢٠٦)

وكذلك يذكر عثمان يحيى كتاب "النقباء" (القطب والنقباء) أنه أيضاً ألّف في القدس سنة ٦٠٢،[٧٠٩] ولكنّ ابن العربي ألّف هذا الكتاب أيضاً في دمشق. وقد طبع هذا الكتاب في مجموعة رسائل ابن عربي (مؤسسة الانتشار). وقد تكلّمنا عن مراتب الأولياء في الفصل الثاني، وهو غير كتاب منزل القطب (أو كتاب القطب والإمامين والمدلجين) الذي كتبه ابن العربي في مدينة فاس وتكلّمنا عنه في الفصل الثالث.

القدس للمرة الثانية (٦٠٢/١٢٠٦)

لا شكّ أن ابن العربي مرّ في مدينة القدس قبل أن يذهب إلى الخليل، لأنّه كان في دمشق في شهر جمادى الأولى وفي الخليل في شهر شوّال، فمن غير المستبعد أن يكون قد قضى فترة جيّدة فيما بينهما في القدس. ويذكر عثمان يحيى في تصنيفه أنّ ابن العربي قد ألف في القدس في هذه السنة كتاب الباء[٧١٠] الذي تكلم فيه عن سرّ هذا الحرف وعن معنى كون الباء أصلٌ في الوجود وهو قول أبي مدين رضي الله عنه: ما رأيت شيئاً إلا رأيت الباء عليه مكتوبة، وقد تكلمنا عن هذا الموضوع بالتفصيل في بداية الفصل الثالث. وكذلك كتاب "إشارات القرآن في عالم الإنسان"، ويقول عثمان يحيى عن هذا الكتاب أنه عبارة عن

---

[708] مؤلفات ابن عربي: ص٥٨٣.

[709] مؤلفات ابن عربي: ص٦١٦.

[710] مؤلفات ابن عربي: ص٣١٧.

تأملات في بعض المعاني الباطنية لبعض آيات القرآن الكريم، وربما يكون بمثابة ملحق لكتاب التنزلات الموصلية التي تكلمنا عنه أعلاه.[711] ولكن يبدو أنّ عثمان يحيى يعيد نفس الخطأ في تقريره أنّ الكتب التي وردت في مخطوطة ولي الدين رقم ٥١ قد كتبها الشيخ محيي الدين في القدس، والحقيقة أنّ هذه الكتب قد نسخت في القدس ولكنّها قد تكون أُلفت قبل ذلك.

الخليل (١٢٠٦/٦٠٢)

وفي شهر شوال من نفس السنة تجد الشيخ محيي الدين مع أصحابه عند مقام إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام في مدينة الخليل، حيث يلقي عليهم الدروس ويقرأ عليهم بعض كتبه، وخاصة روح القدس الذي يتضح من السماع الموجود في أحد مخطوطاته أنه ألقي في الخليل يوم الرابع عشر من شوال وكان السامعون هم: علي بن عبد الله بن عبد الرحمن الفاسي، أحمد بن إبراهيم بن عبد الله المرسي، علي بن عبد الرزاق بن علي البوشي، عبد الله بن محمد القيسي وهو الناسخ.

كتاب اليقين (الخليل، ١٤ شوال ٦٠٢)

وفي أثناء وجوده في الخليل كتب ابن العربي كتاباً صغيراً عن اليقين حيث يقول في الباب الثاني والعشرين ومائة: "ولنا في اليقين جزء شريف وضعناه في مسجد اليقين مسجد إبراهيم الخليل في زيارتنا لوطاً عليه السلام".[712]

وقد ذكر الشيخ محيي الدين في هذا الكتاب أن اليقين هو استقرار العلم في القلب بحيث لا يزول أبداً. ثم يضيف رضي الله عنه أن اليقين على أربعة أركان: علم، عين، حق، وحقيقة: فالثلاثة الأولى من القرآن الكريم والرابعة من قول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "لكل حقّ حقيقة"،[713] فهو مثل كلّ الأشياء الطبيعية قائم على التربيع، وذلك كان مطابق لنشأته الجسمانية المكونة من أربعة حروف (ي ق ي ن)، فيكون في المجموع ثمانية: أربعة جسمانية وأربعة روحانية أو غيبيّة، وذلك مثل العرش الذي يحمله يوم القيامة ثمانية واليوم أربعة، كما ورد في الحديث.[714]

---

[711] مؤلفات ابن عربي: ص١٨٧-١٨٨.

[712] الفتوحات المكية: ج٢ص٢٠٥.

[713] ورد في الحديث عن أنس قال: إن رسول الله صلّى الله عليه وسلم دخل المسجد والحارث بن مالك نائم فحركه برجله: قال: ارفع رأسك، فرفع رأسه فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! فقال النبي صلى الله عليه وسلم: كيف أصبحت يا حارث بن مالك! قال: أصبحت يا رسول الله مؤمنا حقاً قال: إن لكل حق حقيقة فما حقيقة ما تقول! قال: عزفت عن الدنيا، وأظمأت نهاري وأسهرت ليلي، وكأني أنظر إلى عرش ربي فكأني أنظر إلى أهل الجنة فيها يتزاورون وإلى أهل النار يتعاوون، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: أنت امرؤ نوّر الله قلبه عرفت فالزم. (انظر كنز العمّال: حديث رقم ٣٦٩٨٩).

[714] الفتوحات المكية: ج١ص١٤٨، ج٣ص١٨٤.

فيقول الشيخ محيي الدين أن أغلب الناس لا يعرفون من اليقين إلا الأربعة الأركان الجسمانية التي هي حروفه، وليس لهم قدم في المعاني الروحانية لليقين، وهي التي بها سار من سار على الماء وطار من طار في الهواء.

ثم شرع الشيخ محيي الدين بتفصيل هذه الأركان الثمانية لليقين، وذكر معانيها وأسرارها بالرمز حيناً وحيناً مصرّحا. وذكر الشيخ رضي الله عنه في نهاية هذا الكتاب الصغير أن سبب تأليفه لهذا الكتاب أنه زار إبراهيم الخليل عليه السلام في مدينة الخليل ثم خرج من عنده قاصدا زيارة لوط عليه السلام هو وصاحبه الشيخ العارف الصوفي صاين الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن عبد الملك بن مطوف المرّي وعفيف الدين أبو مروان عبد الملك بن محمد بن حفاظ القيسي، فمرّوا في طريقهم بمسجد اليقين موضع إبراهيم عليه السلام، فأقام الله بخاطره كتابة هذا الكتاب فاستخار الله تعالى ثم كتبه في ذلك الموضع يوم الأربعاء الرابع عشر من شوال سنة ٦٠٢.

ثم يروي الشيخ الأكبر رضي الله عنه قصة تسمية هذا المسجد باسم مسجد اليقين وذلك أن الملائكة لمّا بشّرت إبراهيم عليه السلام بإسحاق تركته في ذلك الموضع ثم ذهبت إلى لوط لإهلاك قومه كما ورد في القرآن الكريم، وأخبرتْه أن لا يغادر هذا المكان حتى يأتي إليه لوط، فلم يزل في ذلك الموضع حتى أبصر مدائن قوم لوط في الهواء وسمع ضجيجهم، وهو قوله تعالى: (فجعلنا عاليها سافلها). فعندما أبصر ذلك سجد لله تعالى في هذا الموضع وقال: "أشهد أن هذا هو اليقين". فسمي ذلك الموضع مسجدا لأنه موضع سجوده وسمي يقينا لقوله "هذا هو اليقين".

ثم يضيف الشيخ محيي الدين أنه أنشأ هذا الكتاب في موضع سجود إبراهيم عليه السلام، ولذلك سمّاه "كتاب اليقين الذي أنشأته بمسجد اليقين".[715]

إقامته في القاهرة للمرة الثانية (١٢٠٧/٦٠٣)

في سنة ٦٠٣ اتجه إلى مصر للمرة الثانية بعد أن أقام فيها مدة وجيزة أثناء رحلته إلى مكة سنة ٥٩٨ قادما من المغرب. وفي القاهرة أقام الشيخ مع مجموعة من إخوانه وأصحابه القدماء من الأندلس في بيت في زقاق القناديل حيث قضوا هناك الأيام والليالي في العبادة والذكر، وكان معهم أبو العباس الحريري وأخوه محمد الخياط الذين ذكرناهم في الفصل الثاني، وكذلك عبد الله الموروري الذي ذكرناه أيضاً.[716] وذكرنا من قبل أن الأخوين أحمد ومحمد قدما مصر سنة ٥٩٠ متجهين إلى مكة ثم رجعا بعد الحج إلى مصر واستقرّا فيها وقابلهما الشيخ محيي الدين أثناء مروره في مصر سنة ٥٩٨ وكانا يريدان الذهاب معه للحج ولكن محمد الخياط كان مريضا جداً فاضطر أخوه أحمد للبقاء معه لرعايته.

---

[715] رسائل ابن عربي، دار البشائر: ج٤ص٤٥-٦٦.

[716] محاضرة الأبرار: ج٢ص٢٤، وروح القدس: ص٩، ص١٠، ص١٤.

الخير والشرّ (القاهرة، ١٢٠٧/٦٠٣)

وذكر الشيخ محيي الدين في كتاب "محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار في الأدبيات والنوادر والأخبار" أنه بات مرة مع جماعة من الصالحين منهم أبو العباس الحريري الذي كان إماماً بزقاق القناديل بمصر وأخوه محمد الخياط وعبد الله المروري ومحمد الهاشمي اليشكري ومحمد بن أبي الفضل، فرأى في نومه أنهم كانوا في بيتٍ شديدِ الظلمة وليس لهم من النور سوى ما ينبعث من ذواتهم فكانت الأنوار تنفهق من أجسامهم فيضيؤون بها، فدخل عليهم شخص من أحسن الناس وجها ومنطقا، فقال: أنا رسول الحق إليكم، فقال له الشيخ محيي الدين (في النوم) فما جئت به في رسالتك؟ فقال:اعلموا أن الخير في الوجود والشرّ في العدم، أوجد الإنسان بجوده، وجعله واجداً ينافي وجوده، تخلّق بأسمائه وصفاته، وفني عنها بمشاهدة ذاته، فرأى نفسه بنفسه، وعاد العدد على أسّه، فكان هو ولا أنت.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذه الرؤية تأصّلت عند ابن العربي وأصبحت أساساً في مذهبه الصوفي والمعرفي، فابن العربي يرى أنه في الحقيقة ليس هناك شرّ في الوجود، بل الوجود كلّه خير والشرّ في العدم فقط؛ فالوجود الحق نورٌ محضٌ والعدم المطلق باطلٌ محضٌ، والوجود المشهود الذي نعيش به هو مزيجٌ من الوجود الحق والعدم المحض، أو بكلام آخر هو الظهور النسبي للوجود الحق الذي هو النور الحق المبين. فالشرّ الذي نشهده ليس له وجود قائم بنفسه بل هو في الحقيقة عدمُ ظهور الحق.

وهذا الكلام ينطبق أيضاً في العالم الطبيعي على النور والظلمة والألوان التي نشهدها في العالم؛ فالظلمة هي لا شيء فهي عدم محض، والنور المطلق هو الوجود الحق، والصور (ذات الألوان) التي نراها هي مزيج بين النور والظلمة، أو هي الظهور النسبي للنور. فمن المعروف في العلم أن اللون الأسود هو في الحقيقة انعدام النور وليس هناك ضوء أسود في حين أن هناك ضوء أحمر وأزرق وأصفر وأما الضوء الأبيض فهو مجموع كل هذه الألوان في حين أن الضوء الأسود هو انعدامها. فالظلمة هي العدم المحض والوجود الحق هو النور المحض وهو الله سبحانه وتعالى الذي يقول في سورة النور (ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...﴿٣٥﴾)، ويقول أيضاً في سورة الحديد (هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾)، فليس في العالم على الحقيقة غير الخير، والشرّ ما هو إلا امتناع ظهور الخير.

تأويل الرؤى (القاهرة، ١٢٠٧/٦٠٣)

ويقول الشيخ محيي الدين أنه أخبر الجماعة بهذه الواقعة فسُرّوا بها وشكروا الله. ثم بعد ذلك وضع الشيخ رأسه في عبّه فنظم في نفسه أبياتا في المعرفة، ونام أصحابه، واستيقظ منهم عبد الله الموروري وناداه: يا أبا عبد الله! فلم يجبه الشيخ محيي الدين، وتظاهر كأنه نائما، فقال له: ما أنت بنائم، أنت تعمل شعراً في معرفة الله وتوحيده. فرفع الشيخ رأسه وقال له: من أين لك هذا؟ فقال عبد الله الموروري: رأيتك تعقد شبكة رفيعة، فأوّلت الخيوط الرفيعة التي تعقدها شبكة معاني مفرّقة تجمعها وكلاماً منثوراً تنظمه، فقلت هذا يعمل

شعراً، فقال له الشيخ محيي الدين: صدقت، فمن أين عرفت أنه في معرفة الله وتوحيده؟ قال: قلت الشبكة لا يُصاد بها إلا ذو روح حيّ عزيز المأخذ، فلم أجد شعراً فيه روح وحياة وعزّة إلا فيما يتعلق بالله تعالى. فيقول الشيخ محيي الدين حين يذكر ذلك في محاضرة الأبرار: فكان تأويل رؤياه عجيب أعجب إلينا من الرؤيا، رضي الله عنهم أجمعين."[٧١٧]

تأويل كلام القصرية (القاهرة، ١٢٠٧/٦٠٣)

وفي مصر أيضاً في هذه السنة يروي الشيخ محيي الدين أن أحمد الحريري أخبره عن أبي عبد الله القرياقيّ أنه كان يمشي معه في مكان يقال له سويقة وردان وكان قد اشترى قصرية صغيرة لابنٍ صغيرٍ كان عنده ليبول فيها، فاجتمعوا في منزلٍ والقصرية عنده جديدة ومعهم رجال صالحون فأرادوا أكل شيء فطلبوا إداماً يأتدمون به، فاتفق رأيهم على أن يشتروا قطارة السكر فقالوا هذه القصرية ما مسّها قذر وهي جديدة على حالها فملؤوها قطارة وقعدوا يأكلون إلى أن فرغوا وانصرف الناس ومشى صاحب القصرية بها مع أبي العباس. قال أبو العباس فوالله لقد سمعت بأذني هذه وسمع معي الشيخ أبو عبد الله القرياقيّ القصرية وهي تقول: "بعد أن أكل فيّ أولياء الله أكون وعاء للقذر؟! والله لا كان ذلك." وانتفضت من يده وسقطت على الأرض فتكسّرت. قال أبو العباس فأخذنا من كلامها حال.

فلما روى أبو العباس هذه القصة للشيخ الأكبر قال له إنكم غبتم عن وجه موعظة القصرية لكم، فليس الأمر كما زعمتم، وكم من قصرية أكل فيها من هو خيرٌ منكم وبعد ذلك استُعملت في القذر، وإنما قالت لكم: "يا إخواني لا ينبغي لكم بعد أن جعل الله قلوبكم أوعية لمعرفته وتجليه أن تجعلوها وعاءً للأغيار وما نهاكم الله أن تكون قلوبكم وعاءً له"، ثم تكسرت: أي هكذا فكونوا مع الله. فقال له أبو العباس: ما جعلنا بالنا لما نبهتنا عليه."[٧١٨]

قراءة بعض الكتب (القاهرة، ١٩ شعبان ٦٠٣)

وفي القاهرة قام الشيخ بإلقاء بعض الدروس قرأ فيها بعض كتبه على المريدين. فمن ذلك قراءة مدونة لكتاب روح القدس وقراءة أخرى لكتاب أيام الشأن.

فأما قراءة كتاب روح القدس فقد كان المسمع هو الشيخ نفسه وكان القارئ هو إسماعيل ابن سودكين النوري، وكان المستمعون عبد الله بدر الحبشي، عبد المنعم بن محمد بن يوسف الأنصاري، بن غانم القيس، محمد بن علي بن إبراهيم الأنصاري، عبد الرحمن بن عباد بن عبد الحق التبريزي، قطب الدين بن سودكين النوري، يحيى الجبال.

---

[٧١٧] محاضرة الأبرار: ص٥٤.

[٧١٨] الفتوحات المكية: ج١ص٤١٠.

قراءة كتاب أيام الشأن (القاهرة، ٦٠٣/١٢٠٧)

وأما قراءة أيام الشأن فقد تمت سنة ٦٠٣ وكان القارئ إسماعيل بن سودكين أيضاً ولكن من غير المؤكد أين تم ذلك مع أنه من المرجح أن يكون في مصر لوجود أحمد بن أبي بكر التوجيبي الحريري والذي هو على الأغلب صاحبه الأندلسي أخو محمد الخياط الذي تكلمنا عنه من قبل والذي كان إماما في زقاق القناديل في القاهرة بعد أن ترك الأندلس واستقر في مصر. ومن المستمعين أيضاً عبد الله بدر الحبشي وعمرو بن محمد بن يوسف الأنصاري وموسى بن محمد الأشعري.

وبذلك فمن المؤكد أن كتاب أيام الشأن قد تم تأليفه خلال سنة ٦٠٣ أو ما قبلها. وهو من الكتب البديعة للشيخ الأكبر إذ يدرس فيه معنى قول الله تعالى في سورة الرحمن ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ۝﴾ ويؤكد أن ورود كلمة "شأن" هنا بصيغة النكرة والمفرد يعني أن اليوم يجب أن يكون جزء لا يتجزأ من الزمن لأنه يحدث فيه شأن واحد، ومن جهة أخرى يؤكد الشيخ محيي الدين أن هذا اليوم هو مساوٍ لليوم المشهود الذي هو أربع وعشرون ساعة! وللوصل بين هاتين النتيجتين اللتين تبدوان متناقضتين يدخل الشيخ محيي الدين في نظرية متكاملة عن الزمن والأيام وأنواعها كما أشرنا إليها أعلاه عندما تكلمنا عن كتاب التنزلات الموصلية.

اعتراض فقهاء مصر عليه

وكما أشرنا من قبل فإنّ مقامه في مصر في هذه المرة كان أيضاً غير هادئ ولا هانئ حيث ثار ضده بعض الفقهاء بسبب آرائه وكلامه وطالبوا برأسه واتهموه بالبدعة وطالبوا السلطان بسجنه، ولكن الشيخ أبا الحسن البجائي (توفي ٦٥٢/١٢٥٥) تدخّل لدى السلطان العادل فأطلق سراحه.[٧١٩]

وذكر محرر الديوان الذي جمع فيه قصائده أن الشيخ الأكبر كتب يخاطب بعض إخوانه في كتاب كتب إليه وهو بديار مصر وقد مشى إلى دمشق عن ضيق صدر:[٧٢٠]

إن داراً لســـت فيهـــا تعـــزّى	وديـــاراً أنـــت فيهـــا تهنّـــى
فاحمـــد الله علـــى كـــل حـــال	واتخـــذ ربـــك ركنـــا وحـــصنا

ابن سودكين (القاهرة، ٦٠٣/١٢٠٧)

ومما تميزت به رحلة ابن العربي هذه إلى مصر هو التقاؤه بابن سودكين النوري الذي سيكون مثل عبد الله بدر الحبشي لا ينفك عن صحبته أبداً، وسوف نعود لذكره كثيراً في هذا الفصل وفي الفصول القادمة.

وابن سودكين هو أبو طاهر إسماعيل بن سودكين بن عبد الله أبو الطاهر المكي النوري، الحنفي،

---

[719] نفح الطيب: ج٢ص١٨٠.

[720] الديوان: ص٣٦٢-٣٦٣.

الصوفي، المتكلم، ويلقب بشمس الدين، وُلد بالقاهرة في سنة تسع وسبعين وخمسمائة، وكان أبوه من مماليك السلطان نور الدين محمود زنكي الذي كان زاهداً وله ميول واضحة نحو التصوّف كما رأينا، فتزهّد أبو الطاهر وتصوف فأعتقه السلطان.

فيقول ابن العديم أن إسماعيل أيضاً مال إلى الصوفية وخالطهم وانتفع بكلامهم، وسمع بالقاهرة أبا الفضل محمد بن يوسف الغزنوي، وبحلب إبراهيم بن عثمان بن درباس المازاني وحدث بحلب عنهما، وسمع بحلب عن افتخار الدين أبي هاشم عبد المطلب بن الفضل بن عبد المطلب الهاشمي، وأبي محمد عبد الرحمن بن عبد الله بن علوان الأسدي، وأبي غانم محمد بن هبة الله بن أبي جرادة وغيرهم. وكان حسن الأخلاق، طيب المعاشرة رقيق الحاشية، وكان ينظم شعراً حسناً علقت عنه شيئاً يسيراً، وكتب عنه شيخه محمد بن عليّ ابن العربي شيئاً شعره.

توفي ابن سودكين بحلب بعد عودته من زيارة البيت المقدس بأيام، وذلك يوم الأربعاء قبل طلوع شمس الثالث والعشرين من صفر سنة ست وأربعين وستمائة، ودفن قبل الظهر بتربة أنشأها بالقرب من مشهد الدعاء خارج باب النصر، وكان عمره يومئذ سبعة وستين سنة.

هكذا ذكره ابن العديم (وهو كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة، توفي في ١٢٦٢/٦٦٠) في "بغية الطلب في تاريخ حلب"، وقال إنه سكن هو وأبوه في سنة ثمان أو تسع وسبعين وخمسمائة بالديار المصرية، ونشأ بها على الخير والصلاح، واشتغل بالعلم، وسماع الحديث، وكلام الصوفية، وانتقل مع أبيه إلى حلب حين انتقل إليها المبارز يوسف ابن ختلج لقرابة كانت بينهما.[721]

منزل المنازل الفهوانية (١٢٠٧/٦٠٣)

وفي هذه السنة كتب الشيخ محيي الدين كتاب "منزل المنازل الفهوانية".وقد يسمى كتاب الفهوانية أو منزل المنازل.[722] ولا نعرف بالتحديد أين كتب الشيخ الأكبر هذا الكتاب، ربما في القاهرة أو قد يكون بعد رجوعه إلى مكة المكرمة، أو قد يكون في دمشق إذ من المحتمل أن يكون زارها مرّة أخرى بعد مصر وقبل الذهاب إلى مكة، كما سنرى في الفقرة التالية.

و"الفهوانية" مصطلح يستخدمه الشيخ محيي الدين ابن العربي وقد عرّفه في رسالة "الاصطلاحات الصوفية" التي سنتكلم عنها بعد قليل، وهو "خطاب الحق بطريق المكافحة في عالم المثل".[723] وفي هذا الكتاب يدرس الشيخ محيي الدين رضي الله عنه الدرجات العالية التي يصل إليها رجال الله بعد المجاهدة والرياضة وتصفية النفس.

وقد تكلّم الشيخ محيي الدين عن الفهوانية في الفتوحات المكية وهي نوع من الخطاب الإلهي

---

[721] بغية الطلب في تاريخ حلب، ابن العديم، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر-بيروت، ص٥٩٩-٦٠٠.

[722] مؤلفات ابن عربي: ص٥٩١.

[723] اصطلاحات الصوفية، محيي الدين ابن العربي، مكتبة عالم الفكر-القاهرة، ١٩٨٧، ص٣٧.

ولكن من وراء حجاب لأنه لا يمكن أن يجتمع الكلام والمشاهدة إلا في التجلي البرزخي وهذه مسألة اختلف فيها الشيخ محيي الدين مع شهاب الدين السهروردي كما سنذكر أدناه حيث يقول الشيخ محيي الدين في فصل حكم القبلة للصائم أن موسى عليه السلام طلب الرؤية بعدما حصل له الكلام فالمشاهدة والكلام لا يجتمعان في غير التجلي البرزخي كما كان مقام شهاب الدين عمر السهروردي. فإن مشاهدة الحق فناء ومع الفناء لا يتصوّر طلب فإن اللذة أقرب من طلب الكلام لنفس المشاهد ومع هذا فلا يلتذّ المُشاهد في حال المشاهدة، فلا تصحّ الفهوانية إلا مع الحجاب كما قال الله سبحانه وتعالى في سورة الشورى (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾).

دمشق (~١٢٠٧/٦٠٤)

وكما ذكرنا أعلاه فإن محرر الديوان الذي جمع فيه قصائد الشيخ الأكبر ذكر أن ابن العربي كتب يخاطب بعض إخوانه في كتاب كتب إليه وهو بديار مصر وقد مشى إلى دمشق عن ضيق صدر. ولكن من خلال التدقيق في هذا الكلام لا نستطيع أن نقرّر من الذي مشى إلى دمشق هل هو ابن العربي أم صاحبه الذي كتب له. قد يكون من المحتمل أن ابن العربي غادر مصر إلى دمشق في أواخر سنة ٦٠٣ وبداية سنة ٦٠٤، حيث سنجده في مكة في موسم حج سنة ٦٠٤. ولكن لا توجد أي دلائل أخرى على ذلك.

وكما سنرى بعد قليل فإننا لا نعرف أي شيء عن مكان وجود الشيخ محيي الدين بعد سنة ١٢٠٨/٦٠٤ حيث كان في مكة وحتى سنة ١٢٠٩/٦٠٦ حيث سيكون في حلب، فمن المحتمل أن يكون قد قدم من مصر إلى دمشق ثم ذهب منها إلى الحج سنة ٦٠٤ ثم عاد إلى دمشق ومنها إلى حلب.

رجوعه إلى مكة (١٢٠٧/٦٠٤)

لا ندري على وجه التحديد كم بقي الشيخ محيي الدين في مصر هذه المرة، فلا ندري متى دخلها ولا متى غادرها، ولكن لا شك أنه دخلها بعد شهر شوال سنة ٦٠٢ حيث كان في مدينة الخليل وغادرها قبل موسم الحج سنة ٦٠٤ الذي سيقضيه في مكة المكرمة، فمن غير المستبعد أن يكون أيضاً قد حج سنة ٦٠٢ وذهب من هناك إلى مصر فبقي حتى شهر شعبان سنة ٦٠٣ حيث كان يقرأ بعض كتبه في القاهرة كما ذكرنا، ثم ذهب إلى مكة أو إلى دمشق، أو من المحتمل أنه بقي في مصر حتى قبيل موسم الحج سنة ٦٠٤ ولم يحج سنة ٦٠٣.

على كل حال نجد الشيخ محيي الدين في مكة المكرمة يتدارس الحديث مع صاحبه أبي شجاع بن رستم الأصفهاني إمام الحرم الإبراهيمي ووالد "زوجته" نظام، ويروي عنه عدداً من الأحاديث.

حديث المبشرات جزء من أجزاء النبوة (مكة، ٦٠٤/١٢٠٨)

فيذكر الشيخ محيي الدين في الباب الثامن والثمانين ومائة "في معرفة مقام الرؤيا وهي المبشرات" أنه ثبتَ عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنه قال: "إن الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدي ولا نبي"، فلما شق ذلك على الناس قال عليه الصلاة والسلام: "لكن المبشرات" فقالوا يا رسول الله وما المبشرات؟ فقال: "رؤيا المسلم وهي جزء من أجزاء النبوة". ويضيف الشيخ محيي الدين أن هذا حديث حسن صحيح من حديث أنس بن مالك[724] حدثه به إمام المقام بالحرم المكي الشريف تجاه الركن اليماني سنة أربع وستمائة شيخه مكين الدين أبو شجاع زاهر بن رستم الأصفهاني البزار وغيره."[725]

مبشرة في الركعتين عقب الطواف (مكة ٦٠٤/١٢٠٨)

يقول الشيخ محيي الدين رضي الله عنه أنه رأى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في النوم حين كان بمكة سنة أربع وستمائة وهو يقول: يا مالكيّ هذا، أو يا ساكنيّ هذا البيت: مُرُوا من يطوف به أن يصلي عقيب طوافه ركعتين في أي وقت كان، فإن الله يخلق من صلاته ملكاً يعظّم الله، (أو يسبّحه، يقول الشيخ محيي الدين أن الشك منه)، إلى يوم القيامة.

وتجدر الإشارة إلى أنه يسنّ صلاة ركعتين بعد الطواف كما أخرج البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا طاف، في الحج أو العمرة، أوّل ما يقدم سعى ثلاثة أطواف، ومشى أربعة، ثم سجد سجدتين، ثم يطوف بين الصفا والمروة."[726]

الفترة من ٦٠٤/١٢٠٨–٦٠٦/١٢٠٩

وهنا نفقد أثر الشيخ محيي الدين ابن العربي مرّة أخرى لأكثر من سنة، فنعلم أنه كان في حلب سنة ٦٠٦ ولكن لا ندري متى وصل إليها. من المحتمل أن يكون قضى هذه الفترة في دمشق.

الرحلة نحو الشمال، الدورة الثانية (٦٠٦/١٢٠٩–٦٠٨/١٢١١)

وكذلك لا نعرف على وجه التحديد متى غادر الشيخ محيي الدين مكة المكرمة هذه المرّة، ولكننا نجده بعد أكثر من سنة شمال سورية في مدينة حلب حيث ألّف كتاب التجليات وكان أيضاً يتدارس الحديث الشريف مع الشيخ أبي الحسن البجائي الذي أنقذه في مصر كما ذكرنا أعلاه."[727] بعد ذلك عاد ابن العربي إلى مكة المكرّمة مرورا بدمشق وربما بغداد حيث التقى فيها بالمؤرخ الشهير ابن الدبيثي وتلميذه ابن النجار.

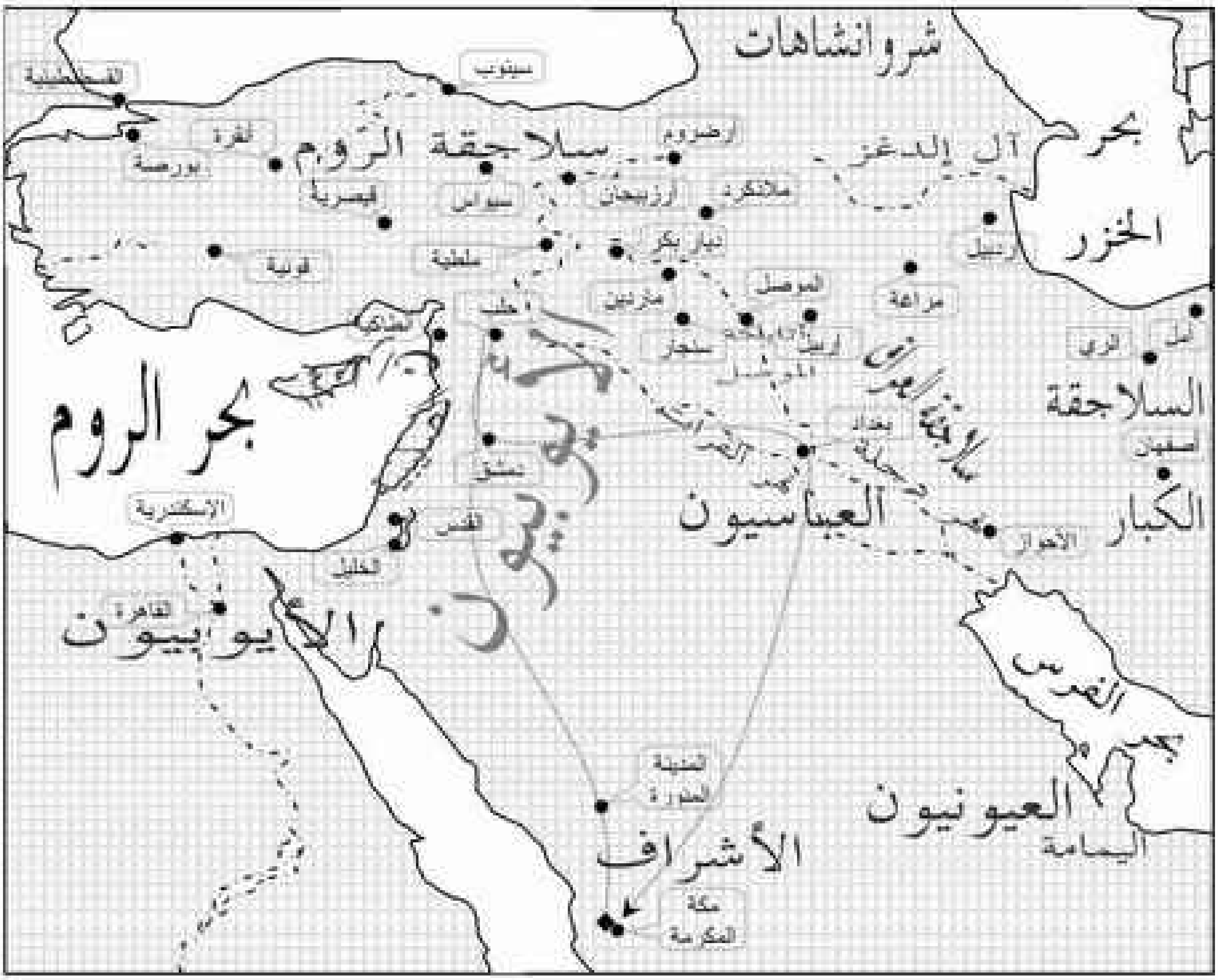
---

[724] انظر أيضاً في سنن الترمذي، حديث رقم ٢٣٧٤، ٢٣٨١.

[725] الفتوحات المكية: ج٢ص٣٧٦.

[726] صحيح البخاري، الجزء الأول، باب: من طاف بالبيت إذا قدم مكة ....، حديث رقم ١٥٣٧.

[727] نفح الطيب: ج٢ص١٧٥.



رحلة نجم الشمال، الصورة الثانية:

(مكة-حلب-دمشق-بغداد-مكة)

حلب (١٢٠٩/٦٠٦)

ومع أنه لا بد أن يكون قد مرّ بحلب من قبل حين ذهابه إلى مصر من ملطية عن طريق سورية كما ذكرنا، ولكن يبدو أن هذه هي المرة الأولى التي يقيم فيها الشيخ محيي الدين في حلب.

تعتبر حلب من أقدم مدن العالم المأهولة بالسكان، وهي تشتهر بقلعتها المعروفة باسمها وهي تقع على تلة مرتفعة تشرف على مناطق المدينة القديمة التي لها سبعة أبواب تاريخية ما زال أكثرها ماثل حتى الآن وأهمها باب الفرج وباب الحديد وباب النصر، وكذلك يوجد بها مسجد كبير يدعى المسجد الأموي الكبير وفيه ضريح نبي الله زكريا عليه السلام.

تعتبر حلب مدينة قديمة قدم التاريخ وقد ذكرها ريموش الأكادي بن صارغون ٢٥٣٠-٢٥١٥ ق.م. مؤسس أول إمبراطورية ساميّة في الشرق بعد أن استولى عليها وأسر ملكها. وقد شهدت حلب عصرها الذهبي في عهد حمورابي البابلي و زمريليم ملك ماري نحو سنة ٢٠٠٠ ق.م، ثم توالت عليها الحضارات مثل الحثيين

والمصريين والآشوريين والبابليين والفرس والمكدونيين والإغريق والسلوقيين ثم الرومان حتى فتحها المسلمون عام ٦٣٧ م بقيادة خالد بن الوليد فتوالت عليها الخلافة الإسلامية الراشدية والأموية والعباسية فشهدت فترة ازدهار ورُقيَ ثقافي وفكري وحضاري في جميع الميادين.

في عهد الأمير عماد الدين وابنه نور الدين الزنكي (٥٢٣/١١٢٨–٥٧٩/١٣٦٠) أصبحت حلب مركز المقاومة الإسلامية ضد الفرنجة، فبدأت أحوالها بالتحسن إلى أن جاء زلزال حلب المدمر سنة ٥٦٥/١١٧٠ فدمّر جزءاً كبيراً منها ولكن نور الدين الزنكي أعاد بناءها من جديد وأقام فيها العديد من المباني والأسواق.

ومع ظهور الدولة الأيوبية (٥٧٩/١١٨٣–٦٥٩/١٢٦٠) حكم حلب الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين الذي استطاع بحكمته حماية المدينة من الفرنجة بالإضافة إلى عقده عدة معاهدات تجارية مع أنطاكية والبندقية فنالت حلب شهرة ومجداً عظيمين في هذه الفترة. ولكن ذلك العصر الذهبي الذي عاشته المدينة انتهى باجتياح المغول لحلب سنة ٦٥٩/١٢٦٠ ثم ما لبث أن بدأ عهد المماليك ٦٥٩/١٢٦٠–٩٢٢/١٥١٦ وبعدها الدولة العثمانية ٩٢٢/١٥١٦–١٣٣٧/١٩١٨ ثم العصر الحديث.

ولقد تغنى الكثير من الشعراء في حلب لما عرف عن جميل أوصافها وأوصاف أهلها، فكما ذكر ابن شداد في "الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة" عن حلب أن أهلها من أحسن الناس خَلقاً وأخلاقاً وأنها من أعظم البلاد جمالاً وأفخرها رتبة وجلالاً، مشهرة الفخار، عالية البناء والمنار، ظلّها ضافٍ، وماؤها صافٍ، وسعدها وافٍ، ووردها لعليل النفوس شافٍ، وأنوارها مشرقة، وأزهارها مؤنقة، وأنهارها غدقة، وأشجارها مثمرة مورقة، ... ثم أبدع في وصفها، إلى أن ذكر شعراً في حلب وأهلها لابن الشيخ محيي الدين وهو سعد الدين محمّد، الذي سنذكره بعد قليل، حيث يقول:

حَلَبٌ تَفُوقُ بمائِها وَهَوائِها ... وَبِنائِها وَالزُّهْرِ مِنْ أَبنائِها
نُورُ الغَزالَةِ[738] دُونَ نُورِ رَحابِها ... وَالشُّهْبُ تَقْصُرُ عَنْ مَدى شُهْبانِها
طَلَعَتْ نُجُومُ النَّصرِ مِن أَبْراجِها ... فَبُرُوجُها تَحْكي بُرُوجَ سَمائِها
وَالسُّورُ باطِنُهُ فَفِيهِ رَحْمَةٌ ... وَعَذابُ ظاهِرِهِ عَلى أَعْدائِها
بَلَدٌ يَظَلُّ بِهِ الغَرِيبُ كَأَنَّهُ ... فِي أَهْلِهِ فاسْمَعْ جَمِيلَ ثَنائِها

الحكم الأيوبي في حلب

وقد توالى على حكم حلب أربعة ملوك أيوبين في الفترة التي سبقت دخول الشيخ محيي الدين لها وخلال وجوده فيها وفي دمشق؛ ففي عام ٥٧٩/١١٨٣ تولاّها الملك العادل الأول سيف الدين، ثم في عام ٥٨٢/١١٨٦ الملك الظاهر غازي ابن الملك الناصر صلاح الدين، الذي كان لا يرفض طلبا للشيخ الأكبر ويجلّه ويقدّره، وكان مرهف الحسّ ضابطاً جمّاعاً للأموال شديد الانتقام محسناً للقضاة، وقبل أن يتوفى سنة ٦١٣/١٢١٦ عهد بالملك لابنه الصغير محمد بن الظاهر وهو ابن ثلاث سنين ولقبه "العزيز غياث الدين" وجعل

[738] الغزالة هنا أحد أسماء الشمس.

أتابكه وكافله وخادمه طغريلك ولقبه "شهاب الدين"، فأحسن كفالة الولد وعدل في سيرته وضبط الإيالة بجميل نظره."[٧٢٩]

الملك الظاهر غازي ابن الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي

في حلب كما في العديد من المدن التي زارها من قبل كان الشيخ محيي الدين يجد قبولاً واسعاً عند أهلها وسلطانها على السواء وكان كثيراً ما يُقصد لحل مشكلاتهم ويرفعون عن طريقه مسائلهم إلى السلطان كما حدثَ معه منذ بداية أسفاره في تونس سنة ٥٨٩/١١٩٤ كما رأينا من قبل في الفصل الثالث.

ففي حلب كان للشيخ الأكبر كلمة مسموعة عند صاحبها الملك الظاهر غازي ابن الملك الناصر الدين الله صلاح الدين يوسف بن أيوب فكان الشيخ يرفع إليه من حوائج الناس الكثير حتى رفع له في مجلس واحد مائة وثمان عشرة حاجة فقضاها كلها، وكان منها أنه كلمه في رجل أفشى سرّه وقدح في ملكه وكان من جملة بطانته وعزم الملك على قتله وأوصى به نائبه في القلعة بدر الدين إيدمور أن يخفي أمره حتى لا يصل حديثه إلى الشيخ محيي الدين ولكنه وصله حديثه فلما كلمه في شأنه سكت الملك قليلا وقال له يجب أن تعرف أولاً ذنبه وأنه من الذنوب التي لا تتجاوز عنها الملوك. فقال له الشيخ محيي الدين: يا هذا أتخيّلت أنّ لك همّة الملوك، وأنك سلطان! والله ما أعلم أن في العالم ذنباً يقاوم عفوي وأنا واحد من رعيتك، وكيف يقاوم ذنب رجل عفوك في غير حدّ من حدود الله؟ إنك لدنيء الهمة! فخجل الملك وسرّحه وعفا عنه وقال للشيخ جزاك الله خيراً من جليس، مثلك من يجالس الملوك. ثم قول الشيخ محيي الدين أنه بعد ذلك ما رفع إليه حاجة إلا سارع في قضائها لفوره من غير توقف كانت ما كانت."[٧٣٠]

سبب هذا القبول الجميل عند الملوك

ويعود الفضل في هذا القبول الجميل للشيخ محيي الدين ابن العربي عند الملوك وكونهم لا يردون له حاجة إلى المقام الذي قال فيه الله عزّ وجلّ لموسى وهارون في حق فرعون في سورة طه: (فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا... ﴿٤٤﴾) وهذه هي عين المداراة، فإنه يتخيل في ذلك أنك معه. فيقول ابن العربي أنه لما ذاق هذا المقام واتحد به استعمله مع الملوك الذين صاحبهم فيقول إنه ما قضى لأحد من خلق الله عند واحد منهم حاجة إلا من هذا المقام وما ردّه أحد من الملوك في حاجة التمسها منه لأحد من خلق لله، وذلك لأنه كان إذا أراد أن يقضي عنده حاجة أحد بسط له بساطاً استدرجه فيه حتى يكون الملك هو الذي يسأل ويطلب قضاء تلك الحاجة مسارعاً على الفور بطيب نفس وحرصٍ لما يرى له فيها من المنفعة، فكان على

---

[٧٢٩] تاريخ العلامة ابن خلدون (المسمى: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)، العلامة عبد الرحمن بن خلدون المغربي، دار الكتاب المصري-القاهرة، ١٩٩٩: ج١٠ص٧٤٦.

[٧٣٠] الفتوحات المكية: ج٤ص٥٣٩.

الحقيقة يقضي للسلطان حاجةً بأن يقبل منه قضاء حاجة ذلك الإنسان."[731]

فتاوى بعض فقهاء حلب

ولكن انطباع الشيخ محيي الدين عن فقهاء حلب لم يكن ايجابياً مثلهم مثل الفقهاء في الأندلس ومصر ومكة الذين مرّ بهم الشيخ الأكبر أثناء ترحاله ووصفهم وانتقدهم في رسالته "روح القدس في مناصحة النفس" كما ذكرنا آنفا: فالفقهاء غالباً ما يسعون وراء الأمراء والجاه والسلطان فيُصدرون الفتاوي التي ترضيهم وترفع مراتبهم عندهم، وذلك بسبب غلبة الأهواء على النفوس وطلب المراتب مما أدى بالفقهاء لترك الشريعة التي هي المحجة البيضاء والجنوح إلى التأويلات البعيدة ليمشّوا أغراض الملوك فيما لهم فيه هوى نفس ليستندوا في ذلك إلى أمرٍ شرعي مع كون الفقيه ربما لا يعتقد ذلك ولكنه يفتي به.

ففي مدينة حلب أخبر الملك الظاهر غازي ابن الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي الشيخ محيي الدين ابن العربي بذلك حيث وقع بينهما حديث في مثل هذا الكلام فنادى الملك بمملوكٍ له وقال له جئني بالحرمدان،"[732] فقال له الشيخ: ما شأن الحرمدان؟ قال الملك: أنت تنكر عليّ ما يجري في بلدي ومملكتي من المنكرات والظلم، وأنا والله أعتقد مثل ما تعتقد أنت فيه من أنّ ذلك كله منكر، ولكن والله يا سيدي ما منه منكر إلا بفتوى فقيه وخطّ يده عندي بجواز ذلك، فعليهم لعنة الله. ولقد أفتاني فقيه هو فلان، وعيّن له أفضل فقيه عنده في بلده في الدين والتقشف، بأنه لا يجب عليّ صوم شهر رمضان هذا بعينه بل الواجب عليّ شهر في السنة والاختيار لي فيه أي شهر شئت من شهور السنة! قال السلطان فلعنته في باطني ولم أظهر له ذلك وهو فلان وسمّاه له، رحم الله جميعهم، كما يقول الشيخ محيي الدين رضي الله عنه."[733]

ومن غير المستبعد أن يكون ما أثار هذا الحديث هو انتقاد الشيخ محيي الدين للملك الظاهر الذي تم إعدام السهروردي خلال فترة حكمه كأمير في حلب قبل أكثر من عقدين. وهذا السهروردي الذي أصبح يعرف بالسهروردي القتيل هو مؤسس المذهب الإشراقي وهو غير شهاب الدين السهروردي الصوفي الشهير الذي يذكره الشيخ محيي الدين ويقال إنه التقاه في بغداد أو مكة كما سنرى بعد قليل.

حديث برواية شيخ من الجن (حلب)

ويقول ابن العربي أنه كان في منزله بحلب فحدثه إبراهيم بن سليمان، وكان ضريراً، وهو من دير الرمان من أعمال الخابور، حديثاً غريبا عن رجل ثقة كان قد قتل حيّة فاختطفته الجن فأحضرته بين يدي شيخ كبير منهم هو زعيم القوم عندهم فقالوا له هذا قتل ابن عمنا! قال الحطاب: ما أدري ما تقولون وإنما أنا

---

[731] الفتوحات المكية: ج٣ص٤٧٢.

[732] الحرمدان هو حقيبة السفر أو المحفظة الخاصة التي يحمل فيها الفرد أوراقه ونقوده، ويطلق اللفظ أحيانا على حقيبة الحلاق، ولعل الملك أراد أن يري الشيخ فتاوي فقهاء حلب التي يحتفظ بها، وربما كانوا على سفر حين حدثت هذه القصة.

[733] الفتوحات المكية: ج٣ص٧٠.

رجل حطاب تعرّضت لي حيّة فقتلتها! فقالت الجماعة هو كان ابن عمنا. فيقول ابن العربي أن شيخ الجنّ رضي الله عنه قال خلّوا سبيل الرجل وردّوه إلى مكانه فلا سبيل لكم عليه فإني سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول لنا: من تصوّر في غير صورته فقُتل فلا عقل فيه ولا قود،[٧٣٤] وابن عمكم تصوّر في صورة حية وهي من أعداء الإنس. قال الحطاب: فقلت له يا هذا أراك تقول سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، هل أدركته؟ قال نعم أنا واحد من جنّ نصيبين الذين قدموا على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فسمعنا منه وما بقي من تلك الجماعة غيري فأنا أحكم في أصحابي بما سمعته من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. ولكن ابن العربي يقول إن الراوي يقول إن الرجل لم يذكر لنا اسم ذلك الرجل من الجن ولا سألت عن اسمه. ويضيف ابن العربي أنّه قد حدث بهذا الحديث الشيخ الذي حدثهم به صاحبَه شمس الدين محمد بن برنقش المعظمي وبرهان الدين إسماعيل بن محمد الأيدني بحلب أيضاً فإنه لمّا كان يحدثهما بهذا الحديث فلما جاؤوا إلى مدينة حلب بعثهما إليه ليحدثهما كما حدثه فحدثهما كما حدثه.[٧٣٥]

تجلي سورة الإخلاص (حلب)

وفي مدينة حلب اطلع الشيخ محيي الدين رضي الله عنه على منزل سورة الإخلاص وسرّ الإخلاص في الدين ولماذا سميت بهذا الاسم خصوصاً وقد خصّص الباب الخامس والأربعين وثلاثمائة من الفتوحات المكية لهذا الموضوع وسماه "في معرفة منزل سرّ الإخلاص في الدين وما هو الدين ولماذا سمي الشرع ديناً وقول النبي صلّى الله عليه وسلّم الخير عادة"[٧٣٦]. فقال إنه قد تجلت له هذه السورة بمدينة حلب وقيل له لما رآها: هذه سورة لم يطمثها إنس ولا جان، فرأى منه ميلاً عظيماً لها ومنها كذلك ميلاً عظيماً إلى جانبه، وقد مُثّلت له في شبه هذا المنزل الذي كان قد دخله قبل ذلك، ثم قيل له: هي خالصة لك من دون المؤمنين، ففهم الإشارة وعلم أنها ذاته وعين صورته لا غيره، فإنه ما لموجود شيءٌ مُخلَص له ليس لغيره قديمه وحديثه إلا ذاته خاصة، فقال "ها أنا ذا". وعلم عند ذلك معنى التخليص وعلم ما تُلي عليه فيما أنزل عليه من القرآن[٧٣٧] عند التلاوة لأنه لما نزل الإلهام بتلاوة سورة الإخلاص رُزق عين الفهم في تسميتها بهذا الاسم دون غيرها من السور: فإنها كلُّها نسبُ الله وصفته، وهي عين مجموع العالم، ففهم الإشارة بها في أن العالم مع كونه هو الحق المبين من حيث مجموعه لا من حيث جزء جزء منه؛ فتخلص النسب لله من حيث ذاته، فهذا المجموع هو في الحق عينٌ واحدةٌ وهو في العالم عين الحق المبين.[٧٣٨]

---

[٧٣٤] لم أجد هذا الحديث، وربما كان مختصا بالجن الذين لهم قدرة التحوّل بالصور.

[٧٣٥] الفتوحات المكية: ج٣ص٤٩.

[٧٣٦] حديث: "الخير عادة والشر لجاجة" أخرجه ابن ماجه في المقدمة (باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم ٢٢١) ورواه ابن حبان في صحيحه من طريق هاشم بن عمار بإسناده ومتنه عن معاوية. انظر كنز العمال: حديث رقم٢٨٧٢٢، وكذلك: ٤٤١٢٨.

[٧٣٧] ليس معنى ذلك أنه ينزل على قلبه قرآن جديد، ولكن القرآن لا يزال ينزل على قلوب الأولياء رضي الله عنهم، بمعنى أنهم لا يزالون يتحققون في حقائق معانيه فيرزقون عين الفهم في آياته.

[٧٣٨] الفتوحات المكية: ج٣ص١٨١.

وهكذا يؤكد الشيخ الأكبر أن كل شيء في العالم تميّز بصفة ما من الصفات المذكورة في سورة الإخلاص، ولكن الله وحده سبحانه قد تميّز بجميع هذه الصفات؛ فلم يشبهه شيء من خلقه، فخلّصت هذه السورة الحقَّ من التشبيه كما خلّصته من التنزيه، وهنا سرّ لطيف يقول عنه الشيخ الأكبر: فإذا فهمت ما أشرنا إليه فاعلم أن سرّ الإخلاص هو سرّ القدر الذي أخفى الله علمه عن العالم لا بل عن أكثر العالم فميّز الأشياء بحدودها فهذا معنى سرّ القدر فإنه التوقيف عينه وبه تميّزت الأشياء وبه تميّز الخالق من المخلوق والمُحدَث من القديم فتميّز المُحدَث بنعتٍ ثابتٍ يُعلم ويُشهد وما تميّز القديم من المحدَث بنعتٍ ثبوتي يُعلم بل تميّز بسلب ما تميّز به المحدَث عنه لا غير، فهو المعلوم سبحانه المجهول فلا يُعلم إلا هو ولا يُجهل إلا هو فسبحان من كان العلم به عين الجهل به وكان الجهل به عين العلم به، وأعظم من هذا التمييز لا يكون ولا أوضح منه لمن عقل واستبصر."[739]

خالص بن أحمد (حلب)

وفي حلب أيضاً التقى الشيخ محيي الدين بأبي القاسم الغافقي، فيذكر ابن العديم في "بغية الطلب في تاريخ حلب" أن ابن خالص بن عبد الله بن خالص أبا القاسم بن أبي العباس الغافقي الإشبيلي ثم الشقري، قدم حلب وصحب بها محمد بن علي ابن العربي، وتوجه منها صحبته إلى بلد الروم، وكان شاعراً مجيداً كتب عنه رشيد الدين محمد بن الحافظ عبد العظيم المنذري."[740]

(قراءة) كتاب التجليات (حلب ٦٠٦/١٢٠٩)

كما أوضح الدكتور عثمان يحيى في تصنيفه لكتب الشيخ محيي الدين،[741] وفي تحقيقه لكتاب التجليات الإلهية وشرح ابن سودكين له،"[742] فإن هذا الكتاب المهم قد تم تأليفه قبل سنة ٦٠٦ وأنه قد تمت قراءته في حلب في هذه السنة، وربما كان التأليف أيضاً في نفس السنة في حلب أيضاً، حيث يقول نص السماع: "قرأ علي كتاب التجليات صاحبنا البرهان أبو محمد عبد الله علي بن أحمد الخولاني، وكتبه المصنّف سنة ستّ وستماية بمدينة حلب."

ويعدّ كتاب التجليات من أهم الكتب التي كتبها الشيخ محيي الدين وقد تم نشره في مجموعة الرسائل التي طبعت في حيدر آباد سنة ١٩٤٨، وهناك شروح كثيرة على هذا الكتاب منها ما حققه الدكتور عثمان يحيى كما ذكرنا وهو لابن سودكين النوري، وقد بيّن عثمان يحيى في بداية تحقيقه أن تعليقات ابن سودكين على كتاب التجليات تمت بعد سنة ٦١٠ بقليل وذلك أن بعض الفقهاء قد انتقدوا هذا الكتاب

---

[739] الفتوحات المكية: ج٣ص١٨٢.

[740] بغية الطلب في تاريخ حلب: ص ١٣٠٠.

[741] مؤلفات ابن عربي: ص٢٣٢.

[742] التجليات الإلهية وتعليقات ابن سودكين عليها، تحقيق عثمان إسماعيل يحيى، مركز نشر دانشگاهي، طهران ١٩٨٨.

واعتبروه ظلماً وعدواناً ولم يكن الشيخ محيي الدين موجوداً بحلب، فلما جاء استأذنه بشرحه ففعل وقام ابن سودكين بكتابته. فهذا يعني، كما يقول عثمان يحيى، أنّ هذه التعليقات إنما هي في الحقيقة من كلام ابن العربي ولكن بقلم ابن سودكين.

الفترة من ٦٠٦/١٢٠٩–٦٠٨/١٢١١

وهنا نفقد أثر الشيخ محيي الدين ابن العربي لمدة سنتين تقريبا، وعلى الأغلب كان خلالهما في حلب مع تلامذته يلقي الدروس وخاصة في بيت تلميذه ابن سودكين النوري. ومن المحتمل كذلك أن يكون الشيخ رضي الله عنه قد قضى بعض الوقت في دمشق حيث سنجده في دمشق سنة ٦٠٨ في شهر رمضان تقريبا مع عائلته متجهين إلى مكة المكرمة بقصد الحج، غير أنه لم يذهب إلى الحج مباشرة بل ذهب إلى بغداد ومنها إلى مكة المكرمة كما سنرى بعد قليل.

ابنته زينب (دمشق ٦٠٨/١٢١١)

وعلى الطريق، وهم متجهون إلى الحج، في دمشق تقريبا، حدثت معهم كرامة لابنته الصغيرة زينب التي لم تكن تتعدى السنتين وكانت ما تزال ترضع من أمها. فيقول الشيخ محيي الدين في الباب الثالث وثلاثمائة عندما كان يتحدث عن موضوع الكلام في المهد مثل كلام عيسى عليه السلام في المهد وكلام صبي يوسف عليه السلام وصبي جُريج فقال: وأما أنا فرأيت في زماننا شخصاً شاباً اسمه، والله أعلم، عبد القادر بمدرسة ابن رواحة بمدينة دمشق فجاء وسلم، فأخبرني عنه جماعة منهم الزكي بن رواحة صاحب المدرسة قالوا أن أمّ هذا الشاب لما كانت حاملة به عطست فحمدت الله فقال لها من جوفها يرحمك الله بصوت سمعه كل من حضر هنالك.

ثم يضيف الشيخ محيي الدين قائلا: وأما أنا فكانت لي بنت ترضع وكان عمرها دون السنتين وفوق السنة لا تتكلم، فأخذت ألاعبها يوماً فقلت لها: يا زينب! فأصغت إلي، فقلت لها: إني أريد أن أسألك عن مسألة مستفتياً؛ ما قولك في رجل جامع امرأته ولم ينزل ماذا يجب عليه؟ قالت لي: "يجب عليه الغسل" بكلام فصيح وأمها وجدتها يسمعان، فصرخت جدتها وغشي عليها.[743]

ويذكر الشيخ محيي الدين هذه القصة أيضاً في الباب الثمانين وأربعمائة ويضيف أنه فارق هذه البنت في تلك السنة وتركها عند أمها وغاب عنها، وأذن لأمها في الحج في تلك السنة ومشى هو إلى العراق ثم إلى مكة. فلما جاء المعرّف خرج في جماعة يطلب أهله في الركب الشامي فرأته ابنته زينب وهي ترضع ثدي أمها، فقالت: هذا أبي قد جاء، فنظرت الأمّ حتى رأته مقبلاً على بعد، وزينب تقول: هذا أبي هذا أبي، وكان معها خالها فناداه فأقبل إليهم وعندما رأته ضحكت ورمت بنفسها عليه، وصارت تقول له: يا أبت يا أبت![744]

---

[743] الفتوحات المكية: ج٣ص١٧.

[744] الفتوحات المكية: ج٤ص١١٧.

ولا نعرف الكثير عن ابنته زينب هذه، سوى أنها ماتت خلال حياته ولحدها بيده، وذكر ابن العربي ذلك في قصيدة طويلة في الديوان الكبير يقول في أولها:[745]

لحـــــدت بـــــنتي بيـــــدي ... لأنهـــــا ذو جـــــدي
أنـــــا علـــــى حكـــــم النـــــوى ... فلـــــيس شـــــيء بيـــــدي
مقيّـــــدٌ في وقتنـــــا ... مـــــا بـــــين أمـــــسٍ وغـــــدِ

وكذلك نعلم أيضاً أن له حفيدة، وهي بنت بنته (ربما زينب)، اسمها صفية ذكرها في الديوان وألبسها الخرقة،[746] كما سنرى في الفصل السادس.

بغداد للمرة الثانية (شهر رمضان ١٢١٢/٦٠٨)

ففي سنة ٦٠٨ نجد الشيخ محيي الدين في بغداد حيث يقول في الفتوحات المكية أنه كان مرة مع مجموعة من أصحابه وكانوا يمشون وإذا بالخليفة مقبل مع حشمه فتنحوا عن الطريق ولكن الشيخ قال لأصحابه أن لا يبدؤوه بالسلام لأنه هو راكب وعليه هو إلقاء السلام. فلما وصل الخليفة وحاذاهم بفرسه انتظر أن يسلموا عليه كما جرت عادة الناس في السلام على الخلفاء والملوك، ولكنهم لم يفعلوا! فنظر إليهم وقال بصوت واضح: سلام عليكم ورحمة الله وبركاته. فقالوا له بأجمعهم: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته. فقال لهم الخليفة: جزاكم الله عن الدين خيراً، وشكرهم على فعلهم وانصرف.[747]

ومع أن ابن العربي لم يذكر اسمه، إلا أنه من الواضح أن هذا الخليفة هو الخليفة العباسي الناصر لدين الله (٥٨٠-٦٢٢)، ومن المستبعد أن يكون ذلك حدث في زيارته الأولى لبغداد لأنها كانت قصيرة جداً كما رأينا (كانت اثني عشر يوما فقط).

خزائن المكر (بغداد ١٢١٢/٦٠٨)

وفي هذه السنة رأى الشيخ محيي الدين في واقعة خزائن المكر الإلهي قد نزلت مثل المطر. فلما نظر في طريق السلامة منها وجد أنه في العلم بالميزان الشرعي، فحين تختلط الأمور لا بدّ من الرجوع إلى ميزان الشرع الذي لا يهلك من حكّمه. ويقول الشيخ أنه سمع ملكاً يقول: ماذا نزل الليلة من المكر! فاستيقظ مرعوباً ونظر في السلامة من ذلك فلم يجدها إلا في العلم بالميزان المشروع، فمن أراد اللهُ به خيراً وعصمه من غوائل المكر فلا يضع ميزان الشرع من يده وشهود حاله، وهذه حالة المعصوم والمحفوظ.[748]

---

[745] الديوان: ص٣١٧.

[746] الديوان: ص٥٤، ٦٠.

[747] الفتوحات المكية: ج٤ص٤٩٢.

[748] الفتوحات المكية: ج٢ص٥٣٠، وكذلك: محاضرة الأبرار: ج٢ص٤٧٣.

المؤرخ ابن الدبيثي (بغداد ٦٠٨)

وفي بغداد أيضاً التقى الشيخ محيي الدين بالمؤرخ الشهير ابن الدبيثي الذي تكلم عنه في كتابه "المختصر المحتاج إليه"، وقال إنه حدثه ببعض المبشرات التي رأى فيها النبي صلّى الله عليه وسلّم.[٧٤٩]

المؤرخ ابن النجار (بغداد ٦٠٨)

وكذلك في بغداد، في هذه الفترة، التقى الشيخ الأكبر بالمؤرخ ابن النجار، وهو تلميذ ابن الدبيثي، وقد نقل عنه المقرّي في "نفح الطيب" أنه قال: اجتمعت به في بغداد في رحلتي سنة ٦٠١، فأقام بها اثني عشر يوماً، ثم دخلها ثانياً حاجاً مع الركب سنة ٦٠٨، ... وسألته عن مولده فقال: ليلة الاثنين ١٧ رمضان سنة ٥٦٠ بمرسية من بلاد الأندلس.[٧٥٠]

وصية موسى بن محمد القرطي (بغداد)

وهناك في بغداد التقى الشيخ محيي الدين بموسى بن محمد القرطي وعبد الوهاب ابن سكينة الذي كان مرابطاً فيها فنقل عنه وصية لطيفة ذكرها في وصاياه رضي الله عنه:

> وصية إلهية فيها لطف: حدثني بها موسى بن محمد القرطي وعبد الوهاب ابن سكينة ببغداد عند اجتماعي به برباطه قال: يقول الله: إذا أحدث عبدي ولم يتوضأ فقد جفاني وإذا توضأ ولم يصلّ فقد جفاني وإذا صلى ولم يدعني فقد جفاني وإذا دعاني ولم أجبه فقد جفوته، ولست بربٍّ جافٍ ولست بربٍّ جافٍ ولست بربٍّ جافٍ.[٧٥١]

كتاب الإعلام بإشارات أهل الإلهام (بغداد)

لا نعلم متى تم تأليف هذا الكتاب، ولكن ذلك حدث في بغداد،[٧٥٢] فربما في سنة ٦٠١ أو في سنة ٦٠٨، أو ربما في زيارات أخرى لا نعرفها. ويقول الشيخ محيي الدين رضي الله عنه في بداية هذا الكتاب أنه ألّفه بناءً على رغبة أخ كريم له، ففعل كما تمنى عليه، واستخدم فيه أسلوب الإشارة؛ فما شرح فيه شيئاً، إنما ذكر أقوالاً مأثورة فيها إشارات لعلوم باطنية جمّة. وقد قسم الشيخ محيي الدين هذا الكتاب الصغير إلى بضعة أجزاء تدور حول موضوع الرؤية، والسماع، والكلام، والتوحيد، والمعرفة، والحب، وإشارات أخرى مختلفة.

توجد من هذا الكتاب مخطوطات عديدة ذكرها عثمان يحيى في تصنيفه، وقد طبع أيضاً في

---

[٧٤٩] الفتوحات المكية: ج١ص١٠٢.

[٧٥٠] نفح الطيب: ج٣ص١٦٢.

[٧٥١] الفتوحات المكية: ج٤ص٥٢٩.

[٧٥٢] مؤلفات ابن عربي: ص١٩٣.

مجموعة رسائل ابن عربي (طبعة حيدر آباد). وقد نقلنا جزءاً منه من باب الرؤية في بداية الفصل الثاني عند الحديث عن رؤية الله تعالى.

شهاب الدين السهروردي (بغداد/مكة ٦٠٨)

تؤكد العديد من المصادر أن الشيخ محيي الدين التقى بشهاب الدين أبي حفص عمر السهروردي في هذه السنة إما في بغداد أو في مكة المكرمة. يقول المقرّي في "نفح الطيب" أن عبد الله بن سعد اليافعي اليمني ذكر في "الإرشاد" أنه لما اجتمع ابن العربي مع الشهاب السَهروردي أطرق كلٌ واحد منهما ساعة، ثم افترقا من غير كلام! فقيل للشيخ ابن عربي: ما تقول في السَهروردي؟ فقال: مملوءٌ سنّةً من قرنه إلى قدمه. وقيل للسَهروردي: ما تقول في الشيخ محيي الدين؟ فقال: بحرُ الحقائق."[٧٥٣]

والسهروردي هو الشيخ شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد بن عمويه السهروردي، ولد سنة ١١٤٤/٥٣٩ ودرس في بغداد وصحب الشيخ عبد القادر الجيلي وأخذ العلوم عن علماء عصره حتى تصدّر مجالس العلم واشتهر. ثم تولى مشيخة عدة ربط للصوفية كرباط الزوزوني ورباط المأمونية وكان له مكانة عظيمة عند الخليفة العباسي الناصر لدين الله وأصبح سفيراً له إلى الملوك والأمراء. ومن أهم مؤلفاته كتاب "عوارف المعارف". وتنسب إليه الطريقة النقشبندية السهروردية.[٧٥٤] توفي السهروردي رحمه الله سنة ١٢٣٥/٦٣٢ في بغداد، ومقامه لا يزال هناك يزار في منطقة تسمى الشيخ عمر.

وتجدر الإشارة إلى أن شهاب الدين السهروردي هو غير السهروردي المقتول مؤسس المذهب الإشراقي والذي أعدم في حلب بأمر من صلاح الدين الأيوبي بسبب دسائس الفقهاء عليه سنة ١١٩١/٥٨٦ لدى الملك الظاهر ملك حلب والذي اشتكى ذلك لابن العربي كما رأينا أعلاه.

وقد نقل الشيخ محيي الدين بشكل غير مباشر عن الشيخ شهاب الدين السهروردي عدة أقوال منها ما قاله في الباب الخمسين وثلاثمائة حيث يقول الشيخ رضي الله عنه:

> وقد بلغنا عن الشيخ العارف شهاب الدين السهروردي ببغداد رضي الله عنه أنه قال بالجمع بين المشاهدة والكلام، ولكن ما نقل عنه أكثر من هذا؛ فإني سألت الناقل فلم يذكر لي نوع التجلي. والظن بالشيخ جميل فلا بد أنه يريد التجلي الصوري.[٧٥٥]

ثم يوضح الشيخ محيي الدين معنى ذلك فيقول إن الخطاب في حال الفناء (الذي لا بدّ أن يحصل عند المشاهدة) لا يصح لأن فائدة الخطاب أن يُعقل، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى في سورة

---

[٧٥٣] ذكر ذلك المقرّي في نفح الطيب (ج٢ص١٨٢) نقلا عن الإمام عبد الله بن سعد اليافعي اليمني في الإرشاد.

[٧٥٤] انظر ترجمته في "ذيل الروضتين": ص١٦٣، "طبقات الشافعية": ج٥ص١٤٣، "الحوادث الجامعة": ص٧٤، "مرآة الزمان": ص٦٧٩، "النجوم الزاهرة": ج٦ص٢٩٢، "شذرات الذهب": ج٥ص١٥٣، "البداية والنهاية": ج١٣ص١٣٨، ١٤٣، "وفيات الأعيان": ج٣ص٤٤٦.

[٧٥٥] الفتوحات المكية: ج٢ص٢١٣.

الشورى: (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾)، وبالتالي لا يمكن الجمع بين المشاهدة والكلام.

ويوضح الشيخ محيي الدين ذلك أيضاً في الباب الواحد والسبعين عندما كان يتكلم عن حكم القبلة للصائم فقال إن المشاهدة والكلام لا يجتمعان في غير التجلي البرزخيّ. ثم قال: "وهو كان مقام شهاب الدين عمر السهرورديّ الذي مات ببغداد رحمه الله، فإنه رُوي لي عنه من أثق بنقله من أصحابه أنه قال باجتماع الرؤية والكلام، فمن هنا علمتُ أن مشهده برزخي، لا بدّ من ذلك غير ذلك لا يكون".[756]

وكذلك يعيد الشيخ الأكبر ذلك في الباب الخمسين وخمسمائة "في معرفة حال قطب كان منزله "فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ"،[757] ويضيف أن التجلي الذي يكون معه البقاء والعقل والالتذاذ والخطاب والقبول فذلك التجلي الصوري، ومن لم يرَ غيره ربّما حكم على التجلي بذلك مطلقاً من غير تقييد، أما الذي ذاق الأمرين (أي الفناء في الحق بالإضافة إلى التجلي الصوري) فقد فرّق. ثم يقول إنه بلغه عن الشيخ المسن شهاب الدين السهروردي ابن أخي أبي النجيب أنه يقول بالجمع بين الشهود والكلام، فعلم مقامه وذوقه عند ذلك وعلم أنه في مرتبة التخيّل وهو المقام العام الساري في العموم وأما الخواص فيعلمونه ويزيدون بأمرٍ ما هو ذوق العامة. ولكنه يقول عن السهروردي: فما أدري هل ارتقى بعد ذلك أم لا".[758]

متى حدث اللقاء بينهما

أغلب الظن أن اللقاء بين شهاب الدين السهروردي وابن العربي قد تم في مكة أثناء موسم الحج على الرغم من أن بعض المصادر تقول أنه حدث في بغداد. فقد نقلتْ كلوديا عداس، التي تشكك في حدوث هذا اللقاء أصلا، عن عثمان يحيى أنه يشير إلى أن هذا اللقاء تم في بغداد،[759] ثم نقلت أيضاً عن القاري البغدادي (توفي ٨٢١/١٤١٨) قوله في "مناقب ابن عربي" أنه قال إن هذا اللقاء حصل في مكة.[760]

تُبني كلوديا عداس فرضيتها في نفي اللقاء بين الشيخ الأكبر وشهاب الدين السهروردي على أنه لو تمّ مثل هذا اللقاء لكان الشيخ محيي الدين نقل حاله الذي وصفناه أعلاه (أن مقامه برزخي) عنه مباشرة وليس عن طريق نقل أحد أصحابه، وأنه ذكر ذلك بعد وفاة السهروردي سنة ٦٣٢ لأنه يقول "رحمه الله". ولكن هذه الفرضية غير مبرّرة لأنه لا يمنع كونهما التقيا من قبل أن يلتقي الشيخ محيي الدين بأحد أصحاب السهروردي وينقل له ما نقله عنه ثم يكتب ذلك في الفتوحات المكية بعد وفاة شهاب الدين السهروردي.

وفي الحقيقة فإن علاقة السهروردي مع الشيخ محيي الدين ولقاءهما قد تكون أعمق بكثير مما

---

[756] الفتوحات المكية: ج١ص٦٠٩.

[757] سورة الأعراف، آية ١٤٣.

[758] الفتوحات المكية: ج٤ص١٩١.

[759] البحث عن الكبريت الأحمر: ص٢٤٠، عثمان يحيى، "مؤلفات ابن عربي" (النسخة الفرنسية)، ص٩٨.

[760] القاري البغدادي، "مناقب ابن عربي"، ص٢٩.

نتصور، رغم أنه لا توجد وثائق تاريخية بذلك. فقد رأينا حين تكلمنا أعلاه عن وجود الشيخ محيي الدين في قونية أنه أرسل رسالة إلى صاحبه الذي بعث يسأل عنه وصادف ذلك ليلةً كانت قاسية على الشيخ الأكبر لم ير مثلها من شدّة ما تجلّى له من حكم القضاء والقدر، فردّ الشيخ محيي الدين على صاحبة بكتاب يشرح له فيه ذلك. فكان هذا الكتاب مؤثراً بحيث أدى بصاحبه إلى إطالة التفكّر فيه مما أدى إلى وفاته بعد أيام. وفي هذا الكتاب يدعو الشيخ محيي الدين صاحبه هذا باسم "شهاب الدين". ولا نعلم من الشيوخ الذين يذكرهم الشيخ الأكبر شخصاً باسم شهاب الدين غير السهروردي الذي ذكره في الفتوحات المكية أربعة مرات، ثلاثة منها باسم "شهاب الدين السهروردي" والرابعة باسم "شهاب الدين" فقط، وهي التي نتكلّم عنها هنا. ورغم أن هذه الفرضية ستغيّر الكثير مما هو معروفٌ عن تاريخ الشيخ الأكبر أنه استقرّ في دمشق منذ سنة ٦٢٠، ولكن من غير المستبعد أنه يغادر إلى المدن الأخرى التي زارها كثيراً من قبل مثل قونية وبغداد ثم يعود إلى دمشق.

بالإضافة إلى ما ذكرنا أعلاه فإنه يتضح من القصة التالية التي سنرويها فيما يلي أن هذا اللقاء قد حصل وكان مشهوراً وكان في مكة المكرمة.

تفاخر سلطان إشبيلية بابن العربي (مكة ٦٠٨/١٢١٢)

ذكر العيدورس في "النور السافر عن أخبار القرن العاشر" حكاية غريبة وقعت للشيخ ابن العربي تدلّ على فضله العظيم، وقال إنه ذكر بعض المعتنين بأخباره والمدونين لمحاسن آثاره أن صاحب إشبيلية أرسل مالاً عظيماً إلى مكة المكرمة وأوصى الوكيل أن لا يفرّق هذا المال إلا أعلم أهل الأرض، واتفق أنه اجتمع في تلك السنة بمكة من المشايخ والعلماء والفقهاء ومن كلّ ذي فنّ من العلوم ما لم يجتمع في عصر من الأعصار. ويضيف العيدورس أنها هي نفس السنة التي اجتمع فيها الشيخ شهاب الدين السهروردي بالشيخ محيي الدين رضي الله عنهما. فيقول الراوي أنه أجمع الكل على الشيخ محيي الدين رضي الله عنه، وأن لا يفرّق المال سواه، ففرّقه.

ثم يضيف الراوي فيقول إنه لما فرغ الشيخ محيي الدين من تفريق المال قال: لولا من خوفي خرق الإجماع لامتنعت! فقال له بعض أصحابه: لم يا سيدي؟ قال: ما أريدَ به وجهُ الله، بل أريد به التفاخر. فقال له: بيّن لي ذلك! فقال الشيخ: إن صاحب الغرب أراد أن يفتخر بي على سائر ملوك الأرض، إذ قد علم أنه لا يفرّقه سواي، فما أراد به وجه الله تعالى، بل أراد التفاخر.

فيقول الراوي: فبلغ ذلك المجلس إلى صاحب إشبيلية فبكى، وقال: صدق الشيخ هذا أردت.[٣٦١]

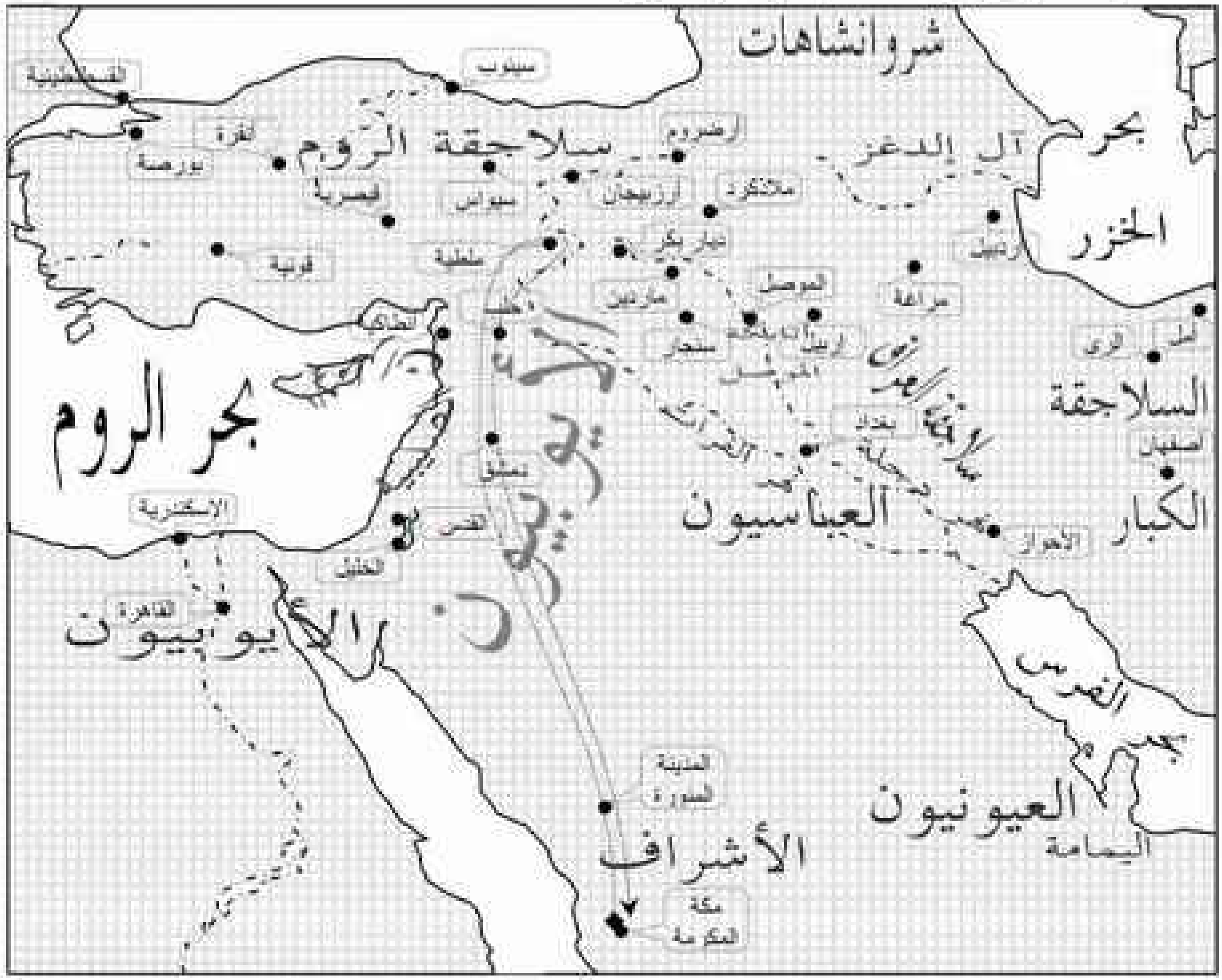
الرحلة نحو الشمال، الدورة الثالثة (٦٠٨/١٢١١-٦١١/١٢١٤)

في الواقع لا توجد دلائل قوية على ما سنذكره في هذه المرحلة من سنة ٦٠٨ إلى سنة ٦١١ حيث يبدو لنا أن الشيخ محيي الدين قد غادر مكة المكرمة إلى بلاد الروم، ربما قونية أو ملطية، ثم عاد إلى حلب

[٣٦١] النور السافر عن أخبار القرن العاشر، العيدروس، ص١٧٣.

في سنة ٦١١/٦١٠ قبل أن يعود من جديد إلى مكة خلال سنة ٦١١، ومن غير المستبعد إذا كان الأمر كذلك أن يكون الشيخ الأكبر قد مرّ بدمشق في الذهاب والإياب، وكذلك بالمدينة المنورة. وسوف نسوق الأسباب التي دعتنا إلى هذا الاستنتاج من خلال تفصيل هذه الرحلة في الفقرات التالية.

ولكن الاحتمال الآخر إذا لم يكن هذا الاستنتاج صحيحا، هو أن الشيخ الأكبر رضي الله عنه قد بقي في مكة المكرمة طوال هذه الفترة من سنة ٦٠٨ إلى سنة ٦١١. كما أنه من المحتمل أن يكون قد ذهب إلى أماكن أخرى كالعراق مثلا، خاصة وأنه يبدو لنا من خلال حديثه، وخاصة في ترجمان الأشواق الذي كان يكتب قصائده في هذه الفترة، أن تجربته في العراق قد تتعدى الزيارتين القصيرتين التي قام بهما إلى بغداد سنة ٦٠١ (اثنا عشر يوما) وسنة ٦٠٨ (لا تزيد عن الشهر).



رحلته نحو الشمال، الصورة الثالثة:

(مكة-بلاد الروم-حلب-مكة)

مراسلته للملك كيكاوس (بلاد الروم ١٢١١/٦٠٩)

بعد موسم الحج في مكة المكرمة لا نعرف بالتحديد أين ذهب الشيخ محيي الدين ابن العربي

ولكن يبدو لنا أنه عاد إلى بلاد الروم ربما قونية أو ملطية التي سيستقر فيها لبعض الوقت كما سنرى. ولكن الشيخ محيي الدين يذكر في آخر كتاب الفتوحات المكية أنه استلم كتابا من الملك كيكاوس يستشيره فيه عن بعض الأمور الخاصة بوضع النصارى في بلاده، ولكن لا نعرف أين كان الشيخ محيي الدين عندما استلم هذا الكتاب، إلا أن ذلك كان سنة ٦٠٩/١٢١١ وردّ عليه الشيخ محيي الدين ربما في نفس الوقت على الأغلب.

ولقد فرضنا هنا وعلى الخريطة أنه كان في بلاد الروم عندما استلم كتاب كيكاوس وعندما ردّ عليه، وسبب هذا الافتراض هو أنه من الواضح من خلال كلام الشيخ محيي الدين في آخر ردّه، وخاصة في القصيدة التي أرفقها للملك كيكاوس مع الكتاب، أنه كان على اطلاع واسع بما يجري في مملكته وحتى في قصره: حيث يلوّح له بوجود شخص يسيء استخدام السلطة التي منحها له الملك وينصحه بإقالته.

ولقد استغل آسين بلاثيوس هذا الكتاب لمهاجمة الشيخ محيي الدين ابن العربي وكلُّ المسلمين باعتباره أن فيه تحريضاً على الكراهية ضد النصارى.[762] ولكن كلوديا عدّاس ردّت عليه ردّاً شافياً في كتابها "البحث عن الكبريت الأحمر".[763] ونضيف هنا أنه على الرغم من أن كلمات الشيخ محيي الدين، والتي هي في الحقيقة بسط للعهد الذي أخذه عمر بن الخطاب رضي الله عنه على أهل الذمة حتى يعيشوا بين المسلمين بسلام، نقول أنه قد تبدو هذه الكلمات قاسية إذا ما أُخذت بمعزل عن الظروف التي كانت في ذلك الوقت، فلا يجوز أن يغيب عنّا أنها كانت في فترة شكّل فيها النصارى خطراً كبيراً على المسلمين وتسبّبوا في قتل الآلاف منهم، ليس فقط خلال الحروب الصليبية التي لم تندمل بعد جراحاتها في ذلك الوقت، ولكن حتى في فترة حكم كيكاوس وأبيه كيخسرو حيث سيطر الصليبيون على جزء كبير من مملكته ومن سورية وبلاد الشام وكانوا يعيثون في الأرض فساداً وما استطاع ردّهم سوى صلاح الدين بعد حرب سجالٍ دامت سنيناً طوالاً، ومع ذلك فبعد أن استردّ القدس ومعظم بلاد شام منهم وسمح لهم بالخروج إلى بلادهم آمنين كما ذكرنا في الفصل الرابع، ثم مع ذلك عادوا من جديد في آخر حياته وبعد وفاته فعاثوا في الأرض فساداً. وكذلك في هذه الفترة نفسها كان النصارى في الأندلس يقتلون المسلمين بلا أدنى رحمة ويخرجونهم من هذه الديار بعد أن بنوا فيها حضارة بديعة قائمة على الحب والسلام، ولم يكن هناك أية كراهية أو عداء للنصارى ولا حتى لليهود الذين كانوا يفضلون العيش بين المسلمين.

وكما سنذكر بعد قليل فإن الملك غياث الدين كيخسرو والد عزّ الدين كيكاوس كان قد استرجع أنطاكية من يد الفرنجة (النصارى) سنة ٦٠٢/١٢٠٥ وبقيت بيده حتى سنة ٦٠٧/١٢١٠ حيث هجم الفرنجة عليها وقتلوا من بها من المسلمين من غير رحمة، فربّما كان هذا هو سبب كتابة الملك كيكاوس لابن العربي يستشيره بأمر النصارى الذين في بلاده.

ومن جهة أخرى نلاحظ في هذا الخطاب كيف أن الشيخ محيي الدين يعامل الملك كيكاوس معاملة الوالد لولده، وينصحه نصيحة إسلامية مخلصة، ويبدو أن العلاقة بينهما كانت علاقة محبة ومودّة ولا

[762] آسين بلاثيوس، "ابن عربي، حياته ومذهبه": ص٧٠.

[763] البحث عن الكبريت الأحمر: ص٢٣٥-٢٣٦.

شكّ أنهما كانا يلتيقان كثيراً حيث يذكر الشيخ أنه يكتب له كتاباً مختصراً حتى يحين وقت لقائهما.

فيقول الشيخ محيي الدين في قسم الوصايا وهو الباب الأخير من الفتوحات المكية أنه كتب وصية ونصيحة إلى السلطان الغالب بأمر الله كيكاؤس صاحب بلاد الروم بلاد يونان رحمه الله جواباً على كتاب كتب به إليه سنة تسع وستمائة، فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم وصل الاهتمام السلطاني الغالب بأمر الله العزيز، أدام الله عدل سلطانه، إلى والده الداعي له محمد ابن العربي: فتعين عليه الجواب بالوصية الدينية والنصيحة السياسية الإلهية على قدر ما يعطيه الوقت ويحتمله الكتاب، إلى أن يقدّر الاجتماع ويرتفع الحجاب. فقد صح عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنه قال: "الدين النصيحة". قالوا: لمن يا رسول الله؟ فقال: "لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم". وأنت يا هذا بلا شك من أئمة المسلمين، وقد قلّدك الله هذا الأمر وأقامك نائباً في بلاده ومتحكماً بما توفّق إليه في عباده، ووضع لك ميزاناً مستقيماً تقيمه فيهم، وأوضح لك محجّةً بيضاءَ تمشي بهم عليها وتدعوهم إليها. على هذا الشرط ولاّك، وعليه بايعناك. فإن عدلتَ فلك ولهم، وإن جُرت فلهم وعليك. فاحذر أن أراك غداً بين أئمة المسلمين من أخسر الناس أعمالاً الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، ولا يكون شكرك لما أنعم الله به عليك من استواء ملكك بكفران النعم وإظهار المعاصي وتسليط النوّاب السوء بقوة سلطانك على الرعيّة الضعيفة: فإن الله أقوى منك، فيتحكمون فيهم بالجهالة والأغراض وأنت المسؤول عن ذلك. فيا هذا قد أحسن الله إليك وخلع خِلع النيابة عليك. فأنت نائب الله في خلقه، وظله الممدود في أرضه، فأنصف المظلوم من الظالم. ولا يغرّنك أن الله وسّع عليك سلطانك وسوّى لك البلاد ومهّدها مع إقامتك على المخالفة والجور وتعدّي الحدود: فإن ذلك الاتّساع مع بقائك على مثل هذه الصفات إمهال من الحق لا إهمال، وما بينك وبين أن تقف على أعمالك إلا بلوغ الأجل المسمّى، وتصل إلى الدار التي سافر إليها آباؤك وأجدادك. ولا تكن من النادمين فإن الندم في ذلك الوقت غير نافع.

يا هذا ومن أشدّ ما يمرّ على الإسلام والمسلمين، وقليل ما هم، رفع النواقيس والتظاهر بالكفر وإعلاء كلمة الشرك ببلادك، ورفع الشروط التي اشترطها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه على أهل الذمة: من أنهم لا يحدثون في مدينتهم ولا ما حولها كنيسة ولا ديراً ولا قليه ولا صومعة راهب ولا يجددون ما خرب منها، ولا يمنعون كنائسهم أن ينزلها أحد من

المسلمين ثلاث ليال يطعمونهم، ولا يأوون جاسوساً، ولا يكتمون غشاً للمسلمين، ولا يعلمون أولادهم القرآن، ولا يظهرون شركاً، ولا يمنعون ذوي قرباتهم من الإسلام إن أرادوه، وأن يوقّروا المسلمين وأن يقوموا لهم من مجالسهم إذا أرادوا الجلوس، ولا يتشبهون بالمسلمين في شيء من لباسهم في قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر، ولا يتسمّون بأسماء المسلمين ولا يتكنّون بكناهم، ولا يركبون سرجاً ولا يتقلّدون سيفاً، وأن لا يتخذوا شيئاً من سلاح ولا ينقشوا خواتيمهم بالعربية ولا يبيعوا الخمور، وأن يجزوا مقادم رؤوسهم وأن يلزموا زيّهم حيث ما كانوا، وأن يشدوا الزنانير على أوساطهم، ولا يظهروا صليباً ولا شيئا من كتبهم في طريق المسلمين، ولا يجاوروا المسلمين بموتاهم، ولا يضربوا بالناقوس إلا ضرباً خفياً، ولا يرفعوا أصواتهم بالقراءة في كنائسهم في شيء من حضرة المسلمين، ولا يخرجوا سعانين، ولا يرفعوا مع أمواتهم أصواتهم، ولا يظهروا النيران معهم ولا يشتروا من الرقيق ما جرت عليه سهام المسلمين. فإن خالفوا شيئاً مما شورطوا عليه فلا ذمة لهم وقد حل للمسلمين منهم ما يحل من أهل المعاندة والشقاق؛ فهذا كتاب الإمام العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وقد ثبت عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنه قال: "لا تبنى كنيسة في الإسلام، ولا يجدد ما خرب منها".[٣٦٤] فتدبّر كتابي ترشد إن شاء الله ما لزمت العمل به والسلام."[٣٦٥]

ثم يقول الشيخ محيي الدين أنّه كتب له بعد هذا الكلام قصيدة يحثّه بها على أن يكون أهلاً لِما لُقّب به، وهو الملقب بعزّ الدين، ونلاحظ كيف قسا عليه بالحق من غير خوف ولا خروج عن أدب محادثة الملوك. ويبدو أن الشيخ محيي الدين أراد من هذه القصيدة أمراً آخراً لم يشأ أن يضعه نثراً لأنه لا يريد أن يصرّح به، ولكن لا شكّ أن السلطان عرف من هذه القصيدة مَن المقصود وما المقصود! وهذه هي القصيدة التي كتبها بعد النصيحة السابقة مباشرة:

إذا أنت أعززت الهدى وتبعته	فأنت لهذا الدين عزٌّ كما تُدعى
وإن أنت لم تحفل به وأهنته	فأنت مذلُّ الدين تُخفضه وضعا
فلا تأخذ الألقاب زوراً فإنكم	لتُسألَ عنها يوم يجمعكم جمعا
يقال لعزّ الدين أعززت دينه	ويُسألُ دين الله عن عزّكم قطعا
فإن شهد الدين العزيز بعزّكم	تكن مع دين الله في عزّه شفعا

[٣٦٤] الحديث موجود في "نصب الراية لأحاديث الهداية"، للحافظ جمال الدين أبي محمد عبد الله بن يوسف الحنفي، مع الحاشية "بغية الألمعي في تخريج الزيلعي" (الجزء الثالث، كتاب السير، الحديث السادس).

[٣٦٥] الفتوحات المكية: ج٤ص٥٤٧، وكذلك: محاضرة الأبرار: ج٢ص٤٥٦-٤٥٧.

وإن قـــال ديــــن الله كنـــت بمُلكـــه ... ذلـــيلاً وأهلـــي في ميادينـــه صـــرعا
ومـــا زلـــتُ في ســـلطانه ذا مهانـــة ... وفي زعمـــه بـــي أنـــه محـــنُ صُـــنعا
فمـــا حجـــة الـــسلطان إن كـــان قولـــه ... كمـــا قلـــتُ، فليـــبكِ لمـــا قلتـــه الـــدمعا
وأدمـــن لبـــاب الله، إن كنـــت تبتغـــي ... تجـــاوزه عـــن ذنبـــك، الـــضرب والقرعـــا
عـــى جـــوده يومـــا يجـــود بنفحـــة ... فيـــبرز عفـــو الله يدفعـــه دفعـــا
فيـــا ربّ رفقـــاً بـــالجميع فيـــا لهـــا ... إذا اجتمـــع الخـــصمان مـــن وقعـــةٍ شـــنعا
فأنـــت إمـــام المـــتقين ورأســـهم ... إذا لم تـــزل تجـــبر لـــدين الهـــدى صـــدعا
لكـــم تائـــب في الأمـــر أصـــبح ملحـــداً ... وأضـــحى لأهـــل الـــدين يقطعهـــم قطعـــا
فمـــا لـــك لم تغلبـــه واســـمك غالـــبٌ ... ومـــا لـــك لم تعزلـــه إذ آثـــر النقعـــا
فيـــا أيهـــا الـــسلطان حقـــق نـــصيحتي ... لكـــم وارعـــني مـــنكم لمـــا قلتـــه سمعـــا
فـــإني لكـــم والله أنـــصح ناصـــح ... أذاودُ الـــردى عـــنكم وأمنعـــه منعـــا
وأجلـــبُ للـــسلطان مـــن كـــل جانـــب ... مـــن الـــدين والـــدنيا العـــوارف والنفعـــا

ثم ختم بقوله:

"والله ينفعني بوصيتي ويجازيني على نيتي والسلام عليك ورحمة الله وبركاته".[٧٦٦]

سنة ١١١٣/٦١٠

ذكرت كلوديا عداس في كتابها عن حياة الشيخ محيي الدين ابن العربي أنه كان في هذه السنة ٦١٠ في حلب وأنه قام بقراءة كتاب التجليات هناك.[٧٦٧] ولكن يبدو أن هناك خطأ في هذا التحديد، لأن المرجع الذي تعتمد عليه، وهو تعليقات ابن سودكين على كتاب التجليات، يذكر أن هذه التعليقات قام بها ابن سودكين النوري بناءً على موافقة الشيخ محيي الدين بعد أن انتقدها أحد الأصحاب في سنة ٦١٠ وكان الشيخ غائبا، فلما قدم الشيخ محيي الدين إلى حلب أخبره ابن سودكين فأذن له الشيخ محيي الدين بكتابة التعليقات التي كتبها. ولكن ليس هناك أي إشارة تدلّ على تاريخ قدوم الشيخ محيي الدين إلى حلب، ربّما يكون في نفس هذه السنة ٦١٠، وربّما يكون خلال سنة ٦١١ قبل أن يذهب إلى مكة للحج، أو بعد أن يأتي منها، كما سنرى بعد قليل. ولكن، مع أن التاريخ الذي ذكره ابن سودكين أن الانتقادات وُجّهت سنة ٦١٠، إلا أن مشافهة الشيخ محيي الدين بها والتعليقات عليها قد تكون حدثت بعد ذلك بكثير، ربما سنة ٦١٧ حيث سنجد الشيخ محيي الدين في حلب على وجه التأكيد يقرأ على تلاميذه كتاب القربة وكتاب العظمة وغيرها.

في الحقيقة يبدو أن الخطأ الذي وقعت به كلوديا عداس في تحديد هذه السنة سببه عثمان يحيى محقق كتاب التعليقات على التجليات، وذلك لأنه يقول في مقدمته أنه على الرغم من أنه غير متأكد من تاريخ

---

[٧٦٦] الفتوحات المكية: ج٤ص٥٤٨، وكذلك: محاضرة الأبرار: ج٢ص٤٥٦-٤٥٧.

[٧٦٧] البحث عن الكبريت الأحمر: ص٣٠٦.

تأليف كتاب التجليات نفسه (وقد ناقشنا ذلك أعلاه وأنه كان سنة ٦٠٦ على الأغلب) إلا أنه بالنسبة لتعليقات ابن سودكين فهو "على علمٍ تامٍّ بها من حيث الزمان والمكان والمناسبة التاريخية"، ثم ذكر كلام ابن سودكين عن انتقاد الكتاب سنة ٦١٠. ولكن كما قلنا فإن كلام ابن سودكين لا يعني أبداً أن التعليقات تمّت فعلياً في هذه السنة.

أين كان الشيخ محيي الدين سنة ١١١٣/٦١٠؟

فماذا يعني قول ابن سودكين أن الشيخ محيي الدين "كان غائبا" حين انتُقد كتاب التجليات سنة ٦١٠؟ ونحن نعلم أن ابن سودكين كان مثل بدر الحبشي لا يفارق الشيخ محيي الدين أبداً منذ أن تعرّف عليه في مصر سنة ٦٠٣!

نجد الجواب على ذلك في أحد مخطوطات الأدعية التي تركها الشيخ محيي الدين رضي الله عنه، وهي ما يعرف باسم "أوراد أيام الأسبوع" التي يوجد منها العشرات بل المئات من المخطوطات حول العالم، ذكر عثمان يحيى بعضاً منها في تصنيفه.[768] ففي مخطوطة موجودة في مكتبة الأسد بدمشق ذكر الناسخ أن الشيخ محيي الدين قال عند ذكره لورد يوم الثلاثاء:

> ظهر علي شيخان مهيبان في خلوة في جبل الفتح سنة ٦١٠، فقَالَ أحدُهما:
> إرو عني إلى كُلِّ صَادقٍ وَإلى كُلِّ مُريدٍ فائقٍ: "ربِّ أدخلني في بحرِ أحَديَّتِكَ"،
> وَقَالَ الآخرُ: إنقل عني إلى كُلِّ من تسبَّبَ: "ربِّ أكرِمني بشُهُوْدِ أنوارِ قُدسِكَ".

ثم يقول الناسخ أن الشيخ الأكبر قال إن هذا الدعاء والثناء الشريف يؤدي للكشف والقربة إلى الله تعالى.[769]

هناك مكانين على الأقل في التاريخ الإسلامي يُعرفان بجبل الفتح، الأول هو جبل طارق في الأندلس، والثاني هو جبل يقع شمال شرق بلاد الروم في منطقة جورجان وأذربيجان.[770] فيبدو أن الشيخ محيي الدين كان في هذه الفترة هناك في هذه المناطق الجبلية الوعرة قريبا من بلاد الهند يقضي بعض الأوقات معتزلا عن الناس، وربّما هذا ما يفسر قلة ذكره لسنة ٦٠٩ وسنة ٦١٠ وكذلك عدم وجود مخطوطات فيها سماعات تعود لهذا التاريخ.

إقامته في مكة للمرة الثالثة (١٢١٤/٦١١)

ففي سنة ٦١١ نجد الشيخ محيي الدين في مكة المكرمة من جديد حيث يقضي بها مناسك الحج، وهناك قام الشيخ محيي الدين بتأليف ديوانه البديع "ترجمان الأشواق".

---

[768] مؤلفات ابن عربي: ص٢٢١-٢١٣.

[769] مكتبة الأسد، مخطوط رقم ١٠٠٤٣.

[770] ذكره ابن خلدون في تاريخه: ج٢ص١٧٢-١٧٦، وهو غير جبل الفتح (جبل طارق) الذي ذكره أيضاً في مواضع كثيرة.

ترجمان الأشواق (مكة، رجب-شعبان-رمضان ١٢١٤/٦١١)

لقد ذكرنا أعلاه شيئاً عن سبب تأليف الشيخ محيي الدين ابن العربي لكتابه الشهير "ترجمان الأشواق" وقلنا أنه خصصه لمدح نظام بنت الشيخ أبي شجاع بن رستم الأصفهاني التي عرفها في مكة سنة ٥٩٨ عندما قدم إليها لأول مرة قادما من المغرب. وعلى خلاف ما ذكر عثمان يحيى رحمه الله في تصنيفه لكتب ابن العربي،[771] فإن الشيخ محيي الدين لم يكتب هذا الكتاب في ذلك الوقت، ولكن ربما كتب بعض القصائد التي ضمّها هذا الكتابُ على فترات متباينة، ابتداءً من سنة ٥٩٨ ثم جمعها في كتاب واحد في هذه السنة في مكة خلال الفترة من شهر رجب إلى شهر رمضان. فمن الملاحظ أولا أن الشيخ محيي الدين عندما يذكر أبا شجاع في مقدمة ترجمان الأشواق يترحّم عليه، مما يعني أنه كتب ذلك بعد موته الذي كان سنة ١٢١٢/٦٠٩.[772] يضاف إلى ذلك أنه في كثيرٍ من قصائده يشير إلى أماكن محددة في بغداد والبصرة والتي لم يزرها إلا في سنة ٦٠١ ثم ٦٠٨.[773]

ومن جهة أخرى كما أوضح ستيفين هرتنشتاين فإن أحد المخطوطات في مكتبة راغب باشا يشير إلى أن هذا الكتاب قد تم تأليفه على مدة عشر سنوات وأنهي بتاريخ ٢٥ رجب ١٢١٧/٦١٤، مما يعني أنه قد بدء به سنة ٦٠٤، حسب هذا المخطوط.[774]

من الجدير بالذكر هنا أن الكثير من، بل ربما جميع، القصائد التي ذكرها الشيخ محيي الدين ابن العربي في كتاب ترجمان الأشواق ذكرها أيضاً في كتاب "محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار"، ولكننا لا نعرف أيضاً متى ألّف الشيخ محيي الدين هذا الكتاب على وجه التحديد.

ولقد ذكرنا من قبل أن الشيخ محيي الدين قال في مقدمة الترجمان أن كلّ ما يذكره من أسماء ومديح وغزل في هذا الكتاب إنما هو إشارة إلى معان إلهية رفيعة. ويضيف الشيخ رضي الله عنه في الباب الثامن والتسعين من الفتوحات المكية أن ما يذكره في أشعاره، فيما يخص ترجمان الأشواق وغيره، فإنها كلها معارف إلهية في صور مختلفة من تشبيب ومديح وأسماء نساء وصفاتهن وأنهار وأماكن ونجوم.[775]

وأضاف في مقدمة شرحه للترجمان قائلا في وصفه لنظام:

> ولولا النفوس الضعيفة السريعة الأمراض السيّئة الأغراض، لأخذتُ في شرح ما أودع الله تعالى في خلقها من الحسن، وفي خُلُقها الذي هو روضةُ المزنِ، شمسٌ بين العلماء، بستان بين الأدباء، حُقّةٌ مختومة، واسطة عقدٍ منظومة، يتيمة دهرها، كريمة عصرها .. مسكنُها جيادٌ وبيتها من العينِ السوادُ ومن الصدر الفؤاد،

[771] مؤلفات ابن عربي: ص٢٤٩.

[772] ابن العماد، "شذرات الذهب": ج٥ص٣٧.

[773] نيكلسون، ترجمة ترجمان الأشواق، لندن ١٩١١، ص٤-٦.

[774] الرحمن المطلق: ص٢٦٢.

[775] الفتوحات المكية: ج٣ص٥٦٢.

أشرقت بها تهامة، وفتح الروض لمجاورتها أكمامه ... عليها مسحة مَلَكٍ وهمَّة مَلِكٍ ... فقلّدناها من نظمنا في هذا الكتاب (ترجمان الأشواق) أحسن القلائد بلسانِ النسيبِ الرائق وعبارات الغزل اللائق، ولم أبلغ في ذلك بعض ما تجده النفس من كريم ودِّها وقديم عهدِها ... إذ هي السُّؤْلُ والمأمول، والعذراءُ البتول، ولكن نظمنا فيها بعضَ خاطر الاشتياق، من تلك الذخائرِ والأعلاق ... فكلُّ اسمٍ أذكرُه في هذا الجزء فعنها أكنّي، وكل دارٍ أندبها فدارها أعني. ولم أزل فيما نظمته في هذا الجزء على الإيماء إلى الواردات الإلهية والتنزّلات الروحانية والمناسبات العلوية، ولعِلمها رضي الله عنها بما إليه أشير، ولا ينبؤك مثل خبير، والله يعصم قارئ هذا الديوان من سبق خاطره إلى ما لا يليق بالنفوس الأبية والهمم العليّة المتعلقة بالأمور السماوية، آمين بعزّة من لا ربّ غيره، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل."[٢٢٦]

ولقد أثار كتاب ترجمان الأشواق انتقادات كثيرة في ذلك الوقت، وخاصة من فقهاء حلب، مما اضطر ابن العربي أن يكتب عليه شرحاً سماه ذخائر الأعلاق كما سنذكر بعد قليل عند الحديث عن رجوعه إلى حلب.

دعاؤه للمرأة التي دعت له (مكة)

ذكر المقرّي في "نفح الطيب" أن الشيخ محيي الدين قال إنه بلغه وهو في مكّة عن امرأة من أهل بغداد أنها تكلّمت فيه بأمور عظيمة، فقال: هذه قد جعلها الله تعالى سبباً لخيرٍ وصل إليّ فلأكافئنّها! وعقد في نفسه أن يجعل جميع ما اعتمر في رجب لها! ففعل ذلك.

فلمّا كان الموسم استدل عليه رجل غريب، فسأله الجماعة عن قصده، فقال: رأيت بالينبع في الليلة التي بتّ فيها كأنّ آلافاً من الإبل أوقارها المسك والعنبر والجوهر، فعجبت من كثرته، ثم سألت: لمن هو؟ فقيل: هو لمحمد ابن العربي يهديه إلى فلانة؛ وسمّى تلك المرأة، ثم قال: وهذا بعض ما تستحق.

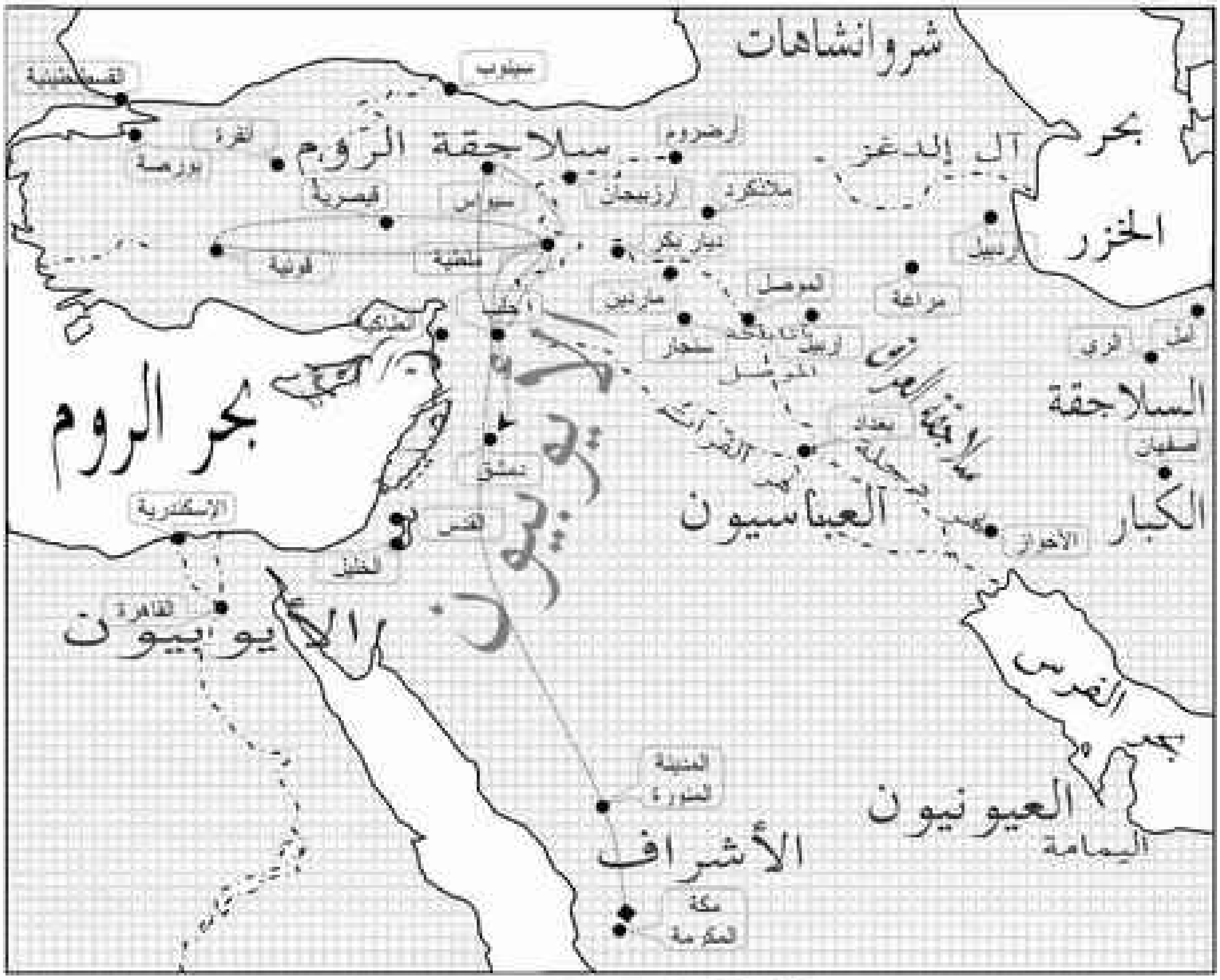
فقال الشيخ محيي الدين ابن العربي: "فلمّا سمعت الرؤيا واسم المرأة، ولم يكن أحدٌ من خلق الله تعالى علم منّي ذلك، علمتُ أنّه تعريفٌ من جانب الحق، وفهمت من قوله أن هذا بعض ما تستحق أنّها مكذوبٌ عليها! فذهب الشيخ محيي الدين إلى هذه المرأة وقال وذكر لها ما كان من ذلك، وقال لها: اصدقيني! فقالت: "كنت قاعدة قبالة البيت، وأنت تطوف، فشكرك الجماعة الذين كنت فيهم، فقلتُ في نفسي: اللّهم إنّي أشهدك أنّي قد وهبت له ثواب ما أعمله في يوم الاثنين وفي يوم الخميس، وكنت أصومهما وأتصدّق فيهما. فقال الشيخ محيي الدين: "فعلمت أن الذي وصل منّي إليها بعض ما تستحقُّ فإنّها سبقت

---

[٢٢٦] مقدمة ترجمان الأشواق: ص٨-٩.

بالجميل، والفضل للمتقدِّم".[٣٢٢]

الرحلة نحو الشمال، الدورة الرابعة (٦١١/١١١٤-٦٢٠/١١٢٣)



رحلة نحو الشمال، الدورة الرابعة:

(مكة-حلب-سيواس-ملطية-قونية-ملطية-حلب-ملطية-حلب-ملطية-حلب-دمشق)

ثم ابتدأ الشيخ محيي الدين دورة رابعة (وربما أخيرة) من الترحال. فمن مكة ذهب إلى حلب (ربما مروراً بالمدينة المنورة ودمشق) ومنها إلى سيواس ثم إلى ملطية ومنها إلى قونية ثم إلى ملطية مرة أخرى، بعدها ذهب عدة مرات بين ملطية وحلب قبل أن يغادر ملطية نهائيا متوجها إلى حلب ثم إلى دمشق ليستقر فيها.

---

[٣٢٢] نفح الطيب: ج٣ص١٧٤.

حلب (١١١٤/٦١١)

وبعد أن قضى الشيخ محيي الدين مناسك الحج وفي نفس السنة سنة ٦١١ نجده في حلب، يلقي بعض الدروس في بيت تلميذه ابن سودكين ويقرأ على المريدين كتاب التجليات. ومن أهم الأعمال التي قام بها أيضاً في هذه الفترة كتابته تعليقا يشرح فيه ديوانه ترجمان الأشواق الذي سبّب انتقادات واسعة لدى فقهاء حلب.

اعتراض بعض فقهاء حلب على ترجمان الأشواق (حلب ١١١٤/٦١١)

لقد ذكرنا أعلاه كيف وصف الملك الظاهر الفقهاء في حلب وأنهم كانوا يسعون وراء الجاه وحب السلطان. ولذلك فلا يُستبعد من بعض الفقهاء الذين غلبت عليهم الدنيا وتمسكوا بقشور العلم من أجل الوصول إلى أهدافهم الدنيوية، لا يستبعد منهم الإنكار على الشيخ الأكبر رضي الله عنه وخاصة في كتابه الشهير "ترجمان الأشواق"، الذي سجّل فيه أروع قصائد الحب التي يبدو ظاهرها متفرّغا في الغزل والنسيب ولكنها تحمل بالإضافة إلى ذلك معانٍ روحيةٍ رفيعةٍ كما وضح الشيخ محيي الدين بعد ذلك من خلال شرحه لهذا الكتاب الذي سمّاه ذخائر الأعلاق في شرح ترجمان الأشواق.

ذخائر الأعلاق (حلب، ١١١٤/٦١١)

ولقد تكلمنا من قبل على كتاب ترجمان الأشواق وسبب تأليفه، ولا نعيد هنا، ولكننا نذكر ما ذكره الشيخ محيي الدين في بداية كتاب "ذخائر الأعلاق في شرح ترجمان الأشواق" أن سبب شرحه لهذه الأبيات هو أن صاحبيه بدر الحبشي وإسماعيل بن سودكين طلبا منه ذلك لأنهما سمعا بعض الفقهاء بمدينة حلب ينكرون أن هذا من الأسرار الإلهية، ويقولون أن الشيخ يتستر بهذه الدعوى لكونه منسوباً إلى الصلاح والدين.

ثم يذكر الشيخ محيي الدين أنه بعد أن كتب هذا الشرح قرأ بعضَه القاضي ابن العديم (وهو المؤرّخ الشهير الذي كتب "بغية الطلب في تاريخ حلب" كما ذكرنا أعلاه) بحضرة جماعة من الفقهاء، فلما سمعه ذلك المنكر الذي أنكره تاب إلى الله سبحانه وتعالى ورجع عن الإنكار على الفقراء وأن ما يأتون به في أقاويلهم من الغزل والتشبيب يقصدون في ذلك الأسرار الإلهية.[٧٧٨]

ولكن يبدو أن الشيخ محيي الدين لم يكمل شرح هذا الديوان في حلب في هذه السنة حيث يبدو أنه بدأ شوطاً جديداً من السفر نحو بلاد الروم، ليستقر في ملطية لعدة سنوات كما سنرى. ويذكر نيكلسون في مقدمته لترجمة ترجمان الأشواق أن الشيخ محيي الدين أنهى شرحه عليه في مدينة كابادوسيا بين قيصرية وقونية.[٧٧٩]

---

[٧٧٨] ترجمان الأشواق: ص٩-١٠.

[٧٧٩] R. A. Nicholson, translator and editor, The Tarjuman Al-Ashwaq: A Collection of Mystical Odes By)

سيواس (١٢١٦/٦١٢)

ومن حلب توجّه الشيخ محيي الدين إلى سيواس وهي مدينة رومية تقع في شمال شرق تركيا وسط الأناضول على النهر الأحمر (قزيل أرماق).

وذكرنا من قبل أيضاً أن الشيخ محيي الدين قد التقى في سيواس بأحد رجال الأيام الستة الذي تكلمنا عنه قبل قليل.[780]

وفي سيواس أيضاً التقى الشيخ محيي الدين برجل ممن كان يشترك معه ببعض العلوم الغريبة والأذواق العزيزة التي يقول عنها الشيخ محيي الدين أنه لقي من أربابها رجالاً بالمغرب ورجالاً بالإسكندرية ورجلين أو ثلاثة بدمشق ورجلاً واحداً بسيواس؛ وهذه المقامات هي نفسها التي قال عنها الشيخ محيي الدين أنه دخلها في مدة يسيرة بعد دخوله الطريق سنة ٥٨٠ كما ذكرنا في الفصل الثاني. ويضيف الشيخ رضي الله عنه أن هذا الرجل الذي بسيواس كان قد نقصه من هذا المقام شيءٌ قليل فعرضه على الشيخ فأتمه له حتى تحقق به في زمان يسير، وكان هذا الرجل غريباً لم يكن من أهل البلاد كان من أهل "أخلاط".[781]

مبشرة تدل على فتح أنطاكية (سيواس، ٩-١٠ رمضان ١٢١٦/٦١٢)

وفي سيواس، في آخر العشر الأوائل من شهر رمضان سنة ٦١٢، رأى الشيخ محيي الدين في منامه أن السلطان الغالب كيكاوس الذي كان يحاصر أنطاكية قد نصب عليها المناجيق ورماها بالأحجار فقتل زعيم القوم. فاستبشر الشيخ محيي الدين خيراً واستدلّ بهذه الرؤيا على نصر كيكاوس وأنه سيفتح أنطاكية بإذن الله تعالى، ويقول إنه أوّلَ الأحجار بالآراء السعيدة والعزائم التي يرميهم بها كيكاوس.[782]

الإقامة في ملطية (شهر رمضان ١٢١٦/٦١٢)

بعد سيواس عاد الشيخ محيي الدين إلى ملطية من جديد ليقضي فيها عدة سنوات ويترك الترحال لبعض الوقت. ولكن التوقف عن الترحال لا يعني أبداً التوقف عن العمل وعن متابعة النصيحة تنفيذاً لأمر الله تعالى: "انصح عبادي". وللحديث العام الذي ذكرناه: "الدين النصيحة". والنصيحة ليست فقط لأئمة المسلمين مثل ما فعل مع كيكاوس، بل للعامة أيضاً كما كان يفعل أيضاً في كلّ مكان زاره أقام فيه أم لم يُقِم. فهناك في ملطية قام الشيخ محيي الدين رضي الله عنه بتدريس كتبه للمريدين وتأليف عددٍ من الكتب الأخرى.

(Muhyi'ddin ibn al-Arabi, Theosophical Publishing House, 1978, p. 6.)

[780] الفتوحات المكية: ج٢ص١٥.

[781] الفتوحات المكية: ج٢ص٤٢٥. و"أخلاط" هي بلد بين أذربيجان وديار بكر.

[782] محاضرة الأبرار: ج٢ص٤٣٠-٤٣١.

تبشير كيكاؤس بالنصر (ملطية، نهاية شهر رمضان ١٢١٦/٦١٢)

بعد أن رأى الشيخ محيي الدين الرؤيا المبشرة في سيواس لم يكتب بها إلى الملك كيكاؤس مباشرة، إذ يبدو أنه كان على عجل يريد السفر إلى ملطية، فلم يراسل الملك ليبشّره بالنصر إلا بعدما وصل إلى ملطية ولكن قبل أن يتم النصر الذي حصل بالفعل في آخر شهر رمضان وكان الفتح يوم عيد الفطر في بداية شوال.

وكما أشرنا أعلاه فإنّ الملك غياث الدين كيخسرو والد عزّ الدين كيكاؤس كان قد استرجع أنطاكية من يد الفرنجة سنة ١٢٠٥/٦٠٢ وبقيت بيده حتى سنة ١٢١٠/٦٠٧ حيث هجم الفرنجة النصارى عليها وقتلوا من بها من المسلمين، ولذلك كما ذكرنا أعلاه كان ابن العربي متشدّداً في نصيحته للملك كيكاؤس حينما أرسل يستشيره بأمر النصارى الذين هم في بلده، ولكنّه طبعا لم يبلغ حدّ ما بلغوه من القتل وانتهاك الأعراض وإنّما اكتفى بالتشديد عليهم على لا يصدر مثل هذا عنهم بالمسلمين مرّة أخرى. فلما تولى ابنه كيكاؤس الحكم أعدّ جيشاً كبيراً وحاصرها حتى استرجعها منهم.

تحذيره للملك كيكاؤس (ملطية)

وبعد أن منّ الله بالنصر على الملك كيكاؤس ودخل إلى أنطاكية، يبدو أن بعض أعوانه أشار عليه بأمرٍ لم يكن فيه الملك على يقين ولم يعرف كيف يتصرّف به، فأرسل إلى الشيخ محيي الدين مرة أخرى يستفتيه. وكعادته ردّ عليه الشيخ محيي الدين شعراً فيه غموض ورموز، ربّما خوفا من أن يقع بأيدٍ غريبة، فلا يمكننا تحديد ما هي المسألة التي أرسل الملك كيكاؤس لابن العربي يستشيره بها، ولكن لا شك أن الملك هو الذي يستطيع أن يفكّ هذه الرموز كونه هو الذي أرسل الكتاب الأول الذي طرح فيه المسألة. ولكن يبدو أن المسألة تتعلق بالنصيحة السابقة التي أرسلها له الشيخ محيي الدين سنة ٦٠٩ كما ذكرنا أعلاه، حيث يحذره هنا أيضاً من بعض أفراد بطانته.

فقال الشيخ محيي الدين شعراً في ردّه على كتاب الملك كيكاؤس:[٧٨٣]

كتبتُ كتابي والدموع تسيل ... ومالي إلى ما أرتضيه سبيل
أريد أرى دين النبي محمد ... يقام ودين المبطلين يزول
فلم أر إلا الزور يعلو وأهله ... يعزّون والدين القويم ذليل
فيا عزّ دين الله سمعاً لناصح ... شفيق فنُصّاح الملوك قليل
وحاذر بتأييد الإله بطانة ... تشير بأمر ما عليه دليل
لينمي بيت المال والبيت ساقط ... فجُد وتوكل فالإله كفيل

[٧٨٣] محاضرة الأبرار: ج٢ص٤٥٤، الفتوحات المكية: ج٤ص٥٣٣.

جلال الدين الرومي، بحر يتبعه محيط

يُروى أن الشيخ محيي الدين قد التقى مرّة ببهاء الدين الرومي والد الصوفي الشاعر الشهير جلال الدين الرومي، وكان جلال الدين لا يزال بعدُ صبياً وكان يرافق والده في أسفاره بين بلاد فارس والشام والروم. فيقال إن الشيخ محيي الدين التقى بهما مرة فشاهد الصبيّ جلال الدين الرومي، وكان عمره سبع سنوات، يتبع والده؛ فتعجّب وقال: سبحان الله محيطٌ يمشي خلف بحيرة!

وقد وُلد جلال الدين الرومي بفارس سنة ١٢٠٧/٦٠٤ لأسرة قيل أن نسبها ينتهي إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وأمه كانت ابنة خوارزم شاه علاء الدين محمد، من العائلة الحاكمة في خوارزم. ثم انتقل مع أبيه بهاء الدين إلى بغداد سنة ١٢١٠/٦٠٧ حيث نزل أبوه في المدرسة المستنصرية، ثم قام برحلة واسعة زار خلالها دمشق ومكة وملطية وأرزبخان ولارند، ثم استقر آخر الأمر في قونية سنة ١٢٢٦/٦٢٢ حيث وجد الحماية والرعاية في كنف الأمير السلجوقي علاء الدين كيقباذ الذي خلّف عزّ الدين كيكاوس. في قونية اختير بهاء الدين للتدريس في بعض المدارس حتى توفي سنة ١٢٣١/٦٢٨، فخلفه ابنه جلال الدين. ولكن جلال الدين انقطع إلى التصوف بعد لقائه بالصوفي المعروف شمس الدين تبريزي فترك التدريس وبدء بنظم الأشعار وإنشادها، وأنشأ طريقة صوفية عُرفت باسم "المولوية" نسبة إلى "مولانا جلال الدين".

ترك جلال الدين آثاراً عظيمةً في هذا المجال منها "المثنوي"، وديوان "شمس تبريز"، و"المجالس السبعة"، بالإضافة إلى مجموعة رسائل عديدة، وتعتبر كتبه محاولة إبداعية لتفسير القرآن الكريم وإبراز معانيه بشكل شعري، وكان لها أثر كبير على العالم الغربي.

توفي جلال الدين الرومي سنة ١٢٧٣/٦٧٢ عن عمر بلغ نحو سبعين عاماً، ودُفن في ضريحه المعروف في "قونية" في تلك التكية التي أنشأها لتكون بيتاً للصوفية."[٥٨٤]

وقد تقاطعت حياة جلال الدين الرومي مع حياة الشيخ محيي الدين ابن العربي في أكثر من مكان، ولا نعرف بالتحديد متى حدث اللقاء بينهما، إن كان حدث. ولكن من المحتمل أن يكون مثل هذا اللقاء حدث في ملطية أو في قونية في حدود سنة ٦١٢ حيث كان عمر جلال الدين ثماني سنوات. كما لا يُستبعد لقاؤهما لاحقا في حلب أو دمشق، حيث كان جلال الدين يتلقى تعليمه هناك.

قراءة كتاب تاج الرسائل (ملطية، ١٠ شعبان ١٢١٧/٦١٣)

لقد ذكرنا من قبل أن الشيخ محيي الدين رضي الله عنه قد ألف كتاباً سمّاه "تاج الرسائل ومنهاج الوسائل" في مكة المكرمة سنة ٦٠٠، وهو الكتاب الذي يخاطب فيه الكعبة المشرّفة.

فمن السماعات التي وجدها الدكتور عثمان يحيى على هذا الكتاب سماع مؤرخ بتاريخ ١٠ شعبان سنة ٦١٣ في بيت الشيخ محيي الدين في ملطية، وكان السامعون عبد الله بدر الحبشي وسيف الدين بن عبد

---

[٥٨٤] مولانا جلال الدين الرومي وجولة في ديوانه شمس تبريزي؛ د. مختار الوكيل - مجلة المنتدى بالعدد الأول - السنة الأولى: صيف ١٩٧٨م.

الله بن محمد البغدادي والناسخ إسماعيل بن محمد بن يوسف الأنصاري.[٧٨٥]

تجمّد ماء نهر الفرات

وربما هناك في ملطية شاهد الشيخ محيي الدين الأمر الذي كان غريباً بالنسبة له وهو ما ذكره في الفتوحات المكية أن النهر كان يتجمد في الشتاء حيث قال إنه رأى ذلك في نهر الفرات حين يجمد في الكوانين (شهور الشتاء) ببلاد الشام يعود أرضاً يمشي عليه القوافل والناس والدواب والماء من تحت ذلك الجليد جار.[٧٨٦]

موت الملك الظاهر غازي ملك حلب (حلب، ١٢١٦/٦١٣)

وفي هذه السنة في جمادى الآخر توفي الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب وهو صاحب مدينة حلب ومنبج وغيرهما من بلاد الشام، وكان مرضه إسهالاً شديداً فلما اشتدت علّته عهد بالملك بعده لولدٍ له صغير اسمه محمد ولقبه "الملك العزيز غياث الدين" وكان عمره ثلاث سنين وعدل عن ولده الكبير لأن الصغير كانت أمه ابنة عمّه الملك العادل أبي بكر بن أيوب صاحب مصر ودمشق وغيرهما، من البلاد فعهد بالملك لابنه غياث الدين محمد حتى يُبقي عمّه البلاد عليه ولا ينازعه فيها.[٧٨٧] وقال ابن خلدون في تاريخه إن الملك الظاهر لمّا عهد بالحكم لابنه الصغير جعل آتابكه وكافله وخادمه طغرلبك ولقبه "شهاب الدين"، وكان صاحب إحسان ومعروف فأحسن كفالة الولد وعدل في سيرته وضبط الإيالة بجميل نظره.[٧٨٨]

الشكل النهائي لترجمان الأشواق (ملطية، ٢٥ رجب ١٢١٨/٦١٤)

لقد ذكرنا من قبل أن ستيفين هرتنشتاين أوضح أن أحد المخطوطات في مكتبة راغب باشا يشير إلى أن هذا الكتاب قد تم تأليفه على مدة عشر سنوات وأنهي بتاريخ ٢٥ رجب ١٢١٧/٦١٤، مما يعني أنه قد بدء به سنة ٦٠٤، حسب هذا المخطوط.[٧٨٩]

قراءة كتاب روح القدس (ملطية، ١٢١٨/٦١٥)

ومن السماعات المسجلة في ملطية أيضاً سماع لكتاب "روح القدس في مناصحة النفس" الذي ذكرناه كثيرا. وكان المسمع هو المؤلف والقارئ هو إسماعيل بن محمد بن يوسف الأنصاري، والسامعون هم:

---

[٧٨٥] مؤلفات ابن عربي: ص٢٢٨.

[٧٨٦] الفتوحات المكية: ج٣ص٤٥٩.

[٧٨٧] الكامل في التاريخ: ج٧ص٢٩٨.

[٧٨٨] تاريخ ابن خلدون: ج١٠ص٧٤٦.

[٧٨٩] الرحمن المطلق: ص٢٦٣.

محمد سعد الدين بن يرنقوش المعظمي المعروف بابن قمر الدولة الدمشقي، والناسخ هو القارئ.[790]

تأليف كتاب اصطلاحات الصوفية (ملطية، ١٠ صفر ٦١٥/ ١٢١٨ أيار)

وفي ملطية أيضاً كتب الشيخ محيي الدين كتاباً صغيراً لخّص فيه مجموعة الاصطلاحات الخاصة التي يستخدمها الصوفية. ويذكر الشيخ الأكبر في مقدمة هذا الكتاب أنه كتبه بناءً على طلب من أحد أصحابه، ويذكر في نهايته أنه تم تأليفه في ملطية في العاشر من شهر صفر سنة ٦١٥.[791]

موت الملك كيكاوس وتولي أخيه كيقباذ (١٢١٩/٦١٥)

وفي هذه السنة توفي الملك الغالب عزّ الدين كيكاوس بن كيخسرو بن قلج أرسلان صاحب قونية وأقصرا وملطية وما بينهما من بلاد الروم، وكان سبب موته داء السل. وقبل موته كان قد اتفق مع ناصر الدين صاحب آمد ومظفر الدين صاحب إربل على الهجوم على الملك الأشرف وبدر الدين بالموصل. فسار كيكاوس إلى ملطية ليمنع الملك الأشرف بها عن المسير إلى الموصل نجدة لصاحبها بدر الدين، فلما اشتد به المرض عاد عنها فتوفي وملك بعده أخوه كيقباذ الذي كان قد حبسه لمّا أخذ البلاد سنة ١٢١١/٦٠٧، وكان قد أشار عليه بعض أصحابه بقتله فلم يفعل فلمّا داهمه المرض أخرجه من السجن وأخذ البيعة له لأن أولاده لم يكونوا يصلحون للملك لصغرهم.

سنة ١٢٢٠/٦١٦

لا توجد لدينا أية معلومات عن هذه السنة فيما يخص رحلات الشيخ محيي الدين رضي الله عنه، ولكن يمكن أن يكون قضاها في ملطية نفسها التي يبدو أنه استقرّ فيها لعدة سنوات، رغم عدم وجود أية مخطوطات أو أعمال تدل على ذلك.

موت صاحبه مجد الدين اسحق (ملطية ١٢٢١/٦١٧)

تعتبر سنة ٦١٧ سنة حزن بالنسبة للشيخ محيي الدين ابن العربي، حيث توفي فيها أعز أصحابه مجد الدين اسحق وهو إسماعيل بن محمد الرومي والد تلميذه صدر الدين القونوي الذي سوف يتبناه أيضاً بعد وفاة والده كما قلنا من قبل.

وتقول بعض الروايات أن الشيخ محيي الدين قد تزوّج من أرملة المرحوم مجد الدين حتى يتمكن من رعاية ابنها صدر الدين الذي سيكون له شأن كبير في التاريخ الإسلامي لبلاد الروم. ولكن فرضية الزواج هذه ضعيفة، نظراً لوجود فترة العدة المفروضة على المرأة في الإسلام قبل أن تستطيع الخروج من بيتها، في

---

[790] مؤلفات ابن عربي: ص٣٧٥.

[791] مؤلفات ابن عربي: ص١٨٨-١٩٠.

حين أن الشيخ محيي الدين كان في نفس السنة في حلب وكذلك فإن ابنه الثاني سعد الدين قد ولد في ملطية أيضاً في هذه الفترة نفسها (سنة ٦١٨) كما سنرى بعد قليل.

عودته إلى حلب (١٢٢١/٦١٧)

يبدو أن الشيخ محيي الدين قد عاد إلى حلب في هذه السنة نفسها بعد وفاة صاحبه مجد الدين، فنجده في نفس السنة في حلب يلقي الدروس على بعض تلامذته؛ ومن الكتب التي قرأها عليهم في حلب كتاب القربة وكتاب الميم وكتاب العظمة.

قراءة كتاب القربة (حلب، ١٢٢٠/٦١٧)

لقد ذكر عثمان يحيى في تصنيفه لكتب الشيخ محيي الدين عند حديثه عن هذا الكتاب أن من بين السماعات التي ألقاها الشيخ محيي الدين لهذا الكتاب كان في حلب سنة ٦١٧ وكان المسمع هو المؤلف والقارئ والناسخ هو إسماعيل ابن سودكين، وكان المستمع هو أبو بكر عيسى الدمشقي."[792]

توجد لهذا الكتاب مخطوطات كثيرة وقد طبع في حيدر آباد ضمن مجموعة رسائل ابن عربي وكذلك في القاهرة سنة ١٣٢٥هـ. ومن الأسماء الأخرى لهذا الكتاب: "مقام القربة"، و "مقام القربة وفك الغربة". وقال عثمان يحيى أن هذا الكتاب يتحدث عن حقيقة القرب الإلهي وكيفيّة الوصول إليها. ولكن الحقيقة أن هذا الكتاب يتحدث عن مقام القربة وهو المقام الذي دخل فيه الشيخ محيي الدين في أبجيــل من بلاد المغرب سنة ٥٩٧ وتحدثنا عنه في الفصل الرابع، وقلنا أن الشيخ محيي الدين يقول إن الكثير من أكابر أهل التصوف، مثل الإمام محمد الغزالي، ينكرون مثل هذا المقام الذي هو مقام فوق مقام الصديقية وليس فوقه سوى مقام النبوة. وقد تكلم الشيخ محيي الدين عن هذا المقام في الفتوحات المكية كثيراً، مثل الباب الثالث والعشرين "في معرفة الأقطاب المصونين وأسرار صونهم" و الباب الحادي والستين ومائة "في المقام الذي بين الصديقية والنبوة وهو مقام القربة".

وقد ذكر الشيخ محيي الدين أن قوله أن هذا المقام الذي ناله سنة ٥٩٧ هو فوق مقام الصديقية لا يعني أبداً أنه هو فوق مقام الصديق أبي بكر رضي الله عنه، فإن مقام الصديقية الذي كان لأبي بكر الصدّيق رضي الله عنه هو أحد مقاماته وليس هو المقام الذي خصص له أو فُضّل به، بل فُضّل رضي الله عنه بالسرّ الذي وقر في صدره كما شهد له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.[793] ونذكر هنا أيضاً أن ابن العربي كتب كتاباً خاصاً سمّاه "التحقيق في شأن السرّ الذي وقر في نفس الصدّيق".

---

[792] مؤلفات ابن عربي: ص٥٧٧-٥٧٨.

[793] كتاب القربة، مجموعة رسائل ابن عربي، طبعة حيدر آباد، ص٦.

قراءة كتاب الميم والواو والنون (حلب، ٦١٧/١٢٢٠)

ومن الكتب التي قرأها الشيخ محيي الدين في حلب أيضاً في هذه السنة كتاب الميم والواو والنون، ويسمى أيضاً كتاب الحروف الثلاثة، أو كتاب الحروف الدورية، وكذلك يسمى أيضاً كتاب الستة وستين أو كتاب الستة وتسعين، وقد طبع في حيدر آباد ضمن مجموعة رسائل ابن عربي.

فيذكر عثمان يحيى في تصنيفه أن هذا الكتاب قد قرأه الشيخ محيي الدين على تلاميذه في حلب سنة ٦١٧، وكان المسمع هو المؤلف والقارئ هو علي بن المظفر بن أبي القاسم النشبي، والمستمعون هم عبد العزيز بن عبد القوي بن الجباب السعدي، والحسين بن إبراهيم الإربيلي، ونصر الله بن أبي العز بن الصفار، ومحمد بن المؤلف،[٧٩٤] ومحمد بن برنقش المعظمي، وإبراهيم بن محمد الأنصاري، ومحمد بن أحمد بن أبي عيسى الميورقي، وحسين بن محمد بن علي الموصلي، ويعقوب بن معاذ الوربي، وعيسى بن إسحق الهذباني، ويونس بن أبي عثمان الدمشقي، وإبراهيم بن عمر بن عبد العزيز القرشي (وهو الناسخ أيضاً).[٧٩٥]

وقد تم تأليف هذا الكتاب قبل سنة ٦١٧ ويعالج هذا الكتاب موضوع أسرار الحروف وخاصة هذه الحروف الدورية (من كون لفظها يبدأ وينتهي بها: ميم=م ي م، واو= وا و، نون= ن و ن).

قراءة كتاب العظمة (حلب، ٦١٧/١٢٢٠)

ومن الكتب التي قرأها الشيخ محيي الدين في حلب أيضاً في هذه السنة كتاب العظمة، وقد تم تأليف هذا الكتاب في قونية سنة ٦٠٢ وتحدثنا عنه في هذا الفصل أعلاه. فيقول عثمان يحيى في تصنيفه أن هناك سماعاً مؤرخاً في حلب سنة ٦١٧ ومصدقاً عليه من قبل المؤلف، وكان المسمع ابن العربي والقارئ إسماعيل ابن سودكين، والمستمعون هم عيسى بن أبي الفتح المعروف بابن الكراعي الحلبي، ومحمد بن سعد الدين برنقش المعظمي، وأبو بكر بن عيسى الدمشقي، وسليمان بن عويجة البعلبكي.[٧٩٦]

قراءة كتاب منزل المنازل الفهوانية (حلب، ٦١٨/١٢٢١)

ومن الكتب التي قرأها الشيخ محيي الدين في حلب أيضاً في هذه السنة كتاب منزل المنازل الفهوانية، وقد تم تأليف هذا الكتاب سنة ٦٠٣ (ربما في مصر) وتحدثنا عنه في أول هذا الفصل. فيقول عثمان يحيى في تصنيفه أن هناك سماع مؤرخ في حلب سنة ٦١٨ مصدق عليه من قبل المؤلف، وكان المسمع ابن العربي والقارئ إسماعيل ابن سودكين، والمستمعون هم أبو بكر بن عيسى الشاجوري، ومحمد بن سعد الدين برنقوش المعظمي.[٧٩٧]

---

[٧٩٤] هو عماد الدين الابن الأكبر للشيخ محيي الدين، حيث ولد سعد الدين سنة ٦١٨ بعد سنة من هذا السماع.

[٧٩٥] مؤلفات ابن عربي: ص٦٠١-٦٠٣.

[٧٩٦] مؤلفات ابن عربي: ص٤١٣-٤١٤.

[٧٩٧] مؤلفات ابن عربي: ص٥٩١-٥٩٢.

الفتن تقع في حلب

في الباب التاسع والخمسين وخمسمائة، وهو الباب ما قبل الأخير من الفتوحات المكية الذي لخّص فيه الشيخ الأكبر رضي الله عنه أسرار ما كتبه في الأبواب السابقة، ذكر الشيخ في سرّ الباب الثلاثين ومائة[٧٩٨] أنه سوف تقع فتن كثيرة في مدينة حلب، فقال: ومن ذلك سرّ الموت الأحمر بالمقام الأخضر، ثم قال على شكل سجع:

> ذبح النفوس أعظم في الألم من الذبح المحسوس. مخالفة الآراء أعظم في الشدة من مقابلة الأعداء. مجانبة الأغراض غاية الأمراض. من فاز بمخالفة النفس سكن حظيرة القدس. من نهى النفس عن الهوى كانت له جنة المأوى. لا ينهاها إلا من خاف مقام ربه وخاف عقوبة ذنبه والتزم الوفاء وتميّز في أهل الصفاء وقام بما كلف فقبل وما عنف.

ثم قال:

> ولقد رأيت هذه الليلة واقعة ما شيّب سالفتي وقد نظمت ما رأيته وفي هذا الباب كتبته وفي النوم قلته:

لا بد من خوف ومن شدة	لا بد من جور ومن عسف
في حلب من حَكَمٍ جائر	في حكمه يمشي إلى خلف
ينزل من قلعتها راجلا	من غير نسك لا ولا عطف
كأنه الحجاج في حكمه	يحكم بالقهر وبالعنف
يجور في الخلق بأحكامه	يفرق الإلف من الإلف
قد نزع الرحمن من قلبه	رحمته وقدّرْ ذا يكفي
في صورة الحجاج أبصرته	لا بل هو الحجاج فاستكف
بالواحد الرحمن من شرّه	ما خاب من بالله يستكفي

ولكنه استدرك فقال:

> لكن عسى الله أن يجعل سطوته على أهل العناد من أهل الإلحاد، وكانت عليه غفارة حمراء وهو يتمايل تمايل سكرى، فأرجو لكونه فاضلاً أن يكون عادلاً، فإنه نزل راجلاً وبيده عصاه يستعين بها على من خالف أمر الله تعالى وعصاه، جعله الله تأويلاً صادقاً ولسانَ حق ناطقاً. فتعوذنا حين انتبهنا من شرّ ما رأينا كما أمرنا صلّى الله عليه وسلّم[٧٩٩] وتفلنا وتحوّلنا كما عُلِم.[٨٠٠]

---

[798] في مطبوعة القاهرة للفتوحات المكية مذكور من الباب الخامس والثلاثون ومائة، وهو خطأ، وقد صححناه اعتمادا على مخطوطة قونيا التي هي بخط الشيخ رضي الله عنه.

[799] الحديث

ولا نعلم عن أية فتن يتكلم الشيخ الأكبر هنا. ربما تكون حروب المغول التي ستحصل بعد وفاته ببضع سنوات هي المقصودة، أو ربما الموضوع أقل من ذلك. في الحقيقة نحن لا نعلم التاريخ الذي قال به الشيخ محيي الدين ابن العربي هذا الكلام، أي الذي رأى فيه هذه الواقعة. ولذلك يصعب تحديد الحدث لعدم وجود دلائل كافية عن تاريخه ولا عن حجمه. ولكن وجود هذا الكلام في الباب الأخير من الفتوحات المكّية يوحي أنّه كتبه عندما كان في دمشق بعد سنة ٦٢٥ بل حوالي سنة ٦٣٥.

وعلى كلّ حال فخلال تاريخ حلب في فترة وجود الشيخ محيي الدين ابن العربي فيها كان الملك الظاهر غازي ابن صلاح الدين الأيوبي هو ملك حلب (١١٨٦/٥٨٢-١٢١٦/٦١٣) وكان ملكاً عادلاً حسن السيرة مع أنه نُقل عنه أنه كان حازماً وصارماً ولا يرحم المذنبين. وبعد وفاته عهد بالملك بعده لولده الصغير محمد ولقبه "الملك العزيز غياث الدين"، وتميّزت هذه الفترة ببعض الاضطرابات المتفرقة.

ولادة ابنه الأصغر سعد الدين (ملطية، شهر رمضان ١٢٢١/٦١٨)

للشيخ محيي الدين ابن العربي رضي الله عنه ولدين: الأول اسمه عماد الدين والثاني سعد الدين. لا نعرف بالتحديد متى كانت ولادة عماد الدين ولكننا لاحظنا قبل قليل أنه كان يحضر دروس أبيه ويذكر اسمه في سجلات السماع في حلب سنة ٦١٧، مما يعني أن عمره في ذلك ربما يزيد عن العشر السنوات وقد يكون حوالي ثمانية عشر سنة، مما يعني أنه قد يكون ولد في مكة حوالي سنة ٦٠٠ أو بُعيد ذلك في حلب أو دمشق.

أما سعد الدين فهو محمد بن محمد بن علي ابن العربي الطائي الحاتمي، فيقول عنه المقرّي صاحب كتاب "نفح الطيب" أنه أديب شاعر، ولد بملطية في رمضان سنة ثمان عشرة وستمائة، سمع الحديث ودرس، وكان شاعراً مجيداً وله ديوان شعر مشهور،[801] وتوفي بدمشق سنة ست وثمانين وستمائة، ودفن عند قبر أبيه بسفح قاسيون في تربة بني الزكي، ومن شعره:

أنـــا بالأحبـــة لا أزال مُولَهـــا	إن لم أكـــن أنـــا للـــصبابة، مـــن لهـــا!
جـــاء البـــشير بهـــم فلـــولا أنـــني	عبـــدٌ لهـــم لبـــذلت نفـــي كلّهـــا
شـــرُفت بهـــم منّـــا القلـــوب وإنمـــا	شـــرَف المنـــازل بالـــذي قـــد حلّهـــا
آهٍ علـــى أيامنـــا بطويلـــع	مـــا كـــان أطيبهـــا لنـــا وأجلّهـــا
لاحـــت منـــازلهم بـــأعلى المنحنـــى	قـــف بـــي لألـــثم حـــزنهنّ وســـهلها
يـــا ســـادة ملكـــوا النفـــوس لأنهـــم	كـــانوا أحـــق بهـــا وكـــانوا أهلـــها

وقال أيضاً:

[800] الفتوحات المكية: ج٤ص٣٤٥.

[801] مرجع

تُرى يسمح الدهر الضنين بقربكم | وأحظى بكم يا جيرة العلم الفرد
إذا لم يكن لي عندكم يا أحبتي | محلٌ ولا قدرٌ فإنّ لكم عندي

موت صاحبه بدر الحبشي (ملطية ١٢٢١/٦١٨)

يبدو أنه لما ولد ابنه سعد الدين في ملطية ذهب الشيخ محيي الدين إلى هناك، أو ربما كان هناك قبل أن يولد، ولكن مع فرحته بولادة ابنه سعد، جاءه حزن مقابل بموت صاحبه ورفيق عمره بدر الحبشي الذي رافقه ثلاثاً وعشرين سنة منذ أن عرفه بمدينة فاس في المغرب حتى وفاته.

يروي الشيخ محيي الدين في الدرّة الفاخرة كيف مات صاحبه بدر بين يديه فيقول إنه لما حضرته الوفاة في منزل الشيخ خُيّر فاختار الرحلة إلى لقاء ربّه، فمات في الليل. وكان الشيخ محيي الدين قد نوى أن يغسله بيده فلمّا حضر الناس في الصباح حضر من جملتهم الفقيه الصالح كمال الدين مظفر من أهل ملطية وهو من أهل الله، فقال للشيخ محيي الدين: كنت البارحة في منزلي بالبستان، فقيل لي قم فاغتسل، فقلت ما بي جنابة، وعاودني ذلك ثلاث مرات فقيل لي في الثالثة: تأهّب لغسل عبدٍ من عبادي في غدٍ إن شاء الله، ثم قال إنه حين كان يغسله صار يوبّخ نفسه وخطر له أنه من هو حتى يؤهّل لغسل مثل هذا، فيقول إنه لما خطر ذلك بنفسه فتح بدر الحبشي عينيه وهو في المغتسل وتبسّم ثم أغمض عينيه. ويضيف الشيخ محيي الدين أنه مشى إلى قبره بين الظهر والعصر وشكى إليه بأمر طرأ عليه بعده فأجابه من قبره بصوت سمعه بأذنه.[802]

السنة ١٢٢٢/٦١٩

لا توجد لدينا كذلك أية معلومات عن هذه السنة فيما يخص رحلات الشيخ محيي الدين رضي الله عنه، فلا توجد أية مخطوطات أو أعمال تدل على ذلك. ولكن يمكن أن يكون قضاها في ملطية حيث كان ابنه سعد الدين لا يزال رضيعاً، أو ربما رجع مع عائلته إلى حلب وترك بلاد الروم بشكل نهائي ليستقر في دمشق في السنة التالية كما سنرى في الفصل القادم. كذلك من غير المستبعد أن يكون الشيخ محيي الدين قد قضى جزءً من هذه السنة في دمشق حيث سنجده في بداية السنة التالية ٦٢٠ يلقي الدروس في بيته هناك كما سنرى في الفصل القادم إن شاء الله تعالى.

بعض الكتب الأخرى التي ألّفها الشيخ في هذه الفترة

فيما عدا الكتب ذكرناها أعلاه والتي استطعنا تحديد تواريخ تأليفها من خلال ما ورد فيها من تحديد الشيخ محيي الدين لمكان أو زمان تأليفها أو من خلال السماعات المدوّنة على بعض مخطوطاتها، فإن هناك كتب أخرى كثيرة منها ما لا يزال مفقودا ومنها ما هو مجهول التاريخ ولكنّها مذكورة في كتب التاريخ وفي رسالة الفهرس والإجازة اللتان دوّن فيهما الشيخ محيي الدين عناوين المئات من الكتب كما ذكرناها في

---

[802] مخطوط مختصر الدرة الفاخرة، ص ١٢٠.

الملحق الثاني آخر هذا الكتاب.

ومع ذلك فيمكن على وجه التقريب تحديد الحقبة الزمنية التي تمَّ فيها تأليف بعض الكتب لأن الشيخ محيي الدين كثيرا ما يذكر بعض كتبه ويشير إليها في كتبه الأخرى التي نعرف تاريخ تأليفها.

فمن بعض الكتب التي لم نذكرها أعلاه والتي ألفها الشيخ محيي الدين بعد قدومه إلى مكة وخلال أسفاره في بلاد الشام وقبل أن يستقرّ في دمشق نذكر ما يلي:

كتاب الأزل، وكتاب الإسفار عن نتائج الأسفار، وكتاب الإشارات إلى شرح الأسماء والصفات، وكتاب الإعلام بإشارات أهل الإلهام (ألّفه في بغداد)، وكتاب الأقسام الإلهية، وكتاب أم المعاني وصاحبة المثاني (ذكره في رسالة الأنوار)، وكتاب الأوّليات، وكتاب أيام الشأن (ألفه قبل سنة ٦٠٣)، وكتاب الباء، وكتاب الجلالة، وكتاب الجواب المستقيم عما سأل عنه الترمذي الحكيم (متضمن في الفتوحات المكية)، وكتاب الحق، وكتاب الحكم والشرائع، وكتاب الخلوة، ورسالة الإتحاد الكوني، ورسالة الأخلاق إلى الإمام الرازي، ورسالة الشيخ إلى الإمام الرازي، ورسالة الحلل (وهو كتاب ماهية القلب)، ورسالة الغوثية، ورسالة في أعمال الحج والعمرة، ورسالة المعلوم من عقائد علماء الرسوم، وكتاب شواهد الحق في القلب، وكتاب العقد المنظوم، وكتاب العين، وكتاب الفناء في المشاهدة، وكتاب مراتب علوم الوهب، وكتاب مفاتح الغيوب، وكتاب مقام القربة، وكتاب المقصد الأسمى في الإشارات فيما وقع القرآن بلسان الحقيقة والشريعة من الكنايات، وكتاب المقنع في إيضاح السهل الممتنع، وكتاب الموعظة الحسنة، وكتاب الميم والواو والنون، وكتاب نسخة الحق، وكتاب النشأة، وكتاب الهو، وكتاب هياكل النور.[٨٠٣]

وسنذكر في الفصل القادم إن شاء الله تعالى بعض الكتب التي ألّفها الشيخ الأكبر خلال فترة وجـــــــوده واســـــــتقراره في دمـــــــشق.

---

[803] مؤلفات ابن عربي: ص١٢٠-١٢٥.

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل السادس

المَغْرِب

إقامته في دمشق حتى وفاته رحمه الله

١٢٤٠/٦٣٨ - ١٢٢٣/٦٢٠

إذا أنت أبصرت الوجود مثالاً ... تصرّفت فيه يُمنةً وشمالاً

فأنزلته بالعلم أرضاً أريضةً ... وأطلعته بدراً وكان هلالاً

وأعليته في الرأس تاجاً مكلّلاً ... وقد كان في رجل الزمان نعالاً

وجزت به الأكوان شرقا ومغرباً ... وما بينهنّ قبلةً وشمالاً

وكم قد رأينا فيه نقصاً محقّقاً ... فلما أتيناها رأيت كمالاً

وكم قد سألت الله فيه إجابةً ... وكم قد أجبت الله فيه سؤالاً

لقد طلعت شمسي عليه وعندها ... مددت له في العالمين ظلالاً[٨٠٤]

الخلاصة

بعد طول الترحال وقطع البوادي والتلال، طلب الشيخ الأكبر مكاناً للاستظلال، فاختار مدينة دمشق التي تنتهي إليها الآمال. فكما كانت بداية توبته على يدي عيسى عليه السلام، أراد أن تكون خاتمته في مهبط عيسى قبل يوم القيام.

ودمشق هي أقدم مدينة مأهولة في التاريخ وقد وردت الأحاديث الكثيرة بحفظ الله لها وتفضيلها على غيرها من البقاع، فأهل الشام سوط الله تعالى في الأرض، والأبدال في أهل الشام، والشام صفوة الله من

[804] الديوان: ص٣٣٣.

بلاده، إليها يجتبي صفوته من عباده، وإليها ينتقل عمود الإيمان، وإذا وقعت الفتن فالأمن بالشام.

وفي الشام، حيث سيقضي السنوات السبعة عشر الأخيرة من عمره، وجد الشيخ محيي الدين الأمن والراحة والاستقرار خاصة وأن له بها الكثير من الأصدقاء والمحبين ومنهم، بالإضافة إلى الملوك الأيوبيين، من له مكانة اجتماعية عالية كعائلة بني الزكي الذين استضافوه وقدموا له الرعاية واحتفوا به أشد الاحتفاء. ففي دمشق كان لابن العربي بيت كان يجتمع به حوله التلاميذ والمريدون ليقرأ عليهم كتبه ويلقي عليهم الدروس بالإضافة إلى انشغاله بالكتابة من غير ملل ولا انقطاع حتى آخر نفَس من حياته.

ففي هذه المرحلة الأخيرة من حياته الذاخرة، سيصدر الشيخ محيي الدين اثنين من أهم كتبه بل من أهم كتب التاريخ البشري على الإطلاق، وهما كتاب "فصوص الحكم" وكتاب "الفتوحات المكية"، بالإضافة إلى مجموعة كتب أخرى.

دمشق أقدم مدينة مأهولة في التاريخ

تعتبر دمشق أقدم مدينة مأهولة في التاريخ البشري حيث تعود بدايتها إلى أكثر من اثني عشر ألف سنة، وقد احتلت مكانة مرموقة في مجال العلم والثقافة والسياسة والفنون خلال الألف الثالث قبل الميلاد. وفي نهاية الألف الثاني أسس الزعيم الآرامي ريزون مملكته في دمشق ثم تعاقب على حكمها الأشوريون والكلدانيون ثم الفرس، ثم جاء الغزو المقدوني ليشكّل نقطة تحوّل كبيرة في تاريخ المنطقة عامّة وتاريخ دمشق خاصّة. وقد ارتبط تاريخ دمشق بالحضارة اليونانية لعدة قرون عرفت المدينة خلالها ازدهار الحضارة الهلنستية، حيث تمازجت عناصر الثقافة اليونانية مع حضارة الشرق وثقافته.

دخلت الجيوش العربية الإسلامية مدينة دمشق في القرن السابع الميلادي، وأصبحت المدينة في العصر الأموي عاصمة دولة تمتد إلى حدود الصين شرقاً وإلى المحيط الأطلسي غرباً، وشُيّدت خلالها القصور وامتدّ العمران، وكان من أهم معالمها الجامع الأموي الكبير الذي تمّ بناؤه في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك، وهو المكان المفضّل للكثير من العلماء والصوفية أمثال أبي حامد الغزالي وكذلك الشيخ محيي الدين ابن العربي كما سنرى بعد قليل.

وفي عهد الخلافة العباسية تحولت عاصمة الدولة الإسلامية إلى بغداد ولكن بقيت دمشق مركزاً مهماً للثقافة والعلوم. وبعد أن تضعضعت السلطة العباسية، ارتبطت دمشق بالدولة الطولونية قبل أن تخضع للخلافة الفاطمية. وقد تعرضت في تلك الحقبة لغزوات القرامطة الذين احتلوها عدة مرات، مما أحدث فيها الكثير من الخراب والدمار. ثم بسط السلاجقة سلطتهم على دمشق فحكمها بعض الأتابكة في شكلٍ شبه مستقل عن الخلافة العباسية.

ولما اشتدت شوكة الفرنجة واحتلوا العديد من مدن الساحل السوري وفلسطين، حاصروا دمشق فقاومهم مُعين الدين أنر وصدّ الحصار الذي فرضته قواتهم في داريّا، وجاء من بعده نور الدين محمود زنكي فوحّد المشرق ومدّ نفوذه إلى مصر بفضل القائد التاريخي الخالد الناصر صلاح الدين الأيوبي. وبموت

الخليفة الفاطمي العاضد سنة ٥٦٧/١١٧١، انتهى الحكم الفاطمي في مصر التي توحدّت مع الشام تحت حكم صلاح الدين، فاستعادت دمشق بريقها واحتلت مركز الصدارة في الميدان السياسي والعسكري في المشرق العربي، إلا أنها لم تنعم بذلك طويلا؛ فبعد وفاة صلاح الدين تصدّعت الدولة الأيوبية، وتقسمت بين أولاده وأولاد عمومته الذين تقاتلوا فيما بينهم طويلاً فأخذت الدولة بالانهيار شيئاً فشيئاً حتى سقطت في أيدي المغول سنة ٦٥٨/١٢٦٠ ليبدأ بعدها عصر المماليك.[٨٠٥]

الوضع السياسي في تلك الفترة

عندما استقر ابن العربي في دمشق كانت تحت حكم الملوك الأيوبيين من عائلة صلاح الدين الأيوبي، وقد بدأ ملكهم لدمشق من بعد صلاح الدين الذي توفي بعد فتحه للقدس بستة سنوات سنة ٥٨٩/١١٩٣ وترك ستة عشر ولداً بالإضافة إلى إخوته وأبناء إخوته، فتنازعوا فيما بينهم على الملك وقامت الحروب حتى انتهت بتقسيم البلاد إلى ثلاثة ممالك: دمشق وحلب ومصر. فأخذ الابن الأكبر لصلاح الدين، واسمه نور الدين، دمشق ولُقِّب بالملك الأفضل، وأخذ أبو الفتح حلب وسورية الغربية ولُقِّب بالملك الظاهر غياث الدين، الذي لقي عنده الشيخ محيي الدين ابن العربي حظوةً كبيرا كما رأينا. أما مصر فكانت من نصيب عماد الدين عثمان الذي لُقِّب بالملك العزيز. بعد ذلك توالى على حكم دمشق عدد من الملوك الأيوبيين حتى حروب المغول سنة ٦٥٨/١٢٦٠ وبداية حكم المماليك.

استمرت فترة حكم الملك الأفضل نور الدين لدمشق منذ سنة ٥٨٢/١١٨٦، حيث كان أميراً عليها قبل وفاة صلاح الدين، إلى أن جاء بعده الملك العادل الأول سيف الدين في سنة ٥٩٢/١١٩٦ واستمر حتى ٦١٥/١٢١٨، فجاء بعده الملك المعظم شرف الدين، الذي كان يحكم في السنوات الأولى من فترة إقامة الشيخ محيي الدين ابن العربي في دمشق حتى سنة ٦٢٤/١٢٢٧ حيث انتقل الحكم إلى الملك الناصر صلاح الدين داود الذي استمر لمدة سنتين وتولى بعده الملك الأشرف الأول مظفر الدين حتى سنة ٦٣٤/١٢٣٧. بعد ذلك توالى عدد من الملوك ولم يستقر الملك طويلا لواحد منهم، فتولى الملك الصالح عماد الدين، للمرة الأولى، واستمر سنة حتى ٦٣٥/١٢٣٨ ثم تولى الملك الكامل الأول ناصر الدين، ثم في نفس السنة تولى الملك العادل الثاني سيف الدين، وبعد سنة انتقل المُلك إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب، للمرة الأولى، ثم عاد من جديد بعد سنة إلى الملك الصالح عماد الدين، الذي بقي في الحكم حتى سنة ٦٤٣/١٢٤٥ ثم تولى بعده الملك الصالح نجم الدين أيوب، للمرة الثانية، ودام حكمه أربعة سنوات ألحقت بعدها الدولة الأيوبية في دمشق بالدولة الأيوبية في مصر تحت حكم الملك المعظم توران شاه لمدة سنة تسلم بعدها الملك الناصر صلاح الدين الثاني حتى دخل المغول دمشق سنة ٦٥٨/١٢٦٠، وبدأ بعدها حكم المماليك.

ولكن بشكل عام، على الرغم من الحروب المتكررة بين الأيوبيين، وحصارهم لدمشق مرات عديدة،

[٨٠٥] انظر: "تاريخ دمشق"، ابن كثير، "دمشق لؤلؤة الشرق وملكته"، جيرار دو جريج

فقد نعمت دمشق في هذه الفترة بالأمان والاستقرار ولم تكن الحروب تؤثر بشكل مباشر على الناس حيث كانت معظمها تنتهي باتفاق الملوك بين بعضهم وفك الحصار، باستثناء ما حدث سنة ٦٢٦ وسنة ٦٣٥ حيث أدت الحروب إلى تزعزع الأمن بشكل كبير وأثرت على الحالة الاجتماعية لأهل دمشق، وكذلك أيضاً سنة ٦٤٣ بعد وفاة الشيخ محيي الدين بعدة سنوات.[٨٠٦]

الوضع الاجتماعي والديني في تلك الفترة

مثلما كان الوضع السياسي مستقراً إلى حدّ جيد، كذلك كان الوضع الاجتماعي: فشهدت دمشق في هذه الفترة انتعاشاً كبيراً على صعيد الحرية الدينية وقدم إليها العديد من العلماء من شتى أنحاء العالم الإسلامي، إما لطلب العلم أو لطلب المعيشة، حيث وجدوا فيها الملاذ الآمن لهم من غير أن يتعرّض لهم أحد بسوء، بل كان أهل الشام يتلقونهم برحابة صدر وحسن ضيافة. وانتعشت حركة التصوف وخاصة في بداية حكم صلاح الدين مع أن هذا الوضع استمر طويلا في عهد خلفائه.

كان المذهب الشائع في دمشق وعموم بلاد الشام هو المذهب الشافعي، وكان من ضمن المناصب الدينية المهمة منصب قاضي القضاة الذي كان مسؤولاً عن تطبيق الشريعة الإسلامية في شتى أنحاء البلاد بالإضافة إلى الحكم في القضايا المهمة. وكان من أهم القضاة الذين تولّوا هذا المنصب محيي الدين بن الزكي في عهد صلاح الدين ثم العديد من أحفاده من بعده فاشتهرت عائلة بني الزكي بهذا المنصب. وكما سنرى كان لهذه العائلة المشهورة فضل على الشيخ محيي الدين حيث استضافوه عندهم حتى إنه عندما توفي دفن في تربتهم.

لماذا اختار الشيخ الأكبر دمشق

بالإضافة إلى توفر الأمن والاستقرار في دمشق أكثر من غيرها في ذلك الوقت، وكونها كانت ملاذاً آمناً للجميع من غير خوف من تمييز أو اضطهاد، فقد وردت أحاديث كثيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في فضل دمشق وتفضيل السكنى فيها. وقد ذكر ذلك الشيخ محيي الدين في وصاياه فقال: "وإن قدرت أن تسكن بالشام فإن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ثبت عنه أنه قال عليكم بالشام فإنها خيرة الله من أرضه وإليها يجتبي خيرته من عباده."

ونورد فيما يلي بعض هذه الأحاديث المؤكدة لذلك، وإنما أكثرت منها رداً على من ينكر أفضلية الشام وتأكيداً لوجود الأبدال كما يقول بذلك الشيخ محيي الدين في الفتوحات المكية وخاصة في الباب الثالث والسبعين.

فأخرج السيوطي في الجامع الصغير أحاديث كثيرة عن النبي صلى الله عليه وسلّم حول فضل الشام وأهلها فمنها:

---

[806] مرجع

- "أهل الشام سوط الله تعالى في الأرض، ينتقم بهم ممن يشاء من عباده، وحرام على منافقيهم أن يظهروا على مؤمنيهم، وأن يموتوا إلا همًا وغمًا وغيظا وحزنا."[807]
- "الأبدال في أهل الشام، وبهم يُنصرون، وبهم يُرزقون."[808]
- "الأبدال بالشام، وهم أربعون رجلا، كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلا: يسقى بهم الغيث، وينتصر بهم على الأعداء، ويصرف عن أهل الشام بهم العذاب."[809]
- "الشأم [أو "الشام"]، صفوة الله من بلاده، إليها يجتبي صفوته من عباده. فمن خرج من الشأم إلى غيرها فبسخطة، ومن دخلها من غيرها فبرحمة."[810]
- "الشام أرض المحشر والمنشر."[811]

وأفرد الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد خمسة أبواب في فضائل الشام، وذكر فيها أحاديث كثيرة عن النبي صلّى الله عليه وسلّم في ذلك، منها:

- "بينا أنا نائم [إذ] رأيت عمود الكتاب احتمل من تحت رأسي، فظننت أنه مذهوب به، فأتبعته بصري، فعمد به إلى الشام، ألا وإن الإيمان حين تقع الفتن بالشام".[812]
- "رأيت ليلة أسري بي عموداً أبيض كأنه لؤلؤة تحمله الملائكة، قلت: ما تحملون؟ فقالوا: عمود الكتاب، أمرنا أن نضعه بالشام، وبينا أنا نائم ثم رأيت عمود الكتاب اختلس من تحت وسادتي فظننت أن الله عز وجل تخلى من أهل الأرض، فأتبعته بصري فإذا هو نور ساطع بين يدي حتى وضع بالشام". فقال ابن حوالة: يا رسول الله خِر لي؟ قال: "عليك بالشام".[813]
- "إذا وقعت الفتن فالأمن بالشام".[814]
- "إنكم ستجدون أجناداً، جند بالشام ومصر والعراق واليمن". قالوا: فخِر لنا يا رسول الله، قال: "عليكم بالشام". قالوا: إنا أصحاب ماشية ولا نطيق الشام، قال: "فمن لم يطق الشام فليلحق بيمنه، فإن الله قد تكفل لي بالشام".[815]

---

[807] الجامع الصغير، رقم ٢٧٦٦، وقال السيوطي أنه صحيح.

[808] الجامع الصغير، رقم ٣٠٣٤، وقال السيوطي أنه حسن، وانظر أيضاً الأحاديث رقم ٣٠٣٦ و ٣٠٣٧. وانظر أيضاً في كنز العمال: الحديث رقم ٣٤٥٩٥، وفيه "قال المناوي في الفيض قال المصنف: أخرجه عنه أحمد والحاكم والطبراني من طرق أكثر من عشرة."

[809] الجامع الصغير، رقم ٣٠٣٥، وقال السيوطي أنه حسن، وانظر أيضاً الأحاديث رقم ٣٠٣٦ و ٣٠٣٧.

[810] الجامع الصغير، رقم ٤٩٢٤، وقال السيوطي أنه حسن.

[811] الجامع الصغير، رقم ٤٩٢٥، وقال السيوطي أنه حسن.

[812] مجمع الزوائد: المجلد العاشر، الحديث رقم ١٦٦٤٠، رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح.

[813] مجمع الزوائد: المجلد العاشر، الحديث رقم ١٦٦٤٤، رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير صالح بن رستم وهو ثقة.

[814] مجمع الزوائد: المجلد العاشر، الحديث رقم ١٦٦٤٢، رواه الطبراني في الكبير والأوسط بأسانيد، وفي أحدها ابن لهيعة وهو حسن الحديث، وقد توبع على هذا، وبقية رجاله رجال الصحيح.

[815] مجمع الزوائد: المجلد العاشر، الحديث رقم ١٦٦٤٥، رواه البزار والطبراني، وقال: "فليلحق بيمنه وليسق من غدره". وفيهما سليمان

- وعن عبد الله بن حوالة الأزدي أنه قال: يا رسول الله خِر لي بلداً أكون فيه، فلو أعلم أنك تبقى لم أختر عن قربك شيئاً. قال: "عليك بالشام". فلما رأى كراهيتي للشام قال: "أتدري ما يقول الله في الشام؟ إن الله عز وجل يقول: 'يا شام أنت صفوتي من بلادي، أدخل فيك خيرتي من عبادي'. إن الله قد تكفل لي بالشام وأهله."[816]
- "يا أيها الناس توشكون أن تكونوا أجناداً مجندة، جند بالشام وجند بالعراق وجند باليمن". فقال ابن حوالة: يا رسول الله إن أدركني ذلك الزمان فاختر لي، قال: "إني أختار لك الشام، فإنه خيرة المسلمين، وصفوة الله من بلاده، يجتبي إليها من صفوته من خلقه، فمن أبى فليلحق بيمنه، وليسق من غدره، فإن الله قد تكفل لي بالشام وأهله".[817]

ولم يكن الشيخ محيي الدين هو الوحيد الذي قدم من المغرب العربي واستقر في دمشق، بل كان هناك عدد كبير من المغاربة والأندلسيين الذي قصدوا دمشق إما للتعليم أو للمعيشة، وقد كان للكثير منهم مكانة اجتماعية مرموقة. ولكن المذهب المالكي الذي قدم به المغربيون ربما وقف حاجزاً بينهم وبين الاندماج الكلي مع المجتمع الدمشقي الذي كان يتبع المذهب الشافعي على الأغلب.

الحب المجهول

مع أننا لا ندري التاريخ بدقة، ولكن الشيخ محيي الدين يقول إنه أوّل ما دخل إلى الشام وجد في نفسه حبّاً مجهولاً لا يعرف سببه ولا متعلقه، وذلك أن النفوس لها استشراف على الغيب فتعشق شيئاً أو شخصاً لم تره قط في الواقع ثم تراه بعد وقت فتتعلق به وتعرف أن الحب الذي كانت تُكنّه هو لهذا الشخص أو لهذا الشيء وهي لا تدري.

فيقول الشيخ محيي الدين أن ذلك من ألطف ما وجده في الحب وهو أن تجد عشقاً مفرطاً وهوىً وشوقاً مقلقاً وغراماً ونحولاً وامتناع نوم ولذة بطعام ولا تدري فيمن ولا بمن ولا يتعيّن لك محبوبك. ثم بعد ذلك بالاتفاق إما يبدو لك تجلٍ في كشف فيتعلق ذلك الحب به أو ترى شخصاً فيتعلق ذلك الوجد الذي تجده به عند رؤيته فتعلم أن ذلك كان محبوبك وأنت لا تشعر، أو يُذكر لك شخص فتجد الميل إليه بذلك الهوى الذي عندك فتعلم أنه صاحبك.

ويقول الشيخ محيي الدين أن هذا من أخفى دقائق استشراف النفوس على الأشياء من خلف حجاب الغيب؛ فتجهل حالها ولا تدري بمن هامت ولا فيمن هامت ولا ما هيّمها. ثم يقول الشيخ الأكبر أن ذلك هو سبب القبض والبسط الذي يجده الناس ولا يعرفون له سبباً، فبعد ذلك يأتيه ما يحزنه فيعرف أن ذلك

بن عقبة وقد وثقه جماعة وفيه خلاف لا يضر، وبقية رجاله ثقات. وهذا الحديث قد رواه الشيخ محيي الدين في آخر كتاب الفتوحات المكية، (ج٤ص٥٠٠) كما ذكرنا في مقدمة هذا الكتاب.

[816] مجمع الزوائد: المجلد العاشر، الحديث رقم ١٦٦٤٧، رواه الطبراني من طريقين ورجال أحدهما رجال الصحيح غير صالح بن رستم وهو ثقة.

[817] مجمع الزوائد: المجلد العاشر، الحديث رقم ١٦٦٤٨، رواه الطبراني ورجاله ثقات.

القبض كان لهذا الأمر، أو يأتيه ما يسرّه فيعرف أن ذلك البسط كان لهذا الأمر؛ وذلك كلّه من قبيل الاستشراف على الأمور من قبل تكوينها في تعلق الحواس الظاهرة وهي مقدمات التكوين، ويشبه ذلك أخذ الميثاق كما قال الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾، فلم يقدر أحد على إنكاره بعد ذلك؛ فتجد في فطرة كلّ إنسان افتقاراً لموجودٍ يستند إليه وهو الله ولا يشعر به، ولهذا قال الله تعالى في سورة فاطر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾.

فكان الشيخ محيي الدين يكنّ في نفسه حبًا عميقا للشام وما فيها حيث يقول إنه وجد ميلاً مجهولاً مدة طويلة لحقيقة إلهية متخيلة في صورة جسدية فقال يخاطبها في ذلك بالحال ولسانه:[818]

أقـول وعنـدي مـن هـواك الـذي عنـدي — مقالـة مـن قـال الحبيـب لـه قـل لـي
ولمـا دخلـت الـشام خولطـت في عقلـي — فلـم أر قبلـي في الهـوى عاشـقاً مثلـي
عـشقت ومـا أدري الـذي قـد عـشقته — أخـالقي المحبـوب أم هـو مـن شـكلي
ولا سمعـت أذنـاي قـط بـذكره — فهـل قـال هـذا عاشـق غيرنـا قبلـي
فجُبـت بـلاد الله شـرقاً ومغربـا — لعلـي أرى شخـصاً يـوافقني علـى

ثمّ في بقيّة القصيدة ألغز الشيخ محيي الدين اسم حبيبه ولم يصرّح به لأنّه قال إن هذا من العلم المضاف إلى البخل، أي الذي لا يجوز التصريح به، ولكنّه أعطى بعض المفاتيح التي تعتمد على أسرار الحروف التي ذكرها في الباب الثاني من الفتوحات المكية ببعض التفصيل وكذلك في كتب أخرى أشار إليها مثل كتاب "المبادئ والغايات فيما تحوي عليه حروف المعجم من العجائب والآيات".[819]

انصح عبادي (دمشق)

وكذلك فكما ذكرنا من قبل في الفصل الثالث والفصل الخامس أن الله تعالى قد أمر ابن العربي بشكل مباشر في الرؤيا أن ينصح عباده، وذلك عندما كان في الأندلس وفي مكة، فالأمر أيضاً في دمشق كان كذلك حيث تفرّغ الشيخ كلياً للتدريس والكتابة.[820]

وكما سخّر الله للشيخ محيي الدين إسماعيل ابن سودكين في حلب فكان يلقي الدروس في بيته، وكذلك في ملطية صاحبه مجد الدين الرومي، وهكذا في كل مكان يذهب له إمّا أن يهديه الملوك بيتاً ويقطعون له معاشاً أو يفعل ذلك له أكابر البلد الذي هو فيه، عن محبّة وطيب ونفس.

فتشير الكثير من المراجع أن الشيخ محيي الدين قد وجد في دمشق احتفاءً كبيراً من قبل عائلة

---

[818] الفتوحات المكية: ج٢ص٣٢٤.

[819] مؤلفات ابن عربي: ص٠٥٤.

[820] الفتوحات المكية: ج١ص٣٣٤، ص٦٥٨.

بني الزكي الذين اشتهروا بمنصب قاضي القضاة فتوارثوه لفترات طويلة بدءاً من محيي الدين ابن الزكي الذي كان أول خطيب يخطب الجمعة في القدس بعد فتحها مباشرة على يد صلاح الدين الأيوبي الذي ولّاه منصب قاضي القضاة في حلب ودمشق، وكان هذا القاضي أيضاً هو الذي صلى بالناس على جنازة صلاح الدين لما توفي سنة ٥٨٩.

بنو الزكي (دمشق)

وكما ذكرنا من قبل فلما فتح صلاح الدين المنصور القدس صرف نظره عن جميع الشيوخ واختار شابا كان في الثانية والثلاثين من العمر، معروفا بذكائه ولباقته الخطابية وهو محيي الدين ابن الزكي، فقدّمه لإلقاء أول خطبة في القدس بعد الفتح، فصعد إلى المنبر بالجبة السوداء التي أهداها له الخليفة العباسي في بغداد، فألقى خطبة سُجّلت في التاريخ.

تعتبر عائلة بني الزكي الذين احتفلوا بالشيخ محيي الدين ابن العربي في دمشق وقدموا له الرعاية والضيافة من أعرق العائلات في بلاد الشام وقد اشتهروا بالعلم والفضل وحسن الخلق. وقد شغل الكثير منهم منصب قاضي القضاة خلال الدولة الأيوبية وقبلها وبعدها، وهو أكبر منصب ديني وقضائي في ذلك الوقت. تعود أصول هذه العائلة الكريمة إلى القاضي ابن الزكي المعروف بابن الصائغ الذي تولى القضاء في دمشق، بعد أبيه، سنة ٥١٠. يقول عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء: "ابن الزكي، قاضي دمشق، القاضي المنتجب، أبو المعالي، محمد بن القاضي أبي الفضل يحيى بن علي بن عبد العزيز، القرشي الدمشقي الشافعي، ويعرف أيضاً بابن الصائغ. ... كان نزهاً عفيفاً صليباً في الحكم. وُلد سنة سبع وستين وأربع مئة. وقال السمعاني: كان محموداً، حسن السيرة، شفوقاً وقوراً، حسن المنظر، متودداً. ... وهو والد القضاة بني الزكي. مات في ربيع الأول سنة سبع وثلاثين وخمس مئة، ودفن عند أبيه بمسجد القدم."[٨٢١]

فيذكر جميع المؤرخين أن الشيخ محيي الدين لما نزل في دمشق وأقام فيها وجد احتفاءً منقطع النظير من قبل عائلة بني الزكي، حيث خصصوا له معاشاً، وكانوا يحضرون دروسه، حتى إنه لما توفي رحمه الله دفنوه في تربتهم رغم أنه لا ينتمي إلى عائلتهم، فزادت شهرتهم به حتى إن الكثير من المؤرخين الذين كتبوا سير الرجال أصبحوا يؤرخون وفاتهم ومكان دفنهم فيقولون مثلا "ودفن في تربة بني الزكي قرب مقام الشيخ محيي الدين".

إسماعيل ابن سودكين (دمشق، ١٢٢٣/٦٢٠)

يبدو أن من أول التلاميذ الذين رافقوا الشيخ محيي الدين ابن العربي إلى دمشق، بعد وفاة بدر الحبشي، هو إسماعيل ابن سودكين النوري الذي تعرف عليه في مصر وكان يسكن معه في حلب.

فيقول لنا إسماعيل في كتاب "الوسائل" أن الشيخ محيي الدين نصحه مرة سنة ٦٢٠ وحذّره من

[821] الذهبي، "سير أعلام النبلاء": ج٢٠ص١٣٧ -١٣٨.

أن يشغل نفسه بغير الله، وقال له أنه قد تظهر لك الأشياء فتشتغل بها وتظن أنك لا ترى سوى وجه الله فيها، فكل هذا خداع واستدراج، فلا يجوز الشغل بغير الله. وإذا تجلّى لك الله في شيء، فخذه من ذلك الوجه ولا تقف مع هذا الشيء."[822]

ولا ندري إن كانت هذه النصيحة في دمشق أو في حلب، أو ربما على الطريق إلى دمشق حيث من غير المستبعد أن يكون ابن سودكين قد رحل مرافقا لشيخه محيي الدين الذي يبدو أنه وصل إلى دمشق في أول هذه السنة أو ربما في أواخر سنة ٦١٩. ولكن في جميع الأحوال نجد أن ابنه محمد في بداية هذه السنة كان يحضر الدروس والسماعات في بيت الشيخ محيي الدين في دمشق، ومنها كتاب التجليات كما سنرى في الفقرة التالية.

بالإضافة إلى ذلك، يذكر الشيخ محيي الدين في الديوان الكبير أنه رأى شمس الدين إسماعيل ابن سودكين النوري في المنام صبيحة ليلة يوم الاثنين ثامن عشر جمادى الأولى سنة ٦٢٠ بظاهر دمشق، وأنشده في المنام بيتين ما سمعهما منه ولا من غيره قبل ذلك، وهما:"[823]

أنا في العالم الذي لا أراكم ... كمسيح النصارى بين اليهود
فإذا ما رأيتكم نصب عيني ... أنا والله في جنان الخلود

ويقول الشيخ محيي الدين أن ذلك على وزن أبيات المتنبي:

ما مقامي بأرض نخلة إلا ... كمقام المسيح بين اليهود
أنا في أمة، تداركها الله، ... غريب كصالح في ثمود

وهذه الأبيات تعبير واضح عن مدى تعلّق ابن سودكين بالشيخ الأكبر واتباعه له، ولكنها قد تشير أيضاً إلى أن ابن سودكين لحق بشيخه ولم يكن معه حينما وصل إلى دمشق.

قراءة التجليات (دمشق، ١٤ محرم ١٢٢٣/٦٢٠)

تحدثنا في الفصل السابق عن كتاب التجليات وأن الشيخ محيي الدين ألفه سنة ٦٠٦ أو قبلها، وذكرنا أيضاً قصة شرح ابن سودكين له. في دمشق استمر الشيخ محيي الدين بقراءة كتبه على المريدين، ومن القراءات التي وصلت إلينا مدوّنة على أحد مخطوطات التجليات قراءة تمّت في دمشق في بيت المؤلف سنة ٦٢٠ في الرابع عشر من محرم، ومصدق عليها من قبل المؤلف. وقد كان المسمع هو الشيخ محيي الدين والقارئ هو أيوب بن بدر بن منصور، والسامعون هم حسين بن علي بن محمد النينوفاري، وأبو بكر بن محمد البلخي، ومحمد بن إسماعيل بن سودكين.[824]

---

[822] ابن سودكين، كتاب الوسائل، ص٣٧، عن ستيفن ص٢٠٩.

[823] الديوان: ص٩٠.

[824] مؤلفات ابن عربي: ص٢٣٣.

أوحد الدين الكرماني (دمشق)

وكذلك من الذين كانوا مع الشيخ محيي الدين في دمشق صاحبه المقرّب أوحد الدين الكرماني الذي ذكرناه في الفصل الخامس وكانا قد التقيا في قونية كما رأينا أعلاه. وكانت علاقة الكرماني بالشيخ محيي الدين علاقة مودّة ومحبّة، وقد ذكر إسماعيل ابن سودكين في كتاب الوسائل أن الكرماني دخل مرة على الشيخ الأكبر فوجده مضطرباً وغير طبيعي، فسأله في ذلك فلما عرف أن السبب هو أن الشيخ محيي الدين قد ترك بعض كتبه في ملطية أمرَ الشيخ أوحد الدين الكرماني أن يذهب بنفسه ويحضرها من هناك فذهب وأحضرها له.[٨٢٥]

صدر الدين القونوي (دمشق)

ومن التلاميذ الذين لازموه في دمشق أيضاً تلميذه وربيبه محمد بن اسحق بن محمد بن يوسف الرومي المعروف باسم صدر الدين القونوي وهو كما ذكرنا من قبل ابن مجد الدين إسحق بن يوسف الرومي الذي صحب الشيخ محيي الدين منذ أن تعرّف عليه في مكة سنة ٦٠٠، فلما توفي مجد الدين سنة ١٢٢٠/٦١٧ تولّى الشيخ الأكبر تربية ابنه محمد بالإضافة إلى رعاية الشيخ أوحد الدين الكرماني له وتربيته وتعليمه له.

ولا نعرف على وجه التحديد متى ولد الشيخ صدر الدين ولكن ذلك كان حوالي سنة ٦١٠، لكنه توفي بقونية سنة ٦٧٢ أو ٦٧٣، وهي نفس الفترة التي توفي فيها جلال الدين الرومي ونصير الدين الطوسي. وأوصى صدر الدين أن يحمل تابوته إلى دمشق ويدفن مع شيخه ابن العربي فلم يتهيأ له ذلك.

ويعدّ القونوي من أحسن من شرح كتب الشيخ محيي الدين وكان له الفضل في نشر علومه وخاصة في بلاد الروم وبلاد فارس، وكانت كتبه من الكتب التي تدرّس في القرون الستة الأخيرة. تخرّج من تحت يديه عشرات الصوفية الذي كان لهم أثر كبير في التاريخ الإسلامي، ومنهم جلال الدين الرومي صاحب كتاب "المثنوي" الشهير.

وسوف نذكر المزيد عن صدر الدين في الفصل السابع إنشاء الله تعالى.

سنة ٦٢١ (دمشق)

من الواضح أنه بمجرّد استقرار الشيخ محيي الدين في دمشق، بدء نشاطه التدريسي يزيد بشكل واضح وبدأ عدد المريدين حوله يزيد، علماً أنه ما يزال يتابع تأليفه لكتاب الفتوحات المكية الذي سينتهي من طبعته الأولى بعد بضع سنوات.

ففي سنة ٦٢١ قرأ الشيخ محيي الدين على الأقل ثمانية من كتبه على مريديه؛ منها كتاب اليقين

---

[٨٢٥] كتاب الوسائل، ص٢٧.

الذي قرأه عليه في منزله بدمشق أيوب بن بدر بن منصور المقري،[826] وكتاب "المقصد الأسمى" قرأه عليه بالمسجد الكبير (الأموي) أيضاً أيوب بن بدر بن منصور المقري،[827] وكذلك كتاب "الميم والواو والنون" قرأه أيوب ابن بدر أيضاً في منزل المؤلف وكان المستمعون إبراهيم بن محمد بن أحمد القرطبي وإبراهيم بن عمرو بن عبد العزيز القرشي،[828] وأيضاً كذلك كتاب " مفاتح الغيوب"،[829] وكتاب "الحق".[830]

الفترة ٦٢٢/١٢٢٥-٦٢٣/١٢٢٦

لا توجد بين أيدينا الآن أية معلومات عن هذه الفترة من حياة الشيخ محيي الدين ابن العربي، من غير المستبعد أن يكون قد قضاها في دمشق، أو ربما في المناطق المجاورة لها، معتزلاً عن الناس.

تأثير النصارى على بعض أهل دمشق (دمشق)

يقول الشيخ محيي الدين أن مما لاحظه على بعض أهل دمشق أنهم قد تأثروا بشكل كبير بعادات أهل الذمة وخاصة النصارى فأخذوا عنهم بعض العادات الغريبة عن الإسلام، كأن يتبركوا بماء المعمودية كما هي عادة النصارى في كنائسهم فكان أكثر نساء دمشق يفعلن ذلك ورجالهن يسامحونهن في ذلك فيأخذون الصبيان الصغار ويحملونهم إلى الكنيسة حتى يبارك القس عليهم ويرشونهم بماء المعمودية بنيّة التبرك، ويقربون القرابين لذلك، فيقول الشيخ محيي الدين أن هذا قرين الكفر بل هو الكفر عينه، ولا يرتضيه مسلم ولا الإسلام.[831]

مجانين دمشق

في الباب الرابع والأربعين من الفتوحات المكية[832] تكلم الشيخ رضي الله عنه بإسهاب عن البهاليل وهم الذين يُطلق عليهم اسم عقلاء المجانين الذين لم يكن جنونهم بسبب خلل عضوي بل كان جنونهم بسبب أمرٍ ورد عليهم من الله تعالى فجأة فهاموا فيه وحجب عقولهم عن عالم الشهادة فأصبحوا يدبرون أجسامهم بروحهم الحيواني فيأكلون ويشربون ويتصرفون في ضروراته الحيوانية ويصرفونه مثل تصرف الحيوان المفطور على العلم بمنافعه المحسوسة ومضارّه من غير تدبير ولا روية ولا فكر، وهم ينطقون بالحكمة ولا علم لهم بها، ولا يقصدون نفعك بها لتتعظ وتتذكّر أن الأمور ليست بيدك وأنك عبدٌ مُصرّفٌ بتصريف حكيم.

---

[826] مؤلفات ابن عربي: ص٦٣٠.

[827] مؤلفات ابن عربي: ص٥٨٢.

[828] مؤلفات ابن عربي: ص٦٠٢.

[829] مؤلفات ابن عربي: ص٥٧٢.

[830] مؤلفات ابن عربي: ص٢٩٢.

[831] الفتوحات المكية: ج٤ص٤٩١.

[832] الفتوحات المكية: ج١ص٢٤٧-٢٤٩.

وقد سقط التكليف عن هؤلاء المجانين إذ ليس لهم عقول يَقبلون بها ولا يفقهون بها، تراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون، خذ العفو: أي القليل مما يُجري الله على ألسنتهم من الحكم والمواعظ.

فهؤلاء هم عقلاء المجانين لأن جنونهم ما كان سببه فساد مزاج عن أمرٍ كوني من غذاء أو جوع أو غير ذلك وإنما كان عن تجلٍّ إلهي لقلوبهم وفجأة من فجآت الحق فجأتهم فذهبت بعقولهم، فعقولهم محبوسة عنده منعّمة بشهوده عاكفة في حضرته متنزّهة في جماله؛ فهم أصحاب عقول بلا عقول، وعُرفوا في الظاهر بالمجانين أي المستورين عن تدبير عقولهم فلهذا سموا عقلاء المجانين.

ثم روى الشيخ الأكبر رضي الله عنه عن أبي السعود بن الشبل البغدادي عاقل زمانه أنه رضي الله عنه سئل: "ما تقول في عقلاء المجانين من أهل الله؟"، فقال: هم ملاح والعقلاء منهم أملح! قيل له فبماذا نعرف مجانين الحق من غيرهم، فقال: مجانين الحق تظهر عليهم آثار القدرة والعقلاء يشهد الحق بشهودهم. نقل ذلك الخبر للشيخ الأكبر أبو البدر التماسكي صاحب أبي السعود.

حوار مع معتوه

روى الشيخ محيي الدين رضي الله عنه ما شهده من بعض هؤلاء العقلاء المجانين وعاشرهم واقتبس منهم فوائد كثيرة؛ فمرة رأى واحداً منهم والناس قد اجتمعوا عليه وهو ينظر إليهم وهو يقول لهم: أطيعوا الله يا مساكين فإنكم من طين خلقتم وأخاف عليكم أن تطبخ النار هذه الأواني فتردّها فخاراً، فهل رأيتم قط آنية من طين تكون فخاراً من غير أن تطبخها نار، يا مساكين لا يغرنّكم إبليس بكونه يدخل النار معكم وتقولون له يقول الله تعالى (لأملأنّ جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين)، فإبليس خلقه الله من نار فهو يرجع إلى أصله وأنتم من طين تتحكم النار في مفاصلكم. يا مساكين انظروا إلى إشارة الحق في خطابه لإبليس بقوله تعالى (لأملأن جهنم منك) وهنا قف ولا تقرأ ما بعدها! فقال له: جهنم منك! وهو قوله تعالى (خلق الجانّ من مارج من نار)، فمن دخل بيته وجاء إلى داره واجتمع بأهله ما هو مثل الغريب الوارد عليه فهو رجع إلى ما به افتخر: (قال أنا خير منه خلقتني من نار) فسروره رجوعه إلى أصله. وأنتم يا مناحيس تتفخّر بالنار طينتكم فلا تسمعوا من إبليس ولا تطيعوا واهربوا إلى محل النور تسعدوا. يا مساكين أنتم عمي ما تبصرون الذي أبصره. ألا تقولون سقف هذا المسجد ما يمسكه إلا هذه الأسطوانات؟ أنتم تبصرونها أسطوانات من رخام وأنا أبصرها رجالاً يذكرون الله ويمجدّونه، بالرجال تقوم السموات فكيف هذا المسجد! ما أدري إما أنا هو الأعمى لا أبصر الأسطوانات حجارة، وإما أنتم هم العمي لا تبصرون هذه الأسطوانات رجالاً! والله يا إخوتي ما أدري، لا والله أنتم هم العمي!

ثم استشهد هذا المجنون بالشيخ محيي الدين من بين الجماعة وقال له: يا شاب ألستُ أقول الحق؟ فقال له الشيخ الأكبر: بلى. وجلس إلى جانبه، فضحك المجنون وقال يا ناس الأستاهة[833] المنتنة تصفر بعضها البعض، وهذا الشاب منتن مثلي هذه المناسبة جعلته يجلس إلى جانبي ويصدقني، أنتم الساعة تحسبونه

[833] نوع من الفواكه.

عاقلاً وأنا مجنون: هو أجنّ مني بكثير، وإنما أنتم كما أعماكم الله عن رؤية هذه الأسطوانات رجالاً أعماكم أيضاً عن جنون هذا الشاب. ثم أخذ المجنون بيد الشيخ الأكبر وقال له قم امش بنا عن هؤلاء، فخرج معه فلما فارق الناس ترك يده وانصرف عنه.

وكان الشيخ رضي الله عنه يحاوره ويقول عنه أنه من أكبر من لقيه من المعتوهين: كان إذا سأله: ما الذي ذهب بعقلك؟ يقول له: أنت هو المجنون حقاً، ولو كان لي عقل كنت تقول لي ما الذي ذهب بعقلك! أين عقلي حتى يخاطبك، قد أخذه معه ما أدري ما يفعل به وتركني هنا في جملة الدواب آكل وأشرب وهو يدبّرني. فقال له الشيخ: فمن يركبك إذا كنت دابة؟ قال المجنون: أنا دابة وحشية لا أُركب! فيقول الشيخ محيي الدين أنه فهم من ذلك أن هذا المجنون خارج عن عالم الإنس، وأنه في مفاوز المعرفة فلا حكم للإنس عليه.

وكان هذا المجنون، كما يقول الشيخ الأكبر، محفوظاً من أذى الصبيان وغيرهم، كثير السكوت، مبهوتا، دائم الاعتبار، يلازم المسجد ويصلي في أوقات. فكان الشيخ يسأله عندما يراه يصلي: أراك تصلي؟ فيقول له: لا والله إنما أراه يقيمني ويقعدني، ما أدري ما يريد بي. فيقول له الشيخ: فهل تنوي في صلاتك هذه أداءَ ما افترض الله عليك؟ فيقول له: أي شيء تكون النية؟ فيقول له: القصد بهذه الأعمال القربة إليه. فيضحك ويقول: أنا أقول له أراه يقيمني ويقعدني فكيف أنوي القربة إلى من هو معي وأنا أشهده ولا يغيب عني، هذا كلام المجانين ما عندكم عقول!

ولكن يبدو أن هذا الحوار الذي ذكرناه لم يكن في دمشق وذلك لأنه من الواضح أن الشيخ رضي الله عنه كان شاباً، فربما حصل ذلك في المغرب أو في الأندلس، فالشيخ رضي الله عنه لم يحدد المكان أو الزمان، وإنما ذكرناها هنا للمناسبة.

أنواع البهاليل

وفي نفس الباب الرابع والأربعين ذكر الشيخ رضي الله عنه أنّ هؤلاء البهاليل كبهلول وسعدون من المتقدّمين وأبي وهب الفاضل وأمثالهم: منهم المسرور ومنهم المحزون؛ وهم في ذلك بحسب الوارد الأوّل الذي ذهب بعقولهم. فإن كان واردَ قهرٍ قبضهم كيعقوب الكوراني الذي كان بالجسر الأبيض (في دمشق) رآه الشيخ وكان على هذا القدم. وكذلك مسعود الحبشي رآه الشيخ بدمشق أيضاً كما ذكرنا أعلاه وكان ممتزجا بين القبض والبسط والغالب عليه البهت. وإن كان الوارد الذي ذهب بعقولهم واردَ لطفٍ بسطهم فكانوا من المسرورين. وقد رأى الشيخ من هذا الصنف جماعة أيضاً (من غير أن يحدد المكان) كأبي الحجاج الغليريّ وأبي الحسن عليّ السلاوي.

ثم يضيف الشيخ محيي الدين أن الناس لا يعرفون ما ذهب بعقول هؤلاء المجانين فشغلهم عن تدبير نفوسهم، فسخّر الله لهم الخلق فهم مشتغلون بمصالحهم عن طيب نفس؛ فأشهى ما إلى الناس أن يأكل واحد من هؤلاء عنده أو يقبل منه ثوباً، وذلك تسخير إلهي. فيقول الشيخ الأكبر أن الله جمع لهؤلاء المجانين

بين الراحتين حيث يأكلون ما يشتهون ولا يُحاسبون ولا يُسألون، وجعل الله لهم القبول في قلوب الخلق والمحبة والعطف عليهم واستراحوا من التكليف، ولهم عند الله أجرُ من أحسن عملا في مدّة أعمارهم التي ذهبت بغير عمل، لأنه سبحانه هو الذي أخذهم إليه فحفظ عليهم نتائج الأعمال التي لو لم يذهب بعقولهم لعملوها من الخير، كمن بات نائماً على وضوء وفي نفسه أن يقوم من الليل يصلي فيأخذ الله بروحه فينام حتى يصبح، فإن الله يكتب له أجر من قام ليله لأنه هو الذي حبسه عنده في حال نومه. فالمخاطب بالتكليف منهم وهو روحهم غائب في شهود الحق الذي ظهر سلطانه فيهم فما لهم أُذن واعية لحفظ السماع من خارج وتعقّل ما جاء به.

الشيخ الأكبر يذوق هذا المقام

ثم يقول الشيخ الأكبر رضي الله عنه أنه قد ذاق هذا المقام ومرّ عليه وقت يؤدّي فيه الصلوات الخمس إماماً بالجماعة على ما قيل له بإتمام الركوع والسجود وجميع أحوال الصلاة من أفعالٍ وأقوالٍ وهو في هذا كله لا علم له بذلك، لا بالجماعة ولا بالمحلّ ولا بالحال ولا بشيء من عالم الحس لشهودٍ غلب عليه غاب فيه عن نفسه وعن غيره وأخبر أنه كان إذا دخل وقت الصلاة يقيم الصلاة ويصلي بالناس، فكان حاله كالحركات الواقعة من النائم ولا علم له بذلك، فعَلم أنّ الله حفظ عليه وقته ولم يُجر على لسانه ذنبا.

ويقول الشيخ رضي الله عنه أنه كان في بعض الأوقات في حال غيبته هذه يشاهد ذاته في النور الأعم والتجلي الأعظم بالعرش العظيم يصلي بها وهو عريٌ عن الحركة بمعزلٍ عن نفسه ويشاهدها بين يدي الله تعالى راكعة وساجدة وهو يعلم أنه هو ذلك الراكع والساجد: كرؤيا النائم، واليدُ في ناصيته، وكان يتعجب من ذلك ويعلم أن ذلك ليس غيره ولا هو هو، ومن هناك، كما يقول الشيخ، عرف المكلّف والتكليف والمكلِّف.[٨٣٤]

مقام مُلك المُلك (دمشق)

ومقام ملك الملك مقام عزيزٌ ذكره الحكيم الترمذي وكان لأبي يزيد البسطامي، وقد شرح الشيخ محيي الدين هذا المقام في جوابه على السؤال السادس عشر من مسائل الترمذي في الباب الثالث والسبعين من الفتوحات المكية في جوابه على الأسئلة التي وضعها الترمذي في كتاب "ختم الأولياء".[٨٣٥]

وفي دمشق لقي الشيخ محيي الدين رجلاً كان له مثل هذا الحال، بل يقول إنه ربما كان أمكن فيه من الشيخ أبي يزيد حيث يقول إنه قعد معه يوماً بجامع دمشق فذكر له هذا الرجل حاله مع الله وما يجري له معه في وقائعه، فقال له أن الحق ذكر له عِظم ملكه فقال له: يا رب ملكي أعظم من ملكك! فقال له الحق: كيف تقول؟ وهو أعلم، فقال له: يا رب لأن مثلك في ملكي، فإنك لي تجيبني إذا دعوتك وتعطيني إذا

---

[٨٣٤] الفتوحات المكية: ج١ص-٣٥٠.

[٨٣٥] الفتوحات المكية: ج٢ص-٥٠.

سألتك، وما في ملكك مثلك! قال: فقال له الحق: صدقت.

فيقول الشيخ محيي الدين: وما رأيت أحداً ذهب إلى ما يقارب هذا المذهب أو هو هو سوى محمد بن علي الترمذي الحكيم، فإنه يقول في هذا المقام "مقام ملك الملك".

ثم يضيف الشيخ محيي الدين ويقول إن هذا الرجل كان يبكي أدباً مع الله ويقول للشيخ محيي الدين: يا أخي هو يجرئني عليه ويباسطني، فكان الشيخ الأكبر يقول له: إذا كان الله يفرح بتوبة عبده كما قاله عنه رسوله صلّى الله عليه وسلّم، فكيف يكون نظره إلى العارفين به."[836]

التعليم عن بعد (دمشق)

كما أن التكنولوجيا الحديثة بدأت تكسر الحواجز وتتخطى حصار المكان فأصبحت طرق الاتصال تكاد تفوق حدود الخيال، كذلك قد كسر الصوفية هذه الحواجز منذ زمن بعيد حيث كانوا يتواصلون بشكل آني رغم بعد المسافات وعدم وجود طرق الاتصالات. وقد بدأ العلم الحديث يكتشف إمكانية وجود هذا النوع من الاتصال عن بعد وهو ما يسمى في علم ما وراء النفس (الباراسيكولوجيا) بالاتصال عن بعد (التيليباثي) وما شابه ذلك من الظواهر التي لم يستطع العلم فكّ ألغازها رغم أنه أثبت وجودها. فكذلك رأينا في الفصل الثاني كيف كان الشيخ محيي الدين يلتقي بالشيخ أبي مدين وبعض مريديه من الأبدال، وكذلك بمن فارق الحياة منذ زمن أمثال أحمد بن هارون السبتي وأبي عبد الرحمن السلمي وغيرهم كما ذكرنا في الفصل الرابع.

وفي دمشق أيضاً كان للشيخ محيي الدين رضي الله عنه تجربة فريدة من هذا النوع حيث يقول في الباب الأحد والسبعين وثلاثمائة أنه في ليلة تقييده لبعض ما كان يكتبه في هذا الباب أراه الحق في واقعته رجلاً ربع القامة فيه شقرة فقعد بين يديه وهو ساكت فقال له الحق: هذا عبدٌ من عبادنا أفده ليكون هذا في ميزانك. فقال الشيخ محيي الدين: من هو؟ فقال له الحق: هذا أبو العباس بن جودي، من ساكني البشرات،"[837] فقال الشيخ محيي الدين: يا رب، وكيف يستفيد مني وأين أنا منه؟ فقال له الحق: قل فإنه يستفيد منك، فكما أريتك إيّاه أريتُه إيّاك، فهو الآن يراك كما تراه فخاطبه يسمع منك، ويقول مثل ما تقول أنت؛ يقول أريت رجلاً بالشام يقال له محمد ابن العربي، وأفادني أمراً لم يكن عندي فهو أستاذي.

فعندئذ قال الشيخ محيي الدين لذلك الرجل: يا أبا العباس ما الأمر؟ قال: كنت أجهد في الطلب وأنصب وأبذل جهدي فلما كُشف لي علمت أني مطلوب فاسترحت من ذلك الكد! فقال له الشيخ: يا أخي من كان خيراً منك وأوصلَ بالحق وأتمّ بالشهود وأكشفَ للأمر قيل له: "وقل رب زدني علماً"، فأين الراحة في دار التكليف! ما فهمت ما قيل لك. قولك: "علمت أني مطلوب" ولم تدر بماذا! نعم أنت مطلوب بما كنت عليه من الاجتهاد والجدّ، فما هذه الدار دار راحة. فإذا فرغت من أمر أنت فيه فانصب في أمر يأتيك في كل

---

[836] الفتوحات المكية: ج٢ص ٤١٠.

[837] وهي منطقة في الأندلس قريبة من مضيق جبل طارق.

نَفَس، فأين الفراغ؟

فحينئذ تذكّر أبو العباس وشكر الشيخ محيي الدين على ذلك.[838]

العصمة (دمشق)

تحدثنا من قبل عن موضوع العصمة وأنها أنواع، فمن العصمة أن لا تجد،[839] ومن العصمة كذلك أن لا تحدّثك نفسك بمعصية، توفيقا من الله تعالى. فيقول الشيخ محيي الدين أنه التقى في دمشق بمقصورة الدولعي زاوية عائشة في جامع دمشق، وهو الجامع الأموي، بسليمان الدنبلي وكان عبداً صالحاً كثير البكاء وكان له أنس بالله، فقعد معه وجرى بينهما كلام، فقال سليمان للشيخ الأكبر: يا أخي لي والله أكثر من خمسين سنة ما حدثتني نفسي بمعصية قط، لله الحمد على ذلك.[840]

أمر النبي صلّى الله عليه وسلّم له أن يكتب قصيدة في حق الأنصار (دمشق)

وقد ذكرنا في الفصل الثاني قصة الرؤيا التي رأى فيها يحيى بن الأخفس النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم وأمره أن يُبلغ محيي الدين ابن العربي أن يكتب قصيدة في حق الأنصار، وكان ذلك في دمشق، فلنذكر هنا القصة كاملة.

يقول الشيخ محيي الدين في الباب التاسع والأربعين أثناء حديثه عن الأنصار ونصرتهم لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم لما اشتدّ كربه حيث قال: "إني لأجد نفس الرحمن من قبل اليمن".[841] فقال الشيخ محيي الدين إنه كان عندهم بدمشق رجل من أهل الفضل والأدب والدين يقال له يحيى بن الأخفس من أهل مراكش كان أبوه يدرّس العربية بها؛ فكتب إليه يوما من منزله بدمشق حيث كان الشيخ محيي الدين مقيماً بها يقول له في كتابه: يا ولي رأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم (في المنام) البارحة بجامع دمشق (الأموي) وقد نزل بمقصورة الخطابة إلى جانب خزانة المصحف المنسوب إلى عثمان رضي الله عنه والناس يهرعون إليه ويدخلون عليه يبايعونه، فبقيت واقفاً حتى خفّ الناس فدخلت عليه وأخذت يده فقال لي: هل تعرف محمداً؟ قلت له: ابن العربي؟ قلت له: نعم أعرفه؟ فقال لي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إنّا قد أمرناه بأمرٍ فقل له يقول لك رسول الله انهض لما أُمرت به، واصحبه أنت فإنك تنتفع بصحبته، وقل له: يقول لك رسول الله امتدح الأنصار ولتعيّن منهم "سعد بن عبادة" ولا بدّ. ثم استدعى بحسان بن ثابت فقال له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: يا حسان حفّظه بيتاً يوصله إلى محمد ابن العربي يبني عليه وينسج على منواله في العروض والرويّ. فقال حسان: يا يحيى خذ إليك، وأنشده بيتاً وهو:

---

[838] الفتوحات المكية: ج٣ص٤٣١.

[839] ذكر السيوطي في الدرر المنتثرة عن عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن عون بن عبد الله أنه كان يقول: "إنَّ مِنَ الْعِصْمَةِ أَنْ تَطْلُبَ الشَّيْءَ مِنَ الدُّنْيَا فَلاَ تَجِدَهُ" (زيادة الجامع الصغير والدرر المنتثرة، للإمام السيوطي، حرف الهمزة).

[840] الفتوحات المكية: ج٤ص٤٩٢.

[841] انظر في: المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار: المجلد الأول، كتاب قواعد العقائد، رقم ٣.

شغف السهاد بمقلتي ومزاري ... فعلى الدموع معولي ومشاري

فقال يحيى: وما زال يردده عليّ حتى حفظته، ثم قال لي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: إذا مدح الأنصار فاكتبه بخطٍ بيّنٍ واحمله ليلة الخميس إلى تربة هذا الذي تسمونه قبر الستّ (زينب) فستجد عندها شخصاً اسمه "حامد" فادفع إليه المديح.

فيقول الشيخ محيي الدين: فلما أخبرني بذلك هذا الرائي وفّقه الله عملتُ القصيدة من وقتي من غير فكرة ولا رويّة ولا تثبّط ودفعتُ القصيدة إليه، فكتب إليّ أنه لما جاء قبرَ الستّ وصل إليه بعد العشاء الآخرة فرأى رجلاً عند القبر فقال له ابتداءً: أنتَ يحيى الذي جاء من عند ابن العربي؟ فقال له: نعم. قال: فأين القصيد الذي مدح به الأنصار عن أمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؟ فقال يحيى: هو ذا عندي. فناوله إياه، فقرّب من الشمعة ليقرأ القصيدة، فبدا كأنه لم يخبر ذلك الخط، فقال له: تأمرني أنشدتك إياها؟ قال: نعم. فأنشده إياها.

ثم ذكر الشيخ محيي الدين القصيدة وهذا نصها:

قال ابن ثابتٍ الذي فخرتْ به ... فِقَرُ الكلام ونشأةُ الأشعار:
"شغف السهاد بمقلتي ومزاري ... فعلى الدموع معوّلي ومُشاري"
فلذا جعلتُ رويّه الراء التي ... هي من حروف الردّ والتكرار
فأقول مبتدئاً لطاعة أحمدٍ ... في مدح قوم سادة أبرار:
إني امرؤ من جملة الأنصار ... فإذا مدحتهمُ مدحتُ نجاري
بسيوفهم قام الهدى وبهم علتْ ... أنواره في رأس كلّ منار
قاموا بنصر الهاشميّ محمّدٍ ... المصطفى المختار من مختار
صحبوا النبيّ بنيّة وعزائم ... فازوا بهنّ حميدةَ الآثار
باعوا نفوسهمُ لنصرة دينه ... ولذاك ما صحبوه بالإيثار
عنهم كنى المختار بالنفس الذي ... يأتيه من يمنٍ مع الأقدار[842]
لله آسادٌ لكلّ كريهة ... نزلت بدين الله والأخيار
عزّوا بدين الله في إعزازهم ... دين الهدى بالعسكر الجرّار
فبهم علا يوم القيامة مشهدي ... وبهم ترى يوم الورود فخاري
لو أنني صُغت الكلام قلائدا ... في مدحهم ما كنت بالمكثار
كرش النبيّ وعيبة لرسوله ... لحقت بهم أعداؤه بتبار
رهبان ليلا يقرؤون كلامه ... آساد غاب في الوغى بنهار

[842] انظر في: المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار، للحافظ العراقي، بهامش كتاب الإحياء: إحياء علوم الدين، لأبي حامد بن محمد الغزالي، دار الفكر-بيروت، ١٩٧٥، المجلد الأول، كتاب قواعد العقائد، رقم ٢.

وأضاف الشيخ رضي الله عنه أن قصة هذه الرؤيا طويلة ولكنه اقتصر من ذلك على ما يحتاج إليه في هذا الباب من ذكر الأنصار."[٨٤٣]

الملائكة أفضل أم بني آدم (دمشق، ٢٠ ربيع الأول ١٢٢٧/٦٢٤)

اختلف الفقهاء والعلماء في تفضيل الملائكة على الناس، ويذهب أكثرهم إلى أن فُضلاء الناس أفضل من فُضلاء الملائكة، وقد فصّل هذه المسألة السيوطي في كتاب "الحبائك في أخبار الملائك" فقال إن جمهور العلماء يجمع على أن الأنبياء أفضل من الملائكة في حين أن المعتزلة تقول أن الملائكة أفضل، واختار بعض العلماء الوقف في ذلك. ثم يقول السيوطي أن محل الخلاف في غير نبيّنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم، أما هو فأفضل الخلق بلا خلاف، لا يفضُل عليه ملك مقرّب ولا غيره. وينقل السيوطي ذلك عن الشيخ تاج الدين بن السبكي في "منع الموانع"، والشيخ سراج الدين البلقيني في "منهج الأصلين"، والشيخ بدر الدين الزركشي في "شرح جمع الجوامع"، وقد نقل الإمام فخر الدين الرازي الإجماع على ذلك في "التفسير الكبير" أيضاً. أما بخصوص التفضيل بين خواص الملائكة، والأولياء من الناس من غير الأنبياء، فقد نقل الشيخ سعد الدين التفتازاني في "شرح العقائد" الإجماع على تفضيل الملائكة، ولكن بعض الحنابلة فضّلوا الأولياء على خواص الملائكة. واختلف العلماء أيضاً في تفضيل الأولياء على غير الخواص من الملائكة على فرق شتى.[٨٤٤]

ويرى شيخ الإسلام ابن تيمية أن صالحي بني آدم أفضل من الملائكة وإن كان هؤلاء مخلوقين من طين وهؤلاء من نور، لأن الإنسان يظهر فضله عند كمال أحواله في الآخرة والملك يتشابه أول أمره وآخره، وقال: "من هنا غلط من فضّل الملائكة على الأنبياء حيث نظر إلى أحوال الأنبياء وهم في أثناء الأحوال، قبل أن يصلوا إلى ما وُعدوا به في الدار الآخرة من نهايات الكمال.""[٨٤٥]

أما الشيخ محيي الدين ابن العربي فيجزم أن الملائكة أفضل من الناس على الإطلاق، ويستشهد بقيام النبي صلى الله عليهم وسلم عندما رأى جنازة يهودي، فقيل له أنها جنازة يهودي، فقال: "أليس معها الملك"! فكان قيامه مع الملك قيام المفضول للفاضل "عندنا وعند من يرى أن الملائكة أفضل من البشر على الإطلاق".[٨٤٦]

ثم يذكر الشيخ محيي الدين رضي الله عنه في مواضع كثيرة أنه رأى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في مبشّرة فسأله عن هذه المسألة فقال له أن الملائكة أفضل، فقال له ابن العربي: "يا رسول الله فان سئلت ما الدليل على ذلك فما أقول؟" فأشار إليه أن قد علمتم أني أفضل الناس، والله تعالى يقول في

---

[٨٤٣] الفتوحات المكية: ج١ص٢٦٧-٢٦٨، وكذلك في الديوان: ص٣١٦-٣١٧.

[٨٤٤] الحبائك في أخبار الملائك، الحافظ الشيخ جلال الدين السيوطي، دار التقريب-القاهرة، ص٥٩.

[٨٤٥] مجموع فتاوى ابن تيمية: ج١١ص٩٦، وقد فصل شيخ الإسلام هذه المسألة في مكان آخر: مجموع فتاوى ابن تيمية، كتاب مفصل اعتقاد السلف، فصل في التفضيل بين الملائكة والناس: ج٤ص٣٥٠.

[٨٤٦] الفتوحات المكية: ج١ص٥٢٧.

الحديث الصحيح: "من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ومن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإٍ خيرٍ منهم"،[847] وكم ذاكر لله تعالى فذكره الله في ملإٍ خيرٍ من ذلك الملأ الذي أنا فيهم. فيقول الشيخ محيي الدين: "فما سُررت بشيءٍ سروري بهذه المسألة، فإنه كان على قلبي منها كثير". ويضيف الشيخ الأكبر أنه يمكن استنتاج ذلك أيضاً من تدبّر قوله تعالى في سورة الأحزاب: (هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ ﴿٤٣﴾).[848]

وهذه الرؤيا التي ذكرها الشيخ محيي الدين رضي الله عنه في الفتوحات المكية أكثر من مرة، أنه رأى فيها الرسول صلّى الله عليه وسلّم وسأله فيها عن فضل الملائكة، كانت في دمشق في ٢٠ ربيع الأول سنة ٦٢٤، كما ذكر في كتاب المبشرات.

وبالتالي فإنّ ابن العربي يخالف في هذا الرأي أكثر المذاهب ولكنّه يوافق المعتزلة الذين عادة ما ينتقدهم كثيراً. ولكن تجدر الإشارة إلى أن قولنا أن الملائكة أفضل من البشر على الإطلاق لا يعني أن كلّ الملائكة أفضل من كلّ البشر، وإنّما كما يتفاضل البشر تتفاضل الملائكة، فالفاضل من الملائكة خير من الفاضل من البشر وهو خير من المفضول من الملائكة، والله أعلم.

وقد تكلّم الشيخ محيي الدين عن أنواع الملائكة في الفتوحات المكية[849] وكذلك في كتاب إنشاء الدوائر.

السنة ١٢٢٨/٦٢٥ والسنة ١٢٢٩/٦٢٦

لا توجد بين أيدينا الآن معلومات عن سنة ٦٢٥ سوى ما ذكره عثمان يحيى في تصنيفه أن الناسخ الذي نسخ كتاب "ثواب قضاء الحوائج" الذي ينسب لابن العربي قال إنه نقله عن نسخة أصلية مؤرخة بسنة ٦٢٥ وأنها صنفت في "رباط النسوان".[850] وبما أنه لم يتم تحقيق هذا الكتاب، الذي لم يذكره الشيخ محيي الدين من بين مصنفاته لا في الفهرس ولا في الإجازة، فلا نعرف إن كان هذا الكتاب فعلاً للشيخ محيي الدين، وإن كان كذلك، فما المقصود برباط النسوان وأين هو؟ فيبدو أن الشيخ محيي الدين كان غائباً في هذه السنة، ولا نعرف أين.

ويبدو أيضاً أن غيبته قد استمرّت حتى أواخر سنة ٦٢٦ حيث تذكر لنا بعض مخطوطات "العبادلة" أنه قرأها على بعض تلاميذه في شهر ذي القعدة، من غير ذكر المكان أيضاً.

---

[847] ورد في الحديث القدسي الذي أخرجه البخاري، أن الله سبحانه وتعالى قال: "أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إليّ ذراعاً تقربت إليه باعاً وإن أتاني يمشي أتيته هرولة". أخرجه البخاري في التوحيد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه برقم ٧٤٠٥، وأخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار برقم ٢٦٧٥.

[848] الفتوحات المكية: ج٢ص٦١.

[849] الفتوحات المكية: ج١ص١٥٦، ٢٣٨، ٢٧٩، ج٢ص١٦، ١٥٠، ٢٠٩، ٢٢٥، ٢٩٦، ٢٩٨، ٥٥٦، ج٣ص٢٧٥، ٣١٥، ٣٤٤، ج٤ص٢٨، ٩٣.

[850] مؤلفات ابن عربي: ص٢٦٥.

قراءة كتاب العبادلة (سورية، ٢٢ ذو القعدة ١٢٢٩/٦٢٦)

ففي الثاني والعشرين من شهر ذي القعدة سنة ٦٢٦ قام الشيخ محيي الدين رضي الله عنه بالاستماع لقراءة هذا الكتاب على محمد بن إسماعيل بن سودكين ومحمد بن إسحاق القونوي بالإضافة إلى أبي بكر بن محمد البلخي، وكان القارئ هو منصور المقري.[851]

وكتاب "العبادلة" من الكتب المهمة التي تركها لنا الشيخ الأكبر رضي الله عنه، ويذكر فيه أقوال وأحوال عدد من العبادلة، وهم الذين يكون اسمهم "عبد الله"، وليس هذا بالضرورة هو الاسم الحقيقي بل هو وصف، ومن كان وصفه عبد الله فهو قطب. والشخصيات التي يذكرها الشيخ محيي الدين ويروي بعض سيرتها ليست شخصيات معروفة لرجال معروفين، بل هي أوصاف بعض الأولياء الذين كانوا قبل الشيخ محيي الدين رضي الله عنه، ولكننا لا نجد سيرتهم في أي كتاب آخر من كتب التاريخ وتراجم الرجال.[852]

فصوص الحكم (دمشق، العشر الأواخر من شهر محرم ١٢٢٩/٦٢٧)

يعدّ كتاب "فصوص الحكم" بالنسبة إلى كتب الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي بمثابة التاج على رأس الملك، والفتوحات المكية هي الجسم، والكتب الأخرى هي الأطراف. فرغم صغر حجمه، ورغم محدودية الموضوعات التي يطرحها، إذا ما قورن بالفتوحات المكية مثلا، فإن هذا الكتاب بحرٌ عميق تستقر في قعره اللآلئ والجواهر، وفضاءٌ رحيبٌ تسبح فيه النجوم الزواهر.

يقول الدكتور أبو العلا عفيفي في تقديمه لهذا الكتاب الذي كان موضوع دراسته في رسالة الدكتوراه بجامعة كامبريدج مع أستاذه المستشرق الكبير نيكلسون: "ولا مبالغة في القول بأن كتاب "الفصوص" أعظم مؤلفات ابن العربي كلّها قدراً وأعمقها غوراً وأبعدها أثراً في تشكيل العقيدة الصوفية في عصره وفي الأجيال التي لحقته".[853] ورغم أن هذا الكلام غير دقيق، لأن الفتوحات المكيّة لا تزال هي الأهم والأشمل والأكثر تأثيراً وانتشاراً، ولكنه يوضح أهمية هذا الكتاب الذي أخرجه الشيخ رضي الله عنه بشكل موجز ومكثّف. ومن أجل ذلك عكف الكثير من العلماء على شرحه ودراسته ومحاولة فكّ رموزه وكشف أسراره، وهناك حوالي المائة والخمسين شرحاً وترجمة ذكر أكثرها الدكتور عثمان يحيى في تصنيفه.[854] ومن هذه الشروح كتاب لابن العربي نفسه بعنوان "مفتاح الفصوص".[855] وكذلك قام صدر الدين القونوي بشرحه في كتاب "الفكوك على الفصوص". وكتب داود القيصري كتاب "مطلع خصوص الكلم في شرح فصوص الحكم"، و كتب عبد الرحمن جامي "نقد النصوص في شرح نقش الفصوص"، وكذلك عبد الغني النابلسي

---

[851] مؤلفات ابن عربي: ص٤٠٩.

[852] العبادلة، الشيخ محيي الدين ابن العربي، تحقيق عبد القادر عطا، مكتبة القاهرة-القاهرة، ١٩٩٤.

[853] د. أبو العلا عفيفي: مقدمة فصوص الحكم، ص٧.

[854] مؤلفات ابن عربي: ص٤٧٩-٥٠٠.

[855] مؤلفات ابن عربي: ص٤٧٩، ٥٧٤، ولكن قد يكون هذا الكتاب منتحلا أو مضافا عليه من قبل بعض الدارسين اللاحقين.

في "جواهر النصوص في حل كلمات الفصوص"، بالإضافة إلى شروحات وتعليقات أخرى كثيرة.

ولكنّ الكثير من العلماء وقفوا عند هذا الكتاب واعتبروا أن فيه كلاماً مخالفاً للشرع ويصعب تأويله على محملٍ حسن. وكذلك فإن بعض العلماء انتقدوه بشدة حتى إن الذهبي وصفه بأنه من أردأ تآليف ابن العربي وقال: "فإن كان لا كفر فيه فما في الدنيا كفرٌ.. فواغوثاه بالله."[556] وتجدر الإشارة إلى أن الذهبي هو من تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية الذي صنّف رسائل كثيرة في الردّ على ابن العربي منها رسالة سمّاها "الرد الأقوم على ما في كتاب فصوص الحكم"، كما سنرى في الفصل القادم إن شاء الله تعالى.

يفتتح الشيخ الأكبر هذا الكتاب الجليل بقوله في مقدمة الفصوص أنه رأى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في مُبشّرةٍ في العشر الأواخر من شهر محرم سنة سبعٍ وعشرين وستمائةٍ بمحروسةِ دمشق وبيده صلّى الله عليه وسلّم كتابٌ، فقال له: هذا كتاب "فصوص الحكم" خذه واخرج به إلى الناس ينتفعون به. فقال ابن العربي: السمع والطاعة لله ولرسوله وأولي الأمر منا، كما أُمرنا. ثم يقول:

> فحقّقتُ الأمنية، وأخلصتُ النيّة، وجرّدتُ القصد والهمّة إلى إبراز هذا الكتاب كما حدّه لي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من غير زيادة ولا نقصان. وسألتُ الله تعالى أن يجعلني فيه وفي جميع أحوالي من عباده الذين ليس للشيطان عليهم سلطان، وأن يخصّني في جميع ما يرقمه بناني وينطق به لساني وينطوي عليه جناني بالإلقاء السبوحيّ والنفث الروحي في الروع النفسي بالتأييد الاعتصامي، حتى أكون مترجماً لا متحكّماً، ليتحقّق من يقف عليه من أهل الله، أصحاب القلوب، أنه من مقام التقديس المنزّه عن الأغراض النفسية التي يدخلها التلبيس. وأرجو أن يكون الحقّ لمّا سمع دعائي قد أجاب ندائي: فما ألقي إلا ما يُلقي إليّ، ولا أُنزل إلا ما ينزّل به عليّ، ولستُ بنبيّ رسول ولكنّي وارث ولآخرتي حارث:
>
> فَمِنَ الله فاسمعوا ... وإلى اللهِ فارجِعُوا
> فإذا ما سمِعتُمْ ... ما أتيتُ بهِ فعُوا
> ثُمَّ بالفهم فصّلوا ... مُجمل القول واجمعوا
> ثُمَّ مُنّوا به على ... طالبيه لا تمنعوا
> هذه الرحمة التي ... وسعتكم فوسّعوا
>
> ومن الله أرجو أن أكون ممّن أُيّد فتأيّد، وقُيّد بالشرع المحمّدي المطهّر فتقيّد وقيّد، وحشرنا في زمرته كما جعلنا من أمّته."[557]

ثم شرع الشيخ محيي الدين رضي الله يسرد أبواب الكتاب وهي سبعة وعشرون فصاً كلُّ فصٍّ سمّاه فصُّ حكمة

---

[556] الذهبي، "سير أعلام النبلاء": ج٢٣ص٤٨.

[557] ابن العربي: فصوص الحكم، تحقيق أبو العلا عفيفي، دار الكتاب العربي، بيروت، ص٤٧-٤٨.

"كذا" في كلمة "نبيّ من الأنبياء" وذلك لحكمةٍ خفيةٍ رآها الشيخ في حقيقة هذا النبيّ، وهذه هي أسماء الفصوص السبعة والعشرين:

١. فصُّ حكمةٍ إلهيةٍ في كلمةٍ آدمية.
٢. فصُّ حكمةٍ نفثيةٍ في كلمةٍ شيثية.
٣. فصُّ حكمةٍ سبوحيةٍ في كلمةٍ نوحية.
٤. فصُّ حكمةٍ قدُّوسيةٍ في كلمةٍ إدريسية.
٥. فصُّ حكمةٍ مهيَّميةٍ في كلمةٍ إبراهيمية.
٦. فصُّ حكمةٍ حقّيةٍ في كلمةٍ إسحاقية.
٧. فصُّ حكمةٍ عليةٍ في كلمةٍ إسماعيلية.
٨. فصُّ حكمةٍ روحيةٍ في كلمةٍ يعقوبية.
٩. فصُّ حكمةٍ نوريةٍ في كلمةٍ يوسفية.
١٠. فصُّ حكمةٍ أحديةٍ في كلمةٍ هودية.
١١. فصُّ حكمةٍ فتوحيةٍ في كلمةٍ صالحية.
١٢. فصُّ حكمةٍ قلبيةٍ في كلمةٍ شعيبية.
١٣. فصُّ حكمةٍ ملكيةٍ في كلمةٍ لوطية.
١٤. فصُّ حكمةٍ قدريةٍ في كلمةٍ عزيرية.
١٥. فصُّ حكمةٍ نبويةٍ في كلمةٍ عيسوية.
١٦. فصُّ حكمةٍ رحمانيةٍ في كلمةٍ سليمانية.
١٧. فصُّ حكمةٍ وجوديةٍ في كلمةٍ داودية.
١٨. فصُّ حكمةٍ نفسيةٍ في كلمةٍ يونسية.
١٩. فصُّ حكمةٍ غيبيةٍ في كلمةٍ أيوبية.
٢٠. فصُّ حكمةٍ جلاليةٍ في كلمةٍ يحيوية.
٢١. فصُّ حكمةٍ مالكيةٍ في كلمةٍ زكرياوية.
٢٢. فصُّ حكمةٍ إيناسيةٍ في كلمةٍ إلياسية.
٢٣. فصُّ حكمةٍ إحسانيةٍ في كلمةٍ لقمانية.
٢٤. فصُّ حكمةٍ إماميةٍ في كلمةٍ هارونية.
٢٥. فصُّ حكمةٍ علويةٍ في كلمةٍ موسوية.
٢٦. فصُّ حكمةٍ صمديةٍ في كلمةٍ خالدية.
٢٧. فصُّ حكمةٍ فرديةٍ في كلمةٍ محمدية.

والشيخ رضي الله عنه لم يقصد بالإشارة إلى الأنبياء ذكر سيرتهم أو صفاتهم، بل ما هو إلا عنوان

حكمةٍ معيّنة ذكرها الله عنهم في القرآن الكريم. وكلمة "فصّ" تعني في اللغة "جوهر" وقال صدر الدين القونوي في مقدمة شرحه للفصوص أن الفصّ عبارة عن خاتمة علوم كل مرتبة من المراتب المذكورة في هذا الكتاب... والكلمة عين ذلك النبي المذكور من حيث خصوصيته."[٤٥٨]

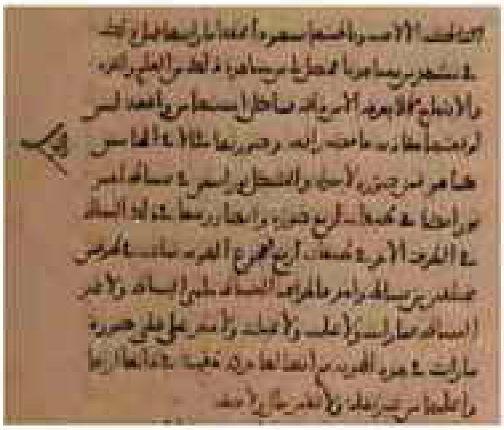
فهذا الكتاب يتضمن سبعة وعشرين بحراً من العلم، كل بحرٍ عنوانه هذا النبيّ من الأنبياء الذي سميّ الفصّ باسمه. وليس قولنا "بحراً" مبالغة في الكلام، ولا مجازا ولا حتى كناية، بل هو حقيقة، وذلك لأنّ الأنبياء هم على الحقيقة كلمات الله تعالى الذي يقول في سورة النساء عن عيسى عليه السلام مثلاً: (إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ...)، ثم قال الله سبحانه وتعالى في سورة الكهف: (قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا)، وقال أيضاً في آية أخرى من سورة يونس: (وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ). وبحسب رؤية الشيخ محيي الدين ابن العربي فإن الوجود هو كلمات الله تعالى التي لا تنفد، فهؤلاء الأنبياء السبعة والعشرون الذين سمّى الشيخ محيي الدين أسماء فصوص (أي أبواب) هذا الكتاب على أسمائهم هم سبعة وعشرون كلمة من كلمات الله تعالى، التي لو كان البحر، يمدّه من بعده سبعة أبحر، مداداً لها لنفد البحر قبل أن تنفد هذه الكلمات.

رؤيته الهوية الإلهية (سورية، الأربعاء ٤ ربيع الآخرة ١٢٣٠/٦٢٧)

في الفصل السابع والعشرين من الباب الثامن والتسعين ومائة، وفي أثناء حديثه عن مراتب الطبيعة الأربعة: النار والهواء والتراب والماء، ذكر الشيخ محيي الدين أنه في ليلة تقييده لهذا الفصل، وهي الليلة الرابعة من شهر ربيع الآخر سنة سبع وعشرين وستمائة الموافقة لليلة الأربعاء الذي هو الموفى عشرين من شباط، رأى في الواقعة "ظاهر الهوية الإلهية وباطنها" شهوداً محققاً. ويقول واصفاً:

> رأيت في الواقعة ظاهر الهوية الإلهية وباطنها شهوداً محققاً ما رأيتها قبل ذلك في مشهدٍ من مشاهدنا. فحصل لي من مشاهدة ذلك من العلم اللذة والابتهاج ما لا يعرفه إلا من ذاقه فما كان أحسنها من الواقعة "ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة".

[٤٥٨] القونوي: فكوك خواتم الفصوص، ص٣.



ثم وضع الشيخ رضي الله عنه صورة ما رآه تمثيلاً في هامش الكتاب كما هو وقال: "فمن صوّره لا يبدّله". ولذلك نسخناه من مخطوطة قونية للفتوحات المكية التي بخط يده، ووضعناه هنا كما تراه على هامش الصفحة من المخطوطة:»

ويصف الشيخ محيي الدين ما رآه فيقول إن الشكل الذي رآه هو:

> نور أبيض في بساط أحمر له نور أيضاً، في طبقات أربع صورة، وأيضاً روحها في ذلك البساط في الطرف الآخر في طبقات أربع؛ فمجموع الهوية ثمانية في طرفين مختلفين من بساط واحد. فأطراف البساط ما هي البساط ولا غير البساط. فما رأيت ولا علمت ولا تخيّلت ولا خطر على قلبي صورة ما رأيت في هذه الهوية. ثم إنها لها حركة خفيّة في ذاتها أراها وأعلمها من غير نقله ولا تغيّر حال ولا صفة.[859]

في الحقيقة إن رؤية الشيخ محيي الدين للعالم والخلق وعلاقته بالخالق سبحانه تُعتبر رؤية فريدة من نوعها وهي في الحقيقة نظرية فلسفية متكاملة لم تُدرس من قبل، ربما بسبب تعقيدها وعمقها وقد يكون هذا هو السبب الذي أدّى إلى أن ينتقده بعض الشيوخ والعلماء الذين لم يستطيعوا الخوض في أعماق علومه. فيعتبر الشيخ محيي الدين رضي الله عنه أن كل شيء في العالم يستند إلى صفة إلهية معينة،[860] ويعتبر أيضاً أن الصفات الإلهية، وهي الأسماء الحسنى، غير متناهية،[861] وأما التسعة والتسعين اسماً المشار إليها في الحديث،[862] إنما هي الأسماء الرئيسية. ومع ذلك فإن جميع حضرات الأسماء الإلهية الذاتية تعود في النهاية إلى أربعة حضرات هي الأمهات وهي حضرة الحياة، وحضرة العلم، وحضرة القدرة، وحضرة الإرادة،[863] ومن هنا فإن العالم مبنيّ على أساسٍ من التربيع يتجلى في شتى المستويات: فعلى مستوى أنواع العلوم هناك العلم المنطقيّ والعلم الرياضيّ والعلم الطبيعيّ والعلم الإلهيّ، وفي الإنسان هناك الروح والعقل والنفس والجسم، وفي الطبيعة هناك الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة.[864] وقد وضّح الشيخ محيي الدين هذه الرؤية، التي تعتبر حجر الأساس في رؤيته للعالم، في مواضع كثيرة من كتاب الفتوحات المكية وغيره من كتبه

---

[859] الفتوحات المكية: ج٢ص٤٤٩.

[860] الفتوحات المكية: ج١ص٢٩٣.

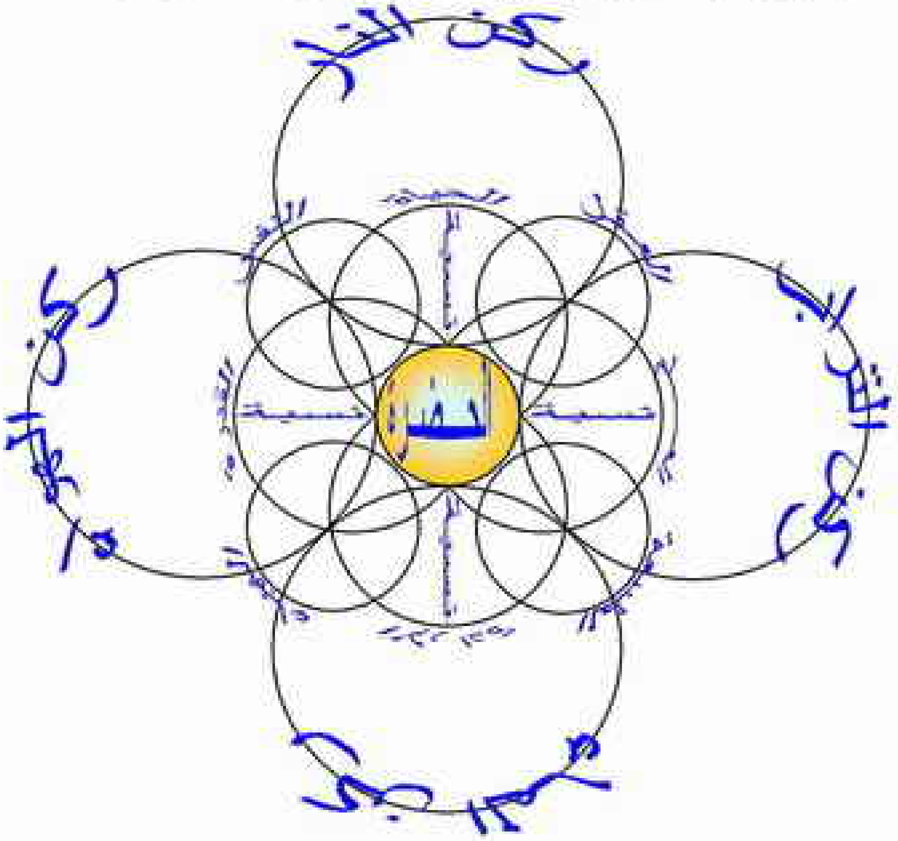
[861] الفتوحات المكية: ج٣ص١٤٦.

[862] كنز العمال: رقم ١٩٣٣، ١٩٣٧.

[863] الفتوحات المكية: ج١ص٤٦٩.

[864] الفتوحات المكية: ج١ص٢٩٣.

الكثيرة، ووضحها كذلك بشكل رسم تخطيطي في الباب السابع والأربعين،[٨٦٥] كما هي موضحة أدناه:



كتاب الفهرس (دمشق، ٦٢٧/١٢٣٠)

ويعد كتاب الفهرس من الكتب المهمة التي حفظت لنا بعض أسماء كتب الشيخ محيي الدين، بالإضافة إلى رسالة الإجازة للملك المظفر التي سنتكلم عنها بعد قليل. وقد صنف الشيخ محيي الدين رضي الله عنها هذا الكتاب قبل سنة ٦٢٧ تلبية لرغبة تلميذه وولده صدر الدين القونوي، وذكر فيه ٢٤٨ مصنفا.[٨٦٦] وقد نشر هذا الكتاب في دمشق[٨٦٧] وفي القاهرة،[٨٦٨] وذكرنا هذه المصنفات في الملحق الثاني في آخر هذا الكتاب.

قراءة كتاب القربة وكتاب العظمة (دمشق، ٦٢٧/١٢٣٠)

لقد تكلمنا في الفصل السابق عن كتاب القربة وقلنا أن من بين السماعات التي ألقاها الشيخ محيي الدين لهذا الكتاب سماع كان في حلب سنة ٦١٧. بالإضافة إلى ذلك فهناك سماع آخر للشيخ محيي الدين

[865] الفتوحات المكية: ج١ص٢٦٠.

[866] مؤلفات ابن عربي: ص٥٠٦.

[867] كوركيس عواد، مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، العدد ٣، ٤، سنة ١٩٥٤، ثم أتبعه بمستدرك في العدد ٢،٣، سنة ١٩٥٥.

[868] أبو العلا عفيفي، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، العدد ٨، سنة ١٩٥٤.

على تلميذه وولده صدر الدين القونوي مؤرخ بهذه السنة في بيته بدمشق.[869]

وكذلك في هذه السنة قرأ الشيخ محيي الدين كتاب العظمة على تلميذيه القونوي وابن سودكين،[870] وقد ألف الشيخ الأكبر هذا الكتاب في قونية سنة ٦٠٢ وتكلمنا عليه في الفصل الخامس.

مبشرة كلام الله (سورية، ٢٠ ربيع الأول ١٢٣١/٦٢٨)

يذكر الشيخ محيي الدين رضي الله عنه أنه في هذه السنة كلّمه الله تعالى من غير واسطة في نفس البقعة المباركة التي كلّم الله سبحانه فيها موسى عليه السلام تكليما، وذلك من بلّة (أي بقعة رمل مبلولة بالماء) على قدر الكف وكان كلاماً لا يكيّف ولا يشبه كلام مخلوق، بل كان عين الكلام هو عين الفهم من السامع.

ويذكر الشيخ محيي الدين في الوصايا في الباب الأخير من الفتوحات المكية أنّ من ضمن ما فهمه من الله تعالى في هذه المبشرة:

كن سماء وحي وأرض ينبوعٍ وجبل تسكينٍ فإذا تحركت فلتكن حركة إحياءٍ وسطيةٍ[871] بتحريكٍ عن وحيٍ سماوي.

ثم يقول ابن العربي أنه وقع في نفسه نظمٌ فكان ينشد:

جعلـــــت فيّ الــــــذي جعلتـــــا	وقلـــــت لـــــي أنـــــت قـــــد عملتـــــا
وأنـــــت تـــــدري بـــــأن كـــــوني	مـــــا فيـــــه غـــــير الـــــذي جعلتـــــا
فكـــــل فعـــــل تـــــراه مـــــنّي	أنـــــت إلهـــــي الـــــذي فعلتـــــا[872]

وكذلك يقول الشيخ محيي الدين في الباب الواحد والسبعين عند حديثه عن حكم القبلة للصائم أن هذا نقيض مسألة موسى عليه السلام فإنه طلب الرؤية بعدما حصل له الكلام، فالمشاهدة والكلام لا يجتمعان في غير التجلي البرزخيّ وهو كان مقام شهاب الدين عمر السهرورديّ كما ذكرنا من قبل في الفصل الخامس. ثم يضيف أن هذا المقام الموسويّ قد ذاقه في الموضع الذي ذاقه موسى عليه السلام غير أنه ذاقه في بلّة في الرمل على قدر الكف وذاقه موسى عليه السلام في حاجته وهي طلبه النار لأهله. فيقول الشيخ الأكبر: "ففرحت حيث كان ماءً".[873]

وفي مخطوطة بيازيد من كتاب المبشرات يذكر الشيخ محيي الدين أيضاً هذه المبشرة ولكنه يحدد تاريخ حدوثها أنه كان العشرين من ربيع الأول سنة ٦٢٨.[874]

---

[869] مؤلفات ابن عربي: ص٥٧٨.

[870] مؤلفات ابن عربي: ص٤١٤.

[871] في المطبوعة "وسطنة" وصححناها اعتمادا على مخطوطة قونية التي بخط الشيخ الأكبر رضي الله عنه.

[872] الفتوحات المكية: ج٤ص٤٨٥.

[873] الفتوحات المكية: ج١ص٦٠٩.

[874] كتاب المبشرات، مخطوطة بيازيد ١٦٨٦.

قراءة كتاب الجلالة وكتاب الألف (سورية، ٦٢٨/١٢٣١)

ومن الكتب التي قرأها الشيخ محيي الدين على تلاميذه في هذه السنة كتاب الألف وكتاب الجلالة اللذان ألفهما سنة ٦٠١، وذكرناهما في الفصل الخامس. وكان المسمع هو الشيخ محيي الدين والقارئ والمستمع هو عبد الكريم بن عبد الكريم البزّار.[٨٧٥]

رجال العظمة (سورية، ٦٢٨/١٢٣١)

ذكرنا من قبل أن الشيخ محيي الدين رأى في الموصل رجلاً من رجال العظمة، ذكره في الباب الثامن والخمسين وخمسمائة الذي ذكر فيه حضرات الأسماء الإلهية، في حضرة الاسم العظيم ويدعى صاحبها عبد العظيم، وحالُ هذا العبد الاحتقار التام مع كونه محلاً للعظمة عند نفسه. وقد رأى الشيخ محيي الدين شخصاً واحداً يحكم في هذا المقام وهو من حديثة الموصل، ولكن شيخه أبا العباس العريبي من أهل العلياء من غرب الأندلس أخبره أنه رأى واحداً أيضاً من أهل هذه الحضرة وقد تلبّس كالحلاج الذي كان يعظم جسمه في أعين الناظرين بالأبصار فكان له بيت يسمّى بيت العظمة إذا دخل فيه ملأه كلّه بذاته في عين الناظر حتى نُسب إلى علم السيميا في ذلك لجهلهم بما هم عليه أهل الله من الأحوال.[٨٧٦]

ويضيف الشيخ قائلا أن حكم العظمة في النفوس كثير الوقوع فإنه تقع أمور كثيرة يعظم في النفوس قدرها بحيث لا تتسع النفس لغيرها ولا سيما في الأمور الهائلة التي تؤثر الخوف في النفوس.[٨٧٧]

ولكن الشيخ محيي الدين لم يذكر في هذا الباب اسم هذا الرجل الموصلي، إلا أنه ذكر في موضع آخر أنه كان عالقا في هذا المقام ولا يستطيع الانتقال منه وهذه الحالة البرزخية لا يقام فيها إلا من عظّم حرمات الله وشعائر الله من عباده وهم أهل العظمة وكان هذا الرجل من أهل حديثة الموصل كان له هذا المقام ووقعت له واقعة مُشكلة ولم يجد من يخلصه منها، فلما سمع بالشيخ محيي الدين جاء به إليه الفقيه نجم الدين محمد بن شائي الموصلي المدرس بمدرسة سيف الدين بن علم الدين بحلب فعرض عليه واقعته فخلصه منها فسُرّ بذلك وثلج صدره واتخذه صاحباً.[٨٧٨]

ولكن ذلك لم يحصل أثناء وجود الشيخ الأكبر في الموصل ولا في حلب بل حصل في دمشق سنة ٦٢٨، فلما رآه الشيخ محيي الدين فهمه ووجده قد أخذ من مقام العظمة بحظ وافر لكنه دون ذوق القطب فيه لأنه أخبره أن النخامة كانت تدور في فمه لا يقدر أن يلقيها من فمه لأنه لا يجد لها محلاً تقع فيه خالياً من الحق، وقد علم ما جاء في الأدب في إلقائها في الشرع فكان يتحيّر.[٨٧٩]

---

[٨٧٥] مؤلفات ابن عربي: ص٢٠٠، ٢٧٥.

[٨٧٦] الفتوحات المكية: ج٤ص٨٤.

[٨٧٧] الفتوحات المكية: ج٤ص٢٤١.

[٨٧٨] الفتوحات المكية: ج٤ص٨٣.

[٨٧٩] الفتوحات المكية: ج٤ص٨٤.

النسخة الأولى من الفتوحات المكية (دمشق، شهر صفر ١٢٣١/٦٢٩)

لقد ذكرنا في الفصل الرابع أن الشيخ الأكبر رضي الله عنه بدأ تأليف كتاب الفتوحات المكية في مكة المكرّمة شرّفها الله في أوّل زيارة يزورها في سنة ٥٩٨، وكان يكتب فيها كلّما سنحت له الفرصة خلال أسفاره الكثيرة رغم أنه لم يتوقف عن التدريس وتأليف الكتب الأخرى كلما دعت إليها المناسبة. ولكن عندما استقر الشيخ محيي الدين في دمشق سنحت له الفرصة أن يتابع كتابة الفتوحات بشكل أسرع، فما انتهى من الطبعة الأولى منها إلا في هذه السنة، ثم أعاد كتابته مرة أخرى في الفترة بين سنة ١٢٣٤/٦٣٢ إلى ١٢٣٨/٦٣٦ حيث أضاف وحذف وعدّل على هذه النسخة الأولى.

هناك عشرات المخطوطات لهذا الكتاب في مكتبات العالم وأهمها مخطوطة قونية التي بخط الشيخ محيي الدين نفسه، وهي النسخة الثانية للكتاب التي فرغ منها سنة ١٢٣٨/٦٣٦، وقد قسمها المؤلف إلى سبعة وثلاثين سفراً، وهي محفوظة حالياً بمكتبة إيفكاف موسى بتركيا.[٨٨٠] وتوجد أيضاً مخطوطات أخرى عن النسخة الأولى ومنها نسخة محفوظة بمكتبة بايزيد بتركيا.[٨٨١] وقد ذكر عثمان يحيى رحمه الله هذه المخطوطات وغيرها في كتابه عن تاريخ مؤلفات ابن العربي وتصنيفها الذي ذكرناه مراراً.

لقد تم طبع كتاب الفتوحات المكية عدة مرات كان أولها طبعة بولاق بمصر سنة ١٨٥٧/١٢٧٤، ثم أعيد طبعه سنة ١٨٧٦/١٢٩٣ بتصحيح الشيخ محمد قطة العدوي، ثم قامت دار الكتب العربية الكبرى بمصر (مصطفى الحلبي وأخويه) بطباعته سنة ١٩١١/١٣٢٩ على نفقة الحاج فدا محمد الكشميري وشركاه بمكة، وتم فيها تدارك ما وقع في طبعتي بولاق من أخطاء. وذكر الشيخ محمد الزهري الغمراوي رئيس لجنة التصحيح بمطبعة دار الكتب العربية الكبرى أنه فات طبعتي بولاق الوقوفُ على نسخة المؤلف، وأنه من العناية الإلهية أن سبقت لهم نسخة تمت مقابلتها على نسخة قونية التي بخط المؤلف، قابلها جماعة من العلماء بأمر الأمير عبد القادر الجزائري رحمه الله تعالى.

ثم بعد ذلك صدرت حديثاً طبعات جديدة وكلها تعتمد على طبعة دار الكتب العربية، ولكن الدكتور عثمان يحيى رحمه الله حاول تحقيق هذا الكتاب الكبير ووصل فيه إلى السفر الرابع عشر بحسب تقسيم مخطوطة قونية وتوفي دون أن يكمله.

قسم الشيخ محيي الدين كتاب الفتوحات المكية إلى خمسمائة وستين بابا تتراوح في حجمها من صفحة واحدة أو أقل من صفحة إلى ما يزيد من مئة صفحة وبعضها عدة مئات من الصفحات. وقد قسمت هذه الأبواب إلى ستة فصول كما يلي:

١. الفصل الأول في المعارف (الأبواب من ١ – ٧٣)
٢. الفصل الثاني في المعاملات (الأبواب ٧٤ – ١٨٨)
٣. الفصل الثالث في الأحوال (الأبواب ١٨٩ – ٢٦٩)

---

[٨٨٠] المخطوطة رقم ١٨٤٥–١٨٨١.

[٨٨١] المخطوطة رقم ٣٤٤١–٣٤٤٣.

٤. الفصل الرابع في المنازل (الأبواب ٢٧٠ – ٣٨٣)
٥. الفصل الخامس في المنازلات (الأبواب ٣٨٤ – ٤٦١)
٦. الفصل السادس في المقامات (الأبواب ٤٦٢ – ٥٦٠)

وقد جمع الشيخ محيي الدين في الباب التاسع والخمسين وخمسمائة أسرار الفتوحات كلها وذكرها بشكل مختصر، ثم ختم هذا الكتاب البديع بالباب الستين وخمسمائة وهو عبارة عن مجموعة كبيرة من الوصايا التي تهذب الأخلاق وترفع الهمم وهي ذات فائدة عظيمة لعامة الناس فضلاً عن المريدين وذلك لأن الشيخ رضي الله عنه تجنّب أن يذكر فيها أي شيء عن العلوم والمعارف المعقدة التي ذكرها في داخل الكتاب. ولذلك فقد طبع هذا الباب منفرداً وتوجد منه عشرات الطبعات.

وقد قال الشيخ رضي الله عنه في الباب الثامن والأربعين إن ترتيب أبواب الفتوحات لم يكن عن اختياره ولا عن نظر فكري وإنما الحق تعالى يملي له على لسان ملك الإلهام جميع ما يسطره وأنه قد يذكر كلاماً بين كلامين لا تعلق له بما قبله ولا بما بعده؛ وذلك شبيهٌ بقوله سبحانه وتعالى في سورة البقرة: (حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾) بين آيات طلاق ونكاح وعدة ووفاة، وذلك لمناسبة خفيّة لا يدركها إلا أهل الكشف.[882] ولقد ذكرنا في الفصل الرابع أن الشيخ محيي الدين ذكر أنّ شيخه صاحب الصدقات الشيخ أبي العباس السبتي كان من الرجال القلائل الذين يعلمون المناسبة في ترتيب آيات القرآن الكريم (وليس فقط سوره)، وهذا علم عزيز.

ثم قال رضي الله عنه في الباب السادس والستين وثلاثمائة أن جميع ما يتكلم فيه في مجالسه وتصانيفه إنما هو من حضرة القرآن وخزائنه فإنه أعطي مفاتيح الفهم فيه والإمداد منه وهذا كله حتى لا يخرج عنه فإنه أرفع ما يمنح ولا يعرف قدره إلا من ذاقه.[883]

بعد وفاة الشيخ محيي الدين رحمه الله قام العديد من محبيه بشرح هذا الكتاب الكبير أو اختصاره وكذلك محاولة ترجمته إلى لغات مختلفة. فقد اختصرها الشيخ عبد الوهاب بن أحمد الشعراني المتوفى سنة ١٥٦٥/٩٧٣ في كتاب سماه "لواقح الأنوار القدسية المنتقاة من الفتوحات المكية". ثم لخص ذلك التلخيص ثانية في كتاب سماه "الكبريت الأحمر من علوم الشيخ الأكبر" من غير أن يخرج عن ترتيب الشيخ محيي الدين على خمسمائة وستين باباً، وكذلك في كتاب "اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر".

وهناك شروح أخرى كثيرة على بعض أبوب الفتوحات عمل عليها الكثير من العلماء أمثال عبد القادر الجيلي (توفي ١٤١٧/٨٢٠)، أحمد بن سليمان الخالدي (توفي ١٥٧٨/٩٨٦)، عبد الله البسنوي (توفي ١٦٤٤/١٠٥٤)، والشيخ عبد الغني النابلسي (توفي ١١٤٣/١٧٣٠). وكذلك توجد ترجمات لأجزاء منها باللغة التركية والفارسية والفرنسية والإنكليزية.

---

[882] الفتوحات المكية: ج٢ص١٦٣.

[883] الفتوحات المكية: ج٣ص٣٣٤.

ولكن بعض العلماء الذين لم يستطيعوا فهم هذا الكتاب العظيم استنكروه وكفّروا كاتبه كما سنرى في الفصل السابع: فكان الشيخ برهان الدين البقاعي مثلا يسمي هذا الكتاب "القبوحات الهلكية".

ألف ولد روحي للشيخ الأكبر (٩ جمادى الأولى ١٢٣٢/٦٢٩)

وفي هذه السنة يذكر الشيخ محيي الدين أنه رأى رؤيا تبشّره بأنه سيكون له ألف ولد روحي كما ذكر في كتاب المبشرات.[٨٨٤] ولقد تكلمنا من قبل عن معنى الأبوّة والبنوّة الروحية في الفصل الثاني عند الحديث عن فاطمة بنت المثنى التي تعتبر الأم الروحية لابن العربي والتي قالت لأمه الحقيقية نور: "يا نور هذا ولدي وهو أبوك فبرّيه ولا تعقّيه".[٨٨٥] ولقد وضع ابن العربي نظرية شاملة في معنى النكاح الروحي أو المعنوي يفسّر على أساسها بنية العالم وتركيبه،[٨٨٦] حيث يعتبر أن "كل مؤثر أب وكل مؤثّر فيه أم".[٨٨٧]

نظم الفتح المكي (~حلب، قبل ١٢٣٣/٦٣٠)

ومن الكتب التي ذكرها عثمان يحيى كتاب "نظم الفتح المكي"،[٨٨٨] ويبدو أن هذا الكتاب قد تمّ تأليفه قبل سنة ٦٣٠ أو خلالها وربما في حلب، وذلك لأن النسخة التي ذكرها عثمان يحيى عليها سماع بتاريخ ٦٣٠ بحلب، وكان القارئ والسامع محمد عابدين الأنصاري، والمسمع والناسخ هو ابن العربي.

لقاؤه بالقزويني (دمشق، ١٢٣٣/٦٣٠)

يقول عالم الجغرافيا العربي القزويني في كتابه "آثار البلاد وأخبار العباد" أنه لقي الشيخ محيي الدين في دمشق سنة ٦٣٠ وحكى له بعض القصص التي حصلت معه. ففي ذكره لإشبيلية يقول القزويني "ينسب إليها الشيخ الفاضل محمد ابن العربي الملقب بمحيي الدين، رأيته بدمشق سنة ثلاثين وستمائة، وكان شيخاً فاضلاً أديباً حكيماً شاعراً عارفاً زاهداً. سمعت أنه يكتب كراريس فيها أشياء عجيبة. سمعت أنه كتب كتاباً في خواص قوارع القرآن."

ثم يضيف: "ومن حكاياته العجيبة ما حكى أنه كان بمدينة إشبيلية نخلة في بعض طرقاتها، فمالت إلى نحو الطريق حتى سدّت الطريق على المارّين. فتحدّث الناس في قطعها حتى عزموا أن يقطعوها من الغد؛ قال: فرأيت رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، تلك الليلة في نومي عند النخلة، وهي تشكو إليه وتقول: يا رسول الله إن القوم يريدون قطعي لأني منعتهم المرور! فمسح رسول الله، عليه السلام، بيده المباركة النخلة فاستقامت. فلما أصبحت ذهبت إلى النخلة فوجدتها مستقيمة. فذكرت أمرها للناس فتعجبوا منها

---

[٨٨٤] المبشرات، مخطوطة فاتح ٥٣٢٢ (ص٩٢)، حسب ما ورد في كتاب كلوديا عداس "البحث عن الكبريت الأحمر"، ص٣٠٩.

[٨٨٥] الفتوحات المكية: ج٢ص٣٤٨.

[٨٨٦] الفتوحات المكية: ج٣ص٤٣٠.

[٨٨٧] الفتوحات المكية: ج١ص١٣٨.

[٨٨٨] مؤلفات ابن عربي: ص٦١٣.

واتخذوها مزاراً متبركاً به!"[889]

والقزويني هو أبو عبد الله زكريا بن محمد القزويني، ينتهي نسبه إلى أنس بن مالك عالم المدينة. ولد بقزوين في حدود سنة ١٢٠٨/٦٠٥، وتوفي سنة ١٢٨٣/٦٨٢. اهتم بعلم الفلك والطبيعة وعلوم الحياة، وله نظريات في علم الرصد الجوي. أشهر مؤلفاته كتاب "عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات" وكتاب "آثار البلاد وأخبار العباد".[890]

إجازة القونوي بكتاب الفصوص (١٢٣٣/٦٣٠)

ذكرنا من قبل أنه رغم كثرة تلاميذ الشيخ محيي الدين الذين كانوا يتجمعون لسماع كتبه المختلفة وخاصة الفتوحات المكية، فإننا لا نجد سماعات كثيرة لهذا الكتاب المهم الذي هو فصوص الحكم. وربما أثارت هذه المشكلة فكرة مغلوطة عند البعض فقال إن هذا الكتاب قد لا يكون فعلاً للشيخ محيي الدين، بل قد يكون منحولاً عليه. وهذا القول، رغم أنه أريد به الدفاع عن الشيخ محيي الدين وتنزيهه عن ما قيل في الفصوص من كلام قد يظنّ البعض أنه خارج عن العقيدة السليمة، فأقول هذا الكلام ليس له أصل من الصحة. فالإضافة إلى وجود سماع مصدق من المؤلف، فإن هناك العشرات من الشروحات التي قام بها تلاميذ الشيخ محيي الدين ومنهم المقربون منه أمثال صدر الدين القونوي، وبالتالي لا يمكن أن يكون هذا الكتاب لغير الشيخ الأكبر.

أما بخصوص ما يقال على خروج الشيخ في هذا الكتاب عن أصول العقيدة الإسلامية، فهذا أمر يحتاج إلى بحث مطوّل، والحقيقة أنه ليس في كلامه خروج عن الإسلام، إنما عن المفهوم العام المتداول للإسلام، ولكن يصعب على القارئ العادي غير المتمكّن من علم الكلام والفلسفة الخوض في أصول العقيدة.

ويبدو أن هذا هو السبب الحقيقي وراء عدم قراءة الشيخ محيي الدين لهذا الكتاب على عدد كبير من التلاميذ، لأنه ليس بوسع كل أحدٍ استيعاب ما فيه. فالفتوحات المكية رغم صعوبته، يعدّ كتاباً سهلاً لأي مريد فتح قلبه لعلوم الشيخ الأكبر لأن موضوعاته أبسط وأعم من الموضوعات التي طرحها الشيخ في كتبه الأخرى الأكثر تخصصاً، ولذلك لا يوجد بين أيدينا سوى سماع واحد لفصوص الحكم مقصور على تلميذه المقرب وولده المحبب صدر الدين القونوي،[891] في حين توجد عشرات السماعات للفتوحات المكية وغيرها. يضاف إلى ذلك كسبب لعدم وجود سماعات كثيرة لهذا الكتاب أنّ الشيخ محيي الدين قد كتبه متأخرا وربما يكون آخر كتاب له وذلك قبل وفاته ببضع سنوات كما رأينا أعلاه.

---

[889] آثار البلاد وأخبار العباد، تصنيف زكريا بن محمد بن محمود القزويني، دار صادر-بيروت، ١٩٦٠: ص٤٩٧.

[890] الزركلي، "الأعلام": ج٣ص٤٦.

[891] مؤلفات ابن عربي: ص٤٧٩.

رثاؤه للملك العزيز ابن الملك العادل (دمشق، يوم الاثنين ١٠ رمضان ٦٣٠)

والملك العزيز عثمان ابن العادل كان شقيق الملك المعظّم شرف الدين، الذي كان يحكم في السنوات الأولى من فترة إقامة الشيخ محيي الدين ابن العربي في دمشق حتى سنة ١٢٢٧/٦٢٤. والملك العزيز هو الذي بَنى قلعة الصبيبة وكانت له هي وبانياس وتبنين وهونين. يقول عنه الذهبي في "تاريخ الإسلام" أنه كان عاقلاً قليل الكلام وكان تبعاً لأخيه المعظّم. توفّي ببستانه المعروف بالنّاعمة ببيت لهيا في عاشر رمضان، ودفن بالتّربة المعظّمية بقاسيون.[٨٩٢]

فلما مات الملك العزيز ابن الملك العادل في دمشق قال الشيخ محيي الدين ابن العربي في الديوان الكبير يرثيه:[٨٩٣]

طلبــــتْ ذلـــــولُ[٨٩٤] عزيزهـــا لتذيلـــه ... عـــن ظهرهـــا، كرمـــاً بـــه، فأجابـــا
عـــن إذن خالقهـــا دعتـــه لنفـــسها ... فلـــذاك لبّـــى طائعـــاً وأنابـــا
قـــد ألبـــسته مـــن الـــتراب لغـــيرة ... قامـــت بهـــا، حبّـــا لـــه، جلبابـــا
ممـــا تحـــب مقامـــه في بطنهـــا ... ألقـــتْ عليـــه جنـــادلا[٨٩٥] وترابـــا
حتـــى يقـــيم بهـــا إلى اليـــوم الـــذي ... يُـــدعى ليحـــضر موقفـــا وحـــسابا
فيفـــوز بـــالخير الأعـــمّ ويعتلـــي ... نحـــو الكثيـــب ليبـــصر الأحبابـــا

رؤيته ليلة القدر (ليلة الجمعة ١٩ ربيع الأول ١٢٣٣/٦٣١)

يذكر الشيخ محيي الدين في الديوان الكبير أنه رأى ليلة القدر ليلة التاسع عشر من شهر ربيع الأول سنة إحدى وثلاثين وستمائة، فقال في ذلك شعرا:[٨٩٦]

مـــا ليلـــة القـــدر إلا ذات رائيهـــا ... وهـــي الـــدليل علـــى الخـــير الـــذي فيهـــا
تحـــوي علـــى كـــلّ خـــير قيّدتـــه لنـــا ... بـــألف شـــهر وذاك القـــدر يكفيهـــا
ولم يقيّـــد بـــشيء مـــا يزيـــد علـــى ... مـــا قيّدتـــه لنـــا حتـــى يوفّيهـــا
فلـــيس يحـــصر غـــير الـــذات في عـــدد ... لأنـــه خـــير ربّ مـــودع فيهـــا
وخـــيره ســـرمديّ لا انقـــضاء لـــه ... فـــالله يحرســـها والله يكفيهـــا
مـــن كـــل عـــين تؤديهـــا إلى عطـــب ... ولـــو قـــد ســـعينا في تلافيهـــا

---

[٨٩٢] الذهبي: "تاريخ الإسلام": حوادث وفيات ٦٢١–٦٣٠ (ص٣٩٣). وترجمة الملك العزيز عثمان انظر أيضاً: "نهاية الأرب": ج١٩ص١٩٠، "مرآة الجنان": ج٤ص٦٩، "البداية والنهاية": ج١٣ص١٣٧، "النجوم الزاهرة": ج٦ص٢٨١، "شذرات الذهب": ج٥ص١٣٦.

[٨٩٣] الديوان: ص٢٢٤.

[٨٩٤] الذلول صفة للأرض.

[٨٩٥] الجنادل جمع جندل وهي الحجارة.

[٨٩٦] الديوان: ص٢٦٤.

وليلة القدر هي الليلة التي أُنزل فيها القرآن الكريم وسميت بهذا الاسم لأنها ليلة ذات قدر عظيم فقد فضّلها الله سبحانه وتعالى على سائر الليالي وجعلها خيراً من ألف شهر، وقيل سمّيت بهذا الاسم لأنّ الله تعالى يقدّر فيها الأرزاق والآجال، كما قال تعالى في سورة الدخان: (فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾).

وفي صحيح البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال: "من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه". وقد وردت عن النبي صلّى الله عليه وسلّم بعض الأحاديث أنها ليلة إحدى وعشرين، وليلة ثلاث وعشرين، وخمس وعشرين، وسبع وعشرين، وتسع وعشرين، وآخر ليلة في شهر رمضان. وقد اختلف العلماء في تحديد ليلة القدر، وذلك على أكثر من أربعين قول ذكرها الحافظ ابن حجر في فتح الباري،[٨٩٧] وأغلب العلماء يقولون أنها في أوتار العشر الأواخر من رمضان، كما في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يجاوز في العشر الأواخر من رمضان، ويقول: التمسوا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان".[٨٩٨]

قال الله تعالى في سورة القدر: (إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾)، وقال في سورة الدخان: (حم ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾)، ولأن الله تعالى يقول في سورة البقرة: (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ...﴿١٨٥﴾)، فيعتقد الكثير من العلماء أنها لا تكون في غير شهر رمضان.

ولكن الحقيقة، كما يقول الشيخ محيي الدين أنها قد تكون في أي يوم من أي شهر ولكنها أكثر ما تكون في أوتار العشر الأواخر من شهر رمضان. فهو يقول في الباب الواحد والسبعين عند حديثه عن قيام ليلة القدر أنه رآها في شعبان وفي شهر ربيع وفي شهر رمضان، وأكثر ما رآها في شهر رمضان وفي العشر الآخر منه، ورآها مرّة في العشر الوسط من شهر رمضان في غير ليلة وتر وفي الوتر منها، ويضيف أنه على يقين من أنها تدور في السنة في وتر وشفع من الشهر الذي تُرى فيه.[٨٩٩]

ويضيف الشيخ محيي الدين في الباب الثاني والثلاثين وأربعمائة أن الله أنزل الكتاب فرقاناً في ليلة القدر ليلة النصف من شعبان وأنزله قرآناً في شهر رمضان إلى السماء الدنيا، ومن هناك نزل في ثلاث وعشرين سنة فرقاناً نجوماً ذا آيات وسور.[٩٠٠]

---

[897] "فتح الباري"، لابن حجر العسقلاني، ج٤ ص٣١٩، ص٣٢٣-٣٤١.

[898] حديث متفق عليه.

[899] الفتوحات المكية: ج١ ص٦٥٨، ج٤ص٤٨٦.

[900] الفتوحات المكية: ج٣ص٩٤.

المطاطين والسقاطين (ليلة الاثنين ٢٨ ربيع الآخر ١٢٣٤/٦٣١)

يقول الشيخ محيي الدين رضي الله عنه أنه رأى الحق في النوم ليلة الاثنين الثامن والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة إحدى وثلاثين وستمائة وهو ينهاه عن مجالسة ثلاثة أصناف من الناس: المطاطين والسقاطين، وأنسي الثالثة. فسأل ابن العربي: يا رب، وما المطاطون؟ فقال: الذين يمدّون العالم إلى غير نهاية في الابتداء، وإني ابتدأت العالم بالخلق. فقال ابن العربي: وما السقّاطون؟ فقال تعالى: الذين يأتون بسقط الكلام ليضحكوا به الناس، وهي من سخط الله، فإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيهوي بها في النار سبعين خريفا.[901] فقال ابن العربي في النوم شعرا:[902]

نهـاني الحـق في الغطـط	عـن المطـاط والسـقط
وانـي لا أجـالس مـن	يكـون بمثـل ذا النـمط
وأفهمـني بـأن أحظـى	بـه في العـالم الوسـط

والغطط هو النوم، كما ورد في الحديث عن نوم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن له غطيطا.[903]

وهذا التقرير ردّ بيّن على من اتّهم الشيخ محيي الدين بأنه يقول بقدم العالم، كما أورد محقق الديوان نفسه أن الذهبي نقل عن ابن دقيق العيد أنه سمع الشيخ عزّ الدين ابن عبد السلام يقول عن ابن العربي: "شيخ سوء كذّاب يقول بقدم العالم ولا يحرّم فرجاً". وهذا بلا شكّ قذف وافتراء وبهتان عظيم، ويقول الله تعالى في سورة الأحزاب ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾. ومن غير المستبعد أن يكون هذا الكلام مكذوباً على الشيخ عزّ الدين فلا نظنّ أنه يقول مثل ذلك لأنه شيخ جليل، وقد نقل الذهبي هذا الكلام في "تاريخ الإسلام" بطريقين مختلفين عن ابن تيمية، وسوف نناقش هذا الموضوع بشكل مستفيض في الفصل السابع والأخير إن شاء الله تعالى.

كتاب نتائج الأذكار (بعد ١٢٣٤/٦٣١)

يذكر عثمان يحيى في تصنيفه لكتب الشيخ محيي الدين كتاب "نتائج الأذكار في المقربين والأبرار"،[904] وهو أحد الكتب المذكورة في الفهرس (رقم ١٨٩)، وفي الإجازة (رقم ١٩٧)، ولم يذكر الدكتور عثمان أي شيء عن محتويات هذا الكتاب ولو أن ذلك واضح من العنوان، ولكنه يذكر أن مؤلف الكتاب يشير إلى حادثة حدثت سنة ٦٣١، فيبدو أن هذا الكتاب قد تم تأليفه بعد هذا التاريخ.

---

[901] رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه (٦١١٣)، وروى مثله مسلم في (٢٩٨٨)

[902] الديوان: ص٣٠١.

[903] ورد ذلك في عدد من الأحاديث الصحيحة في البخاري ومسلم وغيرها. انظر في: صحيح البخاري: الجزء الأول، أبواب العمرة، رقم ١٩٦٧، صحيح مسلم: الجزء الثاني، كتاب الحج، رقم ١١٨٠، كنز العمال: رقم ٣٧٠٨٧، ٤٢١٧٨.

[904] مؤلفات ابن عربي: ص٦٠٤.

إجازة الملك المظفر ابن الملك العادل (دمشق، غرة محرم ٦٣٢/١٢٣٤)

ومن الرسائل المهمة التي حفظت لنا جزءا من أسماء كتب الشيخ محيي الدين هي الإجازة التي كتبها الشيخ رضي الله عنه للملك المظفر بهاء الدين غازي ابن الملك العادل الأيوبي وذكر فيها العديد من أشياخه بالإضافة إلى حوالي ٢٩٠ مصنفا من مصنفاته. كتب الشيخ الأكبر رضي الله عنه هذه الإجازة في غرة محرم سنة ٦٣٢ وقد توفي الملك المظفر سنة بعد ثلاث سنوات في الرابع من شهر محرم سنة ٦٣٥/١٢٣٧. ويوجد العديد من المخطوطات لهذه الرسالة وفيها بعض الاختلاف البسيط، الذي قد يكون ناتجا عن النسخ، فيما يخص عدد المصنفات،[905] وقد نشرت هذه الرسالة في القاهرة،[906] وذكرها أيضاً الشيخ يوسف النبهاني في جامع كرامات الأولياء.[907] ولقد ذكرنا هذه المصنفات بأرقامها في الملحق الثاني في آخر هذا الكتاب.

بداية النسخة الثانية من الفتوحات (دمشق، ٦٣٢/١٢٣٥)

بعد أن أنهى الشيخ محيي الدين النسخة الأولى من الفتوحات المكية وبدت بشكل مكتمل بلغ أكثر من عشرة آلاف صفحة بدأ يعيد النظر فيها ويضيف في بعض المواضع ويحذف في مواضع أخرى.

وربما يثير هذا تساؤلاً مشروعاً وهو أنه يدّعي في بداية الفتوحات كما ذكرنا أعلاه وكذلك في كتبه الأخرى أنها ليست من بنات أفكاره بل هو ما يكتب إلا ما يُفتح عليه به ولذلك ربما يقدّم ويؤخّر ... إلخ. ونقول إن هذا تساؤلٌ مشروعٌ ولكنه لا يقدح في صحة كلام الشيخ رضي الله عنه لأن موضوع النسخ انطبق حتى على القرآن الكريم وذلك لتأكيد "حكم الوقت" على مجريات الأحداث ولو كانت المسألة لا تظهر إلا بشكلها النهائي المقدور في الغيب لا يكون هناك أي معنى للحياة كلّها إذ يمكن لله تعالى أن يخلق الخلق ويضعهم في مراتبهم النهائية من غير سير ولا سلوك، وهذا أمر لا يكون. ولذلك هناك ما يسمّى باللوح المحفوظ، وهناك لوح المحو والإثبات، فيمحو الله ما يشاء ويثبت في اللوح الأول، وعنده أمّ الكتاب وهو اللوح المحفوظ.

فإذاً لا يتعارض التعديل الذي أجراه الشيخ محيي الدين على النسخة الأولى من الفتوحات المكية مع كونها جاءته عن طريق الإلهام كما رأينا، بل إن التعديل نفسه هو أيضاً إلهام. وفي الحقيقة، فإن كلّ شيء إنما هو إلهام من الله تعالى في بادئ الأمر، وهو ما يُعرف بالخاطر الأول، ثم إن تردّد في الفكر دخل عليه الخلط. فالخاطر الأول يكون إلا ربانيا ولهذا يصدق ولا يخطىء أبداً.[908]

---

[905] مؤلفات ابن عربي: ١٦٦.

[906] مجلة الأندلس، سنة ١٩٥٥، المجلد ٢٠.

[907] جامع كرامات الأولياء، تأليف يوسف بن إسماعيل النبهاني، تحقيق ومراجعة إبراهيم عطوة عوض، المكتبة الثقافية-بيروت،١٩٩١: ج٢ص٢٠٢.

[908] للمزيد عن "الخواطر" انظر في الفتوحات المكية: ج١ص٢٨١-٢٨٤، ج٢ص٥٦٢-٥٦٦، وكذلك في "سلوك القلب": ص١٥٨-١٦٦.

سماعات الفتوحات (دمشق، ١٢٣٦/٦٣٣ حتى ١٢٣٩/٦٣٨)

بعد أن أنهى الشيخ محيي الدين النسخة الأولى من الفتوحات المكية بدأ يدرّسها لتلاميذه ويقرأ منها عليهم، وبسبب كبر حجم هذه الموسوعة الصوفية التي استغرقت كتابتها ثلاثين سنة، فمن غير الممكن أن تتم قراءتها دفعة واحدة. ولذلك نجد العديد من السماعات المختلفة على أجزاء من الفتوحات. وقد قام الدكتور عثمان يحيى بإحصاء عدد كبير من هذه السماعات في تصنيفه لكتب الشيخ الأكبر، وقد تمّت هذه السماعات بين سنة ٦٣٣ وحتى وفاة الشيخ الأكبر سنة ٦٣٨، ثم استمرّت بعده عن طريق تلميذه ابن سودكين. ومن الملاحظ أن عدد المستمعين أكثر بشكل ملحوظ عنهم في السماعات للكتب الأخرى، وربما يكون سبب ذلك لسهولة قراءة هذا الكتاب وكون موضوعاته أبسط وأعم من الموضوعات التي طرحها الشيخ في كتبه الأخرى الأكثر تخصصا، ولذلك نجد مثلا أنه لا يوجد بين أيدينا سوى سماع واحد لفصوص الحكم مقصور على تلميذه المقرب وولده المحبب صدر الدين القونوي.[٩٠٩]

وهذه بعض أسماء الأشخاص الذين كانوا يحضرون سماع الفتوحات المكية كما ذكرهم عثمان يحيى:

إبراهيم الخلال	إبراهيم بن أبي بكر الصنهاجي
إبراهيم بن علي بن إبراهيم السجّاد	إبراهيم بن عمرو بن عبد العزيز القرشي
إبراهيم بن محمد الأنصاري القرطبي	أبناء عبد القادر بن عبد الخالق الصائغ
أبو العز بن أبي الوحش الخزرجي	أبو القاسم محمد بن أبي الفتح الحريري
أبو بكر بن سليمان الحموي وابنه جمال	أبو بكر بن محمد بن أبي بكر البلخي
أبو عبد الله بن إبراهيم الإربيلي	أحمد العلوي
أحمد بن عبد الرحيم البنّان	أحمد بن محمد التكريتي
أحمد بن محمد بن إبراهيم (ابن زرافة)	إسماعيل بن سودكين
آصف بن عبد الله الملطي	بركة بن حسن بن ملك الهلالي

أم دلال بنت أحمد بن مسعود بن شدّاد المقري الموصلي (من شيوخ ابن العربي)

أم رسلان بنت أحمد بن مسعود بن شداد المقري الموصلي

حسن بن محمود المروزي	حسين بن محمد الموصلي
عباس بن عمر الأنصاري	عبد العزيز بن عبد القوي بن الجبّاب
عبد الغفار بن طلائع	عبد الله بن عبد الوهاب بن شجاع
عبد الله بن محمد الأندلسي	عبد المنعم بن مظفر المصري
عثمان بن نصر الله بن هلال	عفيف الدين بن سليمان بن علي التلمساني

[909] مؤلفات ابن عربي: ص٤٧٩.

علي بن أبي الغنائم الغسال
علي بن المظفر بن قاسم النشبي
علي بن عبد العزيز بن تميم
علي بن محمد بن أبي الرجاء
علي بن محمود الحنفي
عمران بن حبيش بن علي الحوراني
عيسى بن إسحاق الهذباني
كمال الدين بن علي بن ماجد الحريري
مجد الدين بن بنداري التبريزي
محمد بم محمد بن جمعة البلنسي
محمد بن إبراهيم بن خضر
محمد بن أبي القاسم الطبري
محمد بن أبي القاسم الأهوازي
محمد بن إسحاق بن محمد القونوي
محمد بن برنقش المعظمي
محمد بن صدّيق سهراب الأهدي
محمد بن عبد العزيز الأنصاري
محمد بن عزّ الدولة بن موسى التركي
محمد بن علي المطرّزي
محمد بن علي بن الحسين الإخلاطي
محمد بن يوسف البرزالي
محمد سعد الدين ابن العربي
محمد عماد الدين ابن العربي
محمود الريحاني (الزنجاني)
مذكور بن حبي بن حسين الصلخدي
مظهر بن محمود الحنفي
موسى بن زيد بن جابر
موسى بن يحيى بن علي القرشي
نجم الدين ن عبد السلام بن محمد
نصر الله بن أبي العز الصفار
يحيى بن إسماعيل بن محمد الملطي
يحيى بن علي القرشي
يعقوب بن معاذ الوربي
يوسف بن الحسين النابلسي
يونس بن عثمان الدمشقي
يوسف بن عبد اللطيف البغدادي
يوسف بن درباس بن يوسف الحميدي (ابن أخت ابن سودكين)

قراءة كتب القربة وأيام الشأن وتاج الرسائل (دمشق، ١٢٣٦/٦٣٣)

بالإضافة إلى السماعات السابقة على هذه الكتب التي ذكرناها من قبل، فهناك سماع آخر للشيخ محيي الدين على بعض تلاميذه مؤرخ بهذه السنة في بيته بدمشق، ويبدو أن سماع هذه الكتب الثلاثة كان في أوقات متقاربة لنفس مجموعة التلاميذ تقريبا. وكان القارئ هو علي بن مظفر النشبي، ومن المستمعين: الحسين بن إبراهيم الإربيلي، عبد العزيز بن عبد القوي بن الجباب السعدي، محمد بن يوسف البرزالي، نصر الله بن أبي العز الصفار، محمد عماد الدين ابن العربي ومحمد سعد الدين ابن العربي أبناء الشيخ محيي الدين، محمد بن برنكوش المعظمي، محمد بن أحمد بن أبي عيسى الميورقي، عيسى بن إسحاق الهذباني، يونس بن عثمان الدمشقي، يعقوب بن معاذ الوربي، إبراهيم بن محمد الحضري، إبراهيم بن عمر بن عبد العزيز القرشي وهو الناسخ.[٩١٠]

[٩١٠] مؤلفات ابن عربي: ص٥٧٨.

تأليف الديوان الكبير (دمشق، ١٣ ذي الحجة ١٢٣٨/٦٣٤)

بالإضافة إلى استمراره بقراءة كتاب الفتوحات المكية، استمر الشيخ الأكبر بالتأليف، ومن المؤلفات الجليلة التي كتبها في هذه الفترة "الديوان الكبير" وهو ديوان شعر صوفي يتضمن مئات القصائد، بالإضافة إلى ذكر بعض القصص والمبشرات التي رآها الشيخ محيي الدين قبل ذلك التاريخ.

وقد طبع هذا الدين في القاهرة سنة ١٨٥٤/١٢٧٠ ثم طبع طبعات حديثة كثيرة، كما توجد له بعض الشروحات.[911]

قراءة كتاب التنزلات الموصلية (دمشق، ١٢٣٧/٦٣٤)

وفي هذه السنة قرأ الشيخ الأكبر كتاب التنزلات الموصلية مرة أخرى على محمد بن أبي بكر البلخي،[912] وقد تكلمنا على هذا الكتاب من قبل حيث ألفه الشيخ في الموصل أثناء زيارته لها سنة ٦٠١.

رؤيته للعز ابن عبد السلام (دمشق، ~١٢٣٨/٦٣٥)

يتناقل كتاب التاريخ أخباراً متناقضة حول رأي الشيخ العز بن عبد السلام بالشيخ محيي الدين ابن العربي، وسوف نناقش هذه الآراء لاحقاً في الفصل الأخير إن شاء الله تعالى. ولكن يبدو من الرواية التالية، رغم أنها جرت في النوم، أن العلاقة بينهما كانت علاقة ودّ ومحبة. يذكر الشيخ محيي الدين في الديوان الكبير أنه رأى في الواقعة العزّ بن عبد السلام الفقيه الشافعي وهو على مصطبة كالمدرسة يعلّم الناس المذهب، فقعد ابن العربي إلى جانبه فرأى إنسانا قد أتى إليه يسأله عن كرم الله تعالى، فكان ينشده بيتا في عموم كرم الله بعباده. فقال له الشيخ محيي الدين: إن لي في هذا المعنى بيتا من قصيدة، ولكنّه لم يتذكّره في ذلك الوقت، ولكنه قال: إن الله أجرى على لساني في هذا الوقت في هذا المعنى ما أقوله لك الآن. فقال العزّ وهو يتبسّم: قل، فيقول الشيخ محيي الدين أن الله أنطقه بأبيات لم تطرق سمعه من قبل، وهي:

الله أكـــــرم أن يحظـــــى بنعمتـــــه	الطـــائعون ويـــشقى المجـــرم العاصـــي
وإن شـــقي فكـــآلامٍ يـــصيب بهـــا	المـــؤمنين، فمـــن دان ومـــن قاصـــي
ولكـــنهم عـــالم بـــالله مـــستندٌ	إليـــه مفلـــسهم وربّ أوقـــاص"[913]

فيقول الشيخ محيي الدين أن العزّ ابن عبد السلام كان يتبسم، فبينما هم كذلك إذ مرّ القاضي شمس الدين الشيرازي، فلما رأى الشيخ محيي الدين نزل عن بغلته وجاء فقعد إلى جانب العزّ بن عبد السلام، ثم أقبل على الشيخ الأكبر وقال له: أريد أن تقبلني في فمي، ثم ضمّه فقبله الشيخ في فمه. فقال العزّ بن عبد السلام" ما هذا؟ فقال له الشيخ محيي الدين: أنا في رؤيا، والتقبيل قبول يطلبه مني، فإنه شخص قد

---

[911] مؤلفات ابن عربي: ص٣١٥.

[912] مؤلفات ابن عربي: ص٣٦٢.

[913] الأوقاص هم الزعانف من الناس.

حسن الظن بي وقد خطر له قصر أمله وقبيح عمله واقتراب أجله. ثم قام الشيخ محيي الدين فعضده حتى ركب وانصرف."[914]

ويبدو أن هذه القصة حدثت قبل سنة ٦٣٥ بقليل حيث توفي القاضي ابن الشيرازي وهو محمد بن هبة الله بن محمد بن هبة الله أبو نصر الشيرازي ثم الدمشقي الملقب شمس الدين (٥٤٩/١١٥٤–١٢٣٨/٦٣٥)، ولي القضاء ببيت المقدس والشام، ودرّس بمدرسة العماد الكاتب ثم بالشامية الكبرى.[915]

وأما العزّ بن عبد السلام (٥٧٧/١١٨١–٦٦٠/١٢٦٢) فهو أبو محمد عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السُلمي، الفقيه المجتهد الشافعي. وسنتكلم عنه أيضاً في الفصل السابع إن شاء الله.[916]

القاضي شمس الدين أحمد بن مهذب الدين خليل الخُوَيِّي (دمشق)

ذكرنا من قبل أن الشيخ محيي الدين قد عُرضت عليه مناصب في الدولة ولكنه رفضها وآثر التفرّغ لله تعالى. فلقد نبّه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم على خطورة ذلك، فقال مثلا في الحديث: "من ولي القضاء فقد ذبح نفسه بغير سكين."[917]

ولكن هذا لا يعني أنه لا يجوز العمل في مصالح المسلمين، ولكن مثل هذه الأحاديث تنبّه إلى خطورة المسألة وأنه لا يجوز التهاون فيها. فيقول الشيخ محيي الدين في الباب الواحد وثمانين وثلاثمائة أثناء حديثه عن أهمية الرؤيا أنه رأى رؤيا لقاضي دمشق شمس الدّين أحمد بن مهذّب الدّين خليل الخويي عندما ولي القضاء بدمشق أن قائلا يقول له في النوم: "إن الله قد خلع عليك ثوباً نقياً سابغاً فلا تدنّسه ولا تقلّصه!" فلما استيقظ الشيخ ذكرها له ودعا له الله أن يجعله ممن حفظ الوصية الإلهية.[918]

والخُوَيِّيّ (٥٨٣/١١٨٧–٦٣٧/١٢٤٠) هو أحمد بن الخليل بن سعادة بن جعفر بن عيسى البرمكي، شمس الدين أبو العباس الخويي، قاضي قضاة الشام، أصله من أذربيجان ورحل إلى خراسان، ثم تلقى العلم على أكابر علماء بغداد وحلب ودمشق، فبرع واشتهر حتى ولي منصب قاضي القضاة بالشام بالإضافة إلى التدريس بالمدرسة العادلية، وكان فقيهاً شافعياً، متكلّماً، عارفاً بالطب والحكمة والعروض.[919]

---

[914] الديوان: ص٢٤١–٢٤٢.

[915] لترجمة القاضي ابن الشيرازي انظر في "سير أعلام النبلاء": ج٢٣ص٣١–٣٤، "تاريخ الإسلام": (سنة ٦٣١-٦٤٠هـ) ص٢٤٣ برقم ٣٦٩، "الوافي بالوفيات": ج٥ص١٥٧ برقم ٢١٨٧، "طبقات الشافعية الكبرى للسبكي": ج٨ص١٠٦ برقم ١٠٩٨، "البداية والنهاية": ج١٣ص١٦٢، "النجوم الزاهرة": ج٦ص٣٠٢، "شذرات الذهب": ج٥ص١٧٤.

[916] "الوافي بالوفيات": ج١٨ص٥٢٠ برقم ٥٢٢، "فوات الوفيات": ج٢ص٣٥٠، "مرآة الجنان": ج٤ص١٥٣، "طبقات الشافعية الكبرى للسبكي": ج٨ص٢٠٩ برقم ١١٨٣، "البداية والنهاية": ١٣ص٢٤٨، "عقد الجمان": ج٢ص٦٥٩، "طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة": ج٢ص١٠٩ برقم ٤١٢، "النجوم الزاهرة": ج٧ص٢٠٨، "طبقات الشافعية لابن هداية الله": ص٨٥، "شذرات الذهب": ج٥ص٣٠١، "الأعلام": ج٤ص٢١.

[917] رواه الترمذي في "كتاب الأحكام": رقم ١٣٢٥.

[918] الفتوحات المكية: ج٣ص٥٠٨.

[919] من أجل ترجمة الخويّي انظر في "بغية الطلب في تاريخ حلب": ج٢ص٧٣٤، "سير أعلام النبلاء": ج٢٣ص٦٤ برقم ٤٧، "الوافي

تأليف مجموعة كتب (دمشق، ١٢٣٨/٦٣٥)

بالإضافة إلى استمراره بقراءة كتاب الفتوحات المكية، وكتابة النسخة الثانية منه، استمر الشيخ محيي الدين بكتابة مجموعة أخرى من الكتب. منها: عين الأعيان، انخراق الجلود، الرد على اليهود، خاتمة الرد على اليهود، خروج الشخوص، كشف سر الوعد، نزول الجبار.[٩٢٠]

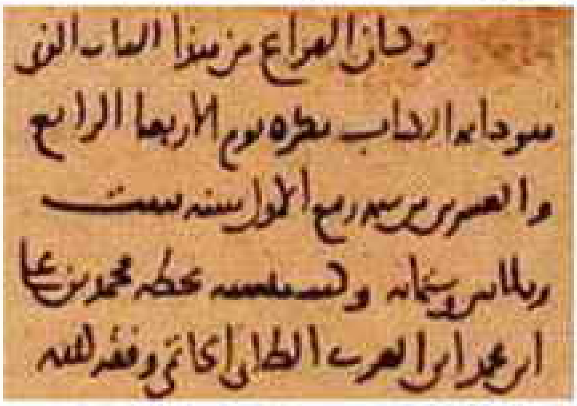
وكانت معظم هذه الكتب مفقودة ثم طبعت مؤخرا،[٩٢١] اعتمادا على مخطوطة متحف بغداد رقم ٥٩٧ المؤرخة بتاريخ ٦٣٥، في حين أن تأليف هذه الكتب يفترض أن يكون قد تم بعد ذلك، ولذلك يمكن أن تكون هذه الكتب منحولة وليست للشيخ محيي الدين.

تأليف مجموعة كتب (دمشق، ١٢٣٨/٦٣٦)

وكذلك في هذه السنة كتب الشيخ محيي الدين مجموعة من الكتب منها: بقية الرد على اليهود، المقدار في نزول الجبار، شرح مبتدأ الطوفان، نثر البياض.[٩٢٢]

وطبعت هذه الكتب أيضاً ضمن المجموعة السابقة اعتمادا على مخطوطة متحف بغداد، وكذلك من المحتمل أن تكون هذه الكتب منحولة.

النسخة الثانية من كتاب الفتوحات المكية (٢٤ ربيع الأول ١٢٣٨/٦٣٦)



ذكرنا أعلاه أنّ ابن العربي بعد أن أنهى النسخة الأولى من الفتوحات المكية بدأ بإعادة كتابتها من جديد حيث أضاف وحذف وعدّل عليها. وكما ذكر الشيخ محيي الدين في نهاية مخطوطة قونية التي كتبها بخط يده أنه كان الفراغ منها بكرة يوم الأربعاء الرابع والعشرين من ربيع الأول سنة ستّ وثلاثين وستمائة.

السنة ١٢٣٩/٦٣٧

في هذه السنة تابع الشيخ محيي الدين قراءة الفتوحات المكية على تلاميذه كما ذكرنا أعلاه.

بالوفيات": ج٦ص٣٧٥ برقم ٢٨٧٨، "هدية العارفين": ج١ص٩٢، "الأعلام": ج١ص١٢١،

[920] مؤلفات ابن عربي: ص٤٢٦، ٢٠٦، ٢٣٤، ٣٠٣، ٣٠٤، ٥٢٧، ٦٠٧ (على التسلسل).

[921] رسائل ابن عربي: شرح مبتدأ الطوفان ورسائل أخرى، تحقيق قاسم عباس وحسام عجيل، المجمع الثقافي في أبو ظبي، ١٩٩٨.

[922] مؤلفات ابن عربي: ص٢٢١، ٣٦٦، ٦٠٥ (على التسلسل).

مقام العبودية المحضة

إن خير وصف يوصف به الإنسان بالنسبة لله تعالى هو العبودية ولذلك قال الله تعالى في بداية سورة الإسراء عن النبي صلّى الله عليه وسلّم عندما أسرى به إلى المسجد الأقصى: (سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ... ﴿١﴾) وقال عن الخضر عليه السلام في سورة الكهف: (...عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ...﴿٦٥﴾)، والكل على الحقيقة عباد الله سواء الملائكة أو الجن أو الإنس كما يقول الله تعالى في سورة مريم (إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾).

ولكن العبودية لها مراتب لأنها تتعلق بأسماء الله تعالى الفاعلة في الكون، فمثلاً إن الذي يطلب الرزق هو عبد الرزاق والذي يطلب المغفرة هو عبد الغفور والذي يطلب العلم هو عبد العليم وهكذا كل عبد يتعلق تلقائياً باسم من أسماء الله الحسنى أو ببعضها، فأعظم هذه المراتب في العبودية هو العبد الذي يتعلق بالاسم الجامع وهو اسم الله سبحانه تعالى الذي هو اسم الذات الإلهية من غير نظرٍ لأيّة نسبة معينة. ولكن التحقق في هذا المقام هو المطلوب وليس فقط الدعوى، فليس كلّ من سمّي عبد الله هو عبدٌ لله وحده.

ففي الليلة التي كتب فيها الشيخ الأكبر الباب الأحد عشر وثلاثمائة من الفتوحات المكية رأى رؤية عظيمة سرّ بها كثيرا واستيقظ وهو ينشد بيتاً كان قد عمله قبل ذلك في نفسه وهو من باب الفخر وهو:

في كــل عــصر واحــد يــسمو بــه ... وأنــا لبــاقي العــصر ذاك الواحــد

وحُقّ له أن يفخر لأنه يقول إنه لا يعرف في ذلك اليوم في علمه من تحقق بمقام العبودية أكثر منه وإن كان ثمّ فهو مثله فإنه بلغ من العبودية غايتها فهو العبد المحض الخالص لا يعرف للربوبية طعماً."[923]

ولقد ذكرنا القصيدة الكاملة التي منها هذا البيت في بداية الفصل الأول وشرحناها في آخره وقلنا هناك أن هذا البيت منقوش على مدخل الحجرة التي فيها ضريح الشيخ محيي الدين في دمشق.

الأوتاد في الشام (دمشق)

لقد ذكرنا بعض الأحاديث النبوية الشريفة أعلاه حول سبب تفضيل الشام، ورأينا أن بعض هذه الأحاديث تحدد أن "الأبدال في أهل الشام، وبهم يُنصرون، وبهم يُرزقون" وأن "الأبدال بالشام، وهم أربعون رجلا، كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلا: يُسقى بهم الغيث، ويُنتصر بهم على الأعداء، ويُصرف عن أهل الشام بهم العذاب".

وبالإضافة إلى ذلك فإن الشيخ محيي الدين يقول إنه رأى الأوتاد أيضاً في دمشق. وقد ذكرنا كذلك في الفصول السابقة التسلسل الهرمي للأولياء والذي يعلوه القطب ثم الإمامان ثم الأوتاد الأربعة الذين يقول الشيخ محيي الدين أنه لقيهم بدمشق فعرف أنهم هم وقد كان رآهم ببلاد الأندلس واجتمعوا به ولم

---

[923] الفتوحات المكية: ج٣ص٤١.

يكن يعلم أن لهم هذا المقام، بل حسبهم من جملة عباد الله.[924]

تلبيس الخرقة لبعض النساء

ذكرنا من قبل أن الشيخ محيي الدين لم يكن يعتقد بلباس الخرقة كما جرت عليه عادة الصوفية، ولكنه لمّا لبسها في إشبيلية وفي فاس وفي الموصل من يد رجال لبسوها عن طريق سلسلة من الشيوخ تعود إلى الخضر عليه السلام، حينئذ أصبح يقول بها فلبسها وألبسها عدداً من مريديه. ويبدو أنه لما استقر في دمشق وتكاثر حوله المريدون تكاثرت طلبات لباس الخرقة عليه فألبسها لبعضهم كما ذكر في الديوان الكبير.

ونلاحظ أن أكثر الذين ألبسهم الخرقة كانوا من النساء من أهله وأقربائه وغيرهم: فمنهم مثلا حفيدته صفيّة وهي بنت ابنته زينب التي تحدثنا عنها في الفصل الخامس، وكذلك ألبس الخرقة لبعض النساء اللاتي لا نعرف نسبتهن له ومن غير المستبعد أن يكونوا من الجيران أو من بني الزكي الذين كانوا يحتفون به كثيرا كما ذكرنا. فذكر أنه ألبس الخرقة لـ"فاطمة"، و"صفية" و"ست العيش" و"دنيا" (ويدعوها ابنته) و"شرف" و"ست العابدين" (في مكة المكرّمة) و"بنت زكي الدين" و"أم محمد" و"زمرد" و"زينب" و"جميلة" وغيرهن.[925] وربما لكون أكثر الذين ألبسهم الخرقة كانوا من النساء كان ذلك يتم في المنام على الأغلب. وتجدر الإشارة إلى الشيخ محيي الدين رضي الله عنه كان في هذه المرحلة يقارب السبعين سنة من العمر وربما يزيد.

فقال مثلا في الديوان الكبير:[926]

لبست صفيّة خرقة الفقراء	لمّا تحلّت حلية الأمناء
وأتت بكلّ فضيلة وتنزّهت	عن ضدّها فعَلت[927] عن النظراء
وتكاملت أخلاقها وتقدّست	وتخلّقت بجوامع الأسماء
جاءت لها الأرواح في محرابها	فهي البتول أخيّة العذراء[928]
وهي الحَصان فما تزنّ بريبة	وهي الرزان شقيقة الحمراء
نزلت تبشّرها ملائكة السما	ليلاً بنيل وراثة النبّاء

قراءة كتاب التنزلات الموصلية (دمشق، ١٠ ربيع الأول ١٢٤٠/٦٣٨)

لم يتوقف الشيخ الأكبر عن التدريس أبداً، فنجده في هذه السنة يقرأ كتاب التنزلات الموصلية مرة

---

[924] الفتوحات المكية: ج٢ص١٣.

[925] الديوان: ص٥٤-٦٠.

[926] الديوان: ص٥٤.

[927] من العلو، وليس من المصدر فعل، والفاء للإضافة وليست من أصل الكلمة.

[928] أي مريم أم عيسى، عليهما السلام.

أخرى على أيوب بن بدر بن منصور،[929] وذلك قبل وفاته رحمه الله بحوالي شهر.

وفاته رحمه الله (دمشق، ٢٢ ربيع الثاني ١٢٤٠/٦٣٨)

بعد حوالي ثمان وسبعين سنة (هجرية) من الهجرة والعبادة والعمل والتدريس والتأليف والترحال، وبعد أن قطع ما يزيد عن خمس وعشرين ألف ميل (أي ما يعادل دورة واحدة حول الكرة الأرضية) من الفيافي والسهول والجبال، وبعد أن أدى الشيخ أسمى رسالة في نقل تجربته الروحية الفريدة التي كانت وستكون مثالا للأجيال من النساء والرجال، عرجت روح ابن العربي الطاهرة إلى بارئها، كما رجعت إلى ترابها ومائها الأوصال، ولكنّ ذكره ما زالت تتعطر بطيبه النفوس، وبحار علومه ما زالت تجول في عرضها وتغوص في أعماقها العقول والقلوب والأسرار، فكما قال الله تعالى في سورة الرعد (فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴿١٧﴾).



هذه القبة التي فوق مقام الشيخ محيي الدين في مسجده في دمشق

ففي ليلة يوم الجمعة الثاني والعشرين[930] من ربيع الآخر سنة ٦٣٨ (الموافق ٩ تشرين

---

[929] مؤلفات ابن عربي: ص٢٦٢.

[930] حسب المقرّي في "نفح الطيب" (ج٢ص١٦٢) فإن تاريخ وفاة الشيخ محيي الدين هو ليلة الجمعة ٢٨ ربيع الثاني ٦٣٨، ولكن الكثير من المراجع الأخرى فالتاريخ الذي ذكرناه هو الصحيح كما ذكره أبو شامة (توفي ١٢٦٦/٦٦٥ وهو عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان، شهاب الدين أبو القاسم المقدسي الأصل، الدمشقي، الشافعي، المعروف بأبي شامة، لشامة كبيرة كانت فوق حاجبه الأيسر، ومن كتبه : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين: الصلاحية والنورية، ذيل الروضتين، مختصر كبير ومختصر صغير لتاريخ ابن عساكر،

الثاني نوفمبر ١٢٤٠ للميلاد)[٩٣١] توفي الشيخ محيي الدين ابن العربي الحاتمي الطائي رضي الله عنه عن عمر يقارب الثمانية والسبعين سنة قمرية (سبع وسبعين سنة و سبعة شهور وخمسة أيام) وهو يزيد عن الخمس والسبعين سنة شمسية (خمس وسبعون سنة وثلاثة شهور واثني عشر يوما)، وكانت وفاته في دار القاضي محيي الدين ابن الزكي، وغسله الجمال ابن عبد الخالق ومحيي الدين، وكان عماد الدين ابن النحاس يصب عليه الماء، وحُمل إلى جبل قاسيون ودُفن رحمه الله تعالى بتربة بني الزكي في سفح الجبل،[٩٣٢] ويوجد قبره الآن في طرف المسجد الذي بناه السلطان سليم العثماني حين فتح دمشق سنة ١٥١٦/٩٢٢، وتسمى المنطقة التي فيها ضريحه باسم منطقة أو حيّ الشيخ محيي الدين.

وغيرها،) الذي حضر جنازة الشيخ الأكبر. انظر أيضاً "البداية والنهاية" لابن الكثير، ج١٣ص١٨٣.

[931] يقرر بعض الباحثين تاريخ وفاة ابن العربي على التقويم الميلادي أنه ١٢٤٠/١١/١٠ (كما يقول وليام جيتيك في الموسوعة الإيرانية) أو ١٢٤٠/١١/٨ (كما يقول ستيفين هرتنشتاين في "الرحمن المطلق، الحياة الروحية والفكرية لابن عربي"، ص٢١٨)، ولكنني اخترت يوم ٩ لأنه يوم جمعة وقد قررت المصادر التي أرّخت تاريخ وفاته أنه ليلة الجمعة الثاني والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة ٦٣٨ للهجرة.

[932] انظر في "الوافي بالوفيات": ج٤ص١٧٣، "فوات الوفيات": ج٣ص٤٣٥، "البداية والنهاية": ج١٣ص١٥٦، "شذرات الذهب": ج٥ص١٩٠، "التكملة": ص٦٥٢، "الذيل والتكملة": ج٦ص٤٩٣، "النجوم الزاهرة": ج٦ص٣٣٩، "مرآة الزمان": ص٧٣٦، "لسان الميزان": ج٥ص٣١١.

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل السابع

العِشاء

أسراره ومعارضوه وتأثيره في الفكر الإسلامي والعالمي

بعد وفاته رحمه الله سنة ٦٣٨/١٢٤٠م

أفلت شمسنا بمغرب ذاتي	فدعاني إلى الصلاة الشهيدُ
فتوضأتُ ثم جئتُ إليه	من قريب، وإنه لبعيدُ
قلت: ربي، فقال: لبيك عبدي،	أين حمدي؟ فقلت: أنت الحميدُ
فافتتحنا به، فردَّ علينا	مثله، واكتفى، وكان المزيدُ
وتدانى، فكان مني كأني،	ثم ولّى، فقلت: أين تريدُ
قال: تمضي، فإن قومك جاؤوا	ومُقامي مع الكيان شديدُ
قم فحيّيهم، فقلت: السلامُ،	وبقلبي من الفراق وقودُ
ما ألذَّ الخلوَّ بالله ليلاً	لو يصح المقصود صح الوجودُ
فاستمع رمز ما أغار عليه،	يا حبيبي، وإنني لكنودُ
يشبه العسجد الكريم وجودي	وهو شخصٌ وجْدي منه الوريدُ
لو رأى عالِماً به، لا بذاتي،	لتوالى عليّ منه الشهودُ
فأنا عالمٌ به وبذاتي	فوصالٌ وقتاً، ووقتاً صدودُ[٩٣٣]

[933] التنزلات الموصلية: ص٣٢٣. وتعتبر هذه القصيدة تعبيراً بديعاً عن رؤية ابن العربي للوجود ووحدته وعلاقته بالله سبحانه وتعالى وربط كلّ ذلك بالصلاة وخاصة بمعنى كلمة الحمد لله كما ذكرنا من قبل وكما سنذكر بمزيدٍ من التفصيل في هذا الفصل. ولكن انظر هنا في معنى البيتين الأخيرين أنّ الإنسان لو كان عالما بالله وليس عالما بنفسه لتوالى عليه من الله الشهود، ولكنّه عالماً بالله وبذاته فوصال وقتا ووقتا صدود، أي أن العالم يتردّد بين الوجود بالله وهو الوجود الحقّ وبين الوجود بالنفس وهو وجود خيالي ليس له حقيقة ذاتية.

الخلاصة

وهكذا غابت شمس محيي الدين ابن العربي في مهد الحضارات وأقدم المدن دمشق، بعد أن ملأت الكون نوراً وأنارت العقول بالعلم والقلوب بالمعرفة؛ فما غابت على الحقيقة ولكنها احتجبت لأنه رضي الله عنه لا يزال حيّاً يُرزق في قلوب أبنائه الصالحين، الذين يدعون له حالاً ومقالاً كلما قرؤوا كلمة من كلماته وكلما أضاء لهم مصباح علومه التي بثّها صدقات جارية في كتبه المختلفة التي تهدي إلى معرفة الله تعالى، فيُرزق بذلك جميعَ حسناتهم كما أنه هو ومن تبعه وجميع العلماء ومن تبعهم ليسوا سوى حسنة في كتاب سيد الخلق سيدنا محمد صلّى الله عليه وسلّم الذي أُرسل رحمة للعالمين؛ فكما قال سيدنا عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: الناس موتى وأهل العلم أحياءُ.

وبعد وفاته، رحمه الله تعالى، برز العديد من تلامذته ومريديه ومحبيه على مدى القرون الثمانية الماضية، مثل صدر الدين القونوي وعبد الرزاق القيشاني وعبد الكريم الجيلي وعبد الغني النابلسي وعبد الوهاب الشعراني، والكثير غيرهم من الشيوخ والمفكرين. ولكن علوم الشيخ الأكبر لم تلق الأذن الصاغية عند بعض العلماء الذين أنكروها وانتقدوه وكفّروه بسببها وألّفوا الكتب الكثيرة في الردّ عليه والتشنيع به، وكان من أبرزهم الشيخ برهان الدين البقاعي وشيخ الإسلام تقيّ الدين ابن تيمية.

ومن جهة أخرى فإن أكثر الناس لم يعيروه أي اهتمام ولم يكترثوا بما في كتبه لا إيجاباً ولا سلباً، وقد يوجد الكثير من الناس الذين يعيشون قرب ضريحه الشهير في دمشق في الحيّ الذي يُعرف باسمه، وهم لا يعرفون شيئاً عنه وعن مؤلفاته الشهيرة التي ملأت مكتبات العالم.

ولكن الصورة بدأت تتغير تدريجيا في العصر الحديث مع ازدياد عدد المهتمين بعلومه وكتبه وخاصة بعد ترجمة بعضها إلى اللغات الأجنبية وتأسيس الجمعيات العالمية التي تهتم به وبمؤلفاته وتنشر البحوث الكثيرة عنه وتقيم المؤتمرات الدولية لإحياء تراثه، وكذلك بدأت الجامعات في شتى أنحاء العالم بدراسة فكره وفلسفته وتأثيره على المفكرين في العالم العربي والإسلامي والغربي.

اختلاف الناس حول الشيخ الأكبر

فلا تزال شمس ابن العربي ساطعة في الغرب والشرق على مدى الأجيال، لأنه لم يكن نزوة سافرة ولا فترة عابرة، بل كان نبراساً لا ينطفئ ومدداً لا ينقطع، وسحاباً هامعاً ونوراً ساطعاً، ولكن من الناس من يبهره النور فيعميه ومنهم من يكون له نورا على نوره فيهديه، ومنهم كذلك من لا ينظر إليه ولا يهتم به فيبقى على ما هو فيه.

قال الإمام عبد الرؤوف المناوي: "وقد تفرّق الناس في شأنه شيعاً وسلكوا في أمره طرائق قدداً: فذهبت طائفة إلى أنه زنديق لا صدّيق، وقال قوم إنه واسطة عِقد الأولياء ورئيس الأصفياء، وصار آخرون إلى

اعتقاد ولايته وتحريم النظر في كتبه."[٩٣٤] فبشكل عام لقد انقسم الناس حول تركة الشيخ الأكبر إلى ثلاثة فرق: فرقة تذوّقت حلاوة المعرفة وصدق الحديث الذي أتى به الشيخ في كتبه الكثيرة فوافق ذلك النورُ نورَ استعدادهم الفطري فنهض بهم إلى سلوك طريق الله تعالى رغبة في تحصيل بعض ما حصّله الشيخ رضي الله عنه نتيجة إحسانه وقربه من الله سبحانه، وفرقة لم تستطع أن تتذوق هذه العلوم بسبب اختلاف مشاربهم واعتلال مداركهم فأنكروه أشدّ الإنكار وحاربوه وكفّروه وكفّروا من يسير بدربه وهم بذلك على مراتب كثيرة كما سنرى، والفرقة الثالثة وهم أكثر الناس هم الذين لم يحالفهم الحظّ ولم يُقسم لهم نصيب في هذه الكنوز إما لأنهم لم يسمعوا بها أو لأنهم لم يهتموا بها لأنهم لم يدركوا قيمتها ولكنهم كذلك لم يخوضوا في التصدي لها بغير علم لا مصدّقين ولا مكذّبين.

وليس هذا التقسيم بغريب، فهو أنموذج عام لكل دعوة أو مذهب، فهذا هو ما حصل مثلا لدعوة النبي محمد صلّى الله عليه وسلّم ولدين الإسلام إذا أخذناه على المستوى التاريخي والعالمي. فدائما هنالك المقربون وهناك أصحاب اليمين وهناك أصحاب الشمال. ولكن على الحقيقة فإنّ في كلّ ذلك خيرٌ ورحمةٌ للجميع، وإنما تتفاوت الدرجات على جبل عرفات، فلا يصعد إلى القِمّة إلا من لديه الاستعداد الكافي والهمّة، وخيرٌ لمن لا يملك هذه الملكات أن لا يخوض في ذلك قبل أن يقوى عظمه ويشتد عوده. ولذلك، كما أسلفنا في مقدمة هذا الكتاب، فإن وجود أولئك الذين يُنكرون قدر الشيخ الأكبر وأمثاله من الصوفية المحققين إنما هو أمرٌ ضروريٌ ومفيدٌ في دين الإسلام، فنحن لا يمكن أن نتخيل أن يكون جميع المسلمون زهّاداً معرضين عن الدنيا ومتفرّغين للعبادة والقرب من الله تعالى، كما لا يمكن أن يكون الإسلام خالياً من هؤلاء الزهّاد. فطيف الشمس فيه من جميع الألوان وليس فقط الأبيض والأسود. وكذلك ليس بمقدور كلّ الناس أن يتحوّلوا إلى نور محض لا ظلمة فيه ولا مادة، فذلك طريق طويل ينطوي على الكثير من المخاطر والصعاب، والتصوّف دواءٌ لا يمكن أن يؤخذ شربة واحدة وإلا قتل. ولذلك قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "إن هذا الدين متين، فأوغلوا فيه برفق."[٩٣٥]

وبذلك فإن الذين يصدّون عن هذا الطريق يقومون على الحقيقة بدور فعّال لا غنى للإسلام عنه، وهم ربما يقصدون ذلك على هذا النحو وربما لا يقصدونه، وهم على كل حال مأجورين إن شاء الله تعالى، لولا أنهم كثيراً ما يبالغون ويكفّرون ويستعملون كلاماً لا يليق بالمسلمين، ولكن نرجو لهم حسن الجزاء من الله تعالى على حسن نيّاتهم وحسن نتائج أعمالهم، فهم إنما يصدون من لا يملك القدرة والاستعداد على خوض هذه البحار، وأما من رزقه الله هذه الملكات فإن أولئك لا يضرونه شيئاً بل لا يزيدونه إلا قوةً وتصميماً، وهو يدرك تماماً سبب رفض هؤلاء القوم لما جهلوه، والإنسان عدوّ ما يجهل، وهم لمّا يتذوقوا حلاوة اليقين، أمّا من ذاق فقد عرف، ومن عرف اعترف. ولذلك قال إبراهيم بن أدهم: "لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه

---

[٩٣٤] شذرات الذهب: ج٥ص١٩٠.

[٩٣٥] كنز العمال: رقم ٥٣٥٠.

لجالدونا عليه بالسيوف."[936] وكذلك يقول النبي صلّى الله عليه وسلّم: "إن الله لم يبعثني طعّاناً ولا لعّاناً ولكن بعثني داعياً ورحمةً، اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون."[937]

وثمة فائدة أخرى تُرجى وتُجنى من وجود هذه الفئة المنكرة لأهل الذوق وهي أن دعوتهم للصدّ عن هذا الطريق كثيراً ما يكون لها المفعول العكسي الإيجابي لأنهم في نفس الوقت ينشرون هذه العلوم ويوصلونها إلى أسماع المسلمين بهدف الصدّ عنها، ولكن لا يخلو أن يكون من بين هؤلاء المسلمين من يستسيغ هذه العلوم ويدرك مرامي القائلين بها فيدفعه ذلك لمزيد البحث والتمحيص فيدخل في طريق الحق ويصل إلى الحقيقة. ولقد صادفت بعض المسلمين الذين اهتمّوا بكتب الصوفية بسبب قراءتهم لبعض الكتب التي تنتقده وتصدّ عنه والتي يحاولون فيها بلا جدوى ولا دليل متين صدّ المسلمين عن طريق أهل الذوق، ولكنّ بعض هؤلاء المسلمين لا يلبث أن يُدرك الحجج الواهية التي يأتي بها هؤلاء ويدرك حقيقة أقوال العارفين بالله ومرادهم من خلال كتب منتقديهم.

ونحن لا يمكن أن ننكر وجود بعض من يدّعي التصوف من الذين بالغوا فيه وانحرفوا إلى اتجاهات كثيرة ربما أخرجتهم عن الإسلام، وقد أنكر الشيخ محيي الدين رحمه الله ذلك في رسالته "روح القدس"،[938] ولكن الحقيقة أيضاً أن المنكرين ذهبوا بعيداً في إنكارهم وبالغوا فيه من غير بيّنة؛ فنسبوا كل منتسب إلى التصوف إلى الفسق والفساد ورموه بالكفر وشنّعوا عليه بأقبح الكلمات، وهم بذلك ما يظلمون إلا أنفسهم. نسأل الله لهم المغفرة وأن يجزيهم على حسن نواياهم وليس على سوء أفعالهم.

أنصار الشيخ الأكبر

فعلى الرغم من وجود المنكرين والمنددين، لم يخل الزمان من المريدين المحبين الصادقين الذين عشقوا علوم الشيخ الأكبر وتذوقوا بعض ما جاء به من المعرفة فتفانوا في الدفاع عنه وتوضيح حقيقة أقواله وما نُسب إليه فقاموا بشرح كتبه الكثيرة وخاصة فصوص الحكم الذي يوجد له أكثر من مائتي شرح معظمها لا يزال مخطوطاً والذي ترجم في العصر الحديث للعديد من اللغات العالمية.

وسنذكر هنا بعض العلماء الذين برز اسمهم في هذا المجال مرتبين على القرون التي تلت وفاة الشيخ محيي الدين ابن العربي بدءاً من القرن السابع الهجري إلى القرن الحالي الخامس عشر، والتقسيم تقريبي حسب النشاط العلمي وتاريخ الوفاة.

---

[936] حلية الأولياء و طبقات الأصفياء، للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، دار الكتاب العربي-بيروت، ١٩٨٠، حلية الأولياء، ج٧ص٣٧٠.

[937] زيادة الجامع الصغير والدرر المنتثرة، ١٣١٩.

[938] روح القدس: ص٣-٥.

صدر الدين القونوي (القرن السابع)

فمن أوائل التلاميذ الذين كان لهم دور كبير في نشر علوم الشيخ الأكبر تلميذه وربيبه صدر الدين القونوي (توفي ٦٧٢/١٢٧٥) الذي ذكرناً طرفا من ترجمته في الفصل السادس، وقلنا أنه لما توفي مجد الدين الرومي والد صدر الدين أخذ الشيخ محيي الدين على عاتقه تربيته وتعليمه، وذكرنا أيضاً تأثير صدر الدين على نشر الفكر الصوفي في بلاد الروم وبلاد فارس كما ذكرنا العديد من الكتب التي تركها صدر الدين القونوي.

وكان صدر الدين القونويَ صديقاً لجلال الدين الروميَ مؤلّف المثنويَ الشهير، كما كان أستاذاً لقطب الدين الشيرازي شارح فلسفة السهروردي. ولقد قام صدر الدين القونوي بشرح العديد من كتب الشيخ محيي الدين والتعليق عليها وأغلب مؤلفاته ما تزال مخطوطة.

ترك صدر الدين القونوي العديد من الكتب والمصنفات نذكر منها: "النفحات"، "تحفة الشكور"، "تجليات"، "تفسير الفاتحة"، "تبصرة المبتدئ وتذكرة المنتهي"، "التوجه الأتم الأعلى نحو الحق جل وعلا"، "جامع الأصول"، "الرسالة المرشدية"، "الرسالة الهادية"، "شرح أسماء الله الحسنى"، "فكوك النصوص في مستندات حكم الفصوص للشيخ الأكبر"، "اللمعة النورانية في مشكلات الشجرة النعمانية"، "كشف السر"، "كشف أستار جواهر الحكم المستخرجة الموروثة من جوامع الكلم في شرح الأربعين"، "المفاوضات"، "مفتاح أقفال القلوب لمفاتيح الغيوب"، "مفتاح الغيب"، "موارد ذوي الاختصاص إلى مقاصد سورة الإخلاص"، "النصوص في تحقيق الطور المخصوص"، "نفثة المصدور وتحفة المشكور"، "النفحات الإلهية".

إسماعيل ابن سودكين النوري (القرن السابع)

وكذلك تكلمنا من قبل عن ابن سودكين النوري الذي كان من التلاميذ المقربين جداً من ابن العربي حيث التقاه في مصر سنة ٦٠٣ ثم التزم معه وصاحبه حتى وفاته، ثم تابع على طريقه وأخذ يدرّس كتبه بعده ويلقي على التلاميذ العديد من السماعات لأجزاء من الفتوحات المكية وغيرها من الكتب.

وكذلك ترك ابن سودكين العديد من الشروحات والتعليقات على كتب الشيخ الأكبر منها شرحه لكتاب التجليات الإلهية الذي قام عثمان يحيى بتحقيقه.[٧٣٦] ومن المصنفات الأخرى التي كتبها: "تحفة التدبير لأهل التبصير" في الكيمياء، "شرح عمدة العقائد للنسفي"، "كتاب الصلاة"، "كتاب النجاح من حجب الأشباح في شرح كل مشكل"، "الفوائد من كتاب الأسرار والمشاهد" (للشيخ الأكبر)، "لواقح الأسرار ولوائح الأنوار"، "هدية العارفين".

وذكرنا من قبل أن ابن سودكين هو أبو الطاهر إسماعيل بن عبد الله النوري، كان والده من عتقاء نور الدين محمود بن زنكي، وكان رجلاً خيراً صالحاً، رحل إلى مصر مع ابنه إسماعيل سنة ثمان أو تسع

---

[٧٣٦] التجليات الإلهية، همراه با تعليقات ابن سودكين وكشف الغايات في شرح ما اكتنفت عليه التجليات، تحقيق عثمان يحيى، مركز نشر دانشگاهي، طهران ١٩٨٨.

وسبعين وخمسمائة، ونشأ بها على الخير والصلاح.

وقد ذكر ابن العديم في بغية الطلب في تاريخ حلب من شعر إسماعيل بن سودكين ما قال إن وجده بخط شيخه محمد بن عليّ ابن العربي الحاتمي الطائي:[940]

اعتـــلّ بعـــدكمُ النســـيم   وتنكّـــرت تلـــك الرســـوم
دمـــنٌ ســـقتها أدمعـــي   إن لم تـــسحّ بهـــا الغيـــوم
جـــزع الغـــداة الجـــزع للـــ   ـترحـــال وانـــصرم الـــصريم
يـــا راحلـــين عـــن الحمـــى   وعلـــيهم أســـفي مقـــيم
وحيـــاتكم في كـــل قلـــبٍ   مـــن وداعكـــمُ كلـــوم
مـــن لم يمـــت يـــوم الـــودا   ع صـــبابةً فهـــو الظلـــوم
أحبابنـــا وحيـــاتكم   قـــسمٌ علـــى قلـــبي عظـــيم
مـــا عـــشت إلا حـــين كـــا   ن علـــيّ للبلـــوى رســـوم
مـــن كـــان بالـــصبر الجميـــ   ـل إذا قـــضت روحـــي يقـــوم
ومـــن الـــذي هـــو للـــشجو   ن وللغـــرام بكـــم غـــريم
أحبابنـــا مـــا ضـــاع عنـــ   ـد حفـــاظي العهـــد القـــديم
بـــل صـــنته في بـــاطنٍ   هـــو (عنـــدنا) أبـــداً حـــريم

مجد الدين الفيروزابادي (القرن الثامن)

وفي القرن الثامن الهجري برز مجد الدين الفيروزابادي (٧٢٩/١٣٢٩–٨١٧/١٤١٤) الذي كان له فضل كبير في نقل علوم الشيخ الأكبر إلى اليمن وكان من الذين يدافعون عنه.

ومجد الدين هو أبو الطاهر محمّد بن يعقوب بن محمّد الشيرازي الفيروزابادي، دخل بلاد الروم، واتصل بخدمة السلطان بايزيد بن السلطان مراد، ونال عنده رتبةً وجاهاً، ثم جال البلاد شرقاً وغرباً، وأخذ عن علمائها حتى برع في علم الحديث والتفسير والفقه، وله حوالي أربعين مصنفاً أهمها "اللامع المعلم العجاب، الجامع بين المحكم والعباب"، في ستين مجلد، ثم لخصها وأخرجها في كتابه الشهير "القاموس المحيط" وله كذلك "تفسير القرآن العظيم"، و"شرح البخاري".[941]

ذكر ابن العماد الحنبلي في "شذرات الذهب في أخبار من ذهب" أن الفيروزابادي كان عظيم الاعتقاد في ابن العربي وكان يحمل كلامه على المحامل الحسنة وقد طرّز شرحه للبخاري بكثير من كلامه.

ويقول الفيروزابادي في جوابه على سؤال رُفع إليه وهو: "ما تقول العلماء شدّ الله بهم أزر الدين

---

[940] ابن العديم، "بغية الطلب في تاريخ حلب": ص٥٩٩–٦٠٠.

[941] لترجمة الفيروزأبادي انظر في "طبقات السبكي": ج٣ص٨٩–١١١، و"هدية العارفين": ج٢ص١٨١، و"الكنى والألقاب": ج٣ص٣٧، و"وفيات الأعيان": ج١ص٢٩.

وألمّ بهم شعث المسلمين في الشيخ محيي الدين ابن العربي وفي كتبه المنسوبة إليه كالفتوحات والفصوص وغيرهما: هل تحل قراءتها وإقراؤها للناس أم لا؟ أفتونا مأجورين." فقال في جوابه رحمه الله:

> الذي أقوله في حال المسؤول عنه وأعتقده وأدين الله سبحانه وتعالى به أنه كان شيخ الطريقة حالاً وعلماً وإمام الحقيقة حداً ورسماً ومحيي رسوم المعارف فعلاً واسماً. إذا تغلغل فكر المرء في طرف من بحره غرقت فيه خواطره في عباب لا تدركه الدلاء وسحاب تتقاصر عنه الأنواء. وأما دعواته فإنها تخرق السبع الطباق وتفترق بركاته فتملأ الآفاق. وإني أصفه وهو يقيناً فوق ما وصفته وغالب ظني أني ما أنصفته:
>
> وما علي إذا ما قلت معتقدي ... دع الجهول يظن الجهل عدوانا
>
> والله تالله بالله العظيم ومن ... أقامه حجة لله برهانا
>
> إن الذي قلت بعض من مناقبه ... ما زدت إلا لعلي زدت نقصانا
>
> وأما كتبه فإنها البحار الزواخر، جواهرها لا يعرف لها أول من آخر، ما وضع الواضعون مثلها، وإنما خص الله بمعرفتها أهلها؛ فمن خواص كتبه إنه من لازم مطالعتها والنظر فيها انحل فهمه لحل المشكلات وفهم المعضلات. وهذا ما وصلت إليه طاقتي في مدحه والحمد لله رب العالمين."[٩٤٢]

ثم فصّل في كلام طويل في الدفاع عن الشيخ محيي الدين وتبيين عقيدته السليمة، وقد نقلت هذه الفتوى في العديد من كتب التاريخ.

عبد الرزاق القاشاني (القرن الثامن)

وفي القرن الثامن الهجري أيضاً برز عبد الرزاق الكاشاني أو القاشاني (توفي ١٣٣٤/٧٣٥)، وهو من محققي هذا القرن، قام بشرح فصوص الحكم وكان بينه وبين علاء الدولة السمناني مباحثات ومشاجرات في المسائل النظرية المطروحة من قبل الشيخ محيي الدين، وكذلك كتب كتاباً في اصطلاحات الصوفية، وكتاباً آخر عن آداب طريق التصوف قم بتحقيقهما مؤخرا الدكتور عاصم الكيالي.[٩٤٣] ومن كتبه أيضاً كتاب تفسير صوفي للقرآن الكريم يسمى خطأً باسم "تفسير ابن عربي".[٩٤٤]

---

[942] وردت في كتاب "الاغتباط بمعالجة ابن الخياط"، تأليف شيخ الإسلام قاضي القضاة مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد الشيرازي الفيروزابادي الصديقي صاحب القاموس؛ منقولة عن المقرّي في نفح الطيب: ج٢ص١٧٦-١٧٨.

[943] آداب الطريقة وأسرار الحقيقة في رسائل الشيخ عبد الرزاق القاشاني، المؤلف: الشيخ عبد الرزاق القاشاني، المترجم: د.عاصم الكيالي، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٥. لطائف الإعلام في إشارات أهل الإلهام (معجم القباني في الإصطلاحات والإشارات الصوفية)، تأليف: الشيخ عبد الرازق بن أحمد بن محمد القاشاني، ترجمة، تحقيق: عاصم كيالي، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٤.

[944] مؤلفات ابن عربي: تاريخ مؤلفات ابن عربي وتصنيفها، ص٢٥٤-٢٥٥.

حيدر الآملي (القرن الثامن)

وكذلك في القرن الثامن ظهر بهاء الدين بن حيدر بن علي العلوي الطبري الكاشي (توفي ~١٣٩٢/٧٩٤)، وهو من الشيعة الإماميين، وكان في بغداد، وهو أحد المحققين العرفاء، له كتاب باسم "جامع الأسرار" من الكتب العرفانية الدقيقة، وله كتاب آخر باسم "نص النصوص في شرح الفصوص".

ويحاول حيدر الآملي الجمع بين التشيّع والتصوّف، ويبدو أنه كان في بدايته فقيهاً ومتكلماً شيعياً متعصباً، ثم تحول إلى التصوّف، متأثراً بالشيخ محيي الدين على ما يبدو.

عبد الكريم الجيلي (القرن الثامن)

وفي أواخر القرن الثامن الهجري برز عبد الكريم الجيلي، وهو صاحب الكتاب المعروف "الإنسان الكامل"، وكان أول من طرح هذا المفهوم بصورة نظرية هو الشيخ محيي الدين ابن العربي وبحثها تلميذه صدر الدين القونوي في كتابه "مفتاح الغيب".

والجيلي، كما ورد تعريفه في "هدية العارفين"، هو عبد الكريم بن إبراهيم بن عبد الكريم الجيلي القادري الصوفي الحنبلي من خلفاء الشيخ إسماعيل الجبرتي وُلد سنة ١٣٦٥/٧٦٧ وتوفي سنة ١٤٢٨/٨٢٠.[٩٤٥]

ترك لنا الجيلي عدداً كبيراً من المؤلفات المهمة، منها: "الإسفار عن رسالة الأنوار فيما يتجلى لأهل الذكر من الأسرار"، وهي شرح رسالة الأنوار للشيخ محيي الدين، "الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل"، "تفسير القرآن"، "حقيقة الحقائق التي هي للحق من وجه ومن وجه للخلائق"، "حقيقة اليقين وزلفة التمكين وعمارة الدين"، "الدرة العينية في الشواهد الغيبية"، "شرح مشكلات الفتوحات المكية وفتح أبواب المغلقات من العلوم اللدنية"، "غنية أرباب السماع في كشف القناع عن وجوه الاستماع"، "الكمالات الإلهية في الصفات المحمدية"، "الكنز المكتوم الحاوي على سر التوحيد المجهول المعلوم"، "الكهف والرقيم في شرح بسم الله الرحمن الرحيم"، "السفر القريب نتيجة السفر الغريب الغايات في معرفة معاني الآيات والأحاديث المتشابهات"، "سر النور المتمكن في معنى قوله صلّى الله عليه وسلّم: المؤمن مرآة المؤمن"، "لوامع البرق الموهن في معنى: ما وسعني أرضي وسمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن"، "مراتب الوجود وبيان حقيقة ابتداء كل موجود"، "المناظر الإلهية"، "الناموس الأعظم والقاموس الأقدم" في أربعين جزء، "النوادر العينية في البوادر الغيبية".

عبد الرحمن الجامي (القرن التاسع)

وفي القرن التاسع الهجري برز عبد الرحمن الجامي (١٤١٤/٨١٧-١٤٩٢/٨٩٨) وهو نور الدين عبد الرحمن بن أحمد بن محمد الجامي، ينتهي نسبه إلى الحسن الشيباني الفقيه الشهير في القرن الثاني

---

[٩٤٥] هدية العارفين، البابالي، ص ٣٣٥.

الهجري، وهو مفسر فاضل صاحب مشايخ الصوفية، وكتب في الشعر الصوفي باللغة الفارسية، وله من الكتب "تفسير القرآن" و"شرح فصوص الحكم" و"الدرر الفاخرة" في التصوف والحكمة، وكذلك له شرح لتائية ابن الفارض، وله كتب بالفارسية.[946] وكان الجامي من مريدي الشيخ بهاء الدين نقش بند مؤسس الطريقة النقشبندية.

جلال الدين السيوطي (القرن التاسع)

وكذلك في القرن التاسع الهجري برز الشيخ جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر بن محمد سابق الدين الخضيري الأسيوطي الشافعي (٨٤٩/١٤٤٥-٩١١/١٥٠٥)، حفظ القرآن وهو في الثامنة من عمره ثم حفظ عمدة الأحكام ومنهاج الفقه والأصول للنووي وألفية ابن مالك واشتغل بالعلم ودرس الفقه والنحو على جماعة من الشيوخ، ولما بلغ الأربعين من عمره اتجه إلى التفرغ والانقطاع للعبادة وترك وظائف الإفتاء والتدريس ومنها تدريس الحديث بالمدرسة الشيخونية وشرع في تأليف مؤلفاته وهي كثيرة يقال إنها بلغت ستمائة مصنف نذكر منها: "الإتقان في علوم القرآن"، "الدر المنثور في التفسير بالمأثور"، "كشف المغطى في شرح الموطا"، "الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج"، "عين الإصابة في معرفة الصحابة"، "در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة"، "تاريخ الخلفاء"، "حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة".[947]

وقد دافع الشيخ جلال الدين السيوطي عن الشيخ محيي الدين ابن العربي في كتابه الشهير الذي سمّاه "تنبئة الغبي في تبرئة ابن عربي"، الذي ألفه رداً على برهان الدين البقاعي الذي كتب "تنبيه الغبي على تكفير ابن عربي"، كما سنذكره بعد قليل، وقد قام السيوطي في هذا الكتاب بالردّ على من اتّهم الشيخ الأكبر بالكفر ثم ذكر أقوال عشرات الشيوخ من أئمّة المذاهب الأربعة الحفّاظ كلهم أثنوا على ابن العربي ومدحوه. ولكن الشيخ السيوطي يختم فتواه بذكر عقيدته بالشيخ الأكبر فيقول إنه يعتقد بولايته ولكنّه يحرّم النظر في كتبه.[948]

عبد الوهاب الشعراني (القرن العاشر)

وفي القرن العاشر الهجري ظهر الإمام عبد الوهاب الشعراني (٨٩٨/١٤٩٣-٩٧٣/١٥٦٥)، وهو عبد الوهاب بن أحمد بن علي بن أحمد أبو محمد الشعراني أو الشعراوي المصري، الفقيه الشافعي، الصوفي

---

[946] الزركلي، "الأعلام": ج٣ص٢٩٦.

[947] لترجمته انظر في: "الضوء اللامع": ج٤ص٦٥ برقم ٢٠٣، "حسن المحاضرة": ج١ص٢٨٩ برقم ٧٧، "كشف الظنون": ج١ص٥، "شذرات الذهب": ج٨ص٥١، "البدر الطالع": ج١ص٣٢٨ برقم ٢٢٨، "روضات الجنات": ج٥ص٥٤ برقم ٤٣٩، "إيضاح المكنون": ج٣ص١٩١، "هدية العارفين": ج٥ص٥٣٤، "الكنى والألقاب": ج٢ص٣٤٣، "ريحانة الأدب": ج٣ص١٤٨، "الأزهر في ألف عام": ج١ص١٠٩، "الأعلام": ج٣ص٣٠١، "الفتح المبين": ج٣ص٦٥، "معجم المفسرين": ج١ص٢٦٤، "معجم المؤلفين": ج٥ص١٢٨.

[948] السيوطي، "تنبيه الغبي": ص٤٣.

درس العلم لمدة ثم جاهد نفسه مدة وقطع العلائق الدنيوية، وأخذ التصوف عن الخوّاص، والمرصفي، والشناوي، ثم تصدى للتصنيف، فألّف كتباً كثيرة منها: "الأجوبة المرضية عن الفقهاء والصوفية"، "البحر المورود في المواثيق والعهود"، "الدرر المنثورة في زبد العلوم المشهورة"، "منح المنة في التلبس بالسنّة"، "الأنوار القدسية في معرفة آداب العبودية"، "درر الغوّاص من فتاوى الشيخ علي الخوّاص"، "المنهج المبين في أدلة المجتهدين"، "لواقح الأنوار في طبقات الأخيار"، "اليواقيت والجواهر في عقائد الأكابر".[949]

وكما ذكرنا من قبل فقد دافع الشيخ عبد الوهاب الشعراني عن الشيخ محيي الدين وشرح بعض وكتبه وخاصة الفتوحات المكية التي قدّم لها عدّة مختصرات وشرح بعض إشكالاتها.

ابن ميمون المغربي (القرن العاشر)

وفي القرن العاشر أيضاً ظهر ابن مَيْمُون المَغْرِبي (٨٥٤/١٤٥٠-٩١٧/١٥٥١) وهو أبو الحسن علي بن ميمون بن أبي بكر بن يوسف الهاشمي القرشي، قاض، من العلماء، الغزاة، ولد في غمارة (من أعمال فاس) وأقام بفاس، وتولى القضاء. ثم عكف على غزو الإفرنج في السواحل، فاجتمع له عدد كبير من الغزاة وولوه قيادتهم. ورحل إلى المشرق فتوفي في دمشق. وكان شديد الإنكار على علماء عصره ولا سيما المتصوفة، على أنه من كبارهم، وإنما كان يدعوهم إلى التزام السنّة والتقيد بروح الدين. وله مؤلفات عديدة منها "غربة الإسلام في مصر والشام وما والاهما من بلاد الروم والأعجام"، و "تنزيه الصدّيق عن صفات الزنديق" دفاعاً عن ابن العربي، وبضع عشرة رسالة.[950]

عبد الرؤوف المناوي (القرن الحادي عشر)

فمنهم الإمام عبد الرؤوف المناوي (٩٥٢/١٥٤٥-١٠٣١/١٦٢٢) وكان من بين الشيوخ الذين قدّروا علوم الشيخ الأكبر واهتمّوا بها وقد ذيّل شرحه "فيض القدير" للجامع الصغير بأقوال الشيخ الأكبر.

والمناوي هو محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين، زين الدين الحدادي ثم المناوي القاهري، الفقيه الشافعي، المتفنّن، المصنّف، انزوى للبحث والتصنيف، وكتب نحو ثمانين مصنّفاً، منها: "تيسير الوقوف على غوامض أحكام الوقوف"، "إتحاف الناسك بأحكام المناسك"، "إتحاف الطلاب بشرح كتاب العباب"، "الفتح السماوي بشرح بهجة الطحاوي"، "فيض القدير في شرح الجامع الصغير"، "الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية".[951]

وكان المناوي من المدافعين عن الشيخ محيي الدين وقال في كتابه طبقات الأولياء: "والذي

---

[949] "الكواكب السائرة": ج٣ص١٧٦، "كشف الظنون": ج١ص٦٧، ١٩٤، "شذرات الذهب": ج٨ص٣٧٢، "هدية العارفين": ج١ص٦٤١، "إيضاح المكنون": ج١ص٣٢٣، الزركلي: "الأعلام": ج٤ص١٨٠، "معجم المؤلفين": ج٦ص٢١٨.

[950] الزركلي، "الأعلام": ج٥ص٢٧.

[951] راجع ترجمته في: حاجي خليفة: "كشف الظنون": ج١ص٤٠٨، "خلاصة الأثر": ج٢ص٤١٢، "البدر الطالع": ج١ص٣٥٧ برقم ٢٣٨، "هدية العارفين": ج١ص٥١٠، الزركلي: "الأعلام": ج٦ص٢٠٤.

أعتقده ولا يصح غيره أن الإمام ابن عربي وليٌ صالح وعالم ناصح وإنما فوّق إليه سهام الملامة من لم يفهم كلامه، على أنه دست في كتبه مقالات قدره يجلّ عنها."

أحمد الحضرمي (القرن الحادي عشر)

وفي القرن الحادي عشر أيضاً نجد الشيخ أحمد بن عبد القادر بن عمر الدوعني الحضرمي (توفي ١٠٥٢/١٦٤٢) شرح بعض أبيات مشكلة للشيخ الأكبر وشرح مشكلات "الأمر المحكم المربوط"، وكان مولعا بكتب الشيخ محيي الدين."[952]

يوسف النبهاني (القرن الرابع عشر)

وفي القرن الثالث عشر برز الشيخ يوسف النبهاني (١٢٦٥/١٨٥٠-١٣٥١/١٩٣٢) وهو شيخ من شيوخ الفقه الإسلامي، وصاحب طريقة في التصوف، ورائد من رواد الأدب العربي في العهد العثماني. ولد النبهاني في حيفا وكان والده المعلم الأول له، حيث علمه القرآن الكريم والحديث ثم أرسله إلى الأزهر ثم عاد إلى مدينة عكا مدرسا للدين واللغة العربية، وكذلك تولى نيابة القضاء في مدينة جنين ثم سافر إلى مدن أخرى فتولى مناصب عدة وألف العديد من الكتب منها: "الشرف المؤبد لآل محمد صلّى الله عليه وسلّم"، "الأنوار المحمدية من المواهب اللدنّية"، "وسائل الوصول إلى شمائل الرسول"، "الأحاديث الأربعين في فضائل سيد المرسلين"، "أفضل الصلوات على سيد السادات"، "جامع كرامات الأولياء"، وغيرها من الكتب والمؤلفات الكثيرة في مختلف الأغراض والموضوعات الدينية والأدبية والشعرية."[953]

وقد ذكر الشيخ يوسف النبهاني الشيخ محيي الدين في كتبه ودافع عنه وكتب فيه بعض قصائد المديح، وكذلك ترجمه بالخير في "جامع كرامات الأولياء" وذكر فيها نسخة كاملة من إجازة الشيخ محيي الدين للملك الأشرف الأيوبي."[954]

بداية انتشار علوم ابن العربي في العالم الغربي

وفي هذا القرن، مع بداية تطور الطباعة والنشر وحركة الترجمة، بدأت علوم الشيخ الأكبر تجد طريقها إلى العالم الغربي تدريجيا. وتعود بداية الاهتمام الحقيقي بعلوم الشيخ الأكبر في العالم الغربي إلى بداية القرن التاسع عشر الميلادي حيث تم ترجمة كتاب "رسالة الأحدية" إلى اللغة الإنكليزية والفرنسية على أنها لابن العربي، مع أن هذا الكتاب ليس في الحقيقة للشيخ محيي الدين ابن العربي. بعد ذلك تمت ترجمة

---

[952] المحبي، "خلاصة الأثر": ج٢ص٤١٢.

[953] للمزيد عن ترجمة الشيخ يوسف النبهاني راجع: أحمد عمر شاهين، "موسوعة كتاب فلسطين في القرن العشرين": ص٨٦٨-٨٦٩، والزركلي، "الأعلام": ج٩ص٢٨٩، ويوسف سركيس، "معجم المطبوعات": ص١٨٣٨-١٨٤٢.

[954] يوسف النبهاني، "جامع كرامات الأولياء": ص١٩٨-٢١١.

أجزاء من الفتوحات المكية وفصوص الحكم إلى اللغة الفرنسية ثم الإنكليزية.

ثم جاء المستشرق الإسباني ميغيل أسين بلاثيوس فترجم بعض أعمال الشيخ محيي الدين إلى الإسبانية وقام بدراسات عديدة حوله كما ذكرنا أيضاً في مقدمة هذا الكتاب، وكان من بين الأبحاث التي قدمها بحث بعنوان "علم النفس عند محيي الدين ابن عربي" قدمه في الجزائر سنة ١٣٢٣/١٩٠٥، ثم قام بترجمة نصوص مهمة للشيخ الأكبر ونشر دراسات كبيرة حوله في الفترة من سنة ١٣٤٣/١٩٢٥ وحتى سنة ١٣٥٠/١٩٣١ حيث أصدر كتاب "ابن عربي: حياته ومذهبه" الذي ذكرناه في المقدمة. ولكن المفاجأة الكبير التي قدّمها ميغيل أسين بلاثيوس هي البحث الذي قدمه بتاريخ ٢٦ يناير ١٩١٩ بمناسبة تعيينه عضواً في الأكادمية الملكية الإسبانية وكان هذا البحث بعنوان "الأخرويات الإسلامية في الكوميديا الإلهية" حيث بيّن فيه أن تأثر دانته بالتصورات الإسلامية في عمله الخالد "الكوميديا الإلهية"، فقد تبيّن أن هذا العمل مستوحى بشكل كبير من كتابات ابن العربي عن موضوع الإسراء والمعراج وخاصة كتاب "الإسرا إلى المقام الأسرى".[٩٥٥]

وكذلك قام نيبرغ سنة ١٣٣٧/١٩١٩ بترجمة أجزاء من كتب ابن العربي (إنشاء الدوائر، عقلة المستوفز، التدبيرات الإلهية) إلى اللغة الألمانية،[٩٥٦] ولكن دراساته لم تنتشر بشكل واسع بين الباحثين.

القرن الخامس عشر الهجري

وفي أواخر القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر الهجري، الذي نحن فيه، ظهر العديد من الباحثين المهتمين بتركة الشيخ الأكبر الذي زادت شهرته على المستوى الإسلامي والعالمي، وبدأ البحث في كتبه وعلومه يأخذ المنحى الأكاديمي وبدأت الجامعات تهتم به فظهر العديد من الطلاب الذين جعلوا من الشيخ محيي الدين موضوعاً لأطروحاتهم مثل أبي العلا عفيفي الذي درس كتاب فصوص الحكم في جامعة كامبردج مع أستاذه المستشرق نيكلسون. وظهرت كذلك أسماء لامعة مثل آنا ماري شيميل التي كتبت مجموعة من الكتب حول التصوف منها كتاب "الأبعاد الروحية للإسلام"،[٩٥٧] وسيد حسين نصر، المفكّر الإيراني المعروف، الذي كتب عن ابن العربي مثل كتابه الشهير الذي درس فيه ثلاثة من روّاد الفلسفة الإشراقية: ابن سينا، السهروردي وابن العربي،[٩٥٨] بالإضافة إلى هنري كوربان الذي كتب باللغة الفرنسية مجموعة من الكتب المتخصصة بابن العربي ثم ترجمت كتبه إلى اللغة الإنكليزية، ومنها "الخيال الخلاق عند ابن العربي".[٩٥٩]

وفي العقود الأخيرة خاصة، مع نهاية القرن الرابع عشر الهجري، تضاعف الاهتمام بالشيخ الأكبر وبدأت تظهر عنه دراسات كثيرة وترجمات في شتى أنحاء العالم وبلغات كثيرة مثل اليابانية والتركية بالإضافة

---

955 راجع كتاب عبد الرحمن بدوي: "دور العرب في تكوين الفكر الأوربي"، نشر في بيروت سنة ١٩٦٥.
956 H. S. Nyberg, Kleinere Schriften des Ibn al-'Arabi, Leiden, 1919).
957 Annemarie Schimmel, Mystical Dimensions of Islam (Chapel Hill: The University of North Carolina, 1975).
958 Seyyed H. Nasr, Three Muslim Sages: Avicenna-Suhrawardi-Ibn 'Arabi (New York: Caravan Books, 1964).
959 Henry Corbin, Alone with the Alone: Creative Imagination in the Sufism of Ibn 'Arabi (Princeton: Bollingen, 1969).

إلى الإنكليزية والفرنسية والعربية طبعا، ولذلك استشعر عثمان يحيى رحمه الله ضرورة إنجاز دراسة مفصلة عن تاريخ مؤلفات ابن العربي وتصنيفها نظرا لكثرتها ولوجود العديد من المؤلفات المنحولة. فقام بإصدار كتابه الشهير حول هذا الموضوع والذي اعتمدنا عليه كثيرا في هذا الكتاب كما أشرنا من قبل.

وكذلك حاول عثمان يحيى إصدار تحقيق نقدي للفتوحات المكية ولكن وافته المنيّة قبل أن يتم هذا العمل الشاق. وكذلك على الساحة العربية ظهرت الدكتورة سعاد الحكيم التي كرّست حياتها لدراسة كتب الشيخ الأكبر ونشرها وكان من أهم كتبها "المعجم الصوفي" الذي جمعت فيه المصطلحات المختلفة التي يستخدمها الشيخ محيي الدين فشرحتها وأشارت إلى المراجع المختلفة عنها في كتب ابن العربي وغيره. وكذلك قامت بإخراج عدد من التحقيقات لكتب ابن العربي بالإضافات إلى دراسات كثيرة باللغة الفرنسية والعربية.

ولا يزال الاهتمام بابن العربي يتضاعف على الساحة العالمية وخاصة بعد تأسيس جمعيات متخصصة بدراسة تراثه ونشره وترجمته إلى اللغات الغربية، وتعتبر جمعية الشيخ محيي الدين ابن عربي في أوكسفورد رائدة في هذا المجال حيث تقيم سنويا العديد من الندوات والمؤتمرات وتنشر العديد من الأبحاث في مجلة متخصصة عن الشيخ محيي الدين ابن العربي. وكذلك تقوم مدرسة البشارة في اسكوتلندا بتدريس علوم الشيخ الأكبر ونشر الكتب والأبحاث عنه.

ومن الأسماء البارزة في العالم الغربي للباحثين في تراث الشيخ الأكبر منهم الكاتب الياباني توشيكو إيزوتسو الذي حاول أن يتلمّس أوجه التشابه بين التصوف الإسلامي والديانات الشرقية وخاصة الطاوية،[960] والكاتب الروسي ألكساندر كنيش الذي درس تطور فكر ابن العربي في الفكر الإسلامي،[961] ومنهم أيضاً ميخائيل شودكيفتش الذي كتب العديد من الكتب المتخصصة وأهمها كتاب "ختم الولاية" باللغة الفرنسية وقد ترجم إلى اللغة الإنكليزية،[962] والكاتب الأمريكي وليام جيتيكس الذي أصدر عددا من الدراسات التحليلية العميقة لفلسفة الشيخ محيي الدين منها كتاب "الطريق الصوفي للمعرفة"،[963] و"مبادئ علم الكون عند ابن العربي".[964] وكذلك قام جيمس موريس مع وليام جيتكس وميخائيل شودكيفتش بترجمة أجزاء عديدة من الفتوحات المكية ونشرها في عدة مجلدات.[965] ويضاف إلى ذلك كلاً من كلوديا عداس وستيفين هرتشتاين الذين كتبا العديد من الكتب وخاصة في مجال التعريف بابن العربي وحياته كما ذكرنا في مقدمة هذا الكتاب.

---

[960] Toshihiko Izutsu, Sufism and Taoism (Los Angeles: University of California Press, 1983).

[961] Knysh, Alexander D., Ibn 'Arabi in the Later Islamic Tradition: The Making of a Polemical Image in Medieval Islam (Albany, NY: SUNY Press, 1999).

[962] Michel Chodkiewicz, The Seal of the Saints: Prophethood and Sainthood in the Doctrine of Ibn Arabi (Cambridge: Islamic Texts Society, 1993).

[963] William C. Chittick, The Sufi Path of Knowledge: Ibn al-'Arabi's Metaphysics of Imagination (Albany, NY: SUNY Press, 1989).

[964] William C. Chittick, The Self-disclosure of God: Principles of Ibn al-Arabi's Cosmology (Albany, NY: SUNY Press, 1998).

[965] Ibn Arabi, The Meccan Revelations, Volume I, ed. M. Chodkiewicz, trans. W. Chittick, and J. W. Morris (New York: Pir Press, 2002).

شهادات بعض العلماء في الشيخ محيي الدين

نقل المقرّي في "نفح الطيب"، وعبد الوهاب الشعراني في "اليواقيت والجواهر" وفي "الطبقات الكبرى"، وكذلك جلال الدين السيوطي في "تنبيه الغبي"، عشرات الشهادات من كبار علماء المسلمين بالشيخ محيي الدين ابن العربي. وننقل هنا بعض هذه الشهادات:

- كان الشيخ كمال الدين الزملكاني وقال عنه الشيخ كمال الدين الزملكاني قاضي قضاة الشافعية بدمشق (توفي ٧٤٣/١٣٤٣) وهو من أجلّ مشايخ الشام، يقول: ما أجهل هؤلاء! ينكرون على الشيخ محيي الدين ابن العربي لأجل كلمات وألفاظ وقعت في كتبه قد قصرت أفهامهم عن درك معانيها، فليأتوني لأحلّ لهم مشكله، وأبين لهم مقاصده، بحيث يظهر لهم الحق، ويزول عنهم الوهم.
- وسئل القطب سعد الدين الحموي عن الشيخ محيي الدين بن عربي لمّا رجع من الشام إلى بلاده: كيف وجدت ابن عربي؟ فقال: وجدته بحراً زخّاراً لا ساحل له.
- والشيخ صلاح الدين الصَفدي له كتاب جليل وضعه في تاريخ علماء العالم في مجلدات كثيرة، وهي موجودة في خزانة السلطان، تنظر في باب الميم ترجمة محمد بن عربي لتعرف مذاهب أهل العلم الذين باب صدورهم مفتوح لقبول العلوم اللدنية والمواهب الربانية.
- وفي قوله في شيء من الكتب المصنّفة كالفصوص وغيره أنّه صنّفه بأمر من الحضرة الشريفة النبويّة، وأمره بإخراجه إلى الناس، قال الشيخ محيي الدين الذهبي حافظ الشام، وهو من أعظم المنكرين على طائفة الصوفية: ما أظن المحي يتعمّد الكذب أصلاً.
- وقال الإمام الصفي ابن ظافر الأزدي في رسالته: رأيت بدمشق الشيخ الإمام العارف الوحيد محيي الدين بن عربي، وكان من أكبر علماء الطريق، جمع بين سائر العلوم الكسبية وما وفّر له من العلوم الوهبية، ومنزلته شهيرة، وتصانيفه كثيرة، وكان غلب عليه التوحيد علماً وخلقاً وحالاً، لا يكترث بالوجود مقبلاً كان أو معرضاً.
- وقال الإمام شمس الدين محمد بن مسدي في معجمه: إنّه كان ظاهري المذهب في العبادات، باطني النظر في الاعتقادات، خاض بحر تلك العبارات، وتحقق بمحيًا تلك الإشارات، وتصانيفه تشهد له عند أولي البصر بالتقدّم والإقدام، ومواقف النهايات في مزالق الأقدام، ولهذا ما ارتبت في أمره، والله تعالى أعلم بسرّه.
- وفي "صبح الأعشى" يعد القلقشندي كل البارزين عبر التاريخ في ضروب الحياة ممن كان فردا في زمانه بحيث يضرب به المثل كزرقاء اليمامة في حدة النظر، وحاتم الطائي في الكرم، وأرسطاطاليس في الحكمة، وقس بن ساعدة في الفصاحة، وأبو بكر الصديق رضي الله عنه في معرفة الأنساب، والحسن البصري في الوعظ والتذكير، وابن سيرين في

تعبير الرؤيا، والشافعي في فقه الحديث، وأبو الحسن الأشعري في علم الكلام، وأبو مسلم الخراساني في علو الهمة والحزم، وأبو الوليد بن رشد، في تلخيص كتب الأقدمين الفلسفية والطبية، ومحيي الدين بن عربي، في علوم التصوف."[٩٦٦]

- وقال عنه الإمام فخر الدين الرازي: كان الشيخ محيي الدين وليا عظيما.
- وقال الإمام سراج الدين المخزومي: كيف يسوغ لأحد من أمثالنا الإنكار على ما لم يفهمه من كلامه في الفتوحات وغيرها.
- وقال الشيخ صلاح الدين الصفدي: من أراد أن ينظر إلى أهل العلوم اللدنية، فلينظر في كتب الشيخ محيي الدين بن عربي.
- وترجمه الشيخ صفي الدين بن أبي المنصور بالولاية الكبرى والصلاح والعرفان وقال عنه: هو الشيخ الإمام المحقق رأس أجلاء العارفين والمقربين صاحب الإشارات الملكوتية والنفحات القدسية والأنفاس الروحانية والفتح الموفق والكشف المشرق والبصائر الخارقة والسرائر الصادقة والمعارف الباهرة والحقائق الزاهرة، له المحل الأرفع من مراتب القرب في منازل الأنس والمورد الفذ في مناهل الوصل والطول الأعلى من معارج الدنو والقدم الراسخ في التمكين من أحوال النهاية والباع الطويل في التصرّف في أحكام الآية وهو أحد أركان هذا الطريق."[٩٦٧]

كرامات الشيخ محيي الدين

يتساءل الكثيرون عندما يقرؤون عن الشيوخ والأولياء عن كراماتهم وما حصل لهم من خرق للعادة، وبخلاف بعض الصوفية يعتبر الشيخ محيي الدين أن الكرامة الحقيقية هي الالتزام بالشريعة الإسلامية.

فالكرامة الحقيقية في العصمة في القول والفعل والنيّة. ولكن يقول الشيخ الأكبر أن العامة لا تعرف من الكرامة إلا الحسية مثل الكلام على الخاطر والإخبار بالمغيبات الماضية والكائنة والآتية، والأخذ من الكون، والمشي على الماء واختراق الهواء وطي الأرض والاحتجاب عن الأبصار وإجابة الدعاء في الحال. فكل هذا من الكرامات الحسيّة. أما الكرامة المعنوية فلا يعرفها إلا الخواص من عباد الله وهي أن تحفظ عليه آداب الشريعة وأن يوفق لإتيان مكارم الأخلاق واجتناب سفسافها والمحافظة على أداء الواجبات مطلقاً في أوقاتها والمسارعة إلى الخيرات وإزالة الغل والحقد من صدره للناس والحسد وسوء الظن وطهارة القلب من كل صفة مذمومة وتحليته بالمراقبة مع الأنفاس ومراعاة حقوق الله في نفسه وفي الأشياء. فهذه كرامات الأولياء المعنوية التي لا يدخلها مكر ولا استدراج بل هي دليل على الوفاء بالعهود وصحة القصد والرضى بالقضاء، وأما الكرامات الحسية فكلها يمكن أن يدخلها المكر الخفي: سئل أبو يزيد عن طي الأرض فقال:

---

[966] صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تأليف أبي العباس أحمد بن علي القلقشندي، مركز تحقيق التراث–القاهرة، ١٩٨٥: ج١ص٤٥٣–٤٥٥.

[967] عبد الوهاب الشعراني، "الطبقات الكبرى": ج١ص٢٠٨. انظر أيضاً جلال الدين السيوطي، "تنبيه الغبي": ص٥٢.

"ليس بشيء فإن إبليس يقطع من المشرق إلى المغرب في لحظة واحدة، وما هو عند الله بمكان"، وسئل عن اختراق الهواء فقال إن الطير يخترق الهواء والمؤمن عند الله أفضل من الطير فكيف يحسب كرامة من شاركه فيها طائر."[968]

ولذلك لا نجد الشيخ محيي الدين يتكلم أبداً عن أي كرامة خاصة مميّزة حصلت له إلا على سبيل الإشارة، مع أن سيرته كلها كرامات لا تُنكر. يقول الشيخ محيي الدين في الباب الرابع والثمانين ومائة "في معرفة مقام الكرامات":

بعض الرجال يرى كون الكرامات ... دليل حقٍ على نيل المقامات
وأنها عين بشرى قد أتتك بها ... رسل المهيمن من فوق السموات
وعندنا فيه تفصيل إذا عَلمت ... به الجماعة لم تفرح بآيات
كيف السرور والاستدراج يصحبها ... في حق قوم ذوي جهل وآفات
وليس يدرون حقاً أنهم جهلوا ... وذا، إذا كان، من أقوى الجهالات
وما الكرامة إلا عصمة وُجدت ... في حال قول وأفعال ونيّات
تلك الكرامة لا تبغي بها بدلا ... واحذر من المكر في طيّ الكرامات

فنحن هنا لا نريد أن نذكر من الكرامات الحسّية للشيخ محيي الدين، ويوجد منها الكثير مع أنه لم يصرّح بها أبدا، ولكنّ من يقرأ كتبه يدرك، كما نوّهنا، أنه كان يحادث الملائكة فيستفيد منهم ويفيدهم، ويصحب الأرواح، ويرى الرسل والأنبياء إلى ما هنالك. ولكن ليس هناك أي ذكر أنه فعل أي شيء خارق مثل المشي على الماء وحمل الجمر وما شابه ذلك. فليس هذا ديدنه رضي الله عنه. وإنني أعتقد أن من أعظم كرامات الشيخ محيي الدين رضي الله عنه هو سعة صدره وحلمه وصبره لما وهبه الله من العلم والمعرفة، وهذا أدى به إلى الزهد في كل ما سوى الله وأنه لا يحاسب أحدا ولا يغضب لنفسه أبدا ويعطي العذر لكي من أساء له.

فقد ختم رضي الله عنه الفتوحات المكية بدعاء طويل شامل ثم سأل الله في آخر دعائه أن يجعل مثل ذلك لكل المسلمين والمسلمات "... ومن عرفني أو سمع بذكري أو لم يعرفني ... ومن ظنّ بي خيراً ومن لم يظن بي خيراً." ثم قال رضي الله عنه: "اللهم أني قد تصدقت بعرضي ودمي ومالي على عبادك فلا أطالبهم بشيء من ذلك لا في الدنيا ولا في الآخرة وأنت الشاهد علي بذلك"، وختم بالصلاة على النبي محمد صلّى الله عليه وسلّم.

فأيّ كرامة أكبر من ذلك! وكذلك روي أن رجلاً من دمشق فرض على نفسه أن يلعنه كل يوم عشرا، فلما مات هذا الرجل حضر ابن العربي جنازته ثم رجع فجلس ببيته وتوجّه للقبلة. فلما جاء وقت الغداء أحضر إليه فلم يأكل، ولم يزل على حاله إلى بعد العشاء، ثم التفت مسروراً وطلب العشاء وأكل! فقيل له في ذلك، فقال: التزمت مع الله أني لا آكل ولا أشرب حتى يغفر لهذا الذي يلعنني، وذكرت له سبعين ألف "لا إله إلا

---

[968] الفتوحات المكية: ج٢ص٣٦٩-٣٧٠.

الله"، فغفر الله له.[969]

المنتقدون لابن العربي

وليس من الغريب أن تجد الكثير من العلماء الكبار والعامة الذين ينتقدون الشيخ الأكبر رضي الله عنه، وذلك لاختلاف أذواق الناس ومشاربهم، فإن انتقده شيوخ أجلاّء فهذا لا يعني أنه ليس على شيء أو أنهم هم ليسوا على شيء، بل (قل كل يعمل على شاكلته) و"لكل مجتهد نصيب". ونجد كذلك أن الشيخ محيي الدين نفسه لم يفرض على أحد قبول أقواله وما أتى به من العلوم الذوقية، بل وزاد على ذلك أنه قد استغفر لمن كان يسبّه وخرج في جنازته ثم قرأ له سبعين ألف تهليلة حتى يغفر الله له، كما رأينا أعلاه. فالشيخ الأكبر يحترم اختلاف الأذواق والمذاهب، وحتى اختلاف الأديان، مع أنه لا يشكّ في صحّة مذهبه ودينه، ولكن الاختلاف سنّة الله في الكون، والله وحده هو الذي سيحاسب الناس، ولذلك نجد أن الشيخ قد ناقش أقوال وآراء الكثير من العلماء ورجّح بعضها على بعض وخطّأ بعضها وصحّح بعضها الآخر بأسلوب جميل ومن غير تجريح أو لعن وسبّ أو تكفير. وهذه هي بالتحديد مشكلة الكثير من الذين ينتقدون الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي رضي الله عنه وغيره من الصوفية، فالنقد بحد ذاته أمرٌ جيدٌ ومقبولٌ ولكن الأسلوب والكلام المستخدم هو الذي يعكس حالة الناقد ومستواه النفسي والروحي وعلاقته مع الخلق ومع الخالق سبحانه. فقد روى البخاري رضي الله عنه في صحيحه في كتاب الأدب من الجزء الرابع عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لم يكن النبي صلّى الله عليه وسلّم سبّاباً، ولا فحّاشاً، ولا لعّاناً، كان يقول لأحدنا عند المعتبة: "ما له ترب جبينه".

وقد يدّعي من يجرّح العلماء أنه إنما يريد فضحهم أمام المسلمين لأنه يعتقد أنهم علماء سوء وينبغي الحذر منهم وصدّ المسلمين عنهم بشتى السبل! فليس هذا من الإسلام في شيء، وليس هناك أي مبرر في الإسلام للسبّ والكلام الجارح مهما كان الخصم مخطئاً خاصة وإن كان مشهوداً له بالإسلام، وأقصى ما يقال هو الترحّم عليه وطلب المغفرة له على خطئه المزعوم، وخيرٌ لمن يستنفد جهده وماله في تخطيء العلماء وشتمهم وتكفيرهم، بهدف حماية المسلمين منهم كما يدّعي، أن يبذل بعض ذلك الجهد والمال في دعوة الناس للإسلام ويترك المسلمين يختارون طريقهم كما يروق لهم وفق ما ثبت في الشرع والمذاهب الصحيحة. وإن كان لا بدّ من النقد فليكن ذلك بأسلوب إسلامي سليم وبعد دراسة كلام هذا العالم وعدم الحكم عليه من مجرّد ما يُنقل عنه أو من مجرّد تصفّح بعض كتبه، حتى يأخذ أجر المجتهد وإن أخطأ. فالمجتهد هو من يبذل الجهد في البحث والتمحيص، أما من ينتقد من قبل أن يحاول أن يفهم فذلك متسرّع ومتهوّر.

[969] جلال الدين السيوطي، "تنبيه الغبي": ص٥٤-٥٥.

اتهامه بالتشيّع

وقبل الحديث عن موضوع التكفير ربما يكون من المناسب هنا أن نناقش موضوع التشيّع، الذي يعدّه البعض أقل درجة من التكفير. فلقد حاول البعض تجريح الشيخ الأكبر بدعوى أنه شيعي أو متشيّع، واستدلّوا على ذلك بحبه لآل البيت ودفاعه عنهم وقوله بأن أقرب الناس لمحمد صلّى الله عليه وسلّم هو علي ابن أبي طالب رضي الله عنه وكرّم وجهه، ولذلك نجد الكثير من الأخوة الشيعة يحبونه ويتدارسون كتبه ويتداولونها، وذلك والله أمرٌ جميلٌ منهم إنما يدلّ على حسن سريرتهم وخضوع قلوبهم لقول الحق، مع أن هذا القول لا ينطبق على كثيرٍ منهم، وخاصّة الذين يفرّقون بين المسلمين وبين الصحابة ويسبّون بعضهم، عافانا الله وإياهم.

ولكنّ موضوع تشيّع الشيخ الأكبر أمرٌ مردودٌ عليه بسهولة، بل لا يحتاج إلى ردّ لأن من يقرأ كتبه يدرك على الفور كم هو يمجّد أبا بكرٍ كما يمجّد علياً وعمرَ وعثمانَ وجميع الصحابة وآل البيت، بل وينتقد بشكل صريح بعض الأخطاء الظاهرة لبعض فئات الشيعة، وخاصة الإمامية منهم كما رأينا في الفصل الخامس حين تكلمنا عن الرجبيّين الذي يرون الشيعة الرافضة على شكل خنازير لأنهم يسبون أبا بكر وعمر رضي الله عنهما. وكذلك يقول الشيخ الأكبر بشكل صريح في الباب الخامس والخمسين أن الشياطين تلقي إلى أهل البدع والأهواء أصلاً صحيحاً لا يشكون فيه ثم تطرأ عليهم التلبيسات من عدم الفهم حتى يضلوا ... وأكثر ما ظهر ذلك في الشيعة ولا سيّما في الإمامية منهم، فدخلت عليهم شياطين الجنّ أولاً بحبّ أهل البيت واستفراغ الحب فيهم ورأوا أن ذلك من أسنى القربات إلى الله، وكذلك هو، لو وقفوا ولا يزيدون عليه، إلا أنهم تعدّوا من حبّ أهل البيت إلى طريقين: منهم من تعدّى إلى بغض الصحابة وسبّهم حيث لم يقدموهم وتخيلوا أن أهل البيت أولى بهذه المناصب الدنيوية، فكان منهم ما قد عُرف واستفاض (من الفتنة)، وطائفة زادت إلى سبّ الصحابة والقدح في رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وفي جبريل عليه السلام وفي الله جل جلاله."[970]

ولقد وفّر علينا جعفر مرتضى العاملي في كتابه "ابن عربي ليس بشيعي" عناء البحث والدفاع عن الشيخ محيي الدين في هذا الصدد، حيث أثبت بأدلة كثيرة مخالفة الشيخ الأكبر لمنهج الشيعة واتهمه بـ"التسنّن" موضحاً ذلك للشيعة الذين يحبونه، مع مخالفته لهم بشكل صريح.[971]

ونحن نقول أن أهل الشيعة وأهل السنة أخوة مسلمون، وكلا الفئتان تشهدان أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأما من يغالي منهم، سواء من الشيعة أو من السنّة، فيخرج عن أصول الإسلام، علم ذلك أم لم يعلم، فحسابه على الله تعالى، وأما نحن فتكفينا الشهادة لنشهد لصاحبها بالإسلام، كما قدّمنا في أول هذا الفصل.

---

[970] الفتوحات المكية: ج١ص٢٨٢.

[971] كتاب: ابن عربي ليس بشيعي، تأليف السيد جعفر مرتضى العاملي، المركز الإسلامي للدراسات، ٢٠٠٣.

مشكلة التكفير

قال الله تعالى في سورة الحجرات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾، **وقال أيضاً في سورة الأحزاب:** ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾. **وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم:** "أَيُّمَا امْرِئٍ قَالَ لأَخِيهِ: يَا كَافِرُ، فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا: إِنْ كَانَ كَمَا قَالَ، وَإِلاَّ رَجَعَتْ عَلَيْهِ."[972] **وكذلك قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الذي رواه أبو داود عن أنس بن مالك رضي الله عنهم:** "ثلاثٌ من أصل الإيمان: الكفُّ عمَّن قال لا إله إلا الله، ولا نكفّره بذنبٍ، ولا نخرجه من الإسلام بعملٍ؛ والجهاد ماضٍ منذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخرُ أمتي الدجالَ، لا يبطله جور جائرٍ، ولا عدل عادلٍ؛ والإيمان بالأقدار."[973] **وكذلك يقول الشيخ محيي الدين في وصاياه:** "واحذر أن تكفّر مؤمناً فإن تكفير المؤمن كقتله".[974]

فلا شك أنّ مشكلة التكفير هي من أعتى الفتن التي عصفت بالمسلمين منذ الخلافة الراشدية وعصر الفتنة، ولقد كان لها الأثر العظيم في التفرقة وتشتيت شمل المسلمين وسفك الدماء بغير حق. وأول ما ظهرت هذه الفتنة على يد مجموعة عُرفت باسم الخوارج وهم الفئة التي خرجت على الإمام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه بعد أن كانت تحارب معه، ثم بعد ذلك كفّروه وقتلوه. ومع ذلك فقد اختلف جمهور العلماء في تكفير الخوارج، حتى إن ابن بطّال قال: ذهب جمهور العلماء إلى أن الخوارج غير خارجين من جملة المسلمين لأنّ من ثبت له عقد الإسلام بيقين لا يخرج منه إلا بيقين، وقال: وسئل عليّ عن أهل النهروان هل كفروا؟ فقال: من الكفر فرّوا، وقال في "المفهم": باب التكفير خطر ولا يعدل بالسلامة شيء.[975]

ومع أن هذه الفئة لم تستمر طويلا نظراً لهشاشة مذهبهم وشدة اختلافهم وانقسامهم على أنفسهم، إلاّ أنّ بعض أعلام المسلمين نهجوا نهجهم إلى حدّ كبير وخاصة في ما يخصّ التكفير. ولقد استغل الاستعمار البريطاني هذه الثغرة أيّما استغلال ليزيد الشقّة بين المسلمين ويزرع الفتن من جديد حتى سفك المسلمون دماء بعضهم البعض؛ الأمر الذي أدى إلى انتهاء الخلافة الإسلامية وتفرق بلاد المسلمين إلى دول ودويلات لا تزال مستعمرة بشكل مباشر وغير مباشر. ومع أن ذلك أصبح من الماضي وتلاه صحوة محدودة بسبب تفتّح المسلمين على أصول الإسلام وروحه السمحة عندما تيسّرت لهم سبل دراسة الفقه والعلوم الإسلامية، إلا أننا ما

---

[972] صحيح مسلم، الجزء الثاني، تتمّة كتاب الإيمان، باب بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم: يا كافر. انظر كذلك في صحيح البخاري، الجزء الرابع، كتاب الأدب، الحديث رقم: ٥٧٥٣.

[973] سُنَنُ أبي دَاوُد، الجزء الثاني، كتاب الجهاد، باب في الغزو مع أئمة الجوْر، الحديث رقم ٢٥٣٢.

[974] الفتوحات المكية: ج٤ص٤٨٩.

[975] انظر في: فتح الباري، شرح صحيح البخاري، للإمام ابن حجر العسقلاني، المجلد الثاني عشر، كتاب اسْتِتَابَةِ الْمُرْتَدِّينَ وَالْمُعَانِدِينَ وَقِتَالِهِمْ، باب مَنْ تَرَكَ قِتَالَ الْخَوَارِجِ لِلتَّأَلُّفِ وَأَنْ لا يَنْفِرَ النَّاسُ عَنْهُ. وانظر كذلك في: فيض القدير، شرح الجامع الصغير، للإمام المناوي، الجزء الثالث، الحديث رقم ٤١٤٨. وانظر أيضاً في كنز العمال: رقم ٣١٥٦٨.

زلنا نلاحظ الكثير من المسلمين اليوم يطلقون دعاوي التكفير على كلّ من لم يوافق مذهبهم أو من لم يفهموا هُم مذهبه، أو لمجرّد ما يصلهم عنه من الدعاوي المدسوسة والمغرضة من غير أن يتبيّنوا النبأ.

العلماء الذين يكفّرون ابن العربي

وكما رأينا من قبل فإن الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي رضي الله عنه قد نَبّأه الله تعالى في الواقعة عندما قيل له: "أدخل مقام إبراهيم". فقال: "فعلمت أن الله تعالى لا بدّ أن يبتليني بكلام في عرضي من أشخاص فأعاملهم مع القدرة عليهم بالحلم عنهم ويكون أذى كثير".[976] فحصل بعض ذلك في حياته وبعضه بعد وفاته حيث أنكر عليه الكثير من علماء المسلمين ومنهم من كفّره ووصفه بعبارات لا تليق بالمسلمين. وكان من أبرز الذين أنكروا عليه الشيخ برهان الدين البقاعي رحمه الله وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى وغفر لهم، ولقد بالغ ابن المقري في "روض الطالب" فقال إن الشك في كُفر طائفة ابن عربي كُفر.[977]

ولقد رأينا أعلاه وفي المقدمة أنه في الحقيقة يقوم مثل هؤلاء العلماء بدور إيجابي كبير في حماية المسلمين وخاصة الشباب منهم الذين لا يستطيعون التصدّي للعلوم النظرية والفلسفة التي تحتاج إلى عقلٍ ناقدٍ متوقّدٍ وقلبٍ مؤمنٍ مسلّمٍ، فإنّ من ليس عنده مثل هذا الإيمان القويّ قد يتضرّر من قراءة بعض كتب الشيخ الأكبر لما فيها من الحقائق التي لا يتحملها عقله لأنها خارجة عن المألوف مع أنها من صميم القرآن الكريم. فتكفير ابن العربي وأمثاله، وإن كان شراً، فهو خيرٌ من الخروج عن الإسلام بسبب ما جاء في كتبه. ولقد ذكرنا أيضاً أن مثل هذه الأقوال التكفيريّة لا تضرّ من عنده قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، فمن عنده مثل هذه الملكات فلا يهمّه الخوض في أي علم شاء طالما أنه لن يزول عن برّ الأمان الذي هو الإيمان والتسليم لما في كتاب الله تعالى وسنّة نبيّه صلّى الله عليه وسلّم، وأمّا من ليس لديه إيمان قويّ فإنّه يُخشى عليه حتّى من قراءة القرآن الكريم إذا أراد أن يأخذ الأشياء بالعقل فقط.

وعلى كل حال فليهنأ هؤلاء العلماء الذي أساؤوا للشيخ محيي الدين رضي الله عنه حيث أنه قد صرّح بالعفو عن جميع من أساء إليه فلا يطالبه بشيء لا في الدنيا ولا في الآخرة، وأشهدَ الله على ذلك كما رأينا أعلاه.

ومن أوائل العلماء الذين كفّروا الشيخ محيي الدين ابن العربي وانتقدوه وحاولوا تبيين فساد أقواله وخروجها عن الإسلام شيخ الإسلام ابن تيميّة الذي ألّف في ذلك العديد من الكتب والرسائل، وكذلك فعل الشيخ برهان الدين البقاعي صاحب كتاب "تنبيه الغبي بتكفير عمر بن الفارض وابن عربي"، ثم

---

[976] الفتوحات المكية: ج1ص٧٢٢.

[977] ابن المقري (٧٥٥/١٣٥٤-٨٣٧/١٤٣٤) هو شرف الدين أبو محمد إسماعيل بن أبي بكر بن عبد الله المقري من أهل اليمن، فقيه شافعي، كان محققاً باحثاً مدققاً مشاركاً في كثير من العلوم. انظر: "الضوء اللامع": ج٢ص٢٩٢، ومعجم المطبوعات العربية والمعربة: ص٢٤٨، ومعجم المؤلفين: ج٢ص٢٦٢.

نحا نحوهما العديد من العلماء والفقهاء. وسوف نقدّم البقاعي بالذكر رغم تأخره بالزمان عن ابن تيميّة لأنه أخذ عنه أكثر ادّعاءاته وحتى نفرّغ بقيّة الكتاب لذكر النقاط التي اعترض عليها شيخ الإسلام.

الشيخ برهان الدين البقاعي

والشيخ برهان الدين البقاعي هو الإمام إبراهيم بن عمر بن حسن الرُّباط بن علي بن أبي بكر أبو الحسن برهان الدين البقاعي الشافعي، محدّث ومفسر ومؤرخ، ولد سنة ١٤٠٧/٨٠٩ وتعلم القرآن والفقه وأخذ عن ابن ناصر الدين وابن حجر، وتوفي في ١٤٨٠/٨٨٥.

ويذكر النجم الغزي في "الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة" أنه لما قدم الشيخ العلامة برهان الدين البقاعي دمشق في سنة ١٤٧٦/٨٨٠ تلقاه الشيخ تقي الدين هو وجماعة من أهل العلم إلى القنيطرة، ثم لما ألّف كتابه في الرد على حجة الإسلام الغزالي في مسألة "ليس في الإمكان، أبدع مما كان"، وبالغ في الإنكار على ابن العربي وأمثاله حتى أكفر بعضهم، كان الشيخ تقي الدين ممن أنكر على البقاعي ذلك، وهجره بهذا السبب.[978]

ولن نناقش هنا ما جاء به الشيخ برهان الدين في كتبه ولكن سنترك ذلك للفقرة التالية عند الحديث عن ابن تيميّة كما قرّرنا، لكننا سنذكر هنا أسماء بعض العلماء الذين نقل عنهم الشيخ برهان الدين البقاعي تكفيرهم لابن العربي.

فقد ألف الشيخ برهان الدين البقاعي كتاب "تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي"، وذكر فيه أسماء جماعة من الذين صرّحوا بكفر الشيخ الأكبر رضي الله عنه حسب ادّعائه، نذكر هنا بعضهم مع ذكر رقم الصفحة التي وردوا فيها بين قوسين: بدر الدين بن جماعة (١٤٠)، وشمس الدين محمد بن يوسف الجزري (١٤١)، وحفيده إمام القرّاء محمد بن محمد الجزري صاحب الجزرية (١٧٦)، وعلي بن يعقوب البكري (١٤٤)، ومحمد بن عقيل البالسي (١٤٦)، وابن هشام صاحب مغني اللبيب (١٥٠)، وشمس الدين محمد العيزري (١٥٢)، وعلاء الدين البخاري الحنفي (١٦٤)، وعلي بن أيوب (١٨٢)، وشرف الدين عيسى بن مسعود الزواوي المالكي (١٤٣)، وشمس الدين الموصلي (١٥٤)، وزين الدين عمر الكتاني (١٤٣)، وبرهان الدين السفاقيني (١٥٩)، وسعد الدين الحارثي الحنبلي (١٥٣)، ورضي الدين بن الخياط (١٦٣)، وشهاب الدين أحمد ابن علي الناشري (١٦٣)، محمد بن علي النقاش (١٤٧)، تقي الدين السبكي الذي قال: "ومن كان من هؤلاء الصوفية المتأخرين كابن العربي وغيره، فهم ضلال جهالٌ، خارجون عن طريقة الإسلام، فضلاً عن العلماء" (١٤٣).

ونقل أيضاً عن الذهبي أنه قال: "ومن أردأ تواليفه كتاب الفصوص! فإن كان لا كفر فيه فما في الدنيا كفر، نسأل الله العفو والنجاة. فوا غوثاه بالله".[979] وذكر أيضاً أن الحافظ ابن حجر قال في لسان

---

[978] الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، للشيخ نجم الدين الغزي، حققه وضبط نصه جبرائيل سليمان جبور، دار الآفاق الجديدة- بيروت، ١٩٧٩؛ ج١ص١١٦-١١٨.

[979] الذهبي، "سير أعلام النبلاء": ج٢٣ص٤٨.

الميزان: "سألت شيخنا الإمام سراج الدين البُلقيني عن ابن العربي، فبادر الجواب بأنه كافر، فسألته عن ابن الفارض فقال: لا أحب أن أتكلم فيه. قلت: فما الفرق بينهما والموضع واحد؟ وأنشدته من التائية فقطع علي بعد إنشاء عدة أبيات بقوله: هذا كفر هذا كفر".[980]

شيخ الإسلام ابن تيمية

ابن تيمية هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الخضر بن محمد بن تيمية الحرّاني ثم الدمشقي الملقب بشيخ الإسلام. ولد يوم الاثنين عاشر ربيع الأول سنة ١٢٦٣/٦٦١ بحرّان وتوفي سنة ١٣٢٨/٧٢٨، وخلّف العشرات من الكتب والرسائل وكان له مذهب خاص خالف به علماء المذاهب الأربعة وقال بآراء تقرب من آراء المجسّمة والحشوية وذلك بسبب نفيه للمجاز ومحاولته تفسير بعض آيات القرآن الكريم بشكل حرفي، ومن أجل ذلك ثار العلماء ضده في مصر والشام وسجن عدة مرات.

وكان سبب الصراع بينه وبين العلماء ما قاله في رده على أسئلة أهل حماة سنة ١٢٩٩/٦٩٨، وهو ما يعرف بالفتوى الحموية،[981] التي يسألونه بها عن الصفات الإلهية كما وردت في الآيات والأحاديث. فأجاب بما يؤدي إلى التجسيم، أي بما تعتقده الحشوية في مسألة الصفات الخبرية. فكان ذلك السبب الرئيسي لمحنته وشهرته معاً.

لقد فهم ابن تيمية القرآن فهماً حرفياً فجسّد آياته ونفى المجاز عنه فاضطر لأن يثبت لله تعالى الوجه واليد والعين وكان يثبت الجهة لله والحدّ وكفّر منكره؛[982] قال في منهاج السنة: "فثبت أنه في الجهة على التقديرين"،[983] وأثبت الجسمية لله تعالى فقال: "ولم يذم من السلف بأنه مجسم، ولا ذم المجسمة... وليس في كتاب الله ولا سنة رسوله ولا قول أحد من سلف الأمة وأئمتها إنه ليس بجسم"،[984] وكل هذه الآراء الشاذة نتجت عن الفهم الحرفي للقرآن الكريم من غير أن يستطيع إقناع أحد بذلك.

ولقد ذكر ابن بطوطة قصة قول ابن تيمية حول حديث نزول الله إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من كل ليلة،[985] فقد ذكر ابن تيمية اعتقاده فيه بوضوح حين كان يخطب الجمعة في الجامع الأموي

---

[980] لسان الميزان، لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، اعتنى به عبد الفتاح أبو غدة، اعتنى بإخراجه وطباعته سلمان عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية-بيروت، ٢٠٠٢: ص٣٦٤.

[981] الرسالة الحموية، طبعت ضمن مجموعة الرسائل الكبرى، الجزء الأول، ص٤٢٥.

[982] التأسيس في رد أساس التقديس، ابن تيمية: ج١ص٤٤٥.

[983] منهاج السنة، منهاج السنة: ج١ص٢٤.

[984] التأسيس في رد أساس التقديس، ابن تيمية: ج١ص١٠٠-١٠١.

[985] الحديث متفق عليه بين البخاري ومسلم عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنه قال: "يَنْزِلُ رَبُّنا كُلَّ لَيْلَةٍ إلى السَّماءِ الدُّنْيا حينَ يَبْقى ثُلثُ اللَّيْلِ الآخِرِ فَيَقُولُ مَنْ يَدْعُوني فأسْتَجيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْألُني فأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُني فأغْفِرَ لَهُ؟" وفي رواية لمسلم "يَنزِلُ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى إلى السَّماءِ الدُّنْيا كُلَّ لَيْلَةٍ حينَ يَمْضي ثُلثُ اللَّيْلِ الأوَّلُ فَيَقُولُ: أنا المَلِكُ أنا المَلِكُ، مَنْ ذا الَّذي يَدْعُوني فأسْتَجيبَ لَهُ؟ مَنْ ذا الَّذي يَسْألُني فأُعْطِيَهُ؟ مَنْ ذا الَّذي يَسْتَغْفِرُني فأغْفِرَ لَهُ. فَلا يَزالُ كَذلِكَ حتّى يُضيءَ الفَجْرُ". وفي رواية "إذا مَضى شَطْرُ اللَّيْلِ أوْ ثُلُثاهُ". صحيح البخاري: الجزء الأول، أبواب التهجد، رقم ١٠٩٤. صحيح مسلم: الجزء الأول، كتاب صلاة المسافرين، رقم ١٦٨.

وقال أثناء كلامه أنّ الله ينزل إلى السماء الدنيا كنزولي هذا، ونزل من درجة المنبر، فعارضه الفقيه المالكي ابن الزهراء وأنكر عليه ما قال، فضرب هذا الفقيه وسجن.[986]

وكذلك فقد تبيّن مذهبه في التجسيم بوضوح حين قال: إنّ الله تعالى يجلس على الكرسي وقد أخلى منه مكاناً يقعد فيه معه رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وذكر هذا القول تلميذه ابن القيم في بدائع الفوائد وقال إنّه قول السلف.[987]

ولقد أنكر على ابن تيمية عدد كبير من علماء المسلمين وكفّره بعضهم كالسبكي وشنّع عليه علي القادي واليافعي وزين الدين العراقي وصلاح والدين العلائي وغيرهم. قال تقيّ الدين الحمصي عن الحافظ ابن رجب الحنبلي: "وكان الشيخ زين الدين ابن رجب الحنبلي ممن يعتقد كفر ابن تيمية وله عليه الرد، وكان يقول بأعلى صوته في بعض المجالس: معذور السبكي في تكفيره."[988] وقد كفّره قضاة المذاهب الأربعة في مصر حين حرّم زيارة قبر النبي (صلى الله عليه وآله).[989] وذكر ابن حجر العسقلاني (توفي ١٤٤٨/٨٥٢) أنه قد نودي عليه بدمشق أن من اعتقد عقيدة ابن تيمية حلّ دمه وماله خصوصاً الحنابلة، فنودي بذلك وقرئ المرسوم وقرأها ابن الشهاب محمود في الجامع ثم جمعوا الحنابلة من الصالحية وغيرها وأشهدوا على أنفسهم أنهم على معتقد الشافعي."[990] وقال ابن حجر الهيثمي في الفتاوى الحديثية: "وإياك أن تصغي إلى ما في كتب ابن تيمية وتلميذه ابن القيم الجوزية وغيرهما، ممن اتخذ إلهه هواه وأضلّه الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله".[991] بعد أن قال قبل ذلك كلاماً لا يليق بالمسلمين ولا نذكره هنا ولكنّه يشبه ما يقوله ابن تيمية على ابن العربي ويزيد.[992]

وقد ذكر قاضي القضاة تقي الدين السبكي (١٣٥٥/٧٥٦) في أول مقدمته في كتابه الدرة المضية: "أما بعد فإنه لما أحدث ابن تيمية ما أحدث في أصول العقائد ونقض من دعائم الإسلام الأركان والمعاقد، بعد أن كان مستتراً بتبعية الكتاب والسنة مظهراً أنه داعٍ إلى الحق هادٍ إلى الجنة، فخرج من الإتباع إلى الابتداع وشذّ عن جماعة المسلمين بمخالفة الإجماع".[993]

وكان الذهبي (توفي ١٣٤٧/٧٤٨) ممن أعجب به فمدحه في أول الأمر ثمّ قال عنه لاحقاً فيما

---

[986] راجع "رحلات ابن بطوطة": ج١ص٥٧، وذكرت القصة في الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني ج١ص١٥٤.

[987] بدائع الفوائد، لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر المشتهر بابن قيم الجوزية، اعتنى بتصحيحه إدارة الطباعة المنيرية، دارالكتاب العربي-بيروت، ١٩٧٠: ج٤ص٣٩-٤٠.

[988] راجع: "دفع شبه من شبّه وتمرّد"، تقي الدين الحصني، ص١٢٣.

[989] راجع: "تكملة السيف الصقيل"، محمد زاهد الكوثري، ص١٥٥.

[990] الدرر الكامنة، ابن حجر العسقلاني: ج١ص١٤٧.

[991] الفتاوى الحديثية، تأليف أحمد شهاب الدين بن حجر الهيثمي المكي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي-القاهرة، ١٩٧٠، ص٢٠٣.

[992] ابن حجر الهيثمي، "الفتاوى الحديثية": ص٩٩-١٠٠.

[993] مقدمة الدرة المضية، تقي الدين السبكي، طبع في مصر مع تكملة للمحقق محمد زاهد الكوثري. وقد ألّف السبكي أيضاً كتباً أخرى بهذا الخصوص مثل: السيف الصقيل في رد ابن تيمية وابن القيم الجوزية، شفاء السقام في زيارة خير الأنام عليه الصلاة والسلام.

أصبح يُعرف بالرسالة الذهبية وهي رسالة "بيان زغل العلم والطلب": "ما وجدت آخره بين أهل مصر والشام ومقته نفوسهم وازدروا به وكذّبوه وكفّروه إلا الكِبر والعُجب وفرط الغرام في رئاسة المشيخة والازدراء بالكبار، فانظر كيف وبال الدعاوى وحب الظهور، نسأل الله المسامحة."[٩٩٤] ويشار إلى أن بعض علماء السلفية من أنصار ابن تيمية يشكون في نسب هذه الرسالة للإمام الذهبي.[٩٩٥]

ومن أهم القضايا التي اختلف بها ابن تيميّة عن جمهور العلماء مفهوم البدعة والابتداع في الدين وحدّهما، والتبرّك والتوسّل بالنبي والأولياء والأئمة، وزيارة قبور الأنبياء والأولياء والبناء عليها والصلاة عندها والنذر لأهلها، إضافة إلى مواضيع أخرى متفرّعة، وقضايا أخرى تمسّ تاريخ الإسلام، ولا تزال هذه القضايا موضع خلاف بين العلماء وبين أتباعه وأتباع تلميذه محمد بن عبد الوهاب.

وفي المقابل فإن الكثيرين قد اتبعوه ودافعوا عنه ونشروا كتبه ومقولاته وفتاويه،[٩٩٦] وقد كان هناك جدالٌ طويلٌ بين أتباعه المعجبين به وبين المستائين من فتاويه وتكفيره للعديد من أعلام المسلمين، ونحن لا نريد أن نخوض في هذا الجدال إلا فيما يخص موضوعنا الرئيسي عن آرائه بالشيخ الأكبر ابن العربي ولماذا اتهمه بالكفر والعياذ بالله، ولكن نقول مبتدئين أنه لا شك أن الشيخ ابن تيمية رحمه الله تعالى كان له أثر إيجابي كبير على الإسلام من خلال كتبه الكثيرة التي ملأت الآفاق خاصة في العصر الحديث بعد أن يسّر الله لها من تبنّاها ونشرها ووفّرها للمسلمين بأرخص الأثمان. فلا شك أنه اجتهد فأصاب في الكثير من الأمور وربما أخطأ في بعضها فله على كل حال أجر إن شاء الله تعالى.

فالحقيقة أن ابن تيمية بذل جهداً كبير في محاولة تصحيح بعض العقائد وكان يحاول الالتزام بالنصوص من الآيات والأحاديث التي ثبتت عن النبي صلّى الله عليه وسلّم، ولكنه لم يستطع أن يرفع إشكالية هذه النصوص عندما أجاب عليها بالفتاوي التي أدت إلى محنته كالفتوى الحموية التي ذكرناها أعلاه. والسبب في ذلك أنه تصدّى لمسائل فلسفية عويصة من غير أن يكون متحققاً بآراء الفلاسفة وعلماء الكلام.

ومن الغريب أن نجد أنّ مذهب ابن تيمية يلتقي في كثيرٍ من النقاط الأساسية مع رؤية ابن العربي نفسه! ولكن ابن العربي، كما رأينا، نثر عقيدته العميقة في كتبه الكثيرة وتحليلاته الطويلة حتى لا يطّلع عليها إلا من له القدرة على فهمها وأظهر فقط عقيدته العامة البسيطة كما فعل في بداية الفتوحات المكية. في حين أن ابن تيمية حاول شرح رؤيته من خلال رسائل قصيرة وبشكل مباشر ومن غير شروحات شافية ولا دلائل مقنعة ولم يراعِ كيفية تقبل الناس لها، مما أدى إلى انتقاده ومحاكمته.

---

[٩٩٤] بيان زغل العلم والطلب، للحافظ شمس الذهبي، تحقيق الشيخ محمد زاهد الكوثري، نشر القدسي بدمشق، ١٩٢٨.

[٩٩٥] ألّف الشيخ محمد بن إبراهيم الشيباني رسالة في إبطال نسبة هذه الرسالة إلى الإمام الذهبي سماها "التوضيح الجلي في الرد على النصيحة الذهبية المنحولة على الإمام الذهبي"، انظر كتاب "كتب حذّر منها العلماء"، مشهور حسن آل سلمان، تقديم بكر أبو زيد، دار الصميعي-الرياض، ١٩٩٥: ج٢ص٣٠٩.

[٩٩٦] الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية، عمر بن علي بن موسى البزار، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي-بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٠.

تقارب مذهب ابن تيمية مع مذهب ابن العربي

إن ابن تيمية رحمه الله لم يدرس كتب الشيخ الأكبر، ولو درسها لكان بلا شكّ من المدافعين عنه بأشدّ مما هاجمه واتهمه، وذلك لأن حقيقة مذهب الشيخ الأكبر أقرب ما تكون إلى الأفكار التي تميّز بها ابن تيمية والتي أدّت إلى انتقاده من قبل الكثير من العلماء.

فواقع الأمر أنّ أغلب الفقهاء لم يستطيعوا الخوض كثيراً في الأمور الفكرية والعقائدية وآثروا العمل على أحكام العبادات والمعاملات ونجحوا في ذلك نجاحاً كبيراً يُحسب لهم، ولكنّهم لم يبذلوا الكثير في الجانب الفكري والفلسفي كما فعل شيخ الإسلام ابن تيمية وكذلك ابن العربي، كلٌّ على طريقته ومنهجه؛ فأما ابن العربي فقد سلك طريق الذوق والعلم الكشفي كما رأينا، في حين أن ابن تيمية قد اتّبع طريق العقل والمنطق، وهو طريق طويل وصعب لم يستطع شيخ الإسلام رحمه الله أن يصل فيه إلى غايته، فلم يستطع أن يوضّح آراءه للعلماء الذين كثيراً ما حاربوه لأنهم لم يفهموا أقواله وأفكاره كما حارب هو ابن العربي لنفس السبب.

وأوضح دليل على ما نقول هو نفي ابن تيمية للمجاز في القرآن الكريم،[٩٩٧] الأمر الذي أدّى به للقول ببعض أقوال المجسمة والمشبّهة كما ذكرنا أعلاه. فأكثر الفقهاء يهربون من التفكير في بعض الآيات والأحاديث التي وصف الله تعالى بها نفسه أو وصفه الرسول صلّى الله عليه وسلّم بصفات البشر كاليد والاستواء والنزول والضحك والمشي والهرولة وغير ذلك، والذين يخوضون في تفسير هذه الآيات والأحاديث لا يجدون مفرّاً من الاستعانة بالمجاز المعروف في اللغة فيؤوّلون هذه الصفات بصفات تنزيه تناسب الصفات الإلهية عند زعمهم وظنّهم، وهم بذلك إنما يعطّلون معناها. ولكنّ ابن تيميّة الذي اتبع منهج السلف لم يجد دليلاً على ذلك ولم يجد منهم من يقحم المجاز ويؤوّل كلام الله تعالى، فاتّبع منهج السلف وهو محقّ في ذلك بلا شك لولا أنّه نُقل عنه بعض الأقوال التي تصرّح بالتجسيم والتشبيه الذي لم يقل به السلف أيضاً.

ومن جهة أخرى فإن ابن العربي، بخلاف عامة العلماء الذين أنكروا على ابن تيمية، يتوافق معه على مبدأ نفي المجاز ولكنّه لا يجرّ نفسه لنتائج الفكر القاصر والخيال الفاسد الذي يتصف به الناس عموما عندما يأخذون الآيات القرآنية بمعانيها المباشرة من غير تأويل، ولكنّه يفسّرها من غير الحاجة إلى المجاز وكذلك من غير جرح صفات التنزيه التي يتّصف بها الله تعالى، وسنرى بعض الأمثلة بعد قليل.

وهذه مسألة تحتاج إلى بحث منفصل ما أظنّ أن أحداً قد نبّه عليها من قبل، أي مسألة توافق ابن العربي وابن تيمية في أهم الأسس الفكرية للسلفية وهي نفي المجاز. فالشيخ محيي الدين يقول بوضوح:

---

[٩٩٧] نص على ذلك في نصوص كثيرة منها قوله في كتاب الإيمان (طبعة المكتب الإسلامي-دمشق، الطبعة الثالثة، ١٩٨٨، ص١٠٩) "وقولهم: اللفظ إن دل بلا قرينة فهو حقيقة، وإن لم يدل إلا معها فهو مجاز، فقد تبين بطلانه"، وتلميذ ابن تيمية وهو ابن القيم يعتبر المجاز في كتابه (الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة طاغوتا فيقول: "فصل في كسر الطاغوت الثالث الذي وضعته الجهمية لتعطيل حقائق الأسماء والصفات وهو طاغوت المجاز" (انظر في مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، ابن قيم الجوزيه، اختصره محمد بن الموصلي، مكتبة الرياض الحديثة-الرياض، ١٩٧٠، أول الجزء الثاني ص٢).

"فإنّا ننفي أن يكون في القرآن مجاز، بل في كلام العرب"،[٩٩٨] ويقول أيضاً: "فما وقع الإعجاز إلا بتقديسه عن المجاز"،[٩٩٩] فلو اكتشف ابن تيميّة هذه العبارات وتبحّر في معانيها لوجد كم هو قريب من الشيخ الأكبر، ولاستفاد من مقولاته هذه بل ودافع عنها بشكل مستميت كما دافع عن عقيدته وأفكاره رحمه الله.

فابن تيمية استطاع أن يصل بعقله وتقواه إلى نفي المجاز وأعلن ذلك بكل شجاعة مخالفا الجمّ الغفير من العلماء، لأن الأمر عنده هو الالتزام بالنصوص الواردة في القرآن وما ثبت من الحديث، أو من أقوال السلف، ولم يثبت في ذلك كله شيء عن المجاز، ولكنه لم يستطع أن يوفّق بين ظاهر الآيات التي تحمل معنى التشبيه وبين ما يليق بجلال الله تعالى من التنزيه، فاضطر أن يقول بأقوال تشبه أقوال المجسمة والمشبهة. ولكن الذين ناقضوه أيضاً أساؤوا الحكم حين قصّروا فهم القرآن الكريم على معانٍ مجازية ففرّغوها من معانيها التي أرادها الله تعالى، وهم يحسبون أنهم ينزهونه عن صفات الأجسام والحوادث، فجاؤوا بخطأ أشنع من خطأ المجسمة والمشبّهة، حيث أن الله سبحانه قد شبّه نفسه بشكل صريح في القرآن وعلى لسان رسوله، فإبطال هذا التشبيه هو إبطال للقرآن ونكران لقول الرسول عليه الصلاة والسلام، وكلا الفريقان مسلمون بالعقيدة مخطئون بالقول.

والسبيل للخروج من هذا التناقض يكون في أحد طريقين لا ثالث لهما: الأول أن نلتزم الإيمان من غير سؤال، وهو طريق العامة من المسلمين، وهو طريق سليم بلا شك. والطريق الثانية هي طريق التحقيق التي اتبعها الصوفية حيث التزموا التقوى حتى آتاهم الله تعالى من لدنه علما وفرقانا يفرّقون به بين الحق والباطل، فاستطاعوا بذلك العلم الخروج من التناقض بين صريح آيات التشبيه وحقيقة التنزيه الذي يليق بجلال الله سبحانه، من غير أن يعطّلوا الآيات ومن غير أن يقيّدوا الذات الإلهية بعالم التشبيه والأجسام.

وعلى الحقيقة لا يمكن الخروج من التناقض الظاهري بين ظاهر أوصاف التشبيه في القرآن الكريم والسنّة الشريفة وحقيقة تنزيه الله تعالى عن صفات الخلق سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، أقول لا يمكن الخروج من ذلك التناقض الظاهري مع الالتزام بنفي المجاز إلا بعد فهم حقيقة الخلق والوجود وعلاقة الخالق بخلقه وهو ما يؤدي في النهاية إلى ما يسمّى وحدة الوجود التي سنتكلم عنها أدناه وشرحنا طرفا منها في الفصول السابقة، ولكنّها في الحقيقة أمر عويص وصعب المنال وسوف نخصص له كتابا منفردا كما وعدنا إن شاء الله تعالى.

ولكن من جهة أخرى ومن خلال دراسة أقوال ابن العربي وأمثاله نستطيع أن نلخّص هنا أن السرّ في الخروج من التناقض المذكور هو نسبيّة العبارات اللغوية، فالأوصاف التي وصف الله تعالى بها نفسه هي أوصاف حقيقية وليست مجازية، لأن القرآن لا يجوز أن يكون مجازياً، لأنه كما قال الله تعالى في سورة هود: (الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝)، ورغم ذلك قال في سورة آل عمران: (هُوَ

---

[٩٩٨] الفتوحات المكية: ج١ص٢٥٣.

[٩٩٩] الفتوحات المكية: ج٤ص٣٣٢.

﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾، ولكن رغم ما فيه من المتشابه فهو محكم، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾، ولكن لا بدّ من التأويل حتى تردّ المتشابه إلى محكم، وإنما لا يجوز أن يكون التأويل وفق هوى النفوس، ولذلك أتبع الله تعالى بقوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝﴾، فيكون ردّ المتشابه إلى المحكم من غير تأويل مجازي بل بتأويل حقيقي يلتزم بقواعد اللغة والكلام ويلتزم بقواعد العلم والإيمان، ولا يعتمد على العقل البشري الذي يصيب حيناً ويخطئ في أغلب الأحيان.

فمثلا إن الله سبحانه وتعالى يقول بشكل صريح في سورة طه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝﴾، فلماذا نُقحم أنفسنا في تأويلات بعيدة فنقول أن الاستواء بمعنى الاستيلاء أو الإحاطة إلى غير ما هناك ممّا ورد في أغلب التفاسير، فإن في ذلك تحديد وتعطيل للمعنى الذي يقصده الله تعالى. وفي نفس الوقت لا يجوز تصوّر الرحمن سبحانه أنه جسم جلس على جسم كما يوهم بذلك ظاهر الكلام لعامة الناس والكثير من علمائهم، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً. فلو شبّهنا أخطأنا، ولو عطّلنا أخطأنا، والخروج كما قلنا يكون إما بالسكوت والإيمان بأن نقول: معناها هو كما يريده الله تعالى وكما يليق بجلاله، وهذا هو الطريق السليم الأسلم. والطريق الآخر لمن أصرّ على الفهم، وهو طريق العلماء المحققين، هو أن نجمع بين الوجهين بأن نقول أن الرحمن استوى على العرش حقاً، وليس استولى أو غيره، ولكنّ استواءه على العرش ما هو مثل استواء الملك أو السلطان على الكرسي، فليس العرش ككرسي الملك في الشكل والجسم، وليس الرحمن كذلك كالبشر سبحانه وتعالى حتى يجلس على الكرسي كما يفعل البشر، ولكن استواءه على العرش أمرٌ لا ندرك كنهه لأننا لا ندرك ذات الله سبحانه ولا نعرف تماماً ما هو العرش المقصود هنا. فنحن مثلا عندما نقول: "طار العصفور" نتخيل العصفور وأجنحته وخفقاتها، ولكن عندما نقول "طارت الطائرة" نتخيّل المحركات والمراوح الضخمة إلى ما هنالك. فالكلمة واحدة والحركة مختلفة، ولا يمكننا معرفة حقيقة الفعل إذا لم نعرف حقيقة الفاعل، وبما أننا لا نعرف كنه ذات الله سبحانه، فكيف نعرف كيفية استواءه.

ولكن لا بدّ أن نضيف أيضاً أن الإنسان عندما يدرج في طريق العلم تتفتّح له أبواب جديدة من الفهم يستطيع أن يدرك بها المزيد والمزيد من معاني الآيات القرآنية التي آمن بها ابتداءً وسلّم بمعانيها. والقرآن من جوامع الكلم، لأن آياته تحوي في كلماتها المحدودة عدداً كبيراً من المعاني التي لا تتكشف إلا لمن كان له قلب يبصر به الحقائق أو لمن ألقى السمع، أي سلّم وأسلم، ثم آمن، حتى يفتح الله له بصيرته فيعبد الله كأنه يراه، وهي مرتبة الإحسان التي لا يكون بعدها نقصان. فالإيمان يزيد وينقص، لأنه إيمان بشيء غيبي، والإحسان يزيد ولا ينقص، لأنه عن بصيرة ومشاهدة لا يُتصوّر معها الكفر.

تكفير ابن تيمية لابن العربي

ولكن الواقع أن ابن تيمية كان من أكثر العلماء الذين استنكروا كلام ابن العربي، فوصفه بالكفر والضلال، من غير آية بيّنة، بل وحتى من غير أن يكلّف نفسه قراءة كتبه والبحثَ فيها، وذلك واضح وجليٌ من خلال ما نسب إليه من الأقوال التي لم يقلها وأساء فهم أقواله بأقرب تأويل من غير بحث ولا تمحيص ولا تدقيق يوضح له معانيها التي لا تجانب الإسلام قيد أنملة، ثم إن ذلك انطلى على أتباعه المقلدين الواثقين بشيخهم واعتبروه من الحقائق المسلّمة. وساعد على هذا كلّه صعوبة فهم الشيخ الأكبر نظراً لعمق الموضوعات التي يتطرق إليها والتي يصعب استخراج مكنوناتها إلا لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، أما أولئك الذين يقفون عند حدود مفهوماتهم الضيّقة للكلام ثم يرفضون سماع الخصم ويحكمون عليه من أول وهلة وكأنهم يخافون أن يسحرهم بكلامه كما كان يرفض بعض العرب سماع القرآن فأولئك قد وضعوا لأنفسهم حدوداً ونصبوا حولهم قضباناً وسجنوا أنفسهم داخلها.

ولقد اختار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى وغفر له بعض الموضوعات التي وصلته من غريب كلام ابن العربي فأنكرها وكتب حولها الكتب والفتاوى من غير أدنى بحثٍ ولا استبيان، فمن هذه الموضوعات:

الولاية والنبوة

فمما استنكره شيخ الإسلام على الشيخ الأكبر قوله بأن مقام الولاية فوق مقام النبوة، وهذا كلام صحيح قال به الشيخ الأكبر ولكنه لا يعني أبدا أن عموم الأولياء أعلى مقاما من الأنبياء وذلك لأن كل نبيّ فهو وليّ بالضرورة فهو من كونه وليّ أعلى من كونه نبيّ ولكن الوليّ الذي ليس بنبيّ مقامه بلا شكّ أدنى من مقام النبيّ لأنه شاركه بمرتبة الولاية ولم يشاركه بمرتبة النبوّة. قال ابن تيميه:

> ومنهم -أي الصوفية- من يدّعي أن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء من جهة العلم بالله، وأن الأنبياء يستفيدون العلم بالله من جهته، كما زعم ذلك ابن العربي صاحب كتاب "الفتوحات المكية" وكتاب "الفصوص". فخالف الشرع والعقل مع مخالفة جميع أنبياء الله وأوليائه."[1000]

وهذا الكلام فيه تحريف شديد وافتراء واضح لا ينبغي أن يصدر عن شيخ عالم مثل ابن تيمية رحمه الله لأن ابن العربي لم يقله ولا يمكن أن يقول مثل ذلك، فخاتم الأنبياء محمد صلّى الله عليه وسلّم، وخاتم الأولياء، كما يقول الشيخ الأكبر رضي الله عنه، هو عيسى عليه السلام حينما ينزل قبل القيامة في الشام ويحكم بشريعة محمد صلّى الله عليه وسلّم، وابن العربي لم يذكر أبدا مثل هذا القول ولكنه يقول في "الفتوحات المكية" في نص غنيّ عن الشرح والتوضيح:

[1000] مجموع فتاوى ابن تيمية: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، فصل الفرق بين الإرادة والأمر والقضاء والإذن والتحريم والبعث والإرسال (ج١١ ص٢٢٤).

وذلك أن الله اصطفى من كل جنس نوعاً ومن كل نوع شخصاً واختاره عناية منه بذلك المُختار أو عناية بالغير بسببه، وقد يختار من الجنس النوعين والثلاثة وقد يختار من النوع الشخصين والثلاثة والأكثر.

فاختار من النوع الإنسانيّ المؤمنين واختار من المؤمنين الأولياء واختار من الأولياء الأنبياء واختار من الأنبياء الرسل وفضّل الرسل بعضهم على بعض.[1001]

وقال أيضاً:

وقد علمتَ أن الرسل أعدل الناس مزاجاً لقبولهم رسالات ربهم وكل شخص منهم قبل من الرسالة قدر ما أعطاه الله في مزاجه في التركيب، فما من نبي إلا بُعث خاصة إلى قوم معيّنين لأنه على مزاج خاص مقصور، وإن محمدا صلّى الله عليه وسلّم ما بعثه الله إلا برسالة عامة إلى جميع الناس كافة ولا قبل هو مثل هذه الرسالة إلا لكونه على مزاج عام يحوي على مزاج كل نبي ورسول؛ فهو أعدل الأمزجة وأكملها وأقوم النشآت.[1002]

والشيخ الأكبر رضي الله عنه يقول إن مقام الولاية أعلى من مقام النبوة وكذلك أعلى من مقام الرسالة، وهذا صحيح، ولكن ذلك لا يعني أن الولي أعلى مقاماً من النبي أو الرسول، وإنما النبي أو الرسول لا يكون نبياً أو رسولاً إلا أن يكون ولياً، فهو من كونه وليّ أعلى من كونه نبيّ أو رسول، وهو أيضاً أعلى من الولي الذي ليس بنبي أو رسول لأنه زاد عليه بالنبوة أو بالرسالة واشترك معه بالولاية. فأي شيء أعظم من مقام الولاية وهي اسم مشترك مع جلال الله سبحانه وتعالى، فهو الوليّ، وهو إن تولى عبده بعنايته فإنه ينوب عنه في كل شيء وينبه كذلك في كل شيء لأنه هو وليّه فنعم المولى ونعم النصير. وعندما مدح الله المؤمنين وذمّ الكافرين قال الله تعالى في سورة محمد: (ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ۝) فذمّهم لأنهم يتصرّفون عن أهوائهم في حين أن الذين آمنوا حقّا يُلهمهم الله فعل الخير لأنه تولاهم وتكفّل بهم، ولذلك كان النبي صلّى الله عليه وسلّم يقول: "وَتَوَلَّنِي فِيمَن تَوَلَّيْتَ"،[1003] اللهم آمين.

فدرجة الولاية أعم ودائرة الولاية أوسع، ولذلك أوضح الشيخ الأكبر في حديثه عن بعض أصناف الأولياء فقال:

فمن الأولياء رضي الله عنهم الأنبياء صلوات الله عليهم، تولاهم الله بالنبوة، وهم رجال اصطنعهم لنفسه واختارهم لخدمته واختصهم من سائر العباد لحضرته،

[1001] الفتوحات المكية: ج١ص٤٦٥.

[1002] الفتوحات المكية: ج٣ص٢٥١.

[1003] انظر في كنز العمال: رقم ١٩٥٧٥، وهو من دعاء القنوت.

شرع لهم ما تعبّدهم به في ذواتهم ولم يأمر بعضهم بأن يعدّي تلك العبادات إلى غيرهم بطريق الوجوب. فمقام النبوة مقام خاص في الولاية، ... ومن الأولياء رضوان الله عليهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، تولاهم الله بالرسالة فهم النبيون المرسلون إلى طائفة من الناس، أو يكون إرسالاً عاماً إلى الناس ولم يحصل ذلك إلا لمحمد صلّى الله عليه وسلّم؛ فبلّغ عن الله ما أمره الله بتبليغه في قوله: (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك)، (وما على الرسول إلا البلاغ)، فمقام التبليغ هو المعبّر عنه بالرسالة لا غير. وما توقفنا عن الكلام في مقام الرسول والنبي صاحب الشرع إلا لأن شرط أهل الطريق فيما يخبرون عنه من المقامات والأحوال أن يكون عن ذوق، ولا ذوق لنا ولا لغيرنا ولا لمن ليس بنبي صاحب شريعة في نبوة التشريع ولا في الرسالة، فكيف نتكلم في مقام لم نصل إليه، وعلى حال لم نذقه! لا أنا ولا غيري ممن ليس بنبي ذي شريعة من الله ولا رسول؛ حرام علينا الكلام فيه، فما نتكلم إلا فيما لنا فيه ذوق، فما عدا هذين المقامين فلنا الكلام فيه عن ذوق لأن الله ما حجره. ومن الأولياء أيضاً الصدّيقون رضي الله عن الجميع تولاهم الله بالصدّيقية ...[١٠٠٤]

فهل هناك أوضح من ذلك، ويزيد الشيخ الأكبر توضيح المسألة فيقول:

فأول مرتبة العلماء بتوحيد الله الأولياء فإن الله "ما اتخذ ولياً جاهلاً"[١٠٠٥] وهذه مسألة عظيمة أغفلها علماء الرسوم (أي الفقهاء) فإنه يدخل تحت فلك الولاية كل موحّد لله بأي طريق كان (أي مهما كان دينه) وهو المقام الأول، ثم النبوة ثم الرسالة ثم الإيمان، فهي فينا أعلى مرتبة الولاية على ما رتبناه، وهي هناك ولاية ثم إيمان ثم نبوة ثم رسالة. وعند علماء الرسوم وعامة الناس الخارجين عن الطريق الخاص المرتبة الأولى إيمان ثم ولاية ثم نبوة ثم رسالة.[١٠٠٦]

وزاد أيضاً:

اعلم أن الولاية هي المحيطة العامة وهي الدائرة الكبرى فمن حُكمها أن يتولى الله من شاء من عباده بنبوة وهي من أحكام الولاية، وقد يتولاه بالرسالة وهي من أحكام الولاية أيضاً؛ فكل رسول لا بد أن يكون نبياً وكل نبي لا بد أن

[1004] الفتوحات المكية: ج٢ص٢٤.

[1005] هذا الخبر لم يثبت في كتب الحديث مرفوعا إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم، وقال الحافظ بن حجر أنه ليس بثابت ولكن معناه صحيح. انظر في كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، دار الكتب العلمية -بيروت، ١٩٨٨، حرف الميم، رقم ٢١٨٥.

[1006] الفتوحات المكية: ج٢ص٥٢.

يكون ولياً، فكل رسول لا بد أن يكون ولياً، فالرسالة خصوص مقام في الولاية.[1007]

وكذلك قال:

فالأولياء هم ولاة الحق على عباده والخواص منهم الأكابر يقال لهم رسل وأنبياء ومن نزل عنهم بقي عليه اسم الولاية فالولاية الفلك المحيط الجامع للكل فهم وإن اجتمعوا في منصب الولاية فالولاة لهم مراتب فالسلطان وال على الخلق والقاضي وال والمحتسب وال وأين رتبة السلطان من مرتبة صاحب الحسبة وكلهم لهم الأمر في الولاية.[1008]

وكذلك قال أيضاً:

والولاية لها الأولية ثم تنصحب وتثبت ولا تزول ومن درجاتها النبوة والرسالة فينالها بعض الناس ويصلون إليها وبعض الناس لا يصل إليها، وأما اليوم فلا يصل إلى درجة النبوة، نبوة التشريع، أحد لأن بابها مغلق، والولاية لا ترتفع دنيا ولا آخرة. فللولاية حكم الأول والآخر والظاهر والباطن بنبوة عامة وخاصة وبغير نبوة، ومن أسمائه (سبحانه) الولي وليس من أسمائه نبي ولا رسول. فلهذا انقطعت النبوة والرسالة لأنه لا مستند لها في الأسماء الإلهية ولم تنقطع الولاية فإن الاسم الولي يحفظها.[1009]

فهل لو قرأ شيخ الإسلام هذه العبارات الصريحة يعود فيقول ما نقلناه عنه أعلاه! حاشاه، فهو لا يزال إمامٌ عدل عند ظننا به، ولكن فاته البحثُ وأسرع في الرد من غير بيّنة، غفر الله له ولنا.

دعوى مدح الكفار وانتقاص بعض المسلمين والرسل عليهم الصلاة والسلام

فمما زعمه شيخ الإسلام عن ابن العربي أنه انتقص بعض المسلمين والرسل في حين أنه مدح الكفّار. قال ابن تيميه:

ولما كانت أحوال هؤلاء شيطانية، كانوا مناقضين للرُسل صلوات الله تعالى وسلامه عليهم، كما يوجد في كلام صاحب "الفتوحات المكية" و "الفصوص" وأشباه ذلك، يمدح الكفّار مثل قوم نوح وهود وفرعون وغيرهم، وينتقص الأنبياء كنوح وإبراهيم وموسى وهارون! ويذمّ شيوخ المسلمين المحمودين عند المسلمين كالجنيد بن محمد، وسهل بن عبد الله التستري وأمثالهما، ويمدح

[1007] الفتوحات المكية: ج٢ص٢٥٧.

[1008] الفتوحات المكية: ج٣ص١٤.

[1009] الفتوحات المكية: ج٣ص١٠١.

المذمومين عند المسلمين كالحلاج ونحوه."[1010]

وهذا قول بهتان واضح لا يحتاج إلى الردّ عليه، فكتب الشيخ الأكبر تفيض بمدح الرُسل والأنبياء والمسلمين شعراً ونثراً ما سبقه إلى ذلك أحد، وما ورد عنه قطّ أنه ذمّ رسولاً أو نبيّاً أو مسلماً أبداً، حاشاه أن يفعل ذلك. وأما بخصوص الجنيد والتستري فهو يقول في معرض حديثه عن أصل كلمة الهباء: "وقد ذكره علي بن أبي طالب وسهل بن عبد الله وغيرهما من أهل التحقيق أهل الكشف والوجود"،[1011] فهل هذا ذمّ أم مديح. وقال في موضع آخر: "وطائفة أخرى من علماء هذه الأمة يحفظون عليها أحوال الرسول وأسرار علومه كعلي بن أبي طالب، وابن عباس، وسلمان ... ومن نزل عنهم بالزمان كشيبان الراعي... والجنيد والتستري ومن جرى مجرى هؤلاء من السادة في حفظ الحال النبوي والعلم اللدنّي والسرّ الإلهي."[1012]

وأما عن الحلاج، فهو لا يذمّه ولا يكفّره كما يسارع إلى ذلك من لا علم له، ولكن أيضاً ينتقده ويوضّح أخطاءه بأسلوب جميل وبدون تهتّك، فهو يقول مثلاً: "قال الحلاج وإن لم يكن من أهل الاحتجاج: بسم الله منك بمنزلة كن منه."[1013] وقال أيضاً: "كما قبلنا شهادة الشبلي وقوله في الحلاج ولم نقبل قول الحلاج في نفسه ولا في الشبلي لأن الحلاج سكران والشبلي صاح."[1014] وقال: "ومنها من ادّعت ذلك في حال سكر كالحلاج فقال قول سكران فخبَط وخلَط لحكم السكر عليه وما أخلص."[1015]

فإذا لم يكن يروق لابن تيمية وأمثاله كلام الشيخ الأكبر فلينتقده بمثل هذا الأسلوب الجميل، فإن النبي صلّى الله عليه وسلّم لم يكن لعّاناً ولا طعّاناً، كما ورد في الحديث أعلاه.

دعوى الاتحاد والحلول

ما زال الشيخ ابن تيميه ينسب ابن العربي إلى القول بالاتحاد والحلول، واستخدم في الردّ عليه عبارات ساخرة استهزاءً به في غير موضع من كتابه "الفرقان بين أولياء الله وأولياء الشيطان" وغيره، في حين نفى الشيخ الأكبر رضي الله عنه ذلك بشكل صريح وواضح في مواضع كثيرة، فقال: من فصل بينك وبينه أثبت عينك وعينه؛ ألا تراه تعالى قد أثبت عينك وفصل كونك بقوله، إن كنت تنتبه، "كنت سمعه الذي يسمع به"، فأثبتك بإعادة الضمير إليك ليدل عليك. وما قال بالاتحاد إلا أهل الإلحاد."[1016]

[1010] مجموع فتاوي ابن تيمية: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، (ج١١ص٢٤٠)، وانظر أيضاً: الرد على ابن تيمية من كلام الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، محمود محمود الغراب، مطبعة بن ثابت-دمشق، ١٩٨١، (ص١٣-١٥)، وأيضاً: السلفية بين أهل السنة والإمامية، السيد محمد الكثيري، سلسلة الرحلة إلى الثقلين (٢٣) إعداد مركز الأبحاث العقائدية-طهران، (ص٢٧١-٢٧٢).

[1011] الفتوحات المكية: ج١ص١١٩.

[1012] الفتوحات المكية: ج١ص١٥١.

[1013] الفتوحات المكية: ج٢ص٣٩٧.

[1014] الفتوحات المكية: ج٢ص١٢.

[1015] الفتوحات المكية: ج٣ص١١٧.

[1016] الفتوحات المكية: ج٤ص٣٧٢.

وفي الباب الثامن والأربعين ومائتين قال: "ومن قال بالحلول فهو معلول".[1017]

وفي الباب الثالث عشر وثلاثمائة قال: "والحق تعالى منزّه الذات عن الحلول في الذوات".[1018]

أما ما يُفهم من كلام ابن العربي في بعض شروحه وأشعاره، فكله من وحي الحديث القدسي الذي قال فيه الله تعالى "كنت سمعه الذي يسمع به..."، فعندما يكون العبد بهذا القرب من الله تعالى تقصر العبارات وتعجز اللغات عن توصيل المعنى فقد يفهم السامع غير ما قصد القائل إذا لم يضع كلّ كلمة في مكانها من الإضافة والمعنى.

وقد سئل شيخ الإسلام عن مثل هذه الأقوال فقال في رسالة إبطال وحدة الوجود:

> هذه الأقوال المذكورة تشتمل على أصلين باطلين مخالفين لدين المسلمين واليهود والنصارى مخالفتهما للمعقول والمنقول: أحدهما الحلول والاتحاد وما يقارب ذلك كالقول بوحدة الوجود كالذين يقولون إن الوجود واحد، فالوجود الواجب للخالق هو الوجود الممكن للمخلوق، كما يقول ذلك أهل الوحدة كابن عربي وصاحبه القونوي وابن سبعين وابن الفارض ... ثم من هؤلاء من يفرّق بين الوجود والثبوت كما يقوله ابن عربي ويزعم أن الأعيان ثابتة في العدم غنيّة عن الله في أنفسها، ووجود الحق هو وجودها، والخالق مفتقر إلى الأعيان في ظهور وجودها، وهي مفتقرة إليه في حصول وجودها الذي هو نفس وجوده.[1019]

وحدة الوجود

ومن الأمور التي اتهم بها شيخ الإسلام ابن تيمية الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي أنه قال بوحدة الوجود. وبالفعل لقد قال الشيخ محيي الدين مثل ذلك، ولكن ليس بالشكل الذي يفهمه شيخ الإسلام، وهذا أمر ليس بإمكاننا الخوض به هنا كثيرا لأنه يحتاج إلى كتاب منفصل سنقوم به في المستقبل القريب إن شاء الله تعالى. ولكن لا بدّ من التنويه في البداية إلى أنّ الشيخ محيي الدين لم يذكر أبداً كلمة "وحدة الوجود" ولا نُقل عنه ذلك لا في كتبه ولا مشافهة، ولكنه يشير إلى نوع من الوحدة الوجودية التي تضمحلّ فيها، عند مستوىً معيّن، جميع المخلوقات ولا يبقى وجود حقيقي إلا لذات الله تعالى. فليس ذلك بمعنى التوحّد أو الاتّحاد بين الخلق والخالق، بل هو نفي الوجود الحقيقي عن الخلق وإثباته للخالق وحده سبحانه وتعالى، أما وجود الخلق فهو وجودٌ نسبيٌّ منوطٌ بوجود الله تعالى أي قائمٌ به وليس وجوداً قائماً بنفسه، فالله وحده هو القيّوم أي القائم بنفسه والخلق قائمون به، فلو كان الخلق قائمون بأنفسهم لكان لهم

[1017] الفتوحات المكية: ج٤ص٣٧٩.

[1018] الفتوحات المكية: ج٣ص٥٢، وكذلك: ج٢ص٦١٤.

[1019] مجموع فتاوى ابن تيمية: كتاب توحيد الربوبية (ج٢ص٢٩٥).

وجود مستقل عن وجود الحق وبالتالي يكونون أغنياء عنه، بل الحقيقة أنهم مفتقرون إليه في كل حين.

والذين يخوضون في موضوع وحدة الوجود من غير علم يعتقدون أن من يقول بها إنما يعتبر أن الحق والخلق شيء واحد، أي أن الكرسي والجدار والحجر وغير ذلك من الأشياء هي نفسه الله سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً. وهذا كلّه خلط لا يقول به عاقل. وابن تيميّة مع أنه يعترف لابن العربي بأنه يوجد في كلامه الكثير من الكلام الجيّد في هذا الخصوص ولكنه مع ذلك يسميه كفراً، فيقول ابن تيمية في رسالة "حقيقة مذهب الاتحاديين أو وحدة الوجود" إن "مقالة ابن عربي صاحب فصوص الحكم، وهي مع كونها كفراً فهو أقربهم إلى الإسلام لما يوجد في كلامه من الكلام الجيد الكثير، ولأنه لا يثبُت على الاتحاد ثبات غيره، بل هو كثير الاضطراب فيه، وإنما هو قائم مع خياله الواسع الذي يتخيل فيه الحق تارة والباطل أخرى. والله أعلم بما مات عليه." ثم يقول: "وأما صاحب الفصوص وأتباعه فيقولون: عين وجودها (أي الأشياء) عين وجود الحق، فهي متميزة بذواتها الثابتة في العدم متحدة بوجود الحق العالِم بها."

ولكن ابن العربي لا يقول أبداً أن وجود المُحدَث (أي الخلق) هو عين وجود القديم (أي الحق) كما يتهمه ابن تيمية، بل يقول صراحة في الباب الخامس والثمانين ومائة: "إذ يستحيل تبدّل الحقائق؛ فالعبد عبد، والرب رب، والحق حق، والخلق خلق".[1020] ويقول أيضاً: "فلا يجتمع الخلق والحق أبداً في وجه من الوجوه، فالعبدُ عبدٌ لنفسه، والربُّ ربٌّ لنفسه، فالعبودية لا تصح إلا لمن يعرفها فيعلم أنه ليس فيها من الربوبية شيء، والربوبية لا تصح إلا لمن يعرفها فيعرف أنه ليس فيها من العبودية شيء."[1021]

دعوى قِدم العالم

وبالمعنى نفسه أيضاً يتهم شيخُ الإسلام ابنَ العربي بأنه يقول بقِدم العالم،[1022] في حين أن ابن العربي أوضح في مواضع كثيرة أن العالَم لم يكن ثم كان وأن الله سبحانه وتعالى أنشاه ابتداءً وقد ذكرنا من قبل كيف أنه رأى الحقّ في المنام فأمره أن لا يجالس المطاطيين، فقال وما المطاطون؟ قال هم الذين يمدّون العالم إلى غير نهاية في الابتداء، وإني ابتدأت العالم بالخلق. وهذا التقرير ردّ بيّن على مثل هذه التهم، ومع ذلك يتناقل أتباع ابن تيمية هذه الأقوال من غير بيّنة حيثُ ينقل الذهبي في "تاريخ الإسلام" بطريقين مختلفين عن ابن تيمية أن الشيخ عزّ الدين ابن عبد السلام يقول عن ابن العربي: "شيخ سوء كذّاب يقول بقِدم العالم ولا يحرّم فرجا". وهذا بلا شكّ قذف وافتراء وبهتان عظيم ومن غير المستبعد أن يكون مكذوبا على الشيخ عزّ الدين في ذلك، فهو شيخ جليل لا يقول مثل هذا الكلام، فلا ينبغي تداول الأنباء التي

[1020] الفتوحات المكية: ج٢ص٣٧١.

[1021] الفتوحات المكية: ج٣ص٣٧٨.

[1022] مجموع فتاوى ابن تيمية: كتاب توحيد الربوبية، مسألة قول العلماء في كتاب فصوص الحكم، (ج٢ص١٣٢)، رسالة حقيقة مذهب الاتحاديين القائلين بوحدة الوجود، فصل في ما بنى عليه الاتحادية أصلهم، مقالة ابن عربي مبنية على أصلين، الأصل الأول أن المعدوم شيء ثابت في العدم (ج٢ص١٤٥)، جماع أمر صاحب الفصوص وذويه هدم أصول الإيمان الثلاثة (ج٢ص٢٤٥)، كتاب القدر، مسألة هل أفعال العباد قديمة أم مخلوقة (ج٨ص٤٠٠).

يأتي بها الفاسق قبل التبيّن من صحّتها. وقد نقل الذهبي مثل هذا الكلام فقال: "هكذا حدثني شيخنا ابن تيمية الحراني به عن جماعةٍ حدثوه عن شيخنا ابن دقيق العيد أنه سمع الشيخ عز الدين يقول ذلك."[1023] وفي مكان آخر نقل نفس الكلام بطريق مختلف فقال: "وقد حط عليه الشيخ القدوة الصالح إبراهيم بن معضاد الجعبري، فيما حدثني به شيخنا ابن تيمية، عن التاج البرنباري، أنه سمع الشيخ إبراهيم يذكر ابن العربي فقال: كان يقول بقدم العالم ولا يحرم فرجاً."[1024]

والحقيقة أن الشيخ محيي الدين قد ذكر في العديد من كتبه شعراً ونثراً أن الله خلق العالم ابتداءً، وله في ذلك نظرية بديعة ناقشناها ببعض التفصيل في الأطروحة (التي نقوم الآن بإعادة صياغتها باللغة العربية وستنشر قريبا إن شاء الله تعالى)، ولكن ما ذنبه إذا كان بعض الناس يقرؤون طرفاً من كلامه ثم يحكمون عليه من خلال فهمهم. ولقد وقع في مثل هذا الخطأ أيضاً بعض أنصار الشيخ محيي الدين مثل الباحث الشهير هنري كوربان الذي يقول في كتابه "الخيال الخلاّق" أنه "لا يوجد في علم ابن العربي خلق من عدم"،[1025] في حين أن ابن العربي ابتدأ الحمد في خطبة الفتوحات المكية بقوله: "الحمد لله الذي خلق الأشياء من عدم"،[1026] ويقول أيضاً في "الدرّة البيضاء" أن الممكن (وهو العالم) لا يمكن إلا أن يكون عن عدم، وإلا فهو ليس ممكن (بل واجب، وهذا لا يجوز، فليس هناك واجب الوجود غير الله تعالى). فابن العربي لا يمكن أن يقول بقدم العالم، فهذا إشراك صريح وهو نقيض حقيقة وحدة الوجود التي تنفي أي وجود حقيقي لما سوى الله تعالى كما قلنا.

مسألة إيمان فرعون

وهذه مسألة شائكة غفل عنها أكثر المسلمين، ولا يمكننا هنا القطع بها أو تفصيلها وإنما تحتاج إلى كتاب خاص إن شاء الله تعالى. ولكننا نقول هنا أن الشيخ الأكبر لم يقرّر أبداً أن إيمان فرعون مقبول عند الله تعالى وإنما ترك الأمر مفتوحاً كما هي حقيقة الأمر في القرآن الكريم لأنه شيء عائد لله تعالى وحده أن يقبل أو لا يقبل إيمان فرعون أو أن يعاقبه أو يعفو عنه؛ وليس هناك دليل قوي يدعو لنفي قبول إيمان فرعون؛ فكما أننا لا نستطيع أن نقرر بشكل حاسم أن فرعون قد مات مؤمناً (بقلبه) كذلك لا نستطيع أن نقرر أنه قد مات كافراً، لأنه لا شك نطق بكلمة التوحيد وأسلم قبل موته، والأمر إلى الله تعالى وحده أن يقبله أو لا يقبله، لأنه هو الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ونحن لا نستطيع أن نحكم إلا بحسن الظنّ وظاهر القول.

والحقيقة أن ظاهر قول فرعون هو إيمان صريح وغير معلول رغم أنه جاء متأخراً، ولكن ليس قبل فوات الأوان، فليس هناك مانع شرعي ولا دليل على عدم قبوله، بل إن المرجّح أن تسعه رحمة الله الغفور

[1023] الذهبي، "تاريخ الإسلام": أحداث وفيات ٦٣١–٦٤٠ (ص٣٨٠).

[1024] الذهبي، "تاريخ الإسلام": أحداث وفيات ٦٤١–٦٥٠ (ص٢٧٩–٢٨٠).

[1025] هنري كوربان، "الخيال الخلاّق": ص٢٠٠.

[1026] الفتوحات المكية: ج١ص٢.

الرحيم، والآيات التي تدلّ على ذلك كثيرة إذا أخذناها بعين الإنصاف وبدون التحيّز البشري المعتاد في مثل هذه الحالات عندما يقدر الإنسان على عدوّه الظالم فينتقم منه دون أدنى رحمة، والأمر ليس كذلك بالنسبة لله تعالى القادر على كل شيء، والذي لو شاء لانتقم من فرعون في أي وقت وبأي شكل سواء في الدنيا أو في الآخرة.

يقول ابن تيمية:

> والمقصود هنا أن هؤلاء الاتحادية من أتباع صاحب "فصوص الحكم" وصاحب "الفتوحات المكية" ونحوهم هم الذين يعظّمون فرعون ويدّعون أنه مات مؤمنا وأن تغريقه كان بمنزلة غسل الكافر إذا أسلم، ويقولون: ليس في القرآن ما يدل على كفره ويحتجون على إيمانه بقوله (تعالى، في سورة يونس) (حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾)، وتمام القصة تبين ضلالهم، فإنه قال سبحانه: (ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾)، وهذا استفهام إنكار وذم، ولو كان إيمانه صحيحا مقبولا لما قيل له ذلك.[1027]

فكيف قرّر شيخ الإسلام أن هذا الاستفهام إنكارٌ وذمٌّ، ولماذا لا يكون لوماً وعتاباً، فلو شاء الله أن يكذّب فرعون لفعل ذلك بصريح الآية، وابن تيمية نفسه ينفي المجاز كما رأينا، ولكن تطبيق الأسلوب البشري في الكلام العامي هو الذي أدى إلى هذا الاستنتاج، وهو أمرٌ أبعد من مجرّد المجاز ولا يجوز تطبيقه على القرآن بتاتاً. والحقيقة أيضاً أن في هذه الآية إشارة واضحة إلى أن فرعون قد دخل طوراً جديداً بقول الله له "من قَبْلُ" و"كُنتَ" ثمّ تلا ذلك بقوله تعالى "فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ" وقال "بِبَدَنِكَ" ولم يقل "ننجي بدنك" ثم علّل ذلك سبحانه وتعالى فقال: "لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ" وذلك لأن القليل يدرك سعة رحمة الله تعالى ومغفرته مهما كانت الذنوب كبيرة وكثيرة، فإنه قد يغفرها أو يكفّرها ولا يبالي، خاصة وأنه قال في آية أخرى أن الله تعالى أخذ فرعون هذا الأخذ الأليم "نكال الآخرة والأولى"، أي جزاءً، أي تكفيراً، والله تعالى أعلم. فلو كانت الآية في أخذ فرعون بالغرق إظهار قدرة الله تعالى عليه لما صحّ قوله تعالى بعد ذلك "وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ"، فالكثير ما زاد على النصف على أقلّ تقدير، ولكنّ أكثر الناس يدركون ويعرفون قدرة الله تعالى على فرعون وغيره في حين أن أكثر الناس غافلين بالفعل عن سعة رحمة الله تعالى.

ولو أردنا تحليل الآيات القرآنية بشكل مفصل لوجدنا أن الدلائل التي تشير إلى قبول إيمانه أقوى من الدلائل المناقضة والتي تشير إلى دخول آل فرعون للنار وأنه سوف يقدم قومه يوم القيامة ويوردهم النار، فحتى لو افترضنا أن فرعون هو واحد منهم (أي يشمله قول الله تعالى: "قومه" أو "آل فرعون") مقصود بهذه

[1027] ابن تيمية، "جامع الرسائل": ص٢٠٧.

الآيات فذلك لا يتعارض مع إمكانية أنه قد مات مؤمنا، حيث أن المؤمن يمكن أن يعذب بالنار مقابل ظلمه للناس، وفرعون كان ظالما ولا شك، وإنما حديثنا عن إيمانه عند غرقه وموته وليس عن عمله قبل ذلك، فهذا أمر مقطوع فيه.

دعوى عدم وجوب شكر الله تعالى

وقد ادّعى ابن تيمية كذلك أن ابن العربي يقول إن الله سبحانه لا ينبغي أن يُشكر أو يُحمد أو يُعبد، لأنه سبحانه وتعالى ما فعل شيئا يستدعي ذلك! فهل يمكن لابن العربي أن يقول مثل هذا القول أم هو بهتان عظيم عليه! يقول ابن تيمية رحمه الله وغفر له:

> والمتفلسفة، أرسطو وأتباعه، عندهم أنه (أي الله تعالى) لا يفعل شيئا ولا يريد شيئا ولا يعلم شيئا ولا يخلق شيئا، فعلى أي شيء يُشكر، أم على أي شيء يُحمد ويُعبد! والباطنية، باطنية الشيعة والمتصوفة كابن سبعين وابن العربي، هم في الباطن كذلك، بل يقولون: وجود المخلوق هو وجود الخالق فيجب أن يكون كل موجود عابدا لنفسه، شاكرا لنفسه، حامدا لنفسه.
>
> وابن العربي يجعل الأعيان ثابتة في العدم، وقد صرّح بأن الله لم يعطِ أحدا شيئا، وأن جميع ما للعباد فهو منهم لا منه، وهو مفتقر إليهم لظهور وجوده في أعيانهم، وهم مفتقرون إليه لكون أعيانهم ظهرت في وجوده، فالرب إن ظهر فهو العبد، والعبد إن بطن فهو الرب. ولهذا قال: لا تحمد ولا تشكر إلا نفسك، فما في أحد من الله شيء، ولا في أحد من نفسه شيء، ولهذا قال: إنه يستحيل من العبد أن يدعوه، لأنه يشهد أحدية العين، فالداعي هو المدعو فكيف يدعو نفسه، وزعم أن هذا هو خلاصة غاية الغاية، فما بعد هذا شيء، وقال: فلا تطمع أن ترقى في أعلى من هذا الدرج، فما ثم شيء أصلا، وإن هذا إنما يعرفه خلاصة خلاصة خاصة الخاصة من أهل الله. فصرّح بأنه ليس بعد وجود المخلوقات وجود يَخلقُ ويَرزقُ ويُعبدُ."[1028]

ثم قال في رده بعد ذلك، بعد أن كفّر وشتم واتهم بالإلحاد:

> والمقصود هنا قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ...﴾ [النحل]، وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ...﴾ [الجاثية]، فالأمر ضد ما قاله هؤلاء الملاحدة ابن العربي ونحوه، حيث قالوا: ما في أحد من الله شيء. فيقال لهم: بل كل ما بالخلق من نعمة فمن الله

[1028] ابن تيمية، "جامع الرسائل": ص١٠٤-١٠٥.

وحده."[1029]

ويتضح من ذلك جليًا سوء فهمه لمقصود ابن العربي وكيف أنه لم يُعمل عقله للدخول إلى مفهوم الجملة العربية بل اقتصر على مفهومه العام السطحي الخاطئ، فابن العربي ما نكر نعمة الله على الخلق وأنه هو الخلاّق والرزّاق والمعبود والمُنعم، بل أكّد كل ذلك في جميع صفحات كتبه وهذا أمر لا يستدعي نقاشا. ولكنه رضي الله عنه ينزّه الله تعالى في هذه العبارة: "ما في أحد من الله شيء"، ولم يقل: "ما في أحد من نعمة الله شيء"، وذلك لأن الخلق هم العبيد والله هو وحده الإله، ومهما شعر بعض الناس بالألوهية نتيجة تملّكهم وتصرّفهم، فما ذلك لهم بالأصالة، فلو كان في أحد من الله شيئا لكان له حق في الألوهة، ولكن ليس ذلك لأحد لأن الكل عبيد اختيارا كان أم اضطرارا، وقد يدّعي الألوهية من يدّعيها قولا كفرعون أو حالا كأغلب الناس، ولكن ذلك وهمٌ ليس فيه من الحق شيء. فهذا معنى قوله رضي الله عنه: "ما في أحد من الله شيء"، وهذا هو أيضاً قوله في وصاياه: "كن فقيراً من الله كما أنت فقير إليه... ومعنى فقرك من الله أن لا يشم منك رائحة من روائح الربوبية بل العبودية المحضة كما أنه ليس في جناب الحق شيء من العبودية ويستحيل ذلك عليه فهو رب محض فكن أنت عبداً محضاً".[1030]

وأما بخصوص النعمة وادعاء شيخ الإسلام أن الشيخ الأكبر ينكر النعمة والشكر عليها ويعتبر أن الله سبحانه وتعالى فقير للخلق، فيكفي أن ننقل قوله مثلا في أوراده وأدعيته التي ترفع الهمم ويقشعرّ لها الجسم وتزيد القلب خشوعا والنفس خضوعا، فانظر مثلا قوله في ورد يوم الأحد وأنا هنا أنقل جزءا كبيرا منه، فنجعلها خاتمة هذا الفصل، وبودي أن أنقله كله لولا خشية الإطالة، ولكنها أيضاً تعبير عن وحدة الوجود التي يقول بها ابن العربي، كما ذكرناها أعلاه، وليس وحدة الوجود التي يفهمها العامّة من العلماء:

> بِسْمِ اللهِ فاتِحِ الوُجُودِ، وَالحَمْدُ للهِ مُظْهِرِ كُلِّ مَوْجُودٍ، وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ توحيداً مُطلقاً عَنْ كَشْفٍ وَشُهُوْدٍ، وَاللهُ أَكبرُ مِنْهُ بَدَأَ الأَمْرُ وَإِلَيْهِ يَعودُ، وَسُبْحَانَ اللهِ مَا ثَمَّ سِواهُ فَيُشْهَدَ، وَلاَ مَعَهُ غَيْرُهُ مَعبودٌ؛ وَاحِدٌ أَحَدٌ، وَهُوَ عَلَى مَا عَلَيْهِ كانَ قبلَ الحُروفِ وَالحُدودِ، لَهُ فِي كُلِّ شيءٍ آيةٌ تدلُّ عَلَى أَنَّه وَاحدٌ مَوْجُوْدٌ، سرّ سِرِّه عَنِ الإِدراكِ وَالنُّفودِ. وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ العَلِيِّ العَظِيْمِ كنزٌ اخْتَصَّنَا بِهِ مِنْ خَزَائِنِ الغَيْبِ وَالجُوْدِ، أَستنزِلُ بِهِ كُلَّ خَيْرٍ وَأَدْفَعُ كُلَّ شَرٍّ وَضَيْرٍ، وَأَفْتُقُ بِهِ كُلَّ رَتْقٍ مَسْدُوْدٍ. وَإِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجعونَ فِي كُلِّ أَمرٍ نَزَلَ أَو هُوَ نازلٌ، وَفِي كُلِّ حَالٍ وَمَقامٍ وَخاطرٍ وَوَارِدٍ وَمصدرٍ وَوُرُودٍ. وَاللهُ هُوَ المرجوُّ بكلِّ شيءٍ وَفِي كُلِّ شيءٍ هُوَ المأمولُ وَالمقصودُ، وَالإِلهامُ مِنْهُ وَالفَهْمُ عنهُ وَالموجودُ هُوَ وَلاَ إِنكارَ وَلاَ جحودَ، إِذا كشف فَلاَ غَيْرَ، وَإِذا سَتَرَ فكلُّ غَيْرٌ، وَكلُّ محجوبٌ مَبْعودٌ. باطنٌ بالأَحَدِيَّةِ ظاهرٌ بالوَحْدَانِيَّةِ، وَعنهُ وَبهِ كانَ كَوْنُ كُلِّ شيءٍ، وَلاَ شيءَ، إِذِ الشَّيْءُ بالحقيقةِ معدومٌ

[1029] ابن تيمية، "جامع الرسائل": ص١٠٧.

[1030] الفتوحات المكية: ج٤ص٤٨٢.

مفقودٌ، فهُوَ الأوّلُ وَالآخِرُ وَالظّاهرُ وَالبَاطنُ وَهُوَ بكلّ شيءٍ عليمٌ قبلَ كَونِ الشّيءِ وَبَعْدَ الوُجُودِ. وَلَهُ الإحاطةُ الواسعةُ وَالحقيقةُ الجامعَةُ، وَالسرُّ القائمُ، وَالمُلْكُ الدائمُ، وَالحُكْمُ اللازمُ، أهْلُ الثّناءِ وَالمجدِ، وَأَحَدِيُّ الأسماءِ وَالصّفاتِ، عليمٌ بالكلّياتِ وَالجزئياتِ، محيطٌ بالفوقانيّاتِ وَالتحتيّاتِ، وَلَهُ عَنَتِ الوجوهُ من كُلّ الجهاتِ.

اللّهُمّ يَا مَنْ هُوَ المحيطُ الجامعُ، وَيَا مَنْ لاَ يمنعُهُ من العطاءِ مانعٌ، وَيَا مَنْ لاَ ينفدُ مَا عِنْدَهُ، وَعمّ جميعَ الخلقِ جودُهُ وَرفدُهُ. اللّهُمّ افتحْ لي إغلاقَ هذهِ الكُنُوزِ، وَاكشف لي عَنْ حقائقِ هذه الرُّموزِ، وَكُنْ أنْتَ مُواجِهِي وَجِهَتي، وَاحْجُبْني برُؤيتي لَكَ عَنْ رُؤيَتي، وَامْحِ بظهورِ تجلّياتِكَ جميعَ صِفاتي، حتّى لاَ يَكونَ لي وُجهةٌ إلاّ إليْكَ، ولاَ يقعَ مِنّي نظرةٌ إلاّ عَليْكَ، وَانْظرِ اللّهُمّ لي بعينِ الرّحمةِ وَالعنايةِ وَالحِفظِ وَالرّعايةِ وَالاختصاصِ وَالولايةِ فِي كُلّ شيءٍ حَتّى لاَ يحجُبني عَنْ رُؤيتي لَكَ شيءٌ، وَأكونَ ناظراً إلَيْكَ بما أمددْتني بهِ مِنْ نظركَ فِي كُلّ شيءٍ. وَاجْعَلْني خاضعاً لتجلّياتكَ، أهلاً لاختصاصِكَ وَتوليَاتِكَ، محلّ نظرِكَ مِنْ خلقِكَ، مُفيضاً عَلَيْهِمْ مِنْ عطائِكَ وَفضلِكَ، يَا مَنْ لَهُ الغِنى المُطلقُ، وَلعبدِهِ الفقرُ المحقّقُ، يَا غنيّاً عَنْ كُلّ شيءٍ وَكُلُّ شيءٍ مُفتقرٌ إليْهِ، يَا مَنْ بيدِهِ أمرُ كُلّ شيءٍ، وَأمرُ كُلّ شيءٍ راجعٌ إليْهِ، يَا مَنْ لَهُ الوُجُودُ المطلقُ فلاَ يَعلمُ مَا هُوَ إلاّ هُوَ، وَلاَ يُستدلُّ عَلَيْهِ إلاّ بِهِ، وَيَا مُسخّرَ الأعمالَ الصالحةَ للعبدِ ليعودَ نفعُهَا عَلَيْهِ، لاَ مقصودَ لي غَيْرُكَ، وَلاَ يَسعُني إلاّ جُودُكَ، وَخيرُكَ، يَا جوادُ فَوْقَ المرادِ، يَا مُعطي السُّؤالَ قَبْلَ السُّؤالِ، يَا مَنْ وَقَفَ دُونَهُ قَدَمُ عَقلِ كُلّ طالبٍ، يَا مَنْ هُوَ عَلَى أمرِهِ قادرٌ وَغالبٌ، يَا مَنْ هُوَ لِكُلّ شيءٍ وَاهبٌ، وَإذَا شاءَ سَالبٌ، أهُمّ بالسُّؤالِ فأجدُني عبداً لَكَ عَلَى كُلّ حالٍ، فتوَلّني بأحوالي فَأنْتَ أوْلى بي مِنّي، كَيْفَ أقْصُدُكَ وَأنْتَ وَراءَ القَصْدِ، أمْ كَيْفَ أطلُبُكَ وَالطّلَبُ عينُ البُعْدِ، أيَطْلَبُ مَنْ هُوَ قريبٌ حاضرٌ! أمْ يُقصدُ مَنِ القاصدُ فيهِ تائهٌ حائرٌ! الطّلَبُ لاَ يُوصلُ إليْكَ، وَالقَصْدُ لاَ يَصدُقُ عَلَيْكَ، تجلّيَاتُ ظاهرِكَ لاَ تُلْحقُ وَلاَ تُدرَكُ، وَرموزُ أسرارِكَ لاَ تنْحلُّ وَلاَ تنْفكّ، أيَعْلَمُ الموجودُ كُنْهَ مَنْ أوجدَهُ! أمْ يَبلغُ العبدُ حقيقةَ مَنِ اسْتَعْبَدَهُ! الطّلَبُ وَالقَصْدُ وَالقُرْبُ وَالبُعْدُ مِنْ صفاتِ العبدِ، وَمَاذَا يُدركُ العبدُ بصفاتِهِ ممّنْ هُوَ مُنزّهٌ متعالٍ فِي عُلُوّ ذاتِهِ! فكُلُّ مخلوقٍ محلُّهُ العجزُ فِي موقفِ الذّلّ عَلَى بابِ العزّ عَنْ نيلِ إدراكِ هَذَا الكَنْزِ، كَيْفَ أعرفُكَ وَأنْتَ البَاطنُ الّذِي لاَ تُعرَفُ! أمْ كَيْفَ لاَ أعرفُكَ وَأنْتَ الظّاهرُ إليّ فِي كُلّ شيءٍ تتعرّفُ! كَيْفَ أوحّدُكَ وَلاَ وُجُودَ لي فِي عَيْنِ الأحَدِيّةِ! أمْ كَيْفَ لاَ أوحّدُكَ وَالتوحيدُ سرّ العُبُودِيّةِ! سُبْحَانَكَ لاَ إلهَ إلاّ أنْتَ

مَا وَجَدَكَ مِنْ أَحَدٍ، إِذْ أَنْتَ كَمَا أَنْتَ فِي سَابِقِ الأَزَلِ وَلاحِقِ الأَبَدِ، فَعَلَى التحقيقِ مَا وَجَدَكَ أَحَدٌ سِواكَ، وَفِي الجُملةِ مَا عَرَفَكَ إلاَّ إِيَّاكَ، بَطَنْتَ وَظَهَرْتَ، فَلاَ عَنْكَ بَطَنْتَ، وَلاَ لِغَيْرِكَ ظَهَرتَ، فَأَنْتَ أَنْتَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ، فَكَيْفَ بِهذا الشَّكْلِ يَنحلُ، وَالأَوَّلُ آخِرٌ وَالآخِرُ أَوَّلُ، فَيَا مَنْ أَبْهَمَ الأَمْرَ وَأَبْطَنَ السِرَّ، وَأَوْقَعَ فِي الحَيْرَةِ وَلاَ غَيْرَهُ، أَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ كشف سِرِّ الأَحَدِيَّة، وَتحقيقَ العُبُوديَّة، وَالقِيامَ بِحقوقِ الرُّبوبيَّة، بِما يليقُ بِحضرتِها العليَّة، فَأَنَا مَوْجُودٌ بِكَ حادثٌ معدومٌ، وَأَنْتَ مَوْجُودٌ باقٍ حَيٌّ قَيُومٌ، قَديمٌ أَزليٌّ عالمٌ معلومٌ، فَيَا مَنْ لاَ يعلمُ مَا هُوَ إلاَّ هُوَ، يَا هُوَ، أَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ الهربَ مِنِّي إِلَيْكَ، وَالجمعَ بِجميعِ مجموعِي عَلَيْكَ، حَتَى لاَ يكونَ وَجُوْدِي حجابِي عَنْ شُهُوْدِي، يَا مَقْصُودِي، يَا مَعْبُوْدِي، مَا فَاتَنِي شَيءٌ إِذَا أَنَا وَجَدتُكَ، وَلاَ جَهِلْتُ شيئاً إِذَا أَنَا عَلِمْتُكَ، وَلاَ فقدتُ شيئاً إِذَا أَنَا شهدتُكَ، فَنَائِي فِيْكَ وَبَقَائِي بِكَ وَمَشْهُوْدِي أَنْت، لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ كَمَا شَهِدْتَ وَكَمَا عَلِمْتَ وَكَمَا أَمَرْتَ، فَشُهُوْدِي عَيْنُ وَجُوْدِي، فَمَا شهدتُ سِوايَ فِي فَنَائِي وَبَقَائِي، فَالإِشَارَةُ إليَّ، وَالحُكمُ لِي وَعليَّ، وَالنَّسَبُ نَسَبِي، وَكُلُّ ذَلكَ رُتبي، وَالشَّأْنُ شَأْنِي فِي الظُّهُورِ وَالبُطُونِ، وَسَرَيَانِ السِرِّ المصونِ، هُوِيَّةٌ سارِيَةٌ، وَمظاهِرُ بادِيَةٌ، وُجُوْدٌ وَعَدَمٌ، نُوْرٌ وَظُلَمٌ، سَمْعٌ وَصَمَمٌ، لَوْحٌ وَقَلَمٌ، جَهْلٌ وَعِلْمٌ، حَرْبٌ وَسِلم، صَمْتٌ وَنطقٌ، رَتْقٌ وَفَتْقٌ، حَقِيْقَةٌ وَحقٌّ، غَيْبُوبَةُ أَزَلٍ، دَيْمُوْمَةُ أَبَدٍ، قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ، اللهُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ، وَلَمْ يُوْلَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ.

وَصَلَّى اللهُ عَلَى الأَوَّلِ فِي الإِيجادِ وَالوُجُوْدِ، الفاتحِ لِكُلِّ شاهدٍ وَمشْهُوْدٍ حضرةَ الشاهدِ وَالمشْهُوْدِ، وَالسِرِّ الباطنِ، وَالنُّورِ الظاهرِ، مميِّزِ قبضةِ السَّبْقِ، فِي عالمِ الخلقِ، فِي المخصوصِ وَالمبعودِ، الرُّوحِ الأقدسِ العَالي، وَالنُّورِ الأَكملِ البهيِّ، القائمِ بكمالِ العُبُوْدِيَّةِ فِي حضرةِ المعبُودِ، الَّذِيْ أُفِيضَ عَلَى رُوحانيَّتِهِ مِنْ حضرةِ رحمانيَّتِهِ، وَاتصلَتْ بمشكاةِ قَلبِهِ أَشعَّةِ نورانيَّتِهِ، فَهُوَ الرَّسُولُ الأَعظمُ، وَالنَّبِيُّ المكرَّمُ، وَالوليُّ المقرَّبُ المسعودُ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصحابِهِ خزائِنِ أَسرارِهِ، وَمطالعِ أَنوارِهِ، كنوزِ الحقائقِ، هُداةِ الخلائقِ، نجومِ الهُدى، لمنْ اقتدَى، وَسَلَّم تسليماً كثيراً، إِلى يَوْمِ الدِّينِ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ المُشْرِكِينَ، وَحَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ العليِّ العَظِيمِ، وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالمِينَ.[١٠٣١]

[1031] أوراد أيام الأسبوع ولياليه: ورد يوم الأحد.

بسم الله الرحمن الرحيم

الملحق الأول

جدول الأحداث الرئيسية في حياة الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي

نذكر في هذا الجدول التسلسل التاريخي للأحداث في حياة الشيخ محيي الدين ابن العربي، وهذا الجدول فيه إضافات كثيرة على الجدول المفصل الذي قدمته كلوديا عداس في "البحث عن الكبريت الأحمر" بالإضافة إلى تصحيح لبعض الأخطاء التي وجدت في الجدول الذي قدمه عثمان يحيى في تصنيفه لمؤلفات ابن العربي. لم نر ضرورة لذكر المراجع هنا لأنها مفصلة داخل الكتاب وموزعة على الفصول من الفصل الثاني وحتى الفصل السادس حسب الفترة التاريخية وبنفس تسلسل الأحداث. أما بالنسبة للمراجع عن الأحداث التاريخية الأخرى فهي شائعة في كتب التاريخ ولا نرى حاجة لذكرها هنا أو في داخل الكتاب إلا فيما لزمنا منها. ولقد ذكرنا داخل الكتاب أيضاً أحداثاً أخرى كثيرة ولكننا وضعنا هنا فقط الأحداث الرئيسة التي نستطيع تحديد تاريخها بدقة جيدة.

لقد حاولنا أن يكون هذا الجدول شاملا لكل الأحداث المؤرخة في سيرة الشيخ محيي الدين ابن العربي، حسب ما توفّر لنا من مراجع، ولا ندّعي الكمال.

التاريخ	المكان	حدث من سيرة ابن العربي	ملاحظات/أحداث أخرى
١١٦٥/٥٦٠	مرسية	ولادة الشيخ الأكبر محي لدين ابن العربي	في الأندلس
١١٦٦/٥٦١	–	لا توجد لدينا أية معلومات عن هذه الفترة	وفاة الشيخ عبد القادر الجيلاني
١١٦٧/٥٦٢	–	لا توجد لدينا أية معلومات عن هذه الفترة	
١١٦٨/٥٦٣	–	لا توجد لدينا أية معلومات عن هذه الفترة	
١١٦٩/٥٦٤	–	لا توجد لدينا أية معلومات عن هذه الفترة	صلاح الدين يتولى الوزارة /مصر
١١٦٩/٥٦٥	–	لا توجد لدينا أية معلومات عن هذه الفترة	
١١٧٠/٥٦٦	–	لا توجد لدينا أية معلومات عن هذه الفترة	
١١٧١/٥٦٧	–	لا توجد لدينا أية معلومات عن هذه الفترة	وفاة ابن مردنيش سلطان مرسية
١١٧٢/٥٦٨	إشبيلية	انتقالهم إلى إشبيلية بعد سقوط مرسية بيد الموحدين	

التاريخ	المكان	حدث من سيرة ابن العربي	ملاحظات/أحداث أخرى
١١٧٤/٥٦٩	-	لا توجد لدينا أية معلومات عن هذه الفترة	وفاة نور الدين زنكي /دمشق
١١٧٥/٥٧٠	-	لا توجد لدينا أية معلومات عن هذه الفترة	صلاح الدين يتولى حكم مصر
١١٧٦/٥٧١	-	لا توجد لدينا أية معلومات عن هذه الفترة	
١١٧٧/٥٧٢	-	لا توجد لدينا أية معلومات عن هذه الفترة	
١١٧٨/٥٧٣	-	لا توجد لدينا أية معلومات عن هذه الفترة	صلاح الدين يحكم دمشق
١١٧٩/٥٧٤	-	لا توجد لدينا أية معلومات عن هذه الفترة	
١١٨٠/٥٧٥	قرطبة	لقاؤه بابن رشد (حسب قول كلوديا عداس)	
١١٨١/٥٧٦	-	لا توجد لدينا أية معلومات عن هذه الفترة	
١١٨١/٥٧٧	-	لا توجد لدينا أية معلومات عن هذه الفترة	
١١٨٢/٥٧٨	إشبيلية	يدرس القرآن مع الشيخ أبي بكر بن صافي اللخمي	
١١٨٣/٥٧٩	-	لا توجد لدينا أية معلومات عن هذه الفترة	
١١٨٤/٥٨٠	الأندلس	كان ملتحقا بطريق التصوف	السلطان يعقوب يتولى حكم الأندلس
١١٨٤/٥٨٠	قرطبة	لقاؤه بابن رشد (حسب قول عثمان يحيى)	
١١٨٥/٥٨١	-	لا توجد لدينا أية معلومات عن هذه الفترة	
١١٨٦/٥٨٢	-	لا توجد لدينا أية معلومات عن هذه الفترة	
١١٨٧/٥٨٣	القدس	-	معركة حطين واسترداد القدس
١١٨٨/٥٨٤	-	لا توجد لدينا أية معلومات عن هذه الفترة	
١١٨٩/٥٨٥	الأندلس	مشاهدة أثر رجل من قوم يونس	
١١٩٠/٥٨٦	قرطبة	رؤيته جميع الرسل والأنبياء في المنام	بداية الحملة الصليبية الثالثة
١١٩٠/٥٨٦	إشبيلية	يتلقى الآية: "قل إن كان آباؤكم ..."	الموحدون يوقعون اتفاقية هدنة من الإسبان
١١٩٠/٥٨٦	إشبيلية	يتلقى الآية: "إنما يستجيب الذين يسمعون"	
١١٩٠/٥٨٦	إشبيلية	يلتقي بموسى السدراني، تلميذ أبي مدين وأحد الأبدال	
١١٩٠/٥٨٦	إشبيلية	رؤية تتعلق بالحديث: "حاسبوا أنفسكم ..."	
١١٩٠/٥٨٦	إشبيلية	يتردد على الشيخ يوسف بن يخلف الكومي	
١١٩٠/٥٨٦	الأندلس	يلتقي رجلا من الحواريين	
١١٩٠/٥٨٦	مورور	زيارته للشيخ الموروري	
١١٩٠/٥٨٦	مورور	كتب كتاب التدبيرات الإلهية	
١١٩٠/٥٨٦	مرشانة	لقاؤه بالخطيب عبد المجيد بن سلمة	
١١٩٠/٥٨٦	مرشانة	زيارته لشمس أم الفقراء	
١١٩٠/٥٨٦	إشبيلية	يلتقي يوسف المغاور وعلي السلوي	
١١٩٠/٥٨٦	الأندلس	مع الفيلسوف الذي ينكر المعجزات	
١١٩١/٥٨٧	-	لا توجد لدينا أية معلومات عن هذه الفترة	إعدام السهروردي في حلب سقوط مدينة عكا بيد الصليبيين
١١٩٢/٥٨٨	-	لا توجد لدينا أية معلومات عن هذه الفترة	
١١٩٣/٥٨٩	روطة	لقاؤه مع الشيخ محمد بن أشرف الرندي	وفاة صلاح الدين الأيوبي بدمشق

التاريخ	المكان	حدث من سيرة ابن العربي	ملاحظات/أحداث أخرى
١١٩٣/٥٨٩	جزيرة طريف	رؤيته مصيره وما سيحدث معه إلى آخر حياته	بداية رحلته الأولى إلى تونس
١١٩٣/٥٨٩	جزيرة طريف	لقاؤه بشيخه أبي اسحق بن طريف القيسي	موت أبي مدين
١١٩٣/٥٨٩	جزيرة طريف	لقاؤه بالشيخ عبد الله القلقاط	
١١٩٣/٥٨٩	سبتة	يلتقي بمحمد الحجري ويدرس معه الحديث	
١١٩٤/٥٩٠	تلمسان	النبي صلّى الله عليه وسلّم يلومه في المنام لكرهه الرجل الذي يكره أبا مدين	
١١٩٤/٥٩٠	تلمسان	يلتقي بالشاعر أبي يزيد الفزازي	
١١٩٤/٥٩٠	تونس	لقاؤه بشيخه أبي محمد عبد العزيز المهدوي	
١١٩٤/٥٩٠	تونس	يلتقي بابن ابن القسي صاحب كتاب "خلع النعلين"	
١١٩٤/٥٩٠	تونس	يدرك أنه وارث العلم النبوي	
١١٩٤/٥٩٠	تونس	يدخل إلى أرض الحقيقة	
١١٩٤/٥٩٠	تونس	يلتقي الخضر للمرة الثانية	
١١٩٤/٥٩٠	تونس	ينظم قصيدة في مسجد في تونس	
١١٩٤/٥٩٠	إشبيلية	الجزيرة الخضراء	عودته إلى الأندلس
١١٩٤/٥٩٠	إشبيلية	يعرف أن أحد رجال الغيب نشر قصيدته قبل وصوله	
١١٩٤/٥٩٠	إشبيلية	موت أبيه وأمه رحمهما الله	
١١٩٤/٥٩٠	قرب روطة	يلتقي بالخضر للمرة الثالثة	
١١٩٤/٥٩٠	إشبيلية	يؤلف كتاب المشاهد القدسية	
١١٩٥/٥٩١	فاس	يذهب إلى مدينة فاس	بداية رحلته الأولى إلى المغرب
١١٩٥/٥٩١	فاس	يطلع على مبايعة النبات للقطب	
١١٩٥/٥٩١	فاس	يطلع على مقام النور	
١١٩٥/٥٩١	فاس	التنبؤ بالنصر في موقعة الأرك	انتصار الموحدين في معركة الأرك
١١٩٥/٥٩١	فاس	يلتقي بمحمد بن قاسم التميمي	
١١٩٦/٥٩٣	إشبيلية	يلبس الخرقة من عبد الرحمن بن علي القسطلاني	عودته إلى الأندلس
١١٩٦/٥٩٣	إشبيلية	يجتمع عند أبي الحسين بن الطفيل بجماعة من العلماء	
١١٩٦/٥٩٣	إشبيلية	لقاؤه بأمير المؤمنين يعقوب المنصور	
١١٩٦/٥٩٣	إشبيلية	يلتقي بأبي الوليد ابن العربي ويحدثه بعض الأحاديث	يعقوب المنصور يصل إلى أبواب مدريد
١١٩٦/٥٩٣	فاس	يذهب إلى فاس مع أختيه ويزوجهما هناك	بداية رحلته الثانية إلى المغرب
١١٩٦/٥٩٣	فاس	يلتقي بأبي عبد الله محمد بن قاسم التميمي	
١١٩٧/٥٩٣	فاس	يشهد بالرؤيا مواقف يوم القيامة	
١١٩٧/٥٩٣	فاس	ينال مقام النور للمرة الثانية ويصبح كله وجه	
١١٩٧/٥٩٣	فاس	ينال مقام النور، ويلتقي بقطب الزمان	
١١٩٧/٥٩٣	فاس	يلتقي بالشيخ محمد التميمي	
١١٩٨/٥٩٤	فاس	يتعرّف على صفة خاتم الولاية المحمدية	
١١٩٨/٥٩٤	فاس	معراجه، وتأليفه كتاب الإسرا	
١١٩٨/٥٩٤	فاس	يلبس الخرقة من محمد أبي القاسم التميمي	

التاريخ	المكان	حدث من سيرة ابن العربي	ملاحظات/أحداث أخرى
١١٩٨/٥٩٤	فاس، سبتة	يفشي سرا بطريق الخطأ لبعض أصحابه	
١١٩٨/٥٩٥	سبتة	يدرس الحديث مع أبي الحسن بن الصائغ	
١١٩٩/٥٩٥	رندا	يلتقي بمحمد بن أشرف الرندي، وهو أحد الأبدال	وفاة السلطان يعقوب وتولي ابنه يوسف
١١٩٩/٥٩٥	إشبيلية	يودع شيوخه في إشبيلية	
١١٩٩/٥٩٥	قرطبة	يحضر جنازة ابن رشد الذي نقل رفاته إلى قرطبة	وفاة ابن رشد في مراكش
١١٩٨/٥٩٥	مرشانة	يرى كتاب المدينة الفاضلة للفارابي	
١١٩٩/٥٩٥	غرناطة	يلتقي بأبي محمد الشكّاز	
١١٩٨/٥٩٥	وادي آش	يلتقي بأبي أحمد بن سيدبون	
١١٩٩/٥٩٥	مرسية	توديعه للشيخ ابن سيدبون	
١١٩٩/٥٩٥	مرسية	يلتقي بالشيخ المفرط الذي لم يذكر اسمه	
١١٩٩/٥٩٥	مرسية	يشهده الحق في سره واقعة حول مقدار العفو الإلهي	
١١٩٩/٥٩٥	المرية	يؤلف كتاب مواقع النجوم لصاحبه بدر الحبشي	
١١٩٨/٥٩٥	قبرفيق	يلتقي بأبي عبد الله بن جنيد المعتزلي	ويناقشه حول موضوع التخلّق بالقيّومية
١٩٩٩/٥٩٦	-	يغادر الأندلس نهائيا متجها إلى المغرب ومنها إلى مصر	بداية رحلته الثالثة إلى المغرب
١٢٠٠/٥٩٧	سلا	محادثة بينه وبين رجل صالح من عامة الناس	انحسار النيل وتعرض مصر لمجاعة كبيرة
١٢٠٠/٥٩٧	سلا	يودع الشيخ يوسف الكومي	وفاة ابن الجوزي
١٢٠٠/٥٩٧	ايجيسال	الوصول إلى مقام القربى	هزة أرضية كبيرة تصيب سورية
١٢٠٠/٥٩٧	مراكش	رؤيته العرش وأمره باصطحاب محمد الحصار إلى المشرق	
١٢٠٠/٥٩٧	فاس	لقاؤه بمحمد الحصار	فيضان نهر الوادي الكبير في إشبيلية
١٢٠١/٥٩٧	بجاية	إضافة باب خاص بالقلب في كتاب مواقع النجوم	
١٢٠١/٥٩٧	بجاية	رؤيته أنه اتحد مع النجوم وحروف الهجاء	
١٢٠١/٥٩٨	تونس	يزور صاحبه أبا محمد عبد العزيز المهدوي	إقامته الثانية في تونس
١٢٠١/٥٩٨	تونس	يتلقى لوحا ذهبيا من كنز الكعبة	
١٢٠٢/٥٩٨	تونس	الرحيل بشكل نهائي نحو المشرق	
١٢٠٢/٥٩٨	القاهرة	يلتقي بصاحبيه أحمد الخياط ومحمد الإشبيلي	
١٢٠٢/٥٩٨	الخليل	يصلي عند مقام إبراهيم الخليل	
١٢٠٢/٥٩٨	القدس	يصلي في المسجد الأقصى	
١٢٠٢/٥٩٨	المدينة المنورة	يزور قبر الرسول محمد صلّى الله عليه وسلّم	
١٢٠٢/٥٩٨	مكة المكرمة	يلتقي بالروح الذي سيأخذ منه ما سطره في الفتوحات	
١٢٠٢/٥٩٨	مكة المكرمة	يدرس الحديث مع إمام الحرم الإبراهيمي أبي شجاع	
١٢٠٣/٥٩٩	مكة المكرمة	يلبس الخرقة من يونس بن يحيى الهاشمي	
١٢٠٣/٥٩٩	مكة المكرمة	يرى الكعبة مؤلفة من لبنات ذهب وفضة وأنه يتممها	وهي بشارة أنه خاتم الولاية المحمدية
١٢٠٣/٥٩٩	مكة المكرمة	يقابل القطب أحمد السبتي ابن هارون الرشيد	
١٢٠٣/٥٩٩	مكة المكرمة	يقابل موسى القرطبي مؤذن الحرم	
١٢٠٣/٥٩٩	مكة المكرمة	يقابل القاضي عبد الوهاب الأزدي الإسكندري	
١٢٠٣/٥٩٩	مكة المكرمة	يؤلف كتاب مشكاة الأنوار	

التاريخ	المكان	حدث من سيرة ابن العربي	ملاحظات/أحداث أخرى
١٢٠٣/٥٩٩	الطائف	يزور قبر عبد الله ابن عباس ويؤلف كتاب حلية الأبدال	
١٢٠٣/٦٠٠	مكة المكرمة	يؤلف كتاب روح القدس	
١٢٠٤/٦٠٠	مكة المكرمة	يؤلف كتاب تاج الرسائل	
١٢٠٤/٦٠٠	مكة المكرمة	قراءة كتاب تاج الرسائل	
١٢٠٤/٦٠١	المدينة المنورة	يزور قبر النبي محمد صلّى الله عليه وسلّم	بداية رحلته الأولى نحو الشمال
١٢٠٤/٦٠١	بغداد	يقرأ روح القدس على ابن سودكين	
١٢٠٤/٦٠١	العراق	يؤلف كتاب الجلالة، كتاب الأزل، كتاب الألف، كتاب الهو	
١٢٠٥/٦٠١	الموصل	لقاؤه بابن عتر الحلوي الذي كان يعارض القرآن الكريم	
١٢٠٥/٦٠١	الموصل	يدرس الحديث مع أحمد مسعود بن شدّاد المقري	
١٢٠٥/٦٠١	الموصل	يتلقى الخرقة من يد شيخه علي بن جامع	
١٢٠٥/٦٠١	الموصل	يؤلف كتاب التنزلات الموصلية	
١٢٠٥/٦٠١	الموصل	قراءة كتاب روح القدس على مجموعة من التلاميذ	
١٢٠٥/٦٠١	ملطية	يزور دار والد صدر الدين القونوي	
١٢٠٥/٦٠٢	قونية	يؤلف رسالة الأنوار، كتاب العظمة، كتاب الأمر المحكم	وصول جنكيز خان إلى النهر الأصفر
١٢٠٥/٦٠٢	قونية	يلتقي بالشيخ أوحد الدين الكرماني	
١٢٠٥/٦٠٢	دمشق	يلتقي بالمجنون مسعود الحبشي	
١٢٠٥/٦٠٢	القدس	يؤلف كتاب العقد، كتاب المقنع، كتاب النقباء	
١٢٠٦/٦٠٢	الخليل	تأليف كتاب اليقين	
١٢٠٧/٦٠٣	القاهرة	يلتقي بمحمد الخياط وأخيه أحمد في حارة القناديل	
١٢٠٧/٦٠٣	القاهرة	يقرأ روح القدس على مجموعة من أصحابه	
١٢٠٧/٦٠٣	-	يؤلف كتاب الفهوانية وكتاب جواب الترمذي	
١٢٠٨/٦٠٤	مكة المكرمة	يلتقي مع أبي شجاع، ويتدارس معه الحديث	
١٢٠٩/٦٠٤	مكة المكرمة	رؤية الرسول عليه الصلاة والسلام في المنام	
١٢٠٩/٦٠٥	-	لا توجد لدينا أية معلومات عن هذه الفترة	
١٢١٠/٦٠٦	حلب	تأليف/قراءة كتاب التجليات	بداية رحلته الثانية إلى الشمال
١٢١٠/٦٠٦	-	يدرس صحيح مسلم مع أبي الحسن بن أبي البجالي	الملك الظاهر يعيد بناء قلعة حلب
١٢١١/٦٠٧	-	لا توجد لدينا أية معلومات عن هذه الفترة	
١٢١٢/٦٠٨	بغداد	يلتقي بصوفي بغداد الشهير السهروردي	
١٢١٢/٦٠٨	بغداد	يلتقي بالمؤرخ ابن الدبيثي	
١٢١٢/٦٠٨	بغداد	يرى مناما ينذر فيه بفتح خزائن المكر	
١٢١٢/٦٠٨	بغداد	يكتب نصيحة إلى الملك كيكاوس بقونية	
١٢١٣/٦٠٩	-	يراسل الملك كيكاوس	
١٢١٤/٦١٠	حلب	قراءة كتاب التجليات وشرحه لبعض تلاميذه	
١٢١٥/٦١١	مكة المكرمة	إتمام كتاب ترجمان الأشواق	جنكيز خان يحتل بكين
١٢١٥/٦١١	حلب	يكتب كتاب ذخائر الأعلاق في شرح ترجمان الأشواق	
-	دنيسر	يلتقي بعمر الفرقوي	

التاريخ	المكان	حدث من سيرة ابن العربي	ملاحظات/أحداث أخرى
-	حران		
١٢١٦/٦١٢	سيواس	يرى في منامه انتصار الملك كيكاوس في معركة أنطاكية	وفاة الملك الظاهر ملك حلب
١٢١٦/٦١٢	ملطية	يكتب إلى كيكاوس ويخبره بالرؤيا	الحملة الصليبية الخامسة
١٢١٧/٦١٣	ملطية	إجازة السماع بكتاب تاج الرسائل لتلاميذه	
١٢١٨/٦١٤	ملطية	إجازة السماع بكتاب ترجمان الأشواق لتلاميذه	
١٢١٨/٦١٥	ملطية	إجازة السماع بكتاب روح القدس لتلاميذه	موت الملك عز الدين كيكاوس
١٢١٨/٦١٥	ملطية	يؤلف كتاب اصطلاحات الصوفية	الملك المعظم يتولى دمشق
١٢١٩/٦١٦	-	لا توجد لدينا أية معلومات عن هذه الفترة	
١٢٢٠/٦١٧	حلب	يقرأ لتلاميذه كتاب القربة وكتاب الميم وكتاب العظمة	المغول يحتلون بلاد فارس
١٢٢٠/٦١٧	حلب	موت صاحبه مجد الدين الأصفهاني	
١٢٢١/٦١٨	ملطية	ولادة ابنه الأصغر سعد الدين	
١٢٢١/٦١٨	ملطية	ووفاة صاحبه بدر الحبشي	
١٢٢١/٦١٨	حلب	إجازة السماع بكتاب القهوانية لبعض تلاميذه	
١٢٢٢/٦١٩	-	لا توجد لدينا أية معلومات عن هذه الفترة	كابول تسقط بيد المغول
١٢٢٣/٦٢٠	دمشق	رؤية ابن سودكين في المنام	
١٢٢٤/٦٢٠	دمشق	إجازة السماع بكتاب التجليات لتلاميذه	
١٢٢٤/٦٢١	دمشق	إجازة السماع بكتاب مطالع الغيب لتلاميذه	
١٢٢٤/٦٢١	دمشق	قراءة كتاب اليقين وكتاب المقصد الأسمى وكتاب الميم	
١٢٢٤/٦٢١	دمشق	رأى النبي عليه الصلاة والسلام في المنام	أخبره فيها حول حشر الحيوانات
١٢٢٥/٦٢٢	-	لا توجد لدينا أية معلومات عن هذه الفترة	موت الخليفة العباسي الناصر
١٢٢٦/٦٢٣	-	لا توجد لدينا أية معلومات عن هذه الفترة	
١٢٢٧/٦٢٤	دمشق	النبي صلّى الله عليه وسلّم يخبره في المنام أن الملائكة خير من البشر	موت جنكيز خان موت الملك المعظم ملك دمشق
١٢٢٨/٦٢٥	سورية	يؤلف كتاب ثواب قضاء الحوائج	
١٢٢٩/٦٢٦	سورية	قراءة كتاب العبادلة على عدة تلاميذ	تسليم القدس للفرنجة الملك الأشرف يتولى دمشق
١٢٢٩/٦٢٧	دمشق	النبي صلّى الله عليه وسلّم يعطيه في المنام كتاب فصوص الحكم	
١٢٣١/٦٢٧	سورية	رؤية الهوية الإلهية في الواقعة	موت فريد الدين العطار
١٢٣١/٦٢٧	دمشق	يكتب الفهرس للقونوي وسماعات لكتب أخرى	
١٢٣١/٦٢٨	سورية	يرى رؤيا يكلمه فيها الله تعالى على جبل سيناء	
١٢٣١/٦٢٨	سورية	يقرأ كتاب الجلالة وكتاب الألف على عبد الكريم البزار	
١٢٣١/٦٢٨	دمشق	لقاؤه بنجم الدين محمد بن أبي بكر الموصلي	
١٢٣١/٦٢٩	دمشق	ينهي النسخة الأولى من الفتوحات المكية	
١٢٣١/٦٢٩	سورية	رأى رؤيا قيل له فيها أنه سيكون له ألف ولد روحي	
١٢٣٢/٦٢٩	دمشق	إجازة السماع للتلاميذ بكتاب عنقاء مغرب	

التاريخ	المكان	حدث من سيرة ابن العربي	ملاحظات/أحداث أخرى
١٢٣٣/٦٣٠	دمشق	يلتقي بالمؤرخ القزويني مؤلف كتاب آثار البلاد	
١٢٣٣/٦٣٠	دمشق	يكتب إجازة للقونوي بكتاب فصوص الحكم	
١٢٣٤/٦٣١	-	لا توجد لدينا أية معلومات عن هذه الفترة	
١٢٣٥/٦٣٢	سورية	يبدأ النسخة الثانية من الفتوحات المكية	وفاة شهاب الدين السهروردي
١٢٣٥/٦٣٢	دمشق	يكتب إجازة للملك الأشرف ملك دمشق	
١٢٣٦/٦٣٣	سورية	يمنح سماعات مختلفة لعدد كبير من التلاميذ	سقوط قرطبة
١٢٣٧/٦٣٤	دمشق	يؤلف كتاب الديوان	
١٢٣٧/٦٣٤	دمشق	سماعات مختلفة لكتاب الفتوحات	موت الملك الأشرف ملك دمشق
١٢٣٨/٦٣٥	دمشق	يؤلف كتباً ورسائل مختلفة	يتوالى على دمشق عدة ملوك أيوبيين
١٢٣٨/٦٣٦	دمشق	يؤلف كتباً ورسائل مختلفة	سقوط مرسية
١٢٣٨/٦٣٦	دمشق	ينهي النسخة الثانية من الفتوحات المكية	
١٢٣٩/٦٣٧	دمشق	يمنح سماعات مختلفة للفتوحات المكية	الملك الصالح اسماعيل يأخذ دمشق
١٢٤٠/٦٣٨	دمشق	قراءة التنزلات الموصلية لتلميذه أيوب بدر المقري	المغول يدمرون كييف
١٢٤٠/٦٣٨	دمشق	وفاته رحمه الله في ٢٢ ربيع الثاني ٦٣٨ للهجرة الموافق ٩ تشرين الثاني نوفمبر ١٢٤٠ للميلاد، ودُفن في تربة بني الزكي في سفح جبل قاسيون.	

بسم الله الرحمن الرحيم

المُلحَقُ الثَّانِيْ

فهرس مؤلفات الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي

يذكر عثمان يحيى في تصنيفه لكتب ابن العربي حوالي ١٣٩٥ عنوانا منها ٥٣٩ عنوانا مكررا، ولكن بعض هذه الكتب منحولا وليس للشيخ محيي الدين حقيقة، وأما الكتب المؤكدة أنها للشيخ محيي الدين فهي التي ذكرها الشيخ في "الفهرس" أو في "الإجازة" أو في كتبه الأخرى المعروفة. ولكن هناك كتب أخرى أيضاً غير مذكورة في هذه المصادر الثلاثة والتي ربما كتبها الشيخ بعد تاريخ تأليف الفهرس (~سنة ٦٢٧)، ويشمل ٢٤٨ مصنفا، والإجازة للملك الأشرف الأيوبي (~سنة ٦٣٢)، وتشمل ٢٧٠-٢٩٠ مصنفا حسب مصدر المخطوطة. وكذلك فقد صرح الشيخ في بداية الإجازة أن إحصاءه لمؤلفاته هذه ليس إحصاءً تاما وأنه ربما نسي أن يذكر بعضها. ولذلك فإن هناك كتب كثيرة لم يذكرها هو بل ذكرت في المصادر التاريخية المعروفة. ومن جهة أخرى فإن الكثير من المصنفات مذكورة في الإجازة وفي الفهرس بنفس الوقت، وبعضها مذكور في أحدها. أما عدد المصنفات التي ذكرها الشيخ في كتبه الأخرى فيبلغ حوالي ٢٠ مصنفا. وقد استخلص عثمان يحيى أن عدد المصنفات التي ذكرها الشيخ محيي الدين يبلغ مجموعه ٣١٧ مصنفا، يوجد منها فقط ١٠٦.[١٠٣٢]

فنذكر في هذا الملحق أسماء المصنفات التي ثبتت للشيخ محيي الدين ابن العربي في هذه المصادر الثلاثة، بالإضافة إلى بعض المصنفات التي وردت في كتب التاريخ والتي من المؤكد أو من شبه المؤكد أنها له:

الرقم	عنوان الكتاب	الفهرس	الإجازة	المصادر الأخرى/ملاحظات
١.	الآباء العلويات والأمهات السفليات وهو كتاب (صح)	١٥٨	١٦٩	أنظر الباب ١١ من الفتوحات المكية
٢.	الإبداع والاختراع المعنون بحرف (ت)	٨٩	٩٥	
٣.	الاتحاد الكوني في حضرة الإشهاد العيني	٦٣	٦٧	
٤.	إجازة الشيخ الأكبر لصدر الدين القونوي (الفهرس)	-	-	ذكر فيها بعض مؤلفاته التي أجازه فيها
٥.	إجازة للملك المظفر	-	-	ذكر فيها ٢٩٠ مصنفا أجاز بها الملك المظفر
٦.	الأجوبة العربية الوفية عن المسائل اليوسفية	١٩١	-	مجموعة من الحكم الصوفية

[1032] مؤلفات ابن عربي: ص٥٧، ٧٩.

الرقم	عنوان الكتاب	الفهرس	الإجازة	المصادر الأخرى/ملاحظات
٧.	الأجوبة على المسائل المنصورية	١١	١١	
٨.	الأحاديث القدسية	-	-	جزء من "مشكاة الأنوار"
٩.	الاحتفال فيما كان عليه الرسول صلّى الله عليه وسلّم من سَنيّ الأحوال	٥	٦	
١٠.	الأحجار المتفجرة والمتشققة والهابطة وهو كتاب (شب)	١٤٠	١٥٥	
١١.	إحدى ومائة حديث	-	-	مجموعة أحاديث
١٢.	الإحسان وهو كتاب الشين	٨٣	٨٥	
١٣.	اختصار البخاري	-	٣	
١٤.	اختصار الترمذي	٣	٤	
١٥.	اختصار السيرة النبوية	١٩٠	١٩٨	
١٦.	اختصار المحلى	٤	٥	مختصر لكتاب المحلى لابن حزم
١٧.	اختصار مسلم	١	٢	
١٨.	الأدب	١٩٨	٢٠٨	
١٩.	الأربعين الطوال	-	٣٢	كتاب في الحديث
٢٠.	الأربعين المتقابلة	٣١	٣١	كتاب في الحديث
٢١.	الأرواح وهو كتاب (هب)	١٣٣	١٤٣	
٢٢.	الأزل	٨٦	٩٢	
٢٣.	الإسرا إلى مقام الأسرى	٣٦	-	
٢٤.	الأسرار	-	٢٧٨	
٢٥.	أسرار الحروف	-	٢٨٥	
٢٦.	الأسرار الربانية	-	٢٧٣	
٢٧.	أسرار أم القرآن	-	-	جزء من الفتوحات ج١ص١١٠
٢٨.	أسرار قلوب العارفين	-	٣٧	
٢٩.	الإسفار عن نتائج الأسفار	١٣٩	١٥٤	
٣٠.	الاسم والرسم	١٩٤	٢٠١	
٣١.	الأسماء الصمدية	-	٢٧٦	
٣٢.	الأسماء وهو كتاب (قج)	١٦١	١٧٢	
٣٣.	إشارات القرآن في عالم الإنسان	٥٤	٥٦	
٣٤.	الإشارات إلى شرح الأسماء والصفات	-	-	التحقق بأسماء الله الحسنى
٣٥.	الإشارات في أسرار الأسماء الإلهية والكنايات	٦٤	٦٩	
٣٦.	اصطلاحات الصوفية	-	-	رسائل ابن عربي، حيدرآباد
٣٧.	الأعراف وهو كتاب (قب)	١٣٧	١٥٢	
٣٨.	الإعلام بإشارات أهل الإلهام	٢٢	٢٢	
٣٩.	الإفادة لمن أراد الاستفادة	-	-	قد يكون لعبد الكريم الجيلي
٤٠.	الأفراد وذوى الأعداد	٢٠٣	٢١٣	
٤١.	الإفهام في شرح الأعلام	-	٢٣	

الرقم	عنوان الكتاب	الفهرس	الإجازة	المصادر الأخرى/ملاحظات
٤٢.	الأقسام الإلهية	-	٥٩	
٤٣.	الألف وهو كتاب الأحدية	٧٤	-	
٤٤.	الأمر المحكم المربوط فيما يلزم أهل طريق الله من الشروط	٥٩	٦٢	
٤٥.	إنزال الغيوب على مراتب القلوب	٣٥	٣٦	وأيضاً رقم ٢٧٥ في الإجازة.
٤٦.	الإنزالات الوجودية من الخزائن الجودية	٤٧	-	
٤٧.	أنس المنقطعين برب العالمين	٤١	٤٢	
٤٨.	الإنسان الكامل والاسم الأعظم (عت)	١٧٣	١٨٣	
٤٩.	الإنسان وهو كتاب (ذ)	١٢٨	١٣٨	
٥٠.	إنشاء الجداول والدوائر	٦٦	٧١	
٥١.	أنفاس النور	-	٢٠٤	
٥٢.	أنوار الفجر في معرفة المقامات والعاملين على الأجر وعلى غير الأجر	٤٩	٤٩	
٥٣.	الأنوار فيما يفتح على صاحب الخلوة من الأسرار	٦٠	٦٣	
٥٤.	أوراد الأيام والليالي (أوراد الأسبوع)	-	-	أدعية وأوراد
٥٥.	الأوليات	-	-	مذكور في الفتوحات ج٤ص٢٩٨
٥٦.	الأولين	١٧٥	١٨٧	في التاريخ
٥٧.	أيام الشأن	١٢٣	١٣٣	عن حقيقة الأيام ومعنى يوم الشأن
٥٨.	إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن	١٨٠	١٩٠	تفسير تقليدي للقرآن الكريم
٥٩.	الباء	٧٩	-	
٦٠.	البادرات العينية في النادرات الغيبية	-	-	ذيل كشف الظنون، ج١ص١٦١
٦١.	الباه إلى التولد والتناسل (فا)	١٠٣	-	
٦٢.	البرزخ	-	١٤٥	
٦٣.	البروج	١٤٤	-	
٦٤.	البغية في اختصار كتاب الحلية لأبي نعيم	٤٣	٤٤	مختصر كتاب الحلية للأصفهاني
٦٥.	البقاء وهو كتاب (قد)	١٠٩	١١٨	
٦٦.	بلغة الغواص في الأكوان إلى معدن الإخلاص في معرفة الإنسان	-	-	مذكور في كشف الظنون ج١ص٢٥٢
٦٧.	البواده والهجوم	٢٢٤	٢٣٦	
٦٨.	التائية، قصيدة	-	-	قصيدة طويلة على نمط تائية ابن الفارض
٦٩.	تاج التراجم	١٧٨	٥١	حكم صوفية
٧٠.	تاج الرسائل ومنهاج الوسائل	٥١	-	سبع رسائل مخاطبات بينه وبين الكعبة المشرفة
٧١.	التجريد والتفريد	-	٢٣٠	
٧٢.	التجليات الإلهية	١٨٢	٢٢٣	
٧٣.	تحذير ذوي التسخير	-	-	ذكر في ذيل كشف الظنون ج١ص٢٣٠
٧٤.	تحرير البيان في تقرير شعب الإيمان ورتب الإحسان	-	-	ربما يكون لصدر الدين القونوي

الرقم	عنوان الكتاب	الفهرس	الإجازة	المصادر الأخرى/ملاحظات
٧٥.	التحفة والطرفة	١٣٥	١٥٠	
٧٦.	التحفة والطرفة وهو كتاب (سب)	–	١٥٠	
٧٧.	التحقيق في شأن السر الذي وقر في صدر أبي بكر الصديق	٣١	٣١	حول حديث "... إلا بسرّ وقر في صدره"
٧٨.	التحكيم والشطح	٢٠١	٢١١	
٧٩.	التحليل والتركيب وهو كتاب (ضا)	١٢٩	١٣٩	
٨٠.	التحويل وهو كتاب (نا)	١٢٥	١٣٥	
٨١.	التداني والتدلي	٢٣٢	٢٤٣	
٨٢.	التدبير والتفصيل وهو كتاب (ما)	١١٧	١٢٧	
٨٣.	التدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية	٣٣	٣٤	
٨٤.	تذكرة الخواص في عقيدة أهل الاختصاص (التذكرة الخاص)	–	–	مذكور في كشف الظنون ج١ص٣٨٥
٨٥.	ترجمان الأشواق	١٧٦	–	مجموعة قصائد غزلية بمعان روحية
٨٦.	التسعة عشر وهو كتاب (رد)	١٦٥	–	
٨٧.	التفصيل بين البشر والملك	–	١٨٤	
٨٨.	التكوين والتمكين	٢٢٥	٢٣٧	
٨٩.	تلقيح الأذهان ومفتاح معرفة الإنسان	–	–	كشف الظنون، ج١، ر٤٨أ
٩٠.	التنزلات الليلية في الأحكام الإلهية	–	–	
٩١.	التنزلات الموصلية في أسرار الطهارة والصلاة والأيام المقدرة الأصلية	٥٣	٥٥	
٩٢.	تهذيب الأخلاق	٦٧	٧٢	
٩٣.	جامع الأحكام في معرفة الحلال والحرام	–	–	كشف الظنون، ج١، ص٤٩٩
٩٤.	الجبال وهو كتاب (يب)	١٤١	١٥٦	
٩٥.	الجذوة المقتبسة والخطرة المختلسة	٧	٨	
٩٦.	الجسم والجسد	٢٣٧	–	
٩٧.	الجسم وهو كتاب (مج)	١٥٣	١٦٤	
٩٨.	الجلا في آداب الملا الأعلى	١٦	١٦	
٩٩.	الجلاء	٣٨	٣٩	
١٠٠.	جلاء القلوب في أسرار علام الغيوب	٣٠	٣٠	
١٠١.	الجلال والجمال	٥٦	٦٠	
١٠٢.	الجلالة	٧٦	٨٧	
١٠٣.	الجمع والتفصيل في أسرار المعاني والتنزيل	٦	٧	تفسير القرآن إلى سورة مريم في ستين جزء
١٠٤.	الجنة وهو كتاب (مد)	١٦٧	–	
١٠٥.	الجواب المستقيم عما سئل عنه الترمذي الحكيم	–	–	متضمن في الفتوحات ج٢ص٣٩-١٣٩
١٠٦.	جواب سؤال ابن سودكين عن أعلى المراتب والأحوال (العقد المنظوم)	–	–	رسائل ابن عربي، حيدرآباد
١٠٧.	جواب عن مسألة الدرة البيضاء وهو العقل الأول	–	–	مذكور في عقلة المستوفز، ص٦٥٦
١٠٨.	جواب عن مسألة الزبردة الخضراء أو الياقوتة الحمراء وهي	–	–	مذكور في عقلة المستوفز، ص٦٥٦

الرقم	عنوان الكتاب	الفهرس	الإجازة	المصادر الأخرى/ملاحظات
	النفس الكلية			
١٠٩.	جواب عن مسألة السجة السوداء وهي الهيولى	-	-	
١١٠.	الجود والعطاء والوهب والمنح والكرم والسخاء وهو كتاب (الدال)	٨٠	٨٣	
١١١.	الحاء وهو كتاب الحياة	٩٦	١٠٣	
١١٢.	الحال والمقام والوقت	١٩٩	٢٠٩	وأيضاً رقم ١٥٦ في الإجازة.
١١٣.	الحج الأكبر (قصيدة عظيمة)	-	-	كشف الظنون، ج٣ ص ٢٥٩
١١٤.	الحجب المعنوية عن الذات الهوية	٦٥	٧٠	
١١٥.	الحد والمطّلع	٢٤٤	٢٥٦	
١١٦.	الحرف والمعنى	١٩٣	٢٤٢	
١١٧.	الحركة وهو كتاب (بح)	١٥٦	١٦٧	
١١٨.	الحروف في علم الموصوف	-	-	كشف الظنون، ج٢ ص ٢٨٩
١١٩.	حزب التوحيد	-	-	دعاء
١٢٠.	حزب الشيخ الأكبر	-	-	دعاء
١٢١.	الحسن	-	١٤٦	
١٢٢.	الحشر وهو كتاب (ذب)	١٤٥	-	
١٢٣.	الحضرة	١٦٨	١٧٩	
١٢٤.	الحق (سا)	١١٩	١٢٩	
١٢٥.	الحق المخلوق به	٢٠٢	٢١٢	
١٢٦.	الحق والباطل وهو كتاب (سا)	٢٤٣	٢٥٣	
١٢٧.	الحكم والشرائع	١١١	١٢٠	
١٢٨.	الحكم والشرائع الصحيحة والسياسة (يه)	١١١	١٢٠	
١٢٩.	الحكمة المحبوبة (د)	٨٤	٩٠	
١٣٠.	حلية الأبدال وما يظهر عنها وعليها من المعارف والأحوال	٤٨	٤٨	
١٣١.	الحمد وهو كتاب (عا)	١٢٠	١٣٠	
١٣٢.	الحيرة (تا)	١٢٦	١٣٦	
١٣٣.	الختم والطبع	٢٣٦	٢٤٧	
١٣٤.	خروج الشخوص من بروج الخصوص	-	-	كشف الظنون، الذيل، ج١ص٤٣٧
١٣٥.	الخزائن العملية وهو كتاب (كو)	١١٤	١٢٣	
١٣٦.	الخصوص والعموم	٢٤٠	٢٥٠	
١٣٧.	الخلق والأمر وهو كتاب الواو	٩٠	٩٦	
١٣٨.	الخلوة	-	٦٤	
١٣٩.	الخواطر (كتاب كشف السرائر في موارد الخواطر)	٢١٥	٢٢٦	
١٤٠.	الخوف والرجاء	٢٠٥	٢١٥	
١٤١.	الدرة الفاخرة في ذكر من انتفعت به في طريق الآخرة	٤٤	٤٥	
١٤٢.	الدرة الناصعة من الجفر والجامعة	-	-	كشف الظنون، ج٣ص٢٠٠

الرقم	عنوان الكتاب	الفهرس	الإجازة	المصادر الأخرى/ملاحظات
١٤٣.	الدعاء والإجابة (فج)	١٠٦	١١٤	وأيضاً رقم ١١٥ في الإجازة.
١٤٤.	دليل الخازن	-	٢٨٩	
١٤٥.	الديمومية من السرمدية والخلود والأبد والبقاء (ك)	٨١	٨٢	
١٤٦.	ديوان المعارف الإلهية واللطائف الروحانية	٧٠	٧٥	
١٤٧.	الذخائر والأعلاق في شرح ترجمان الأشواق	١٨٤	-	
١٤٨.	الرجعة	٢٣٥	٢٤٤	
١٤٩.	الرحلة	٧٢	٧٧	
١٥٠.	الرحمة وهو كتاب (قب)	٧٧	٨١	
١٥١.	الرسائل في الأجوبة عن عيون المسائل	-	٦٨	
١٥٢.	رسالة إلى فخر الدين الرازي	-	-	رسائل ابن عربي، حيدرآباد
١٥٣.	الرسالة والنبوة والولاية والمعرفة وهو كتاب (كه)	١٦٣	١٧٣	
١٥٤.	الرعد والمطر	-	٢٦٤	
١٥٥.	الرغبة والرهبة	٢٢٦	٢٣٨	
١٥٦.	الرقبة وهو كتاب (شد)	١٠٨	١١٧	
١٥٧.	رقم الأوضاع	-	٢٨٤	
١٥٨.	الرقم وهو كتاب (التاء)	١٠٠	١١٣	
١٥٩.	الرقيم	-	١٠٧	
١٦٠.	الرمز والحروف التي في أوائل السور وهو كتاب (عج)	١٠٧	١١٦	
١٦١.	الروائح والأنفاس وهو كتاب (كب)	١٣١	١٤١	
١٦٢.	روح الروح	-	٢٦٩	
١٦٣.	روح القدس في مناصحة النفس	٥٣	-	
١٦٤.	روح القياس (على سؤال القشيرية)	-	-	كشف الظنون: ٤٨٣/٣
١٦٥.	روضة العاشقين	٦٨	٧٣	
١٦٦.	الرياح اللواقح والريح العقيم وهو كتاب (كا)	١١٥	١٢٤	وأيضاً رقم ١٢٥ في الإجازة.
١٦٧.	الرياضة والتجلي	٢٢٢	٢٣٤	
١٦٨.	زبدة الكل	-	٢٨٠	
١٦٩.	الزلفة وهو كتاب (يج)	١٠٥	١١٣	
١٧٠.	الزمان وهو كتاب (تج)	١٥٤	١٦٥	
١٧١.	الزينبيات	-	-	الفتوحات المكية: ج٣ص١١٩.
١٧٢.	زيادة كبد النون وهو كتاب (صب)	١٣٨	١٥٣	
١٧٣.	سبب تعلق النفس بالجسم وما تقاسي من الألم عند فراقه بالموت	٣٤	٣٥	
١٧٤.	السبحة السوداء	-	-	كشف الظنون: ج٢ص٩٧٥.
١٧٥.	سجنجل الأرواح ونقوش الألواح	-	٢٨٦	
١٧٦.	سجود القلب وهو كتاب (دج)	١٦٠	١٧١	
١٧٧.	السر المكشوف في المدخل إلى العمل بالحروف	٥٧	٢٥٥	

الرقم	عنوان الكتاب	الفهرس	الإجازة	المصادر الأخرى/ملاحظات
١٧٨.	السر والخلوة (الستر والجلوة)	٢٣٤	٢٤٥	
١٧٩.	السر وهو كتاب (ن)	٨٨	٩٤	
١٨٠.	السراج الوهاج في شرح كلام الحلاج	٣٣	٣٤	
١٨١.	الشادن والإقليد	٢٤٦	٢٥٩	
١٨٢.	الشاهد والمشهود	٣١٦	٣٢٧	
١٨٣.	شرح الأسماء (الحسنى)	١٨٣	١٩٢	
١٨٤.	شرح خلع النعلين لابن قسي	-	-	كشف الظنون: ج٣ص١٧٢، ج٤ص٣٧.
١٨٥.	الشريعة والطريقة والحقيقة	٣٠٠	٣١٠	
١٨٦.	شفاء العليل في إيضاح السبيل	١٨	١٨	
١٨٧.	الشواهد	-	٥٣	
١٨٨.	الصادر والوارد في الموارد والواردات وهو كتاب الزاي	٩١	٩٩	
١٨٩.	الصحو والسكر	٣١٢	٣٢٣	
١٩٠.	الصلوات الأكبرية، الصلوات الفيضية، الصلوات القطبية ...	-	-	صلوات على النبي صلّى الله عليه وسلّم.
١٩١.	الضوء والظلمة	-	٣٦٣	
١٩٢.	الطالب والمجذوب والمقام والموقوف	-	٣٠٧	
١٩٣.	الطير وهو كتاب (صب)	١٤٣	١٥٨	
١٩٤.	الظلال والضياء	٢٣٨	٢٤٨	
١٩٥.	العالم وهو كتاب (سج)	١٥٧	١٦٨	
١٩٦.	العبادلة	١٧٧	١٨٨	
١٩٧.	العبارة والإشارة	٢٤١	٢٥١	
١٩٨.	العبد والرب	٢٤٨	٢٦١	
١٩٩.	العرش وهو كتاب (طح)	١٤٩	١٦٠	
٢٠٠.	العروش (عب)	-	٢٥٧	
٢٠١.	العز والذل	-	٣٦٦	
٢٠٢.	العزة وهو كتاب (م)	٨٥	٩١	
٢٠٣.	العشق وهو كتاب (رو)	١٦٩	١٨٠	
٢٠٤.	العظمة	٧٨	٨٨	
٢٠٥.	العقد المنظوم والسر المختوم	-	-	كشف الظنون: ج٤ص٢٣٥
٢٠٦.	عقلة المستوفز (الإنسان الكامل، إنشاء الجسوم الإنسانية، العقلة)	١٩	١٩	
٢٠٧.	العلم والعمل	-	٣٦٧	
٢٠٨.	العلم وهو كتاب (القاء)	٩٧	١٠٤	
٢٠٩.	عنقاء مغرب في ختم الأولياء وشمس المغرب	٦١	٦٥	
٢١٠.	العوالي في أسانيد الحديث	٧٣	٧٨	
٢١١.	العين (ما)	١٠١	١٠٨	
٢١٢.	عين النور	-	٢٨٣	

الرقم	عنوان الكتاب	الفهرس	الإجازة	المصادر الأخرى/ملاحظات
٢١٣.	العين في خصوصيات سيد الكونين	٣٢	-	
٢١٤.	الغايات فيما ورد من الغيب في تفسير بعض الآيات	١٦٤	١٧٤	
٢١٥.	الغرّة والعزّة	-	١٧٦	
٢١٦.	الغرقة والحرقة وهو كتاب (عب)	١٣٦	١٥١	
٢١٧.	الغيب وهو كتاب (قه)	١١٣	١٢١	
٢١٨.	الغيبة والحضور	٢١١	٢٢١	
٢١٩.	الفتح القاسي	-	-	في كتاب الميم والواو والنون: ص٢.
٢٢٠.	الفترة والاجتهاد	٢٢٠	٢٣١	
٢٢١.	الفتوة	-	٢٣٣	
٢٢٢.	الفتوح والمطالعات وهو كتاب الفحل (صج)	٢٣٠	٢٤٠	
٢٢٣.	الفتوحات المدنية	-	-	كشف الظنون: ج٢ص١٢٣٨.
٢٢٤.	الفتوحات المصرية	-	-	كشف الظنون: ج٢ص١٢٣٧.
٢٢٥.	الفتوحات المكية في معرفة الأسرار المالكية والملكية	٥٠	٥٠	مشهور
٢٢٦.	الفحوص في الرصوص	-	٥٢	
٢٢٧.	الفرح والسرور	-	٢٦٣	
٢٢٨.	الفرق بين الاسم والنعت والصفة	٢٤٥	٢٥٨	
٢٢٩.	الفصل والوصل	١٩٥	٢٠٣	
٢٣٠.	فصوص الحكم	١٨٧	١٩٤	مشهور
٢٣١.	الفلك المشحون	١٥١	١٦٢	
٢٣٢.	الفلك والسماء وهو كتاب (ل)	٨٣	٨٦	
٢٣٣.	الفناء في المشاهدة	-	-	الفتوحات المكية: ج٢ص٦٣٢.
٢٣٤.	الفناء والبقاء	٢١٠	٢٢٠	
٢٣٥.	القبض والبسط	٢٠٦	٢١٦	
٢٣٦.	القدر وهو كتاب (صا)	١٢٢	١٣٢	
٢٣٧.	القدرة وهو كتاب (عد)	١١٠	١١٩	
٢٣٨.	القدس وهو كتاب (الراء)	٩٥	١٠٢	
٢٣٩.	القدم وهو كتاب (الخاء)	٩٣	٩٧	
٢٤٠.	القَدم وهو كتاب (السين)	٩٢	-	
٢٤١.	القرب والبعد	٢١٣	٢٢٤	
٢٤٢.	القسطاس وهو كتاب (طب)	١٤٦	١٤٧	
٢٤٣.	القسم الإلهي بالاسم الرباني	٥٥	٥٨	
٢٤٤.	القشر واللب	٢٣٩	٢٤٩	
٢٤٥.	القطب والإمامين والمدلجين	-	٥٤	
٢٤٦.	القطب والنقباء (النقباء)	-	٢٥٣	
٢٤٧.	قلب القلب	-	٢٧٠	
٢٤٨.	القلم وهو كتاب (ضج)	١٤٧	١٤٨	

الرقم	عنوان الكتاب	الفهرس	الإجازة	المصادر الأخرى/ملاحظات
٢٤٩.	قوت القلوب	-	٢٧١	
٢٥٠.	القيومية وهو كتاب (ج)	-	٨٤	
٢٥١.	كتاب الكتب	-	-	ذيل كشف الظنون: ج١ص١٢٤
٢٥٢.	كتاب الهو وهو كتاب الياء	٧٥	٨٠	
٢٥٣.	الكتب والقرآن والفرقان وهو كتاب (كا)	١١٦	١٢٦	
٢٥٤.	الكرسي وهو كتاب (ذج)	١٥٠	١٦١	
٢٥٥.	الكشف	٢١٧	-	
٢٥٦.	كشف الأستار عن خواص الأسرار	-	-	ذيل كشف الظنون: ج٢ص٣٤٥.
٢٥٧.	كشف المعنى عن سر أسماء الله الحسنى	١٧	١٧	
٢٥٨.	الكن إلى حضرة الأفعال والتكوين وهو كتاب (ثا)	١٠٣	١١٠	
٢٥٩.	كنز الأبرار فيما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم من الأدعية والأذكار	٢٩	٢٩	
٢٦٠.	كنه ما لابد منه للمريد	١٤	١٤	
٢٦١.	الكوكب الآفل	-	٢٦٨	
٢٦٢.	كيف أنت وكيف أنا ومن أنت ومن أنا	-	٢٢٨	
٢٦٣.	كيمياء السعادة لأهل الإرادة	-	-	راجع الفتوحات: ج١ص٣٢٥، ج٢ص٢٧٥.
٢٦٤.	اللذة والألم وهو كتاب (لا)	١١٨	١٢٨	
٢٦٥.	لطائف الأسرار	-	٢٨٣	
٢٦٦.	اللطائف والعوارف	٢٢١	٢٣٢	
٢٦٧.	اللطائف والقهر	-	٢٦٥	
٢٦٨.	اللمة والهمة	٢٢٨	٩٨	
٢٦٩.	اللوائح في شرح النصائح	١٨٨	٢٠٠	
٢٧٠.	لوامع الأنوار	-	٢٧٢	
٢٧١.	اللوامع والطوالع	١٩٣	١٩٩	
٢٧٢.	اللوح وهو كتاب (كج)	١٤٨	١٤٩	
٢٧٣.	المؤمن والمسلم والمحسن وهو كتاب (يا)	١٢١	١٣١	
٢٧٤.	مؤنس الموحدين	-	٢٨١	
٢٧٥.	ما لا يعول عليه في طريق الله (النصائح)	١٧٩	١٨٩	
٢٧٦.	مآل العالم	-	٢٧٩	
٢٧٧.	المبادئ والغايات فيما تحوي عليه حروف المعجم من العجائب والآيات	٤٥	٤٦	
٢٧٨.	مبايعة القطب في حضرة القرب	١٢	١٢	
٢٧٩.	المبدعين والمبادئ وهو كتاب (رب)	١٠٤	١١١	
٢٨٠.	المبشرات	٧١	٧٦	
٢٨١.	المبشرات في الأحلام	١٧٣	١٨٥	
٢٨٢.	المثلثات الواردة في القران مثل قوله تعالى لا فارض ولا بكر	٩	١٠	

الرقم	عنوان الكتاب	الفهرس	الإجازة	المصادر الأخرى/ملاحظات
	عوان			
٢٨٣.	المجد والبقاء وهو كتاب الباء	-	٨٩	
٢٨٤.	محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار	١٧٤	١٨٦	
٢٨٥.	المحجة البيضاء في الحديث مجلدات	٢٧	٢٨	
٢٨٦.	المحق والسحق	٢٢٣	٢٣٥	
٢٨٧.	المحكم في المواعظ والحكم وآداب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم	١٥	١٥	
٢٨٨.	المحو والإثبات	٢١٤	٢٢٥	
٢٨٩.	مختصر الدرة الفاخرة	-	-	فيه ذكر بعض شيوخه.
٢٩٠.	المدهش	-	٥٧	
٢٩١.	مراتب الكثيب الأبيض	-	١٥٧	
٢٩٢.	مراتب علوم الوهب	-	٢٠٣	
٢٩٣.	المركز	-	-	الفتوحات المكية: ج١ص١٤٠.
٢٩٤.	المسائل وهو كتاب المعرفة	-	١٩١	
٢٩٥.	المسبعات الواردة في القرآن	١٠	-	
٢٩٦.	مشاهد الأسرار والقدسية ومطالع الأنوار الإلهية	٣٧	٣٨	
٢٩٧.	مشكاة الأنوار فيما روي عن الله سبحانه وتعالى من الأخبار	٣٠	٣٠	
٢٩٨.	المشيئة والإرادة والشهوة وهو كتاب (ض)	٩٨	١٠٥	
٢٩٩.	المصباح في الجمع بين الصحاح	٣	١	
٣٠٠.	مصقى القلوب	-	٢٩٠	
٣٠١.	مطالع الأنوار الإلهية	-	-	مذكور في التدبيرات الإلهية: ص١٢٤ تبرغ.
٣٠٢.	المعراج وهو كتاب (ظا)	١٣٠	١٤٠	
٣٠٣.	المعلوم من عقائد علماء الرسوم	٦٣	٦٦	
٣٠٤.	مغاطيس القلوب ومفتاح الغيوب	-	-	دعاء
٣٠٥.	مفاتيح الغيب وهو كتاب (لا)	١١٣	١٢٢	
٣٠٦.	المفاضلة وهو كتاب (شد)	١٧١	١٨٣	
٣٠٧.	مفتاح إفهام إلهام الوحيد وإيضاح إشكال إعلام المريد	٤٠	٢٧٧	
٣٠٨.	مفتاح السعادة	٢٨	-	
٣٠٩.	مفتاح السعادة في معرفة المدخل إلى طريق الإرادة	٨	٩	
٣١٠.	مقام القربة	-	-	الفتوحات المكية: ج٢ص١٠.
٣١١.	مقام المعرفة	-	-	الفتوحات المكية: ج١ص٤٦.
٣١٢.	المقصد الأسمى في الإشارات فيما وقع في القرآن من الكنايات	-	-	الفتوحات المكية: ج٣ص١٥٠.
٣١٣.	المقنع في إيضاح السهل الممتنع	٥٨	٦١	
٣١٤.	المكان وهو كتاب (يج)	١٥٥	١٦٦	
٣١٥.	المكر والاصطلام	٢٢٧	٢٣٩	

الرقم	عنوان الكتاب	الفهرس	الإجازة	المصادر الأخرى/ملاحظات
٣١٦.	الملامية	-	٣١٤	
٣١٧.	الملك والملكوت	٢٤٣	٢٥٤	
٣١٨.	الملّك وهو كتاب (ع)	٩٤	١٠٠	
٣١٩.	الملك وهو كتاب (لب)	١٣٢	١٤٢	
٣٢٠.	المناظرة بين الإنسان والحيوان وهو كتاب (صد)	١٧٠	١٨١	
٣٢١.	مناهج الارتقاء إلى افتضاض أبكار البقاء المخدرات بخيمات اللقاء	١٣	١٣	
٣٢٢.	المنتخب من مآثر العرب	٢٤	٢٥	
٣٢٣.	منزل المنازل الفهوانية وهو كتاب (ط)	٩٩	١٠٦	
٣٢٤.	المنعش	-	٣٣	
٣٢٥.	منهج البيان لأهل الرضوان	-	-	ذيل كشف الظنون: ج٢ص٥٩١.
٣٢٦.	المنهج السديد في ترتيب أحوال الإمام البسطامي أبي يزيد	٣٩	٤٠	
٣٢٧.	الموارد والواردات	-	١٠١	
٣٢٨.	مواقع النجوم ومطالع أهلة الأسرار والعلوم	٤٦	٤٧	
٣٢٩.	المواقف ومعرفة المعارف	١٨١	-	
٣٣٠.	الموعظة الحسنة	٤٢	٤٣	
٣٣١.	موعظة أهل الإنكار	-	٢٨٧	
٣٣٢.	المولد الجسماني والروحاني	-	-	كشف الظنون: ج٦ص٢٧٠.
٣٣٣.	المياه	-	١٠٩	
٣٣٤.	الميزان في حقيقة الإنسان	٢٦	٢٧	
٣٣٥.	الميم والواو والنون	٦٩	٧٤	
٣٣٦.	النار وهو كتاب (ضد)	١٦٦	١٧٥	
٣٣٧.	نتائج الأذكار في المقربين والأبرار	١٨٩	١٩٧	
٣٣٨.	نتائج الأفكار وحدائق الأزهار	٣٥	٣٦	
٣٣٩.	نتائج التوحيد	-	٢٧٤	
٣٤٠.	النجد	-	٢٠٥	
٣٤١.	النجم والشجر (عج)	١٥٩	١٧٠	
٣٤٢.	النحل وهو كتاب (صح)	١٦٣	١٤٤	
٣٤٣.	نسب الخرقة	-	-	
٣٤٤.	نسخة الحق	-	-	كشف الظنون: ج٢ص١٩٥١.
٣٤٥.	النشأتين	٢٠٨	٢١٨	
٣٤٦.	نظم الفتح المكي	-	-	عليه سماع للمؤلف مؤرخ بحلب سنة ٦٣٠.
٣٤٧.	نقش الفصوص في مختصر فصوص الحكم	-	-	ربما يكون لأحد تلاميذ الشيخ.
٣٤٨.	النكاح الساري في جميع الذراري	١٨٦	١٩٣	
٣٤٩.	النمل وهو كتاب (هب)	١٤٣	١٥٩	
٣٥٠.	النواشئ الليلية	٢٠٩	٢١٩	

الرقم	عنوان الكتاب	الفهرس	الإجازة	المصادر الأخرى/ملاحظات
٣٥١.	النور والضياء والظل والظلمة والإشراق والظهور وهو كتاب الهاء	-	٣٤٦	
٣٥٢.	النوم واليقظة	٣٤٧	٣٦٠	
٣٥٣.	النون في السر المكنون	٨٧	٩٣	
٣٥٤.	الهباء وهو (خج)	١٥٣	١٦٣	
٣٥٥.	الهياكل وهو كتاب (حب) (هياكل النور)	١٣٤	-	
٣٥٦.	الهيبة والأنس	٢٠٧	٢١٧	
٣٥٧.	الوجد	١٩٦	٢٠٦	
٣٥٨.	الوجود وهو كتاب (شا)	١٢٤	١٣٤	
٣٥٩.	الوحي وهو كتاب (خا)	١٢٧	١٣٧	
٣٦٠.	الوسائل في الأجوبة عن عيون المسائل	١٨٥	-	
٣٦١.	الوصايا الأكبرية	-	-	الباب الأخير من الفتوحات المكية
٣٦٢.	الوقائع	٢٣١	٢٤١	
٣٦٣.	الوله	٢١٨	٢٢٩	
	اليقين الموضوع في مسجد اليقين	-	-	الفتوحات المكية: ج٢ص٢٠٥.

بسم الله الرحمن الرحيم

المَصَادِرُ والمَرَاجِعُ

هذه قائمة بأهم المصادر التي استخدمناها في هذا الكتاب ومراجع أخرى مهمة، وقد قسمناها إلى أربعة جداول: كتب الشيخ محيي الدين ابن عربي نفسه، والكتب والدراسات المختلفة حوله باللغة العربية، والكتب والدراسات حوله باللغات الأخرى، ثم المراجع التاريخية والفكرية الأخرى.

ونبدأ بذكر الاختصارات التي استخدمناها في ذكر عناوين الكتب المتكررة:

العنوان المختصر:	يشير إلى... (انظر تفاصيل هذه المطبوعات في الجداول أدناه)
الأعلام	الأعلام، لخير الدين الزركلي.
البحث عن الكبريت الأحمر	Ibn ʿArabi ou La quête du Soufre Rouge، لكلوديا عداس.
البداية والنهاية	البداية والنهاية، للحافظ ابن كثير الدمشقي.
البدر الطالع	البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، لمحمد بن علي الشوكاني.
خلاصة الأثر	خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، لمحمد المحبي.
تاريخ الإسلام	تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، للحافظ شمس الدين الذهبي.
ترجمان الأشواق	ذخائر الأعلاق في شرح ترجمان الأشواق، لابن العربي.
التكملة لوفيات النقلة	التكملة لوفيات النقلة، لزكي الدين المنذري.
الديوان	ديوان ابن عربي، وهو الديوان الكبير، لابن العربي.
الرحمن المطلق	The Unlimited Mercifier, The Spiritual Life and Thought of Ibn ʿArabī، لستيفين هرنشتاين.
روح القدس	رسالة روح القدس في مناصحة النفس، لابن العربي.
روضات الجنات	روضات الجنات في أحوال العلماء و السادات لمحمد باقر الخوانساري.
سلوك القلب	شرح تأويل الشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي لسورة يوسف: سلوك القلب من الوجود إلى الفناء ثم البقاء، لمحمد حاج يوسف.
سير أعلام النبلاء	سير أعلام النبلاء، للحافظ شمس الدين الذهبي.
شذرات الذهب	شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي.
صحيح البخاري	الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وسننه وأيامه، للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري.
صحيح مسلم	صحيح مسلم، للإمام أبي الحسن مسلم بن الحجاج النيسابوري.
الضوء اللامع	الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، لمحمد بن عبد الرحمن السخاوي.

العنوان المختصر:	يشير إلى... (انظر تفاصيل هذه المطبوعات في الجداول أدناه)
طبقات الداودي	طبقات المفسرين، للحافظ شمس الدين محمد الداودي.
طبقات السيوطي	طبقات المفسرين، للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي.
طبقات السبكي	طبقات الشافعية الكبرى، لتاج الدين السبكي.
غاية النهاية	غاية النهاية في طبقات القراء، شمس الدين الجزري.
الفتوحات المكية	الفتوحات المكية في معرفة الأسرار المالكية والملكية، لابن العربي.
فوات الوفيات	فوات الوفيات والذيل عليها، محمد ابن شاكر الكتبي.
كشف الظنون	كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لحاجي خليفة.
كنز العمال	كنز العمال في سنن الأقوال و الأفعال، للمتقي الهندي.
الكنى والألقاب	الكنى والألقاب، للشيخ عباس القمي.
لسان الميزان	لسان الميزان، لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني.
مؤلفات ابن عربي	مؤلفات ابن عربي: تاريخها وتصنيفها، لعثمان يحيى، ترجمة أحمد الطيبي.
المختصر المحتاج إليه	المختصر المحتاج إليه من تاريخ بغداد لابن الدبيثي، اختصره الحافظ الذهبي.
مرآة الجنان	مرآة الجنان وعبرة اليقظان، لعبد الله بن أسعد اليافعي.
معجم البلدان	معجم البلدان، لشهاب الدين ياقوت الحموي.
معجم المؤلفين	معجم المؤلفين (تراجم مصنفي الكتب العربية)، لعمر رضا كحالة.
النجوم الزاهرة	النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لجمال الدين بن تغري.
نفح الطيب	نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، للمقري التلمساني.
هدية العارفين	هدية العارفين، لإسماعيل باشا البغدادي.
الوافي بالوفيات	كتاب الوافي بالوفيات، لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي.

الرقم	الجدول الأول: مؤلفات الشيخ محيي الدين ابن العربي
١.	الإسرا إلى المقام الأسرى (كتاب المعراج)، تحقيق سعاد الحكيم، دار دندرة-بيروت، ١٩٨٨.
٢.	اصطلاحات الصوفية، محيي الدين ابن العربي، مكتبة عالم الفكر-القاهرة، ١٩٨٧.
٣.	إنشاء الدوائر، عقلة المستوفز، التدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية، (طبعة نيبرغ) مطبعة بريل، ليدين، ١٣٣٦هـ توجد منه طبعات أخرى مثل: "إنشاء الدوائر"، مكتبة الثقافي الدينية-مصر، د.ت.
٤.	التدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية، تحقيق حسن عاصي، مؤسسة بحسون-بيروت، ١٩٩٣.
٥.	التدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية، دار الكتب العلمية-بيروت، ٢٠٠٠.
٦.	تفسير ابن عربي، دار صادر-بيروت، ٢٠٠٢. (وهو في الحقيقة لعبد الرزاق القاشاني)
٧.	التنزلات الليلية في الأحكام الإلهية (مع رسالة نسب الخرقة)، تحقيق عبد الرحمن حسن محمود، عالم الفكر-القاهرة، ١٩٨٧.
٨.	التنزلات الموصلية في أسرار الطهارات والصلوات والأيام الأصلية، تحقيق عبد الرحمن حسن محمود، عالم الفكر-القاهرة، ١٩٨٦.
٩.	تهذيب الأخلاق، مكتبة عالم الفكر، مصر، د.ت..
١٠.	توجهات الحروف، مكتبة القاهرة-القاهرة، د.ت.
١١.	الحكم الحاتمية، مكتبة عالم الفكر، مصر، د.ت..
١٢.	حلية الأبدال، استانبول، ١٣٢٦ هجرية.

الرقم	الجدول الأول: مؤلفات الشيخ محيي الدين ابن العربي
١٣.	الخلوة المطلقة، القاهرة، ١٩٨٧.
١٤.	الدرة البيضاء، بيروت، ١٩٢٣.
١٥.	ديوان ابن عربي، تحقيق أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية-بيروت، ١٩٩٦.
١٦.	رد المتشابه إلى المحكم، تحقيق عبد الرحمن حسن محمود، عالم الفكر-القاهرة، د.ت..
١٧.	رد المتشابه إلى المحكم، مكتبة عالم الفكر، مصر، د.ت..
١٨.	رسائل ابن عربي: شرح مبتدأ الطوفان، تحقيق قاسم محمد عباس وحسين محمد عجيل، المجمع الثقافي-أبو ظبي، ١٩٩٨. وهي تتضمن الرسائل التالية (وكلها مشكوك في نسبتها للشيخ الأكبر): عين العين، خروج الشخوص من بروج الخصوص، انخراق الجنود إلى الجلود، شرح مبتدأ الطوفان، المقدار في نزول الجبار، نشر البياض في روضة الرياض، خاتمة نزول الجبار، الرد على اليهود، خاتمة الرد على اليهود، بقية خاتمة الرد على اليهود، كشف سر الوعد وبيان علامة الوجد.
١٩.	رسائل ابن عربي: كشف الستر، دار أزمنة-عمان، ٢٠٠٤. ويحوي أيضاً رسالة الوقت، مراتب علوم الوهب، كتاب الهو، المعلوم من عقائد أهل الرسوم، الاتحاد الكوني في حضرة الإشهاد العيني.
٢٠.	رسائل ابن عربي، دار صادر، وهو يتضمن تسعا وعشرين رسالة، نسخة عن طبعة حيدرآباد، ١٩٤٨، وقد طبع طبعات أخرى كثيرة من قبل عدد كبير من دور النشر وكلها صورة عن هذه الطبعة، وهذه هي الكتب والرسائل التي تضمنتها: الفناء في المشاهدة، الجلال والجمال، الألف وهو الأحدية، الجلالة وهو كلمة الله، أيام الشأن، القربة، الإعلام بإشارات أهل الإلهام، الميم والواو النون، القسم الإلهي، الباء، الأزل، الأنوار، الإسرا إلى المقام الأسرى، في سؤال إسماعيل ابن سودكين، الشيخ إلى الإمام الرازي، لا يعول عليه، الشاهد، التراجم، منزل القطب ومقامه وحاله، الانتصار، كتاب الكتب، المسائل، التجليات، الإسفار، الوصايا، حلية الأبدال، نقش الفصوص، الوصية، اصطلاحات الصوفية.
٢١.	الرسالة الوجودية، مكتبة القاهرة، د.ت..
٢٢.	رسالة روح القدس في مناصحة النفس، دمشق، ١٩٧٠.
٢٣.	شجرة الكون، تحقيق عبد الرحيم مارديني، دار المحبة-دمشق، ٢٠٠٣.
٢٤.	الشجرة النعمانية الماحقة للطائفة اليهودية، مع تعليقات لمحمد سعيد الكردي.
٢٥.	الشجرة النعمانية، القاهرة، ١٩٩٦.
٢٦.	شجون المسجون وفنون المفتون، تحقيق د. علي الكردي، مكتبة سعد الدين-دمشق، ٢٠٠٢. (هذا الكتاب منسوب للشيخ محيي الدين، وهو ليس له)
٢٧.	عجائب العرفان في تفسير إعجاز البيان في الترجمة عن القرآن، تحقيق محمد إبراهيم سالم، الشركة المتحدة-القاهرة، ١٩٩٩.
٢٨.	العجالة، مكتبة عالم الفكر، مصر، د.ت..
٢٩.	عقيدة أهل الإسلام، مكتبة عالم الفكر، مصر، د.ت..
٣٠.	عنقاء مغرب، مكتبة و مطبعة محمد علي صبيح-القاهرة، د.ت..
٣١.	الفتوحات المكية في معرفة الأسرار الملكية والمالكية، دار الفكر-بيروت، د.ت.. وتوجد منها طبعات أخرى كثيرة من دور نشر أخرى، وهي نسخة مصورة من طبعة بلاق في حيدرآباد
٣٢.	الفتوحات المكية، الأسفار ١-١٤، تحقيق عثمان يحيى، الهيئة المصرية العامة للكتاب-القاهرة، ١٩٧٠.
٣٣.	فصوص الحكم، مع تعليقات أبي العلا عفيفي، دار الكتاب العربي-بيروت، ٢٠٠٢.
٣٤.	القسم الإلهي بالاسم الرباني، عالم الفكر-القاهرة، ١٩٩٤.
٣٥.	كتاب الباء (ويتضمن أيضاً: كتاب الباء، كتاب الجلالة، كتاب الألف، كتاب الشأن)، مكتبة القاهرة-القاهرة، ١٩٥٤.
٣٦.	كتاب الحجب، القاهرة، ١٩٠٧.
٣٧.	كتاب الحجب، مكتبة الثقافة الدينية-القاهرة، ٢٠٠٤.

الرقم	الجدول الأول: مؤلفات الشيخ محيي الدين ابن العربي
٣٨.	كشف المعنى عن أسماء الله الحسنى، تحقيق محمد إبراهيم سالم، المكتبة الأزهرية للتراث-القاهرة، ٢٠٠٢.
٣٩.	كلمة الله (كتاب الجلالة)، تحقيق رياض محمد العبد الله، الحكمة-دمشق، ١٩٩٦.
٤٠.	كنه ما لا بد للمريد منه (كتاب الكنه)، مكتبة محمد علي صبيح-القاهرة، ١٩٦٧.
٤١.	المبادئ والغايات، دمشق، ١٩٧٠.
٤٢.	مجموعة رسائل ابن عربي، دار المحجة البيضاء-بيروت، ٢٠٠٠، (٣ أجزاء) وهي تحوي الكتب والرسائل التالية (بعضها غير مؤكد نسبته لابن العربي، ومعظمها مطبوعة من قبل بشكل منفرد): تهذيب الأخلاق، الموعظة الحسنة، روح القدس، العجالة، الأنوار، عقيدة أهل الإسلام، شجرة الكون، النور الأسنى، تنبيهات على علو الحقيقة المحمدية، الخلوة المطلقة، كتاب الباء، كنه ما لا بد للمريد منه، اصطلاحات الصوفية، الحكمة الحاتمية، رسالة الشيخ إلى الإمام الرازي، توجهات الحروف (ومعها الصلوات المطلسمة، الصلوات الفيضية، الصلوات الأكبرية، الدور الأعلى، الصلاة النارية)، التنزلات الليلية في الأحكام الإلهية، التنزلات الموصلية، رد المتشابه إلى المحكم، عنقاء مغرب، العبادلة، مواقع النجوم، مجموعة ساعة الخبر.
٤٣.	مجموعة رسائل ابن عربي، مؤسسة الانتشار-بيروت، ٢٠٠٢-٢٠٠٤، (٤ أجزاء) وهي تحوي الكتب والرسائل التالية (بعضها غير مؤكد نسبته لابن العربي): الفهرس، العظمة، مراتب علوم الوهب، الحروف الثلاثة، اللمع، منزل المنازل الفهوانية، أسرار الذات الإلهية، القطب والإمامين والمدلجين، مقام القربة، المدخل إلى المقصد الأسمى في الإشارات، نسخة الحق، شق الجيب في علم الغيب، القطب والنقباء، عقلة المستوفز، الدرة البيضاء، الأنوار، تاشج الرسائل، التدبيرات الإلهية، الكوكب الدري في مناقب ذو النون المصري، اليقين، عنقاء مغرب، المعرفة.
٤٤.	مجموعة ساعة الخبر، مكتبة الحلبي-القاهرة، ١٩٤٧.
٤٥.	محاضرة الأبرار و مسامرة الأخيار في الأدبيات و النوادر والأخبار، دار صادر-بيروت، ١٩٩٠. (جزئين)
٤٦.	مرآة المعاني (نسخة من مخطوطة المكتبة الظاهرية بدمشق).
٤٧.	المسائل لإيضاح المسائل، تحقيق قاسم محمد عباس، دار أزمنة-عمان، ١٩٩٩.
٤٨.	مواقع النجوم ومطالع أهلة الأسرار والعلوم، ابن العربي، مكتبة محمد علي صبيح-القاهرة، ١٩٦٥.
٤٩.	مواقع النجوم، القاهرة، ١٩٠٧.
٥٠.	مواقع النجوم، مكتبة و مطبعة محمد علي صبيح-القاهرة، ١٩٦٥.
٥١.	النور الأسنى بمناجاة الله بأسمائه الحسنى، مكتبة محمد صبيح-القاهرة، ١٩٧٨.

الرقم	الجدول الثاني: دراسات حول الشيخ محيي الدين ابن العربي باللغة العربية
٥٢.	ابن عربي وروح القدس، حامد طاهر، دار الولية-دمشق، ١٩٨٠.
٥٣.	ابن عربي ومولد لغة جديدة، سعاد الحكيم، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع-بيروت، ١٩٩١.
٥٤.	ابن عربي: حياته ومذهبه، اسين بلاثيوس، ترجمه عن الإسبانية عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات-الكويت، دار القلم-بيروت، ١٩٧٩.
٥٥.	ابن عربي: دراسة وتحليل، سميح عاطف الزين، الشركة العالمية للكتاب-بيروت، ١٩٨٨.
٥٦.	آراء أبي بكر ابن العربي الكلامية، عمار الطالبي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع-الجزائر، ١٩٧٤.
٥٧.	الأسباب والمسببات: دراسة تحليلية مقارنة للغزالي وابن رشد وابن عربي، تأليف محمد عبد الله الشرقاوي، دار الجيل-بيروت، ١٩٩٧.
٥٨.	الإسفار عن رسالة الأنوار فيما يتجلى لأهل الذكر من أنوار، تأليف: ابن عربي الحاتمي الطائي وعبد الكريم الجيلي، تحقيق: عاصم كيالي، دار الكتب العلمية-بيروت، ٢٠٠٤.
٥٩.	التجليات الإلهية، همراه با تعليقات ابن سودكين وكشف الغايات في شرح ما اكتنفت عليه التجليات، تحقيق عثمان يحيى، مركز

الرقم	الجدول الثاني: دراسات حول الشيخ محيي الدين ابن العربي باللغة العربية
	نشر دانشگاهي، طهران ١٩٨٨.
٦٠.	تنبئة الغبي بتبرئة ابن عربي، لجلال الدين السيوطي، تحقيق وتعليق محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة-القاهرة، ١٩٩٥.
٦١.	ثلاث حكماء مسلمين، سيد حسين نصر، نقله عن الإنجليزية صلاح الصاوي، راجع الترجمة ونقحها ماجد فخري، دار النهار-بيروت، ١٩٨٦.
٦٢.	الخيال عند إبن عربي: النظرية والمجالات، تأليف سليمان العطار، دار الثقافة-القاهرة، ١٩٩١
٦٣.	دراسة في التجربة الصوفية، نهاد خياطة، دار المعرفة-بيروت، ١٩٩٤.
٦٤.	ديوان ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق، تحقيق ودراسة نقدية محمد علم الدين الشقيري، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية-القاهرة، ١٩٩٥.
٦٥.	رحمه من الرحمن في تفسير وإشارات القرآن من كلام الشيخ الأكبر محيي الدين إبن العربي، جمع وتأليف محمود محمود الغراب، على هامشه إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن لابن العربي، مطبعة نضر-دمشق، ١٩٨٩.
٦٦.	الروحية عند محيى الدين ابن عربي، علي عبد الجليل راضي، مكتبة النهضة المصريه-القاهرة، ١٩٧٠.
٦٧.	شرح المشاهد القدسية، ست عجم بنت النفيس، تحقيق بكري علاء الدين وسعاد الحكيم، المعهد العلمي الفرنسي للراسات العربية-دمشق، ٢٠٠٤
٦٨.	شرح عبد الرزاق الكاشاني على فصوص الحكم، مكتبة و مطبعة مصطفى البابي الحلبي-القاهرة، ١٩٨٧.
٦٩.	شرح فصوص الحكم لابن العربي، تأليف مصطفى الحنفي، وضع فادي نصيف، دار الكتب العلمية-بيروت، ٢٠٠٢.
٧٠.	شرح مشكلات الفتوحات المكية لابن عربي، تأليف عبد الكريم الجيلي، تحقيق يوسف زيدان، دار سعاد الصباح-الكويت، ١٩٩٢.
٧١.	الشيخ الأكبر ابن عربي: صاحب الفتوحات المكية، بقلم محمد إبراهيم الفيومي، الدار المصرية اللبنانية-القاهرة، ١٩٩٨.
٧٢.	الطور الأغلى في شرح الدور الأعلى، مكتبة السرجاني، القاهرة، د.ت..
٧٣.	فلسفة التأويل: دراسة في تأويل القرآن عند محيي الدين بن عربي، نصر حامد أبو زيد، دار التنوير للطباعة والنشر-بيروت، ١٩٩٣.
٧٤.	فلسفة التأويل: دراسة في تأويل القرآن عند محيي الدين بن عربي، نصر حامد أبو زيد، دار الوحدة-بيروت، ١٩٨٣.
٧٥.	الفناء والحب الإلهي عند ابن عربي، أحمد محمود الجزار، مكتبة نهضة الشرق-القاهرة، ١٩٩٠.
٧٦.	الكتاب التذكاري: محيي الدين بن عربي في الذكرى المئوية الثامنة لميلاده، ١١٦٥-١٢٤٠م، أشرف عليه وقدم له إبراهيم بيومي مدكور، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر-القاهرة، ١٣٨٩ هجرية ١٩٦٩.
٧٧.	كتاب الفتوحات المكية وما وراءه من أباد خفية، كمال أحمد عون، دار البشير-طنطا، ١٩٨٩.
٧٨.	مؤلفات ابن عربي تاريخها وتصنيفها، تأليف عثمان يحيى، ترجمة أحمد الطيبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب-القاهرة، ٢٠٠١.
٧٩.	محيي الدين ابن عربي: حياته مذهبه زهده، فاروق عبد المعطي، دار الكتب العلمية-بيروت، ١٩٩٣. (مسروق، نسخة من كتاب بلاثيوس، انظر مقدمة هذا الكتاب)
٨٠.	مدرسة ابن عربي الصوفية، تأليف محمد الإدريسي، دار الثقافة-الدار البيضاء، ١٩٩٨.
٨١.	المعجم الصوفي (الحكمة في حدود الكلمة)، سعاد الحكيم، دندرة-بيروت، ١٩٨١.
٨٢.	المغايرة اللغوية في الفتوحات المكية، عبد الوهاب أمين، دار المعارف-القاهرة، ١٩٩٥
٨٣.	الولاية والنبوة عند الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي، تأليف علي شود كيفيتش، ترجمه من الفرنسية وقدم له أحمد الطيب، دار الشروق-القاهرة، ٢٠٠٤.
٨٤.	اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر، عبد الوهاب الشعراني، مصطفى بابي الحلبي-القاهرة، ١٩٥٩.

الجدول الثالث: دراسات حول الشيخ محيي الدين ابن العربي بلغات أخرى	الرقم
Abû-l-'alâ' E. Affifi, The Mystical Philosophy of Muhyid Din-Ibn'ul Arabi (Cambridge: Cambridge University Press, 1938).	.٨٥
Abû-l-'alâ' E. Affifi, The Twenty-nine Pages: An Introduction to Ibn 'Arabi's Metaphysics of Unity (Cambridge: Beshara Publications, 1998).	.٨٦
Aisha A. Bewley, trans., Ibn 'Arabi: The Mysteries of Bearing Witness to the Oneness of God and Prophet-hood of Muhammad (Chicago: Kazi Publications, 2002).	.٨٧
Alexander D. Knysh, Ibn 'Arabī in the Later Islamic Tradition: The Making of a Polemical Image in Medieval Islam (Albany, NY: SUNY Press, 1999).	.٨٨
Annemarie Schimmel, Mystical Dimensions of Islam (Chapel Hill: The University of N. Carolina, 1975).	.٨٩
Annemarie Schimmel, The Mystery of Numbers (Oxford: Oxford University Press. 1993).	.٩٠
Claude Addas, Ibn 'Arabi ou La quête du Soufre Rouge (Paris: Gallimard, 1985); trans. P. Kingsley, Quest for Red Sulphur: The Life of Ibn 'Arabi (Cambridge: Islamic Texts Society, 1993).	.٩١
Denis Gril, Le dévoilement des effets du voyage Ibn Arabî (Combas: Éditions de l'Éclat, 1994) Translation into French of Ibn 'Arabi's Kitâb al-Isfâr 'an Natâ'ij al-Asfâr, with introduction.	.٩٢
Gerald T. Elmore, Ibn al-'Arabi's Book of 'the Fabulous Gryphon' ('Anqâ al-Mughrib)', The Journal of the Muhyiddin Ibn 'Arabi Society, Volume XXV, 1999.	.٩٣
Henry Corbin, Alone with the Alone: Creative Imagination in the Sufism of Ibn 'Arabi (Princeton: Bollingen, 1969).	.٩٤
Ibn 'Arabi, Journey to the Lord of Power: A Sufi manual on retreat; Harris, R.T., trans., with notes from commentary of 'A. K. Jili, (Rochester, VT: Inner Traditions International, 1989).	.٩٥
Ibn 'Arabi, The Meccan Revelations, Volume I, ed. M. Chodkiewicz, trans. W. Chittick, and J. W. Morris (New York: Pir Press, 2002).	.٩٦
Ibn 'Arabi, The Meccan Revelations, Volume II, ed. M. Chodkiewicz, trans. C. Chodkiewicz and D. Gril (New York: Pir Press, 2004).	.٩٧
Ibn 'Arabi, The Mysteries of Bearing Witness to the Oneness of God and Prophet-hood of Muhammad, trans. Aisha A. Bewley, ed. Laleh Bakhtiar, (Chicago: Kazi Publications, 2002).	.٩٨
Ibn 'Arabi, The Wisdom of the Prophets (Fusus al-Hikam), translated from Arabic to French with notes by Titus Burckhardt; translated from French to English by Angela Culme-Seymour (New Delhi: TAJ company, revised edition 1984).	.٩٩
Ibn 'Arabi, The Wisdom of the Prophets (Fusus al-Hikam), translated from Arabic into French with notes by Titus Burckhardt; translated from French into English by: Angela Culme-Seymour (TAJ company: New Delhi, revised edition 1984).	.١٠٠
Michel Chodkiewicz, trans. D. Streight, An Ocean Without Shore (Albany, NY: State University of New York Press, 1993).	.١٠١
Osman Yahya, Histoire et Classification de l'oeuvre d'Ibn 'Arabī (Damascus, 1964).	.١٠٢
Ralph J. Austin trans., The Bezels of Wisdom (New York: Paulist Press, 1980), translation and introduction by Ralph Austin and preface by Titus Burckhardt.	.١٠٣
S. Abdul Qadir Husaini, Ibn al-'Arabi: The Great Muslim Mystic and Thinker (Sh. Muhammad Ashraf: Lahore, Pakistan, 1996).	.١٠٤
S. Abdul Qadir Husaini, The Pantheistic Monism of Ibn al-'Arabi (Lahore, Pakistan: Sh. Muhammad Ashraf, 1979, second ed.).	.١٠٥
Stephen Hirtenstein ed.: Foundations of the spiritual life according to Ibn 'Arabī: Prayer & contemplation (San Francisco: Muhyiddin Ibn 'Arabi Society, 1997).	.١٠٦
Stephen Hirtenstein, The Unlimited Mercifier, The Spiritual Life and Thought of Ibn 'Arabī (Oxford: Anqa, 1999).	.١٠٧
Sufis of Andalusia, Ralph J. Austin (London: George Allen & Unwin, 1971).	.١٠٨
The Seal of the Saints: Prophethood and Sainthood in the Doctrine of Ibn Arabi, by Michel Chodkiewicz, (Cambridge: Islamic Texts Society, 1993).	.١٠٩
Titus Burkhardt, Mystical Astrology according to Ibn 'Arabi (Clef spirituelle de l'astrologie musulmane d'après Mohyi-d-din Ibn 'Arabī), trans. Bulent Rauf (French, 1950; English, Abingdon: Beshara Publications, 1977).	.١١٠
Toshihiko Izutsu, Sufism and Taoism (Los Angeles: University of California Press, 1983).	.١١١
William C. Chittick, Ibn 'Arabi, in Seyyed H. Nasr and O. Leaman (eds.) History of Islamic Philosophy (London: Routledge, 1996).	.١١٢

الرقم	الجدول الثالث: دراسات حول الشيخ محيي الدين ابن العربي بلغات أخرى
١١٣.	William C. Chittick, The School of Ibn 'Arabi', in History of Islamic Philosophy, S.H. Nasr and O. Leaman (eds.) (London: Routledge, 1996).
١١٤.	William C. Chittick, The Self-disclosure of God: Principles of Ibn al-Arabi's Cosmology (Albany, NY: SUNY Press, 1998).
١١٥.	William C. Chittick, The Sufi Path of Knowledge: Ibn al-'Arabi's Metaphysics of Imagination (Albany, NY: SUNY Press, 1989).

الرقم	الجدول الرابع: مراجع تاريخية وفكرية أخرى
١١٦.	آثار البلاد وأخبار العباد، تصنيف زكريا بن محمد بن محمود القزويني، دار صادر-بيروت، ١٩٦٠.
١١٧.	إحياء علوم الدين، تصنيف أبي حامد بن محمد الغزالي، وبهامشه تخريج الحافظ العراقي، وبذيله كتاب الإملاء في إشكالات الإحياء، للغزالي، وكتاب تعريف الأحياء بفضائل الإحياء، للعيدروس: دار الفكر-بيروت، ١٩٧٥.
١١٨.	آدم ميتز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، نقلها إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريده، دار الكتاب العربي-بيروت، ١٩٦٧.
١١٩.	آراء أهل المدينة الفاضلة، تأليف أبو نصر الفارابي، تعليق ألبير نادر، دار المشرق-بيروت، ١٩٩١.
١٢٠.	أزهار الرياض في أخبار عياض، تأليف شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، ضبطه وحققه مصطفى السقا، المعهد الخليفي للأبحاث المغربية-القاهرة، ١٩٣٩.
١٢١.	الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لأبي عمر يوسف بن عبد البر المعروف بابن عبد البر النمري، دار نهضة مصر للطبع و النشر-القاهرة، ١٩٨٠.
١٢٢.	أسد الغابة في معرفة الصحابة، عز الدين بن الأثير أبي الحسن علي بن محمد الجزري، تحقيق وتعليق محمد إبراهيم البنا ومحمد أحمد عاشور ومحمود عبد الوهاب فايد، دار الشعب-القاهرة، ١٩٧٠.
١٢٣.	أضواء جديدة على المرابطين، تأليف عصمت عبد اللطيف دندش، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩١.
١٢٤.	الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين)، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين-بيروت، ١٩٩٠.
١٢٥.	الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية، عمر بن علي بن موسى البزار، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي-بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٠.
١٢٦.	الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى و الأنساب: علي بن هبة الله ابن ماكولا، اعتنى بتصحيحه و التعليق عليه عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، دار الكتاب الإسلامي-بيروت، ١٩٦٢-١٩٦٧.
١٢٧.	الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين: عصر الطوائف الثاني ٥١٠-١١١٦/٥٤٦-١١٥١، تأليف عصمت عبد اللطيف دندش، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٨.
١٢٨.	الأنساب، الإمام أبي سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني، تقديم و تعليق عبد الله عمر البارودي، دار الجنان-بيروت، ١٩٨٨.
١٢٩.	الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل، تأليف الشيخ عبد الكريم بن إبراهيم الجيلي، تحقيق أبو عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضة، دار الكتب العلمية-بيروت، ١٩٩٨.
١٣٠.	الأوامر العلائية في الأمور العلائية، تأليف ابن بابي، طبع في تركيا سنة ١٩٥٦.
١٣١.	بدائع السلك في طبائع الملك، أبو عبد الله محمد بن الأزرق الأندلسي، دراسة وتحقيق محمد بن عبد الكريم، الدار العربية للكتاب، ١٩٧٧، (جزئين)
١٣٢.	بدائع الفوائد، لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر المشتهر بابن قيم الجوزية، اعتنى بتصحيحه إدارة الطباعة المنيرية، دارالكتاب العربي-بيروت، ١٩٧٠.

الرقم	الجدول الرابع: مراجع تاريخية وفكرية أخرى
١٣٣.	البداية والنهاية، الحافظ ابن كثير الدمشقي، ضبطت وصححت هذه الطبعة على عدة نسخ و ذيلت بشروح قامت بها هيئة بإشراف الناشر دار ابن كثير، دار ابن كثير-بيروت، ١٩٦٥.
١٣٤.	البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، لمحمد بن علي الشوكاني، دار المعرفة-بيروت، ١٩٧٨، (جزئين)
١٣٥.	بونابي الطاهر، الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرنين السادس والسابع الهجريين، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، قسم التاريخ، ١٩٩٩-٢٠٠٠.
١٣٦.	تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، للحافظ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي-بيروت، ١٩٨٩.
١٣٧.	تاريخ العلامة ابن خلدون (المسمى: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)، العلامة عبد الرحمن بن خلدون المغربي، دار الكتاب المصري-القاهرة، ١٩٩٩.
١٣٨.	تجريد التحقيق حول الفقيه المقدم وسند الخرقة والطريق، تأليف السيد حسن بن أحمد بن محمد العيدروس باعلوي، حضرموت، كتاب منشور على الانترنت (www.shiahdarm.net/books/el_faqih/fehrest.htm).
١٣٩.	تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، أبي العلاء محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، دار الكتب العلمية-بيروت، ١٩٩٠.
١٤٠.	تراجم رجال القرنين السادس والسابع (المعروف بالذيل على الروضتين)، شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة المقدسي الدمشقي، عرّف الكتاب وترجم للمؤلف وصححه محمد زاهد بن الحسن الكوثري، عني بنشره وراجع أصله ووقف على طبعه عزت العطار الحسيني، دار الجيل-بيروت، ١٩٧٤.
١٤١.	ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تأليف القاضي عياض بن موسى بن عياض السبتي، تحقيق محمد بن تاوت الطنجي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية-الرباط، ١٩٨٣.
١٤٢.	التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، أبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي (المعروف بابن الزيات)، تحقيق أحمد التوفيق، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية-الرباط، ١٩٨٤.
١٤٣.	التكملة لكتاب الصلة، لابن الأبار، تحقيق إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري-القاهرة، دار الكتاب اللبناني-بيروت، ١٩٨٩.
١٤٤.	التكملة لوفيات النقلة، تأليف زكي الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، حققه و علق عليه بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة-بيروت، ١٩٨١.
١٤٥.	الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، الإمام جلال الدين بن أبي بكر السيوطي-بيروت، لبنان : دار الكتب العلمية، ١٩٩٠.
١٤٦.	جامع كرامات الأولياء، تأليف يوسف بن إسماعيل النبهاني، تحقيق ومراجعة إبراهيم عطوة عوض، المكتبة الثقافية-بيروت، ١٩٩١. (مجلدين)
١٤٧.	جمهرة أنساب العرب، أبي محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي، تحقيق و تعليق عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية-بيروت، ١٩٨٣.
١٤٨.	الحبائك في أخبار الملائك، الحافظ الشيخ جلال الدين السيوطي، دار التقريب-القاهرة.
١٤٩.	حكايتنا في الأندلس، للمؤلف عدنان عنتاوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٥.
١٥٠.	الحكم العطائية: شرح وتحليل، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر-دمشق، ٢٠٠٣
١٥١.	حلية الأولياء و طبقات الأصفياء، للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، دار الكتاب العربي-بيروت، ١٩٨٠.
١٥٢.	خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، محمد المحبي، دار صادر-بيروت، ١٩٨٠. (٤ أجزاء)
١٥٣.	دولة الإسلام في الأندلس (عصر المرابطين والموحدين)، محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٤.
١٥٤.	الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، ابن فرحون المالكي، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث-القاهرة، ١٩٧٢.
١٥٥.	الذيل والتكملة على كتاب الموصول والصلة، لابن عبد الملك المراكشي، أكاديمية المملكة المغربية-المغرب، ١٩٨٤.

الرقم	الجدول الرابع: مراجع تاريخية وفكرية أخرى
١٥٦.	الروض المعطار في خبر الأقطار: معجم جغرافي مع فهارس شاملة، تأليف محمد بن عبد المنعم الحميري، حققه إحسان عباس، مكتبة لبنان-بيروت، ١٩٨٤.
١٥٧.	روضات الجنات في أحوال العلماء و السادات للعلامة الشيخ محمد باقر الموسوي الخوانساري، الدار الإسلامية-طهران، (٨ مجلدات)
١٥٨.	الرياض النضرة في مناقب العشرة، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: عيسى بن عبج الله بن محمد بن مانع الحميري، دار الكتب العلمية-بيروت، ١٩٩٦.
١٥٩.	سر الأسرار أو السياسة والفراسة في تدبير الرئاسة ويليه رسالة الإسكندر الى أرسطاطاليس، تأليف الحكيم أرسطاطاليس وترجمة يوحنا بن البطريق، تحقيق أحمد فريد المزيدي، الناشر: دار الكتب العلمية-بيروت، ٢٠٠٤.
١٦٠.	سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف-الرياض، ١٩٩٢.
١٦١.	سنن أبي داود، الإمام الحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية-بيروت، ١٩٧٠.
١٦٢.	سير أعلام النبلاء، تصنيف الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، حقق نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه شعيب الأرنؤوط وحسين الأسد، مؤسسة الرسالة-بيروت،١٩٨١-١٩٨٦، (١٠ أجزاء)
١٦٣.	سير أعلام النبلاء، تصنيف الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، حقق نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه شعيب الأرنؤوط وحسين الأسد، مؤسسة الرسالة-بيروت، ١٩٨١-١٩٨٦.
١٦٤.	شذرات الذهب في أخبار من ذهب، أبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي، دار المسيرة-بيروت، ١٩٧٩، (٨ أجزاء)
١٦٥.	شعر أبي مدين التلمساني (الرؤيا و التشكيل)، أ. د. مختار حبار، دراسة - من منشورات اتحاد الكتاب العرب-دمشق، ٢٠٠٢.
١٦٦.	الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، تأليف طاشكبري زاده (و يليه العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم) ، دار الكتاب العربي-بيروت، ١٩٧٥.
١٦٧.	صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تأليف أبي العباس أحمد بن علي القلقشندي، مركز تحقيق التراث-القاهرة، ١٩٨٥، (١٤ جزء)
١٦٨.	صحيح البخاري، وهو: الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وسننه وأيامه، للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير اليمامة-بيروت، ١٩٨٦.
١٦٩.	صحيح مسلم، للإمام أبي الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، وقف على طبعه وتحقيق نصوصه وتصحيحه وترقيمه محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث-بيروت، دار الكتب العلمية-بيروت، دار إحياء الكتب العربية-القاهرة، ١٩٩٢.
١٧٠.	الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، تأليف محمد بن عبد الرحمن السخاوي، دار مكتبة الحياة-بيروت، ١٩٦٦، (١٢ جزءً في ٦ مجلدات)
١٧١.	طبقات الأولياء، لابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد المصري، حققه وخرجه نور الدين شريبه، مكتبة الخانجي-مصر، ١٩٧٣.
١٧٢.	طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، محمود محمد الطناحي، مطبعة البابي الحلبي-القاهرة، ١٩٦٤-١٩٧٩، (١٠ أجزاء)
١٧٣.	الطبقات الكبرى، عبد الوهاب بن أحمد الشعراني، دار الفكر العربي-القاهرة، ١٩٧٠.
١٧٤.	الطبقات الكبرى، لابن سعد، دار بيروت للطباعة والنشر-بيروت، ١٩٨٥.
١٧٥.	طبقات المفسرين، تصنيف الحافظ شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الداودي، راجع النسخة و ضبط أعلامها لجنة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية-بيروت، ١٩٩٠، (جزئين)
١٧٦.	طبقات المفسرين، للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، بتحقيق علي محمد عمر، مكتبة وهبة-القاهرة، ١٩٧٦.
١٧٧.	ظُهر الإسلام، أحمد أمين، مكتبة النهضة المصري-القاهرة، ١٩٨٢.
١٧٨.	غاية النهاية في طبقات القراء، شمس الدين أبي الخير محمد بن محمد بن الجزري، عني بنشره ج. برجستراسر، مكتبة

الرقم	الجدول الرابع: مراجع تاريخية وفكرية أخرى
	الخانجي–القاهرة، ١٩٣٤، (جزئين)
١٧٩.	الفتاوى الحديثية، تأليف أحمد شهاب الدين بن حجر الهيتمي المكي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي–القاهرة، ١٩٧٠.
١٨٠.	فجر الأندلس، حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة والنشر–القاهرة، ١٩٥٩.
١٨١.	فوات الوفيات والذيل عليها، محمد ابن شاكر الكتبي، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة–بيروت، ١٩٧٤، (٥ أجزاء)
١٨٢.	كتاب الإيمان، ابن تيمية، طبعة المكتب الإسلامي–دمشق، الطبعة الثالثة، ١٩٨٨.
١٨٣.	كتاب الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، تصنيف ابن قيم الجوزيه، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه وقدم له علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمه–الرياض، ١٩٨٨.
١٨٤.	كتاب المواقف للأمير عبد القادر بن محيي الدين بن مصطفى الجزائري الحسني، دار اليقظة العربية–دمشق، ١٩٦٦.
١٨٥.	كتاب الوافي بالوفيات، تأليف صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، باعتناء هلموت، فرانز شتاينر–ريتر فيسبادن (ألمانيا)، ١٩٦٢–١٩٩١، (١٠ أجزاء)
١٨٦.	كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، دار الكتب العلمية–بيروت، ١٩٨٨.
١٨٧.	كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، العلامة المولى مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الرومي الحنفي الشهير بالملا كاتب الجلبي والمعروف بحاجي خليفة، دار الكتب العلمية–بيروت، ١٩٩٢، (٦ أجزاء)
١٨٨.	كنز العمال في سنن الأقوال و الأفعال، للعلامة علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي البرهان فوري، ضبطه وفسر غريبه بكري حياني، صححه ووضع فهارسه ومفتاحه صفوة السقا، مؤسسة الرسالة–بيروت، ١٩٧٩–١٩٨٦.
١٨٩.	الكنى والألقاب، للشيخ عباس القمي، مطبعة العرفان–صيدا، ١٩٣٩.
١٩٠.	الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، للشيخ نجم الدين الغزي، حققه وضبط نصه جبرائيل سليمان جبور، دار الآفاق الجديدة–بيروت، ١٩٧٩، (٣ أجزاء)
١٩١.	لسان الميزان، لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، اعتنى به عبد الفتاح أبو غدة، اعتنى بإخراجه وطباعته سلمان عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية–بيروت، ٢٠٠٢.
١٩٢.	لسان الميزان، لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، اعتنى به عبد الفتاح أبو غدة، اعتنى بإخراجه وطباعته سلمان عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية–بيروت، ٢٠٠٢.
١٩٣.	لمحات من التصوف وتاريخه، تأليف السائح علي حسين، منشورات كلية الدعوة الإسلامية.
١٩٤.	مجمع الزوائد و منبع الفوائد، للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، حققه و خرّج أحاديثه حسن سليم أسد الداراني، دار المأمون–دمشق، ١٩٩١.
١٩٥.	مجموع فتاوى ابن تيمية، تقي الدين ابن تيمية، مجمع الملك فهد–الرياض، ١٩٩٥، ٣٧ جزءً.
١٩٦.	مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، ابن قيم الجوزيه، اختصره محمد بن الموصلي، مكتبة الرياض الحديثة–الرياض، ١٩٧٠.
١٩٧.	المختصر المحتاج إليه من تاريخ الحافظ أبي عبد الله محمد بن سعيد بن محمد ابن الدبيثي، تحقيق د. مصطفى جواد، مطبعة المعارف–بغداد، ١٩٥١.
١٩٨.	مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، للإمام محمد بن مكرم المعروف بابن منظور، تحقيق روحية النحاس ورياض عبد الحميد مراد ومحمد مطيع الحافظ، دار الفكر–دمشق، ١٩٨٤.
١٩٩.	مرآة الجنان وعبرة اليقظان، عبد الله بن أسعد اليافعي، وضع الحواشي: خليل عمران المنصور، دار الكتب العلمية–بيروت، ١٩٩٧، (٤ أجزاء)
٢٠٠.	المستدرك على الصحيحين في الحديث، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق مصطفى عبد القادر، دار

الرقم	الجدول الرابع: مراجع تاريخية وفكرية أخرى
	الكتب العلمية-بيروت، ١٩٩٠.
٢٠١.	معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تأليف أبو زيد عبد الرحمان الدباغ، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور ومحمد منصور، مكتبة الخانجي-القاهرة، ١٩٧٢.
٢٠٢.	المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تأليف عبد الواحد علي المراكشي (توفي ١٢٤٩/٦٤٧)، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، ط٧، الدار البيضاء، ١٩٧٨.
٢٠٣.	معجم البلدان، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية-بيروت، ١٩٩٠.
٢٠٤.	المعجم الكبير، أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية-بغداد، مطبعة الزهراء الحديثة-الموصل، ١٩٨٣.
٢٠٥.	معجم المؤلفين (تراجم مصنفي الكتب العربية)، تأليف عمر رضا كحالة، المكتبة العربية-دمشق، ١٩٥٧-١٩٦١.
٢٠٦.	الموحدون في الغرب الإسلامي (تنظيماتهم ونظمهم)، تأليف عز الدين عمر موسى، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩١.
٢٠٧.	النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تأليف جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر-القاهرة، ١٩٦٣.
٢٠٨.	نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تأليف أحمد بن محمد المقري، تحقيق إحسان عباس، دار صادر-بيروت، ١٩٦٨.
٢٠٩.	نهاية الأرب في فنون الأدب، تأليف شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر-القاهرة، ١٩٦٤.
٢١٠.	هدية العارفين، إسماعيل باشا البغدادي، دار إحياء التراث العربي-بيروت، ١٩٥١.
٢١١.	الوفيات (معجم زمني للصحابة وأعلام المحدثين والفقهاء والمؤلفين من سنة ١١-٨٠٧ هجرية)، لأبي العباس أحمد بن حسن بن علي ابن الخطيب الشهير بابن قنفذ القسطيني، حققه و علق عليه عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة-بيروت، ١٩٨٣.
٢١٢.	وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، حققه إحسان عباس، دار صادر-بيروت، ١٩٦٩-١٩٧٧.
٢١٣.	وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، حققه إحسان عباس، دار صادر-بيروت، ١٩٧٧.

المحتويات

الفَصلُ الثَّالِث... الضُحَى

٥٨٩/١١٩٢-٥٩٧/١٢٠٠

تنقله بين مدن المغرب والأندلس

الفَصلُ الرّابع... الظّهر

٥٩٧/١٢٠٠-٦٠٠/١٢٠٣

سفره إلى المشرق بقصد الحج وإقامته في مكة

الحمد لله قد تم هذا الكتاب

والصلاة والسلام على سيِّدنا محمَّد

وعلى آله والأصحاب